«إنّ قراءة بانفيل مُتعة حِسيّة»

إدوارد سعِيد



جون بانفيل

المُحَصَّن

ترجمة عهد صبيحة

جون بانفيل



ترجمة: عهد صبيحة

المحصّن

تأليف: جون بانفيل
ترجمة: عهد صبيحة

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-46-806-6



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2022

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع: MC-02-01-2641403
التصنيف العمري: +17



إلى كولم ودوغلاس

الأوَّل

اليوم الأوَّل من الحياة الجديدة. إنَّه لأمر غريب جدّاً؛ أن أشعر بأنّني في حال متقلِّبة طوال اليوم؛ منهك، لكنِّي شديد الانفعال على الرغم من ذلك، مثل ولدٍ في نهاية حفلٍ. مثل ولد، نعم: كما لو كنتُ أعاني نوعاً غريباً من ولادة جديدة. لكنِّي أدركت، هذا الصباح، لأوَّل مرَّة، أنَّني رجل عجوز. كنت أقطع شارع غوار، مكاني المفضَّل السابق. حدثَ عن الطريق، وأعاقني شيء ما. يا لهذا الإحساس الغريب، كأنَّ الهواء، حول عقبيّ، أصابه خلل، وبدا- ما الكلمة المناسبة: لزجاً؟- وصار يقاومني حتَّى كدت أتعثَّر. تحرَّكت أمامي حافلة يقودها رجل أسود مبتسم. ماذا شاهَد؟ زوجَ صنادل، معطفاً واقياً من المطر، حقيبتي الخيطيَّة العتيقة، عينين رطبتين يملؤهما الخوف. لو دُهستُ الآن لقالوا إنَّها حالة انتحار، وعمَّ الارتياحُ الأجواء. لكنَّني، لن أمنحهم هذا الارتياح. سأبلغ الثانية والسبعين هذا العام. أمر لا يصدَّق. في الداخل هي اثنتان وعشرون سنة أبديَّة، وأفترض أنَّ هذه هي الحال بالنسبة لعمر أيِّ واحد. الجوُّ بارد للغاية.

لم أحتفظ بصحيفة من قبل. الخوف من التورُّط في جريمة. لا تترك شيئاً مكتوباً، كما كان بوي يقول دائماً، لكن لَم بدأتُ الآن؟ للتوِّ جلست، وبدأت الكتابة، كما لو كان الأمر الأكثر طبيعيَّة في العالم، وهو بالطبع ليس كذلك. وصيَّتي الأخيرة. إنَّه الشفق، وكلُّ شيء هادئ جدّاً، وشجيّ. الأشجار في الساحة تقطر، وصوت زقزقة العصافير باهت. إبريل. أنا لا أُحبُّ فصل

الربيع، ثورته واهتياجه؛ أخاف ذاك الهيجان المؤلم في القلب، وما يمكن أن يفعل بي. ما كان قد فعل بي: على المرء، في عمري، أن يكون دقيقاً في استخدام زمن الفعل. أفتقد أولادي. يا إلهي، من أين جاء هذا؟ إنَّهم أبعد ما يكونوا عن أولاد. لا بدّ أنّ جوليان -حسناً، لا بدَّ أنَّه بلغ الأربعين هذا العام، الأمر الذي يجعل بلانش في الثامنة والثلاثين، أليس كذلك؟ مقارنة بهما أبدو كأنِّي كدت لم أكبر. كتب أودين[1] في مكان ما أنَّه لا يهمُّ كم يكون عمر صاحبك، فهو مقتنع دائماً بأنَّه الأصغر في الغرفة، وأنا كذلك. بالرغم من ذلك فكَّرت في أنَّهما ربَّما كانا قد اتَّصلا. نشعر بالأسف لسماعنا عن غدرك، بابا. لكنَّني لست متأكِّداً على الإطلاق من أنَّني أريد سماع بلانش وهي تشهق، وجوليان وهو يزمُّ شفتيه في وجهي ممتعضاً. ابنُ أمِّه. أفترض أنَّ كلَّ الآباء يقولون ذلك.

يجب ألّا أهذي.

شعور الخزي في العلن أمر غريب. شعور باختلاج في منطقة الحجاب الحاجز، ونوع من الخفقان في كلِّ مكان، كأنَّ الدّم زئبق ينزلق ثقيلاً، تماماً تحت الجلد. إثارة مختلطة مع خوف تنتج عنها ثمالة. بادئ الأمر لم أستطع التفكير في ما تذكِّرني هذه الحالة، ثمَّ لاحت لي: ليالي التجوال الأولى تلك بعد أن اعترفتُ أخيراً لنفسي أنَّ ما أرغب فيه هو أبناء جنسي. رعشة الترقُّب الممزوجة بالخوف نفسها، الابتسامة البائسة نفسها التي تحاول عدم الظهور. الإرادة في أن يُقبض عليَّ. أن يُهجم عليَّ، أن أُعامَل بخشونة. حسناً، تجاوزت كلَّ هذا الآن، كلَّ شيء في الماضي، حقّاً. ثمَّة قطعة من سماء زرقاء في لوحة

---

(1) ويستون هيو أودين (1907-1973) شاعر بريطانيّ أميركيّ. حصل على جائزة بوليتزر، واشتهر بعلاقاته المثليّة. (م)

بوسان رعاة أركاديا[2]، حيث تقطَّعت السحب في شكل عصفور يطير بسرعة، وهي نقطة المركز السرّيَّة في اللوحة، مركز ثقل اللوحة بالنسبة لي. حينما أتأمَّل في الموت، وأفكِّر فيه بشعور يتضاءل شيئاً فشيئاً في الأيَّام الأخيرة هذه، أجد نفسي ملفوفاً بكفن لونه أبيض مائل إلى لون الزنك كأنِّي شخصيَّة موجودة في لوحات إل غريكو أكثر منها في لوحات بوسان، أصعد إلى الأعلى في عذاب شديد وسط تهليلات وتسابيح أشقُّ غمام سحاب بلون الشاي الذهبيِّ ورأسي يتقدَّمني إلى باحة من سماء زرقاء شفَّافة.

أشعلت المصباح، ضوئيَ الثابت الخفيف. كم يحدِّد، بكلِّ أناقة، هذا الضوء الحدَّ الضيِّق للكرسيِّ، والصفحةَ التي أجد فيهما دائماً سعادتي العميقة، خيمةُ الضوء هذه حيث أربض بسعادة مختبئاً عن العالم، فحتَّى الصور كانت تصوُّراً ذهنيّاً أكثر منها رؤية عين. وهنا كلُّ شيء-

كان ذلك الاتصالُ من كويريل، حسناً، بالتأكيد هو شجاع، سأخبره بذلك. أخافني رنين الهاتف، فأنا لم أعتد قطُّ هذا الجهاز، والطريقة التي يتوضَّع بها، على نحو شرير للغاية، مستعدّاً للبدء بالجعجعة طلباً للانتباه حين لا تكون متوقِّعاً ذلك، مثل طفل غاضب. لا يزال قلبي المسكين يدقُّ على نحو منذر. من حسبتُ أنَّه المتَّصل؟ إنَّه يتَّصل من أنتيب[3]، ظننت أنَّني أستطيع سماع صوت البحر وراءه، وشعرت بالغيرة والانزعاج، لكن على الأرجح كان مجرَّد ضجيج حركة المرور خارج شقَّته على طول الكورنيش، أليس كذلك؟ -أو هل كان مكاناً آخر؟ كان يستمع إلى هيئة الإذاعة البريطانيَّة، فقال «إنَّه أمر مروِّع، أيُّها الرجل العجوز، مروِّع؛ ماذا عساي أقول؟» لم يستطع أن يخفي

---

(2) *Et in Arcadia Ego* لوحة تُظهر رعاة يقفون حول قبر، رسمها بين العامين 1637-38 الرسام الفرنسيّ نيكولا بوسان (1594-1665). (م)

(3) مدينة فرنسيّة على المتوسّط. (م)

الحماس في صوته، وأردف مستفسراً عن التفاصيل «هل كان فعل الجنس ما أدانوك به؟» كم هو مخادع -على الرغم من ضعف إدراكه. هل كان ينبغي لي أن أتحدَّاه، أن أخبره أنَّني أعرف بأمر غدره؟ الأمر الذي هو لبُّ الحكاية. سكراين يقرأ كتبه، إنَّه حقّاً معجب به «كويريل ذاك، الآن» قال وهو يقوم بصفرته الغريبة بطقم أسنانه «لقد عرف كيف يتعامل معنا جميعاً». ليس معي، لم يفعل ذلك، صديقي، ليس معي، على الأقلِّ هذا ما آمله.

لم يتَّصل أحد آخر. حسناً، وأنا كدت أتوقَّع أن يفعل أحد ذلك...

سأفتقد سكراين القديم. لا ضرورة للتعامل معه بعد الآن، كلُّ هذا انتهى، مع كثير من الأشياء الأخرى. ينبغي لي أن أشعر بالراحة، لكن، على نحو غريب، لست كذلك. كنَّا أصبحنا نوعاً من ثنائيٍّ غنائيٍّ، هو وأنا، روتين قاعة الموسيقا. أقول، أقول، أقول، السيِّد سكراين! حسناً، يا للمفاجأة، السيِّد بونز! بعناء كان يشكِّل الصورة الشعبيَّة للمحقِّق، رجل شجاع صغير، برأس مستدقّ، وملامح مصغّرة، وشعر قشّيّ أنيق بنّيّ بلون الحجر. إنَّه يذكّرني بالأب البغيض للعروس الطائشة في أفلام هوليوود الكوميديَّة تلك في سنوات الثلاثينيَّات. عينان زرقاوان، نظرتهما ليست حادَّة، بل هما ضبابيَّتان قليلاً (هل هو إعتام عدسة العين؟)، فردتا الحذاء الإيرلنديِّ اللامعتان، الغليون الذي يلعب به، السترة التويديَّة القديمة مع الرقعتين على المرفقين. شباب دائم. قد يكون عمره بين الخمسين والخامسة والسبعين. ذهن حاذق، على الرغم من ذلك، يمكنك عمليّاً سماع هدير التروس. ذاكرة مذهلة «انتظر لحظةٍ» كان يقول وهو يطعنني بساق غليونه «دعنا نعد النظر في ذلك مرَّة أخرى»، وأنا سأضطرّ إلى فكِّ النسيج الأنيق للكذبات التي كنت غزلتها له، وأبحث بهدوء شديد، كما أفعل دائماً، عن العيب الذي كشفه في النسيج.

في الوقت الحالي أنا أكذب للمرح فحسب، للترويح عن النفس، كما قد تقولون، مثل لاعب تنس محترف قديم يحمِّي قبل المباراة مع متنافس قديم. لم تكن لديَّ مخاوف من أنَّه قد يكتشف عملاً شائناً جديداً -لقد اعترفتُ بكلِّ شيء الآن، أو تقريباً كلَّ شيء- لكن بدا ضروريّاً المحافظة على الاتِّساق، لأسباب جماليَّة، أفترض، ومن أجل أن يكون الأمر متناسقاً كان من الضروريّ التلفيق. ساخر، أعرف ذلك. لديه صلابة التحرِّي: لا يدع أمراً يفلت منه. جاء مباشرة من روايات ديكنز. أتصوَّر، منزلاً صغيراً بقنطرة، في ستبني، أو هاكني، أو في أيِّ مكان يعيش فيه، يكتمل الشهد بزوجة سليطة، وأطفال ممتلئي الخدود. إنَّها نقطة ضعف أخرى لديّ، أرى الناس دائماً كشخصيَّات كاريكاتوريَّة، بل حتَّى نفسي.

ليس الأمر أنَّني أدرك نفسي في النسخة العامَّة عنِّي التي يتمُّ تداولها الآن. كنت أستمع إلى المذياع حين وقفت العزيزة رئيسة الوزراء[4] (أنا حقّاً معجب بها، بحزمها، ثبات أهدافها، وهي جميلة أيضاً، على نحو رجوليٍّ ساحر) في مجلس العموم، وصرَّحت، وللحظة لم أوثِّق اسمي، أعني أنَّني ظننت أنَّها تتحدَّث عن شخص آخر، شخص أعرفه، ليس كثيراً، شخص لم أره منذ وقت طويل. كان إحساساً غريباً. كانت الوكالة قد نبَّهتني بطبيعة الحال إلى ما سيحدث -وقحون على نحو فظيع، الناس الموجودون هناك الآن، ليسوا على الإطلاق الناس الهادئين الذين أصادفهم في حياتي- لكنَّ الأمر لا يزال يشكِّل صدمة. أضف إلى ذلك، أخبار التلفاز في منتصف النهار، كانت لديهم صور مبهمة للغاية لي، لا أعرف كيف جاؤوا بها أو من أين، بل

---

(4) مارغريت ثاتشر (1925-2013) رئيسة وزراء بريطانيا عن حزب المحافظين (1979-1990). اشتهرت بلقب المرأة الحديديّة، فترة رئاستها للحكومة كانت غنيّة بالصراعات السياسيّة داخليّاً وخارجيّاً. (م)

حتَّى لا أتذكَّر أنَّها التُقطت لي. فعل مناسب، ذاك، الذي أُضيف إلى الصورة الفوتوغرافيَّة: المتوحِّشون محقُّون، إنَّها جزء من روح أحد يجري نزعها. كنت أبدو مثل إحدى تلك الجثث المحفوظة التي تمَّ استخراجها من المستنقعات الاسكندنافيَّة، الفكُّ، الحنجرة الوتريَّة، مقلة العين المفتوحة جزئيّاً. أحد الكتّاب، نسيت اسمه، أو قمعت اسمه -«مؤرِّخ معاصر» أيّاً ما كان يعني ذلك- كان بصدد التعرُّف إليَّ، لكنَّ الحكومة تدخَّلت بادئ الأمر فيما يجب أن أقول إنَّه محاولة خرقاء لطمس وجهي، شعرت بالحرج بالنسبة للسيِّدة رئيسة الوزراء، شعرت حقّاً بالحرج. والآن ها أنا ذا، مفضوح من جديد، وبعد كلِّ هذا الوقت، مفضوح! -يا لها من كلمة تجعل المرء يرتعد من سماعها، ويحسُّ أنَّه عارٍ تماماً. أوه، كويريل، كويريل. أعرف أنَّه كان أنت. هذا أمر أنت تفعله عادة، لتسوية دين قديم. أليس ثمَّة نهاية لاضطرابات الحياة؟ باستثناء الواضح منها، أقصد.

ما غرضي هنا؟ ربَّما أسأل، جلست للتوِّ لأكتب، لكنِّي لست مخدوعاً. لم أفعل شيئاً في حياتي لم يكن له غرض، مخفيٌّ في العادة، وأحياناً يكون مخفيّاً حتّى عن نفسي. هل أنا مثل كويريل، أسوّي دَيناً قديماً؟ أو أنَّني عازم على تسويغ أفعالي لألطِّف من خطورة جرائمي؟ آمل أنَّ الأمر ليس كذلك. من ناحية أخرى، لم أرد قطّ أن أفصِّل لنفسي قناعاً لامعاً آخر... وبعد تأمُّلي للحظة، أدرك أنَّ الاستعارة هنا واضحة: الإسناد، التحقُّق، الاستعادة. سوف أزيل طبقة بعد أخرى من الأوساخ -الطلاء بلون الحلوى، والسخام المتراكِم الذي خلَّفه عمر من الادِّعاء- حتَّى أصل إلى الشيء نفسه وأعرفه على حقيقته. روحي. ذاتي (حين أضحك بصوت عالٍ على هذا النحو تبدو الغرفة كأنَّها ترتعش من المفاجأة والرعب، مع يد على الشّفة. لقد عشت هنا

على نحو محتشم، ولا يجب الآن أن أتحوّل إلى هستيريٍّ صيَّاح).

حافظت على هدوئي في مواجهة جماعة جِقْلان الصحافة اليوم. هل مات الرجال بسببك؟ نعم يا عزيزي، تلاشوا تماماً. لكن لا، لا، كنتُ فاتناً، إذا مدحت نفسي. بارد، جامد، متوازن، كلُّ إنش رواقيّ: كوريولانوس[5] مخاطباً العامَّة. أنا ممثّل عظيم، وهذا هو سرُّ نجاحي (ألا يجب على أيِّ أحد يريد تحريك الجمهور أن يكون ممثّلاً يجسد شخصيَّته هو؟ -نيتشه) قمت بدوري على أكمل وجه: سترة هاوندزتوث قديمة لكن جيِّدة، قميص جيرمن ستريت وربطة عنق تشارفيت -حمراء، فقط لأكون مزعجاً- سروال قصير، جوربان بلون العصيدة ونسيجها، وزوج الأحذية اللين المهترئ ذاك الذي لم ألبسه منذ ثلاثين عاماً. قد أكون للتوِّ أتيت من عطلة نهاية الأسبوع في كلايفون، أعبث بفكرة غليون التدخين وفقاً لسكراين، لكن كان ذلك مبالغة، إلى جانب ذلك، يتطلَّب سنين من التدريب لأكون رجل غليون مقبولاً -لا تتبنَّى فعلاً لا يمكنك القيام به على نحو طبيعيٍّ، كان هذا رأياً آخر من آراء بوي. أعتقد أنَّها كانت استراتيجيّة جيِّدة من ناحيتي أن أدعو رجال الصحافة المحترمين إلى منزلي الحبيب. احتشدوا على نحو خجول، والمفكِّرات تصطدم ببعضها وهم يرفعون كاميراتهم لحمايتها فوق رؤوسهم. يُرثى لهم بالأحرى: متلهِّفين للغاية، وتعوزهم المهارة للغاية. شعرت كأنَّني عدت إلى أيَّام المعهد، حين أوشك على تقديم محاضرة. أرخي الستائر يا آنسة توينست، هلَّا فعلتِ؟ وأنت، ستريبلينغ، شغّل الفانوس السحريَّ. اللوحة الأولى: الخيانة في الحديقة.

*

(5) غايوس كوريليانوس قائد أسطوريّ رومانيّ في مسرحيّة مأساويّة (نشرت عام 1623) عنوانها كورليانوس للمسرحيّ الإنكليزيّ شكسبير (1564-1616). (م)

لطالما كان لديَّ شغف خاصٌّ بالحدائق في مرحلة تساقط الأوراق. إنَّ مشهد الطبيعة وهي تنتقم أمر ممتع. ليست وحشيَّتها، بالطبع، فأنا لم أكُن يوماً مؤيِّداً للوحشيَّة إلَّا في مكانها، لكنَّها فوضى عامَّة تدلُّ على ازدراء حقيقيٍّ لتصميم الإنسان على الثقة المفرطة بالترتيب. لستُ مرجعاً حينما يتعلَّق الأمر بالزراعة، وأشبه ذاك الجزَّاز في قصيدة مارفيل «ماور ضدَّ بساتين الورد»[6]. أفكِّر في أنَّه في هذا الوقت، في شفق شهر إبريل الذي تطارده العصافير، شاهدت أوَّل مرَّة القندس[7]، غارقاً في نوم عميق في الأرجوحة الشبكيَّة في البستان المبرقش خلف منزل والده في نورث أكسفورد. كان كالشرنقة. العشب كان قد نما بهمجيَّة، والأشجار تحتاج إلى تقليم. كان الوقت منتصف الصيف، ومع ذلك رأيت أزهار التفّاح تحتشد على الأغصان، هذا كثير جدّاً على قدراتي في الاسترجاع. (يُقال إنّ لديَّ ذاكرة تصويريَّة، مفيدة جدّاً في خطّ عملي؛ بل في خطوط الأعمال الخاصَّة بي). يبدو أيضاً أنَّني أتذكَّر ولداً، صبيّاً متجهِّم الوجه كان يقف على ركبتيه عميقاً هناك في الزرع، يقرع على نبات القرَّاص بعصا، ويراقبني متأمِّلاً من زاوية عينه. من كان يمكن أن يكون؟ تجسيد البراءة، ربَّما (نعم، أنا أخنق صرخة مرح أخرى). مرتجفاً بطبيعة الحال بعد لقاءات منفصلة مع شقيقة القندس المثيرة للأعصاب، وأمِّه المجنونة، شعرت بأنَّني أحمق، ومرتبك هناك، وسوق العشب تمسك ببنطالي، ونحلة عدوانيَّة عاشقة لزيت شعري تطير على نحو متعرّج حول رأسي. كنت أتأبَّط مخطوطة تحت ذراعي -شيء جدّيّ عن التكعيبيَّة المتأخِّرة، لا شكَّ،

---

(6) في إشارة إلى قصائد الشاعر أندرو مارفيل (1621-1678)، وفيها تخاطب القصيدة المروج التي تنمو على غير رغبة الحبيب. (م)

(7) في كامل الرواية يطلق الراوي اسم القندس على أفراد أسرة ماكس بريفورت؛ ماكس الأب، وزوجه، وابنه نيك، وابنته فيفيين (بيبي). (م)

أو عن جرأة سيزان في موهبة الرسم- وفجأة، هناك في فسحة الغابة الذاخرة تلك، جعلتني فكرة التمييز أضحك ساخراً. ضوء الشمس، سحابات تمضي بسرعة، هبَّ نسيم، والأغصان مالت. نام القندس واضعاً نفسه بين ذراعيه، ووجهه مال إلى جانب واحد يلمع بخصلات سود من شعره علت جبهته. من الواضح أنَّ هذا لم يكن والده الذي جئت لأراه وأكَّدت لي السيِّدة القندس أنَّه نائم في الحديقة. «هذا وقت نومه، كما تعرف» قالت لي، وشخرت كملكة. «هو غافل الآن». رأيتُ هذا إشارة مبشِّرة؛ ففكرة ناشر غافل حالم تناشد إحساسيَ المتطوِّر بالفعل بنفسي بأنِّي عميل. لكنِّي كنت مخطئاً، ماكس بريفورت، المعروف باسم القندس الكبير -لتمييزه عن نيك- سيتَّضح أنَّه مخادع خالٍ من الضمير كأيِّ رجل من أسلافه التجَّار الهولنديِّين.

أغمض عينيَّ الآن، وأشاهد خيط الضوء بين أشجار التُّفاح، والصبيّ الواقف بين الأعشاب الطويلة، وذاك الجميل النائم في أرجوحته الشبكيَّة، والخمسينَ عاماً التي مرَّت بين ذاك اليوم وهذا اليوم كأنَّها لا شيء. كان ذلك في العام 1929، وأنا كنت -نعم- في الثانية والعشرين من عمري.

استيقظ نيك، وابتسم لي وهو يقوم بتلك الحيلة بأن يعبر بسرعة، ودون أيِّ جهد يذكر، من عالَم إلى آخر.

«مارحباً»، قال. مارحباً وليس مرحباً كما كانت عادة الشبّان في تلك الأيَّام. جلس وهو يدوِّر رأسه في الهواء. تمايلت الأرجوحة الشبكيَّة. الولد الصغير، مدمِّر القرَّاص، كان قد رحل. «يا إلهي»، قال نيك «حلمت حلماً غريباً».

رافقني في طريق العودة إلى المنزل. هكذا بدا الأمر: ليس أنَّنا نسير معاً، بل أنَّه منحني رفقته، من أجل جولة قصيرة، تكلِّلها راحة ملكيَّة.

كان يرتدي ثوباً أبيض، ومثلي، كان يحمل شيئاً ما تحت ذراعه، كتاباً، أو صحيفة (كانت الأخبار سيِّئة كلّها، في ذلك الصيف، وتزداد سوءاً)، وطوال مشيه ظلَّ يستدير نحوي من خصره إلى الأعلى، ويومئ بسرعة إلى كلّ شيء أقوله، مبتسماً تارة، وعابساً تارة أخرى.

«أنت الرجل الإيرلنديُّ»، قال «لقد سمعت بك، ووالدي يعتقد أنَّ مقالاتك جميلة جدّاً». نظر إليّ بجدِّيّة «هو حقّاً، يعتقد ذلك». غمغمت بشيء كان المقصود منه إظهار التواضع، وأشحت بوجهي بعيداً. ما رآه في وجهي لم يكن ارتياباً، بل كآبة لحظيَّة: الرجل الإيرلنديّ.

كان المنزل من الطراز الباروكيّ. ليس كبيراً، لكنَّه فخم إلى حدٍّ ما، وتعتني به السيِّدة ب. بترف قذر: الكثير من الحرير المهترئ، وموادّ يفترض أنَّها ذات قيمة عظيمة -القندس الكبير كان جامعاً للتماثيل المصنوعة من الأحجار الكريمة- وتعبق في المكان رائحة خاصَّة ببخُّور محترق. السباكة كانت بدائيَّة، وكان ثمَّة مرحاض مغلق تحت السقف حينما يجري ماؤه يحدث ضجيجاً مخنوقاً رهيباً، مثل حشرجة موت رجل عملاق، يمكن سماعها على الفور على نحو محرج في جميع أنحاء المنزل. إلّا أنَّ الضوء كان يعمُّ الغرف، ودائماً هناك زهور قُصَّت للتوِّ، والجوُّ يعبق بشيء ما، مكبوت على نحو مخيف، كأنَّه، في أيِّ لحظة، ستبدأ أكثر اللحظات إدهاشاً. كانت السيِّدة بريفورت امرأة ضخمة، لديها انحناءة، متغطرسة وسريعة الاهتياج، مولعة بالسهرات، وبالروحانيَّة المعتدلة. عزفت على البيانو -كانت قد تدرَّبت على يدَي أحد ما مشِهور- مخرجة من الآلة عواصف صوتيَّة، مبهرجة، عظيمة، جعلت عوارض النوافذ تئزُّ. كان نيك يراها سخيفة تماماً، وعلى نحو ما كان يخجل بها. أحبَّتني من أول لقاء، فقد أخبرني نيك، بعد ذلك (كان يكذب، وأنا

كنت متأكِّداً من ذلك) أنَّها وصفتني بأنَّني حسَّاس، كما قال، واعتقدتْ أنَّني يمكن أن أخلق وسطاً مريحاً، لو أحاول فحسب. ذويت أمام قوَّتها، وقسوتها، مثل مركب شراعيٍّ هاجمته مهدِّدةً سفينةُ ركَّاب تعبر المحيط.

«أنت لم تجد ماكس؟» قالت، حين توقَّفت في الممرِّ وهي تمسك بغلَّاية نحاسيَّة في يدها. كانت يهوديَّة على نحو مظلم، تضفر شعرها ضفائر، وتُبرز صدراً مرتفعاً مذهلاً. «الوحش، لا بدَّ أنَّه نسي أنَّك قادم. سأخبره أنَّك جُرحت عميقاً بسبب عدم اكتراثه».

هممت أن أعترض لكنَّ نيك لكزني من ذراعي -بعد نصف قرن لا أزال أتذكَّر شعوري بتلك القبضة، خفيفة لكن ثابتة، مع ما يوحي بوجود رعشة فيها- ثمَّ دفعني إلى غرفة الاستقبال، حيث ألقى نفسه على أريكة منخفضة، وصالب قدميه، ومال إلى الوراء، وحملق في وجهي مع ابتسامة فوريَّة: حالمة ومقصودة. امتدَّت اللحظة، لم يتكلَّم أحدنا، وخيط سميك من ضوء الشمس سقط على ثقَّالة الورق الزجاجيَّة على الطاولة الخفيضة. كانت السيِّدة القندس في الحديقة تسقي نبات الخطمي بخليط تصبُّه من غلَّايتها النحاسيَّة. وموسيقا جاز ضعيفة تصل متحشرجة ومتقطِّعة من الطابق العلويِّ، حيث كانت بيبي، القندس الصغيرة، في غرفة نومها تتدرَّب على خطوات الرقص على صوت الغرامافون (أعلم أنّ هذا ما كانت تفعله، فهذا ما كانت تفعله كلَّ الوقت، بعد ذلك بفترة، بعد زواجنا). وعلى نحو مفاجئ صار نيك يهزُّ نفسه، وينحني إلى الأمام بسرعة، ثمَّ انتزع صندوق السجائر الفضيَّ من على الطاولة، وقدَّمه لي بعد أن فتحه بإبهامه القابض به على الغطاء. تانك اليدان.

«إنَّها مجنونة تماماً، كما تعرف»، قال «أمِّي أقصد. كلُّنا كذلك، في هذه

الأسرة، ستكتشف ذلك».

عمَّ تحدّثنا؟ عن مقالتي، ربَّما. المزايا النسبيَّة لأكسفورد وكِمبريدج. الانقلاب الثامن عشر للويس بونابرت[8]. لا أستطيع التذكُّر. وصل ماكس بريفورت الآن. لا أعرف ما كنت أتوقَّع حينها -الناشر الضاحك، كما أفترض: خدَّان ورديَّان، وشارب كبير، وياقة قميص بيضاء ثلجيَّة- لكنَّه كان طويلاً ونحيلاً وشاحباً، برأس طويل وضيِّق على نحو مدهش، أصلع ولامع في قمَّته. لم يكن يهوديّاً، لكنَّه بدا يهوديّاً أكثر من زوجته. كان يرتدي رداءً صوفيّاً أسود، صدئاً إلى حدّ ما عند الركبتين والمرفقين. حملق فيّ، أو عَبري، بعيني نيك السوداوين الكبيرتين والابتسامة الثابتة الحالمة نفسها، مع أنَّ عينيه كانتا تتميَّزان ببريق. شعرت بالارتباك، وهو، يواصل الكلام، غير مصغٍ، يقول أعرفُ، أعرفُ، ويفرك بكفَّيه البنيَّتين الطويلتين. كم كنَّا كلُّنا نثرثر تلك الأيَّام. حينما أعود بفكري إلى ذاك الزمن، خارج صمت المقبرة هذا، أدرك كمَّ الضجيج المتواصل لأصوات كانت تصرخ وهي تقول أشياء لم يبدُ أنَّ شخصاً على الأقلّ كان ميَّالاً للاستماع إليها. كان عصر البيانات.

«نعم، نعم، مشوِّق جدّاً»، قال القندس الكبير «الشعر رائج هذه الأيَّام».

كانت هناك لحظة صمت، ثمَّ ضحك نيك.

قال: «هو ليس شاعراً، ماكس».

لم أكن من قبل سمعت ابناً يخاطب أباه باسمه الأوَّل. أمعن ماكس بريفورت النظر إليَّ.

«لكِن، بالطبع لستَ كذلك»، قال دون أدنى ارتباك «أنت الناقد الفنيّ»،

---

(8) *The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte* مقالة كتبها كارل ماركس 1851-52 في شهريَّة «دي ريفوليوشن»، وناقشت انقلاب لويس بونابرت في فرنسا، والسلطة الديكتاتوريّة، ونظريّة ماركس في الدولة الرأسماليّة. (م)

وفرك بيديه بشدَّة «شائقٌ جدّاً».

ثمَّ شربنا الشاي، قدَّمته لنا خادمة وقحة، ودخلت السيِّدة القندس قادمة من الحديقة، فأخبرها القندس الكبير عن خطئه حين ظنَّ أنَّني شاعر، وضحك الاثنان من قلبيهما كما لو كانت طرفة رائعة. ورفع نيك حاجبه تعاطفاً معي.

«هل جئت إلى هنا بالسيَّارة؟» سأل بهدوء.

«بالقطار»، قلت.

ابتسمنا، وتبادلنا ما بدا أنَّه نوع من إشارة. المتآمران في طور النشوء.

لـمَّا هممت أن أغادر، كان هو من أخذ مقالتي من يدي، حرّرني منه برويَّة كما لو كان شيئاً مجروحاً يعاني، وقال إنَّه سيحرص على أن يقرأها والده. كانت السيِّدة القندس تتحدَّث عن أعقاب السجائر «ضعها فحسب في مرطبان مربَّى»، قالت «احتفظ بها من أجلي». لا بدَّ أنَّني بدوت مرتبكاً. رفعتِ القدر النحاسيَّة وهزَّتها، مصدرة صوت خشخشة. «من أجل الذبابة الخضراء»، قالت «لا تطيق النيكوتين، كما تعرف». تراجعتُ، وثلاثتهم التصقوا بأماكنهم كأنَّهم ينتظرون تصفيقاً، الوالدان مشرقان، ونيك يبتسم بحزن، وبيبي لا تزال في الطابق العلويِّ، تعزف الجاز، وتتدرَّب على الدخول في الفصل الثاني.

*

إنّه منتصف الليل. استسلمت قدمي للنوم، وكلِّي أمل في أن تحذو بقيَّة أعضائي حذوها. ومع ذلك ليس أمراً بغيضاً أن تكون مستيقظاً على هذا النحو، مستيقظاً ومنبَّهاً، مثل مفترس ليليٍّ، أو أفضل مع ذلك، مثل حارس

مقبرة قبيلتك. كنت أخاف الليل رهبتَه وأحلامَه، لكنِّي بدأت مؤخَّراً أستمتع به، معظم الوقت. شيء ما ناعم، وليِّن يسيطر على العالم حينما يحلُّ الظلام. عند عتبة طفولتي الثانية أعتقد أنَّني أتذكَّر حجرة نومي بدفئها الصوفيّ، وسهراتها وأنا جاحظ عينيَّ واسعاً. حتَّى لـمّا كنت طفلاً صغيراً كنت شخصاً منعزلاً بطبيعة الحال. لم تكن قبلة أمِّي التي أتوق إليها بقدر ما كان خلاصي منها، وبذلك أتمكَّن من البقاء وحيداً مع نفسي، هذا الجسم الغريب، الناعم، المتنفِّس الذي كان وعيي الغائر يعلق فيه على نحو مظلم، مثل ديناميت في كيس. لا يزال في إمكاني رؤية هيئتها النحيلة وهي تتراجع، ومروحة الضوء الصفراء من القاعة تلوِّح على طول أرضيَّة حجرة نومي، وهي، تغلق الباب ببطء، وتخطو إلى الخلف بصمت، إلى خارج حياتي. لم أكن بلغت سنواتي الخمس لـمَّا توفِّيت. لم يسبِّب موتها ألماً لي كما أتذكَّر. كنت كبيراً بما يكفي لأوثِّق الخسارة، لكنِّي كنت صغيراً جداً بما يكفي لأجدها ليست أكثر من مجرَّد أحجية. والدي، بحسن نيّته، صار ينام على سرير المخيَّم في حجرة نومنا، ليبقى في رفقتنا، أنا وأخي فريدي. ولأسابيع عدّة توجَّب عليَّ أن أصغي إليه وهو يكابد عناء حزنه، يتنهَّد، ويتمتم، ويناجي ربَّه، بتنهُّدات طويلة، مرتعدة جعلت قوائم سرير التخييم تتصدَّع في سخط. كنت أرقد هناك غير مهتمّ، أحاول الإصغاء، من ورائه، إلى صوت الريح في الأشجار التي كانت تطوّق المنزل مثل الخفير، وعلى نحو أبعد، الانهيار الخانق للأمواج على شاطئ كاريك، والهسهسة الطويلة للأنهار التي تنخفض عندِ لوح الشاطئ. لم أكن أتمدَّد على جانبي الأيمن لأنَّني على هذا النحو كنت أستطيع سماع نبض قلبي، وكنت مقتنعاً أنَّني كنت سأموت، وأنَّ قلبي سيتوقَّف عن الخفقان قبل الهبوط الأخير المخيف للظلام.

الأطفال، مخلوقات غريبة. تلك النظرة الحذرة التي ترتسم على وجوههم حينما يحضر البالغون حولهم كأنَّهم يهتمُّون حقّاً بما إذا كانوا يعبّرون على النحو المناسب لما نتوقع أنَّه حالهم. اخترع القرنُ التاسع عشر الطفولةَ، والعالم مليء الآن بالممثِّلين الأطفال. المسكينة بلانش لم تكن قطُّ جيِّدة في هذا الأمر، لم تكن تتذكَّر سطورها، أو أين ستقف، أو ماذا ستفعل بيديها. كيف كان قلبي ينطوي على نفسه حزناً في مسرحيَّة مدرسيَّة، أو في يوم توزيع الجوائز، عندما يطوّر طابور الفتيات الصغيرات الجيِّدات عقدةً، نوعاً من الارتعاش المخيف، وأنا أنظر على طول صفّ من الرؤوس مطمئناً تماماً إلى أنَّها ستكون هناك توشك أن تتعثَّر بارتباكها، محمرَّة خجلاً، تعضُّ شفتيها، وتزلق كتفيها، وتحني ركبتيها عبثاً في محاولة أن تنقص إنشات من طولها. لـمّا كانت مراهقة، كنت أريها صور إيزادورا دونكان وأوتولاين مورين، وغيرهما من النساء الجريئات الضخمات اللاتي كان من الممكن أن تحصل على شيء من الراحة من صورهنَّ، ويمكن أن تحاكي تهورهنَّ، لكنَّها لم تكن تنظر إلى الصور، بل تجلس فحسب في صمت بائس مع انحناءة في الرأس، تلعب برؤوس أظافرها، وشعرها الوتريُّ يقف عند نهايته كأنَّ تياراً قوياً كان يمُّر عبره، ويكشف مؤخِّرة رقبتها الشاحبة على نحو يفطر القلب. جوليان الآن... من ناحية أخرى؛ لا... لا أعتقد ذلك. هذا الموضوع يسبِّب الأرق الشديد.

بين مجموعة مراسلي الصحف هذا الصباح كانت هناك فتاة مراسلة -إلى أيِّ عهد تعود مصطلحات كهذي، فتاة مراسلة!- ذكَّرتني ببلانش، لا أعرف تماماً السبب في ذلك. لم تكن ضخمة، مثل ابنتي، لكن في سلوكها كان لديها اليقظة المميَّزة نفسها. ذكيَّة أيضاً: لـمَّا كان البقيَّة يلكزون

بعضهم في الأجناب من أجل سؤال واضح مثل ما إذا كان ثمَّة الكثير منَّا لا يزالون غير مفضوحين (!)، أو ما إذا كانت السيِّدة و.[9] تعرف الجميع طوال الوقت، جلست هي مركِّزة عليَّ مع ما بدا نوعاً من التوق، ولم تتكلَّم على الإطلاق، وبعد ذلك سألت عن أسماء وتواريخ وأماكن ومعلومات أشكُّ في أنَّها كانت تعرفها بطبيعة الحال. بدا الأمر كأنَّها كانت تخضعني لبعض الاختبارات، وتتحقَّق من إجاباتي، وتقيس مشاعري. ربَّما كنت أنا، بدوري، أذكِّرها بوالدها؟ الفتيات، من تجربتي المحدودة على نحو لا يمكن إنكاره معهنَّ، دائمات البحث عن الأب. فكَّرت في أن أسألها البقاء من أجل الغداء -كان ذلك نوع المزاج الطائش الذي أصابني- لأنَّه فجأةً لم تعد فكرة بقائي وحيداً بعد إخلائهم المكان فكرة جذَّابة على الإطلاق. كان هذا غريباً. لم أعانِ قطُّ من الوحدة في الماضي، وبالتأكيد، وكما قلت سابقاً، دائماً ما كنت أرى نفسي كائناً منعزلاً متصالحاً مع نفسي تماماً، ولا سيَّما بعد وفاة باتريك المسكين. إنّما ثمَّة شيء يخصُّ هذه الفتاة أثار اهتمامي بغضِّ النظر عن شبهها غير المحدَّد ببلانش. هل هي إنسان منعزل؟ لم أحصل على اسمها، بل حتَّى لم أعرف في أيِّ صحيفة تعمل. سأقرأ الصحف غداً كلَّها وأرى إن كنت سأكشف أسلوبها.

غداً، يا إلهي، كيف يمكنني مواجهة الغد؟

*

حسِناً، أنا في كلِّ مكان. صفحات وصفحات عنِّي. لا بدَّ أن هذا هو شعور

---

(9) إليزابيث الثانية، ملكة بريطانيا (1952-)، واسمها الكامل إليزابيث ألكساندرا ماري وينلسور، ولدت عام 1926. سيشير إليها الكاتب باسم السيّدة و. في كامل الرواية. (م)

الرجل القائد في الصباح بعد ليلة أولى كارثيَّة على نحو هائل. ذهبت إلى عدد من متاجر بيع الصحف، حفظاً للَّياقة، على الرغم من أنّ الأمر أصبح محرجاً على نحو متزايد وأنا أتأبَّط صحفاً أصبحت سميكة مع مرور الوقت. بعض الناس، وراء النُّضد، تعرَّفوا إليَّ، قلبوا شفاههم بازدراء؛ رجعيُّون، أصحاب متاجر، لاحظت ذلك من قبل. رجل واحد، بالرغم من ذلك، ابتسم لي ابتسامة حزينة ملتوية. كان باكستانياً. أيُّ مؤسّسة سأنتمي إليها من الآن فصاعداً. **المسجونون السابقون. المعتدون على الأطفال. المنبوذون. التائهون.**

تمَّ تأكيد الأمر: سيُسحب لقب فارس. أنا مهتمٌّ. أنا مُفاجَأ باهتمامي. مجرَّد لقب دكتور مرَّة أخرى، حتَّى لو كان ذلك؛ ربَّما مجرَّد سيِّد. على الأقلّ لم يأخذوا تذكرة التنقُّل بالحافلة التي تخصّني، أو تذكرة غسل الثياب خاصَّتي (اعتراف أخير، كما أتصوَّر، بأنَّ الرجل، بعد سنِّ الخامسة والستِّين، يميل إلى التبوُّل كثيراً).

اتَّصل ذلك الكاتب الشابُّ هاتفياً يطلب إجراء مقابلة. يا لها من وقاحة. كان حديثه مع ذلك لبقاً ولم يكن محرَجاً على الإطلاق. نبرة قويَّة، من غير مرح، مع تلميحات تنمُّ تقريباً عن إعجاب: قبل كلِّ شيء، أنا تذكرته نحو الشهرة، أو سوء السمعة، على الأقلّ. طلبت إليه أن يكشف عمَّن خانني. أثار سؤالي فيه ضحكة مكتومة. يقولون حتَّى الصحافيُّ يفضّل الذهاب إلى الهدف أكثر من الكشف عن المصدر. يهوون تقديم الأعذار. لربَّما قلت له صديقي العزيز، كنت في السجن في الجزء الأفضل من الثلاثين سنة الماضية، لكن بدلاً من ذلك أقفلت المكالمة الهاتفيَّة.

أرسلت صحيفة تيليغراف مصوِّراً إلى كاريكدرام، موقع بداياتي البرجوازيَّة. لم يعد المنزل مقرَّ إقامة الأسقف، ويملكه الآن، كما أخبرتني

الصحيفة، رجلٌ يتاجر بالخردة المعدنيَّة. أشجار الحراسة اختفت -تاجر الخردة المعدنيَّة لا بدَّ أراد ضوءاً أكثر- وقرميد البناء كان غُطِّي بوجه جديد من طلاء لونه أبيض. أنا أميل إلى التعبير بالاستعارة عن التغيير والخسارة، لكن يجب أن أكون حذراً من التحوُّل إلى أحمق عجوز عاطفيّ إن لم أكن كذلك بالفعل. بناء القدّيس نيقولا (القدّيس نيقولا!- لم أفهم الرابط قطُّ) كان عبارة عن كومة قاتمة وكئيبة من الركام، وكميَّة قليلة من الجصِّ والطلاء الأبيض يمكن أن تكون مجرَّد تغيير بسيط. أتذكَّر نفسي صبيّاً صغيراً أجلس ورأسي متَّكئ على إحدى يديَّ عند النافذة الخارجيَّة في الصالون، أنظر إلى المطر المتساقط على المرج المنحدر، وعلى ماء البحيرة ذي اللون الرماديِّ الحجريِّ، وأستمع إلى فريدي المسكين وهو يتجوَّل في الطابق العلويِّ يدندن مثل امرأة جنِّية ذاهلة[10]. هذا كان بناء كاريكدرام. لـمَّا تزوَّج والدي مرَّة ثانية، الأمر الذي صدمني حتَّى وأنا في عمر السادسة، وعددتُه تهوُّراً غير ملائم، انتظرتُ ظهور زوجة أبي -كانا قد تزوّجا في لندن- مع مزيج من مشاعر الفضول والغضب والقلق، متوقِّعاً ساحرة خارجة من رسومات آرثر راكهام[11]، بعينين بنفسجيَّتين، وأظافر مثل الخناجر. ولـمَّا وصل الزوجان السعيدان، وقد امتطيا عربة الخيل بتناغم غريب، شعرتُ بالدهشة، وبخيبة أمل عميقة لاكتشافي أنَّها لم تكن تشبه أيّاً من توقُّعاتي لها، بل كانت امرأة كبيرة مرحة، بوركين عريضين، وخدَّين محمرَّين، وبذراعي امرأة غسَّالة ثخينتين، وضحكة عالية مرتجفة. وبعد أن صعدت الدرجات الأماميَّة لاحظتني في الممرِّ، وأسرعت نحوي في جري متعثِّر، ثمَّ رفعت يدين

---

(10) banshee في الأساطير الإيرلنديّة هي امرأة جنيّة، روح أنثى تنذر بوفاة أحد أفراد الأسرة عادة عن طريق الصراخ أو النواح. (م)

(11) آرثر راكهام (1867-1939) رسّام كتب ومجلات إنكليزيّ، يعدّ رائداً في عمله. (م)

حمراوين، سقطتا على رقبتي، وقبَّلتني على نحو رطب، وصارت تهمهم بنخرات السعادة. كانت تنضح منها رائحة بودرة وجه، ونعناع، وعَرق نسائيٍّ. حرَّرتني، وتراجعت إلى الخلف وهي تفرك عينيها بكفِّ يدها، وألقت على والدي نظرة عاطفيَّة متحمِّسة، في حين وقفت عابساً، محاولاً مواجهة اضطراب الأحاسيس التي لم أكن أدركها، بينما شعور داخليٌّ ضعيف بتلك السعادة غير المتوقَّعة، التي ستجلبها إلى بناء القدّيس نيقولا. عصرَ والدي يديه، وابتسم بخجل متحاشياً النظر إلى عينيَّ. لم يقل أحد شيئاً، ومع ذلك كان ثمَّة إحساس بالضوضاء، والصخب المستمرِّ، كما لو كان ابتهاجاً غير متوقَّع بالمناسبة قد ولَّد ضجيجاً خاصّاً به. ثمَّ ظهر أخي على الدرج، ينزل على نحو جانبيّ، تتمايل معه دمية كوازيمودو[12] التي تخصَّه، ولعابه يسيل- لا، لا، أنا أبالغ، لم يكن بهذا القدر من السوء- وأعاد اللحظة إلى رشدها. «وهذا»، قال والدي وهو يخور في توتُّره «هذا هو فريدي!».

كم كان شاقّاً ذاك اليوم على أمِّي- أفكِّر فيها على هذا النحو، فأمِّي البيولوجيَّة كانت رحلت مبكِّراً- وكيف نجحت في إدارة الأمور كلِّها، فجثمت فوق المنزل مثل طائر عظيم يحتوي عشَّه. في ذاك اليوم الأوَّل، احتضنت فريدي المسكينَ بشجاعة، واستمعت إلى لحظات اختناقه بالكلام، ولعثمته في محاولته النطق، مومئة برأسها كأنَّها تفهمه حقّاً، حتَّى إنَّها شكَّلت منديلاً، ومسحت اللقمة من على ذقنه. أنا واثق من أنَّ والدي لا بدَّ كان أخبرها عنه، لكنِّي أشكُّ في أنَّ مجرَّد وصف لفريدي كان يمكن أن يهيِّئها له. قابلها بابتسامته العريضة الكاشفة عن أسنانه المتباعدة، ولفَّ ذراعيه حول وركيها الكبيرين، وألقى برأسه على بطنها كأنَّه يرحِّب بها في المنزل. على الأرجح

---

(12) الأحدب في رواية «البؤساء» الشهيرة للكاتب الفرنسيّ فيكتور هيغو. (م)

كان يظنّ أنَّها أمّنا الحقيقيَّة وقد عادت من أرض الموت. وراءها تأوَّه والدي بتنهيدة غريبة تشبه تنهيدة أحدٍ ما يجلس جلسة طويلة بعد أن تخلَّص من عبء شاقٍّ لا يمكن السيطرة عليه.

كان اسمها هيرميون، وكنَّا نناديها هيتي. أشكر الله أنَّها لم تعش لتشاهدَ عاريَ.

*

اليوم الثالث. تستمرُّ الحياة. كانت المكالمات الهاتفيَّة المجهولة قد انقطعت، ولم تعاود الهواتفُ الرنين من جديد حتَّى البارحة، بعد أن ظهرت الحكاية في صحف الصباح (وأنا أعتقد أنَّ الجميع حصلوا على معلوماتهم من التلفزة). كان ينبغي لي أن أرفع سمَّاعة الهاتف؛ ففي أيِّ وقت أعيد سمَّاعة الهاتف إلى مقرِّها، كان هذا الجهاز اللعين يصرخ في وجهي كأنَّه يستشيط غضباً. المتَّصلون كانوا رجالاً في معظم الأحيان، من النوع الحذر كما يبدو من أصواتهم، لكن كانت ثمَّة نساء أيضاً، مخلوقات معمِّرة لبقة، بأصوات لطيفة ناعمة، ومفردات عمَّال. الشتائم كلُّها بأكملها كانت شخصيَّة. بدا الأمر كأنَّني اختلست معاشاتهم التقاعديَّة. في البداية كنت مهذَّباً، بل ودخلت في مناقشات تتميَّز بأقلِّ قدر من الانفعال (أحد الرجال أراد أن يعرف ما إذا كنت قابلت بيريا[13]- أعتقد أنَّه كان مهتمّاً بحياة الحبِّ الجورجيَّة). كان ينبغي أن أسجِّل لهم شريطاً من شأنه إظهار مقطع عرضيّ للسمة الوطنيَّة الإنكليزيَّة. إلّا أنَّ اتصالاً واحداً رحَّبتُ به. أعلنت عن نفسها على نحو خجول في حين أعطت انطباعاً بأنَّها تتوقَّع منِّي معرفتها، وهي كانت محقَّة:

---

(13) Beria (1899- 1953) قائد الشرطة السّرّية السوفييتيّة في عهد جوزيف ستالين؛ أعدمه زملاؤه في أثناء صراع السلطة بعد وفاة ستالين. (م)

لم أتعرَّف اسمها، لكنّي تذكَّرت صوتها. في أيِّ صحيفة تعملين؟ سألتها. لحظة صمت. «أنا صحافيَّة مستقلَّة»، قالت. وهذا يفسِّر لمَ لم أجد أثراً لها في متابعات البارحة لمؤتمري الصحفيّ (مؤتمري الصحفيّ! -يا إلهي، كم يبدو وقع الكلمة عظيماً). تُدعى فانديلور. تساءلت عمَّا إذا كان ثمَّة صلة إيرلنديَّة -ثمَّة كثيرات ممَّن أسماؤهنَّ الأولى فانديلور في إيرلندا- لكنَّها نفت ذلك، حتَّى بدا أنَّها انزعجت قليلاً من التخمين. لا يحظى الإيرلنديُّون بشعبيَّة هذه الأيَّام مع ألغام الجيش الجمهوريِّ الإيرلنديِّ التي تنفجر من أسبوع إلى آخر. نسيت اسمها الأوَّل. صوفي؟ سيبيل؟ اسم قديم في أيِّ حال. طلبت إليها أن تأتي في فترة ما بعد الظهر. لا أعرف فيما كنت أفكِّر. ثمَّ عانيت من هجمة من التململ لـمَّا كنت أنتظرها، وأحرقت يدي وأنا أعدُّ الغداء (قطع لحم الضأن المشويّ، شرائح البندورة، ورقة خسّ؛ لا يوجد شراب -شعرت أنَّه كان ينبغي أن أحافظ على ذهني صافياً). وصلت في الموعد المحدَّد تماماً، مدَّثرة بمعطف قديم بدا كما لو كان لوالدها (ثمَّة أب من جديد). شعر داكن قصير مثل فراء ناعم، ووجه صغير في شكل قلب، ويدان صغيرتان بدتا باردتين. جعلتني أفكِّر في حيوان صغير، نادر، هادئ. جوزيفين المغنِّية[14]. في أيِّ عمر هي؟ في أواخر العشرينات، أوائل الثلاثينات. وقفت في منتصف غرفة المعيشة. قبض أحد مخالبها، بطريقة نسائيَّة مميَّزة، على حافة الطاولة اليابانيَّة المطليَّة، ونظرت بعناية إلى المكان كأنَّها تحفظ ما تشاهده.

«يا لها من شقَّة جميلة»، قالت باهتمام، «لم ألحظها، المرَّة الماضية».

«ليست بجمال الشقَّة في المعهد، حيث كنت أعيش».

«هل كان يتوجَّب عليك تركها؟».

---

(14) إشارة إلى جوزفين المغنّية في آخر قصص فرانز كافكا التي تحمل العنوان نفسه، وتروي حكاية علاقة بين مغنّية وجمهورها، نشرت في العام 1924. (م)

«نعم، لكن ليس للسبب الذي تفكِّرين فيه، أحدهم مات هناك».

سيرينا، ذاك هو اسمها، للتوّ تذكَّرت، سيرينا فانديلور. له رنَّة من دون شكّ.

أخذتُ معطفها الذي تخلَّت عنه على مضض، كما ظننت. «هل تشعرين بالبرد؟» سألتُ مؤدِّياً دور الجنتلمان العجوز القلق. هزَّت رأسها. لربَّما تشعر بأمان أقلّ دون هذا الاحتضان الأبويِّ الحمائيّ. مع ذلك عليَّ القول إنَّها كانت تصدمني على نحو مميَّز وهي مرتاحة مع نفسها. إنَّه أمر مثير للأعصاب قليلاً، هذا الشعور بالهدوء الذي تنقله. لا، تنقله كلمة خطأ؛ لقد بدت بكلِّيتها مكتفية ذاتيّاً تماماً. كانت ترتدي بلوزة أنيقة بسيطة، مع سترة صوفيَّة، وحذاء مسطَّح، وبالرغم من ذلك تنُّورتها الجلديَّة القصيرة الضيِّقة أضفت إلى لباسها شيئاً من الإثارة. عرضتُ عليها الشاي لكنَّها قالت إنَّها تفضّل الشراب. تلك هي فتاتي. اقترحت أن نشرب الجن، الأمر الذي قدَّم لي عذراً لأذهب إلى المطبخ حيث لسعة مكعَّبات الثلج، ولذعة الليمون الحامض (أنا أستخدم الليمون الحامض في الجن دائماً؛ ففيه كثير من التأكيد مقارنة بطريقة عمل الليمون العاديِّ التقليديَّة المملَّة)، شيء يساعدني في استعادة شيء من اتِّزاني. لا أعرف لمَ كنت مهتاجاً جدّاً. إنّما، كيف يمكن ألَّا أكون كذلك؟ في الأيَّام الثلاثة السابقة، تمخَّضت الحركة في بحيرة حياتي الساكنة، وكلّ الأشياء المضطربة كانت قد ارتفعت من الأعماق. أنا قلق باستمرار من أنَّ الكلمة الوحيدة التي أتوق للتفكير فيها هي «الحنين إلى الماضي». غسلتني موجات عالية حارَّة من الذكريات، جالبة صوراً وأحاسيس اعتقدت أنَّني كنتِ نسيتها تماماً، أو نجحت في استئصالها. إلّا أنَّها كانت واضحة وحاضرة إلى درجة أنِّي تهاديت في طريقي يعتصرني اللهاث وحزن منتشٍ يهاجمني. حاولت وصف هذه الظاهرة للآنسة فانديلور حين عدت إلى غرفة المعيشة

مع الشرابين على صينيَّة (الكثير من أجل الحفاظ على ذهن صافٍ). وجدتها واقفة كما كانت من قبل، وجهها مائل قليلاً، تضغط على الطاولة بأصابع إحدى يديها، هادئة جداً، وتتموضع في حالة توحي، كما شككت، بأنَّها كانت تبحث في الغرفة، ثمَّ عادت إلى وضعيَّتها هذه فحسب لـمَّا سمعت خشخشة مكعَّبات الثلج داخل الكأسين. إلّا أنَّني واثق من أنَّ عقلي السيِّئ فقط هو ما جعلني أفكِّر في أنَّها كانت تتجسَّس: إنَّه نوع من الأفعال كنت أقوم به تلقائيّاً، في تلك الأيَّام، حين كان لديّ اهتمام مهنيٌّ باكتشاف أسرار الآخرين.

«نعم»، قلت، «لا أستطيع إخبارك كم هو غريب أن أقحم فجأة أمام أعين العامَّة».

أومأت ذاهلة؛ كانت تفكِّر في شيء آخر. وأدهشني أنَّها كانت تتصرَّف على نحو غريب، بالنسبة لصحافيَّة.

جلسنا قبالة بعضنا عند الموقد، مع شرابينا، بصمت مهذَّب، مريح على نحو غير متوقَّع، ظريف، مثل مسافرين يتشاركان شراب كوكتيل قبل الانضمام إلى طاولة القبطان، مدركين أنَّ لديهما الوقت الوفير ليتعارفا، أحدُهما إلى الآخر. درستِ الآنسة فانديلور على نحو واضح، على الرغم من الاهتمام البارد، الصورَ المؤطَّرة فوق رفِّ الموقد: والدي يرتدي جزمته الطويلة، هيتي ترتدي قبَّعة، بلانش وجوليان لـمَّا كانا طفلين، أمِّي البيولوجيَّة التي لم أعد أذكرها برداء حريريّ ونظرة تائهة. «أسرتي»، قلت، «الأجيال»، وأومأتْ مرَّة أخرى. كان أحد أيَّام إبريل المتقلِّبة تلك حيث جبال جليديَّة ضخمة من السحب البيض والفضيَّة تندفع ببطء عبر السماء فوق المدينة، محدثة تبدُّلات سريعة من النور والعتمة، والآن اختفت الشمس فجأة عند النافذة كما لو أنَّك كبست زرّاً فأطفأتها، وأنا اعتقدت للحظة أنَّني سوف أبكي،

لم أتمكَّن من معرفة السبب بالتحديد، غير أنَّ الصور الفوتوغرافيَّة كانت جزءاً من السبب. كان أمراً مرعباً جدّاً، كان كذلك، ومفاجأة عظيمة؛ فأنا لم أكُ قطُّ ممَّن يذرفون الدموع، حتَّى الآن. متى كانت آخر مرَّة بكيت فيها؟ كان ذلك يوم موت باتريك، بالطبع، لكنَّ ذلك لا يعتدُّ به -الموت لا يُحسب حينما يتعلَّق الأمر بالبكاء. لا، أعتقد أنَّ آخر مرَّة بكيت فيها حقّاً كانت حين ذهبت إلى أسرة فيفيين ذلك الصباح بعد أن هربَ بوي ودور سكوت. كنت أقود كرجل مجنون عبر مايفير، ومسَّاحات زجاج السيَّارة تعمل بأقصى طاقتها، وبعدها أدركت أنَّه لم يكن المطر ما يغبِّش رؤيتي بل الدمع الحارُّ. بالطبع كنت مخنوقاً وفي حالة فظيعة مروِّعة (بدا كأنَّ اللعبة بكليَّتها كانت ترتفع، وأنَّنا كلَّنا جُذبنا إليها). لكنَّني لم أكن معتاداً فقدان السيطرة على نفسي على هذا النحو، وكانت صدمة. تعلَّمت بعض الأشياء الرائعة ذلك اليوم، وليس فقط ميلي إلى الدموع.

اتَّخذت الآنسة فانديلور هيئة كئيبة وهي متكوِّمة داخل كرسيّها. قلت: «لكنَّكِ تشعرين بالبرد حقّاً». وعلى الرغم من احتجاجها بأنَّها كانت مرتاحة تماماً، فإنَّني نزلت على ركبة واحدة، الأمر الذي أجفلها، وجعلها تنكمش إلى الوراء -لا بدَّ أن فكَّرت في أنَّني كنت سأركع أمامها وأدلي باعتراف أخير مروِّع، وأحلفها السِرِّيّة- لكنِّي فعلت ذلك لأشعل مدفأة الغاز وحسب. أصدرت المدفأة صوت طرطقتها الممتع حينما تشتعل، واحتالت بحيلة صغيرة في امتصاص اللهب من عود الثقاب، ثمَّ توهَّجت الأسلاك المزركشة وتحوَّل لون سِخام الفحم خلفها إلى لون أحمر ورديٍّ متوهِّج. لديَّ شغف كبير بهذه الأدوات المتواضعة: المقصّ، فتَّاحات العلب، مصابيح القراءة القابلة للتعديل، حتَّى المرحاض الدافق. إنَّها دعائم الحضارة غير المعترف بها.

«لِمَ فعلتَ ذلك؟»، قالت الآنسة فانديلور.

كنت في طور الارتفاع من حالة الجثوّ وأنا منزعج، إحدى يديَّ على ركبة مرتعشة، والأخرى تضغط على ظهري الصغير، وكدت أسقط. إنّما لم يكن ذلك سؤالاً غير منطقيٍّ، في مثل هذي الظروف، وهو سؤال لم يكن أحد زملائها ليفكِّر، بمقتضى الفضول الكافي، في طرحه. هويت داخل كرسيّ ذي المسند مطلقاً تنهيدة مضحكة، وهززت رأسي.

«لماذا؟»، قلت، «أوه، رعاة البقر والهنود، عزيزتي؛ رعاة البقر والهنود». كان هذا صحيحاً، على نحو ما. الحاجة إلى التسلية، الخوف من الملل: هل كان الأمر برمَّته أكثر من ذلك بكثير، حقّاً، على الرغم من التنظير الرائع؟ «وكره أميركا، بالطبع» أضفت، مع لمسة من الإنهاك، كما أخشى؛ الآن الأميركيُّون القديمون البائسون هم مصدر قلق عفا عليه الزمن. «عليك أن تفهمي، كان الاحتلال الأميركيُّ لأوروبّا، بالنسبة للكثير منا، ليس أقلَّ وبالاً علينا من انتصار ألمانيا. النازيَّة كانت على الأقل عدوّاً واضحاً مرئيّاً. كان يكفي الرجال أن يُشتموا، أن يعيدوا قراءة نصِّ إليوت». عند ذلك رسمت لها ابتسامة متلألئة: حكمة الشيوخ تعترف بثقافة الشبان. وقفت وأنا أحمل شرابي، ومشيت باتِّجاه النافذة: ألواح مصقولة بالشمس، مداخن تصطفّ مثل قناني البولينغ، هوائيَّات تلفازات مثل خليط من أحرف الأبجديَّة تتكوَّن في معظمها من حروف H. «الدفاع عن الثقافة الأوروبيَّة-».

«لكنك كنتَ»، قالت بهدوء مقاطعة كلامي، «جاسوساً قبل الحرب، أليس كذلك؟»

الآن، لطالما كانت كلمات كهذه -جاسوس، وكالة، تجسُّس... إلخ- تسبِّب لي الاضطراب، فهي تستحضر إلى ذهني صور الخمَّارات التافهة،

والممرَّات المفروشة بالحصى ليلاً مع أشخاص متسلِّلين بسترات وبناطيل ضيِّقة، وخناجر لامعة. لم أستطع قطُّ أن أفكِّر في نفسي كجزء من ذاك العالم الأنيق والمظلم. بوي، الآن بوي لديه لمسة من كريستوفر مارلو[15]، حسناً، لكنِّي كنت عصاً قديمة جافَّة، حتَّى لـمَّا كنت شابّاً. كنت ما يحتاجونه؛ يشجِّع البقيَّة على طول الوقت، أعتني بهم، وأمسح أنوفهم، وأتأكَّد أنَّهم لم يحيدوا عن الطريق، لكن الآن لا يمكنني إلَّا أن أتساءل ما إذا كنت ضحّيت كثيراً بنفسي من أجل... أعتقد أنِّي سأسميها القضيَّة. هل أهدرت حياتي في جمع ومقارنة معلومات تافهة؟ الفكرة حبست أنفاسي.

«كنتُ خبيراً، كما تعرفين، قبل أن أكون أيَّ شيء آخر»، قلتُ، وكنت قد استدرت من عند النافذة، وهي جالسة وقد انحنى كتفاها، تحملق في شعلة نار موقد الغاز. تصدَّع مكعَّب الثلج داخل كأسي مصدراً صوت طقطقة حزينة. «الفنُّ كان كلَّ همِّي. حتَّى إنَّني حاولت أن أصبح رسَّاماً، أيَّام دراستي. أوه، نعم. لوحات طبيعة صامتة صغيرة متواضعة؛ أباريق زرق، وأزهار خزامى بنفسجيَّة، وتلك الأشياء. تجرَّأت وعلَّقت إحداها في غرفتي في كمبريدج. شاهدها أحد الأصدقاء، وأعلن أنَّني أرقُّ رسَّامة منذ أيَّام راؤول دوفي. كان ذلك بوي، بالطبع. تلك الابتسامة العريضة، الوحشيَّة، المفترسة. «إذاً أنت الآن يا عزيزتي أمام فنَّان فاشل، مثل العديد من الأوغاد الآخرين: نيرون، نصف أسرة آل ميدتشي[16]، ستالين، والسيِّد شيكلغرابر[17] الذي لا يُوصَف».

---

(15) كريستوفر مارلو (1564-1593)، كاتب مسرحيّ إنكليزيّ وشاعر مفوَّه. قورن بشكسبير، حتَّى طُرحت نظريّات أنَّه كاتب مسرحيّاته. عُرف عنه أنَّه كان جاسوساً مزدوجاً، قُتل شابّاً في حانة. (م)

(16) أسرة إيطاليَّة من المصرفيّين والتجّار وحكّام فلورنسا وتوسكاني البارزين في التاريخ السياسيّ والثقافيّ الإيطاليّ في القرون 15-16-17. (م)

(17) اللقب الأصليّ لأسرة الزعيم النازيّ أدولف هتلر، غيّر والده اللقب إلى هتلر في العام 1877. (م)

كأنَّني أرى هذا الأخير يسير أمامها الآن.

استدرتُ، وجلست مرَّة أخرى على الكرسيِّ. كانت لا تزال تحملق في شعلة نار موقد الغاز، تكاد لا تمسّ شرابها. تساءلت عن الشيء الذي تفكِّر فيه بمثل هذا التركيز. مرَّ الوقت. هسهس لهب نار الغاز. دخل ضوء الشمس من النافذة ثمَّ رحل. على غير عجلة أبديت إعجاباً بلوحة الألوان المائيَّة التي رسمها بونينغتون[18] المعلَّقة وراءها، واحدة من كنوزي الأصليَّة القليلة: طين ممزوج ببقايا المحار، سماء من شرائح لحم خنزير مقليَّة، صيَّادون شبّان في المقدِّمة، وقارب شراعيٌّ بعيد، شامخ، بأشرعة مطويَّة. في النهاية رفعت عينيها وقابلت عينيَّ. ذاك الصراع الداخليّ الذي كان يعتمل فيها أعطاها نظرة قلق تخصّ مريم العذراء المعذَّبة. لا بدَّ أنَّها أُخِذت بنظرة عشقي لبونينغتون -لطالما كان نيك يقول إنَّني أبدو مثيراً على نحو واضح حينما أتأمَّل لوحة- فنزلت البرَكة عليها مباشرة لأنَّها قرَّرت فجأة أن تصبح صافية.

«أنا لست صحافيَّة حقّاً»، قالت.

«أعرف»، ابتسمت لمفاجأتها، «لا يعرف المخادع سوى مخادع مثله. هل سكراين هو من أرسلك؟»

«مَن؟»

«أحد حُماتي فحسب».

«لا»، قالت وهي تهزُّ رأسها بانفعال، وتلفُّ كأس الجن بأصابعها، «لا، أنا... أنا كاتبة. أريد تأليف كتاب عنك».

يا إلهي. مؤرِّخ معاصر آخر. أعتقد أنَّني أصبت بخيبة لأنَّها بدأت في

---

(18) رسّام طبيعة إنكليزيّ-فرنسيّ (1802-1822) تميّز بأسلوب خاصّ في رسم السماء والمناظر البحريّة. (م)

الحال، وعلى نحو دفاعيٍّ، قصَّة متلعثمة عنها، وعن خططها. بعناء سمعتها. ما الذي أثار اهتمامي حقّاً بنظرياتها، أهي العلاقة بين التجسُّس والمفهوم الزائف للجنتلمان الإنكليزيِّ («أنا لستُ إنكليزيّاً»، ذكَّرتها، لكنَّها لم تنتبه) أم التأثير الخبيث في جيلي، جيلِ الجماليَّات المنعدمة للحداثة؟ أردت أن أخبرها عن شَفرة أشعَّة الشمس وهي تشقُّ الظلال الناعمة للمبولة العامَّة ما بعد ظهر يوم ربيعيٍّ في فترة ما بعد الحرب في ريغينسبورغ، عن الابتهاج غير اللائق بالمطر الذي انهمر علينا في جنازة والدي، عن تلك الليلة الأخيرة مع بوي لـمَّا شاهدت القارب الأحمر تحت جسر بلاكفريرز، وتأمَّلت في المغزى المأساويِّ لحياتي: بكلمات أخرى، الأشياء الحقيقيَّة: الأشياء الصحيحة.

«هل أنت مطَّلعة على الفلسفة؟»، سألتُ، «أعني الفلسفة القديمة. الرواقيُّون: زينون، سينيكا، ماركوس أوريليوس». هزَّت رأسها بحذر. كانت على نحو واضح مرتبكة بهذا التحوُّل في الحديث. «لطالما عددت نفسي رواقيّاً»، قلت، «في الواقع، كنت فخوراً جدّاً بأن أفكِّر في نفسي على هذا النحو». وضعت كأسي، وضممت أصابعي عند أطرافها، ونظرت نحو النافذة حيث كان الضوء والظلُّ لا يزالان يتنافسان على إدارة الموقف. ولدتُ لأكون محاضراً. «نفى الرواقيُّون مفهوم التطوُّر. قد يكون ثمَّة تطوُّر بسيط هنا، بعض النماء هناك- علم الكونيَّات في زمنهم، طبُّ الأسنان في زمننا- لكن على المدى البعيد، بقي توازن الأشياء، مثل الخير والشرّ، الجمال والقبح، البهجة والبؤس، ثابتاً على نحو دوريّ، وفي نهاية الدهر، سيدمِّر العالم في محرقة النار، وبعد ذلك سيبدأ كلُّ شيء من جديد، تماماً كما فعل من قبل. هذا المفهوم السابق لنيتشه عن التكرار الأبديِّ، كنت دائماً أجده مريحاً إلى حدٍّ كبير، ليس لأنِّي أتطلَّع قُدماً لأعود من جديد، ثمَّ من جديد كي

أعيش حياتي، لكن لأنَّه يفرِّغ الأحداث من كلِّ النتائج، في حين يمنحها في الوقت عينه معنى مقدَّساً، يستمدُّه من الثبات، من الاكتمال. هل تدركين ذلك؟» ابتسمتُ ابتسامتي الرقيقة. انسدل فمها المفتوح قليلاً، وكانت لديّ رغبة ملحَّة في الوصول إليه بإصبعي وإغلاقه مرَّة أخرى. «من ثمَّ، في أحد الأيَّام قرأت، لا أستطيع تذكُّر أين كان ذلك، قصّةً عن حديث صغير جرى بين يوزيف مينغيل[19] وطبيب يهوديٍّ كان قد أنقذه من حكم الإعدام كي يساعده في تجاربه في مخيَّم أوشفيتز. كانا في غرفة العمليّات، ومينغيل يعمل على امرأة حامل كانت ساقاها موثقتين عند الركبتين قبل حثِّها على ولادة طفلها، دون الاستفادة من التخدير، بالطبع، الذي كان غالياً جدّاً لصرفه على اليهود. في فترة الهدوء المؤقَّت بين صرخات الأمّ، تحدَّث مينغيل عن المشروع الضخم للحلّ النهائيِّ: الأرقام المطلوبة، التكنولوجيا، المشكلات اللوجستيَّة، وما إلى ذلك. كم من الوقت غامر الطبيب اليهوديُّ في السؤال -لا بدَّ أنَّه كان رجلاً جريئاً- إلى متى ستستمرُّ جرائم الإبادة؟ منيغيل، الذي لم يكن مُفاجأً على الإطلاق، أو مرتبكاً من السؤال على نحو واضح، ابتسم بلطف، ودون أن يلتفت عن عمله قال: أوه، سوف يستمـرُّون في ذلك، ويستمـرُّون، ويستمـرُّون... لقد صعقني أنَّ الدكتور مينغيل كان رواقيّاً أيضاً، مثلي تماماً. لم أدرك، حتَّى وقتها، كم كانت فسيحةً الكنيسةُ التي أنتمي إليها».

أحببت رنَّة الصمت الذي حلَّ، أو بالأحرى ارتفع -لأنَّ الصمت يرتفع، أليس كذلك؟- لـمّا توقَّفت عن الكلام. لطالما كان يصيبني شعور بالراحة بعد حصَّة درسيَّة ناجحة، نوع من الاستقرار السعيد، يطوي ذهني

---

(19) ضابط وطبيب في الجيش الألمانيّ النازيّ. ولد عام 1911، وتوفّي باسم مستعار في البرازيل في العام 1979. كان مديراً طبيّاً لأحد مخيّمات النازيّين، طبّق تجاربه في مجال الوراثة على معتقلي المعسكر. (م)

ذراعيه، كما لو كانا موجودين، ويبتسم لنفسه برضا هادئ. أنا متأكِّد من أنَّه شعور يعرفه كلُّ من يمارس رياضة ذهنيَّة. وبالنسبة لي كان نوعاً من الملذّات الرئيسة لقاعة المحاضرات، ناهيك عن استخلاص المعلومات (مصطلح لم يفشل قطُّ في إثارة ضحكة مكتومة لدى بوي). إلّا أنَّ الآنسة فانديلور، التي كان حضورها القصير والمستمرّ بدأ يوتِّرني، أفسدت هذه النعمة لـمَّا غمغمت بشيء ما عن عدم معرفة أنَّ الرواقيَّة كانت كنيسة. الشبّان يفهمون الكلمات حرفيّاً.

وقفتُ، وقلت لها: «تعالي، أريدكِ أن تري شيئاً».

ذهبنا إلى غرفة المكتبة. كان في إمكاني سماع تنُّورتها الجلديَّة تطقطق وهي تمشي ورائي. كانت قد أخبرتني، أوَّل وصولها، أنَّ والدها كان أدميرالاً admiral، وأنا أخطأت السمع، وفهمت أنَّه كان رائعاً admirable. وعلى الرغم من أنَّ هذا التقديس الأبويَّ صدمني، وبدا أمراً نافلاً بطريقة محرجة، فقد سارعت إلى طمأنتها بأنَّني لا أشكُّ في أنَّه كان كذلك. تلا ذلك، هناك، حديث فكاهيٌّ غير مقصود انتهى به الأمر إلى واحدة من حالات الصمت المروِّعة المبلَّلة بالعرق التي تستدعي الإشارة دائماً إلى عبثيَّة العالم الجوهريَّة.

أتذكَّر في إحدى مناسبات السيِّدة و. الخانقة أنَّني تحدَّثت إلى السيِّدة نفسها حين كنَّا نشقُّ طريقنا ببطء صعوداً إلى أعلى الدرجات ذات السجَّاد الأحمر، التي لا نهاية لها، خلف الأجزاء الخلفيَّة العريضة لدوقة أرملة غنيَّة، دوقة مكان ما، ولاحظ، كلانا، في اللحظة نفسها ما كانت الدوقة نفسها غير مدركته على نحو عجيب، وهو أنَّها، في طريقها إلى القصر، قد داست في براز كلب «كورغي». في لحظات كهذه كنت أشعر دائماً بالامتنان لصعوبات قيادة حياة مزدوجة، التي أعطت وزناً للأمور، أو على الأقلِّ قدَّمت شيئاً ما للذهن

كي ينكبَّ للعمل عليه وقت الحاجة. لـمَّا كنت طفلاً في المدرسة، حينما أكون مضطرّاً لأن أمنع نفسي من الضحك في وجه أحد زملائي، أو في وجه مدرِّس غاضب على نحو الخصوص، كنت أركِّز في فكرة الموت، وكان ذلك ينجح دائماً، ولا يزال، أنا متأكّد، إذا كان ثمَّة ضرورة.

«هو ذا»، قلتُ، «كنزي، محكُّ الذهب، والمصدر الحقيقيُّ لعمل حياتي».

إنَّها ظاهرة غريبة، أنَّ اللوحات في ذهني هي أكبر دائماً ممَّا هي عليه في الحقيقة -وأنا أعني أكبرَ بالمعنى الحرفيِّ للكلمة، بأبعادها الفيزيائيَّة. هذا صحيح حتَّى في الأعمال التي أكنُّ لها حميميَّة، بما فيها لوحتِي موت سينيكا[20] التي عشت معها خمسين عاماً. أعرف قياسها، أعرف بشكل تجريبيّ أنَّ اللوحة هي سبع عشرة بوصة ونصف في أربع وعشرين، لكن حين أواجهها من جديد، حتَّى بعد فترة وجيزة، يتملَّكني شعور غريب بأنَّها قد تقلَّصت، كأنَّني أنظر إليها من الجانب الخطأ للعدسة، أو أقف على بعد خطوات إلى الخلف أبعدَ مما هو حالي حقّاً. التأثير مربك، كما هي الحال حين تتصفَّح الكتاب المقدَّس، وتكتشف أنَّ القصَّة الكاملة للطرد من جنَّات عدن، في سبيل المثال، أُنبئ عنها في حفنة قليلة من الآيات. الآن، كما هي الحال دائماً، تقوم اللوحة بخدعها، وللحظة، وأنا أقف أمامها مع الآنسة فانديلور التي كان يصدر عنها صوت طقطقة على نحو متقطِّع قربي، بدت قد تضاءلت، ليس في الحجم فحسب، لكن في الـ -كيف سأقولها- الجوهر، وأنا عانيت نوبة كدر، ومع ذلك، لا أظنّ أنّ نبرة صوتي كشفتها؛ في أيِّ حال، الناس في عمرها لا يتأثَّرون بالعرّات والارتعاشات التي يفضح العجائز من خلالها مآزقهم.

---

(20) لوحة تصوّر انتحار الفيلسوف سينيكا الأصغر، رسمها في العام 1773 الرسّام الفرنسيّ جاك لوي دافيد (1748-1825). (م)

«الموضوع هو»، قلت بما أعتقد أنّه كان شرحي الصوتيّ الموضِّح، «انتحار سينيكا الأصغر[21] في العام 65 بعد الميلاد. شاهدي أصدقاءه المكروبين وأسرته حوله، في حين يُراق دم حياته في الوعاء الذهبيّ. وهناك قائد الحرس -غافيوس سيلفانوس، وفقاً لـتاكتيوس- الذي كان نقل مكرهاً الأمر الإمبراطوريَّ بموته. وهي ذي بومبيا بولينا، زوجة الفيلسوف الشابَّة، جاهزة لتلحق بزوجها إلى الموت، تعرض ثديَها للسكّين. ولاحظي، هنا في الخلفيَّة، في الغرفة البعيدة، الفتاة الخادمة تملأ الحمَّام الذي سيتنفَّس فيه الفيلسوف آخر أنفاسه. أليس حكم إعدام مثيراً للإعجاب؟ سينيكا كان إسبانيّاً ترعرع في روما. من أعماله العزاء، الرسائل الأخلاقيّة، مسخ الإنسان إلى نبات القرع، في إلوهيّة كلوديوس -وهذا الأخير، كما قد تخمّنين، هو عمل تهكّميّ. ومع أنَّه زعم أنَّه يحتقر الأشياء في هذا العالم، إلّا أنَّه تمكَّن من جمع ثروة هائلة، معظمها من الربا في بريطانيا؛ يقول المؤرِّخ ديوكاسيوس إنَّ معدَّلات الفائدة الزائدة التي تقاضاها سينيكا كانت أحد أسباب ثورة البريطانيِّين وقتها ضدّ المحتلّ -وهذا يعني، كما أشار اللورد راسيل بذكاء، أنَّ ثورة الملكة بوديكا[22] كانت موجَّهة ضدّ الرأسماليَّة التي يمثِّلها مؤيّدو التقشُّف كمفهوم فلسفيّ في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة. هذه هي مفارقات التاريخ». ألقيت نظرة جانبيَّة إلى الآنسة فانديلور؛ كانت عيناها تبدأان في اللمعان؛ كنت أرهقتها على نحو لطيف. «خالف سينيكا أوامر خليفة كلوديوس، نيرون، الذي كان هو معلّمه. واتُّهم بالتآمر، وحُكم عليه بالانتحار، وقد نفَّذه بكلّ شجاعة وكرامة».

---

(21) فيلسوف وخطيب وكاتب مسرحيّ رومانيّ (4 ق.م- 65م). يلقّب بسينيكا الفيلسوف أو الأصغر تمييزاً عن والده الخطيب المشهور. يعدّ من أبرز الدعاة إلى الفلسفة الرواقيّة. (م)

(22) ملكة على قبيلة إيكيني الكلتيّة البريطانيّة، عاشت بين عامي (33-61 م). قادت انتفاضة ضدّ قوّات الإمبراطوريّة الرومانيّة عام 60 أو 61 ميلادي، وتوفّيت بعد فترة قصيرة من فشل ثورتها. وتعدّ بطلة شعبيّة في بريطانيا. (م)

أشرت إلى الصورة أمامنا. لأوّل مرّة يحدث لي أن أتساءل عمّا إذا كان مسوَّغاً للرسّام تصوير المشهد بمثل هذا الهدوء، هذا الهدوء المدروس. من جديد رعشة قلق. في هذه الحياة الجديدة التي أُدنت بها، هل ثمَّة شيء غير مفتوح للشكِّ؟ «بودلير»، قلتُ، وفي هذه المرَّة بدوت حقّاً أستكشف أرقَّ رعشات صوتي، «يصف بودلير الرواقيةَّ بأنَّها دين بسرٍّ مقدَّس واحد فقط: **الانتحار**».

في هذه اللحظة اهتزَّت الآنسة فانديلور فجأةً، مثل مهر فشل في القفز.

«لمَ تفعل هذا؟»، قالت بغِلظة.

نظرتُ إليها بعبوس المستفسر. وقفتْ وقبضتاها مثبَّتتان على خصرها، ووجهها الصغير مندفع إلى الأمام، متجهِّمة، تحملق في سكِّين أوراق عاجيّ فوق ظهر مكتبتي. ليست هادئة بالرغم من كلِّ شيء.

«لمَ أفعل ماذا، يا عزيزتي؟»

«أنا أعرف كم أنت قارئ جيِّد»، قالت وهي تبصق تقريباً «وأعرف كم أنت مثقَّف».

لقد جعلتِ الكلمة تبدو كأنَّها علّة. فكَّرت: لا يمكن أن يكون سكراين من أرسلها، هو أبداً لا يرسل شخصاً تحكُّمه بنفسه ضعيف جدّاً. بعد وهلة من الصمت المتوهِّج قلت بلطافة وهدوء:

«في عالمي لا توجد أسئلة بسيطة وأجوبة قليلة ثمينة من أيِّ نوع. إذا كنت ستكتبين عنّي، فعليك أن تقبلي ذلك ولو على مضض».

لا يزال نظرها مثبَّتاً على سكِّين الأوراق، زمَّت شفتيها بإحكام حتَّى بدتا بيضاوين، وهزَّت رأسها بحركة سريعة عنيدة، وأنا فكَّرت، بشغف، بفيفين، زوجتي في وقت ما، التي كانت الشخص الوحيد الناضج الذي أعرفه يهزُّ قدمه حينما يغضب.

«هناك»، قالت بلهجة مكبوتة على نحو مفاجئ، «هناك أسئلة بسيطة؛ وهناك أجوبة. لماذا تجسَّست لصالح الروس؟ كيف نجوت من ذلك؟ ماذا كنت تفكِّر في أنَّك ستحقّق بخيانة وطنك ومصالح بلدك؟ أو هل فعلت ذلك لأنَّك لم تعتقد يوماً أنَّ هذا بلدك؟ هل فعلت ذلك لأنَّك كنت إيرلنديّاً، وكنت تكرهنا؟»

وأخيراً أدارت رأسها ونظرت إليَّ. يا له من رشق! لم أتوقَّع ذلك قطّ. والدها الأدميرال الرائع، لا بدَّ سيكون فخوراً بها. أبعدت نظري عنها، وأنا أبتسم ابتسامتي القلقة، أتأمَّل في لوحة موت سينيكا. كم هي مُنجزة بطريقة متقنة طيَّات ثوب الرجل الميت، مصقولة، ناعمة وكثيفة مثل حجر رمليّ مخدَّد، لكن دقيقة أيضاً على نحو عجيب، مثل إحدى فقرات الفلاسفة المنحوتة. (يجب أن أقيِّم اللوحة، ليس لأنَّني أحلم ببيعها، بالطبع، لكنِّي الآن أجد نفسي في حاجة إلى استقرار ماليّ).

«ليس الروس»، غمغمتُ.

كدت أشعر بنظرة عينها «ماذا؟»

«لم أتجسَّس لصالح الروس»، قلت، «تجسَّست لصالح أوروبا، الكنيسة الأكثر اتّساعاً».

*

هذه هي حقّاً أكثر حالات الطقس اضطراباً. الآن فقط، وخارج أيِّ مكانٍ، بدأ وابل مطر عنيف، يقذف رشقات ضخمة على النوافذ التي تشعُّ فيها ألوان الشمس المائيَّة. لا ينبغي أن أرغب في مغادرة العالم بعد، العالم اللطيف جدّاً والكريم حتَّى في أعتى عواصفه. أخبرني الأطبّاء أنَّهم سيطروا

تماماً على الأمر، وأن لا علامة على وجود ورم خبيث جديد. أنا أتماثل للشفاء الآن، وأشعر أنَّني كنت كذلك طوال عمري.

كان والدي صائد أعشاش طيور ماهراً، ولم أتعلَّم قطُّ حيل هذه الحرفة. في صباحات أيَّام الآحاد، في فصل الربيع، كان يأخذني وفريدي فنمشي معه في الحقول أعلى كاريكدرام. أتخيَّل أنَّه كان يهرب من أبناء رعيِّته -كان لا يزال كاهناً وقتها- الذين اعتادوا دعوته إلى المنازل بعد القدَّاس. الزوجات الريفيَّات التعسات وهنَّ يثرثرنَ بصخب، والعمَّال من الشوارع الخلفيَّة للبلدة، والعوانس المجنونات بعيونهنّ اللامعات، اللاتي أمضين أيَّام الأسبوع يحرسنَ وراء نوافذ بستائر مخرَّمة في الفيلَّات على الواجهة البحريَّة. أتمنَّى لو أستطيع وصف هذه النزهات بأنَّها مناسبات أسريَّة محبَّبة مع والدي وهو يتحدَّث إلى ابنَيه ذوي الأعين الواسعة عن طُرق الطبيعة الأمِّ وحيلها. إنّما في الحقيقة، كان نادراً ما يتكلَّم، وأنا أشكُّ في أنَّه كان في معظم الوقت ينسى أمر الولدين الصغيرين اللذين كانا يتسلَّقان الصخورَ على نحو يائس، ويتشاجران ليواكباه في رحلته. كان ريفاً خشناً هناك في الأعلى، قطع أراض هزيلة من مزارع معزولة بين نتوءات صخر رماديٍّ أجرد، وأحراش الجولق، وانتصاب غريب لأشجار الدردار الجبليِّ، التي شوَّهتها العواصف البحريَّة. لا أعرف لمَ كان والدي يصرُّ على إحضار فريدي معنا، فهو لطالما ترعرع مهتاجاً في تلك المرتفِعات، ولا سيّما في الأيَّام العاصفة، ودائماً يخور خوار الحزن، ويسكب دموعه، ويمزِّق الجلد حول أظافره، ويقضم شفتيه حتَّى تنزفا. في أقصى حدود رحلتنا، كنَّا ننزل عند جوف صغير محاط بالصخور، وادٍ صغير، بمروج

العشب، وأجمات الجولق، وصفوف الزعرور البرّيّ، حيث كُلُّ شيء كان هادئاً وصامتاً. حتَّى فريدي يصبح صامتاً، أو شبه صامت أكثر من أيٍّ وقت مضى. هنا كان والدي، مرتدياً بنطالاً قصيراً، وجزمة طويلة، وكنزة صوفيَّة قديمة صفراء، ولا يزال يرتدي ياقته الإكليريكيّة، يقف فجأة ويده مرفوعة مصغياً إلى ما قد يكون إشارة سرِّيّة لا أعرفها، أو إلى تذبذب الهواء، ومن ثمَّ يحيد عن مسارنا ليصل إلى شجيرة هنا أو هناك بخفَّة دعسات مدهشة بالنسبة لرجل ضخم الجثَّة، وبحذر يفرِّق الأوراق، ويحملق راسماً على وجهه ابتسامة. أذكرها، تلك الابتسامة. كانت ثمَّة بهجة بسيطة فيها، بالطبع -كانت تجعله يبدو كما كنت أعتقد أن سيبدو عليه فريدي لو لم يكن ولداً أبله- لكن كان فيها أيضاً شيء من التجهُّم، الظَّفر الحزين، كما لو أنَّه كشف الخالق وهو يصنع قطعة مزيَّفة، مغشوشة أساساً بطريقة مبهرة نوعاً ما. ثمَّ، وإصبعه على شفتيه، كان يقودنا إلى الأمام، ثمَّ يرفعنا، واحداً تلو الآخر، لنشاهد ما كان قد اكتشف: عشُّ عصفور أو شحرور، بعض الأحيان لا تزال الطيور موجودة فيه. يرتجف ارتجافاً في منتهى الصغر، وينظر إلينا في خوف بليد، كما نشاهد في صورة لله جنباً إلى جنب مع ابنه. لم تكن الطيور، بالرغم من ذلك، بل البيوض، هي ما كانت تسحرني. بلونها الأزرق الشاحب أو الأبيض المرقّط، وهي ملقاة هناك في جوف العشِّ، مغلقة، على نحو لا يمكن تفسيره، محشوَّة بامتلائها الخاصّ. كنت أشعر أنَّني لو أخذت واحدة بيدي، الأمر الذي لم يكن أبي يسمح به، فإنَّها ستكون ثقيلة على الحمل، مثل قطعة من كوكب بعيد، أكثر كثافة من هذه البيضة. وأكثر ما كان يلفت النظر بشأنها هو اختلافها عن بعضها. كانت كُلُّ واحدة تشبه نفسها ولا شيء آخر. وفي هذه المبالغة في الأنانيَّة كانت البيوض تعنِّف كُلَّ ما يقف حولها، عالم

الشجيرات المنغمس في الملذَّات، والأوراق البريَّة المشاغبة. كانت البيوض القطعة الفنيّة الجميلة النهائيّة. لـمَّا شاهدت، أوَّل مرّة، لوحة موت سينيكا لامعة وسط النفايات في الغرفة الخلفيَّة في منزل أليغيري، فكَّرت في الحال في صباحات أيَّام الأحد، في طفولتي، تلك، وفي والدي برقَّته المتناهية وهو يفرِّق بين أوراق الشجر، ويريني تلك الكنوز الهشَّة التي لا يمكن تخريبها وهي تعشِّش في قلب العالم.

*

لتمتلك مدينة لستَ من سكَّانها الأصليِّين عليك أن تقع في الحبِّ هناك. لطالما كنت أعرف لندن؛ فعلى الرغم من أنَّ أسرتي كانت نادراً ما تسافر إليها، فإنَّهم كانوا يعدّونها عاصمتنا وليست مدينة بلفاست القاسية بأبنيتها بلون المطر، وخوار الصفَّارات داخل أحواض السفن. إنّما في ذلك الصيف فقط، الصيف الذي قضيته مع نيك في لندن، أصبح ذلك المكان حيّاً بالنسبة لي. أقول إنَّني قضيت الصيف معه لكن ذلك مبالغة الراغب. هو كان يعمل -مبالغة أخرى- لحساب والده في دار بريفورت آند كلاين، وكان قد انتقل من أكسفورد إلى شقَّة تقع فوق متجر بيع صحف قبالةَ طريق فولهام. لا تزال صورة الشقَّة في ذهني واضحة على نحو مميَّز. كانت ثمَّة غرفة معيشة صغيرة في مقدَّمة الشقَّة فيها نافذتان مدبَّبتان ناتئتان صنعتا أثراً كنسيّاً متعارضاً؛ في أوَّل مرة جاء فيها بوي إلى هناك صفَّق بيديه، وصرخ: «أحضر لي ردائي الكهنوتيَّ، لا بدَّ أنَّ لدينا قدَّاساً أسودا». عُرفت الشقَّة باسم «الغريبة» Eyrie، وهي كلمة لم نكن، نيك وأنا، متأكِّدين من طريقة نطقها، لكنَّها كانت مناسبة لأنَّها كانت حقاً «غريبة» حقّاً -كان نيك يفضِّل

الشموع الطويلة ولوحات بيرانيزي- وكانت مهويَّة أيضاً، ولا سيّما في الربيع، لـمَّا كانت النوافذ تغمرها السماء العالية، وعوارضها الخشبيَّة تصرصر مثل ساريات السفن الشراعيَّة. نيك الذي كان بطبيعته مزيجاً غريباً من العالم خبير الجمال والشخص الحماسيّ، ترك المكان يتخبَّط في بؤس مروِّع: لا أزال أرتجف حينما أفكِّر في المرحاض. أمَّا في الخلف فقد كان ثمَّة غرفة نوم غير أنيقة ذات سقف مائل على نحو حادّ، وفيها سرير نحاسيٌّ ضخم، بقواعد إسفينيَّة منحرفة كان نيك قد ادَّعى أنَّه كسبه في لعبة بوكر في أحد أوكار القمار خلف محطَّة بادينغتون. كانت تلك إحدى قصص نيك.

لم يكن غالب الأوقات ينام في الشقَّة، فقد كانت فتياته يرفضنَ البقاء هناك بسبب القذارة، وفي أيِّ حال، في تلك الأيام، نادراً ما كانت الفتيات يمكثن بين عشيّة وضحاها، أقلّه الفتيات اللاتي ينسجم معهنَّ. كانت الشقَّة، في الغالب، مكاناً لإقامة الحفلات، وللتعافي من آثار الشرب. في تلك المناسبات كان يلتزم بسريره ليومين أو ثلاثة، محاطاً بركام من الكتب وعلب الحلويات وزجاجات الشامبانيا التي توفِّرها سلسلة متعاقبة من الأصدقاء الذين يطلبونها من أجله عبر الهاتف. لا يزال في إمكاني سماع صوته عبر خطِّ الهاتف وهو يهمس على نحو مبالغ به همساً مؤلماً: «أقول، أيُّها العجوز، هل تظنُّ أنَّ في مقدورك القدوم إليَّ؟ أعتقد حقّاً أنَّني أحتضر». عادةً، حينما أصل إلى المكان يكون تجمُّع صغير بالفعل قد احتشد؛ حفلة أخرى في طور الحدوث. يجلسون على ذلك الجزء الواسع من السرير، يأكلون شوكولاتة نيك، ويشربون الشامبانيا في أكواب الأسنان الاصطناعيَّة وكؤوس المطبخ، ونيك في قميص نومه يستند على كومة من الوسائد، شاحباً كالعاج، شعره الأسود أشعث، مجرَّد عينَين وهيكل، مثل شيخ خارج من لوحات إيفون

شيلي. بوي يكون هناك، بالطبع، وكذلك روذنستاين، وفتيات يُدعين: دافني وبريندا وديزي، يرتدين قبّعات حريريَّة قاتمة اللون. في بعض الأحيان كان كويريل يزورنا، طويلاً نحيفاً، ساخراً، يقف وظهره إلى الحائط، ويدخِّن سيجارة معقوفة مثل شخصيَّة الوغد في الحكايات التوعويَّة، أحد الحاجبين مرفوع، وشفتاه مقلوبتان، ويده في جيب سترته الضيِّقة ذات الأزرار، حيث اعتقدت دائماً أنَّه يخفي مسدَّساً. كانت لديه نظرة رجل يعرف شيئاً مدمِّراً يخصُّ كلَّ شخص في الغرفة. (أدرك أنَّني لا أتصوَّره الآن كما كان آنذاك، شابّاً، أخرقَ، بالتأكيد، مثل بقيَّتنا، لكنَّه كان في أواخر الثلاثينيَّات من عمره حين تعرَّضت لندن للقصف الجويِّ[23]، وكان يبدو الشخص عينه طوال الوقت: ساخطاً، متوتّراً، فظّاً، يائساً على نحو مرح، وأكبر من عمره، ومن أعمارنا).

تلك الحفلات: هل استمتع بها أحد حقّاً؟ ما أذكره في المقام الأوَّل هو جوُّ اليأس المكبوت الذي كان يسودها. كنَّا نشرب كثيراً، لكنَّ الشرب كان يجعلنا خائفين أو يائسين فحسب، بحيث يتوجَّب علينا أن نصرخ أعلى وأعلى كما لو كنَّا نبعد الشياطين. ما الذي كنَّا نخافه؟ حرباً أخرى؟ نعم، الأزمة الاقتصاديَّة العالميَّة، كلَّ ذلك، تهديد الفاشيَّة، لم يكن ثمَّة نهاية للأشياء التي خفناها. شعرنا باستياء عميق! رمينا بكلِّ مصائبنا على الحرب العالميَّة، وعلى الرجال العجائز الذين أجبروا الشبّان على القتال فيها، وربَّما كان احتلال الفلاندرز[24] قد دمَّرنا حقّاً كأمّة، لكن... لكنَّني ذهبت إلى هناك، وسقطت في دور عالم الاجتماع الهاوي الذي أحتقره. لم أفكِّر قطُّ في المصطلحات

---

(23) في أثناء الحرب العالميّة الثانية تعرّضت لندن للقصف الجويّ من قبل الطائرات العسكريّة الألمانيّة بين 7 سبتمبر 1941 و21 مايو 1942. فشلت ألمانيا في تحقيق أهدافها وخسرت 3 آلاف طائرة، بالإضافة إلى مقتل عشرات آلاف المدنيّين البريطانيين. (م)

(24) احتلال القوات النازيّة لبلجيكا في 28 مايو 1940. (م)

التي تتعلَّق بنا، أو بالأمَّة: ولم يفعل أحد منَّا ذلك، أنا مقتنع بذلك. كنَّا نتحدَّث عن تلك المصطلحات بالطبع -لم تتوقَّف يوماً عن الحديث على هذا النحو- لكنَّ الأمر لم يكن أكثر من مجرَّد إثارة للمواقف لنجعل أنفسنا نشعر بجدِّية أكبر، شأن أكبر، أصالة أكبر. في أعماقنا -إن كان لدينا أعماق بالفعل- كنَّا نهتمُّ بأنفسنا فقط، وبين الفينة والأخرى نسبغ اهتماماً على أحد ما غيرنا؛ أليست هذه هي الحال دائماً؟ لمَ فعلتَ ذلك؟ سألتني تلك الفتاة هذا السؤال البارحة، وأنا أجبت بحكايات من الفلسفة والفنِّ، وهي انصرفت غير راضية. إنّما أيّ ردّ آخر يمكن أن أقدِّمه؟ أنا هو الجواب عن سؤالها، كينونتي بكلِّيتها؛ لا شيء أقلَّ يمكن أن يفي بالغرض. سيكون الأمر مسلِّياً، في ذهن العامَّة، لفترة وجيزة، وسيتسلَّون بفكرة وجودي، فأنا شخصيَّة بارزة بمزيّة واحدة مهمَّة. حتَّى بالنسبة لأولئك الذين ظنوا أنَّهم عرفوني جيِّداً، فإنَّ كلَّ شيء آخر، فعلته، أو لم أفعله، كان تلاشى إلى تفاهة قبل حقيقة ما سمِّيت خيانتي، في حين أنَّ ما كنت عليه: قطعة واحدة مجزَّأة إلى آلاف. هل هذا منطقيّ؟

إذاً، ما كنَّا نخافه، حينها، كان أنفسنا. كلُّ واحد كان يخاف شيطانه.

كويريل، لـمَّا اتَّصل هاتفيّاً منذ عدَّة أيَّام كانت لديه نعمة عدم التظاهر بالصدمة. إنَّه يعرف كلَّ شيء عن الخيانة، بكلِّ تنوُّعاتها؛ إنَّه ذوَّاقة خبير في هذا المجال. لـمّا كان في ذروة شهرته (لقد تحرَّر بعض الشيء من العنوانات الرئيسة منذ كبر في العمر، ولم يعد ذاك الشخص المزعج الذي كانه يوماً ما) اعتدت أن أضحك من قلبي ضحكة مكتومة على صوره في الصحف وهو يجالس البابا لأنَّني كنت أعرف أنَّ الشفتين اللتين قبَّلتا الخاتم البابويَّ كانتا على الأرجح قبل ذلك بنصف ساعة بين فخذي امرأة ما. لكن كويريل

أيضاً في خطر الظهور على ما هو عليه حقّاً، أيّاً ما قد يكون حاله. ذلك المظهر المريب الذي كان يرتديه دائماً أصبح أكثر وضوحاً مع تقدُّم العمر. إنّما في مقابلة أجريت معه في الآونة الأخيرة -من أين حصل على سمعة تجنُّب العلنيَّة- قدّم واحدة من تلك الملاحظات التي تبدو عميقة لكنَّها في الواقع تافهة، ملاحظة أصبحت علامته التجاريَّة: «أنا لا أعرف الله»، أخبر الصحافي، «لكن بالتأكيد أنا أؤمن بالشيطان». أوه، نعم، أحدنا في حاجة دائمة إلى ملعقة طويلة ليرتشف مع كويريل.

كان، على نحو أصيل، فضوليّاً تجاه الناس -العلامة التي لا ريب فيها لروائيٍّ من الدرجة الثانية. في تلك الحفلات في الشقَّة «الغريبة» كان يقف لفترة طويلة متَّكئاً إلى الجدار بظهره، وقطرات دخان شريرة تنبعث من زوايا فمه، يراقب وينصت، في حين يضجُّ الحفل بهستيريا بيت القرود. كان يشرب بمقدار ما يشرب البقيَّة، لكن لم يبدُ أنَّ ذلك يؤثِّر فيه خلا أنَّه يجعل تلك العينين الخابيتين بلون أزرق شاحب، وتلمعان بشيء من الابتهاج الخبيث. كان في العادة ينسلُّ هارباً في وقت مبكِّر، برفقة فتاة تلحق به؛ تنظر إلى البقعة حيث كان يقف لتجده قد رحل، ويبدو أنَّك ترى صورة خياليَّة له بعد رحيله، مثل الظلِّ الشاحب المتبقِّي على الحائط حين إزالة صورة ما. لذلك فوجئت، في أثناء إحدى الحفلات، في عصر يوم من أيَّام أغسطس، بأنَّه بادرني وأنا في الممرِّ.

«أصغِ إليَّ ماسكل»، قال، على نحو متملِّق، بطريقته العدوانيَّة تلك، «لم يعد في إمكاني شرب المزيد من هذا النبيذ القذر -دعنا نخرج ونشرب شراباً حقيقيّاً».

شَعَرَ رأسي كما لو كان محشوّاً بالقطن الطبّيّ، واتَّخذ ضوء الشمس في

النوافذ ذات العوارض لون البول، وفي الحال رغبت في المغادرة. كانت ثمَّة فتاة تبكي واقفة عند باب مدخل غرفة النوم، ووجهها بين يديها؛ لم يكن نيك في المشهد. مشينا، كويريل وأنا، صامتين إلى أسفل الدرجات التي تصرصر. كان الهواء في الشارع مفعماً بأبخرة عوادم السيَّارات. من الغريب التفكير في زمن كان فيه أحدنا يلاحظ رائحة البنزين. ذهبنا إلى حانة -هل كان اسمها فينش حينها، أو كان لديها اسم آخر؟- طلب كويريل شراب جن وماءً. «خمر العاهرات»، قال محمحماً. كان ذلك بعد وقت فتح البار مباشرة، وكان ثمَّة مرتادون قليلون. جلس كويريل وإحدى قدميه معلَّقة على عارضة كرسيِّه، والثانية انتصبت على نحو رقيق عند نهاية أصابع قدمه مثل راقصي الباليه؛ لم يفكَّ أزرار سترته. انتبهت إلى سوارَي كمَّي قميصه المهترئين، وإلى لمعان ركبتي بنطاله. كنَّا في سنّ واحدة، لكنِّي كنت أشعر أنِّي أصغر منه بجيل. كانت لديه وظيفة في صحيفة إكسبريس، أو ربَّما كانت صحيفة تيليغراف، يكتب الأخبار السارَّة الطازجة لعمود الشائعات، وفي أثناء شربنا كان يروي حكايات عمله في المكتب، ويصف على نحو هزليٍّ غرابة أطوار زملائه الصحافيِّين، وغباء طلّاب المدارس الحكوميّة، الذي يتَّسم به المحرِّر المناوب في تحضيره ما بدا أنَّه فقرات جاهزة تنمُّ عن فصاحة مثيرة للإعجاب ودقَّة. على الرَّغم من أنِّي كنت أرى بوضوح أنَّ هذا لم يكُ إلَّا تمثيلاً، يقصد من ورائه دراستي من أجل غائيَّة واحدة ألا وهي أن أصبح علامته التجاريَّة كروائيّ. كان بالفعل خبيراً في طرح ستار دخانيّ (بالمعنى الحرفيِّ للكلمة، والمجازيِّ: كان يدخِّن دون توقُّف، وعلى ما يبدو السيجارةَ الأبديَّة نفسها، فأنا لم أكن قادراً قطُّ على الإمساك به وهو يشعل سيجارة).

وصل إلى نهاية حكاياته، وصمتنا هنيهةً من الزمن. أمر بمزيد من الشراب، ولـمَّا حاولت دفع ثمنه، أزاح بمالي بعيداً بذلك الادِّعاء الحقيقيِّ للتميُّز الذي كان أحد خصاله. لا أعرف لماذا افترض أنَّني مفلس؛ بالعكس، كنت في وضع ماديٍّ جيِّد نسبيّاً في ذلك الوقت، والفضل يعود في ذلك إلى عمودي في صحيفة سبيكتيتور، والمحاضرات التي ألقيها بين حين وآخر في المعهد.

«أنت مغرم بالقندس، أليس كذلك؟»، قال.

يمكنني القول إنَّني، مع هذا النوع من المكاشفة المحسوبة، أصبحت حذراً، على الرّغم من شربي الجن.

«لم يمضِ على معرفتي به زمن طويل»، قلت.

هزَّ رأسه، وقال: «بالطبع، كنت رجلاً يرتاد جامعة كمبريدج، ولا يعني هذا أنِّي رأيته كثيراً في أكسفورد». كان نيك قد أخبرني عن كويريل أنَّه، في أيَّام دراستهما الجامعيَّة، كان مشغولاً جداً بالقوادة على الاهتمام بالصداقات. على الرّغم من الشائعات الأخيرة التي تشي بعكس ذلك، كان كويريل ميَّالاً للنساء على نحو راسخ، ووصل افتتانه بالنساء منحىً خاصّاً بأمراض النساء. كنت أظنُّ دائماً أنَّ رائحة الجنس تفوح منه. أسمع أنَّه لا يزال يطارد الفتيات، وهو الآن في سبعينات عمره، في الريفييرا الفرنسيَّة. «صبيٌّ إلى حدّ بعيد، القندس»، قال، ثمَّ توقَّف، وألقى إليَّ نظرة جانبيَّة طويلة، وسأل: «هل تثق به؟» لم أعرف بماذا أجيبه، وتمتمت شيئاً ما حول أنِّي لم أظنَّ أحداً موثوقاً به حقّاً. هزَّ رأسه من جديد، وعلى ما يبدو، كان راضياً، وأهمل الموضوع، وبدأ الكلام، بدلاً من ذلك، عن زميله الذي اصطدم به مؤخَّراً، وكان قد تعرَّف إليه في أكسفورد.

«سيثير اهتمامك»، قال، «إنَّه ملتهب حماساً لحزب شين فين[25]».

ضحكتُ.

«أنا في الجانب الآخر من السياج، كما تعرف»، قلت، «شعبي هم البروتستانت السُّود».

«أوه، البروتستانت في إيرلندا كلُّهم كاثوليك، حقّاً».

«كان حريّاً بي التفكير بعكس ذلك تماماً. أو أنَّنا كلَّنا مجرَّد وثنيِّين على نحو واضح، ربَّما».

«حسناً، في أيِّ حال، المكان ممتع، أليس كذلك؟ وأقصد النشاط السياسيَّ».

أتساءل، متعجِّباً، ما إذا كان يستشفُّ آرائي هادفاً إلى تجنيدي، حتَّى في ذلك الوقت؟ كان ذلك في صيف عام واحد وثلاثين، فهل كان بطبيعة الحال يعمل في الوكالة، في ذلك الوقت المبكِّر؟ أو أنَّ مسألة الدِّين كانت ربَّما تثير اهتمامه فحسب؟ على الرّغم من أنَّ أحداً منَّا لم يكن يعلم، فإنَّه كان فعلاً يأخذ دروسه في كنيسة فارم ستريت (بالمناسبة، اعتناق كويريل للكاثوليكيَّة بدا لي دائماً أقرب إلى مفارقة تاريخيَّة مقارنة بماركسيَّتي). وفي الواقع أزاح الآن موضوع السياسة، وانتقل إلى الحديث بالدين، بطريقته المنحرفة المعتادة، فأخبرني قصَّة عن جيرارد مانلي هوبكنز وهو يعظ في تجمُّع نسائيٍّ في دبلن، ويفضح الأبرشيَّة بمقارنة الكنيسة بخنزيرة لديها سبع حلمات تمثِّل القرابين المقدَّسة السبعة. ضحكتُ، وقلت كم كان بائساً وأحمقَ هوبكنز وهو يجرِّب التأثير في العموم ويفشل على نحو سخيف، لكن

---

[25] حزب سياسيّ إيرلنديّ موجود في إيرلندا الشماليّة وجمهورية إيرلندا. أسّسه آرثر غريفث عام 1905. تفرّع عنه جناح عسكريّ عام 1970، أثّر في تاريخ إيرلندا الحديث، وفي الحركة الانفصاليّة الإيرلنديّة. (م)

كويريل رمقني بنظرة طويلة محسوبة أخرى، وقال: «نعم، لقد ارتكب خطأ لـمَّا فكَّر في أنَّ الطريق إلى أن يكون مقنعاً هو اتِّخاذ مظهر زائف»، وأنا شعرت بالارتباك على نحو غريب.

أنهينا شربنا، وغادرنا الحانة. أنا، فقدت تركيزي تماماً، وكويريل، أشار إلى سيَّارة أجرة، واتَّجهنا إلى شارع كورزون، حيث كان ثمَّة افتتاح لمعرض في آليغيري. اللوحات التي كان رسمها مهاجر روسيٌّ أبيض، نسيت اسمه، كانت هراءً ميئوساً منه، مزيجاً من العقم السياديِّ والتصوير الروسيِّ المبتذل، قلب معدتي التي كانت مضطربة بطبيعة الحال بسبب الشراب. كان غاضباً جدّاً، هذا الروسيُّ الخارق، على الرّغم من أنَّ الحشد كان كبيراً جدّاً، وقد فاض من المعرض، والناس كانوا واقفين حول الرصيف تحت أشعّة شمس المساء، يشربون النبيذ الأبيض، ويهزؤون بالمارَّة، ويصدرون ذلك الهدير المنخفض لتهنئة الذات، الذي هو صوت الطبيعة الجمعيُّ للشاربين عند ينبوع الفنّ. آه، في تلك الأيَّام كانت لديَّ القدرة على أن أصل إلى أعلى درجات الازدراء! الآن، في أرذل العمر، فقدت إلى حدٍّ كبير تلك القدرة، وأفتقدها فهي كانت شغفاً مميَّزاً.

يبدو أنَّ حفلة نيك قد نقلت نفسها إلى هنا، كما هي دون تغيير. كان هناك نيك نفسه، لا يزال أشعث الشعر، وحافي القدمين، ببنطال ارتداه فوق قميص نومه، وليو روذنستاين ببدلته المكوَّنة من ثلاث قطع، والفتاتان اللطيفتان ديفني وديزي، حتَّى الفتاة الباكية، عيناها حمراوان الآن، لكنَّها تضحك. كلُّهم ثملون، ويصرخون إلى حدٍّ محرج. لما رأوني وكويريل قادمين التفتوا نحونا، وصاح أحدهم بقول ضحك له الجميع، وكويريل شتم، ثمَّ دار على عقبي حذائه، ومشى بتغطرس باتِّجاه الحديقة، رأسه الضيِّق مشرَّع،

ومرفقاه مضغوطان بشدّة على جنبيه ببزّته ذات الكتفين العاليين، البنّيّة الداكنة التي كانت تذكِّرني بزجاجة حساء «إتش بي».

إنَّه لأمر رائع كم يتفتَّح ذهنك لـمَّا تصل إلى أناس هم أكثر ثمالةً منك؛ في غضون دقائق من التوقُّف على الرصيف وسط ذلك الحشد السكِّير المنفوخ، بدأت أتذوُّق النحاس في مؤخِّرة فمي، وشعرت بصداع يبدأ، وعرفت أنّي في حاجة إلى شراب أكثر، أو سأواجه تتمَّة السهرة في حالة من كآبة رماديَّة. كان بوي قد توقَّف للحديث إليَّ، وكان يصرخ في أذني بحكاية شائنة عن لقاء مع بحَّار زنجيٍّ («طوله فارع مثل حبل مُدمَّى!») ويغطِّيني، بكلِّيتي، بأنفاس الثوم. أردت التحدُّث إلى نيك لكنَّ الفتيات كنَّ استولينَ عليه، وكنَّ، بفرح شديد، يبدين الإعجاب بقدميه العاريتين القذرتين للغاية. انفصلت عن بوي في النهاية وغصت في الجزء الداخليِّ من المعرض، الذي بدا، على الرّغم من الازدحام، أقلَّ تقييداً من الخارج على الرصيف. كأس من النبيذ تجسَّمت في يدي. وصلت إلى مرحلة الثمالة بعينين صافيتين وهلوسة من نوع ما بحيث كلُّ شيء عاديّ بدا لي كما لو كان اتَّخذ شكلاً غريباً على نحو مضحك. بدا الناس الواقفون أكثر المخلوقات غرابة؛ صدمني كم كان مذهلاً حقّاً أنَّه ينبغي للمخلوقات البشريَّة أن تمشي مستقيمة وليس على أربعتها، الأمر الذي بالتأكيد سيجعلها طبيعيَّة أكثر، وأنَّ أولاء المجتمعين هنا، عمليّاً الجميع، بمن فيهم أنا، كان مزوَّداً بكأس عليه، أو عليها، أن يحملها مستقيمة، وفي الوقت عينه يتكلَّم بأقصى سرعة ممكنة، وكمّيّة ممكنة. كلُّ شيء بدا مجنوناً، ومثيراً للضحك، وفي الوقت عينه مثيراً للمشاعر على نحو قاسٍ. ابتعدت عن الصور الزيتيَّة الروسيَّة غير المتقنة التي كان يتجاهلها الجميع في كلِّ الأحوال، وشققت طريقي إلى داخل الغرف الخلفيَّة، حيث

مكاتب وولي كوهين. وَوولي، وهو شابٌّ قصير ممتلئ الجسم مع تجعيدات في شعره («ضفائر شايلوك النافرة»[26] -بوي)، كان أشاع نكتة عن يهوديَّته، وهو يفرك يديه، ويبتسم ابتسامة زيتيَّة، ويشير إلى أتباع دينه بأنَّهم أشباه يهود ومختونون. أشكُّ أنَّه في أعماقه معادٍ للساميَّة، مثل كثير من اليهود الذين عرفتهم في تلك الأيَّام التي سبقت الحرب. قابلته في غرفة المخزن، خنزير جاثم عند زاوية طاولة، يلوِّح بساق ممتلئة صغيرة، ويتحدَّث بحماس إلى امرأة شابَّة بشعر قاتم، بدا لي وقتها أنّي لم أتعرَّفها.

«فيكتور، صغيري»، صرخ، «تبدو ملتاعاً وجائعاً».

لقد كان وولي ماركسيّاً منذ مراهقته، واحداً من أوائلنا الذين التقطوا الفايروس.

«كنت أشرب مع كويريل»، قلت.

ضحك، «الحبر الأعظم؛ نعم!»

المرأة الشابَّة، التي لم يكلِّف نفسه عناء تقديمها، كانت تنظر إليَّ، بعينين مشكِّكتين، محاولة ألّا تضحك، أو هكذا بدا لي. كانت قصيرة، متجهِّمة وسمينة، مع ظلال كدمات تحت عينيها. ارتدت أحد تلك الفساتين أنبوبيَّة الشكل الشائعة في ذلك الوقت، مصنوعاً من طبقات من الحرير الأسود -البرونزيّ، كان يلمع الضوء عليها على نحو باهت، ففكَّرت في خنفساء سوداء محبوسة داخل درعها الهشِّ اللامع. استأنف وولي حديثه إليها، وهي حوَّلت انتباهها ببطء بعيداً عنِّي. كان يدور الحديث عن رسّام ما اِكتُشفت أعماله مؤخَّراً -خوسيه أوروزكو، شخص بهذا الاسم. كان وولي واحداً من هؤلاء المتحمِّسين الحقيقيِّين الذين كان العالم لا يزال قادراً على

---

(26) إشارة إلى شخصيّة شايلوك، التاجر اليهوديّ الطمّاع في مسرحيّة (تاجر البندقيّة) لشكسبير. (م)

إنتاجهم في ذلك الزمن. قضى نحبه بعد ذلك بسبع سنوات مع لواء كورنفورد في أثناء حصار مدريد.

«إنَّه الشيء الوحيد الممكن بعد الآن»، كان يقول «فنُّ الشعب. الباقي هو ترفٌ برجوازيٌّ. استمناء بالنسبة للطبقات المتوسِّطة».

نظرتُ إلى المرأة الشابَّة: كلمات مثل الاستمناء لم تكن تنطق بسهولة، كما هي الآن. ضحكتْ ضحكة ملولاً، وقالت:

«أوه، هلَّا سكتَّ يا وول».

ابتسم ابتسامة عريضة، ثمَّ التفت إليَّ «ماذا تقول، فيكتور؟ بالله عليك، أليس ذلك حقيقيّاً! صحيحاً، أليست هي الثورة نفسها التي أصابت أرض الظالم هذه؟»

هززت كتفي. كان من الصعب هضم اليهود المغرورين من أمثال وولي؛ المعسكرات لم تكن بعد قد حوَّلت قبيلته إلى شعب الله المختار الذي كانوه في أحد الأيَّام من جديد. إلى جانب ذلك، هو لم يحبَّني قطُّ. وأشكُّ في أنَّه كان يعرف كم كنت أكره اسمي -فقط رؤساء الفرق الموسيقيَّة، والمحتالون الحقيرون يُدعون فيكتور- لأنَّه استخدمه في كلِّ مناسبة.

«إذا كنت من المؤيِّدين بشدَّة للفنِّ الاشتراكيِّ»، قلت، «فلماذا تعرض تلك القمامة البيضاء هناك؟»

رفع كتفيه، وابتسم ابتسامة عريضة، وأظهر لي كفَّ التاجر خاصَّته، «إنَّها تبيع، يا صغيري؛ تبيع».

حينها، جاء نيك يتجوَّل، وقدماه الحافيتان تضربان على لوح الأرضيَّة، وابتسامة الثمالة التي تخصَّه منحرفة. تبادل والمرأة الشابَّة نظرة ساخرة، وكما بدا لي، نظرة متورِّط غير محتشمة، وبعد ذلك بثانية عرفت من كانت.

«انظر إلينا»، قال مبتسماً وهو يحرِّك كأس شرابه في الهواء في شكل قوس غير مستوٍ ظهر فيه هو والمحتفلون خلفه، فضلاً عن وولي وأخته، وأنا، وقال: «يا لها من ثلَّة عاطلة».

«كنَّا فحسب نتوقَّع الثورة»، قال وولي.

ضحك نيك على هذا الكلام، وأنا استدرت نحو بيبي.

«أنا آسف»، قلتُ، «عرفتُك، لكن...»

رفعت حاجبها وقد فوجئتْ، ولم تقل شيئاً.

كانت الغرفة مطليَّة باللون الأبيض الرماديِّ، وكان السقف عبارة عن قبَّة مسطَّحة قليلاً. النافذتان المتَّسختان تطلَّان جنباً إلى جنب على فناء مرصوف تغمره أشعَّة الشمس المسائيَّة مباشرة. واللوحات كانت مُتكدِّسة على الجدران تحت غطاء من غبار رماديٍّ. مثاراً بنظرة بيبي المتحدِّية، ذهبتُ، وتجوَّلت بين اللوحات. طُرز فاشلة تعود إلى السنوات السابقة، تعبة، حزينة، وخجلى: البساتين في إبريل، عريٌّ شاحب غريب، بضع أمثلة عن التكعيبيَّة الإنكليزيَّة التي كانت كلّها زوايا حادّة وألواناً فاتحة. ثمَّ كانت تلك اللوحة هناك، بإطارها الذهبيِّ المشوَّه، بطبقة متصدِّعة من الورنيش الذي جعلها تبدو كأنَّ مئات من الأظافر المتعبة كانت ألصقت بحذر على سطحها. كان جليّاً الأمر، حتَّى في النظرة الأولى، وفي ضوء خفيف. أرجعته بسرعة إلى الحائط، وشيء حارٌّ بدأ يتورَّم نحو الخارج من نقطة وسط صدري؛ أينما أنظر إلى لوحة عظيمة أوَّل مرَّة أعرف السبب في أنَّنا لا نزال نتحدّث عن القلب كمستقرّ للعواطف. ضاق نفَسي، وكفّاي أصبحتا رطبتين. بدا الأمر كما لو كنت تعثَّرت بشيء ما غير محتشم. هذه هي الطريقة التي كنت أشعر بها حين كنت طالب مدرسة، لـمَّا كان أحدهم يمرِّر صورة بذيئة لي من تحت

المقعد. أنا لا أبالغ. لم أهتمَّ يوماً باختبار أصول استجاباتي للفنِّ؛ كثير من تعريشات النباتات التفَّت حول بعضها في الأسفل هناك في الظلام. انتظرت للحظة محاولاً أن أبقى هادئاً- الكحول في أجهزتي العضويّة كانت قد تبخَّرت فجأة- ومن ثمَّ أخذت نفساً عميقاً، ورفعت الصورة، وحملتها باتّجاه النافذة.

بلا ريب.

كشفني وولي في الحال، وقال: «هل رأيت شيئاً تحبُّه، فيكتور؟»

هززت كتفي، وأمعنت النظر مدقِّقاً في عمل الفرشاة، محاولاً أن أبدو متشكِّكاً.

«تبدو مثل لوحة موت سينيكا التي رسمها -ماذا كان اسمه؟»، قال نيك ليفاجئني، «شاهدناها في اللوفر، أتذكر؟» تخيَّلت نفسي أرفسه، بقوَّة، على قصبة ساقه.

اقترب وولي، ووقف إلى جانب كتفي، يتنفَّس «أو هو عمل آخر للموضوع نفسه»، قال بتمعُّن، «لـمَّا وجدَ موضوعاً يحبُّه، تمسَّك به إلى أن انتهى بالموت»، إنَّه مهتمٌّ الآن؛ أزعجته ملاحظاتي، لكنَّه احترم عيني.

«حسناً، أعتقد أنَّها تتبع مدرسة»، قلتُ، وأرجعت اللوحة إلى مكانها، ووجهها إلى الحائط، متوقِّعاً منها أن تتعلَّق بيدي مثل ولد أوشكت أن تتخلَّى عنه. كان وولي يراقبني بنظرة خبيثة. لم ينخدع.

«إذا كنت تريدها»، قال، «قدِّم لي عرضاً».

نيك وبيبي كانا جالسين جنباً إلى جنب، إلى طاولة وولي، متجمِّدين على نحو غريب؛ الرأسان معلَّقان، وسيقانهما تتدلَّى مرتخية، ولا حياة فيهما مثل زوج من الدّمى المتحرِّكة لاسلكيّاً. فجأةً أصبحت خجولاً في حضرتهما، ولم أقل شيئاً، نظر إليهما وولي، ومن ثمَّ إليَّ، وأومأ مغلقاً عينيه، وابتسم بمكر

كأنَّه فهم ورطتي الآنيَّة التي لم أفهمها: شيء له علاقة بالفنِّ، والإحراج، والرغبة كلّها امتزجت معاً.

قال: «سأقول لك شيئاً، خمسمئة جنيه وهي ملكك».

ضحكت؛ فتلك كانت ثروة في تلك الأيَّام.

«يمكن أن أدبِّر مئة»، قلت، «إنَّها نسخة عن الأصل واضحة».

رسم وولي أحد تعابيره اليهوديَّة؛ مضيِّقاً عينيه، واضعاً رأسه على الجانب، حانياً كتفه: «ماذا تقول لي يا رجل، نسخة، هل هي كذلك، نسخة؟» ثمَّ استقام من جديد، وهزَّ كتفيه مستهجناً: «حسناً: ثلاثمئة. هذا أقلّ سعر يمكن أن أصل إليه».

قالت بيبي: «لماذا لا تعتمد على ليو روذنستاين ليشتريها لك؟ لديه كمِّية ضخمة من الأموال».

نظرنا كلُّنا إليها. ضحك نيك، وفجأة قفز عن الطاولة برشاقة كأنَّه عاد إلى الحياة.

قال: «تلك فكرة جيِّدة. هيّا، دعونا نجده».

انهارَ قلبي (صياغة غريبة؛ ذلك أنَّ القلب لا يبدو أنَّه يسقط بل ينتفخ، بالأحرى هكذا أجده، حينما يُصاب أحدنا بالذعر). نيك كان ليحوِّل الشيء إلى مجرَّد خرقة قماش، ووولي ينزعج، وأنا أخسر فرصتي الوحيدة التي كان من المحتمل أن أحصل عليها، أن أمتلك تحفة صغيرة، لكن حقيقيَّة. لحقت به وبيبي (أتساءل بطبيعة الحال لمَ كانت تدعى بهذا الاسم- كان اسمُها، فيفيين، لطيفاً وحادّاً، مثلها) خارجاً إلى الرصيف، حيث كان الحشد قد تفرَّق. كان ليو روذنستاين لا يزال هناك بالرّغم من ذلك؛ سمعنا كلامه الأرستقراطيَّ الصاخب قبل أن نراه. كان يتحدَّث إلى بوي وإحدى الفتيات

الشقراوات الرقيقات. كانوا يتناقشون في أمر سعر الذهب، أو في السياسة الإيطاليّة، شيء من هذا القبيل. حديث صغير في موضوعات كبيرة، السّمة الرئيسة طوال الوقت. كان لدى ليو اللمعان الباهت للأغنياء فاحشي الثراء، فقد كان وسيماً، بطريقة ذكوريَّة مفرطة، طويلاً، ممتلئ الصدر، برأس طويل داكن لأبناء المشرق.

«مرحباً، أيَّها القندس»، قال. وأنا حصلت على إيماءة، ونظرة مهتمَّة، وظلِّ ابتسامة من بيبي. كان ليو شديد البخل في مجاملاته.

«ليو»، قال نيك، «نريد منك شراء لوحة من أجل فيكتور».

«أوه، نعم؟»

«نعم. إنَّها لوحة لبوسان. إلّا أنّ وولي لا يعرف ذلك. هو يطلب ثلاثمئة جنيه، وهي فرصة مناسبة. فكِّر فيها على أنَّها استثمار. لوحة هي أفضل من السبائك، أنت أخبره، بوي».

بوي، لأسباب لم أتمكَّن من فهمها قطُّ، كان ينظر إليه على أنَّ لديه شيئاً من الحسِّ تجاه اللوحات، وفي بعض الأحيان كان ينصح أسرة ليو بما يخصُّ مجموعاتها الفنِّيَّة. كان يسرُّني أن أتخيَّله في شركة والد ليو، وهو رجل جليل وغامض مع مظهر شيخ بدويٍّ، وكلاهما يدشِّن صالات العرض، ويتوقَّف على نحو جدّيّ أمام إحدى لوحات الكانافا البنِّيَّة الكبيرة فقيرة القيمة، وبوي في أثنائها يناضل من أجل قمع ضحكته. الآن يبتسم ابتسامة التمثال التي تخصّه: عيناه جاحظتان، ومنخراه اتَّسعا تدريجيّاً، وفمه الأحمر الغليظ انقلب عند الطرفين، وقال: «بوسان؟ يبدو جذَّاباً».

ليو كان يدرسني بارتياب لطيف.

«لديَّ مئة»، قلتُ مع شعوري كأنَّني وضعت قدماً ثابتة على حبل

بهلوان مشدود. لـمّا ضحك ليو ضحكته الكبيرة الناعمة كان في وسعك رؤية الصوت الخارج من فمه في هيئة حروف: ها، ها، ها.

«أوه، تابع»، قال نيك، ونقل نظره مكشّراً بيني وليو، كأنَّها كانت لعبة، وكنَّا نحن المتقاعسين عنه. نظر ليو إلى بوي ومرَّ شيء بينهما، ثمَّ استدار بعينه الفاحصة نحوي.

«أنت تقول إنَّها أصليَّة؟» قال، «إذا كنت أتمتَّع بسمعة فإنَّني سأضع رهاني عليها».

اشتدَّ حبل البهلوان. ضحك ليو من جديد، وهزَّ كتفيه.

«أخبروا وولي أنّني سأرسل شيكاً إليه»، قال، ثمَّ ابتعد.

لكمني نيك على كتفي على نحو لطيف، وقال: «هناك، أخبرتك». بدا فجأةً في حالة سُكر شديد. كان لديَّ شعور بالعجز، السقوط السعيد. عصر ذراعي. خطت الفتاة الشقراء إلى مقربة من بوي وهمست: «ما هو بوسان؟»

*

أتساءل إن كان ذلك حقّاً في شهر أغسطس. أو في وقت مبكِّر من الصيف؟ أتذكَّر ليلة بيضاء، مع وميض لا نهاية له في السماء فوق الحديقة، وظلال ألوان المياه المتَّسخة تمتدُّ على الشوارع الصامتة. فجأة أصبحت المدينة مكاناً لم أكن رأيته من قبل، غامضاً، غريباً، يضيء من داخله بإشراقته الداكنة الخاصَّة. بدا لنا أنَّنا نسير منذ ساعات، نيك وبيبي وأنا، نتجوَّل بلا هدف، الذِراع بالذراع، ثملين على نحو حالم. كان نيك قد نجح في إيجاد خفَّين صوفيَّين كبيري المقاس، ودائماً ما كان يلبسهما بالخطأ حينما يخرج، وكان لا بدَّ من أن يتكئ علينا حتَّى يُرجع قدمه ليدخلها في الخفَّين من جديد كلَّ مرَّة وهو

يشتم ويضحك. كان ملمس أصابعه النحيلة المرتعشة على ذراعي، على نحو ما، النظير الفيزيائيَّ للوهج في الجزء الخلفيِّ من ذهني حيث طفت صورة اللوحة، لوحتي، كأنَّها في معرض مظلم. وخشية نوبة متجدِّدة من الرزانة، ذهبنا إلى نادٍ في الشارع اليونانيِّ، حيث أدخلنا نيك؛ فأحدهما كان يملك مالاً -بيبي، ربَّما- وشربنا بضع زجاجات من الشمبانيا السيِّئة، وجاءت فتاة متدثِّرة بالريش، ذات ضحكة صاخبة، وجلست في حضن نيك. بعدها وصل بوي، وأخذنا إلى حفلة في شقَّة في وزارة الحرب -أعتقد أنَّها كانت بيت إقامة لأحد الموظفين- كانت فيها بيبي الأنثى الوحيدة الموجودة. وقف بوي وكفَّاه على وركيه، وسط دخان السجائر، وصياح الثملين، وهزَّ رأسه باشمئزاز، وقال بصوت عالٍ: «انظر إلى كلِّ هؤلاء المخنَّثين الدمويِّين!» في وقت لاحق، لـمّا خرجنا إلى وايتهول، كان يبزغ فجر يسبِّب الصداع، مع حبَّات مطر صغيرة كانت تغربلها الغيوم الرماديَّة بلون الظلال تحت عينَي بيبي. وقف طائر نورس عملاق على الرصيف، ونظر إلينا نظرة تكهُّن باردة. قال بوي «اللعنة على هذا الطقس» في حين تأمّل نيك بحزن خفَّيه. كنت مفعماً بابتهاج غريب، نوع من سعادة متضائلة حيَّة لا يمكن حتَّى اكتساب اللوحة، بغضّ النظر عن روعتها، أن يفسِّره. وجدنا سيَّارة أجرة تنقلنا إلى شقَّة نيك لأجل الإفطار. في أعماق المقعد الخلفيِّ -هل كانت سيَّارات الأجرة أكبر حينها؟- ولـمّا كان بوي ونيك يتبادلان شذرات فظيعة من النمائم التي كانا قد التقطاها في الحفل، وجدت نفسي أقبِّل بيبي. لم تقاوم، كما كان متوقَّعاً من الفتيات، وأنا تراجعتُ، في ذعر خافت، وأنا أتذوَّق أحمر شفتيها، ولا أزال أشعر بنهايات أصابعي وهي تتلمَّس النسيج الهشّ الزجاجيَّ لثوبها الحريريِّ. عدَّلت جلستها، ونظرت إليَّ نظرة فاحصة كأنَّني كنت،

حتَّى اللحظة، ضرباً جديداً من الأجناس البشريَّة المألوفة. كنَّا صامتين؛ لم يبدُ ثمَّة حاجة لأيِّ كلمات. وعلى الرّغم من أنَّ شيئاً لم يحدث بيننا لفترة من الزمن، إلّا أنَّني أعتقد أنَّ كلينا علم أنَّ حياتينا، في تلك اللحظة، للأفضل أو للأسوأ، وفي الأرجح كان للأسوأ، كانتا ارتبطتا على نحو لا يمكن فصله. لـمّا أدرت رأسي وجدت نيك يتطلّع إلينا بابتسامة صغيرة مقصودة.

*

لم تتَّصل الآنسة فانديلور منذ يومين. أتساءل هل فقدت الاهتمام بي حقّاً؟ ربَّما كانت قد وجدت موضوعاً أفضل يناسب اهتماماتها. لن أفاجأ! وأنا أشكُّ في أنَّ شخصيَّتي تسرِّع من نبض كاتبة سيرة طموح. وحين تدقيقي في تلك الصفحات، أُصدم من تصميمي عليها. الضمير الشخصيّ في كلِّ مكان، بالطبع، يدعم الصرحَ الذي أقيمه، لكن ماذا هناك يمكن مشاهدته وراء حرف الاستهلال النحيل هذا؟ ومع ذلك، يجب أن يكون لديَّ انفعال أكبر ممَّا أتذكَّر؛ كان هناك أناس كرهوني، وقليل ادَّعوا حتَّى إنَّهم أحبُّوني. نكاتي الجافَّة كانت محطَّ تقدير -أعرف أنَّه كان يُنظر إليَّ كمهرِّج في بعض الأوساط، ومرَّة سمعت أحدهم مصادفةً يصفني بأنَّني ألمعيٌّ إيرلنديٌّ (على الأقلّ، أظنُّ أنَّها كانت هكذا الكلمة). فلماذا إذاً لا يكون وضوحيَ حيّاً أكثر في هذه الذكريات التي أضعها هنا مع هذا الاهتمام بالتفاصيل؟ بعد فترة توقُّف طويلة لأجل التفكير (مضحك أنَّه ليس ثمَّة علامة في الكتابة تدلُّ على انقضاء وقت طويل: يمكن أن تمرَّ أيَّام كاملة في فضاء مساحة نقطة نهاية الجملة -سنوات كاملة)، توصَّلت إلى استنتاج مفاده أنَّ تبنيَّ المبكِّر

للفلسفة الرواقيَّة[27] كان نتيجة حتميَّة لإجباري على التضحية بحيويَّة الروح. هل عشت على الإطلاق؟ في بعض الأحيان، تصدمني الفكرة الباردة في أنَّ المهمَّات الجسيمة التي خضتها، والأخطار التي عرَّضت نفسي لها (بالنتيجة، ليست فكرةً بعيدة الاحتمال أنَّني ربَّما كنت سأقتل في أيِّ وقت) كانت مجرَّد بديل عن شكل أكثر بساطة، أكثر جوهريَّة للحياة التي كانت خلفي. ومع ذلك، لو لم أكُ دخلت في فيض التاريخ، فماذا كنت سأكون؟ عالِماً فارغاً، تثيره أسئلة الإسناد اللطيفة، وما يجب تناوله على العشاء (شيفرشانك كان لقبي الذي أطلقه عليَّ بوي في سنوات لاحقة). كلّ ذلك صحيح؛ على الرّغم منه فإنَّ هذه الأنواع من العقلنة لا ترضيني.

دعوني أحاول بطريقة أخرى. ربَّما لم تكن هي الفلسفة التي عشت بها، بل هي الحياة المزدوجة نفسها -التي بدت، أوَّل الأمر، للكثير منَّا مصدر قوَّة- التي أثَّرت فيَّ كقوة مُضعفة. أعلم أنَّ هذا كان قد قيل عنَّا دائماً، أنَّ الكذب والسرّيّة على نحو محتَّم قد دمَّرانا، استنزفا قوَّتنا الأخلاقيَّة، وأعميانا عن طبيعة الأشياء الحقيقيَّة، لكنَّني لم أعتد قطُّ أنَّ هذا قد يكون صحيحاً. كنَّا الغنوصيِّين[28] المعاصرين، الحائزينَ المعرفةَ السّريّةَ، الذين كان ظهورهم فحسب تعبيراً فاضحاً عن عالم حقيقيٍّ غير ملحوظ متناهٍ في الصّغر لا تعرفه إلّا القلَّة المختارة، لكنَّ القوانين الصلبة التي لا يمكن تجاهلها، كانت

---

(27) الرواقيّة مذهب فلسفيّ هيلينستيّ، أنشأه الفيلسوف زينون في أثينا، في بدايات القرن الثالث قبل الميلاد. وهي فلسفة تستمدّ نظامها وتأملاتها من الطبيعة، وأنّ على الإنسان كبح عواطفه والتحرّر من الانفعال. من أشهر روّادها سينيكا. (م)

(28) الغنوصيّة؛ أفكار ومعارف من الديانات القديمة التي انبعثت من المجتمعات اليهوديّة في القرنين الأول والثاني م. عدّ فيها الغنوصيّون، من خلال تفسيرهم التوراة، أنّ الكون المادّيّ هو انبثاق للربّ الأعلى الذي وضع الشعلة الإلهيّة في صلب الجسد البشريّ، ويمكن تحرير أو إطلاق هذه الشعلة عن طريق معرفتها، أي «أغنصتها». (م)

فعّالة في كلِّ مكان. هذه المعرفة الحقيقيَّة كانت، على المستوى المادّيِّ، معادل المفهوم الفرويديّ عن اللاوعي، المشرِّع غير المعترف به، شديدِ الإغراء، ذلك الجاسوس الموجود في القلب. وهكذا، بالنسبة لنا، كان كُلُّ شيء ذاته، وفي الوقت نفسه شيئاً آخر. لذا كان يمكننا الانخراط في المكان، والشرب طوال الليل، والضحك على أنفسنا على نحو سخيف، لأنَّ وراء كلِّ عبثنا كانت ثمَّة قناعة قويَّة بأنَّ العالم يجب أن يتغيَّر، وأنَّنا كنَّا مَن سيقوم بالتغيير. في تفاهتنا بدا لنا أنَّنا نمتلك جدّيّة أكثر عمقاً، جزئيّاً لأنّها كانت مخفيَّة، من أيِّ شيء أمكن لآبائنا أن يديروه، بغموضهم، وفقدان اليقين لديهم، وشدَّتهم، وفوق كلِّ ذلك، جهودهم الحقيرة الضعيفة ليكونوا جيِّدين. دعوا القلعة الزائفة تهوي، قلنا، وإذا ما استطعنا أن ندفعها دفعة قويَّة فإنَّنا سنفعل. Destruam et aedificabo كما كان برودون[29] معتاداً الصراخ!

كان ذلك منتهى الأنانيَّة، بالطبع؛ لم نكن نهتمُّ بالعالم بقدر ما كنَّا ربَّما نهتف للحرّيَّة والعدل ومحنة الجماهير. منتهى الأنانيَّة.

ومن ثمَّ، بالنسبة لي، كانت هناك قوى أخرى فعَّالة، غامضة، منتشية وجدانيَّة، مكروبة: الهوس بالفنِّ، في سبيل المثال، السؤال المخادع عن الوطنيَّة، توافق الأنغام في موسيقا مزمار قُربة حياتي؛ وعلى نحو أعمق من أيٍّ ممّا ذكرت، ظلمة الجنس وانزلاقه. الجاسوس الإيرلنديُّ الشاذّ؛ يبدو عنوان أحد الألحان التي كان الكاثوليكيّون يعزفونها على الأكورديون في حاناتهم حين كنت طفلاً. هل أسميتها حياة مزدوجة؟ هي أقرب إلى رباعيَّة أو خماسيَّة.

طوال هذا الأسبوع، كانت الصحف قد صوَّرتني، على نحو متملِّق، أعترف، كباحث نظريٍّ ضليع بارد كالثلج، نوع من جاسوس فيلسوف،

---

(29) بيير جوزيف برودون (1809-1865) سياسيّ وفيلسوف فرنسيّ أسّس لفلسفة التشاركيّة واللاسلطويّة. والجملة السابقة باللاتينيّة ومعناها: سأهدم وأبني. (م)

المفكِّر الوحيد الحقيقيّ في حلقتنا، وحارس الطهارة الأيديولوجيَّة. الحقيقة هي أنَّ الغالبيَّة العظمى منَّا لم تكن تملك أكثر من فهم مبتذل للنظريَّة. لم نكن نهتمُّ بقراءة النصوص؛ كان لدينا آخرون يقومون بذلك عوضاً عنَّا. رفاق الطبقة العاملة كانوا القرَّاء العظيمين -لم يكن للشيوعيَّة أن تنجو دون أشخاص مثقَّفين ذاتيّاً. عرفت واحدة أو اثنتين من تلك القطع -البيان، بالطبع، تلك الصرخة الرنَّانة العظيمة للعقلانيَّة المتأمِّلة- وكنت قرَّرت عازماً البدء بكتاب رأس المال[30] -إسقاط أداة التعريف كان من الضرورات بالنسبة لنا نحن الشبّان الأذكياء طالما كان اللفظ echt deutsch- لكن سرعان ما شعرت بالملل. إلى جانب ذلك، كانت لديّ قراءة أكاديميَّة أقوم بها، وهذا كان كافياً تماماً. السياسة لم تكن كتباً، في أيِّ حال؛ السياسة كانت عملاً. وراء أجمة النظريَّة الجافَّة التي كانت تصقل طبقات الشعب، كان المحكُّ الحقيقيُّ الأخير ينتظرنا لنحرِّرهم داخل المجموع. لم نرَ أيَّ تناقض بين التحرير والمجموع. إنَّ الهندسة الاجتماعيَّة الشموليَّة، كما يسمّيها ذلك الرجعيُّ العجوز بوبر، كانت الوسيلة المنطقيَّة، والضروريَّة لتحقيق الحرّيَّة -الحرّيَّة المنظَّمة. لماذا لا ينبغي أن يكون هناك تنظيم في الشأن الإنسانيِّ؟ على مرِّ التاريخ، لم يجلب استبداد الفرد سوى الفوضى وسفك الدماء. يجب على الشعب أن يكون موحَّداً، أن يذوب في كيان واحد فسيح يتنفَّس! كنَّا مثل أولاء الغوغاء اليعاقبة[31] في الأيَّام الأولى من الثورة الفرنسيَّة، الذين كانوا يتلاطمون في شوارع باريس في غضب

---

(30) كتاب كارل ماركس الشهير، والعبارة التالية *deutsch echt* مكتوبة بالألمانيّة وتعني: حقاً ألمانيّ. (م)

(31) المنتمون إلى جمعية اليعاقبة، وهي النادي السياسيُّ الأكثر نفوذاً إبّان الثورة الفرنسيّة (1789)، نشأ على أيدي النوّاب المعادين للملكيّة، ونما إلى حركة جمهوريّة على الصعيد الوطني. (م)

لأجل الأخوَّة، يضمُّون رجل الشارع إلى صدورهم بقوّة شديدة حتَّى يخرجوا أحشاءه منه. «أوه، نيك» كان داني بيركينز يقول لي دائماً وهو يهزُّ رأسه، ويضحك ضحكته اللطيفة «ما الهراء الذي كان والدي العجوز ليستخرجه منك، ومن رفاقك!» كان والد داني عامل مناجم ويلزيّاً. توفِّي بانتفاخ الرئة. كان رجلاً غير عاديّ، من دون شكٍّ.

في أيِّ حال، بين كلِّ نماذجنا الأيديولوجيَّة، لطالما كنت، على نحو سرِّيّ، أفضِّل باكونين[32]، وهو رجل متهوِّر جدّاً، سيِّئ السمعة، عنيف، ومستهتر إذا ما قورن بماركس عديم الإحساس، ذي اليد المشعرة. مضيتُ مرَّة أبعدَ، إلى حدِّ نسخ وصف باكونين اللاذع، على نحو ظريف، لخصمه: «إم. ماركس هو في الأصل يهوديٌّ. ويجمع داخله كلَّ صفات هذا العِرق الموهوب وعيوبه. عصبيٌّ كما يقول بعضهم، إلى حدّ الجبن. خبيث للغاية، مختال، ومستبدّ مثل يهوه، ربِّ آبائه، ومثله أيضاً هو محبٌّ للانتقام». (الآن، من غيره يخطر في باله هذا الخاطر؟) ليس أنَّ ماركس كان أقلَّ وحشيَّة من باكونين، بطريقته؛ أنا أعجبت، على نحو خاصٍّ، بتدميره فكريّاً لبرودون الذي كانت فلسفته الصغيرة البرجوازيَّة، التي تلت حقبة هيغل، وإيمانه بالطيبة الجوهريَّة التي كان عليها الرجل الصغير ماركس، محطَّ سخرية قاسية وشاملة. إنَّ مشهد ماركس وهو يدمِّر سلفه سيِّئ الحظِّ دون رحمة هو أمر مثير على نحو رهيب، مثل مشاهدة وحش عظيم من الأدغال ينشب مخالبه داخل بطن حيوان عاشب لا تزال أضلاعه تنتفض. العنف بالوكالة، هذا هو: محفِّز، مُمرِض، آمن.

كيف يعيدون أحدهم إلى أيَّام الشباب، إلى تلك المعارك القديمة لأجل روح الإنسان. أشعر بحماس عظيم. هنا على مكتبي، في أيَّام الربيع الأخيرة

---

(32) ميخائيل باكونين (1814-1876) مفكّر روسيّ، مؤسّس اللاسلطويّة الجمعيّة، هرب من روسيا، وكان معارضاً شهيراً للماركسيّة. (م)

هذه، المترقِّبة التي لا تُطاق. إنَّه وقت شراب الجِن، حسب ما أظنُّ.

سيبدو ذلك غريباً -وهو غريب بالنسبة لي- لكنَّ بوي كان أكثر واحد بيننا مُقاداً أيديولوجيّاً. يا إلهي، كيف كان يتكلَّم، ويستمرّ في كلامه: البنية الفوقيَّة، والبنية الفوقيَّة وتقسيم العمل، وبقيَّة هذه الأمور، إلى ما لا نهاية. أذكر حين عدت إلى النوم في غرفتي في منزل بولاند ستريت، في ساعات الصباح المبكِّرة أيَّام قصف لندن -السماء مضاءة بلون أحمر، والشوارع تضجُّ بسيَّارات الإطفاء، وبالسكارى- لأجد بوي وليو روذنستاين كليهما بلباس السهرة الكامل، يجلسان في قاعة الاستقبال، في الطابق الأوَّل، في كرسيَّين بذراعين، إلى جانب الموقد البارد، بظهرين مشدودين، وكأسَي ويسكي بيديهما، وكلاهما نائم كميْت، وواضح من ارتخاء فكَّيهما أنَّ بوي كان قد أفقد نفسَه وليو، وعييهما بعد سهرة من ضرباته الأيديولوجيَّة الخاصَّة به، محكمة السيطرة.

كان هناك ما هو أكثر من الكلام بالنسبة لبوي. لقد كان ناشطاً تماماً. في كمبريدج نظَّم المحتالين والـــخدم في نقابة، وشارك في الإضرابات مع سائقي الحافلات وعمَّال الصرف الصحيِّ في المدينة. آه، نعم، لقد وَصَمنا جميعاً بالعار. لا أزال أتذكَّره وهو يسير في عيد الظهور قبل أن يتَّجه إلى اجتماع المضربين، وياقة قميصه مفتوحة، بسروال قديم متَّسخ يشدُّه بحزام العامل العريض، شخص قادم مباشرة من جداريَّة موسكو. كنت أشعر بالغيرة من طاقته، وجرأته، وانعتاقه من وعيه الذاتيِّ الذي كان يجمِّدني حين يتعلَّق الأمر بالنشاط العمليِّ، أقصد نشاط الشارع. إلّا أنِّي في قلبي ازدريته أيضاً لسبب ما لم أستطع إلَّا التفكير فيه بأنَّه جهل مطبق، بسعيه إلى تحويل النظريَّة إلى تطبيق، بالطريقة عينها التي ازدريت بها فيزيائيِّي كمبريدج، وقتها لترجمتهم

الرياضيَّات المجرَّدة إلى علم تطبيقيّ. هذا ما كنت أعجب منه، ولا أزال، أنَّه كان في وسعي تسليم نفسي إلى مثل هذه الأيديولوجيّة المبتذلة أساساً.

بوي. أفتقده بالرغم من كلِّ شيء. آه، أعرف أنَّه كان مهرِّجاً، قاسياً، غير شريف، قذراً، غير مبالٍ بنفسه وبالآخرين، لكن على الرغم من كلِّ ذلك، فقد حافظ على نوع غريب من -ماذا أسمِّيه؟- نوع من الرونق. نعم، رونق رائع، وليس غريباً عنه ذلك. لـمّا كنت صغيراً وأسمع عن الملائكة، كان يتملَّكني خوف وانبهار بفكرة وجود هذه الأشياء الهائلة وغير المرئيَّة في وسطنا. لم أتصوَّرها مخلوقات مخنَّثة بأثواب بيض، وخصل شعر صفر، وأجنحة ذهبيَّة سميكة، كما كانت تصفها لي صديقتي ماتي ديلسون -ماتي كان لديها كلُّ أنواع المعارف السرّيّة- بل رجالاً هائلين مظلمين حمقى، ضخام بالرغم من عدم وزنهم، توَّاقين إلى الطيش واللعب الأخرق الذي قد يطيحك أرضاً أو يشطرك نصفين دون قصد منهم. لـمّا وقع أحد الصبية من مدرسة الآنسة مولينو للأطفال الصغار في كاريكدرام، تحت حوافر حصان عربة في أحد الأيَّام، وسُحق حتَّى الموت، عرفت، أنا الصبيُّ المراقب ذو الأعوام الستَّة، على مَن يقع اللوم؛ لقد تخيَّلت الملاك الحارس يقف فوق جسد الولد المسحوق بيديه الممتدَّتين الضخمتين العاجزتين، غير واثق إن كان ينبغي أن ينفطر قلبه أو يضحك. ذلك كان بوي. «ماذا فعلتُ؟» كان ليصرخ بعد أن يظهر للضوء أحدُ أعماله المشينة. «ماذا قلتُ...» وبالطبع كان الجميع يضحكون.

غريب، لكنِّي لا أستطيع تذكُّر لقائي الأوَّل به. لا بدَّ أنَّه كان في كمبرَيدج. ومع ذلك يبدو حاضراً دائماً في حياتي، قوَّة مستمرَّة، حتَّى في الطفولة. وعلى الرّغم من أنَّه يبدو وحيداً، فإنِّي أفترض أنَّه كان من النوع التالي: الطفل الصغير الذي يقرص الفتيات الصغيرات ويجعلهنَّ يبكينَ.

الفتى في الجزء الخلفيِّ من الصفِّ الذي يُظهر انتصاب عضوه تحت المقعد. الشاذُّ قليل الحياء الذي يكتشف من فوره الشذوذ لدى الآخرين. وعلى الرَّغم ممَّا قد يعتقد الناس، هو وأنا لم تكن تربطنا علاقة غراميَّة. كان ثمَّة شجار ثمل في إحدى الليالي في غرفتي في كليَّة ترينيتي في مستهلِّ الثلاثينيَّات، قبل وقت طويل من «خروجي»، كما يقولون الآن، تركني أرتجف من الإحراج والخوف، بالرّغم من أنَّ بوي تجاهل ذلك بلا مبالاته المعتادة؛ أتذكَّره وهو ينزل الدرجات ذوات الإضاءة الخفيفة، ونصف ذيل قميصه متدلٍّ، ويبتسم لي عن عمد، ويحرِّك إصبع تهديدٍ مازحاً. وبينما كان يستمتع بامتيازات أسرته، تناول دائماً عالمَ والديه ودوائرهما بازدراء مازح (كان زوج أمِّه، تذكَّرت للتوِّ، أميرالاً؛ ينبغي أن أسأل الآنسة فانديلور إن كانت تعرف ذلك). في منزله كان يعيش على نحو رئيس على شيء مخيف يشبه العصيدة -لا أزال أستطيع اشتمام رائحتها- يطبخها من دقيق الشوفان مع ثوم مهروس، لكن حينما يخرج من المنزل كان يتناول دائماً ريتز أو سافوي، وبعدها يتكوَّم داخل سيَّارة الأجرة، ويمضي في مشواره الصاخب إلى الأسفل حيث أحواض السفن، أو إلى الطرف الشرقيِّ عبر الحانات ليصيد ما كان يشير إليه بصفعة على شفتيه الكبيرتين «باللحم المرغوب».

كان يمكن أن يكون رقيقاً لو كانت الرقَّة مطلوبة. لـمّا انضممنا، مع ألاستير سايكس، إلى «أبوستلز»[33] في صيف العام 1932، تبينَّ أنَّ بوي لم يكن الأكثر نشاطاً فحسب بيننا، نحن الثلاثة، بل كان المخطِّط الأنجح. كان ماهراً أيضاً في كبح جماح موجات الحماس التي كانت تجتاح ألاستير. «انظر هنا أيُّها المعتوه»، كان يقول بحزم مرح «أنتَ اصمت فقط مثل شابّ

(33) منظَّمة فكريّة سرّيّة أسّسها جورج توملينسون عام 1820 في جامعة كمبردج. شكّلت حلقة سريّة من طلّاب وكتّاب وشعراء وفلاسفة كان لهم دور في الحياة الفكريّة والسياسيّة في إنكلترا. (م)

طيِّب، ودعني وفيكتور نتحدَّث». وألاستير، بعد لحظة من التردُّد، يكون في أثنائها رأسا أذنيه قد تلوّنا بلون ورديٍّ زاهٍ، وغليونه يتجشَّأ الدخان ويلمع مثل قطار بخاريٍّ، سيفعل ما قيل له بكلِّ خنوع مع أنَّه كان الرجل الأكبر سنّاً بيننا. كان يعود الفضل إلى ألاستير في تعبئة الجمهور داخل منظّمتنا، لكنِّي متأكِّد من أنَّه كان عملَ بوي فعلاً. سحر بوي، المرِحُ والشرير، كان من الصعب مقاومته. (ستكون الآنسة فانديلور متلهِّفة؛ فلا معلومات عن هذا معروضة على الملأ أنَّه بالنسبة لمنظمة أبوستلز، نادي الأولاد العبثيِّ، الذي لم يقبل فيه سوى شبّان كمبردج اللامعين؛ وكوني إيرلنديّاً ولم أكن شاذاً بعدُ حينها، فإنَّه كان عليَّ العمل بجدٍّ، والتخطيط لوقت طويل قبل أن أنجح في شقِّ طريقي داخله).

كانت اجتماعات منظَّمة أبوستلز تعقد في ذلك الفصل في حجرة ألاستير؛ كزميل أقدم كانت لديه أماكن فسيحة أكثر من بقيَّتنا. وأنا، كنت قد التقيته في سنتي الدراسيَّة الأولى، في تلك الأيَّام لـمَّا كنت لا أزال أعتقد أنَّني أريد أن أكون عالم رياضيّات. شكَّل الانضباط فيها إغراءً قويّاً لي، وإجراءاتها كانت علامة على طقوس غامضة، عقيدة سرِّيّة أخرى سرعان ما اكتشفتها في الماركسيَّة. لقد استمتعت بفكرة أن أكون مطَّلعاً على لغة متخصِّصة حتَّى في أكثر أشكالها خلخلة هي تعبير دقيق -حسناً، ومعقول- عن الواقع التجريبيّ. الرياضيَّات تخاطب العالم، كما وصفها ألاستير، بتأنُّق بيانيٍّ غير معهود. مشاهدة العمل الذي كان في مقدور ألاستير فعله كان هو ما أقنعني أكثرَ من عرضي السيِّئ في الامتحانات، بأنَّ مستقبلي يجب أن يكمن في البحث وليس في العلم. كان ألاستير، بين جميع من قابلت في حياتي، الذكيَّ الصافي، الأكثر أناقة. والده كان عامل حوض سفن في ليفربول،

وألاستير كان قد جاء إلى كمبردج في منحة دراسيَّة. في الظاهر كان زميلاً صغيراً عنيفاً، حادَّ المزاج، بأسنان كبيرة وشجيرة شعر أسود شائك تقف على جبهته مثل شعيرات المقشَّة. كان يفضّل الجزمات من ذات المسامير، والسترات التي لا شكل لها، المصنوعة من نوع غريب من نسيج صوفيٍّ بشعر قاس ربَّما كان أصلاً صُنع خصيصاً له. في تلك السنة الأولى كنَّا متلازمين. كان ارتباطاً غريباً، حسب ما أظنُّ؛ ما كنَّا نتقاسمه بعمق، بالرّغم من أنَّنا لم نكن قطُّ نحلم بالحديث عنه صراحة، أنَّ كلينا شعر تماماً بعدم الأمان لكوننا غرباء. أحد الظرفاء أطلق علينا لقب جيكل وهايد، ولا شكَّ في أنَّنا بدونا زوجين غير منسجمين، أنا، الشابُّ المهلهل ذو الأنف المستدقّ، وبطبيعة الحال محدودب، يتبختر في أروقة المحكمة العليا في ترينيتي، ويلاحقه الرجل الصغير بحذائه وساقيه القصيرتين مثل جزأي مقصٍّ مثلَّم، وينطلق منه دخان الغليون.كان الجانب النظريُّ من الرياضيَّات هو ما أثار اهتمامي، لكنَّ ألاستير كانت لديه نزعة نحو التطبيق. كان يعشق الآلات. في حديقة بليتشلي، زمن الحرب، وجد مكانه الحقيقيَّ والمثاليَّ. قال لي بعد ذلك، وعيناه تلمعان بالبؤس، «كان الأمر أشبه بالعودة إلى المنزل». كان ذلك في الخمسينيَّات، في آخر مرَّة شاهدته فيها. وكان قد وقع ضحيَّة إغراء في أحد حمَّامات ميدان بيكاديللي، وأضحى مطلوباً للمحكمة في الأسبوع التالي. أثقال الوكالة كانت تعذِّبه، وكان يعرف أنَّه لن يتوقَّع أيَّ رحمة. لم يذهب إلى السجن: عشيَّة ظهوره في المحكمة عمد إلى حقن السيانيد داخل تفَّاحة (صنف كوكس، كما قال التقرير؛ دقيقة للغاية، تلك الأثقال) وأكلها. تأنُّق آخر غير معهود. أتساءل من أين حصل على السمِّ، ناهيك عن الحقنة؟ حتَّى إنَّني لم أكن أعرف أنَّه شاذٌّ. ربَّما هو نفسه لم يدرك ذلك قبل أن يومئ إليه

ذلك الشرطيُّ ذو الأذنين الشبيهتين بأذنَي إبريق من كشكه وقد نزل بنطاله إلى ما فوق عقبيه. روح بائسة. أتخيَّله في الأسابيع التي سبقت موته، متمدِّداً بين بطانيات الجيش الفائضة في غرفته الكئيبة تلك التي كان يملكها قبالة طريق كروموبل، على نحو بائس يقلِّب صفحات أطلال آخر أيَّام حياته. كان قد فكَّ واحداً من أصعب تشفيرات الجيش الألمانيّ، وهكذا لا أحد غير الله يعرف كم من الحلفاء بقوا أحياء بسبب ذلك. وعلى الرغم من ذلك تعقَّبوه حتَّى الموت. ويسمُّونني خائناً. هل كان بإمكاني القيام بشيء لأجله، أتدَّخل بمعارفي، أوصي به لدى رجال الأمن الداخليّ، الفكرة تنغّصني.

ألاستير، الآن، ألاستير كان قد قرأ النصوص المحرَّمة. ومهما كانت بقايا النظريَّة التي عرفتها، فقد تعلَّمت منه. قضيَّة إيرلندا كانت أمله العظيم. أمُّه الإيرلنديَّة جعلته ينتسب إلى «الشين فين». ومثلي، أسِف لأنَّ الثورة قامت في روسيا، لكنَّني لم أتَّفق معه على أنَّ إيرلندا هي ساحة معركة أكثر ملاءمة، تجانساً؛ فقد بدت الفكرة لي مضحكة تماماً. حتَّى إنَّه علَّم نفسه اللغة الإيرلنديَّة، واستطاع أن يشتم بها -وحسب ما سمعت، أعترف، لغته في العموم الأغلب بدت كأنَّها حلقات من الأيمانات القويَّة المغزولة مع بعضها على نحو عشوائيّ. كان يوبِّخني لافتقادي حسَّ الوطنيَّة، ويدعوني بالاتِّحاديِّ القذر، ولم يكُ مزاحاً. ومع ذلك، لـمَّا سألته يوماً عن تفاصيل محدَّدة من معرفته ببلدي تملَّص وراوغ، ولـمَّا ضغطت عليه احمرَّ خجلاً -تلك الإذنان المحمرَّتان- واعترف أنَّ قدميه، في الحقيقة، لم تطأا أرض إيرلندا يوماً.

لم يهتمَّ كثيراً برفقة أغلبية أعضاء أبوستلز، بلهجاتهم الأنيقة، وعاداتهم المولعة بالجمال. «كأنَّكم كنتم تتكلَّمون بالألغاز، أيُّها الشعب،

حين بدأتم الكلام»، اشتكى وهو يحفر إبهاماً أسودَ في بقايا التبغ المحترق في غليونه. «طلَّاب مدارس عموميَّة دمويُّون»، اعتدت أن أقول له ضاحكاً، بقدر من الخبث، لكنَّ بوي كان يصفه وصفاً فظيعاً، محاكياً لهجة ليفربول خاصَّته، ومضايقاً إياه من أجل أن يشرب كثيراً من البيرة. كان ألاستير يعتقد أنَّ بوي لم يكن جادّاً بما فيه الكفاية بشأن القضيَّة، وعدَّه -بتبصُّر لافت للنظر، كما تبيَّن لاحقاً- خطراً أمنيّاً. «بانيستر ذاك»، كان يتمتم بغضب «سوف يتسبَّب في إلقاء القبض علينا جميعاً».

هي ذي لقطة من الألبوم المنتفخ الذي احتفظ به رأسي. كان ذلك في وقت ما في الثلاثينيَّات. شاي، سندويشات ثخينة، وبيرة رفيعة، شمس إبريل تشعُّ على ترينيتي. دزينة من أعضاء أبوستلز -بعض الزملاء مثل ألاستير، وأنا نفسي، اثنان من النبلاء لا يمكن وصفهما، واحد أو اثنان من طلَّاب الدراسات العليا المخلصين، كلُّ واحد منَّا ماركسيٌّ متعصِّب- نجلس في غرفة معيشة ألاستير المظلمة الكبيرة. كنَّا نفضّل السترات الغامقة والحقائب من جلد الغزال والقمصان البيض مفتوحة العنق باستثناء ليو روذنستاين الذي كان دائماً رائعاً على نحو رقيق في سترته من ماركة سافيل رو. بوي كان الأكثر ألقاً: أذكر ربطات العنق القرمزيَّة، والصدريَّة البنفسجيَّة، وفي هذه المناسبة، بنطاله القصير الأخضر الساطع. هو، ينتقل أعلى وأسفل الغرفة، ويسقط رماد سيجارته على السجَّادة المهترئة، ويخبرنا، كما كنت أسمعه يخبر في أوقات كثيرة سابقة، عن الحدث الذي يصرُّ دائماً على أنَّه جعله شاذّاً جنسيّاً.

«يا إلهي، كان ذلك مخيفاً! كانت هناك، الأمُّ البائسة، متمدِّدة على ظهرها، وساقاها مرفوعتان في الهواء، تصيح، وأبي الضخم يستلقي عارياً فوقها، جثَّة هامدة. بذلت جهداً عظيماً لأرفعه عنها. الروائح! كنت في سنّ الثانية

عشرة. ومذّاك الحين لم أعد قادراً على النظر إلى امرأة دون رؤية ثديَي أمّي الأبيضين الكبيرين، بلون بطن السمكة. الحلمتان اللتان أرضعتاني. تانك الحلمتان لا تزالان تحدِّقان إليّ، في أحلامي، نظرة حولاء. لم أكن أوديب، ولا هاملت أيضاً، هذا مؤكَّد. ولـمَّا ألقت ثوب الأرملة وتزوَّجت من جديد شعرت بالارتياح فحسب».

اعتدت تقسيمَ الناس إلى نوعين، أولاء الذين صدموا من حكايات بوي، وأولاء الذين لم يصدموا، على الرغم من أنَّني لم أتمكَّن قطُّ من تقرير مَن كان يستحقّ اللوم بينهما. كان ألاستير قد بدأ الضخَّ والنفخَ: «أصغوا إليَّ، لدينا اقتراح علينا أن نفكِّر فيه. ستكون إسبانيا مسرح العمليَّات التالي» -ألاستير الذي لم يسمع في حياته صوت إطلاق نار، كان لديه ولع شديد برطانة اللغة العسكريَّة- «وعلينا أن نقرّر موقفنا».

ضحك ليو روذنستاين «هذا واضح، من غير ريب؟ نحن بعناء نؤيِّد الفاشيِّين». في سنِّ الحادية والعشرين كان ليو قد ورث مليونين، إلى جانب حديقة ماول، وقصر في ساحة بورتمان.

ألاستير، انشغل بغليونه؛ كان يكره ليو، ومهتمّاً بإخفاء هذه الحقيقة خوفاً من أن يُتَّهم بمعاداة الساميَّة.

«لكنَّ النقطة هنا»، قال، «هل سنقاتل؟»

يصدمني كم كان كثيراً الحديث عن القتال في الثلاثينيَّات، في مجموعتنا، على الأقلِّ. هل تحدَّث الدّاعون إلى التهدئة عن التهدئة بالشغف نفسِه، أتساءل؟

«لا تكن أحمقَ»، قال بوي، «العمّ جو[34] لن يسمح بأن تصل الأمور

---

(34) يقصد هنا جوزيف ستالين (1878-1953) زعيم الاتحاد السوفييتيّ منذ العام 1922 حتى وفاته عام 1953. (م)

إلى هذا الحدِّ».

شابّ يدعى ويلكنز، نسيت اسمه الأوّل، نحيف، يرتدي نظَّارةً، ومصاب بحالة متقدِّمة من الصدفيَّة، كان من قبل قد شارف على الموت في معركة العلمين وهو يقود دبابة، استدار من عند النافذة قابضاً على كأسَي بيرة، وقال:

«وفقاً لرجل تحدَّثت إليه منذ أيَّام، وكان هناك، العمُّ جو لديه كثير من العمل بين يديه وهو يحاول إطعام جماهير بلاده، وليس متفرِّغاً ليفكِّر في إرسال مساعدات إلى الخارِج».

تبع ذلك صمت. الشكل السيِّئ لحديث ويلكنز: نحن لم نتحدَّث عن مشاقِّ الرفاق. الشكُّ كان ترفاً برجوازيّاً. ثمَّ ضحك بوي ضحكة خافتة، وقال: «فوجئت كم أنَّ بعضنا لا يستطيع تمييز الدعاية السياسيَّة حين نسمعها»، وألقى ويلكنز عليه نظرة حاقدة، وعاد إلى النافذة.

إسبانيا، المزارعون الأغنياء، دسائس التروتسكيِّين، العنف العرقيُّ في الطرف الشرقيِّ من لندن -كيف يبدو كلُّ ذلك قديماً، وغريباً نوعاً ما، بالإضافة إلى أخذنا أنفسنا ومكانتنا على محمل الجدِّ في المسرح العالميِّ. غالباً ما تكون لديَّ فكرة أنَّ ما كان يدفعنا، كلّنا، نحن الذين واصلنا حتَّى أصبحنا عملاء نشطين، هو عبء الحيرة العميقة التي لا تُطاق، الذي خلَّفته لنا حقبة الثلاثينيَّات بأحاديثها المخمورة. البيرة، الساندويشات، وضوء الشمس على الأرصفة، جولات المشي التي لا هدف لها على الأرصفة الظليلة، الحقيقة المفاجئة دائمة الإذهال للجنس -عالم كامل من الامتيازات والضمانات، كلّها مستمرَّة، في حين، في أماكن أخرى، الملايين مستعدُّون للموت. كيف تحمَّلنا فكرة كلِّ ذلك ولم-

إنَّما لا. هذا ليس مناسباً. هذه الأحاسيس والعواطف الرقيقة ليست مناسبة. كنت قلت لنفسي من قبل إنَّني يجب ألّا أحاول فرض دلالة ارتجاعيَّة لما كنَّا عليه وما فعلناه. هل يعني هذا أنَّني آمنت بشيء ما والآن لا أؤمن بشيء؟ أو الأمر هو أنَّني حتَّى وقتها كنت آمنت فحسب بالمعتقد، خارج التوق، خارج الضرورة؟ الأخيرة. بالتأكيد. موجة التاريخ هجرتنا، كما هجرت الكثيرين من أمثالنا، تاركة إيَّانا جافين تماماً.

«آه، العمّ جو دقيق»، كان بوي يقول، «دقيق للغاية».

كلُّهم الآن ميتون: بوي المخزي، ليو مع ملايينه، ويلكنز المتشكّك أُحرق حتّى بات رماداً في علبة السردين خاصَّته في الصحراء، أسأل من جديد: هل أنا عشت أصلاً؟

لا أعتقد أنَّني أستطيع الاستمرار في وصف هذا بدفتر يوميَّة، لأنَّه بالتأكيد أكثر من مجرَّد تسجيل لأيَّام حياتي التي يمكن بصعوبة تمييز أحدها عن الآخر، في أيّ حال، الآن بعد أن تلاشت الضجَّة، سمِّها مذكِّرات، إذاً؛ قصاصات من الذكريات. أو انظر إلى الأمر برمّته وسمِّها سيرة ذاتيَّة آخر الأمر. كانت الآنسة فانديلور لتغضب لو عرفت أنَّني كنت أسبقها بذكر الكلمات. جاءت في وقت ما من هذا الصباح لتسألني عن زيارتي إلى إسبانيا مع نيك في عيد الفصح في العام 1936. (كيف يمكن لمجرَّد تاريخ أن يكون منذراً، ومثيراً: عيد الفصح 1936). فاجأتني الأشياء التي كانت ترغب في معرفتها. وأنا، فهمت أنَّها كانت تائقة لمعرفة تفاصيل مغامراتي في ألمانيا عام 1945، في سبيل المثال، أو طبيعة علاقاتي مع السيِّدة و. وأمِّها (التي أبهرت الجميع) لكن لا، إنَّه التاريخ القديم هو ما تسعى وراءه.

إسبانيا. الآن هو ذا تاريخ قديم، تماماً. بلد بغيض. أذكر المطر، والرائحة التي تشمُّها في كلِّ مكان، وتبدو مثل رائحة مزيج من سائل منويٍّ وعفَن فطريّ. كانت هناك ملصقات جداريَّة، المطرقة والمنجل عند زاوية كلِّ شارع، وشبّان بدوا عنيفين بقمصان حمر، ملامحهم المسطَّحة ونظراتهم المراوغة كانت تذكِّرني بالبائعين المتجوِّلين الذين اعتادوا، في فترة طفولتيّ، أن يتجوَّلوا في أنحاء كاريكدرام يبيعون المعلَّبات والقدور المخرومة. لوحات متحف برادو كانت وحياً، ولوحات غويا عبَّرت عن نبوءات مخيفة نظراً للدم

والوسخ الذي تضمَّنتهما، أمَّا لوحات إل غريكو فقد أظهرت رجلاً فقد عقله. أنا فضَّلت لوحات زوربارانس فهي تطاردك في سكونها وتعبيرها عن الدنيويَّة السامية. في إشبيلية، في أسبوع الآلام، وقفنا كئيبين تحت المطر نشاهد موكب التائبين، وهو مشهد ارتدَّت عنه روحي البروتستانتيَّة. مشهد إنزال يسوع عن الصليب فوق القمامة، تحميه من المطر قطعة قماش مزركشة بالذهب؛ ألقي المسيح الجصِّي عارياً أمام قدمَي أمِّه الجصِّيتين، كان مشهداً فاحشاً، مثيراً للنشوة (صورته ما بعد الإغريق- بعد ذلك بوقت طويل) بجلد كريميٍّ، وفم مكروب، وجروح تتدفَّق بغزارة. لـمَّا ظهر هذا الشيء، وتحرَّك، وتمايل، سقط اثنان أو ثلاثة من الرجال الهرمين، قربنا، على ركبهم، متسبِّبين بحدوث ضجَّة مثل ضجَّة الكراسي المنهارة على سطح السفينة، رسموا الصلبان بسرعة، بشيء من الرعب المقدَّس، ثمَّ انحنى أحدهم، برشاقة مفاجئة، تحت ركام القمامة ليقدِّم كتفاً داعمة. أتذكَّر أيضاً امرأة شابَّة خرجت من بين الحشود، وسلَّمت إحدى التائبات المتَّشحات بالطرحات السود -أمّها أو خالتها- مظلَّة مبهرجة مقلَّمة باللونين الأبيض والأحمر. في الجزيرة الخضراء شاهدنا مشهداً شائقاً ومثيراً لحشد من الغوغاء يدنِّسون كنيسة ويرجمون عُمدةَ المدينة، وهو رجل بدين برأس أصلع أسمر لامع، هرب من معذِّبيه بمشي سريع، محاولاً المحافظة على كرامته. خشخش المطر في أشجار النخيل، وسهم صاعق للبرق أضاء السماء البنّيّة، كحشفة القضيب، فوق محطَّة السكَّة الحديديَّة. وقِشرات الملصقات الحائطيَّة خفقت مع الريح المفاجئة. في وقت لاحق حاولنا عبور الحدود، لكنَّنا وجدنا جبل طارق مغلقاً ليلتها. كان النُّزُل في لالينيا قذراً، وأنا بقيت مستيقظاً لوقت طويل أستمع إلى نباح الكلاب وجهاز مذياع في مكان ما يتمتم عن الحرب،

وشاهدت الوميض الفوسفوريَّ الباهت يلعب على ظهر نيك المكشوف حيث كان مستلقياً خائر القوى يشخر بصوت ناعم على السرير الضيِّق على بعد ميل عنِّي في الجانب الآخر من الغرفة. بدا جلده سميكاً ومغطّى بالأوحلة؛ فكَّرت في تمثال «المخلِّص». في اليوم التالي ركبنا سفينة إلى إنكلترا. كانت ثمَّة دلافين في المضيق، وفي خليج بيسكاي كنت مريضاً.

هل هذا مناسب؟ آنسة ف؟

كنت قد كشفت المزيد عنها. إنَّه أمر صعب، فهي، في معظم الأوقات، كتوم أكثر منِّي. أشعر كأنَّني مرمِّم أزيل الطلاء عن لوحة تالفة. تالفة؟ لمَ قلتُ تالفة؟ ثمَّة شيء يتعلَّق بتكتُّمها، صمتها العميق الثابت، يدلّ على كبح راسخ. هي معمِّرة جدّاً بالنسبة لسنوات عمرها. وأنا لديّ شعور استياء لا يمكن استئصاله. إنَّها لا تفتأ تذكِّرني بِبيبي؛ وقفات الصمت تلك، تلك التحديقة العابسة التي توجِّهها نحو الأشياء غير الحيّة -وبالتأكيد كانت بيبي تالفة. لـمّا سألت الآنسة فانديلور هذا الصباح ما إذا كانت تعيش بمفردها، لم تجب، وادَّعت أنَّها لم تسمعني، ثمَّ بعد ذلك، وعلى نحو مفاجئ بدأت تخبرني عن رجلها الشابِّ الذي شاركته شقَّة في منطقة غولدرز غرين (بالمناسبة كان أحد أوكاري القديمة). يعمل ميكانيكيّاً في مرآب. بدت لي مثل دعارة ذكوريَّة؛ أدركت الآن مغزى التنُّورة الجلديَّة. أتساءل عمَّا كان يفكِّر فيه الأميرال بشأن هذه العلاقة؟ أو هل لا يزال أحد مهتمّاً بمثل هذه الأمور؟ تذمَّرت من دقَّة ميترو نورثرن لاين. أخبرتها أنَّني لم أسافر تحت الأرض بالميترو منذ ثلاثين عاماً، وهي دوَّرت رأسها، وحملقت بامتعاض في يديَّ.

كان الصباح دافئاً بما يكفي بالنسبة لنا لنشرب الشاي في الشرفة الخلفيَّة. وهكذا كان الأمر، هي شربت الشاي في حين احتسيت أنا من كأس

صغيرة شراباً كحوليّاً بالرغم من أنَّها كانت ساعة مبكِّرة. إنَّها توتِّرني، ولا بدَّ لي من اتِّخاذ قليل من التحصين حين أتعامل معها. (الشرفات تجعلني متوتِّراً أيضاً، لكن هذه مسألة أخرى. باتريك! الساذج، البائس بات). إلى جانب ذلك، في عمري هذا، أستطيع الشرب في أيِّ ساعة من النهار دون الحاجة إلى تقديم أعذار؛ أتوقَّع وقتاً سأفطر فيه خلائط من شراب الجِن وشراب الكومبلان. من على الشرفة كان بإمكاننا رؤية قمم الأشجار في الحديقة. كانت في أجمل أطوارها الآن، الأغصان السود على نحو رقيق مغبرَّة بنفخات من لون أخضر رقيق. لاحظنا كيف أنَّ تلوُّث المدينة يضفي على السماء عمقاً رائعاً للَّون، مثل ذلك اللون الأزرق الكثيف المشجِّع على الشرب، الذي تراه حين ترتفع الطائرة وأنت تحدِّق إلى الفراغ. لم تكن الآنسة فانديلور تصغي. جلست إلى الطرف الآخر من المنضدة المعدنيَّة الصغيرة، وارتخت في معطفها الكبير ونظرت عابسة إلى كوبها.

سألت: «هل كان ماركسيّاً، سير نيكولاس؟»

كان عليَّ أن أفكِّر لثانية في مَن كانت تقصد.

«نيك؟»، قلت، «يا إلهي، لا! في الواقع...»

في الواقع، في تلك الرحلة بالتحديد، رحلة العودة إلى الوطن من إسبانيا، جرى بيننا الحوار الأوَّل والجدِّيُّ الوحيد حول أمور السياسة. لا أستطيع تذكُّر كيف بدأ الحديث. أفترض أنَّني كنت بدأت بشيء من الهداية؛ كان لديَّ كلُّ حماس الهداية، في تلك الأيَّام المبكِّرة العنيفة، ولم يكُ نيك قطّ مهتمّاً بتلقّي الوعظ.

«اصمت، بحقِّ الله»، قال غير ناجح في كبت ضحكه، «لقد سئمت الاستماع إليك، وإلى الديالكتيك التاريخيِّ خاصَّتك، وإلى كلِّ باقي التفاهات».

كنَّا نميل متَّكئين على الحاجز الحديديّ في محطَّة السكَّة الحديديَّة، ندخِّن بتأمُّل، تحت قبَّة الليلة البحريَّة العظيمة اللطيفة الهادئة. وكلَّما أبحرنا أبعدَ شمالاً، أصبح الطقس أدفأ، كأنَّ الطقس، مثل أيِّ شيء آخر في العالم، قُلب رأساً على عقب. كان ثمَّة قمر أبيض شاحب كبير معلَّق فوق البحر الممتدّ، وأثرُ السفينة في الماء يلمع ويتلوَّى مثل حبل فضّيٍّ ينحلُّ خلفنا. كنت أعاني من الدوار ومحموماً قليلاً بعد نوبة دوار البحر الأخيرة التي أصابتني.

«يجب أن يكون ثمّة فعل»، قلت بعناد الدوغماتيّ، «علينا أن نفعل شيئاً ما، أو نهلك».

هذي كانت طريقتنا في الحديث.

«أوه، الفعل!» قال نيك، وهذه المرَّة ضحك حقّاً، «الكلمات بالنسبة إليك هي أفعال. هذا كلُّ ما تفعله -تتكلَّم، وتتكلَّم، وتتكلَّم».

تلك اللهجة الساخرة؛ لطالما كان يُبهج نيك، حين يكون جلفاً، أن يهزأ بي لعدم فاعليَّتي.

«لا يمكننا، كلّنا، أن نكون جنوداً»، قلت ساخطاً، «ثمَّة حاجة إلى منظِّرين أيضاً».

نفض سيجارته فوق الحاجز المعدنيّ، وحملق في الأفق الساطع. رفع النسيم خصلة الشعر المنسدلة على جبينه. ماذا ظننت وقتها أنَّني أشعر تجاهه؟ كيف أفسِّر التنهُّد اليائس الصامت الذي اعتمل في صدري في لحظات كهذه؟ أفترض أنَّ المدرسة كانت عوَّدتنا على الافتتان، وكلِّ ما شابه -لكن كيف فكَّرت أنَّه كان مجرَّد افتتان- لا أعرف.

قال: «لو كنت شيوعيّاً لم أكُ لأهتمَّ بالنظريَّات على الإطلاق. سأفكِّر فحسب في الاستراتيجيا: كيف أنجز الأمور. سأستخدم كلَّ الوسائل المتاحة

-الأكاذيب، الابتزاز، القتل، التدمير، وكلّ ما يتطلّبه الأمر. أنتم جميعكم، المثاليُّون، تدَّعون أنَّكم براغماتيُّون. تعتقدون أنَّكم تهتمُّون بالأسباب فحسب، في حين أنَّ الأسباب هي مجرَّد شيء تنسون أنفسكم فيها، طريقة لإلغاء الأنا. هذا نصف دين ونصف رومانسيَّة. ماركس هو القدِّيس بولص الذي يخصّك، وروسّو الخاصُّ بك».

ذهلت، ليس فحسب لأنَّني ارتبكت قليلاً، إذ لم يسبق لي قطُّ أن سمعته يتكلَّم هكذا من قبل، بلسان العقل، إذا جاز التعبير. استدار نحوي، مبتسماً، يتَّكئ بكلا جانبيه على الحاجز المعدنيّ.

«إنَّه أمر جذَّاب»، قال، «الطريقة التي تخدعون بها أنفسكم، لكنَّه مهين قليلاً، ألا تظنُّ ذلك؟»

«بعضنا مستعدٌّ للقتال. بعضنا بالفعل سجَّل للذهاب إلى إسبانيا».

أصبحت ابتسامته شفوق.

«نعم. وها أنت ذا، تبحر عائداً إلى الوطن». شعرت بغضب خاطف. كانت لديّ رغبة ملحَّة في صفعه -صفعة أو أيّ شيء من هذا القبيل. «المشكلة فيك يا فيك، أنَّك تظنُّ أنَّ العالم متحف ضخم مع كثير من الزوّار المسموح لهم بالدخول».

كانت الآنسة فانديلور تقول شيئاً، وأنا عدت إلى الارتعاش.

«عزيزتي، أنا آسف»، قلت، «لقد تشتَّت انتباهي. كنت أفكِّر في القندس -السير نيكولاس. أحياناً أتساءل ما إذا كنت قد عرفته أصلاً. بالتأكيد لم أنظِر -ربَّما كانت مجرَّد قوَّة إرادة، على ما أظنُّ- في ما قاده إلى مثل هذه القوَّة المتأرجحة من النفوذ والتأثير في وقت لاحق». عادت الآنسة ف إلى حالة الرسوم المتحرِّكة في فيلم أُوقفت صورته. خفضت رأسها، وأساريرها جمدت

على نحو غبيٍّ، إلى درجة أنَّني فكَّرت أنَّ هذا هو مزاجها الأفضل للاستماع. لم تكن ماهرة في دور المحقِّق، فقد أظهرت اهتماماً واضحاً. قلت لنفسي أن أمضي متوخِّياً الحذر. «لكن بعدها»، قلت، مؤدّياً دور التلميذ المداهن، «مَن كان منَّا يدرك، في أيِّ وقت مضى، جوهر الآخرين؟»

إنَّها مهتمَّة جدّاً بنيك، وأنا لم أرد أن أراه متأذّياً. لا، لم أرد ذلك، على الإطلاق.

*

سفينة أخرى، رحلة أخرى، إلى إيرلندا هذه المرَّة. كان ذلك بعد ميونخ مباشرة، وأنا كنت سعيداً لابتعادي عن لندن، مع كلِّ مناطيد المراقبة خاصَّتها، وشائعاتها، والخوف المنتشر الواضح مثل الضباب. لكن لـمَّا كان العالم ينهار كانت ثروتي الشخصيَّة تحلِّق. نعم، في ذلك العام كانت ثقتي بنفسي عالية جدّاً، كما كانت تقول المربِّية هارغريفز. كانت لديّ سمعة دوليَّة متواضعة، لكنَّها تنتشر بسرعة، كخبير وعالم، وكنت انتقلت من صحيفة سبيكتيتور إلى صحف أكثر رصانة وعمقاً، مثل صحيفة بيرلنغتون ومجلّة معهد فاربورغ، وفي الخريف كنت سأتولَّى منصب نائب مدير المعهد. ليس سيِّئاً بالنسبة إلى رجل في الحادية والثلاثين، وإيرلنديّ فوق هذا. ربَّما ما كان أكثر إثارة للإعجاب من أيٍّ من تلك النجاحات هو أنَّني أمضيت الصيف في ويندسور، حيث كنت شرعت في فهرسة الرسومات العظيمة، التي كانت فوضويَّة حتَّى لمستها بيدي، وتكدَّست هناك منذ أيَّام هنري تيودور. كان عملاً شاقّاً، لكنَّني كنت منهمكاً فيه بإدراك حادٍّ لقيمته، ليس فقط لتاريخ الفنِّ، بل أيضاً لتعزيز اهتماماتي الخاصَّة المتعدِّدة (أيُّها الربُّ، لا تستطيع

هزيمة جاسوس متعجرف!). كنت في علاقة حسنة مع جلالته -كان موجـ
في ترينيتي قبلي بسنوات عدّة. وعلى الرغم من حماسه لأندية الأولاد وللتنـ
فإنَّه كان مثل أمِّه، حارساً فطناً، وغيوراً على الممتلكات الملكيَّة. غالباً
الأشهر الأخيرة قبل تلك الحرب، حين نكون، جميعاً، ننتظر في حالة
التوتّر الغامض من اندلاع القتال، كان يأتي إلى غرفة الطباعة، ويجلس
زاوية مكتبي، يؤرجح إحدى قدميه، وأصابعُ يديه النحيلتين، المتوتّرتين
نحو ما، مضمومة إلى بعضها، ومسترخية على فخذه، ويتحدَّث عن جام
التحف العظماء بين أسلافه على العرش، كلُّهم كان يتحدَّث عنهم بأ
ممتعة وحيويَّة كأنَّهم كانوا أعماماً كرماء جدّاً مع شيء من سمعة قذرة، الأ
الذي تقولون إنَّه كان حالهم، كما أفترض. مع أنَّه لم يكن يكبرني في الع
كثيراً، فإنَّه كان يذكِّرني بأبي، بقلَّة ثقته بنفسه، وجوِّ الإنذار بالشرِّ الغامض
والنوبات المفاجئة لما يمكن تسميته المزاح المثير للأعصاب. بالتأكيد كنـ
أفضِّله أكثر من زوجته الدامية بقبَّعاتها، وشرابها، ولعبها الأحاجي بـ
الغداء، التي كنت أجبر عليها دائماً من أجل إشعاري بالضيق وإحرا
الشديد. كان اسمها بالنسبة لي هو «بوتس»، ولم أتمكَّن قطُّ من اكتشا
مصدر هذا الاسم. كانت ابنة عمِّ أمِّي المتوفَّاة. موسكو، بالطبع كانت تبتـ
بمثل صلات القربى هذي. النفَّاجون العظماء، الرفاق.

في نهاية ذلك الصيف كنت في حالة من الإجهاد العصبيِّ العميق. لـ
كنتُ، قبل ذلك بعشر سنين، أفشل في الرياضيّات، أو إنها تفشل فيَّ، كنـ
أدرك بوضوح ما ستؤول إليه النتائج: إعادة صياغة كاملة للذات، مع
التفاني والعمل الدؤوب الذي يتطلَّبه مثل هذا التمرين: حينها كنت نجحـ
في التحوُّل، لكن بتكلفة باهظة للطاقتين الجسديَّة والفكريَّة. عما

الانسلاخ عمليَّة مؤلمة. أتخيَّل العذاب الشديد لليرقة وهي تحوِّل نفسها إلى فراشة، وهي تدفع عنها ذنيب العينين، وتسحق خلاياها الدهنيَّة داخل غبار الجناح القزحيِّ، وفي النهاية تهرس غلاف اللؤلؤة الأمِّ، وتتحرَّك مترنِّحة إلى الأعلى، على أقدام لزجة ذات شعر، ثملة، منقطعة النفس، مبهورة بالضوء. لـمَّا اقترح نيك رحلة قصيرة للتعافي («حتَّى إنَّك تبدو شديد الشحوب أكثر من المعتاد أيُّها الشابُّ الهرم»)، وافقتُ بفجائيَّة، حتَّى أنا فاجأتني. كانت فكرة نيك أنَّه ينبغي لنا السفر إلى إيرلندا. هل كان يريد أن يحصل على دليل إدانتي، تساءلت بعصبيَّة، أن يستكشف أسرار أسرتي (لم أكُ قد أخبرته عن فريدي). أن يضعني في منزلتي؟ كان مليئاً بالحماس لهذه الرحلة، سنذهب إلى كاريكدرام للاستراحة، كما قال، ثمَّ نسافر إلى أقصى الغرب حيث يعود أصل أبي كما أخبرته. فكرة الحصول على نيك إلى جانبي على نحو مستمرٍّ لمدَّة أسابيع كانت فكرة مُسكرة ومُرضية بالرغم من الهواجس التي كانت تنتابني.

اشتريت التذاكر. نيك كان مفلساً. كان منذ زمن بعيد قد انقطع عن عمله كمحرِّر في دار بريفورت آند كلاين، وكان يعيش على مصروف يأخذه من القندس الكبير الذي كان يتذمَّر ويشتكي منه باستمرار، وكان رفاقه يعينونه بكثير من المبالغ الماليَّة الصغيرة. أخذنا القطار البخاريَّ الخاصَّ بليلة الجمعة، وسافرنا من لارن في القطار الصاخب عبر الأضواء الرماديَّة الشاحبة لفجر أواخر سبتمبر. جلست أشاهد المنظر الطبيعيَّ الذي كان يتعاقب علينا. واكتست أنتريم ذاك الصباح مظهرَ الصامت. كان نيك هادئاً، وجلس متكوِّماً على نفسه في أحد أركان المقصورة غير المُدفَّأة ومعطفه يلفُّه حول نفسه مدَّعياً أنَّه نائم. لـمَّا لاح لنا منظر تلال كاريكدرام، استحوذني شيء من الهلع، ورغبت في فتح باب العربة، والقفز خارجاً ليبتلعني بخار

المحرِّك والدخان المتطاير. «الوطن»، قال نيك بصوت دفين أدهشني، «لا بدَّ أنَّك تلعنني لأنَّني جعلتك تعود». أحياناً تكون لديه قدرة تثير الأعصاب على قراءة ما يدور في خلدك. عبرَ القطار جسراً مرتفعاً يمكننا من عنده رؤية حديقة المنزل، وبعدها المنزل، لكنَّني لم أكشف ذلك لنيك. كانت الشكوك والهواجس تسيطران عليَّ.

كان والدي قد أرسل آندي ويلسن بالعربة لملاقاتنا. آندي كان البستانيَّ والحرفيَّ في كنيسة القدّيس نيقولا، رجلاً نحيلاً صغيراً، مثل جنِّي متخشِّب بذراعين وساقين مقوّستين، وعينَي رضيع زرقاوين. كان دائم الشباب، فلم يتغيَّر شكله مُذ كنت طفلاً صغيراً حين كان يرعبني لـمَّا كان يضع معي الضفادعَ في عربة الأطفال التي تخصّني. كان رجلاً منتمياً إلى منظّمة لويال أورينج[35]، متشدِّداً وعنيداً، ويضرب على الطبل الإيرلنديِّ في موكب المدينة كلَّ عام. اتَّفق مباشرة مع نيك، وشكَّل معه تحالفاً ساخراً ضدِّي. «لن يحرِّك الصبيُّ ساكناً»، قال وهو يرفع حقائبنا إلى العربة، ويومئ نحوي، ويلكز نيك، ويغمزه. «لم يكن كذلك، إيه، ولن يفعل». أطلق ضحكة، وهو يهزُّ رأسه. أمسك اللجام وضرب بطرفه المهرَ، ونيك ابتسم لي على نحو جانبيّ، ومع تخبُّط العربة وتمايلها كنَّا قد انطلقنا.

طفنا حول المدينة، والمهر الصغير كان يخبُّ في طريقه على نحو صعب الإرضاء، وبدأنا الصعود في الطريق الغربيِّ. الشمس الضعيفة كانت تناضل من أجل التألُّق. التقطت بغصَّة رائحة أعشاب الجولق الزبديَّة. وحالاً ظهر الخليج، طبقة فولاذيَّة كبيرة غير مستوية كبيرة، وارتجف شيء في داخلي؛ لطالما كنت أكره البحر: تجهُّمه، تهديده، مداه الواسع وأعماقه التي لا سبيل

---

(35) نظام أخويّ بروتستانتيّ في إيرلندا واسكتلندا. تأسّس عام 1795 إبان فترة الصراع البروتستانتيّ الكاثوليكيّ لأجل المحافظة على الهيمنة البروتستانتيّة. (م)

إلى معرفتها، وتبعث على الارتجاف. من جديد كان نيك نائماً، أو يدَّعي أنَّه كذلك، وقدماه على الحقائب. فكَّرت كيف أنَّني أحسده لقدرته على الهروب من ضجر فواصل الحياة. آندي، الذي يمسك باللجام، ألقى نظرة حنوناً إليه، وهتف بدماثة:

«نعم، الرجل النبيل!»

بدت الأشجار المحيطة بالمنزل أكثر قتامة من أيِّ وقت مضى، أقرب إلى لونٍ أزرق منه إلى الأخضر، وهي تشير إلى السماء في إنذار صامت. فريدي كان أوَّل من ظهر، يتحرَّك على نحو منحرف عبر العشب لملاقاتنا وذراعاه ممدودتان وهو يبتسم ويبربر. قال آندي: «هو ذا الزعيم. هلَّا نظرت إليه، الاسكتلنديّ!» فتح نيك عينيه. اعتدل فريدي، ووضع يداً على جناح العربة وهرول إلى جانبنا، وهو يئنُّ منفعلاً. رمقني بإحدى نظراته الجانبيَّة ولم ينظر إلى نيك على الإطلاق. أمر غريب: إنَّ أحداً معذَّباً على نحو خطر ينبغي له أن يكون فريسة شيء ما رقيق جدّاً مثل الخجل. كان شابّاً ضخماً، بقدمين ضخمتين، ويدين ضخمتين، ورأس ضخم يعلوه سقف شَعريٌّ بلون القشِّ. حينما تنظر إليه في حالة استرخاء، إذا كان يمكن أن يقال عنه أنَّه في حالة استرخاء، فإنَّك تكاد لا تعرف حالته، على الأقلّ بسبب تينك العينين العاجزتين عن الرمش، والقشور حول أظافره، وفمه الذي يمضغ نفسه دائماً. كان في حدود الثلاثين حينئذ، لكن على الرغم من ضخامة جسده كان لا يزال يبعثر قميصه فوق ثيابه مثل مشاكس في عمر اثنتي عشرة سنة. رفع نيك حاجبيه، وأومأ برأسه باتِّجاه آندي، «أهو ابنه؟»، تمتم. وفي خضمِّ هياجي وخجلي، كلُّ ما فعلته هو أن أهزَّ رأسي وأنظر بعيداً.

لـمّا وصلنا إلى المنزل خرج والدي في الحال كأنَّه كان ينتظر خلف

الباب، الأمر الذي كان ربَّما فعله. كان يرتدي ياقة إكليركيَّة، وصدَّارة الأسقف المنشَّاة، وسترة أكلها العثُّ، ويمسك بيديه رزمة من الأوراق -أظنُّ أنَّني لم أرَ والدي قطُّ في المنزل إلَّا ويده تحمل رزمة من الأوراق المدوَّن عليها. رحَّب بنا بمزيجه المعتاد من الدفء والحذر. بدا أصغر ممَّا كنت أتذكَّره، مثل أنموذج مصغَّر عنه. في الآونة الأخيرة كان قد عانى من ذبحة قلبيَّة ثانية، وكان ثمَّة إشراق لديه، شيء ما رقيق، بدائيّ افترضتُ أنَّه لا بدَّ كان الخوف المكبوت والدائم من الموت المفاجئ. ركض فريدي وعانقه ووضع رأسه الكبير على كتفه، ثمَّ نظر إلينا نظرة تملُّك خبيثة. يمكنني القول إنَّ والدي، بالطريقة المروّعة التي نظر من خلالها إلى القندس، كان قد نسي تماماً أنَّني سأجلب معي ضيفاً. نزلنا من العربة وبدأت بالتقديمات. كان آندي يثير جلبة بأغراضنا، والمهر وضع خطمه داخل ظهري الصغير وحاول دفعي، وفريدي، مدفوعاً بإثارة اللحظة وحرجها، بدأ يعوي برقَّة. ولـمَّا ظننت أنَّ كلَّ شيء سيتحوَّل بلا رجعة إلى مهزلة مدمِّرة، خطا نيك إلى الأمام بهمَّة، مثل طبيب يتولَّى مكان حادث، وهزَّ يد والدي بمقادير متساوية من الاحترام والألفة، وهو يتمتم بشيء ما عن الطقس.

«نعم، حسناً»، قال والدي، وهو يبتسم ابتسامة غامضة، ويربِّت على ظهر فريدي بلطف، «أهلاً وسهلاً بكما. أنتما الاثنان مرحَّب بكما جدّاً. هل كان عبوركما مريحاً؟ عادةً ما يكون هادئاً في مثل هذا الوقت من العام. أوقف ذلك، يا فريدي، أنت ولد جيِّد».

ثمَّ ظهرت هيتي. هي أيضاً بدت كما لو كانت مختبئة في الممرِّ، تنتظر لحظتها. مع أنَّ والدي كان قد تقلَّص على مدى السنين، فإنَّ هيتي كانت تورَّمت إلى حجم إحدى كلبات رولاند سان الملكيَّة. كانت في الستينات

من عمرها لكن لا تزال تحتفظ بزهرة الشباب، امرأة ضخمة، ورديُّة اللون، بعينين دامعتين، وقدمين رقيقتين، وابتسامة متهادية يتعذَّر ضبطها.

«أوه فيكتور»، صرخت، وهي تشبك يديها، «كم أصبحت نحيفاً!»

يعود أصل هيتي إلى إحدى أسر الكويكرز[36] الغنيَّة، وكانت أمضت فترة شبابها في قصر من الحجر الرمليِّ، فسيح، في الشاطئ الجنوبيّ للبحيرة، تقوم بأعمال خيريَّة ومشغولات الإبرة. أعتقد أنَّها الإنسان الوحيد الذي صادفته، بصرف النظر عن فريدي البائس، ولم أرَ في داخله، باقتناع تامّ، أيَّ أثر للشرِّ. (كيف يمكن لمثل هؤلاء الناس أن يكونوا موجودين في عالم كهذا؟) لو لم تكن زوجة أبي، ومن ثمَّ كانت جزءاً من الأثاث في المنزل بشكل من الأشكال، لكنت بالتأكيد رأيتها تجسيداً للدهشة والرعب. لـمّا دخلت حياتنا حاولت جاهداً أن أغيظها وأعوقها، لكنَّ بهجتها كانت كثيرة بالنسبة لي. لقد انتصرت عليَّ في الحال لـمَّا تخلَّصت من المربِّية هارغريفز، المرأة المحافظة المشيخيَّة المرعبة التي كانت، منذ وفاة والدتي، أدارت حياتي بحقد فعَّال وهي تجرِّعني أسبوعيّاً زيت الخروع، وتخضعني، مع فريدي، لمواعظ مريرة عن الخطيئة واللعنة. لم تكن المربّية هارغريفز تعرف كيف تلعب، في المقابل هيتي كانت تحبُّ ألعاب الأولاد، وأفضلها لديها كانت الألعاب الخشنة -ربَّما كان والداها، الكويكرز، يرفضان مثل هذا العبث الإلحاديّ حين كانت صغيرة، وهي الآن تعوِّض تلك الفرص الضائعة. كانت تنزل على يديها وركبتيها، وتطاردنا، فريدي وأنا، على أرضيَّة غرفة الاستقبال، وتهدر مثل دبٍّ رماديٍّ، وجهها يزهر بلون أحمر، وصدرها العامر يتأرجح. في الأمسيات، قبل وقت النوم، كانت تقرأ لنا قصصاً عن مهمَّات غريبة،

---

(36) جمعيّة الأصدقاء الدينيّة، مجموعة من البروتستانت نشأت في إنكلترا في القرن السابع عشر على يد جورج فوكس. عرفوا برفضهم للحروب، ومعارضة الرقّ، وبأنّهم رأسماليّون طبيعيّون. (م)

فيها فتيات عذراوات شجاعات، ورجال جريئون ذوو لحى، والشهيد الغريب عالق في الصحراء ليموت، أو ليقضي مغليّاً في قِدر هوتينتوس العربيد.

«ادخلا»، قالت مرتبكة، كما أدركتُ، من هيئة نيك الغريبة والجيِّدة، «ماري ستعدُّ لكما طعاماً مقليّاً».

حرَّر والدي نفسه من حضن فريدي، وتوجَّهنا جميعاً نحو القاعة، وآندي ويلسون جاء خلفنا مع الحقائب وهو يشتم بصوت خفيض. ابن آندي، ماتي، كان ما أفترضُ أنَّه يمكن تسميته بحبِّي المبكِّر. كان ماتي في مثل سنّي: خصلات شعر سود، وعينان زرقاوان، مثل والده. هل ثمَّة شخص في مرحلة الطفولة، هشٌّ على نحو جذَّاب، وحضور يوحي بالفحش أكثر من ابن الخادم؟ توفِّي ماتي، غرق في أثناء سباحته في كولتون فير. لم أعرف ماذا أفعل بحزني، لقد أقعدني لأسابيع مثل طائر راقد على بيضه، ثمَّ طار في أحد الأيَّام. هكذا يتعرَّف المرء حدودَ الحبِّ، وحدود الحزن.

كان نيك يبتسم لي مؤنِّباً، وقال: «لم تقل لي إنَّ لديك أخاً».

أدركت حينها فداحة الخطأ الذي ارتكبته لـمَّا أحضرته معي إلى هناك. العودة إلى المنزل هي سلسلة من الأحزان التي تجعل أحدنا يرغب في النحيب، وفي الوقت عينه يحتدم غضباً. كم بدا المكان داكناً. وتلك الرائحة! -متعباً، بنّيّاً، حميميّاً، فظيعاً. كنت أشعر بالخجل من كلِّ شيء، والخجل من نفسي لأنِّي خجلت. كدت لا أتحمَّل النظر إلى والدي ذي الملابس الرثَّة وزوجته البدينة، وجفلت لتمتمات آندي ورائي، وانكمشت لـمّا فكّرت في ماري ذات الشعر الأحمر، طبَّاختنا الكاثوليكيَّة، وهي تقذف طبقاً من لحم الخنزير والبودنغ الأسود أمام نيك (هل أكل لحم الخنزير؟ يا إلهي، كنت نسيت أن أسأل). أكبر خزي لديّ كان فريدي بطبيعة الحال. لـمَّا كنَّا أطفالاً لم أكن أنتبه إليه، عادّاً

أنّ الحقيقة هي، كما أفترض، أنَّ أيَّ واحد يولد في الأسرة بعدي ينبغي له أن يكون معوقاً. بالنسبة لي كان شخصاً يتلقَّى الأوامر، الوزنَ المكمِّل في اللعبة المعقَّدة التي ابتكرتها، الشاهد غير الممتعض تجاه مغامراتي الجريئة نوعاً ما، أنفّذ تجاربي عليه لمعرفة ردَّة فعله فحسب. أعطيته شراباً ممزوجاً بالميتانول ليشربه -تقيّأ- ووضعت سحلية ميتة في حساء العصيدة خاصَّته. في أحد الأيَّام دفعته إلى أجمة من أعشاب القرِّيص وجعلته يصرخ. ظننت أنَّني سأُعاقَب، لكنَّ والدي رمقني فحسب، بحزن عميق، وجفنين متدلِّيين وهو يهزُّ رأسه، في حين كانت هيتي جالسة على العشب مثل هنديَّة حمراء تهدهد فريدي بين ذراعيها، وتضغط بورقة من نبات الحمَّاض على ذراعيه الشاحبتين وركبتيه المنتفختين. في فترة المراهقة، لـمَّا طوّرت شغفاً بالرومانسيِّين، نظرت إليه كأحد المتوحِّشين النبلاء، حتَّى إنَّني كتبت «سونيت» عنه، تتألَّف من أبيات للشاعر وردزوورث (أوه! أنتَ، يا طفل الطبيعة الأميريَّ، استمع!)، وجعلته يتسكَّع معي في التلال في جميع الظروف الجويَّة، ما جعله يحزن، لأنَّه كان يخاف للغاية الأماكنَ خارج المنزل منذ صغره. الآن، فجأة، شاهدته بعينَي نيك، شيئاً بائساً بطيئاً معطوباً، له جبهتي العريضة، وفكِّي العلويّ البارز، وأنا، مشيت إلى أسفل القاعة أسبح في عرق ساخن من الإحراج، ولا أنظر في عينَي نيك المستمتعة، الساخرة، وشعرت بالارتياح حين نزل فريدي نحو الحديقة ليقوم بأيِّ أفعال غريبة كان منشغلاً بها قبل وصولنا.

في غرفة الطعام، وفي حين كنَّا، أنا ونيك، نتناول طعام الإفطار، جلس والدي وهيتي ينظران إلينا بنوع من العجب الغامض، كأنَّا كنَّا زوجين من آلهة روما توقَّفا عند مائدتهما المتواضعة في الطريق إلى بعض الشؤون الأولمبِّية في مكان آخر. ماري، الطبَّاخة، استمرَّت في إمدادنا بأشياء أكثر

للأكل، خبز مقليٌّ، وكُلى مشويَّة، ورفوف من الخبز المحمَّص، وهي تدور حول الطاولة ومئزرها مرفوع لحماية أصابعها من حرارة الأطباق، تلقي نظرات خاطفة إلى نيك -يديه، خصلة الشعر المتدلِّية تلك- من تحت عينيها اللتين بعناء يمكن رؤيتهما، ثمَّ تحمرُّ خجلاً. تحدَّث والدي عن تهديد الحرب. لطالما كان لديه إحساس مرهف بأهميَّة العالم وتهديده، متصوِّراً أنَّه شيء ما يشبه دوَّامة عملاقة عند نهايتها المستدقَّة يجثم الفرد، ويداه متشابكتان، في تضرُّع إلى الله النزويِّ والكتوم على نحو يثير القلق.

«ما يُحسب لتشامبرلين[37]»، قال، «أنَّه يتذكَّر الحرب العالميَّة السابقة، وتكلفتها».

حملقت في قطعة نقانق وأنا أفكِّر في مدى بؤس والدي الأبله.

«السلام في هذا الزمن»، غمغمت هيتي وهي تتنهَّد.

«أوه، لكن ستكون ثمَّة حرب»، قال نيك برصانة، «على الرّغم من دعاة التهدئة. ما هذا بالمناسبة؟»

«إنَّه فادج»، قالت ماري دون تفكير وهي تتحدّث إلى الباب، وحمرة خجلها أصبحت أوضح.

«فطيرة فادج»، قلتُ وأنا أكزّ على أسناني، «طعام محليٌّ شهيٌّ». قبلها بيومين كنت أتحدَّث مع الملك بشأنه.

قال نيك: «ممم. لذيذ».

جلس والدي يرمش بأهداب عينيه مكروباً. توهّج ضوء قادم من النافذة المؤطَّرة، على رأسه الأصلع. فكَّرت في ترولوب[38]؛ إنَّه إحدى

(37) نيفيل تشامبرلين (1869-1940)، رئيس وزراء بريطانيا (1937-1940)، حزب المحافظين. (م)

(38) آنتوني ترولوب (1815-1882)، روائيّ إنكليزيّ، صوّر الحياة الإكليريكيّة والمجتمع الريفيّ. (م)

شخصيَّات ترولوب الثانويَّة.

«وهل هذا ما يشعر به الناس في لندن»، قال، «أنَّ حرباً ستندلع؟»

فكَّر نيك، ورأسه يميل على أحد جانبيه، وينظر إلى صحنه. بإمكاني استعادة اللحظة: أشعّة شمس أكتوبر الرقيقة على الأرضيَّة الخشبيَّة، عقدة البخار التي ترتفع من فوّهة إبريق الشاي، اللمعان البغيض على نحو ما للمربَّى في طبقه الزجاجيِّ، ووالدي وهيتي ينتظران مثل طفلين مذعورين سماع ما تفكِّر فيه لندن.

«بالطبع ستندلع الحرب»، قلت بنفاد صبر، «سيسمح الرجال القدامى بحدوث ذلك من جديد».

هزَّ والدي رأسه بحزن.

«نعم»، قال، «لا بدَّ أنَّكم تفكِّرون في أنَّ جيلنا قد خذلكم».

«أوه، لكنَّنا نريد السلام!»، هتفت هيتي باستغراب أقرب إلى النقمة كأنَّه كان من الممكن لها أن تنقم، «نحن لا نريد للشبّان أن يخرجوا من جديد، ويُقتلوا من أجل... من أجل لا شيء».

نظرتُ إلى نيك. كان غير مهتمّ لنا، غارقاً في صحنه؛ لطالما كانت لديه شهيَّة غير عاديَّة.

«يكاد لا يمكنكم القول عن القتال ضدَّ الفاشيَّة إنَّه لا شيء»، قلت، وهيتي بدت مرتبكة إلى درجة أنَّها بانت كأنَّها ستنفجر باكيةً.

«آه، أنتم أيُّها الشبّان»، قال والدي برقَّة، وهو يضرب يده في الهواء أمامه بإيماءة لا بدَّ كانت تعديلاً دنيويّاً على إشارة البركة الأسقفيَّة، «لديكم مثل هذا اليقين».

عند هذي اللحظة رفع نيك نظره كتعبير عن اهتمام حقيقيٍّ.

«هل تعتقد ذلك؟»، قال، «أشعر أنَّنا جميعاً بدلاً من ذلك... حسناً، غير متيقّنين»، وانهمك يدهن زُبداً على قطعة من الخبز المحمَّص البارد، داهناً الزُّبد مثل رسَّام يمسح لوحته بصباغ أصفر كادميوم بسكِّين الرسم. «يبدو لي أنَّ الشبّان في مثل عمري يفتقدون إلى أيِّ إحساس بالغاية أو بالاتِّجاه. في الحقيقة، أنا أعتقد أنَّنا يمكن أن نقوم بعمل جيِّد مع جرعة من الانضباط العسكريِّ».

«ادفعوهم إلى الجيش، هه؟» قلت بمرارة. واصل نيك دهن الزبد على الخبز المحمَّص بهدوء، مستعدّاً لتناول لقمة، ونظر إليَّ بكلا الجانبين، وقال:

«لم لا؟ هؤلاء المغفّلون الذين نراهم يقفون عند زوايا الشوارع، يشتكون من عدم حصولهم على عمل -أليس من الأفضل لهم ارتداء الزيِّ العسكريّ؟»

«سيكون حالهم أفضل في العمل»، قلت، «ماركس يوضِّح دائماً أنَّ-»

«آه، ماركس!»، قال نيك وهو يقرمش لقمة الخبز المحمَّص، وضحك.

شعرت أنَّ جبهتي انقلبت حمراء.

«ينبغي أن تقرأ ماركس»، قلت، «ثمَّ بعدها قد تعرف ما الذي تتحدَّث عنه».

ضحك نيك فحسب من جديد.

«تقصد حينها أنَّني قد أعرف ما تتحدَّث عنه أنت».

أطبق صمت ثقيل، وهيتي نظرت إليَّ بقلق، لكنَّني تجنَّبت نظرتها. انزعِج والدي، صفَّى حنجرته، وبإصبع قلق تتبَّع أثر رسم غير مرئيٍّ على مفرش الطاولة.

«الماركسيَّة، الآن»، بدأ، لكنَّني قاطعته في الحال بتلك الهمجيَّة المزعجة

التي يدَّخرها الأبناء الراشدون لأجل آبائهم المتلعثمين.

«أنا ونيك نفكِّر في الذهاب إلى الغرب»، قلت بصوت عالٍ، «إنَّه يريد رؤية مايو».

الشعور بالذنب هو الأثر الوحيد الذي أعرفه ولا يتقلَّص مع الوقت. كما أنَّ الضمير المذنب ليس لديه أيُّ إحساس بالأفضليَّة أو التناسب الصحيح. في حياتي، أرسلت، عن قصد منّي أو دون قصد، تسبَّبت في وفيات رهيبة للرجال والنساء، لكنَّني لا أشعر بأيِّ وخز حادٍّ حينما أفكِّر فيها كما أفعل حينما أتذكَّر بريق الضوء على صلعة والدي لـمَّا كنَّا جالسين إلى الطاولة حينها، أو عينَي هيتي الواسعتين الحزينتين وهما تنظران إليَّ في تضرُّع صامت، دون غضب أو استياء، تسألني أن أكون لطيفاً مع رجل هرم قلق، أن أكون متسامحاً مع تفاهة حياتيهما؛ تسألني أن يكون لديَّ قلب.

بعد الإفطار، اضطررت إلى الخروج من المنزل، وجعلت نيك يمشي معي إلى الميناء. كان الطقس قد بدأ يتحوَّل إلى عاصف، وظلال السحاب تنطلق بسرعة فوق البحر المرقَّط بالأبيض. قلعة نورمان على الشاطئ بدت قاتمة اليوم على نحو خاصٍّ، في ضوء الخريف الشاحب؛ لـمَّا كنت طفلاً كنت أعتقد أنَّها مصنوعة من رمال البحر الرطبة.

«أناس طيِّبون»، قال نيك، «والدك مقاتل».

حملقت فيه.

«هل تظنُّ ذلك؟ مجرَّد ليبراليٍّ برجوازيٍّ آخر، كنت لأقول. على الرغم من أنَّه كان رئيس حكم ذاتيّ في أيَّامه».

ضحك نيك.

«ليس منصباً شائعاً بالنسبة لرجل دين بروتستانتيّ، بالتأكيد؟»

«كارسون كرهه، حاول منعه من أن يصبح أسقفاً».

«هو ذا إذاً، مقاتل».

مشينا على طول الواجهة البحريَّة. وعلى الرّغم من أنَّنا كنَّا في أواخر الفصل، فقد كان ثمَّة مستحمُّون هناك في الأسفل، في الماء، وصلت صرخاتهم إلينا، صغيرة وواضحة، تحرِّك الرمال المتماسكة. ثمَّة شيء ما في داخلي يستجيب دائماً، على نحو خجول، إلى المسرَّات الرقيقة على شاطئ البحر. رأيت بوضوحٍ مثير للأعصاب نسخةً ثانية مني، ولداً صغيراً يلعب هنا مع فريدي (في أحد الأيَّام دنا مني فيتغينشتاين عند ضفة نهر كام وأمسك بي من معصمي، وألصق وجهه قريباً مني، وهمس: «هل الرجل الخرف هو المخلوق نفسه لـمَّا كان رضيعاً؟») يعمِّر قلاعاً ويحاول خلسة أن يغصبه على أكل الرمل، في حين جلست هيتي هادئة وسط بطانيَّة كبيرة منقوشة بمربعات، تمارس حياكتها الاعتياديَّة، وتتنهَّد برضا، وتتحدَّث إلى نفسها بصوت خفيض، وساقاها، الضخمتان، المرقَّشتان، تمتدَّان أمامها مثل زوج من الخطَّافات الرافعات، وأصابع قدميها ترتعشان (اشتكى مرَّة أحد أبناء الأبرشية إلى والدي من أنَّ زوجته كانت على ضفّة النهر، وأزرار قميصها مفتوحة ليشاهدها كلُّ أبناء البلدة).

توقَّف نيك فجأةً، وصار يحملق حوله، كما لو كان يؤدِّي مشهداً مسرحيّاً، في البحر والشاطئ والسماء، ومعطفه يطير مع النسيم كأنَّه عباءة.

«أيُّها الربُّ»، تمتم، «كم أبغض الطبيعة!»

«أنا آسف»، قلت، «ربَّما لم يكن ينبغي لنا القدوم إلى هنا».

نظر إليَّ، ورسم ابتسامة متجهِّمة، ساحباً فمه إلى الجنبين. «يجب ألّا تأخذ كلَّ شيء على نحو شخصيٍّ، كما تعلم»، قال، وتابعنا مسيرنا، ثمَّ ربَّت

على بطنه «ماذا كان اسم هذا الشيء؟ فادج؟»

«فادج».

«مذهل».

كنت قد راقبته في أثناء تناول الإفطار، حين كان والدي يتكلَّم بأشياء مبتذلة، وهيتي تقدِّم دعمها له بقوَّة. ابتسامة واحدة فقط منه لغرابتهما، هكذا أخبرت نفسي، وسأكرهه مدى الحياة، لكنَّ سلوكه خلا من العيب. حتَّى لـمَّا جاء فريدي وضغط أنفه وشفتيه المتقرِّحتين على نافذة غرفة الطعام، ملطِّخاً الزجاج بالمخاط والبصاق، ضحك نيك فحسب، كأنَّها عاطفة تحبُّب تجاه طفل صغير، أنا كنت الشخص الذي جلس وشفته مقلوبة في نفاد صبر مزدرٍ. الآن قال:

«شبَّان، هكذا دعانا والدك. لا أشعر بأنِّي شابٌّ، هل تشعر بذلك؟ أيُّها الربُّ، إنَّه نحن من هم الرجال المعمِّرون الآن. سأبلغ الثلاثين في الشهر القادم. ثلاثون عاماً!»

قلت: «أعرف. في الخامس والعشرين من الشهر القادم».

نظر إليَّ وقد فوجئ، وقال: «كيف تذكَّرت ذلك؟»

«لديّ ذاكرة للتواريخ، وذاك تاريخ مهمٌّ قبل كلِّ شيء».

«ماذا؟ أوه، نعم، أفهم الأمر. ثورتك المجيدة. ألم تحدث حقّاً في نوفمبر؟»

«نعم، نوفمبر الخاصُّ بهم، النمط القديم. وفق التقويم اليوليانيّ[39]».

«آها، التقويم اليوليانيّ، نعم، يا عيني عليه هذا التقويم».

جفلت، لم يبدُ قطُّ أكثر يهوديَّة لـمَّا نطق بهذه المفردات التي كانت

(39) تقويم فرضه يوليوس قيصر عام 46 ق.م، استخدمته الكنائس الشرقيّة حتى القرن العشرين، يتأخَّر عن التقويم الشمسيّ المتّبع ثلاثة عشر يوماً. (م)

تستخدمها شخصيَّة بيتي ووستر[40].

«في أيِّ حال»، قلتُ، «الرمز هو كلُّ شيء. كما يحبُّ كويريل أن يشير، الكنيسة الكاثوليكيَّة قامت على تورية الكلمات. هل أنت بطرس؟»

«ماذا؟ أوه، أدرك ذلك، جيِّد، جيِّد جدّاً».

«سرقتها من شخص آخر مع ذلك».

مشينا في ظلِّ حائط القلعة، ومزاج نيك اكفهرَّ مع الجوّ.

«ماذا ستفعل في هذه الحرب، فيكتور؟» سأل. صوته أصبح خشناً، وأقرب إلى صوت سيدني كارتونيش. توقَّف وانحنى على الحاجز المعدنيّ للميناء.

كانت ريح البحر قارسة يشوبها الملح. وبعيداً في البحر كان سرب من النوارس يندفع فوق بقعة من البريق على سطح الماء، تدور الطيور وتغطس على نحو أخرق، مثل صفحات جريدة طائرة. فكَّرت في أنَّني كنت أستطيع سماع صرخات جوعها القاسية.

قلت: «هل تظنُّ حقّاً أنَّ حرباً ستندلع؟»

«نعم، لا شكَّ في ذلك. لكن»، تابع مسيره، ومشيت وراءه مسافة خطوة، «ثلاثة أشهر، ستَّة أشهر -سنة على أبعد تقدير. المصانع كانت قد قالت كلمتها، على الرغم من أنَّ وزارة الحرب لم تخبر تشامبرلين بذلك. أنت تعرف أنَّه ودالادييه[41] عملا معاً سّراً لأشهر للتوصُّل إلى اتفاق مع هتلر على مسألة إقليم السوديت؟ وهتلر الآن يستطيع أن يفعل ما يشاء. هل سبق أن

---

(40) شخصيّة خياليّة متكرّرة في القصص الكوميديّة المصوّرة ألّفها الكاتب البريطانيّ ب. ج. وودهاوس في العام 1915، وتحكي عن الشابّ الإنكليزيّ العاطل بيتي وخادمه جيفيس الذي ينقذ سيّده دائماً بذكائه. (م)

(41) إدوارد دالادييه (1884-1970) رئيس وزراء فرنسا ثلاث مرّات، أهمّها بين عامي (1938-1940). (م)

سمعت ما قال عن تشامبرلين؟ إنِّي أشعر بالأسف تجاهه، دعوه يمتلك قطعة الورق هذه».

كنت أحملق فيه.

«كيف تعرف كلَّ هذا؟»، سألتُ وأنا أضحك، «تشامبرلين، المصانع، وكلّ هذي الأمور؟»

هزَّ كتفيه.

قال: «تحدَّثت إلى بعض الأشخاص. قد ترغب في مقابلتهم، إنَّهم من طينتك».

طينتي، فكَّرتُ، أو طينتك؟ لم أُعلِّق.

«هل تقصد أشخاصاً في الحكومة؟»

هزَّ كتفيه من جديد.

قال: «شيء من هذا القبيل»، ثمَّ تحوَّلنا عن الميناء، وقفلنا عائدين في طريق التلِّ. لـمّا تكلَّم، أصابني نوع من التورُّد المتَّقد البطيء، غطَّاني من صدري إلى رأسي. كان الأمر كما لو كنَّا زوجين من أولاد المدارس، ونيك فكَّر في أنَّه اكتشف أسرار الجنس لكنَّه أخطأ في التفاصيل. «كلُّ شيء يفسد، ألا تظنُّ ذلك؟»، قال، «لقد أنهت إسبانيا كلَّ شيء بالنسبة لي. إسبانيا، والآن هذه الأعمال الوحشيَّة في ميونيخ. السلام في هذا الزمن -ها!» توقَّف، والتفت إليَّ يعلوه عبوس عميق، وأزاح خصلة شعره عن وجهه إلى الوراء. عينان سوداوان للغاية في ضوء الصباح الشاحب. الشفة تهتزُّ بالعاطفة وهو يجاهد للمحافظة على محيًّا رجوليٍّ. كان عليَّ أن أشيح بنظري بعيداً لأخفي ابتسامتي. «يجب فعل شيء ما، فيكتور، والأمر يعود إلينا».

«أتقصد... طينتنا؟»

لم تكن لي دراية بالموضوع قبل أن يذكروه لي. كنت مرتعباً من الإساءة إليه -كان لديَّ تصوُّر له يجلس متجهِّم الوجه في العربة، بعينين متواريتين، يطالب بالعودة إلى المحطَّة حالاً، في حين كان والدي وهيتي، وآندي ويلسون، بل حتَّى المهر، ينظرون إليَّ نظرة اتِّهام. لم أكن مضطرّاً للقلق؛ فقد وجدت أنَّ نيك لم يكُ موضع سخرية؛ ولم يكُ قطُّ مغروراً. التفتنا نحو التلِّ من جديد. مشى ويداه داخل معطفه، وعيناه على الطريق، وفمه يتحرَّك، عضلة ما فيه كانت تعمل.

«شعرت أنِّي غير نافع الآن»، قال، «ألعب دور الرجل الرائع، وأسرف في شرب الشمبانيا. أنت على الأقَلّ عملت شيئاً في حياتك».

«لا أظنُّ أنَّ قائمة الرسوم في مجموعة قلعة ويندسور ستوقف السيِّد هتلر عن طريقه».

أومأ برأسه؛ لم يكن يصغي.

«الأمر هو أن تتورَّط»، قال، «أن تفعل شيئاً ما».

«هل هذا هو نيك بريفورت الجديد؟»، قلتُ، بنبرة خفيفة كأنَّني ناجح في تدبُّر الأمر. كان الإحراج قد زال عنِّي الآن وتحوَّل إلى انزعاج لا يمكن تفسيره تماماً، وغير مقبول بالتأكيد -في النهاية كلُّ واحد ذلك الخريف كان يتكلَّم على هذا النحو. «يبدو أنَّني أتذكَّر أنِّي أجريت هذا الحوار معك منذ بضع سنوات، لكن في الاتِّجاه المعاكس. وكنتُ وقتها الشخص الذي يلعب على وتر الفعل».

ابتسم، وهو يعضُّ شفته. ارتفع انزعاجي إلى درجات عالية.

«أتظنُّ أنَّني ألهو؟» قال بتشدُّق راشح بالازدراء. لم أسمح لنفسي بالردّ. تابعنا سيرنا لوهلة صامتَين. كان قرص الشمس قد انقلب إلى ضباب حليبيّ

اللون. «بالمناسبة»، قال، «أصبحت لديَّ وظيفة، هل كنت تعرف؟ لقد عيَّنني ليو روذنستاين مستشاراً».

فكَّرت في أنَّها لا بدَّ واحدة من نكات ليو.

«مستشار؟ أيّ نوع من المستشارين؟»

«حسناً، في السياسة، على الأغلب، وفي الموارد الماليَّة».

«الموارد الماليَّة؟ وماذا تعرف عن الموارد الماليَّة؟»

للحظة لم يردَّ. خرج أرنب من السياج وجلس على قائمتيه الخلفيَّتين، إلى جانب الطريق، ونظر إلينا دَهشاً.

«أسرته قلقة من هتلر. لديهم أموال في ألمانيا، وكثير من العلاقات هناك. سألني أن أبحث عنهم. كان يعلم أنَّني ذاهب، كما ترى».

«هل أنت ذاهب، إلى ألمانيا؟»

«نعم، ألم أقل ذلك؟ أعتذر. الأشخاص الذين تحدَّثت إليهم طلبوا إليَّ الذهاب».

«وماذا ستفعل؟»

«أجول في الأرجاء... فحسب. أعتاد المكان، وأكتب تقارير».

ضحكت بصوت عالٍ.

«يا إلهي. أيُّها القندس»، صرخت، «ستصبح جاسوساً!»

«نعم»، قال ببسمة فخر متكلّفة، كولد من الكشَّافة، «نعم، أفترض ذلك».

لم أعرف لمَ كان ينبغي لي أن أُدهش: في النهاية، أنا نفسي كنت في الصفوف السرّيَّة لسنوات عدَّة، بالرغم من أنَّه كان الجانب الآخر منه، ومن نوعه. ما الذي كان سيحدث، أسأل نفسي، لو أنَّني قلت له لحظتها نيك،

حبيبي، أنا أعمل لصالح موسكو، ما رأيك في الأمر؟ بدلاً من ذلك، توقَّفت، والتفتُّ إلى الوراء، إلى أسفل التلَّة، حيث الميناء والبحر الهادر.

قلت: «أتساءل عمَّ تبحث تلك النوارس».

التفت نيك أيضاً، وحدَّق على نحو غريب، وقال:

«عن أيِّ نوارس تتكلَّم؟»

لم نذهب إلى مايو. لا يمكنني تذكُّر العذر الذي قدَّمته إلى والدي وهيتي، أو إذا ما كنت حتَّى اهتممت بتقديم عذر. كلانا كان مهتمّاً بالعودة إلى لندن، نيك إلى عمله في التجسُّس، وأنا أيضاً، إلى عملي في التجسُّس. أبي كان مجروحاً. الغرب بالنسبة إليه كان أرض الشباب، ليس مكان عُطل طفولته فحسب -كان جدُّه قد احتفظ بمزرعة على جزيرة صخريَّة صغيرة في خليج كليو- بل المكان الذي نشأ فيه شعبه، أبناءُ البلاد الأصليُّون الغامضون الذين خرجوا من ضباب الساحل الغربيِّ، أبناءُ قبيلة «أو ميسويلز» العظيمون، المحاربون، القراصنة، أفراد القبائل البغيضون جميعاً، الذين خرجوا في الوقت المناسب لتفادي ويلات المجاعة، بعد أن غيَّروا دينهم، وحوَّلوا ألقاب أُسرهم إلى أسماء إنكليزيَّة، وحوَّلوا أنفسهم إلى سادة نبلاء ريفيِّين ينظمون الشِّعر ويجيدون امتطاء الخيل. لم يكن لديَّ أيُّ رغبة في تعريف نيك إلى هذه الأساطير، ولا رغبة في المشي معه عبر الأماكن التي تقبع فيها الأكواخ الحجريَّة لأجدادي، والبيئة الأمُّ التي نبعوا منها. في هذه الأمور، هو وأنا، اخترعنا صمتاً لائقاً: هو لم يتكلَّم عن يهوديَّته، ولا أنا تكلَّمت عن دمي الكاثوليكيّ. كنا، كلانا، بطريقتينا، رجلين عصاميَّين. ثلاثة أيَّام في كاريكدرام كانت كافية لكلينا؛ حزمنا كتبنا وأحذيتنا الطويلة التي لم نلبسها، وركبنا سفينة، واتَّجهنا إلى المكان الذي أدركت أنَّه أصبح الآن وطني. لـمّا غادرت إيرلندا ومنزلَ والدي، سيطر عليَّ الإحساس بأنَّني

اقترفت جريمة صغيرة، وفظّة على نحو الخصوص. في أثناء الرحلة كان في وسعي الشعور بنظرة والدي المجروحة الغفور ثابتة مثل بقعة من الحرارة على الجزء الخلفيّ المحترق أصلاً في رقبتي.

كانت لندن ذاك الخريف تفيض بالهواء الشارد الموسميّ؛ كان الجوُّ محموماً وفارغاً مثلما كان آخر يوم لي في الفصل الدراسيّ، أو مثل نصف الساعة الأخيرة في إحدى الحفلات المخمورة. كان الناس ينجرفون إلى الصمت في منتصف أيِّ جملة، وينظرون إلى ضوء الشمس الباهت في النوافذ، ويتأوَّهون. كانت الشوارع مثل إعدادات المسرح، مصغَّرة، ثنائيَّة الأبعاد، اختلط نشاطها وانشغالها بانفعالات تجاه شيء متى تحرَّك توجَّب عليه أن يتوقَّف على نحو عنيف. صرخات بائعي الصحف كانت لها رنَّة شيطانيَّة -مرح أهل شرقيّ لندن لطالما أثار أعصابي. في المساء، وهج غروب الشمس في السماء فوق الأسطح كان يبدو كأنَّه شفق حريق كبير. كلّ هذا كان مبتذلاً جدّاً، تلك الإشارات المبتذلة والفضول. كان الخوف مبتذلاً.

بالنسبة لبعضهم، كانت الأزمنة متجانسة على نحو متجهِّم -كويريل، في سبيل المثال، كان ملهيّاً في أشغاله الاعتياديَّة. أتذكَّر لـمَّا التقيته في ستراند في وقت متأخِّر من عصر أحد أيَّام شهر نوفمبر ذاك. ذهبنا إلى ليونز كورنر هاوس، وشربنا شاياً لونه بلون المطر الهاطل على الرصيف خارج النافذة المشبعة بالبخار حيث جلسنا. بدا كويريل متبطِّلاً أكثر من المعتاد في بزَّته الضيِّقة وقبعته البنّيّة. في غضون دقائق، على ما يبدو، كان قد ملأ منفضة السجائر القصديريَّة على الطاولة بيننا حتّى طفحت. كنت أصبحت راسخاً في الوكالة في ذلك الوقت، لكنَّني نادراً ما كنت أراه هناك -كان في مكتب البلقان، وأنا كنت في مكتب اللُّغات- وحينما تسنح لنا فرصة اللقاء خارجاً

على هذا النحو كنَّا نشعر بالحرج والتكلُّف، مثل رجلَي دين يلتقيان عند الصباح بعد مواجهة عرضيَّة في بيت دعارة. في الأقلّ، أنا كنت أشعر بالحرج؛ لا أظنُّ أنَّ كويريل كان يسمح مطلقاً لنفسه بالاستسلام للمشاعر الضعيفة والواضحة. لم أستطع أخذ عالم الاستخبارات العسكريَّة على محمل الجدّ، عالم الاستخبارات المضلِّل للذات، فرقة المدرسة، والأولاد بشوارب الرجال؛ جوُّ البهجة المختلطة والإخلاص الذي كانت الوكالة تعيشه في أعماله اليوميَّة، كان مسليّاً أوَّل الأمر، ثمَّ مخزياً على نحو غريب، ثمَّ بكلّ بساطة مملًّا. هؤلاء الحمقى الذين ينبغي للمرء أن يتعامل معهم! كويريل كان مختلفاً، مع ذلك؛ شككت في أنَّه كان يحتقر المكان كما أفعل. أخذ منّي الأمر وقتاً طويلاً، مع جذب قويّ لشبكة الأولاد القديمين كي أنفذ إليهم؛ في النهاية، أدار ليو روذنستاين الأمر لصالحي. كان في موقع عالٍ جدّاً في قسم الشرق الأوسط -واستمرَّ كذلك لسنوات مفاجئاً إيَّاي حين اكتشفت ذلك. قال كويريل بابتسامة مزمومة: «إنَّه أمر في الدّم. كانت أسرته تدير جواسيسَ لقرون. تلقَّوا أخباراً مبكِّرة عن معركة واترلو، وصنعوا من ذلك ثروتهم في البورصة، هل كنت تعلم ذلك؟ ماكرون؛ ماكرون جدّاً». لم يكن كويريل يهتمُّ بأمر اليهود، كان يراقبني بعينيه اللتين لا ترفَّان، الشاحبتين، البارزتين، وتيَّاران من دخان السجائر يخرجان من منخريه. شغلت نفسي بأكل كعكة ملفوفة. أدهشني كلامه عن الجواسيس، فهي لم تكُ كلمة يستخدمها الناس في الوكالة، حتَّى مع بعضنا. في بعض الأحيان، كان يخطر في فكري أنَّه ربَّما كان هو أيضاً مثلي، أكثر ممَّا يعترف به-كان للتوِّ نشر قصَّة مثيرة بعنوان العميل المزدوج. لم تكن الفكرة أنَّ كويريل هو زميل سرّيَ فكرة جذَّابة. لـمَّا نظرت إلى أعلى كعكتي حوَّل نظره نحو قدمَي النادلة التي مرَّت أمامنا.

لم يسبق لي أن نجحت في تحديد آرائه السياسيَّة. كان يتحدَّث عن حشد كليفدون أو عن موسلي وبلطجيَّته بشيء من الإعجاب التائق، ثمَّ في اللحظة التالية يصبح بطلاً عمَّاليّاً. وأنا، على براءتي، ظننت أنَّ كاثوليكيَّته هي التي أتاحت له المساحة في الإفتاء بأمور الضمير. في إحدى عطل نهاية الأسبوع، لـمَّا كانت تجري المحاكم الصوريَّة في موسكو، سمعني مصادفة أنتقد ستالين بقسوة. «الأمر هو، يا ماسكل»، قال، «أنَّ البابا السيِّئ لا يصنع كنيسة سيِّئة». انتبه ليو روذنستاين، الغارق في الصوفا، وقدماه متصالبتان أمامه، إلى كلامه، وضحك ضحكة كسلى، وقال: «يا إلهي. بلشفيٌّ في المنزل! لا بدَّ أنَّ البابا البائس تحرَّك في قبره».

«هل شاهدت بانيستر مؤخَّراً؟» سأل كويريل، وما انفكَّت عيناه تراقب تقاطيع جسد النادلة، «سمعتُ أنَّه يتعامل مع الفاشيِّين».

كان بوي يعمل في هيئة الإذاعة البريطانيَّة، المسؤولَ عمَّا أشار إليه بحماس بالمكالمات. كان فخوراً بعمله على نحو محبِّب، وأبهجنا بقصص عن اللورد ريث وأحبَّائه من الذكور، رفضنا تصديقها وقتها. بحلول ذلك الوقت كان هو الآخر مع الوكالة؛ فبعد ميونخ انضمَّ الجميع في مجموعتنا إلى الشرطة السرّيّة، أو أُكرهوا على الانضمام إليها. أتصوَّر أنَّنا لم نكن على دراية أنَّ العمل الاستخباراتيَّ كان أجدر بالتفضيل على الخدمة العسكريَّة -أم هل أنِّي غير منصف بشأننا؟ تولَّى بوي دوره السرِّيَّ بحماس صبيانيٍّ. لطالما كان يحبُّ الحياة السرّيّة، وافتقدها على نحو مؤلم بعد تخلِّيه عنها. كان يستمتع، على وجه الخصوص، بلعب تمثيل الأدوار، وللتغطية كان مؤخَّراً قد انضمَّ إلى مجموعة نشطة من حزب المحافظين، من المتعاطفين مع النازيَّة تسمّي نفسها «السلسلة» («إنَّني أجذب السلسلة من أجل العمّ جو»، كانت عبارة

بوي الشهيرة)، كما اتَّصل مع أحد أعضاء البرلمان المؤيِّدين لوجهة نظر هتلر، يدعى ريتشارد أحد ما، نسيت الاسم، ضابط حرس سابق مخبول، كان يمثِّل عنده دور (وهي الكلمة الصحيحة) سكرتير خاصّ غير رسميّ. مهمّته الرئيسة، كما أخبرنا، أن يكون قوَّاداً للنقيب الذي كانت لديه شهوانيَّة لا تشبع للشبّان من الطبقة العاملة. قام بوي مؤخَّراً ونقيبه المجنون برحلة قصيرة إلى راينلاند، برفقة مجموعة من أولاد المدارس من الطرف الشرقيّ، في زيارة إلى معسكر شبّان هتلر. كان كلُّ هذا نوعاً من الأفعال الخرقاء التي كانت تحدث في فترة ما قبل الحرب، وعاد الرجلان منتشيين («أوه، أولاء الوحوش الشُّقر!») على الرّغم من أنَّ النقيب كان قد ابتُلي بالتهاب شرجيٍّ مؤلم؛ في النهاية لم يكونا نظيفين جدّاً die Hitlerjugend[42].

«الجزء الأفضل من النكتة»، قلتُ، «هو أنَّ الرحلة كانت برعاية مجلس العلاقات الخارجيَّة في كنيسة إنكلترا!»

لم يضحك كويريل، حدّجني فحسب بإحدى تحديقاته المفاجئة، بعينين منتفختين، التحديقة التي كانت تجعلني دائماً أشعر كأنَّ زجاجة قد تدحرجت على وجهي، وهي الطريقة، التي كان يستخدمها، في حفلات المنزل الريفيّ، لتدوير زجاجات الشمبانيا الفارغة فوق أرضيَّة قاعة الرقص لأجل التلميع النهائيّ (آه، أيَّام شبابنا- شباب العالم!).

قال: «ربَّما كان ينبغي لك الذهاب معهما».

جعلني كلامه أتوقَّف. كان بإمكاني الشعور بأنِّي بدأت أحمرّ.

«هذا ليس من اهتماماتي، أيُّها الفتى الكبير»، قلت قاصداً أن تخرج الكلمات مرتخية ووقحة بالرغم من أنَّها بدت، لسمعيَ، متدلِّلة إلى درجة

---

(42) بالألمانيّة في الأصل، وتعني: شبان هتلر. (م)

تثبت التهمة. أخبرته بسرعة: «يقول بوي إنَّ الألمان قد أنهوا إعادة التسليح، وإنَّهم ينتظرون كلمة فحسب».

هزَّ كويريل كتفيه: «حسناً، لم نكن في حاجة إلى إرسال لوطيٍّ إلى هناك لمعرفة ذلك. أليس كذلك؟»

«شوهدا، هو والنقيب، يجولان حول المطار. أسراب من طائرات ماسرشميت، وكلُّ ذلك يشير إلينا».

كنَّا صامتين. بدا لي، في ضجَّة المرور القادمة من الشارع خارجاً، أنَّني أسمع صوت أزيز مراوح، وارتجفت بتوقُّع المتلهِّف: دعه يأتِ، دع كلَّ شيء يأتِ! نظر كويريل ببطء إلى أرجاء المكان.

على الطاولة، إلى جانبنا، رجل بدين يرتدي بزَّة ناعمة يتحدَّث، معنِّفاً بصوت خفيض، إلى امرأة شابَّة شاحبة بشعر محنًّى -بدت ابنته- يخبرها بصوت خفيض أنَّها ليست سوى مومس! سيعودان من جديد بعد سنتين، متنكِّرين في هيئة لاجئ يهوديٍّ وزوجته الشابَّة المنكوبة، على متن قطار الشرق السريع، أوَّل روايات كويريل، بالغة التقدير عن البلقان.

«أتساءل ما إذا كنَّا سنبقى أحياء»، قال كويريل، «كلُّ هذا، أقصد»، وحرَّك يداً مشيراً إلى الطاولات الأخرى، النادلة، والمرأة وراء ماكينة المدفوعات، والرجل البدين، والبنت البائسة، ووراءهم إنكلترا.

«ماذا لو لم ننجُ»، قلت بحذر، «قد يكون حالنا أفضل».

«أنت تريد انتصار هتلر».

«ليس هتلر، لا».

من الصعب الآن استعادة الانفعال الخاصِّ بلحظات كهذه، حينما يخاطر المرء بكلِّ شيء، لأجل ملاحظة عديمة الجدوى. كانت أشبه بالغبطة

الشديدة التي شعرت بها لـمَّا قمت بأوَّل قفزة مظلّيّة لي. كان هناك الإحساس نفسه بأنَّك خفيف مثل الهواء، بل وأكثر خفَّة، وأكثر أهميَّة، على نحو ما، من مجرَّد بشريٍّ يمكن أن تتوقَّع أن تكونه. ومن ثمَّ ربَّما تشعر بأنَّك إلٰه ثانويٌّ، ينزل طائراً من الغيوم ليجرِّب التنكُّر بإحدى حوريَّات أركاديا[43] الأكثر خبرة. جلسنا، كويريل وأنا، لا نتكلَّم، ننظر إلى بعضنا بعضاً فحسب. كان هذا شيئاً آخر عن لحظات المجازفة المجرَّدة تلك، الحياديَّة الفعَّالة المشحونة التي تستولي على تعابير وجه أحدنا وعلى رنَّة صوته. لـمَّا قابلت تي.إس. إليوت في إحدى مناسبات القصر بعد الحرب، تعرَّفت من فوري، في تحديقة عينَي الجمل المختلسة للنظر تلك، وفي الصوت الذي لا جرس له، علامات المرائي الاستحواذيّ على طول الحياة.

كان كويريل أوَّل من أشاح بنظره، ومرَّت اللحظة.

«حسناً»، قال، «لا يهمُّ من يفوز طالما سيُترك الأمر للأمريكيِّين كالمعتاد ليأتوا وينهوا الموضوع بعدنا».

بعد ذلك انصرفنا، وشربنا معاً في حانة ذا غريفن. حينما أنظر إلى الوراء، أُفاجأ بالوقت الطويل الذي قضيته في صحبة كويريل على مرِّ السنين. لم يكن ثمَّة دفء بيننا، وكان لدينا قليل من الاهتمامات المشتركة. كانت كاثوليكيَّته عصيَّة على فهمي، وكما ادَّعى، كانت ماركسيَّتي غير مفهومة بالنسبة إليه؛ فعلى الرغم من أنَّ كلينا كان مؤمناً إلَّا أنَّ أحداً منَّا لم يثق بـدين الآخر. ومع ذلك، كان ثمَّة رابط من نوع ما يجمعنا. رابط كان مثل أحد تلك الروابط في المدرسة، حينما يتقارب اثنان كريهان، لا يتَّفقان أصلاً، من بعضهما بعضاً بدافع الاحتياج المتبادل، ويشكِّلان نوعاً من الصداقة الرطبة البائسة. ذا غريفن، وذا

---

(43) منطقة في اليونان القديمة، منزل الإله بان إله المراعي والصيد في الميثولوجيا الإغريقيّة. أشير إلى أركاديا في الثقافة الشعبيّة بأنّها أرض بريّة غير ملوّثة. (م)

جورج كانتا نسختينا من الأشجار وراء الملاعب، حيث كان بإمكاننا الجلوس لساعات طويلة من الكآبة المشتركة في ضباب السجائر وأبخرة الكحول، منغمسين في مقايضات عرضيَّة مرسومة بالحقد، نزهو ونبتسم لزملائنا الثملين. كان الحضور مع كويريل، بالنسبة لي، نوعاً من العيش ببؤس. لم أؤيِّد -في تلك الأيَّام، في أيِّ حال- روايته المانويَّة[44] للعالم، ومع ذلك وجدت نفسي منجذباً إلى فكرتها، هذا المكان، المظلم، القذر، والجريء مع ذلك، المكان الذي يراوغ فيه، من خلاله، دائماً وحده، مع وجود سيجارة في فمه، وقبَّعته تميل إلى جانب واحد، ويده دائماً جاهزة في جيبه تهدهد ذلك السلاح الوهميَّ.

كانت أمسية صاخبة. بعد ذا غريفن، حينما نكون في حالة جيِّدة، ومنتشين، كنَّا نخرج سيَّارته من ماركة رايلي من مرآب إصلاح السيّارات وننقضّ بها على نحو مروّع في شارع إيدغوار. كان كويريل قد أخبرنا أنَّ المكان متخصِّص بتوفير عاهرات صغيرات السنّ. كانت هناك غرفة قبو صغيرة تفوح منها رائحة الكاربوليك، وفيها أريكة جرداء بمخمل أحمر، وكراس مغزولة من القصب، ومشمَّع بنّيٌّ على الأرضيَّة مشوَّه بأعقاب السجائر المدوسة، وقنديل طاولة مشتعل على نحو خافت، يرتدي ظلًّا ملتوياً اكتسب مظهراً غريباً للجلد البشريِّ الجاف. الفتيات اللائي يجلسنَ متبطِّلات في قمصانهنَّ التحتانيَّة توقَّفنَ عن كونهنَّ طفلات منذ زمن بعيد. الزوجان اللذان يديران المكان كانا خارجين من بطاقة بريديَّة فيها رسومات هزليَّة؛ هي، أشبه بحلوى مهلبيَّة بباروكة شعر من خصلات صفر؛ وهو، مثل كلب سباق نحيل صغير بشارب هتلر واختلاجة في إحدى عينيه.

---

(44) ديانة تنسب إلى ماني النبي ولد في بابل عام 216 م. تقوم هذي العقيدة على المثنويّة، على معتقد أنّ العالم مركّب من أصلين قديمين أحدهما النور والآخر الظلمة. (م)

ظلَّت السيِّدة جيل تمسح داخل الغرفة وخارجها مثل وصيفة مسنَّة مراقِبة، في حين أمطرنا أدولف بالبيرة بنِّيَّة اللون، يجول في الأرجاء وهو ينحني بصينية من القصدير يوازنها بكلِّ حرفيَّة بأصابع ثابتة ليده اليسرى، في حين توزِّع يده اليمنى الزجاجات والكؤوس المتَّسخة ببراعة. بدا لي كلّ شيء مبهجاً للغاية، بمسحة من إحساس بالذنب كما لدى ستانلي سبينسر (وليمة بلشاصر في كوهيم)[45]. وجدت نفسي جالساً مع فتاة ذات نمش وشعر أحمر، تجثم في حضني في وضعيّة رضيع لديه فرط نمو، ورأسها استراح على كتفي على نحو أخرق، وركبتاها مضمومتان بإحكام إلى صدري، في حين كانت كرسيُّ القصب تحتنا تصرصر بازدراء مع نفسها. أخبرتني بكلِّ فخر أنَّ أمّها وأباها كانا في يوم ما ملكاً وملكة يرتديان ثياباً ملكيَّة لؤلؤيَّة (هل لا يزالان يمتلكان هذه العادة) وعرضت أن تمصَّ قضيبي مقابل عشرة شلنات. غفوت أو توفِّيت لفترة وجيزة، ولـمّا استيقظت كانت الفتاة قد رحلت، كذلك فعلت رفيقاتها، وكويريل أيضاً، على الرّغم من أنَّه ظهر من جديد، وخصلات من شعره الدهنيِّ متدلِّية فوق جبهته؛ وجدت الأمر مقلقاً للغاية، ذلك الجزء من الاضطراب الذي يصيب أحدنا يبرز على نحو متعصِّب.

غادرنا، وتسلَّقنا درجات القبو إلى الشارع، ليس من دون صعوبة، وألفيناها تمطر بغزارة -كم يكون حال الطقس أمراً مفاجئاً دائماً حين يكون أحدنا ثملاً- قال كويريل إنَّه يعرف مكاناً آخر يوجد فيه بالتأكيد أطفال للبيع، ولـمّا قلت له أنْ لا رغبة لديّ في النوم مع طفل، استنفر ورفض قيادة السيَّارة، فأخذت المفاتيح منه، مع أنَّني لم أكن قد قدت سيَّارة من

---

(45) السير ستانلي سبنسر (1891-1959)، رسّام إنكليزيّ، استوحى موضوعات لوحاته من العقيدة المسيحيّة، وبلشاصر أحد ملوك بابل، ورد ذكره في التوراة في حكاية معروفة باسم وليمة بلشاصر. (م)

قبل، إلَّا أنَّ السيَّارة ارتعشت بنا عبر المطر في الطريق إلى سوهو. ملتُ إلى الأمام بعصبيَّة وأنفي يكاد يلامس الزجاج الأماميَّ الراشح بالبخار، وانهار كويريل إلى جانبي في غضب صامت، وذراعاه مطويتان بغضب. كنت ثملاً للغاية حينئذ ولم أتمكّن من التركيز بشكل صحيح، واضطررت إلى أن أبقي عيناً مغلقة كي أمنع الخطَّ الأبيض وسط الطريق من الانقسام إلى نصفين. وقبل أن أعرف وجهتي، كنَّا قد توقَّفنا خارج منزل ليو روذنستاين في بولاند ستريت، حيث كان يعيش نيك بطبيعة الحال، كما سيفعل معظمنا على نحو متقطِّع في السنين القادمة. كان ثمَّة ضوء في نافذة غرفة نيك. مال كويريل على جرس الباب، ونسي كلَّ ما كان غضب من أجله -في حين وقفت ووجهي مرتفع إلى المطر، خطب بشِعر بليك:

استيقظ! استيقظ أيُّها النائم، يا من تحبُّ أن ترتمي في الظلال، استيقظ! واملأ المكان.

فتح نيك إحدى النوافذ، وأخرج رأسه، واستحلفنا: «من أجل المسيح، اذهبا إلى المنزل، فيكتور، ثمَّة شابٌّ جيِّد». نزل في كلِّ الأحوال، وأدخلنا. كان يرتدي ثياب السهرة، ويبدو شاحباً للغاية وشيطانيّاً. لحقناه إلى أعلى السلالم الضيِّقة، نرتطم بحاجز الدرج ثمَّ بالجدار وبالعكس، وكويريل مستغرق في ترديد لازمة أغنية عن القدس:

أنا معك، وأنت معي، نتشارك الحبَّ الإلهيَّ:

نسيج الحبِّ من رجل إلى آخر، على أرض إنكلترا البهيجة[46].

في الشقَّة كانت يُقام حفلٌ ما بعد الحفل الصغير. بوي كان هناك، وآبركومبي الشاعر، والليدي ميري أحد ما، والأختان لايدون. كانوا قد

---

(46) الأبيات السابقة من قصيدة أورشليم للشاعر الإنكليزيّ الشهير ويليام بليك (1757-1827). وبليك يعدّ أوّل شاعر رومانطيقيّ في إنكلترا، وشعره لا يزال علامة فارقة في الشعر الأنكليزيّ. (م)

ذهبوا إلى حفلٍ في قصر روذنستاين في ميدان بورتمان (لمَ لم أكن مدعوّاً؟) وأنهوا زجاجة شامبانيا كبيرة. توقّفنا، كويريل وأنا، في الردهة وحملقنا فيهم.

قلت: «أرى أنَّكم جميعاً تبدون رائعين حقّاً».

بالفعل كانوا كذلك، مثل سرب من البطاريق الخاملة.

ضحك نيك ضحكته الشريرة.

«تبدو لكنتك إنكليزيَّة، فيك»، قال، «كأنَّك ابن البلد».

كان يعرف تمام المعرفة كم كنت أكره أن يناديني أحدهم باسم فيك. وجَّه كويريل مسدَّساً وهميّاً باتجاهه وقال بصوت ضعيف: «في الأقلِّ هو لم يأتِ إلى هنا عبر فلسطين».

قهقهت الأختان لايدون.

أحضر نيك زوجاً من أكواب البيرة من المطبخ، وصبَّ جرعة من الشمبانيا في كلٍّ منهما. لاحظت الآن، أوَّل مرَّة، وأنا جالس على كرسيٍّ بذراعين في إحدى الزوايا عقبَ قدمٍ متصالب على ركبة، شخص شابّ لم أعرفه لحظتها، مألوف على نحو مثير للقلق، ببزَّة سهرة حريريَّة، وشعر ممسوح بالبرليانتين وممشَّط بإحكام إلى الوراء، يدخِّن سيجارة، ويتسلَّى بمراقبتي بعينين مظلَّلتين.

«مرحباً، فيكتور»، قال الشخص، «تبدو منهكاً».

لقد كانت بيبي. ضحك الآخرون لدهشتي.

«دودو هنا راهنتها على غالون من الشمبانيا، ولم تستطع التهرُّب من الأمر»، قال نيك، والليدي ميري -دودو- شبكت يديها في حضنها، وحرَّكت كتفيها الضيِّقتين معاً، ورسمت تعبيرَ حزن فكاهيّاً: نيك أومأ بوجهه مستهزئاً بها، وقال: «لقد خسرتْ. كان أمراً غريباً، حتّى ليو لم يعرفها».

«وأنا توددت إليها»، قال بوي، «وهذا من شأنه أن يظهر لك شعوري».

المزيد من الضحك. ونيك قطع الغرفة مع زجاجة الشمبانيا.

«هيَّا، أيَّتها الفتاة العجوز»، قال، «علينا أن ننتهي من أمر أرباحك».

بيبي، التي لا تزال عيناها عليَّ، رفعت كأسها لتُملأ. كانت ستائر مخمليَّة زرق داكنة قد أرخيت على النافذة الطويلة وراء كرسيِّها، وعلى طاولة منخفضة كانت ثمَّة حفنة من الورد قرنفليَّة اللون تسلِّم الروح داخل وعاء نحاسيٍّ، البتلات المزدحمة ثقيلة ومرتخية مثل ثياب مبلَّلة. انكمشتِ الغرفة، وأصبحت علبة طويلة منخفضة مثل الجزء الداخليِّ لشيء ما مثل كاميرا، أو مصباح سحريٍّ. وقفتُ وترنَّحت وفقاعات الشمبانيا تنفجر في منخريَّ، وكما شاهدتهم، برؤيتي المشوَّشة، بدا الأخ والأخت كأنَّهما يندمجان وينفصلان، ثمَّ يندمجان من جديد. داكن فوق داكن، شاحب فوق شاحب لامع، بيرروت وبيرريت[47]. حملق نيك فيَّ، وابتسم، وقال:

«من الأفضل أن تجلس يا فيكتور، لديك مظهر متميِّز لِبين تروبين[48]».

لم أعد أرى شيئاً بعد ذلك، ثمَّ وجدت نفسي جالساً على الأرض، إلى جانب كرسيِّ بيبي، وقدماي متصالبتان تحت بزَّتي المصمَّمة خصيصاً لي، وذقني مسترخية عمليّاً على ذراع الكرسيِّ إلى جانب يدها التي أصبحت مهمَّة فجأة بأصابعها القصيرة الممتلئة والمستدقّة، والأظافر باللون الأحمر الدمويِّ؛ أريد أن آخذ كلَّ إصبع من هذه الأصابع بين شفتيَّ، وأمصَّه، وأمصَّه حتَّى تصبح الأظافر المطليَّة شفَّافة مثل حراشف السمك، وأخبرها بجدِّيَّة

---

(47) شخصيّتان كوميديّتان قدّمتهما أوّل مرّة فرقة إيطاليّة في فرنسا في القرن السابع عشر، ثمّ استثمرت لاحقاً في مختلف صنوف الفنون. (م)

(48) كوميديّ أميركيّ (1869-1940)، اشتهر بأعماله في الأفلام الصامتة. (م)

عن نظرية ديديرو[49] عن التماثيل. ثمَّة مرحلة من الثمالة حين يبدو كُلّ شيء في الحال يخطو بروعة، ومرح، وسهولة عبر بابٍ كان المرء يناضل طوال الليل عبثاً لفتحه. في الجانب الآخر، كلُّ ما في الأمر كان الضوء وتعريف النظريَّة، وهدوء اليقين.

قلت: «قال ديديرو. قال إنَّ ما نفعله هو أنَّنا نشيد تمثالاً وفق صورتنا الخاصَّة داخل أنفسنا -مثاليٌّ، كما تعرفون، لكن لا يزال يمكن تمييزه- ومن ثمَّ نضيِّع حيواتنا منهمكين في الجهود المبذولة لنجعل أنفسنا نشبهه. هذا هو الإلزام الأخلاقيُّ. وأعتقد أنَّه ذكيٌّ إلى أبعد الحدود، ألا تعتقدين ذلك؟ أعرف أنَّ هذا ما أشعر به. هناك أوقات لا أستطيع فيها إخبار أيُّها التمثال وأيُّها أنا». هذه الجملة الأخيرة صدمتني بحزن عميق، وظننت أنَّني قد أبكي. ورائي، كان بوي يتلو بصوت عالٍ «كرة إنفرنس» والأختان لايدون كانتا تصرخان بسعادة غامرة. غطَّيتُ يدَ بيبي بيدي. كم كانت باردة، باردة، وعلى نحو مثير لم تكن تستجيب. «ما رأيك؟»، قلت بصوت غارق في العاطفة، «أخبريني برأيك».

جلست في كرسيِّها جامدة مثل -نعم جامدة مثل تمثال، وإحدى ساقيها في البنطال الحريريِّ لا تزال تتصالب فوق الأخرى، وذراعاها امتدَّتا على طول مسندي الكرسيّ، خنثويَّة تبدو، مثل تمثال مصريٍّ قديم مع خبل خفيف، وشعرها متدلٍّ باتجاهي، وعيناها منحرفتان نحو الزاوية؛ تحوَّل رأسها باتِّجاهي، ونظرت إليَّ ولم تقل شيئاً، أو لم تنظر إليَّ مباشرة، بل بالأحرى نظرت حولي. كانت هذي طريقتها. لم تكن نظرتها تشرد أبعد من وجه أحدهم، فيبدو أحدهم مأخوذاً بها بكلِّيَّته، كما لو كانت، بتفحُّصها، تولِّد

---

(49) دنيس ديديرو (1713-1784)، فيلسوف وكاتب مقالات ومسرحيّات فرنسيّ، من قادة حركة التنوير. (م)

حوله نوعاً من هالة خفيَّة، حقل قوَّة داخله سيقف أحدنا معزولاً، مراقَباً، وحيداً. هل أعطيها قيمة مبالغاً فيها، هل أجعلها تبدو نوعاً من «أبي الهول»، نوعاً من وحش-أنثى، قاسٍ، متوحِّش، وبارد، وبعيد المنال على نحو مستحيل، ولا يمكن لمسه؟ كانت مجرَّد بشريّ، مثلي، تتلمَّس طريقها عبر العالم، لكنَّها حين نظرت إليَّ بمثل تلك النظرة، شعرت بخطاياي تسطع منِّي، تضيء ليراها الجميع. كان إحساساً مُسكِراً، ولا سيّما بالنسبة إلى شخص هو ثمل جدّاً بطبيعة الحال.

عند الرابعة صباحاً قاد بي كويريل إلى المنزل. وفي ساحة ليسيتر، قاد السيَّارة بهدوء إلى داخل مرمى إضاءة عمود الإنارة في الشارع، وجلسنا لوهلة نستمع إلى المشعاع وهو يتكتك، وشاهدنا إعلاناً مضيئاً عن لحمة «بوفريل» يومض ويطفئ. كانت الساحة مقفرة، وعواصف الريح دفعت الأوراق الميتة جيئة وذهاباً فوق الأرصفة التي كان قد جفَّ عنها ماء المطر مشكِّلاً بقعاً في شكل خريطة كبيرة. كان كلُّ شيء كئيباً للغاية: جميلاً وحزيناً، وأنا ظننت من جديد أنَّني قد أبكي.

«شعب دمويٌّ»، تمتم كويريل، وهو يهمُّ بتشغيل المحرِّك المتوقِّف، «الحرب الدمويَّة ستصلحهم».

عند الفجر، استيقظتُ فجأةً، تماماً، منتشياً باليقين. عرفت تماماً ما عليَّ فعله. لم أنهض من السرير بقدر ما سبحت في الهواء صاعداً منه، شعرت كأنَّني إحدى شخصيَّات بليك اللامعة، متحوِّل ومتَّقد. جلجل رنين الهاتف بين يديَّ. أجابت بيبي من الرنَّة الأولى. لم تبدُ كما لو كانت نائمة. وراء صوتها كان ثمَّة صمت انتظار عظيم.

«أصغي إليَّ»، قلت، «يجب أن أتزوَّجك». لم تجب. تخيَّلتها تطفو فوق

بحر الصمت ذاك. وسُعف من الحرير الأسود تموج حولها. «فيفيين؟ هل أنتِ هناك؟»

كم بدا اسمها غريباً.

«نعم»، قالت، «أنا هنا». بدت، كما كان حالها دائماً، تكبح ضحكة، لكنِّي لم أهتمّ.

«هلَّا تتزوَّجينني؟»

سكتتْ من جديد. هبط نورس بحر على حافّة نافذتي، ونظر إليَّ نظرة زاهية مشدوهة. السماء تلوَّنت بلون الطين الباهت. تملَّكني شعور بأنَّ كلَّ هذا كان قد حدث من قبل.

«حسناً»، قالت.

وأقفلت الخطّ.

*

التقينا في وقت لاحق ذلك اليوم لتناول الغداء في مطعم سافوي. كانت حادثة طريفة، متكلِّفة وهزليَّة على نحو ما، كأنَّنا كنَّا نمثِّل ونحن نعي نفسينا في إحدى المسرحيَّات الكوميديَّة الذكيَّة في أحد الصالونات في ذلك الوقت. كان المطعم ممتلئاً بالناس الذين كنَّا نعرفهم، الأمر الذي قوَّى إحساسنا بأنَّنا مكشوفان. ارتدت بيبي أسودَها المعتاد؛ بزَّة بكتفين مبطَّنتين وتنُّورة ضيِّقة، بدت لي في ضوء النهار مثل ثياب حداد أرملة. كانت، كما كان حالها دائماً، متيقِّظة ومنعزلة، على الرّغم من أنَّني اعتقدت أنَّه يمكنني الكشف عن إشارة إلى إثارة في الطريقة التي كانت تصل بها إلى علبة سجائري وتلهو بها، وهي تديرها إلى هذا الاتجاه وذاك فوق مفرش الطاولة. وأنا لم أجعل الأمر

أفضل بقولي، أوَّل الأمر، إنَّني كنت أشعر بالفزع. وأنا كنت كذلك؛ عيناي شعرتا كأنَّهما كانتا قُلِعتا، وألقيتا على جمر ساخن، ثمَّ أعيدتا إلى محجريهما. أريتها يديَّ المرتجفتين، وأخبرتها عن قلبي المتذبذب. وهي كشَّرت بازدراء.

«لماذا يتباهى الرجال بآثار شربهم دائماً؟»

«لا يوجد شيء آخر بالنسبة لنا لنتباهى به، كما أفترض، في هذه الأيَّام»، قلت بعبوس.

أشاح كلٌّ منَّا بنظره عن الآخر. طال الصمت، أرقَّ، وأرقَّ. كنَّا مثل سبَّاحَين متردِّدين وصلا إلى حافة المياه الرماديَّة غير المرغوب فيها. كانت بيبي أوَّل من غطس.

قالت: «حسناً، لم يسبق أن خطبني أحدهم عبر الهاتف من قبل».

كانت في ضحكتها لمحة توتُّر. كانت مؤخَّراً قد أنهت علاقة غراميَّة مشوَّشة مع شخص ما أميركيّ، «الأميركيّ الذي يخصَّني» هكذا كانت تشير إليه بابتسامة ساخرة، فيها شيء من تقبُّل الواقع. لا يبدو أنَّ أحداً عرف به. أصابني الأمر بنوع من الدهشة لقلَّة ما أعرف عنها.

«نعم»، قلت، «أنا آسف، لكن بدا الشيء المناسب لفعله في لحظتها».

«وهل لا يزال مناسباً؟»

«ماذا؟»

«الشيء المناسب لتفعله».

«حسناً، نعم، بالطبع، ألا تظنِّين ذلك؟»

صمتتْ. تلك النظرة التي تخصُّها بدت تتولَّد على نحو ما وراء عينيها.

«نيك محقّ»، قالت، «أنت حقّاً تتحوَّل إلى رجل إنكليزيّ».

ظهر النادل، وانحنينا بارتياح نحو قائمتَي الطعام. في أثناء الغداء

تحدَّثنا أحاديث عرضيَّة مفكَّكة عن منصبي الجديد في المعهد، وعن الوظيفة الغريبة التي أعطاها نيك لنفسه كمستشار لدى أسرة روذنستاين، وعن أحدث صيحات بوي بانيستر، وعن الحرب القادمة. كنت قد افترضت أنَّها لا تمتلك آراء سياسيَّة، لكنِّي شعرت بالضيق الغامض لاكتشافي أنَّها كانت على نحو عنيف جدّاً ضدَّ التهدئة -مولعة بالقتال في الحقيقة. ولـمّا كانت أطباقنا تُرفع عن الطاولة، فتحتْ علبة سجائري، وأخذت واحدة منها -من فظاظة حركاتها بدت منزعجة للغاية- وتوقفت في أثناء اشتعال عود الثقاب، وقالت:

«أنت تحبُّني فعلاً، صحيح؟»

نظر النادل إليها نظرة خاطفة، وابتعد. أمسكت معصمها، وسحبت يدها باتِّجاهي، ونفخت على عود الثقاب. كنَّا قد بدأنا نشرب زجاجة النبيذ الثانية.

«نعم، أنا أحبُّك».

لم أكن قد قلت ذلك من قبل لأيِّ امرأة باستثناء هيتي لـمَّا كنت ولداً صغيراً. وحالاً أومأت بيبي بخفَّة كأنَّني فسَّرت بعض الأشياء التافهة التي كانت تدور في رأسها لفترة طويلة.

قالت: «عليك أن تقابل ماما كما تعرف». حدَّقتها مشدوهاً، وهي سمحت لنفسها بابتسامة ساخرة، وتابعت، «لتطلب يدي».

نظرنا، كلانا، إلى حيث كانت أصابعي لا تزال تمسك بمعصمها بخفَّة، لو كان ثمة جمهور حقّاً، لكانت اللحظة أثارت موجة من الضحك.

قلت: «ألا ينبغي أن يكون والدك هو مَن سأتحدَّث إليه؟». كان القندس الكبير قد أوشك أن ينشر دراسة لي حول العمارة الألمانيَّة في عصر الباروك.

«أوه، هو لن يهتمَّ».

في سيَّارة الأجرة، تبادلنا القُبل. تحوَّلنا فجأةً نحو بعضنا بعضاً، وتصارعنا على نحو سخيف، مثل زوج من (المانيكان) في واجهة متجر دبَّت فيهما الحياة على نحو أخرق. تذكَّرت كيف حدث الشيء نفسه، ماذا، قبل ستِّ سنوات أو سبع؟ وفكَّرت في غرابة الحياة. أنفها كان بارداً، ورطباً على نحو ما. لمست صدرها. هبَّت ريح قويَّة باردة على طول شارع أكسفورد. مالت بيبي بجبهتها على رقبتي، ويدها الصغيرة ذات الأصابع البدينة ارتاحت في يدي.

«ماذا ينبغي أن أدعوك؟»، قالت، «فيكتور هو يكاد لا يكون اسماً، أليس كذلك؟ أقرب إلى لقب. مثل شخص ما في روما القديمة». رفعت رأسها ونظرت إليَّ. كانت أضواء المتاجر المغلقة تلمع في عينيها ونحن نمرُّ أمامها، مثل شرائح تلمع وتومض أمام عدسات (بروجكتور) فيه خلل. في الظلام، بدت ابتسامتها مشرقة وشجاعة كما لو كانت تحبس دمعاً. «أنا لا أحبُّك، كما تعلم»، قالت برقَّة.

أغلقت أصابعي على أصابعها.

«أعرف»، قلت، «لكنَّ هذا لا يهمُّ، أليس كذلك؟»

*

ذهبت إلى أكسفورد بالقطار في أحد تلك الأيَّام المتوهِّجة والمعتدلة على نحو خادع في أواخر شهر أكتوبر. كان كلُّ شيء متَّقداً على نحو مثير، بحيث لم يبدُ العالم على حافة فصل الشتاء بل على حافة بداية عظيمة مزركشة. كنت أرتدي بزَّة جديدة أنيقة على نحو ما، وفي الطريق أعجبت بدرزة ساق البنطال وبالبريق البنِّيِّ المحمرِّ للجزء الأماميّ من حذائي الملمَّع. كانت لديَّ

صورة واضحة ومحدَّدة عن نفسي: رجل ناعم، مرتَّب جدّاً، بشعر مشذَّب، معطَّر، رجل في مهمَّة. كنت هادئاً تماماً بشأن المواجهة الوشيكة مع السيِّدة القندس، حتَّى كنت أتطَّلع إلى هذه المواجهة، في مزاج من التشامخ البهيج. ما الذي يمكن أن أخشاه من شخص غافل مثلها؟ لكن مع تقدُّمنا، بدأت أتأثَّر بشيء ما في تصلُّب توقُّف القطار الذي كان على نحو واضح لا يستطيع التوقّف عند المحطَّة، وفي الدخان الذي كان يتدفَّق أمام النافذة متَّخذاً مظهراً شيطانيّاً. وفي الوقت الذي دخلنا فيه أكسفورد كان الرعب التامُّ قد نشب أظافره في قلبي.

كانت الخادمة التي فتحت لي الباب خادمة جديدة، فتاة بوركين عريضين ووجه مسطَّح، رمقتني بنظرة متشكِّكة، وأخذت قبَّعتي كما لو كانت شيئاً ميتاً أسلِّمها إيَّاه. كانت أسرة بريفورت تفخر بسمعتها في الاحتفاظ بخدم بغيضين؛ فقد غذَّى ذلك أفكار السيِّدة القندس البوهيميَّة عن نفسها. «سيِّدتي في حجرة المؤن»، قالت الفتاة، وأنا وجدت أنَّ صدى ترنيمة الأطفال في صوتها مقلق على نحو غريب. كانت ثمَّة رائحة دافئة حلوة على نحو غثٍّ. تبعتُ وركَي الفتاة المتوجِّهة عبر الصالون، حيث غادرتني، فخطت إلى الخلف، وأغلقت الباب عليَّ بابتسامة واضحة. وقفت في منتصف الغرفة أُستمع إلى دقَّات قلبي، وأنظر من خلال النوافذ الزجاجيَّة إلى الحديقة متقزِّحة الألوان، والمبهرجة على نحو ساخر. مرَّ الوقت. فكَّرت في المرَّة الأولى التي كنت فيها في هذه الغرفة، منذ ما يقارب عقداً من الزمن، حيث كان نيك يسترخي على الأريكة ضجراً، وبيبي في الطابق العلويّ تعزف مقطوعاتها على الجاز. شعرت فجأة بأنَّني قديم جدّاً، وشاهدت نفسي ليس كالرجل الخبير اللامع الذي بدوت عليه في بداية رحلتي، بل شعرت بأنَّني غريب المنظر، جافّ،

ومحفوظ على نحو فاحش، مثل أحد أولاء الأقزام في أرض المعرض، رجل بجسد صبيٍّ مجعَّد.

فُتح الباب دون سابق إنذار، ووقفت السيِّدة بريفورت هناك وقفةَ سارة برنار[50]، يدها على المقبض، ورأسها مائل إلى الخلف، وصدرها العاري يتقدَّمها شاحباً.

«الخوخ!»، قالت، «يا لها من خصوبة بغيضة».

كانت ترتدي شيئاً مثل شال مزيَّن بشُرَّابات، وثوباً مخمليّاً كبيراً لونه بلون الدّم، وكلا ذراعيها مشغولان تماماً حتَّى المرفقين بأساور ذهبيَّة رقيقة مثل كتلة نوابض، ما يوحي بأنَّنا في حلقة سيرك أكثر من كوننا في مخدع حريم. أدركت ما كانت تذكّرني به على الدوام بنظراتها: إحدى مكائد هنري جيمس الدنيويَّة، المدام، ميريل أو السيِّدة أسينغهام، لكن دون خفَّة دمها أو حتَّى فطنتها. تقدَّمت، تتحرَّك كحالها دائماً كما لو كانت مثبَّتة على عربة مخفيَّة، وقبضت عليَّ من الكتفين وقبَّلتني على نحو مفاجئ على كلا وجنتيَّ، ومن ثمَّ دفعتني عنها، وأمسكت بذراعي على طوله، وحملقت في وجهي للحظة طويلة مع تعبير من الثقل المأساويِّ وهي تومئ ببطء برأسها العظيم.

«هل تحدَّثت إليك بيبي؟»، قلت بتردُّد.

هزَّت رأسها بعمق أكبر حتَّى كاد ذقنها يسقط على صدرها.

قالت: «اتَّصلت فيفيين، وأجريت مع والدها حديثاً طويلاً، لذلك نحن...»، كان من المستحيل معرفة ما سَيلي ذلك. استمرَّت في تأمُّلي، وعلى ما يبدو فقدت الفكرة، ثمَّ نهضت فجأةً، ودبَّ فيها النشاط، وقالت: «تعالَ. أنا في حاجة إلى مساعدة رجل».

---

(50) ممثّلة مسرحيّة فرنسيّة (1844-1923)، جالت شهرتها في أنحاء أوروبّا، حتّى أميركا، مثّلت في السينما الصامتة، تميّزت بشخصيّتها، ولقّبت بسارة المقدّسة. (م)

كانت حجرة المؤن أنموذجاً منمَّقاً لكهف الساحرة. من خلال نافذة صغيرة تُفضي إلى حديقة خضراوات هناك دخل وهج أخضر فاسد كثيف، بدا شيئاً قد يزيد أو ينقص قليلاً عن ضوء النهار. برميل ضخم من مربَّى الخوخ كان يغلي على نحو عكر فوق موقد غاز أرضيٍّ أسود يرتفع على أرجلٍ داعمة رقيقة، مثل رافع أثقال ينحني ليقوم برفع الثقل، في حين كانت هناك، على لوح التجفيف، إلى جانب الحوض المكسور، سلسلة من جرَّات المربَّى بأحجام مختلفة الممتدَّة المنتظرة. انحنت السيِّدة ب فوق المرجل الذي كان يغلي، وعيناها تضيقان، وجناحا أنفها العظيم المعقوف اتَّقدا، ورفعت مغرفة من المربَّى وفحصته بارتياب.

«يتوقَّع ماكس أن يقوم المرء بمثل هذا النوع من الأشياء»، قالت وهي تطفئ موقد الغاز، «لا أستطيع التفكير في السبب». نظرت إليَّ من على جنب مع ابتسامة هرَّة عجوز، «إنَّه مستبدٌّ عظيم، كما تعرف. هل تريد مئزراً؟ واخلع سترتك».

كنت أمسك بالجرار في حين كانت هي توزِّع المربَّى فيها، «عليك أن تفعل ذلك حين يكون المربَّى حارّاً، كما ترى، أو سنفشل في الإغلاق». تشقَّقت الجرَّة الأولى بسبب حرارة الفاكهة المغليَّة، وفي الجرَّة الثانية فاض المربَّى وأحرق أصابعي، فأطلقت لعنة تظاهرت السيِّدة ب أنَّها لم تسمعها.

«حسناً»، قالت، «ربَّما ينبغي لنا أن نسمح له بأن يبرد قليلاً، دعنا نذهب إلى الحديقة. إنَّه يومٌ مثاليٌّ. هل أقدِّم لك شراباً، أو أنَّ الوقت لا يزال مبكِّراً جدّاً؟ ستجلب لنا مود شيئاً. مود! أوه، يا إلهي، أين ذهبت الفتاة؟ أوه، ها أنتِ ذي، تختفين دائماً. ماذا ستشرب سيِّد ماسكل؟ يخبرني الناس أنَّ نبيذ بتلات الهندباء البرِّيّة خاصَّتي جيِّد حقاً. أو أنّك تشرب جن؟ حسناً، نعم، أنا

متأكِّدة من أنَّه موجود لدينا، في مكان ما. مود، أحضري للسيِّد ماسكل بعض الجن و... تونيك... وباقي الأمور». نظرت مود إليَّ، وسمحت لابتسامة ساخرة جديدة أن تُرتسم على وجهها الكبير لوهلة، ثمَّ تحرَّكت بكسل. تنهَّدت السيّدة بريفورت: «أشكُّ في أنَّها وقحة، لكنِّي لا أستطيع أبداً إمساكها بهذا الفعل. هم كسولون جدّاً، كما تعرف، وأذكياء جدّاً في عملهم».

كانت الحديقة في لهاثها الرائع الأخير، كلُّها ألوان ذهبيَّة، وخضر، وبنّيّة مصفرَّة، وزهريَّة شاحبة. وكانت تسطع شمس خريفيَّة قويَّة. مشينا فوق العشب النضر، نشتمُّ رائحة الأوكاليبتوس، والرائحة النتنة الضعيفة لأزهار رعي الحمام، وجلسنا على مقعد خشبيٍّ بلي بسبب عوامل الطقس، يميل على زاوية منحرفة مقابل جدار حجريٍّ خشن تحت قوس تشكَّل من تشابك الورد. تعريشة حقيقيَّة من التعاسة.

«هل ألم يدك فظيع؟»، قالت السيِّدة ب، «ربَّما كان ينبغي لنا دهنها بشيء ما».

«ورقات حُمَّاض».

«ماذا؟»

«كانت علاجاً تستخدمه أمِّي. زوجة أبي».

«فهمت»، سبرت أرجاء الحديقة بإيحاء من العجز الغامض، «لا أعرف إن كان هناك أيُّ ورقات حُمَّاض».

اقتربت مود بعد ذلك، بالجن الذي يخصّني، مع كأس خضراء فيها سائل لونه بلون البول لأجل السيِّدة القندس. حسبتُ أنَّه نبيذ الهندباء البرِّية المعروف. شربت نصف الشراب في كأسي بجرعة واحدة، ومن جديد تظاهرت السيِّدة ب بأنَّها لم ترَني.

«كنتَ تخبرني عن زوجة أبيك»، قالت، وأخذت رشفة من النبيذ، وهي تنظر إليَّ بلهفة من فوق حافة الكأس.

«حقّاً؟ كان اسمها هيرميون»، قلت متلعثماً.

«جميل... جدّاً. وهل هي إيرلنديَّة أيضاً؟»

«نعم، كان أهلها من الكويكرز».

«كويكرز؟»، لفظتها بزعيق عالي النبرة، وفتحت عينيها عريضاً للغاية، وصفعت يدها بأصابع متباعدة على صدرها المنحدر صفعةً صغيرةً مسموعةً. كان لديَّ انطباع بأنَّها لم تكن متأكِّدة تماماً من ماهيَّة الكويكرز. «حسناً، بالطبع، لا يمكن محاسبة أحد على أهله»، قالت، «ينبغي أن أعرف ذلك!»، وأرجعت رأسها وأصدرت سلسلة طويلة من الضحكات الصاخبة المرتعشة، غليظة وحمقاء، مثل ضحكة البطلة في مسرحيَّة أوبرا مأساويَّة. فكّرت في ذكر صلة قرابتي من ناحية أمِّي بالملكة؛ لستُ نفَّاجاً، بالطبع، لكنَّه أمر يثير الإعجاب.

كنت قد انتهيت من شرب الجن، وبقيت أدوّر الكأس الفارغة بتباهٍ بين أصابعي، لكنَّها رفضت فهم التلميح.

«ولديك أخ، صحيح؟»

فجأةً أصبحت مهتمّة جدّاً بزغب المخمل في فستانها الذي امتدَّ فوق ركبتيها الكبيرتين المستديرتين.

«نعم». بدا صوتي رقيقاً على غير العادة، ومتوتِّراً، مثل قاتل خنوع يجيب عن أوَّل سؤال مخيف للادِّعاء.

«نعم»، قالت بهدوء، «لأنَّك لم تقل ذلك».

«لم يُطرح الموضوع».

«بالأحرى، كنّا نظنُّك طفلاً وحيداً».

«أنا آسف». لم أكن متأكِّداً ممّا أعتذر عنه. ثارت في داخلي موجة من الغضب. نيك: لقد أخبرهم نيك. وضعت السيِّدة بريفورت كأس نبيذها على المقعد إلى جانبها، ونهضت، وخطت بضع خطوات باتِّجاه المرجة الخضراء، وتوقَّفت، واستدارت محدِّقة بتأمُّل العشبَ عند قدميها.

«بالطبع»، قالت، «ينبغي أن نطلب شهادة».

«شهادة...؟»

«نعم. من طبيب كما تعرف؛ سوف يعثر ماكس على شخص موثوق. غالباً ما تجري هذه الأشياء في الأسرة، ونحن لا يمكن أن نفكِّر في تعريض فيفيين لأيِّ شيء من هذا القبيل. أنت تتفهّم الأمر فعلاً. أليس كذلك؟» حينها، كانت تقف، وتميل إلى الأمام بزاوية طفيفة، يداها مشبوكتان على صدرها، تحملق فيَّ بابتسامة صغيرة جدِّية لطيفة كئيبة «ليس لدينا شكٌّ في أنَّك أنت، سيِّد ماسكل-»

«ناديني فيكتور، من فضلك»، غمغمتُ، وخرير ضحكة جنونيَّة بائسة يشقُّ طريقه الحارَّ الآن إلى أعلى صدري ويهدِّد بخنقي.

«ليس لدينا شكٌّ»، أكملت حديثها بتصميم، منيعة مثل سفينة حربيَّة، «في أنَّك، بالطبع، لست شخصيّاً... مصاباً، إذا جاز التعبير. إلّا أنَّه أمر يسري بالدّم كما تعرف». رفعت يديها المشبوكتين، ووضعتهما تحت ذقنها في إيماءة مسرحيَّة جذّابة، واستدارت، وخطت بضع خطوات نحو اليسار ثمَّ إلى الوراء من جديد. «نحن، سيِّد ماسكل، على الرغم من تكلُّفنا الشديد، أناس بسيطون، أعني، بالطبع أبناءَ شعبي. العرق اليهوديُّ عانى كثيراً، ولا شكَّ سنعاني في المستقبل» -كانت محقَّة: أخوها وزوجته وأطفالهما الثلاثة هلكوا

في تريبلينكا- «لكن عبر تاريخنا الممتدِّ لآلاف السنين ثبتنا على مبادئنا. الأسرة. أولادنا. والدّم، سيِّد ماسكل: الدّم». أنزلت يديها من تحت ذقنها، واستدارت، وخطت مرَّة أخرى، هذه المرَّة إلى اليمين، ومن جديد استدارت إلى وسط المسرح. شعرت كأنَّني أحد روَّاد المسرح كان قد علق في منتصف فصل ثانٍ طويل، ويسمع في الخارج صوت سيَّارة إطفاء تدوِّي بالصوت وهي تتَّجه نحو منزله.

«سيِّدة بريفورت»- بدأتُ الكلام، لكنَّها رفعت يدها، عريضة مثل يد رجل شرطة مرور.

«أرجوك»، قالت مع ابتسامة كبيرة باردة، «كلمتان أخريان ثمَّ أسكت. أعد بذلك». كان بإمكاني رؤية الخادمة وهي تتحرَّك في الأرجاء خلف نافذة غرفة الصالون، وتلهو، الصراخ لها كي تحضر إليَّ شراباً آخر -لتحضر الزجاجة اللعينة. هل ثمَّة شيء أكثر كآبة في النفس من كأس جن فارغة ملتصقة بيدك؟ فكَّرت في مصِّ شريحة الليمون لكنِّي أدركت أن حتَّى هذا لن يكون علامة كافية لليأس بالنسبة للسيِّدة ب التي كانت في أوج سرعتها. «لـمَّا اتصلت فيفيين لتخبرنا بالخطبة التي جاءت، كما تفهم، كـ... مفاجأة عظيمة» -صدمة كانت الكلمة التي كبحتها- «بالنسبة إلى والدها ولي، أغلقت على نفسي في غرفة الموسيقا طوال فترة ما بعد الظهر. كان لديَّ الكثير لأفكِّر فيه. الموسيقا تساعد دائماً. شغَّلت برامز. تلك الأنغام الكئيبة العظيمة، وملأني الحزن بعدها، لكنَّ ذلك... دعمني كثيراً». حنت رأسها، وأغلقت جفنيها بهدوء، ووقفت للحظة كما لو كانت في صلاة صامتة، ثمَّ نظرت إليَّ من جديد، بمرارة مفاجئة «إنَّها ابنتنا الوحيدة، سيِّد ماسكل، فتاتنا الثمينة الوحيدة».

وقفتُ. رائحة الورد المِسكيَّة، إلى جانب كلّ شيء آخر، كانت تسبِّب لي الصداع.

«سيِّدة بريفورت»، قلت، «فيفيين في التاسعة والعشرين من عمرها. هي ليست طفلة. ويحبُّ أحدنا الآخر» -عندئذ رفعت حاجبيها الكثيفين اللامعين، وحرَّكت رأسها حركة صغيرة تدلُّ على عدم الاهتمام. عادت السيِّدة تاتشيت[51] إلى الحياة- «ونحن نعتقد أنَّه ينبغي لنا الزواج في هذا الوقت»، تلعثمتُ، على نحو ما لم يكن هذا ما نويت قوله، «أخي يعاني من متلازمة اسم ما لن يعني شيئاً لكِ، بالإضافة إلى ذلك، نسيت الاسم حاليّاً»، كان الأمر يجري من سيِّئ إلى أسوأ، «حالته ليست وراثيَّة. إنَّها نتيجة استنفاد الأوكسجين في الدماغ في أثناء وجوده في الرّحم»، عند تلك الكلمة رمقتني بنظرة خاصَّة، وأنا تابعت، «كنَّا نأمل في مباركتكما، أنتِ والسيِّد بريفورت، لكن إذا أمسكتما عن ذلك فسنستمرُّ في الأمر مهما يكن. أشعر أنَّ عليكِ فهم ذلك». بدأت الأمور تتحسَّن فجأةً مع سخونة الخطاب. أصابني شعور كما لو أنَّ ربطة عنق منشَّاة خفيَّة نبتت حول عنقي، وأنَّني لن أصاب بالدهشة فيما لو نظرت إلى الأسفل، ورأيت نفسي مرتدياً رداءً طويلاً وحذاءً عالي الساق كما لو أنَّني فارس: اللورد واربرتون نفسه لا يمكن أن يكون في مظهر أكثر غطرسة. كنت شعرت بأنِّي أسيطر على الأمر لولا تلك الكلمة بيننا رحِم التي لا تزال تتمرَّغ بيننا مثل كرة شبه منتفخة لا أحد منَّا يجرؤ على التقاطها أو ركلها. كنَّا صامتين. وكنت أسمع أنفاسي، هدير شخيري الناعم يهدر من أسفل منخريَّ. قامت السيِّدة ب بحركة صغيرة غريبة بجزئها العلويّ من جسمها، نصفها ازدراء ونصفها شموخ، وقالت:

---

(51) شخصيّة نسائيّة من شخصيّات رواية صورة سيدة للكاتب الإنكليزيّ هنري جيمس (1843-1916). (م)

«بالطبع ستحصل على مباركتنا. وستحصل فيفيين على مباركتنا. هذا ليس الأمر على الإطلاق».

«ما هو إذاً؟»

كانت قد أوشكت أن تقول شيئاً، لكنَّها بدلاً من ذلك التزمت الصمت، فمُها يعمل، وعيناها تلمعان دون تركيز. كنت أخشى أنَّ نوبةً أصابتها -لمعت كلمة سكتة دماغيَّة في ذهني، وفكَّرت، لا أعرف لماذا، في عرض برنامج بانش وجودي الذي كان يُقدَّم على ساحل كاريكدرام في الصيف حين كنت طفلاً، وملأني بعدم الارتياح حتَّى حين كنت أضحك ضحكاً مجلجلاً- لكنَّها بعد ذلك، لتثير عجبي وخوفي، بدأت تبكي. لم أكن قد شاهدتها قطُّ تفقد السيطرة على هذا النحو من قبل، ولن أراها في هذي الحالة بعد ذلك. أشكُّ في أنَّها فوجئت بقدر مفاجأتي. كانت غاضبة من نفسها أيضاً، ما أضاف دموع الغضب إلى باقي أنواع الدموع، أيّاً كانت. «سخيف، سخيف»، تمتمت، وهي تفرك عينيها، وأساورها تصلصل، وتهزُّ رأسها بكلا الجانبين كأنَّها تخلع شيئاً من أذنيها، وأنا التقطت صورة خاطفة لما بدا أنَّه امرأة هرمة جدّاً. شعرت بالأسف نحوها، لكن كان ثمَّة شعور آخر أيضاً، شعور خجلت منه، ولم أكُ أستطيع إنكاره: جذل؛ كان شريراً، خفيّاً، بنطاق ضيِّق، لكنَّه كان جذلاً لكلِّ ما حصل. هذه اللحظات، النادرة، النادرة والواضحة كهذي اللحظة، حين تنتقل الطاقة من خصم إلى الخصم الآخر، بصمت، وفوريَّة، مثل شحنة كهربائيَّة تقفز بين قطبين. بدأت أعرض عليها كلمات التشجيع غير المجدية، والمزيَّفة ربَّما، لكنَّها تجاهلتها بحركة غاضبة من يدها كأنَّها تدفع عنها دبُوراً. كانت تستعيد سيطرتها على نفسها بسرعة؛ توقَّف مجرى دمعها، نخرت نخرةً عظيمة، ورفعت رأسها، ووجَّهت ذقنها إليَّ.

«لا أرغب في أن نكون عدوَّين، سيِّد ماسكل».

«لا»، قلت، «هذا لن يكون أمراً حكيماً».

وصل ماكس بريفورت بعد ذلك بقليل، حين كنت واقفاً في الصالون من جديد والسيِّدة ب كانت قد غادرت الغرفة إلى مكان ما لتصلح وجهها. ظننت أنَّ أنفه الدقيق يرتعش وهو يتنشّق بعناية في جوِّ المكان. كان لديه حسٌّ عجيب بخطورة الموقف. كان فيه شيء من «القندس» حقّاً؛ نعومة يديه، وفركه لهما، وهذا الأنف المحقِّق.

«علمت أنَّني سأكسب ابناً»، قال، وابتسم لي إحدى ابتساماته الرهيبة غير المؤذية، «مبارك».

بدا أن لا شيء أكثر يُقال بعد ذلك، ونحن الاثنان وقفنا مرتبكَين ننظر إلى أقدامنا. ثمَّ بدأنا، كلانا، نتحدَّث في الوقت عينه، ونحونا مجدَّداً نحو صمت شاقّ. رجعت السيِّدة ب، بطبعها الاستبداديّ المعتاد من جديد، لكنِّي التقطت ماكس وهو يرمقها بنظرة فاحصة حادَّة، وحسب ما تبيَّن له من دليل، قرَّر أن يتابع بحذر.

«ربَّما يجب أن نشرب نخباً»، قال، وأضاف بحذر شديد، «في هذه المناسبة».

«نعم، بالتأكيد»، قالت زوجته، وهي تغلِّفه بابتسامة هشَّة رائعة، «بعض الشمبانيا. كنَّا نجري محادثة»، استدارت نحوي، «أليس كذلك، سيِّد ماسكل؟»

قلت: «فيكتور».

*

كان الزفاف أمراً صامتاً، كما كان يُقال في تلك الأيَّام. جرت المراسم

في مكتب تسجيل ماريلبون. كانت أسرة القندس هناك؛ نيك، ووالده، وعمَّة قديمة له لم أكن قد رأيتها من قبل -كان لديها مال- وبوي بانيستر بالطبع، وليو روذنستاين، واثنتان من صديقات بيبي، امرأتان شابَّتان بقبَّعتين غريبتين. والدي وهيتي كانا قد جاءا في الليلة السابقة على متن عبَّارة، وبدوَا خائفَين وخجولَين. وأنا كنت مرتبكاً لأجلهما ومنهما. كان نيك الإشبين. بعد ذلك ذهبنا إلى كلاريدجيز لأجل الغداء. ثمل بوي، وألقى خطبة مخزية، كانت السيِّدة القندس تجلس وهي ترسم على وجهها ابتسامة مروّعة وثابتة، تلوي مراراً وتكراراً المنديلَ في يدها كما لو كانت تلوي عنق حيوان أبيض صغير لا عظام في عنقه. قضينا شهر العسل في تاورمينا. كان الجوُّ حارّاً، واكتسى جبل إتنا[52] بنفثة بركانيَّة من الدخان ساكنة متوهِّدة. قرأنا كثيراً، واستكشفنا الآثار، وفي الأمسيات، على العشاء، كانت بيبي تخبرني عن عشَّاقها السابقين الذين كان عددهم مثيراً للإعجاب. لا أعرف لمَ شعرتُ بالرغبة في إعادة سرد هذه المغامرات التي بدت كلُّها حزينة، بالنسبة لي؛ ربَّما كانت شكلاً من تعويذة. لم أهتمَّ. حتَّى إنَّه كان أمراً ممتعاً، بطريقة غريبة، أن أجلس لأحتسيَ نبيذي في حين يشقُّ طابور المصرفيِّين ولاعبي البولو والأميركيِّين التعسين طريقَه نحو قاعة الطعام المزدحمة على نحو فخم في الفندق، ويختفي داخل ليل نجوم المال المشبع بالضباب.

تبيَّن أنَّ الجنس أسهل ممَّا كنت أتوقَّعه، أو أخشاه. كنت مسروراً لملاقاة نسخة من بيبي -دافئة، مذعنة، واهنة- بل حتىَّ مختلفة عن تلك المرأة حادَّة الطباع على نحو مقلق، التي كنت قد تزوَّجتها، في حين هي كانت مستمتعة، ومخبولة، باكتشاف أنَّها تزوَّجت من بتولٍ عمره واحد وثلاثون

---

(52) جبل بركانيّ في صقلية، إيطاليا، وتاورمينا مدينة إيطاليّة على المتوسّط. (م)

عاماً. لقد واجهت بعض الصعوبة للمضيّ في الأمر، وهي ضحكت، ودفعت شعرها إلى الوراء، وقالت: «حبيبي المسكين، دعني أساعدك، أنا خبيرة في مثل هذه الأمور». في آخر ليلة هناك، تعاهدنا، تعاهد الثملين، أنَّنا لن ننجب أطفالاً، وقرب عيد الميلاد كانت حُبلى.

الثاني

عزيزتي الآنسة فانديلور، لقد تجاهلتك، أعرف. وأكثر من ذلك، لقد كنت أتجنَّبك: كنت هنا هذا الصباح حين رننتِ جرس الباب، لكنِّي لم أفتحه. أعرف أنَّك كنتِ أنتِ مَن رنَّ الجرس لأنِّي رأيتك من النافذة وأنت تعبرين الساحة، تحت المطر (ما هي مشكلة الفتيات الشابَّات مع استخدام المظلَّات؟) شعرت بأنَّني عانس مسنَّة (لكن متى لم أشعر بأنَّني عانس مسنَّة؟) تتلصَّص من وراء ستائر الدانتيل في عالم تتزايد فيه مخاوفها. لم أكن على ما يرام. مجروح الفؤاد هي الكلمة. كآبة عظيمة جدّاً هنا، تحت المصباح، وأنا وحدي، وخربشة قلمي، والضوضاء المذهلة للطيور على الأشجار في الخارج، حيث الربيع وصل إلى ذروته المحمومة وانقلب إلى صيف صاخب قادم من قصائد كيتس[53]. مثل هذا الطقس القاسي يصدمني بلا رحمة. لطالما كنت ضحيَّة المظاهر المحزنة الخادعة، وقد استعجلت تطوُّر الأحداث، كما أظنُّ؛ كان ينبغي أن أتيح لنفسي الوقت للتعافي بعد الفضيحة العلنيّة وما نتج عنها من إذلال. كان الأمر يشبه الحالةَ بعد إجراء عمليّة، أو ما يجب أن يكون بعد أن تُطلق عليك النار؛ تستعيد وعيك، وتفكِّر، حسناً، هذا ليس سيِّئاً جداً، أنا لا أزال هنا، وثمَّة ألم طفيف -لمَ كلُّ أولاء الناس حولي يتصرَّفون على نحو مبالغ فيه؟ ثمَّ تشعر بشيء من النشوة، ذلك لأنَّ النظام لم يمتصَّ الصدمة، أو لأنَّ الصدمة تعمل كمخدِّر. إنّما، هذا الفاصل الصغير

(53) جون كيتس (1795-1821) من أهمّ شعراء الحركة الشعريّة الرومانسيّة الإنكليزيّة. (م)

من البهجة ينتهي، والحاضرون المتحمِّسون يهرعون إلى مسرح طوارئ جديد، ثمَّ يحلُّ الليل والظلام ودهشة الألم الناشئ.

الصدقَ أقول، لقد فوجئت لـمَّا جرّدوني من لقب فارس، وألغت جامعة كمبردج شهادة الدكتوراه الفخريَّة خاصَّتي، وأشار المعهد، على نحو دقيق، إلى أنَّ وجودي المستمرَّ هناك، حتَّى لأغراض البحث، لم يعد موضع ترحيب (لم أسمع شيئاً من القصر، فالسيِّدة و. تكره الفضائح). ماذا فعلت حتَّى أُشتم على هذا النحو في أمَّة من الخونة الذين يخونون أصدقاءهم، وزوجاتهم، وأطفالهم، ومفتِّشي الضرائب يوميّاً؟ أنا مخادع، أعرف. أظنُّ أنَّ ما وجدوه صادماً جدّاً هو أنَّ أحداً ما -واحد منهم بالطبع- ينبغي أن يلتزم حقّاً بأن يكون مثاليّاً. وأنا التزمت به، حتَّى في وجه شكِّي الغريزيّ المتآكل تماماً. لم أخدع نفسي في ما يتعلَّق بطبيعة الخيار الذي اتَّخذته. لم أكن مثل بوي، بقناعته الصبيانيَّة حول كمالِ الرجل، ولم أكن مثل كويريل، أيضاً، يتجوَّل في العالم، ثمَّ ينزل في محطَّة ما كي يبحث في الأمور الحسَّاسة لعقيدة ما وهو يحتسي أفضل أنواع نبيذ بورت في منطقة بيشوب بونغلاند. أوه، لا شكَّ لديّ في أنَّ الماركسيَّة كانت، ليس على نحو عظيم من التغيير، إحياء لمعتقدات آبائي؛ وأيُّ فرويديّ عاديّ يمكنه كشف ذلك. إنّما، ما هي الراحة التي يمكن أن يقدِّمها المعتقَد حين يحتوي في داخله نقيضاً له، قطرة السمِّ اللامعة في القلب؟ هل رهان باسكال[54] كاف لتحمُّل حياة، حياة حقيقيَّة، في العالم الحقيقيِّ؟ حقيقة أنَّك تضع رهانك على الأحمر لا يعني أنَّ الأسود ليس موجوداً هناك.

---

(54) حجّة مبنيّة على نظريّة الاحتمالات النسبيّة، وتستخدم للاحتجاج بضرورة الإيمان بوجود الله على الرغم من عدم إمكان إثبات وجوده أو عدم وجوده عقليّاً. صاغ هذي الحجّة بليز باسكال (1623-1662)، وهو عالم فيزيائي فرنسيّ. (م)

كثيراً ما أفكّر في مدى اختلاف الأمور بالنسبة إليَّ لو لم أكن قابلت فيليكس هارتمان. بالتأكيد أشعر أنَّني كنت واقعاً في غرامه بعض الشيء. لن تسمعي أبداً بهذا الشخص. لقد كان واحداً من أكثر الأشخاص إثارة للإعجاب في موسكو، سواء كمنظّر أم كناشط فعَّال (يا إلهي، كيف يسقط أحدنا بسهولة في رطانة لغة صحف يوم الأحد!) كان نشاطه في تجارة الفرو في منطقة مجاورة لـشارع بريك لين، أو في مكان غير صحيّ مثل هذا، ما أتاح له فرصاً متكرِّرة للسفر، داخل البلاد وخارجها. (أثق يا آنسة ف. بأنَّك تدوِّنين الملاحظات). كان هنغاريّاً من أصول ألمانيَّة وسلافيَّة: الأب كان جنديّاً، والأمّ صربيَّة أو سلوفينيَّة، شيئاً من هذا القبيل. أُشيع، بالرغم من أنَّني لا أعرف أين نشأت الحكاية (وربَّما تكون صحيحة حتَّى)، أنَّه كان قد رُسِّم كاهناً كاثوليكيّاً، وخدم في الحرب العالميَّة الأولى قسّيساً في الجيش النمساويّ-الهنغاريِّ؛ لـمَّا سألته مرَّة عن هذه الفترة من حياته، لم يقل شيئاً، وأعطاني فحسب واحدة من ابتساماته الغامضة على نحو مقصود. كان قد عانى من جرح ناتج عن شظايا -«في إحدى المناوشات في منطقة جبال الكاربات»- جعله يعاني عرجاً جذّاباً يشابه عرج بايرون[55]. كان طويلًا، بظهر مستقيم، وشعر أسود مزرقٍّ لامع، وعينين صغيرتين، وابتسامة ساحرة، وإن كانت مُتعبة إلى حدٍّ ما وساخرة. كان يمكن أن يكون واحداً من هؤلاء الأمراء البروسيِّين من القرن الماضي، بضفيرة شعره الذهبيّة والندوب الناتجة عن المبارزات، الأمراء الأثيرون لدى مؤلِّفي الأوبريت. ادَّعى أنَّ الجيش الروسيَّ كان قد أسره في إحدى المعارك، ولـمَّا اندلعت الثورة انضمَّ إلى الجيش الأحمر وخاض الحرب الأهليَّة. كلُّ هذا أسبغ عليه شيئاً من هالة منافية للعقل، من شجاعة وثقة بالنفس، لرجل

(55) جورج غوردون بايرون (1788-1824)، شاعر إنكليزيّ، من رواد الشعر الرومانسيّ، عانى من انحراف في قدمه اليمنى. (م)

خاض غمار الصعاب دون تراجع. برؤيته لنفسه لم يكن، كما أظنُّ، «الأمير الطالب»[56]، بل أحد الكهنة المقاتلين المعذَّبين لحركة الإصلاح الدينيّ، يحرّك سيفه الملطّخ بالدماء عبر بقايا الدخان المتصاعد من البلدات المنهوبة.

كان ألاستير سكايز هو مَن عرَّفني به. صيف 1936. كنت قد سافرت إلى كمبردج في منتصف أغسطس -فقد كان لا يزال ثمَّة غرفة في ترينيتي- لأجل العمل على مقالة طويلة عن لوحات بوسان. كان الطقس حارّاً، ولندن لا تطاق، ولديّ موعد نهائيّ لـدار بريفورت آند كلاين. كانت الحرب قد اندلعت في إسبانيا، والناس يستعدُّون بحماس للانطلاق والقتال. يجب أن أقول إنَّه لم يحدث أن انضممت إليهم. ليس لأنِّي كنت خائفاً -كما اكتشفت لاحقاً، لم أكن غير شجاع جسديّاً، إلّا في مناسبة لا تنسى لسوء الحظّ- أو لأنَّني لم أكن أقدِّر أهميَّة ما يجري في إسبانيا. الأمر فحسب هو أنَّني لم يسبق لي قطُّ أن كنت رجلاً يتَّخذ زمام المبادرة. أنموذج جون كونفورد[57]، البطل المختَرِع، صدمني من ناحية احترام الذات، وإذا سُمح لي، من ناحية التناقض الظاهريّ: التفاهة العميقة، فأن يندفع رجل إنكليزيّ كي تُطلق النار على رأسه في ساقية في إشبيليّة أو في أيّ مكان، بدا لي مجرَّد شكل مبالغ فيه من البيان؛ مفرط، مسرف، عقيم. رجل الأفعال سيحتقرني بسبب هذه المشاعر -لم أكن أحلم قطُّ بأن أعبِّر عن ذلك لفليكس هارتمان، كمثال- لكن لديَّ تعريف مختلف عمَّا يشكّل عملاً فعَّالاً. الدودة في البرعم أكثر اجتهاداً من الريح التي تهزُّ الغصن. هذا ما يعرفه الجواسيس. هذا ما أعرفه.

كان ألاستير، بالطبع، في حالة مرتفعة من الإثارة بسبب ما يجري في

---

(56) أوبريت في أربعة فصول (1924)، للموسيقيّ الأميركيّ- الهنغاريّ سيغموند رومبيرغ (1887-1951)، تروي حكاية الأمير كارل فرانز الذي يتخفّى في حياة طالب علم. (م)

(57) شاعر إنكليزيّ، وشيوعيّ مشهور (1915-1936)، في أثناء الحرب الأهليّة في إسبانيا كان عضواً في ميليشيات، ثمّ في الألوية الدوليّة ضد القوميّين. (م)

إسبانيا. والشيء الجدير بالملاحظة حول الحرب الإسبانيَّة -حول كلِّ الحروب الأيديولوجيَّة، كما أفترض- كان أحاديَّة التفكير، وليس القول ببساطة التفكير، التي أنتجت من ناحية أخرى أناساً متطوّرين للغاية. أزيلت كلُّ الشكوك، وتمَّت الإجابة عن كلِّ الأسئلة، كلِّ القضايا التافهة. فرانكو كان مولوخ[58]، والجبهة الشعبيّة كانت الأطفال الذين يرتدون الأبيض، الذين عرضهم الغرب على الشيطان كنوع من التضحية عديمة الرحمة الجبانة. تمَّ تجاهل حقيقة أنَّ ستالين، في الوقت الذي كان فيه يطير لتقديم المساعدة للموالين الإسبان، كان في الوقت نفسه يبيد، على نحو منهجيّ، كلَّ معارضة لحكمه في الداخل، ثمَّ يتجاهلها على نحو ملائم. كنت ماركسيّاً، نعم، لكن لم يكن لديَّ أيّ شيء آخر سوى ازدراء الرجل الحديديِّ، الرجل غير الشهيّ.

«هيّا فيكتور! بالله عليك فيكتور!» قال ألاستير وهو يسحب ساق غليونه من تجويفه ويمسح بقايا التبغ الأسود عنه «إنَّها أوقات خطرة، يجب حماية الثورة».

تنهَّدت، وابتسمت.

«يجب أن تدمَّر المدينة من أجل المحافظة عليها، هل هذا ما تعنيه؟»

كنَّا نجلس في كرسيَّي الاسترخاء، في الشمس، في الحديقة الخلفيَّة الصغيرة أسفل نوافذ غرفته في ترينيتي. رعى ألاستير الحديقة بنفسه، وكان فخوراً بذلك على نحو مؤثِّر. كان هناك ورد وزهور التنِّين، وكان العشب ناعماً مثل طاولة بليارد. صبَّ الشاي من وعاء أزرق اللون، وبرفق أمسك غطاء الوعاء من مكانه بأطراف أصابعه، وببطء وحزن هزَّ رأسه.

«في بعض الأحيان أتساءل عن التزامك بالقضيّة، فيكتور».

---

(58) إله كنعانيّ قديم، ورد اسمه في الثقافات العبريّة والفينيقيّة والكنعانيّة. كان لا ترضيه إلّا قرابين الأطفال، فيُحرق الأطفال بالقرب من مذبحه لإرضائه. (م)

«نعم»، قلت «وإذا كنا في موسكو، فبإمكانك التبليغ عنّي للشرطة السرّيّة»، رمقني بنظرة مجروحة «أوه، ألاستير» قلت متبرّماً «بربّك، أنت تعرف بقدر ما أعرف كيف تجري الأمور هناك. لسنا عميان. لسنا حمقى».

سكب الشاي في صحن فنجانه، وتجرَّعه بشفتيه المقطَّبتين على نحو مبالغ به؛ كانت تلك إحدى طرائقه لإظهار التضامن الطبقيِّ! صدمني كرجل متبجِّح، وعلى نحو غير مقبول كرجل مقيت بعض الشيء.

«نعم، لكن ما نحن عليه هو أنَّنا مؤمنون»، قال ماطّاً شفتيه، وابتسم، واستند إلى الخلف، إلى اللوحة المخطَّطة الباهتة للكرسيِّ، موازناً الفنجان وصحنه على رفِّ بطنه الصغير. بدا معجباً بنفسه للغاية بكنزته الصوفيَّة بلا كمَّين المزخرفة بالألوان، وحذائه البنّيّ، إلى درجة أنَّني وددت لو أضربه.

«أنت تبدو مثل كاهن»، قلت.

ابتسم ابتسامة عريضة كاشفاً عن الفجوة بين سنَّيه الأماميَّتين.

«مضحك أنَّه ينبغي لك قول ذلك»، قال، «إنَّ شابّاً سيظهر في الأرجاء قريباً جدّاً اعتاد أن يكون كاهناً. ستحبُّه».

«أنت تنسى»، قلت بحدَّة، «أنَّني أنحدر من أسرة رجل دين».

«حسناً، سيكون لديك الكثير للحديث عنه، أليس كذلك؟»

في الوقت الحالي كان خادم ألاستير قد ظهر، شبيه القزم، ينحني محيِّياً في تذلُّل -يا إلهي، كم أحتقر هؤلاء الناس!- كي يعلن عن وجود ضيف. كان فيليكس هارتمان يرتدي السواد: بزَّة سوداء، قميصاً أسود، وعلى نحو ملحوظ في المحيط، زوجَ أحذية أسود، ضيقاً، بجلد رخو، أنيقاً جدّاً مثل خفِّ الراقص. لـمَّا كان يعبر المرج لأجل لقائنا لاحظت كم كان يحاول إخفاء عرجه. عرَّفنا ألاستير إلى بعضنا، وتصافحنا بالأيدي. أرغب في أن أكون

قادراً على القول إنَّ شرارة تقدير لإمكانات كلينا قد مرَّت بيننا، لكنِّي أشكُّ في أنَّ المواجهات الأولى المهمَّة تأخذ هالتها في استعادة الذكرى فحسب. مصافحتُه، ضغطٌ خفيف وتحرُّر سريع، لم توصل شيئاً أكثر من لامبالاة لطيفة وليست فظَّة بالمطلق. (لكن، ما هذه المراسم الغريبة، المصافحة باليد؛ لطالما أنظر إليها بمصطلحات شائعة: رسميَّة، قديمة، سخيفة بعض الشيء، وغير لائقة قليلاً، ومع ذلك، ولكلِّ هذا، هي مؤثِّرة بطريقة غريبة). عينا فليكس الناعمتان السلافيَّتان، بلون حلوى التوفي -حلوى التوفي تلك التي كانت تساعدني في إعدادها، لـمَّا كنت أعود إلى المنزل من المدرسة، الآنسةُ مولينوكس في أمسيات الشتاء، من سكَّر محروق مصبوب في مقلاة- عيناه استراحتا على وجهي للحظة، ومن ثمّ أدارهما جانباً على نحو مبهم. كان أحد أساليبه أن يبدو دائماً مشتَّت الانتباه؛ فكان يتوقَّف فجأة لثانية في منتصف جملة ما، ويعبس، ثمَّ يغلِّف نفسه بشيء من الهزِّ متناهٍ في الصغر، ثمّ يعود إلى وضعيَّته الأولى من جديد. كانت لديه عادة أيضاً، حينما يتحدّث إليه أحدهم، بغضِّ النظر عن جدِّية المتكلم، أنّه يدور ببطء على كعب حذائه ويعرج قليلاً بعيداً، ورأسه محنيٌّ، ثمَّ يتوقَّف وظهره قد مال، ويداه مشبوكتان خلفه، بحيث إنَّ أحداً لا يعرف إن كان لا يزال يصغي إلى ما يقال، أو أنَّه غاص من جديد في مناجاة عميقة مع نفسه. لم أتمكّن قطُّ في نهاية الأمر من تحديد ما إذا كانت هذه السلوكات أصيلة، أو أنَّه كان يحاول فحسب إظهارها، كما لو كان في منتصف مسرحيَّة، مثل ممثِّل يجهِّز نفسه للتدرُّب السريع على حركة صعبة في حين يظهر بقيَّة الممثلين براعتهم في المسرحيّة. (آمل ألَّا تتعجَّبي، آنسة ف. لاستخدامي كلمة أصيل في السياق، فإذا عجبتِ فإنَّك لا تفهمين شيئاً عنَّا، ولا عن عالمنا).

«فيليكس يرتدي الفرو اليوم»، قال ألاستير، وضحك.

ابتسم هارتمان بشحوب، وقال:

«يا لك من فطن، يا ألاستير».

وعلى نحو أخرق وقفنا على العشب، ثلاثتنا، فلم يكن هناك سوى كرسيّ طيّ. صار فيليكس هارتمان يدرس مقدِّمة خفَّيه اللامعين، وألاستير، الذي كان يحدِّق بعين واحدة إلى الشمس، أخفض كأسه وغمغم بشيء ما حول جلب كرسيٍّ آخر، وتحرَّك. حوَّل هارتمان نظرة إلى الورد، وتنهَّد. واستمعنا إلى طنين الصيف حولنا.

«أنت الناقد الفنِّي؟»، سأل.

«أقرب إلى مؤرِّخ».

«إنّما مؤرِّخ فنّيّ؟»

«نعم».

أومأ برأسه، وهو ينظر الآن إلى محيط ركبتيَّ.

«أعرف شيئاً عن الفنِّ»، قال.

«أوه، حقّاً؟»، انتظرت، لكنَّه لم يضف شيئاً آخر. «لديّ ولع عظيم بهندسة الباروك الألمانيَّة»، قلت بصوتٍ عالٍ، «هل لديك فكرة عن هذا الأسلوب؟»

هزَّ رأسه.

«أنا لست ألمانيّاً»، قال بنبرة كئيبة، جاذباً شفتيه إلى جانب واحد.

ومن جديد عدنا إلى صمتنا. تساءلت إن كنت أهنته بطريقة ما، أو أنَّني كنت ضجراً، فشعرت بشيء من الضيق. لا يمكننا جميعاً أن نصاب بجروح في مناوشات جبال الكاربات. عاد ألاستير بكرسيّ مطويٍّ ثالث ونصبه مع

كثير من الجهد والشتائم، لاوياً إبهامه على نحو سيِّئ في هذه العمليَّة. عرض أن يعدَّ لنا إبريق شاي طازج، لكن هارتمان رفض بصمت، بحركة رفضٍ بيده اليسرى. جلسنا. ألاستير يتنهَّد تنهيدات سعيدة؛ البستانيون لديهم طريقة خاصَّة مزعجة في التنهُّد حين يفكِّرون في عملهم اليدويّ.

«من الصعب التفكير في إسبانيا واندلاع الحرب»، قال، «في حين نجلس هنا تحت الشمس»، تلمّس كمَّي بزَّة فيليكس السوداء، «ألست دافئاً، أيُّها الشابُّ الهرم؟»

«نعم»، قال هارتمان، مومئاً برأسه مع ذاك المزيج الخاصِّ من عدم المبالاة ووقار العابس.

لحظة صمت. بدأت أجراس الملك تُقرع. الإيقاعات البرونزيَّة تضرب بقوَّة عالياً عبر الجوِّ الأزرق الكثيف.

«يعتقد ألاستير أنَّه ينبغي لنا كلّنا الذهاب إلى إسبانيا ومحاربة فرانكو»، قلت باستخفاف، ودهشت، حتَّى فقدت أعصابي قليلاً حين رفع هارتمان نظره وثبَّته عليَّ لوهلة بتركيز مسرحيٍّ.

«وربَّما كان محقّاً؟»، قال.

إن لم يكن هونيّاً[59]، فكَّرت، فإنَّه نمساويٌّ بالتأكيد -يتكَّلم الألمانيَّة، بدرجة ما؛ كلُّ هذي الكآبة والمشاعر العميقة لا يمكن أن تكون إلَّا نتيجة التنشئة بين الكلمات المركَّبة.

ركَّز ألاستير جلسته على نحو جدِّيّ شابكاً يديه بين ركبتيه، واتَّخذ ذاك المظهر مثل كلب بلدُغ مصاب بإمساك مستعدٍّ دائماً لنوبة من الجدالات، وقبل أن يتمكّن من البدء قال هارتمان موجِّهاً كلامه إليّ:

---

(59) الهون مجموعة من الرعاة الرُّحل، ظهروا من وراء نهر الفولغا في روسيا، وهاجروا إلى أوروبّا الشرقيّة بعد 370 م، وأسّسوا إمبراطوريّة. (م)

«نظريّتك في الفنّ: ما هي؟»

من الغريب الآن هو التفكير كم كان يبدو سؤالاً طبيعيّاً حينئذ. في تلك الأيّام، كنّا نسأل بعضنا باستمرار أسئلة كهذه، مطالبين بشروحات، وتسويغات؛ وتحدّيات؛ ودفاع؛ وهجوم. كان كلُّ شيء مفتوحاً للسؤال على نحو لافت. حتّى أكثر الماركسيّين دوغمائيّة بيننا عرفوا الإثارة الـمُسكِرة والمثيرة للدوار في عرض الشكوك في كلِّ ما كان من المفترض أن نؤمن به، وفي اتّخاذ إيماننا الأساسيّ، مثل قطعة من الزجاج المغزليّ المعقَّد والدقيق للغاية، وجعلها تسقط في الأيدي الزلقة وربَّما الشرِّيرة لعقيدة زميل ما. لقد غذَّى ذلك الوهمَ بأنَّ الكلمات هي أفعال. كنّا شبّاناً.

«أوه، لا تجعله يشرع في ذلك»، قال ألاستير، «سنمتلك شكلاً مميّزاً، واستقلاليَّة الهدف حتَّى تعود البقرات إلى المنزل. إيمانه الوحيد هو عدم جدوى الفنّ».

«أنا أفضِّل كلمة عدم الفائدة»، قلت، «وبطبيعة الحال، موقفي تغيَّر في هذا الأمر كما تغيَّرت أمور كثيرة».

كانت هناك هجمة من الصمت والجوُّ أثقل لوهلة. نقَّلت نظري بينهما، على ما يبدو من أجل أن أكتشف شيئاً ما غير مرئيٍّ بينهما، وليس مجرَّد إشارة كنوع من رمز صامت، مثل تلك التلميحات التي تكاد لا تكون محسوسة ويتبادلها الزناة حين يكونون في جماعة. لا تزال هذه الظاهرة غريبة بالنسبة إليَّ، لكنها باتت أكثر ألفة على نحو متزايد مع اختراقي للعالم السرِّي. إنَّها تشير إلى اللحظة التي تبدأ فيها مجموعة من الأعضاء الجدد، في منتصف ثرثرة عادَّية، عملها على مجنَّد غرّ محتمل. الأمر دائماً هو نفسه: لحظات الصمت، يصبح الجوُّ محموماً، ثمَّ الاستئناف السلس لأيِّ موضوع

كان، على الرّغم من أنَّ الجميع يكونون مدركين في الواقع أنَّ الموضوع كان قد تغيَّر نهائياً. في وقت لاحق، لـمَّا كنت أنا نفسي كذلك (عضواً مبتدئاً) كان يهزّني عميقاً هذا الانفعال السرِّي للنشاط الفكريِّ. لا شيء مؤقَّت للغاية، لا شيء مثير للغاية، ما عدا، بالطبع، مناورات معيَّنة في المطاردات الجنسيَّة.

كنت أعرف ما يحدث؛ كنت أعلم أنَّني كنت مجنَّداً. كان أمراً مثيراً، ومنذراً، وغريباً بعض الشيء، مثل الاستدعاء من الخطِّ الجانبيِّ لأجل اللعب في مباراة المدرسة الثانويَّة. كان مسلّياً. لم تعد هذه الكلمة تحمل الوزن الذي كانت عليه بالنسبة إلينا. لم تكن التسلية تسلية، بل كانت اختباراً لموثوقيَّة شيء ما، التحقُّق من قيمته. أخطر الأمور كانت تسلِّينا. هذا كان شيئاً أمثال فيليكس هارتمان لم يفهموه قطُّ.

«نعم»، قلت، «إنَّها الحالة التي جادلت مرَّة فيها من أجل صدارة الشكل النقيِّ. كثير من الأشياء في الفنِّ هي مجرَّد اختلاقات شخصيَّة، وهو ما يجذب الشخص العاطفيَّ البرجوازيَّ. أردت شيئاً قاسياً، ومدروساً، يشبه الحياة حقّاً: بوسان، سيزان، بيكاسو. إلّا أنّ تلك الحركات الجديدة -هذه السورياليَّة، تلك التجريدات الجافَّة- ماذا يجب أن تفعل مع العالم الحقيقيِّ الذي فيه الرجال يعيشون ويعملون ويموتون؟»

صفَّق ألاستير صفقة بطيئة بلا صوت، وهارتمان، العابس بتفكُّر في عقبي، تجاهله.

«بونارد؟»، قال، وكان بونارد وقتها ذائع الصيت.

«النعيم المنزليّ. جنس ليلة السبت».

«ماتيس؟»

«بطاقات بريديَّة ملوَّنة يدويّاً».

«دييغو رفييرا؟»

«رسَّام الشعب الحقيقيّ، بالطبع. رسَّام عظيم».

تجاهل الابتسامة الصغيرة التي عضضت فيها على شفتي ولم أستطع كبحها؛ أتذكَّر أنَّني أمسكت بيرنارد بيرنسون يبتسم مثل هذه الابتسامة مرَّة، حين كان يقوم بعرض سافر لحلية تافهة مزيَّفة كان أميركيٌّ عاثر الحظ قد أوشك أن يشتريها بسعر خرافيّ.

«عظيم كعظَمةِ... بوسان»، قال.

هززت كتفيّ مستغرباً، فهو كان يعرف اهتماماتي. أحدهم تكلَّم معه. نظرت إلى ألاستير لكنَّه كان منهمكاً في فحص إبهامه المتورِّم.

«االسؤال الذي لا يُطرح»، قلت، «هو أنَّ النقد المقارن فاشيّ في الأساس. مهمَّتنا» -كم كان لطيفاً ضغطي بالصوت على (نا)- «هي التأكيد على العناصر التقدُّميَّة في الفنِّ. في أوقات كهذه، بلا شكّ ذاك هو الواجب الأوَّل والأهمُّ للناقد».

تبعت ذلك فترة صمت مطبق أخرى، لـمَّا شرع ألاستير يمصِّ إبهامه، وهارتمان قد جلس، وصار يومئ برأسه لنفسه، وأنا نظرت أمامي، مظهراً له صورة جانبيَّة، مظهراً كلَّ التواضع البروليتاريّ وثبات العزيمة، شعرت بذلك بثقة تامَّة، مثل أحد أولاء الأشخاص المعنيِّين بتقديم الإغاثة، المنتشرين براحة على قاعدة نصب واقعيٍّ- اشتراكيٍّ. غريب، كيف أنَّ الكذبات ومهما تكن صغيرة هي التي تعلق في حبل العقل. دييغو رفييرا- يا إلهي! ألاستير كان يراقبني الآن مع ابتسامة ماكرة.

«الأكثر أهميَّة بالنسبة للموضوع»، قال موجِّهاً كلامه إلى هارتمان،

«يتطلّع فيكتور ليصبح وزيراً للثقافة حينما تندلع الثورة، حتَّى يتمكَّن من نهب المنازل الفخمة في إنكلترا».

«في الواقع»، قلت متشدِّقاً مثل مديرة مكتب بريد، «لا أرى سبباً لنهب آبائنا المطاردين للتحف الرائعة في الحروب الأوروبّيّة المتعاقبة. هذه التحف المنهوبة لا ينبغي إرجاعها إلى الناس، بل يجب وضعها في معرض مركزيّ».

مال ألاستير إلى الأمام من جديد، كان كرسيّه يئنّ، ونقر على ركبة هارتمان، «هل ترى؟»، قال بسعادة. كان واضحاً أنَّه يشير إلى شيء غير طموحاتي الفنّيّة، ألاستير كان يتباهى بقدرته على كشف المواهب. عبس هارتمان، عبوساً صغيراً مؤلماً مثل ذاك لدى مغنٍّ عظيم حين يقوم مرافقوه بعزف نغمة خطأً، وهذه المرَّة أظهر أنَّه لا يعطِ الأمر أيَّ اهتمام.

«هكذا إذاً»، قال بهدوء موجِّهاً كلامه إليَّ وهو يميل برأسه، «أنت معارض للتحليل البرجوازيِّ للفنِّ باعتباره رفاهية...».

«معارض بشدَّة».

«...وترى أنَّ على الفنَّان واجباً سياسيّاً واضحاً».

«مثلنا جميعاً»، قلت، «على الفنَّان أن يسهم في حركة التاريخ نحو الأمام».

أوه، كنتُ بذيئاً، مثل بنت طائشة عازمة على فقد عذريَّتها.

«أو...؟»، قال.

«أو يصبح زائداً عن الحاجة، وينحدر فنُّه إلى مستوى مجرّد ديكور، أو خيال منغمس في الملذَّات...»

سكن كلُّ شيء بعد ذلك؛ هدأ حتَّى توقَّف. وأنا تُركتُ معلّقاً في ذعر غامض: كنت فكَّرت في أنَّنا في منتصف هذا النقاش الممتع وليس عند نهايته. كان هارتمان ينظر إليَّ مباشرة كما لو كان ينظر إليَّ أوَّل مرَّة. وأنا

أدركت شيئين: أوَّلاً، إنَّه لم ينجذب نحو تصريحاتي القويَّة عن الاستقامة السياسيَّة؛ وثانياً: بدلاً من أن يشعر بخيبة الأمل أو الإساءة، كان على العكس ممتناً أنَّني كذبت عليه، أو على الأقلّ عرضتُ نسخة ملوَّنة بعناية عمَّا قد يكون الحقيقة. الآن، هنا الصعوبة، هذا هو لبُّ المسألة بطريقة ما. من الصعب على أيِّ شخص لم يقدِّم نفسه بإخلاص كامل لإيمان ما (وأقول مرَّة ثانية، آنسة ف. هكذا: أنت تقدِّمين نفسك إليه، ولا ينزل عليك مثل النعمة المقدَّسة النازلة من السماء) أن يقدِّر كيف يمكن لعقل المؤمن الواعي أن يفصل نفسه إلى كثير من الأجزاء المستقلَّة التي تحتوي على العديد من المبادئ المتضاربة. تلك ليست حجرات مغلقة، إنَّها مثل خلايا البطاريَّة (أظنّ أن هذي هي الطريقة التي تعمل بها البطَّاريَّة) التي تلعب فوقها الشحنات الكهربائيَّة، تقفز من خليّة إلى أخرى، تجمع القوّة والاتِّجاه أينما تتحرَّك. تعبِّئينها بـأسيد الضرورة التاريخيَّة العالميَّة، والماء المقطَّر للنظرية الخالصة، وتربطين بين نقاطك، ومع لمعة وقشعريرة يرتفع وحش الالتزام المرقَّع، بالغرزات المشدودة، والحاجب البارز، بحركة بطيئة متشنِّجة عن طاولة عمليّات الدكتور ديابولو. هكذا هو حال أمثالنا -أقصد أمثال فيليكس هارتمان، وأنا نفسي، وإن لم أكن كذلك، وربَّما، ألاستير، الذي كان بريئاً بالأساس، بإيمان الأبرياء بالعدالة وحتميَّة القضيَّة. لذلك لـمّا نظر هارتمان إليَّ في ذاك اليوم، في الضوء الليمونيِّ الأزرق في حديقة الروح المبهرة بأشعَّة الشمس في كمبردج، حين كانت مدافع فالانجيست تطلق النار على مسافة خمسمئة ميل إلى الجنوب منَّا، رأى أنَّني كنتُ بالضبط ما كان مطلوباً؛ أقسى من ألاستير، طيِّعاً أكثر من بوي، مفتي قضايا الضمير الذي يقسم النسيجَ الأيديولوجيَّ إلى أقصى درجة من الرِّقَّة -بكلمات أخرى، رجل في

حاجة إلى الإيمان (لا يوجد شخص أكثر إخلاصاً من أحد المشكّكين وهو جالس على ركبتيه، مقولة كويريل)، وبعد ذلك لا قول يُقال. لم يثق هارتمان بالكلمات، وعدَّها فخراً لا يجوز استخدامه أكثر ممّا تتطلَّبه المناسبة.

وقف ألاستير فجأة، وبدأ يجمع أكواب الشاي بعناية فائقة، مقدّماً عرضاً رائعاً بعدم وطء مقدِّمات أحذيتنا، ثمّ انسحب، يتمتم، بنوع من الغضب المتذمِّر، حاملاً صينيَّة الشاي أمامه مثل ورقة تظلُّم: أفترض أنَّه هو أيضاً كان واقعاً في غرام فيليكس قليلاً -ربَّما أكثر من قليلاً- وكان غيوراً فحسب، بعد أن أثبتت وساطة الاقتران التي قام بها بيننا نجاعتها بهذه السرعة. إلّا أنَّ هارتمان بدا كأنَّه لم يلحظ ذهابه. كان يميل إلى الأمام باهتمام، رأسه محنيٌّ، ومرفقاه على ركبتيه، ويداه متشابكتان (لا بدَّ أنَّها أمارة نعمة حقيقيَّة أن يكون قادراً على الجلوس على كرسيّ مطويٍّ دون أن يبدو مثل ضفدع يسبب الضيق). بعد لحظة ألقى إليَّ نظرة جانبيَّة، بابتسامة وحشيَّة على نحو غريب.

«أنت تعرف بوي بانيستر، بالطبع»، قال.

«بالتأكيد؛ كلُّنا نعرف بوي».

أومأ برأسه، ولا يزال يرمقني بنظرة شهوانيَّة وحشيَّة وعيناه تبرقان.

«سوف يقوم برحلة إلى روسيا»، قال، «لقد حان الوقت كي يُصاب بخيبة أمل من النظام السوفييتيِّ». الآن أصبحت نظرته ذئبيَّة على نحو ثابت، «ربَّما أنت مهتمٌّ بمرافقته؟ يمكنني ترتيب ذلك. نحن -هم- لديهم العديد من الكنوز الفنيَّة. في المعارض العامَّة بالطبع».

ضحكنا، كلانا، في الحال، ما جعلني أشعر بالاضطراب. سيبدو ذلك غريباً حينما يصدر عني، لكن التورُّط الذي يفترضه هذا النوع من الأشياء

-الضحك الناعم المتبادل، الضغط السريع على اليد، الغمزة الخفيَّة- يصيبني دائماً كأنَّه سلوك غير لائق نوعاً ما، ومخجل، مؤامرة صغيرة تحاك ضدَّ عالم أكثر انفتاحاً واحتشاماً منِّي ومن شريكي في علاقة حميمة نأمل فيها دائماً. على الرغم من كلِّ سحر فيليكس هارتمان الأسود وشدَّة أناقته، فقد فضَّلت حقّاً الحمقى والسفَّاحين الذين تعاملت معهم لاحقاً، مثل أوليغ كروبوتسكي المسكين، ببزَّاته المروِّعة ووجهه العجينيٍّ مثل وجه رضيع مغوٍ؛ على الأقلِّ لم يحرِّكوا ساكناً بشأن قبح النضال الذي كنَّا فيه شركاء غير راغبين. إنّما كان ذلك بعد تلك الفترة بزمن بعيد، فحتَّى الآن كانت العذراء المتلهِّفة في مرحلة التقبيل فحسب، ولا تزال بكراً. ابتسمت من جديد بوجه فيليكس هارتمان، وبلا مبالاة لم أشعر بها تماماً قلت نعم، ربَّما أسبوعان في أحضان الأمِّ روسيا هما الشيء الوحيد الذي سينشِّط موقفي الأيديولوجيَّ ويقوّي روابط تضامني مع البروليتاريا. حينها أصبحت نظرته متحفِّظة -لم يكن الرفاق قطُّ جهورين في الجزء المتعلِّق بالسخرية- واكفهرَّ وهو ينظر إلى مقدِّمة حذائه، وبدأ يتحدّث بجدّ عن تجاربه في الحرب ضدَّ البِيض[60]: القرى المحترقة، الأطفال المغتصَبون، الرجل العجوز الذي قابله في أمسية ماطرة في مكان ما في شبه جزيرة القرم، مصلوباً على باب حظيرته ولا يزال في قيد الحياة.

«أطلقت النار عليه، في قلبه»، قال وهو يشكِّل مسدَّساً بإصبع وإبهام ويطلق النار بصمت، «لم يكُ ثمة شيء آخر أفعله من أجله. لا تزال عيناه تظهر في أحلامي».

أومأت برأسي، ثمَّ نظرت أنا أيضاً بتجهُّم إلى حذائي لأظهر كم كنت

---

(60) يقصد الحرب الأهليَّة الروسيّة (1917-1923)، وكانت بين الشيوعيّين البلاشفة (الجيش الأحمر) ومجموعات غير متجانسة من المحافظين الديمقراطيّين والشيوعيّين المعتدلين والقوميّين الروس (البيض). (م)

خجلاً تماماً من الإشارة المرحة إلى الأمِّ المقدَّسة روسيا؛ لكن تحت جدار رصانتي كانت ثمَّة قوقأة مكبوتة لضحكة مشينة، كأنَّ ثمَّة شيطاناً، جنِّياً صغيراً مرحاً يلتفُّ على نفسه في داخلي: اليد تغلق الفم، والخدَّان منتفخان، والعينان المراوغتان تتألَّقان على نحو شرير. لم يكن الأمر أنَّني اعتقدت أنَّ أهوال الحرب مضحكة، أو أنَّ هارتمان سخيف تماماً؛ لم يكن ذاك نوع الضحك الذي يهدِّد بالانفجار. ربَّما كانت كلمة ضحكة هي الكلمة الخطأ. ما كنت أشعر به في لحظات كهذه -وسيكون هناك كثير من أشياء مثل: المهابة، والصمت، المحفوفان بالقلق- كان نوعاً من الهيستيريا، يتكوّن من أجزاء متساوية من الاشمئزاز والخجل والجذل المروِّع. لا أستطيع شرحها -أو أستطيع ربَّما، لكن لا أريد ذلك. (يمكن للمرء أن يعرف كثيراً عن نفسه، وهذا شيء كنت قد تعلَّمته). شخص ما كتب في مكان ما، أتمنَّى لو أعرف مَن كان، عن إحساس الرعب الاستباقيِّ المبتهج الذي يختبره في قاعة الحفلات الموسيقيَّة لـمَّا تبطئ الأوركسترا، في منتصف الحركة، حتَّى تتوقَّف، والفنَّان المبدع يرجع ذراعه استعداداً لإغراق قوسه في قلب دوره الموسيقيِّ المنفرد الأخير المرتعش. على الرغم من أنَّ الكاتب متهكِّم، وبصفتي ماركسيّاً (ألا أزال ماركسيّاً) ينبغي أن أرفضه، فأنا أعرف بالضبط ما يقصد، وأشيد سرّاً بأمانته المهلكة. الإيمان شاقٌّ، والهاوية موجودة دائماً هناك تحت قدمي المرء.

عاد ألاستير. ولـمَّا رأى أنِّي وهارتمان غارقان في ما لا بدَّ أنَّه بدا مثل مشاركة في الصمت، وربَّما كان كذلك، غضب أكثر من ذي قبل.

«حسناً»، قال، «هل قرَّرتما مستقبل الفنِّ؟»

ولـمّا لم يردَّ أحد منَّا -نظر إليه هارتمان بعبوس خالٍ من التعبير كأنَّه

يحاول تذكُّر من يكون- ألقى بنفسه فوق الكرسيِّ المطويّ الذي أصدر نخرة احتجاج متألِّم عالية، وثبَّت يديه القصيرتين والثخينتين على طول صدره، ورنا بعينيه نحو أجمة من ورد قرنفليّ اللون.

«ما رأيك، ألاستير؟»، قلت، «سيِّد هارتمان-»

«فيليكس»، قال هارتمان بلطف، «أرجوك».

«-كان قد عرض عليَّ رحلة إلى روسيا».

كان ثمَّة شيء يتعلَّق بألاستير -مزيج من ضراوة كلب البالدوغ غير المقنعة تماماً وتردُّد بنَّاتي تقريباً، ناهيك عن حذائه ذي المسامير وبزَّته التويديَّة ذات القماش الشعريِّ- جعل من المستحيل مقاومة أن تكون قاسياً معه.

«أوه»، قال، لم يكن ينظر إليَّ، لكن لا يزال طاوياً ذراعيه بإحكام، في حين بدا الورد، بأثر حملقته فيه، قد احمرَّ خجلاً بظلّ قرنفليٍّ أعمق، «إنَّه أمر مثير للاهتمام بالنسبة إليك».

«نعم»، قلت بحبور، «بوي وأنا سنذهب».

«مع شخص أو شخصين آخرين»، غمغم هارتمان وهو ينظر إلى أظافره.

«بوي إذاً؟»، قال ألاستير، وحاول إطلاق ضحكة مقرقة صغيرة، «من المحتمل أن يلقى القبض عليكما في ليلتكما الأولى في موسكو».

«نعم»، قلت متلعثماً، (آخرين؟ -أيُّ آخرين؟) «أنا واثق من أنَّنا سنقضي أوقاتاً مسلِّية».

كان هارتمان لا يزال يفحص أظافره.

قال: «بالطبع، سنرتِّب أدلَّاء لك، وباقي الأمور».

نعم، أيُّها الرفيق هارتمان، متأكِّد من أنَّك ستفعل.

هل ذكرت أنَّنا كلَّنا كنَّا ندخِّن مثل محرِّكات القطارات؟ جميعنا كنَّا ندخِّن، وحينما نفعل ذلك كنَّا نتعثَّر في كلِّ مكان بغيوم دخان التبغ. أتذكّر بغصَّة، في ذاك العصر المتزمِّت، ذلك الدخان، برقَّة لوحات أنطوان واتو الزرقاء الرماديَّة، الذي كنَّا ننفثه في كلِّ مكان في الهواء، موحين بالشفق والعشب المغطَّى بالضباب، والظلال الكثيفة تحت الأشجار العظيمة -مع أنَّ غليون ألاستير، الذي كان يتجشَّأ الدخان، أقرب إلى طراز بوتيريز من طراز فيرساليس.

«أرغب في رؤية روسيا»، قال ألاستير، وهياجه أفسح طريقاً للحزن، «موسكو، شارع نيفسكي...»

سعل هارتمان.

«ربَّما»، قال، «مرَّة أخرى...»

تلوَّى ألاستير في مقعده كأنّ قماش كرسيّه كان قد تحوَّل إلى منصَّة لبهلوان.

«أوه، أقصد أيُّها الشابُّ الهرم»، قال، «لم أقصد... أعني أنَّني...»

أين حدث ذلك بالضبط، تساءلت، اللحظة التي شاركنا فيها، هارتمان وأنا، في تحالف صامت ضدَّ ألاستير المسكين؟ أم كنت ضدَّه وحدي؟ -لست واثقاً من أنَّ هارتمان كان قادراً على الاهتمام بأيِّ شخص أو أيِّ شيء ليس موضوع اهتمامه المباشر. نعم، ربَّما اقتصر الأمر عليَّ فقط، أرقص على رجل واحدة، وحدي، هناك، نيزينسكي[61] من الغرور والحقد التافه. لا أريد المبالغة في الأمر، لكن لا يسعني إلَّا أن أتساءَل ما إذا كانت خيبة الأمل التي عانى منها ذلك اليوم -لا عَدوَ عبر السهب، لا محادثات جدِّيّة مع أبناء

(61) فاسلاف نيزينسكي (1889-1950)، راقص باليه ومنظِّم حركات رقص روسيّ من أصل بولنديّ، عرف برقصه على أطراف أصابعه. (م)

الجلدة المتقرِّنة أيديهم، لا تسكُّع في شارع نيفسكي في موسكو مع كاهن فاسد وسيم إلى جانبه- حجراً كبيراً على جبل متراكم من الويلات التي ستختفي روحه تحتها بعد ذلك بعشرين عاماً، جاثماً في غرفته شديدة الرطوبة، يقرض تفّاحة مسمومة. لقد قلت ذلك من قبل: إنَّ الخيانات الصغيرة هي التي تثقل كاهل القلب.

«أخبرني»، قلت لهارتمان، لـمَّا توقَّف ألاستير عن الارتداد عن نوابض إحراجه، «كم شخصاً سيسافر؟»

كانت لديَّ رؤية فظيعة لنفسي كوني شوهدت أطوف في مصنع للجرَّارات بصحبة موظَّفي سجلّات من المدينة مصابين بالصدفيَّة، ومعهم عوانس بقبَّعات فرويَّة من منطقة ميدلاندز، وعمَّال مناجم فحم إيرلنديِّون بقبَّعات العمّال أمتعونا في أمسيات الغناء المرح بعد تناولهم عشاءات من حساء الخُضر مع طعام فاخر في فندقنا. لا تتخيَّلي، آنسة فانديلور، أنَّ الماركسيّين، على الأقلّ أولاء من صنفي، اجتماعيُّون. الرجل محبوب فقط في الحشود، وحينما يكون على مسافة مقبولة.

ابتسم هارتمان، وأظهر لي يديه مقلوبتين خاليتين من السوء.

«لا تقلق»، قال، «بضعة أشخاص فقط، ستجد أنَّهم مثيرون للاهتمام».

لم أكن قلقاً.

«أناس من الحزب؟»، قلت.

(بالمناسبة، آنسة ف. أنت تعرفين حقّاً أنَّني لم أكن قطُّ عضواً في حزب؟ ولم يكن أحدنا. حتَّى في كمبردج -أتصوَّر ابتسامة ساخرة هنا- في الأيَّام الملتهبة، لم تطرح قضيّة الانضمام. «الأبوستلز» كان حزباً كافياً لنا. كنّا عملاء سرِّيّين قبل أن نسمع بمنظمة الشيوعيَّة الدوليَّة أو بمجنّد

سوفييتيّ يهمس مداهناً في آذاننا).

هزَّ هارتمان رأسه، ولا يزال مبتسماً، وبرقَّة أسبل جفنيه المظلَّلين بالسواد، بأهدابهما الطوال.

«مجرَّد... أشخاص»، قال، «ثق بي».

آه، الثقة: الآن ثمَّة كلمة يمكن أن أكرِّس لها صفحة أو صفحتين، ظلالها، تدرُّجاتها، الفوارق الدقيقة التي تتَّخذها أو تنتج عنها حسب الظروف. في زمني، وضعت ثقتي في بعض أسوأ الأوغاد الذين لا يأمل أحد أبداً في لقائهم، في حين كانت هناك أشياء في حياتي، وأنا هنا لا أتكلَّم عن الخطايا فحسب، التي لم أكن لأكشفها لوالدي. في هذا الأمر لم أكن مختلفاً جدّاً عن الآخرين، المثقلين بأسرار أقلَّ بكثير ممَّا رزحت تحته، كما سيكشف التفكير لوهلة قصيرة. هل كنت، آنسة فانديلور، لتخبري الأميرال بما كنتِ تقترفينه مع الشابّ في الطوابق السفليَّة في غولدرز غرين في إحدى الليالي؟ إذا كانت الحياة علَّمتني شيئاً فإنَّ في هذه الأمور ليس ثمَّة ثوابت، للثقة، أو للإيمان، أو لأيِّ شيء آخر. ولا حتَّى لأيِّ شيء جيِّد. (لا، أعتقد أنَّني لم أعد ماركسيّاً).

فوقنا، في الأوج الأزرق الحالم كانت ثمَّة طائرة فضيّة صغيرة للغاية تئزُّ بصعوبة. فكَّرت في إسقاط القنابل على البلدات البيض في إسبانيا، وكنت مصدوماً، كما كان ألاستير في وقت أبكر، من عدم تناسق الزمان والظروف، الذي لا يمكن إدراكه؛ فكيف يمكن أن أكون هنا، في حين يحدث كلُّ هذا هناك؟ مع ذلك لم أشعر بشيء تجاه الضحايا؛ الوفيات البعيدة لا قيمة لها.

حاول ألاستير أن يعرض موضوع إيرلندا وجبهة شين فين، لكن تمَّ

تجاهله، وعاد تقطيب الجبين من جديد، وأعاد طيّ ذراعيه، وحدَّق غاضباً، محاولاً، كما بدا، من أجل أن يُذبل الوردات البائسة من جذورها.

«أخبرني»، قلت موجِّهاً كلامي إلى هارتمان، «ماذا قصدت حين قلت إنَّ الوقت حان ليصاب بوي بالإحباط من الماركسيَّة؟»

كانت لدى هارتمان طريقة غريبة في حمل السيجارة، بيده اليسرى، بين إصبعيه الثالثة والوسطى، ويضغط عليها بإبهامه، حتَّى إنَّه لـمَّا رفعها إلى شفتيه لم يبدُ أنَّه يدخّن بل يرتشف شيئاً ما من زجاجة بيضاء صغيرة. شكل ثابت للدخان، اللون الرماديُّ الفضيُّ نفسه للطائرة التي كانت الآن قد اختفت، منحرفة من على الجانب مبتعدة عنّا في ضوء الظهيرة النابض.

«السيِّد بانيستر هو... شخص ذو منزلة. يمكننا أن نقول»، قال هارتمان بعناية محدِّقاً إلى منتصف المسافة، «صِلاته ممتازة؛ أسرته، أصدقاؤه-»

«لا تنسَ أصدقاءه الحميمين». قال ألاستير بحدَّة، واستطعت رؤية أنَّه ندم على ما قال مباشرة. رسم هارتمان ابتسامته من جديد، بعد أن أسبل جفنيه ثمَّ رفعهما.

«مزيَّته بالنسبة إلينا -وأنا واثق أنَّك تعرف الآن من المقصود بقولي إلينا؟- المزيَّة هي أنَّه يمكن أن يتنقَّل بيسر في أيِّ مستوى من مستويات المجتمع، من الأميراليَّة إلى الحانات في الطرف الشرقيِّ. هذا أمر مهمّ، في بلد كهذا، فيه التقسيم الطبقيُّ قويٌّ للغاية». فجأة جلس مستقيماً وربَّت بيديه على ركبتيه «لذلك لدينا خطط له. ستكون بالطبع حملة طويلة الأجل. وأوَّل شيء، الشيء المهمُّ حقّاً، بالنسبة إليه، هو أن يتخلَّى عن معتقداته السابقة. هل تفهمني؟»، فهمت. لم أقل شيئاً. حملق فيَّ، «لديك شكوك؟»

«أتخيَّل»، قال ألاستير، محاولاً أن يبدو خبيثاً، «أنَّ فيكتور، مثلي،

يجد صعوبة في تصديق أنَّ بوي سيكون قادراً على الالتزام بهذا النوع من الانضباط الضروريِّ لحملة الخداع التي تفكِّر فيها».

زمَّ هارتمان شفتيه، ثمَّ عاين رماد سيجارته.

«ربَّما»، قال ببرود، «أنت لا تعرفه بقدر ما تظنُّ أنَّك تعرفه. إنَّه رجل متذبذب».

قلت: «هذا هو حالنا جميعاً».

أومأ برأسه بلطف مبالغ فيه.

«لكن نعم. هذا هو السبب في وجودنا هنا» -وهو ما قصد به سبب وجوده، هو، هنا- «إجراء هذه المحادثة المهمَّة، التي إذا ما وصلت أسماع الجهلاء فلن تبدو أكثر من دردشة لا هدف لها بين ثلاثة رجال محترمين متحضِّرين في هذه الحديقة الساحرة، في يوم صيفيٍّ جميل».

فجأةً وجدت أنَّ تملُّقه، الذي يتَّسم به أهل منتصف أوروبا، مزعج ومغيظ على نحو كريه.

«هل أنا من المقبولين؟»، قلت.

أدار رأسه ببطء، وصار يسبرني من أخمص قدمي إلى أعلى رأسي.

«كلِّي ثقة في أنَّك كذلك»، قال، «أو أنَّك سوف تكون...»

هي ذي من جديد، تلك الكلمة: الثقة. ومع ذلك لم أتمكّن من مقاومة تلك النظرة الملغَّمة التي توحي بشيء ما. أهيف، بردائه الأسود، ويديه الكهنوتيَّتين الشاحبتين المطويَّتين أمامه، جلس في ضوء الشمس لا يراقبني كثيراً بقدر ما يعتني بي، وينتظر... لأجل ماذا؟ لأجلي كي أستسلم له. للحظة، وعلى نحو مثير للأعصاب، فهمت كيف يشبه الوضع عندما تكون امرأةً مرغوباً فيها. تعثَّرت نظراتي وانزلقت حين تحرَّر مزلاج ثقتي بنفسي لوهلة

بهزّة ناعمة، وفركت بقعة غبار لا تكاد توجد على كمّ سترتي، وبصوت بدا لمسمعي كصرير المتبرّم، قلت:

«آمل ألّا تكون ثقتك في غير محلّها».

ابتسم هارتمان، واسترخى، وركّز جلسته داخل كرسيّه مع نظرة رضا، وأنا، أدرت وجهي جانباً، شاعراً بالاختناق والخجل فجأةً. نعم، كم هي خفيفة على نحو خادع الخطوات الحاسمة التي تتّخذها الحياة.

«ستبحر سفينتك بعد ثلاثة أسابيع من ميناء لندن»، قال، «أمستردام، هلسنكي، لينينغراد. السفينة ليبريشن[62]. اسم جيّد، ألا تظنُّ ذلك؟»

*

اسم جيّد، لكنّه يخصُّ شيئاً بائساً. كانت ليبريشن عبارة عن مركب تجاريٍّ، بأرضيّة مسطّحة منخفضة، تحمل شحنة حديد سكب، مهما كان يعني ذلك، فإنّه كان مخصّصاً لمصاهر الشعب. كان بحر الشمال قاسياً، أمواج متدافعة بلون الطين، كلُّ موجة بحجم نصف منزل، تمخر عبرها السفينة الصغيرة وتنتفخ مثل خنزير حديديٍّ يرافق الموجة، وخطمه يرتفع ويهبط في قنوات الماء، وذيله يدور على نحو غير مرئيٍّ وراءنا. كان القبطان هولنديّاً بلحية سوداء غزيرة، وكان قد أمضى السنوات الأولى من حياته المهنيّة في جزر الهند الشرقيّة يقوم بأنشطة بدت لي بارتياب، من خلال شروحاته الملوّنة والغامضة لها على نحو مقصود، مثل تجارة الرقيق. تحدّث عن الاتّحاد السِوفييتيِّ ببهجة مقيتة. وأفراد طاقمه، المكوّن من مزيج من الأعراق، كانوا ثلّة جذّابة من القراصنة الماكرين. لم يكن في وسع بوي أن يصدّق حظّه؛

---

(62) Liberation، اسم السفينة، ومعناه التحرُّر. (م)

فقد أمضى معظم رحلته في الطوابق السفليَّة، يغيِّر سريره وشركاءَه كلَّ ساعة. كنَّا نلاحظ ضجيج المخمورين يقصف متزايداً من أحشاء السفينة، مع صوت بوي مهيمناً وهو يغنِّي أناشيد البحر، ويزأر طالباً شراب الرم. «يا لها من عصابة قذرة!»، كان ينعب بسعادة، وهو يتَّجه نحو دكَّة المسافرين، بعينيه الحمراوين وقدميه الحافيتين بحثاً عن السجائر وعن شيء يأكله. «حدِّثني عن الأماكن القريبة!» حيَّرني كيف كان بوي يتمكَّن من الإفلات. على الرّغم من تصرُّفاته المشينة في تلك الرحلة، فإنَّه بقي المفضَّل حول طاولة القبطان كلوس، حتَّى لـمَّا تقدَّم أحد أفراد الطاقم الشبّان بشكوى ضدَّه، وكان شاباً من جزر فريزيان في هولندا، قد اشتاق إلى فتاته، تمَّ تأجيل الأمر.

«سحره المشهور به»، قال آرتشي فليتشر بفظاظة، «سوف يخذله، في أحد الأيَّام، حينما يصبح هرماً وبديناً وعاطلاً من الحركة».

فليتشر نفسه، وهو شخص مختلف، ولا سحر لديه، كان يستهجن حزبنا في العموم، عاداً أنَّه يمزح بالتأكيد بالنسبة إلى الوفد الذي اختارته منظمة الشيوعيَّة الدوليَّة ليكون رأس حربة قيادته الإنكليزيَّة السرّيّة. (نعم، آنسة ف. أنا أقصد السير آرتشيبالد فليتشر، الذي هو الآن أحد أكثر المتحدِّثين خطورة داخل اليمينيِّين في حزب المحافظين. كيف نتذبذب فعلاً نحن الأيديولوجيِّين). كان هناك أيضاً نبيلان من كمبريدج -غلايين، قشرة رأس، أوشحة صوفيَّة- لديّ معرفة قليلة بهما: بيل دارلينغ، عالم اجتماع، من كلّيّة لندن للاقتصاد والعلوم السياسيّة، كنت أراه، حتَّى ذلك الحين، عصابياً جدّاً، وسريع الانفعال كي يكون جاسوساً، والآخر أرستقراطيٌّ شابٌّ مغرور بهيّ الطلعة اسمه بيلفوار، وهو توبي بيلفوار نفسه الذي تخلَّى عن لقبه، في الستينيَّات، ليخدم في حكومة حزب العمَّال، وقد كوفئ بحسن

نيّة اشتراكيَّة بوزارة صغيرة مسؤولة عن الرياضة أو شيء من هذا القبيل. هكذا كنَّا هناك، حمولة من الأولاد المتقاعدين، ينطلقون داخل عواصف الخريف عبر خليج سكاغيراك إلى الأسفل وصولاً إلى بحر البلطيق، في طريقنا لمواجهة المستقبل دون وسيط. غنيٌّ عن القول، إنَّ ما أراه هو سفينة من الحمقى لأحد سادة العصور الوسطى المجهولين، مع أمواج بيض متجعِّدة وخنازير بحر تسبح مندفعة عبر الأمواج، وعناصر حزبنا، بأثواب وقبَّعات مضحكة، يتجمَّعون على سطح السفينة، عند مؤخّرتها، يحدِّقون إلى الشرق، رمز الأمل والشجاعة، و... البراءة.

أعلم أنَّه كان ينبغي على تلك الرحلة، رحلتي الأولى والأخيرة إلى روسيا، أن تكون، وربَّما كانت، إحدى أهم التجارب التكوينيَّة في حياتي، ومع ذلك فإنَّ ذكرياتي عنها غير واضحة على نحو غريب، مثل ملامح تمثال غلَّفه الطقس، الجسم لا يزال هناك، الانطباع بالأهميَّة ووزن الحجر؛ التفاصيل فحسب كانت قد اختفت على نحو واضح. كانت بطرسبرغ مدهشة بالطبع. اعتراني هذا الإحساس، وأنا أنظر إلى الأسفل، إلى تلك المشاهد الطبيعية النبيلة (يا للروح المسكينة!) بهدير الأبواق التي تظهر في كِّل مكان حولي، معلنة عن بدء مغامرة فخمة عظيمة: إعلان حرب، تدشين سلام. بعد سنوات، لـمَّا كان الرفاق يحثُّونني على الانشقاق، أمضيت ليلة مؤرِّقة أقارن بين فقدان اللوفر ضد كسب الإرميتاج[63]، والخيار، أستطيع إخبارِكِ، لم يكن واضحاً كما كنت أتوقَّع.

في موسكو كانت ثمَّة روائع معماريَّة قليلة تشتّت انتباه المرء عن الناس المارّين في تلك الشوارع العريضة المفروشة بالمطر الثلجيّ على نحو

(63) متحف فنون عالمي في مدينة بطرسبورغ، واللوفر متحف شهير مماثل في باريس، فرنسا. (م)

غريب. كان الطقس بارداً إلى درجة غير معقولة، مع رياح يتحسَّس عبرها المرء الطرقَ الزجاجيَّ الحادَّ لفصل الشتاء. حذَّرونا من نقص الموارد، ومع أنَّ أسوأ المجاعات في الريف كانت قد انتهت بحلول ذلك الوقت، لكنَّ أكثر المتحمِّسين في فريقنا وجد الأمر قاسياً؛ حين التفكير في تلك الحشود المحنيَّة ظهورها، ألَّا يعترف بعلامات الحرمان والخوف الثقيل. نعم، آنسة ف. يمكنني أن أكون أميناً: روسيا ستالين كانت مكاناً رهيباً. لكنَّنا فهمنا أنَّ ما كان يحدث هنا كان مجرَّد بداية، كما ترين. العامل الزمنيُّ هو ما يجب عليك دائماً أن تضعيه في حسبانك إذا كنت ترغبين في فهمنا وفهم سياستنا. يمكن لنا أن نسامح الحاضر لأجل خاطر المستقبل. بعد ذلك، كانت مسألة اختيار؛ لـمَّا كنَّا نتجوَّل أمام المعالم الأثريَّة الجليلة لمدينة بطرسبرغ ذات الأقنية، أو نسقط في أسرَّتنا المحفَّرة في موسكو، أو نحدِّق مذهولين عبر النوافذ الرائعة لعربة السكَّة الحديديَّة ميلاً بعد ميل، إلى الحقول الفارغة في الطريق، إلى جنوب كييف، كنَّا نسمع بخيالنا، باتِّجاه الغرب، أصواتاً ضعيفة لكن مميَّزة على نحو لا يمكن تجاهله، قعقعة تدريب الجيوش. هتلر أو ستالين، هل يمكن أن تكون الحياة أكثر بساطة؟

وكان هناك الفنُّ. هنا، أخبرت نفسي، هنا، ولأوَّل مرة، منذ بداية النهضة الإيطاليَّة، أصبح الفنُّ بيئة عامَّة، ومتاحاً للجميع، مصباحاً لتنوير حتَّى أكثر الأحياء وضاعة. بالفنِّ، لا ضرورة لإخبارِكِ، أقصد فنَّ الماضي: الواقعيَّة الاشتراكيَّة تغاضيت عنها بصمت لبق. (قول مأثور: الفنُّ المبتذل هو بالنسبة إلى الفنِّ مثل الفيزياء بالنسبة إلى الرياضيَّات -علمها التطبيقيُّ). إنَّما هل يمكنكِ تخيُّل إثارتي من الاحتمالات التي بدت مفتوحة أمامي في روسيا؟ حُرِّر الفنُّ لأجل العامَّة -بوسان لأجل البروليتاريا! هنا تمَّ بناء مجتمع

من شأنه أن يطبِّق على أعماله قواعدَ النظام والتناغم التي يعمل بها الفنُّ؛ مجتمع لن يكون فيه الفنَّان هاوياً للفنون أو رومانسيّاً ثائراً، أو منبوذاً، أو طفيليّاً؛ مجتمع يكون فنُّه متجذِّراً على نحو أعمق في الحياة العاديَّة أكثر من أيِّ وقت مضى منذ العصور الوسطى. يا له من مشهد أن تكون لديك حساسيَّة مفرطة لليقينيَّات مثلي.

أتذكَّر نقاشاً حول هذا الموضوع جرى بيني أنا وبوي في الليلة السابقة لرسوِّنا في لينينغراد. أسمِّيه نقاشاً، لكنَّه كان حقّاً إحدى محاضرات بوي، فهو كان ثملاً وفي مزاج متغطرس وهو يشرح ما دعاه، على نحو مغرور، بنظريَّته في انحدار الفنِّ في ظلّ قيم البرجوازيَّة، المحاضرة التي كنت قد سمعتها مرَّات عدّة من قبل، وبطبيعة الحال، أظنُّها مسروقة، في جزء كبير منها، من أستاذ جامعيٍّ تشيكيٍّ مهاجر، في علم الجمال، كان بوي استخدمه لإلقاء كلمة في هيئة الإذاعة البريطانيَّة، لكن لأنَّ لهجته كانت مبهمة لم يبثَّ الحديث عبر الإذاعة. تكاد لا يمكن عدّها أصيلة، تتكوَّن أساساً من تعميمات كاسحة عن مجد عصر النهضة وأوهام الذات الإنسانيَّة لعصر التنوير، وكلُّ ذلك يُلخَّص في نهاية النظريَّة بأنَّ النظام الشموليّ وحده يمكن أن يتولَّى أمر رعاية الفنون. آمنت بذلك بالطبع -ولا أزال أفعل، على نحو مفاجئ كما قد يبدو- لكنَّني، تلك الليلة، كما أفترض، وبتحفيز من شراب الجن الهولنديِّ والهواء الشماليِّ القارس، فكَّرت في أنَّها مجرّد ثرثرة سخيفة، وقلت ذلك. حقّاً، لم أكن مستعدّاً لأن يُلقي عليّ محاضرات أناس مثل بوي بانيستر، ولا سيّما في موضوع الفنِّ. توقَّف، وحملق فيَّ. كان قد اتَّخذ تلك السحنة المنتفخة الضبابيَّة -شفتان أغلظ من ذي قبل، عينان جاحظتان ومتباعدتان قليلاً- تلك السحنة التي كان يلبسها حين يدمج بين الثمالة والمجادلة. كان جالساً

مصالباً ساقيه على طرف سريري، يرتدي قميصاً بكمَّين، وحمَّالة بنطاله مرخيَّة، وزرُّ بنطاله مفكوك، وقدماه كانتا عاريتين تكسوهما القذارة.

«تعدَّ على أرضك، هل فعلتُ ذلك؟»، قال، وكلُّه تقطيب وازدراء، «لك أيُّها العجوز الحسَّاس».

«أنت لا تعرف عمَّا تتكلّم، هذه هي المشكلة»، قلت.

كما هي الحال غالباً حينما يكون متأهّباً للقتال، فإنَّه لا يفعل ذلك. تراخى التجهُّم المحتقن بالدماء ثمّ تلاشى.

«أميركا»، قال بعد هنيهة من الوقت، وهو يومئ بضجر إلى نفسه. «أميركا هي العدوُّ الدمويُّ الحقيقيُّ. الفنُّ، الثقافة، كلُّ ذلك: لا شيء. أميركا سوف تكنس كلّ ذلك بعيداً إلى سلَّة المهملات، وسوف ترى».

قمر شاحب كبير -لاحظت أنَّه يحمل شبهاً صادماً مع رأسه الشاحب وهيئته المنتفخة- كان يدور على مهل في الفتحة عند كتفه، والريح كانت قد انحسرت، والليل كان هادئاً بأخفِّ النسائم. السماء في منتصف الليل كانت لا تزال مضيئة عند الأطراف. لطالما كنت سريع التأثّر بالرومانسيَّة على سطح المراكب.

«ماذا عن الألمان؟»، قلت، «ألا تعتقد أنَّهم يشكّلون تهديداً؟»

«أوه، الألمان»، هدر ثملاً باستهجان عظيم. «سيتحتَّم علينا محاربتهم، بالطبع. أوَّل الأمر، سيهزموننا، ثمَّ سيهزمهم الأميركيُّون، وسيكون هذا هو الحال. سنكون مجرَّد ولاية أميركيَّة أخرى».

«هذا ما كان يفكِّر فيه كويريل أيضاً».

ضرب الهواء بيد كبيرة متَّسخة.

«كويريل، تبّاً».

دوَّى صوت صفَّارة السفينة. كنَّا نقترب من اليابسة.

«وهناك روسيا، بالطبع»، قلت.

هزَّ برأسه، ببطء، وعلى نحو مهيب.

«حسناً، إنَّها الأمل الوحيد، أيُّها الشابُّ الهرم، أليس كذلك؟»، ينبغي أن أذكر أنَّه، ومنذ بداية الرحلة، أنا وبوي وجدنا نفسينا متباعدين. أعتقد أنَّ بوي كان منزعجاً لاكتشافه أنَّني سأرافقه في هذه الزيارة الخطرة. فقد كان يظنّ أنَّه الوحيد، ضمن دائرتنا، الذي وقع عليه الاختيار. حملق فيَّ الآن، متجهِّماً، مفعماً بالشكِّ، من تحت حاجبيه «ألا تعتقد أنَّها الأمل الوحيد؟»

«بالطبع».

صمتنا لوهلة، نتأمَّل في كأسَي الجن خاصتينا، ثمَّ قال بلهجة عاديَّة:

«هل لديك مَن تتَّصل به في موسكو؟»

«لا»، أجبت من فوري في حالة من التأهُّب، «ماذا تقصد؟»

هزَّ كتفيه من جديد.

«أوه، تساءَلت فحسب ما إذا كان هارتمان قد أعطاك اسماً، أو شيئاً ما، كما تعرف، اتِّصالاً. لا شيء من هذا القبيل؟»

«لا».

«ممم».

أطال التفكير على نحو كئيب. كان بوي يعشق زخارف العالم السرِّيّ، الأسماء المستعارة، صناديق البريد، وغيرها. بسبب نشأته على روايات بوشان وهنتي[64]، كان يرى حياته في المصطلحات المتوهِّجة لفيلم مثير قديم، وهو مندفع داخل الحبكة المنافية للمنطق، مستهتراً بالأخطار. في هذه الفانتازيا

---

(64) جون بوشان (1875-1940) روائيّ اسكتلنديّ، عيّن حاكماً على كندا. ألفريد هنتي (1832-1902) روائيّ بريطانيّ. كلاهما كتب روايات المغامرات التي تحكي عن الإمبراطوريّة البريطانيّة. (م)

كان دائماً البطل، بالطبع، ولم يكن قطُّ الوغد الذي تستأجره قوَّة أجنبيَّة.

لم يكن ينبغي أن يشعر بأنَّه مهمَل. وليس بزمن بعيد بعد وصولنا إلى العاصمة -السماء الرماديَّة بلون الدبَّابات، مساحات منزلقة مأهولة بتماثيل قبيحة غير متناسقة، ودائماً تلك الريح الجليدية الدائمة التي تقصُّ وجه المرء كأنَّما رُمي بحفنة من الزجاج المكسور- حين اختفى في فترة ما بعد الظهيرة، وعاد وقت العشاء وهو يبدو راضياً عن نفسه على نحو لا يُطاق. لـمَّا سألته أين كان ابتسم فحسب ابتسامة عريضة وربَّت بإصبعه على أحد جانبي أنفه، وحدَّق برعب سعيد إلى صحنه وقال بصوت عالٍ:

«أيُّها المسيح! هل هذا للأكل، أو أنَّه أُكل بطبيعة الحال؟»

جاء دوري لأتميَّز. كان ذلك في ليلتنا الأخيرة في موسكو. وكنت أمشي عائداً إلى الفندق بعد أن كنت في قصر الكرملين معظم النهار. وكما هي الحال دائماً بعد قضاء فترة طويلة بين اللَّوحات (أو ساعة في السرير مع بوي) شعرت بالدوار والترنُّح. في البداية، لم أنتبه للسيَّارة التي كانت تتحرَّك إلى جانبي متمهِّلة كما سرعة مشيي نفسها، وتحدث ضجّة. (بالفعل هذا هو نوع الأشياء التي يقومون بها؛ أظنُّهم تعلَّموا ذلك من أفلام هوليود التي كانوا مولعين بها). ومع استمرار تحرُّك السيَّارة، فُتح الباب، وخطا شابٌّ طويل، نحيف، يغطِّيه معطف جلديّ طوله إلى رسغ القدم مشدود بإحكام عليه، برشاقة إلى الرصيف واقترب منِّي بسرعة بنوع من المسير العسكريِّ مع السلاح، هبط عقباه بعنف على الرصيف حتّى بدوا كأنَّهما سيقدحان شرراً بالحجر. كان يرتدي قبَّعة ناعمة وقفّازين جلديَّين أسودين، ولديه وجه ضيِّق قاس، لكنَّ عينيه كانتا واسعتين ولطيفتين بلون كهرمانيّ، جعلتاني أفكِّر، على نحو مثير للتعارض، في نظرة زوجة أبي الدافئة التوَّاقة. كان ثمَّة

وخز من الخوف بطيء ينتشر مرتفعاً قاعدة عمودي الفقريّ. خاطبني بصوت أجشّ -كلُّ الروس يبدون مثل السكارى بالنسبة إليَّ- وأنا بدأت على نحو مضطرب احتجُّ بأنّي لم أفهم لغته. إنّما بعد ذلك أدركت أنَّه يتكلَّم بالإنكليزيَّة، أو بلغة قريبة إليها. سألني بأدب بالغ أن أصحبه. كانت برفقته سيَّارة. أشار إلى سيَّارة أوشكت أن تتوقَّف، والمحرِّك لا يزال يدور، وقفت تهدر مثل حصان هائج.

«هذا هو فندقي»، قلت بصوت مرتفع مضحك، «أنا أقيم هنا»، وأشرت إلى المدخل الرخاميِّ، حيث يقف البوَّاب، الرجل الثقيل ذو اللحية الخفيفة ورداء العمل البنّيّ المتَّسخ، يراقبنا مبتهجاً. لا أعرف أيَّ نوعٍ من الملاذ كنت أدَّعيه. «جواز سفري في غرفتي»، قلت. بدا كلامي كأنِّي أقرأ من كتاب تفسير العبارات، «يمكنني إحضاره إذا رغبت في ذلك».

ضحك الرجل ذو المعطف الجلديِّ. الآن، ينبغي لي قول شيء بخصوص هذه الضحكة التي كانت تخصُّ طبقة الموظفين السوفييت، وكانت سائدة بالخصوص في الأوساط الأمنيَّة. تتباين من حمحمة منزوعة مختصرة كتلك لدى رجل المعطف الجلديِّ، إلى صفير أوكورديون، يطلقها أولاء في المناصب العليا، لكن جوهريّاً كانت هي نفسها أينما يسمعها أحدنا. لم تكن الزمجرة الكئيبة لرجل الغستابو، ولا القوقأة المتلئة لمتألِّم صينيّ. كان فيها ثمَّة مرح حقيقيٌّ وإن كان فيها شيء من البرود، كما يمكن للمرء أن يقول، نوع من البهجة اللطيفة؛ هو ذا شخص آخر، كما يقال، مغفَّل مسكين آخر يظنُّ أنَّه يتمتَّع بوزن في العالم. العنصر الرئيس لهذه الضحكة، في أيِّ حال، كان نوعاً من الضجر. مَن كان يضحك كان أصلاً قد رأى كلَّ شيء، كلَّ شكل من التهديد والترغيب، كلَّ محاولة فاشلة للتزلُّف والمداهنة؛ كان قد

شاهدها، ثمَّ شاهد حالات الإذلال، والدموع، وسمع صرخات طلب الرحمة والكعوب تقعقع إلى الخلف فوق البلاطات وأبواب الزنزانات تُغلق. أنا أبالغ. أقصد أنا أبالغ في بصيرتي. بإدراك متأخِّر، أنا قادر على تفكيك هذه الضحكة إلى أجزائها.

كانت السيَّارة شيئاً شامخاً قبيحاً أسود. شكلها يشبه أحد تلك الأرغفة التي كانت تدعى، أيَّام طفولتي، بالفطائر، بسقف مقبَّب ومقدِّمة طويلة ومبعوجة. السائق، الذي كاد لا يبدو أكبر من صبيّ، لم يلتفت لينظر إليَّ، بل حرَّر الفرامل قبل صعودي بلحظة، وهكذا رُميت على المقاعد المنجَّدة، رأسي الملتوي وقلبي يرتعشان خوفاً في زاوية سجنه، ونحن نشقُّ طريقنا على طول الجادَّة العريضة بسرعة بطيئة لكن طائشة. خلع ذو المعطف الجلديِّ قبَّعته، وحملها باحتشام في حضنه. شعره القصير الجميل كان مرطّباً بالعرق، بحيث ظهرت عبره فروة رأسه الورديَّة، وكانت قد تحوَّلت بسبب قاعدة القبَّعة إلى شكل مدبَّب محبَّب. قليل من صابون الحلاقة الجافِّ المرقَّط بقطعة من القشِّ كان يتدلَّى من تحت شحمة أذنه اليسرى. ارتفعت المباني في زجاج السيَّارة الأماميِّ، ضخمة، بيضاء، تتوعَّد كما رأيتها، ثمَّ انهارت ببطء خلفنا.

«أين تأخذني؟»، قلتُ.

من المحتمل أنَّني لم أقل شيئاً. كان ذو المعطف الجلديِّ يجلس مستقيماً، يشاهد المشهد الذي يمرُّ أمامه باهتمام، كأنَّه كان هو الضيف ولست أنا. ملت إلى الخلف، على المقعد -كان التنجيد ينضح برائحة عرق ودخان سجائر وشيء ما يشبه رائحة البول- وطويت ذراعي. سيطر عليَّ هدوء حذر. بدوت كأنَّني أطفو، مدعوماً بشكل ما بحركة السيَّارة إلى الأمام، مثل عصفور معلَّق بعمود هوائيٍّ دافئ. أتمنَّى لو أصدِّق أنَّ هذي كانت علامة شجاعة

أخلاقيَّة، لكن أكثر ما بدت عليه كان عدم المبالاة. أو هل عدم المبالاة اسم آخر للشجاعة؟ أخيراً خرجنا عن الطريق، وعبرنا ساحة مرصوفة، صارت العجلات تبقبق وتصرصر، وأنا رأيت القباب بصليَّة الشكل تتلألأ في الشفق الرماديِّ، وأدركت برعشة استهلاليَّة غير متوقَّعة أنَّني أُعدت إلى الكرملين.

إذاً لم يكن إلى معرض الفنِّ. توجَّهنا إلى نقطة توقّف مائلة في أحد الأفنية، وفي حين واصل السائق الولد -الذي ربَّما كان رجلاً صغيراً- الجلوس وظهره مع مؤخِّرة رأسه مثبَّتان بإحكام باتِّجاهي، قفز ذو المعطف الجلديِّ خارجاً وأسرع إلى جهتي، بركض مائل، وسحب مقبض الباب لفتحه حتَّى قبل أن أتمكَّن من إيجاد المقبض بنفسي. خرجت بهدوء، وأنا أشعر تقريباً كأنَّني عجوز، ولم أعد سيِّدة مهيبة نبيلة تصل بسيَّارة الأجرة إلى آسكوت. على الفور، كما لو أنَّ لمسة قدمي على الحصى كانت قد أدارت نابضاً خفيّاً، فُتحت مجموعة من الأبواب المزدوجة أمامي، ووجدت نفسي أرمش بعينيّ أمام ضوء كهربائيّ انعكس من قطعة مستطيلة الشكل تعبيريَّة تمَّ لصقها على السطح. تردَّدت، وأدرت رأسي، لا أعرف لماذا -ربَّما في بحث مستسلم أخير عن الهرب- ونظرت إلى الأعلى، متجاوزاً الجدران العالية ذات النوافذ الداكنة في المباني المحيطة التي بدت تميل عند قممها إلى الداخل، ورأيت السماء، رقيقة، شاحبة، وعميقة جدّاً، حيث وقف نجم وحيد بلّوريّ، مثل نجم على بطاقة عيد الميلاد، مثل نجم بيت لحم نفسه[65]، وطرفه الحادّ يرفرف فوق قبَّة بصليَّة، وفي تلك اللحظة أدركت مع صدمة حادَّة دقيقة أنَّني أوشك أن أخطو خارج حياة وأدخل في حياة أخرى. ثمَّ قال صوت أنيق بحرارة:

---

(65) نجم عيد الميلاد. حسب التقليد المسيحيّ هو نجم قيل إنّه كشف مكان ولادة المسيح للمجوس الثلاثة، وقادهم لاحقاً إلى بيت لحم في فلسطين، ويعدّ المسيحيّون النجم آية معجزة من الله كعلامة على ولادة المسيح. (م)

«بروفيسور ماسكل، من فضلك!»، وأنا التفتُّ لأجد رجلاً قصيراً أصلع وسيماً يرتدي بدلة من ثلاث قطع، غير متناسقة مع جسمه، ومشدودة بإحكام. اقترب منّي من جهة المدخل وكلتا يديه الصغيرتين القصيرتين ممدودتان. كان نسخة مطابقة لمارتن هايدغر(66) أكبر عمراً، مع لطخة شارب وابتسامة لطيفة ودود على نحو شرير، وعينين سوداوين صغيرتين تلمعان مثل رخام. لم يرفع تَيْن العينين عن عينيَّ، تلمّس يدي وضغط عليها بحماس بين يديه، «مرحباً بك، رفيق، مرحباً بك»، قال وصوت نفسه مسموع، «مرحباً بك في الكرملين!»، قادني إلى الداخل، وشعرت بنمَل في منتصف ظهري كما لو أنَّ ذاك النجم سقط من السماء وطعنني بين شفرتي كتفي.

ممرّات متعفنة، إضاءة باهتة، مع وجود شخص واقف عند كلِّ مدخل -موظَّفون ببدلات متهدِّلة، موظفون بسترات صوفيَّة فضفاضة، نساء في منتصف العمر بَدَون كسكرتيرات- الجميع يبتسم الابتسامة المزعجة نفسها الخاصَّة بهايدغر، ويومئون بإيماءات ترحيب صامتة وبإشارات التشجيع كما لو كنت ربحت جائزة وأنا في طريقي لتسلُّمها (كانت لديّ تجربة مماثلة بعد ذلك بسنين حين روفقت عبر القصر لأنحني أمام السيِّدة و. وسيفها). مشى هايدغر إلى جانبي، يمسك بذراعي فوق المرفق ويتمتم بسرعة في أذني. ومع أنَّ لغته الإنكليزيَّة كانت لا تشوبها شائبة -علامة أخرى على الشرّ- فإنَّ لكنته كانت ثقيلة جدّاً بحيث لم أفهم على نحو صحيح ما كان يقول، وبطبيعة الحال، كان أمراً شاقّاً الاستماع وأنا في هذي الحالة من الهياج والقلق. وصلنا إلى زوج آخر من الأبواب المزدوجة الطويلة - أدركت أنَّني

---

(66) فيلسوف ألمانيّ (1889-1976) ابتعد بالفلسفة الغربيّة عن الأسئلة الميتافيزيقيّة واللاهوتيّة باتّجاه الوجوديّة. (م)

كنت أهمهم بعصبيَّة بقطعة لموسورسكي[67] في رأسي- وذو المعطف الجلديِّ، الذي كان يتبختر بلا مبالاة وراءنا وقبَّعته بيده، تقدَّم بسرعة إلى الأمام، ومثل حارس مخدع الحريم، الكتفان والرأس للأسفل والذراعان كلاهما تبرزان صلبتين، دفع البابين ليفتحا على غرفة فسيحة، عالية السقف، مطليّة بالبنّيّ، تتدلّى منه ثريًّا فخمة، كانت عبارة عن محاكاة شنيعة للنجم الذي رأيته في الساحة. وقف أشخاص أقزام -أو هكذا بدوا- على أرضيَّة من الخشب المزخرف، يعتنون باضطراب بأكواب فارغة. وحين ظهورنا استدار الجميع، وللحظة بدوا كأنَّهم في لحظة استراحة قبيل التصفيق.

«أترى؟»، همس هايدغر في أذني، في فرحة انتصار كما لو أنَّ الغرفة وقاطنيها كانوا جميعاً عملَه الخاصّ وأنا كنت أشكُّ في سلطاته. «دعني أعرّفك إلى...»

في توالٍ سريع التقيت مفوَّضَ الثقافة السوفييتيَّة وزوجته، ورئيس بلديَّة مكان ما ينتهي بـ«أوفسك»، وقاضياً أبيض الشعر بملامح نبيلة بدا أنّي تذكَّرت اسمه من تقارير المحاكم العامَّة، وامرأة شابَّة بدينة وعابسة تحدَّثت إليها بضع دقائق بتأثير الانطباع بأنَّها كانت في مرتبة عالية في وزارة العلوم والتكنولوجيا، لكن اتَّضح أنَّها المترجم الرسميّ المعيَّنة لي في تلك الأمسية. أعطاني أحدهم كأس شمبانياورديَّة لزجة -«جورجيّة»، قالت زوجة المفوَّض الثقافيّ، وارتدت وجهاً حامضاً- كانت إشارة لملء الكؤوس. وفي حين دار الحضور في الأجواء مع زجاجاتهم مثل ممرِّض الإسعافات الأوليَّة، هدأت حدَّة التوتُّر، وانتفخت في المكان همهمة سعادة مريحة.

حديث. ملل. ألم في الفكِّ من الابتسام المتواصل. بدأت مترجمتي،

---

(67) موديست بيتروفيتش موسورسكي (1839-1881) مؤلّف موسيقيّ روسيّ، أحد الموسيقيّين الروس الخمسة الكبار الذين أسّسوا المدرسة القوميّة الروسيّة. (م)

الواقفة بقلق إلى جانبي، تتعرّق وهي تكافح مع الموضوع المترجَم، وتحشد ببسالة جملاً بدت مثل صناديق كبيرة عديدة صعبة الحمل. كانت تدخُّلاتها السريعة كإطلاق النار تشكِّل عائقاً بقدر ما كانت تساعد في الفهم: لا يمكنني أن أخلِّص نفسي من الإحساس بأنِّي مصاب برفيقة خشنة غير مرغوب فيها، توجّب عليَّ بسبب سلوكها أن أعتذر إلى أناس يجاهدون للحصول على كلمة من كلا الجانبين حين تبربر هي بسرعة. أنقذني منها، لوهلة، عملاق متواضع يرتدي نظَّارة بإطار قرنيٍّ، شدَّ بيد مربَّعة ذات شعر، على معصمي، وقادني إلى إحدى الزوايا، حيث نظر خلفه من فوق إحدى كتفيه، ثمَّ من فوق الكتف الأخرى، ليصل إلى جيب داخليّ -أيُّها الربُّ العزيز، ما الذي سيخرجه؟- ثمّ أخرج محفظة جلديَّة سمينة بالية، وسحب منها بتبجيل مجموعة من الصور الفوتوغرافيَّة مطويَّة الزوايا لزوجته وابنه الراشد، وأراني إيّاها، وانتظر في صمت يلهث بلطف بالعواطف، وأنا أبديت إعجابي بها. المرأة التي ترتدي فستاناً عليه رسوم حوَّلت وجهها بنصف استدارة عن الكاميرا في خجل، والشابُّ بشعر مجزوز، ذراعاه مطويَّان على صدره، كما لو كان مربوطاً بإحكام بسترة المجانين، يحدّق إلى العدسة بعبوس وحذر، ابن الثورة.

«لطيفان جدّاً»، قلت يائساً، وأومأت مثل دمية، «هل هما هنا الليلة، أسرتك؟»

هزَّ رأسه وهو يختنق بشهقته.

«ضاع»، قال بثقل، وهو يطعن بإصبع سمين على صورة الابن، «رحل».

لا أعتقد أنَّني كنت أريد معرفة قصده.

ثمَّ ظهر هايدغر بصمت عند كتفي من جديد -خطواته ناعمة، هايدغر- نُحِّيت الأحاديث التافهة جانباً، وأُخذتُ إلى الجانب الآخر من

الغرفة، حيث فُتح أحد الأبواب، وكنت أظنُّه جزءاً من اللوحة، وها هو ذا ممرٌّ آخر إضاءته ضعيفة، وفجأة شعرت بقلق عظيم وأنا أدرك بيقين لا جدال فيه أنَّه هو من سألتقيه. إنّما أنا مخطئ.

كان ثمَّة مكتب في نهاية الممرِّ، أو حجرة دراسة -مقعد كبير عليه مصباح مظلَّل بالأخضر، ورفٌّ من كتب لم يقرأها أحد قطّ، وجهاز تسجيل برقيَّات غير فعَّال مع أنَّ قيمته عالية، مثبَّت على قاعدة عند الزاوية- غرفة ينزلق إليها الرجل المهمُّ في الأفلام، تاركاً زوجته الناعمة لتسلِّي الضيوف في حين يجري مكالمة حيويَّة مهمَّة، ينتصب ببزَّته الحريريَّة، متجهِّماً، يدخِّن السجائر في الضوء القادم من الباب نصف المفتوح (نعم، اعتدت العودة إلى الأفلام كثيراً حين كانت بالأبيض والأسود؛ باتريك كان متحمِّساً للغاية، حتَّى إنَّه اشترك في مجلَّة تدعى بيكتشاغور[68]، إذا كنت أتذكَّر على نحو صحيح، كنت أقلِّب صفحاتها بسرعة على نحو ماكر). أعتقد أنَّ الغرفة كانت فارغة إلى أن تقدَّمت خطوات في الظلام لتكشف عن رجل صغير أصلع ممتلئ آخر ربَّما كان أخاً أكبر لهايدغر. كان يرتدي إحدى تلك البدلات المقلَّمة اللامعة التي يبدو أنَّ المسؤولين السوفييت صنعوها خصِّيصاً لهم، ونظَّارة، ولـمَّا انتبه إليهما، تناولها بسرعة وأدخلها في جيب سترته كأنَّها علامة مخزية لضعف وانحلال. لا بدَّ أنَّه كان رجلاً ذا مكانة مرموقة لأنَّني كنت أستطيع الشعور بهايدغر يرتجف على نحو ضعيف إلى جانبي في إثارة مسيطرة، مثل عدَّاء ينتظر صفّارة الانطلاق. مرَّة أخرى لا توجد تقديمات، الرفيق ذو البِزَّة المقلَّمة، لم يمدَّ يده للمصافحة، لكنَّه ابتسم، بنوع من الإيماء السريع، الابتسامةَ مفرطة الحماس التي تخبرني أنَّه لا يتكلَّم الإنكليزيَّة. ثمَّ قدَّم،

---

(68) *Picturegoer* مجلّة متخصّصة بشؤون السينما وأخبارها، كانت تُنشر في بريطانيا بين عامي 1911 و1960. (م)

بصوت متموِّج وسريع، خطبة طويلة، منمّقة بإسهاب كما أعتقد. لاحظت من جديد كيف أنَّ الروس، حينما يتكلَّمون، لا يبدون فحسب ثملين، بل في الوقت نفسه يبدون كأنَّهم يتلمَّظون بطاطا حارَّة في أفواههم. هذا صحيح أيضاً بالنسبة للعمَّال في ذلك الجزء من إيرلندا حيث نشأت؛ للحظة مجنونة أتساءل ما إذا كنت قد لاحظتُ وقتها أنّ ذلك التطابق -الذي بدا لي مثيراً للاهتمام- ربَّما يقدِّمه كمثال عن التضامن الطبقيِّ الجوهريّ الذي يمتدُّ من جداول آنتريم إلى منحدرات الأورال. لـمّا أنهى خطبته، بمقطع لفظيٍّ متكرِّر، قام ذو البزَّة المقلَّمة بانحناءة صغيرة متيبِّسة وخطا خطوة واحدة إلى الوراء على نحو متعجرف مثل تلميذ نجم في يوم الخطبة المدرسيَّة. تبع ذلك صمت مروِّع. قوقأت معدتي وصالت، صرَّ حذاء هايدغر. ابتسم ذو البزَّة المقلَّمة، مع حاجبين مرفوعين، وأومأ من جديد بنفاد صبر. أدركت في النهاية أنَّه ينتظر إجابة.

«آه»، قلت متلعثماً، «نعم، حسناً، أوه». ثمَّ صمت. «أنا-»، صوتي شديد النبرة؛ ضبطته إلى صوت جهير (باريتون) هادر، «أنا فخور للغاية، ويشرّفني أن أكون هنا، في هذا المكان التاريخيِّ، موضع الكثير من آمالنا. آمال كثيرين منَّا»، أنا على ما يرام، بدأت أسترخي، «الكرملين-»

هنا أسكتني هايدغر حين وضع يده على ذراعي وضغط عليها ليس على نحو غير ودِّي لكن بالتأكيد كان تحذيريّاً. قال شيئاً بالروسيَّة، بدا كما لو كان أثار حفيظة ذي البزَّة المقلَّمة، وعلى الرغم من ذلك ذهب الأخير إلى المكتب، ومن درجه أخرج زجاجة فودكا وثلاث كؤوس صغيرة، صفَّها على سطح المكتب، وبعناية فائقة ملأها حتَّى الحافَّة. غامرت بارتشاف رشفة، وارتعشت حين انزلقت النار الباردة الفضِّية إلى مريئي. الروسيَّان، مع ذلك،

أصدرا نوعاً من الصراخ، وبانسجام شربا جرعتيهما بسرعة مع تحريك سريع للرأسين، وسحق لأوتار رقبتيهما. في الجولة الثالثة استدار هايدغر نحوي، مع ابتسامة شريرة، وصرخ عالياً «الملك جورج ستَّة!»، وأنا اختنقت بشرابي، واحتجت إلى من يضرب ظهري. وصلت المقابلة إلى نهايتها. أُزيحت الفودكا جانباً ومعها الكؤوس غير المغسولة، وذو البزَّة المقلَّمة انحنى لي من جديد، وتراجع إلى الخلف خارج مرمى الضوء كأنَّه يمشي على عجلات. أخذ هايدغر ذراعي من جديد ودفعني نحو الباب، وكان يمشي بسرعة قريباً منّي حتَّى إنَّ أنفاسه المخمورة كانت تداعب خدِّي. القاعة الكبرى خالية تحت الثريَّا المتوعِّدة، ليس ثمَّة من أثر للحفل خلا الرائحة اللذيذة التي تعقب شرب الشمبانيا. بدا هايدغر ممتنّاً، سواء لنجاح الحدث أم للدقَّة التي انتهى إليها الأمر كلّه، لا أعرف. مشينا عائدين على طول الممرِّ ذي الرائحة الرطبة إلى الباب الأماميِّ. أخبرني بهمس متحمِّس عن زيارة قام بها مرَّة إلى مانشستر. «جميلة، يا لها من مدينة جميلة، بناء تجارة الذُرة! بناء التجارة الحرَّة! رائع!». انتظرَنا ذو المعطف الجلديِّ عند الباب، متهدلاً في معطفه الطويل ولا يزال يمسك بقبَّعته. هايدغر، لا تزال أفكاره في مكان آخر، صافحني، ابتسم، انحنى، -بالتأكيد أنا مخطئ- نقر بعقبي حذائه، ودفعني خارجاً إلى داخل الليل اللامع، حيث نجمي الوحيد، فألي، كان قد بهت ضوؤه داخل العدد الذي لا يحصى من زملائه.

*

كانت رحلة العودة شأناً أكثر مرحاً من رحلة خروجنا من بريطانيا. لم تستهلَّ على نحو مبشِّر: نُقلنا جوّاً إلى لينينغراد بوساطة النقل العسكريِّ، ثمّ

ذهبنا بالقطار إلى هيلسنكي. عبقت فنلندا برائحة التحفُّظ وأشجار التَّنُّوب. شعرت بالتعاسة. انضممنا إلى سفينة سياحيَّة إنكليزيَّة كانت تزور موانئ البلطيق، وعلى سطح السفينة التقينا بالقليل من المعارف من لندن، بمن فيهم الأختان لايدون، الطائشتان كما هما دائماً، بهالة الفسوق التي تسمهما وشككت دائماً في أنَّهما لا تستحقَّانها حقّاً. كانت هناك فرقة جاز على متن السفينة، وفي الأمسيات، بعد العشاء، كنَّا نرقص في صالة الكوكتيل، وسيلفيا لايدون تضع يدها الباردة على يدي ثمَّ تضغط النقاط الحادَّة الصغيرة لصدرها على مقدِّمة قميصي، ولليلة أو ليلتين بدا أنَّ شيئاً ما سيحصل لها، لكنَّ شيئاً لم يحصل. في أثناء النهار كان نبيلا كمبردج المتشبّثان على نحو حصريٍّ بشراكة بعضهما بعضاً في أثناء الرحلة على الرّغم من الاختلافات الأكاديميَّة العميقة -شيء يتعلَّق بمفهوم هيغل عن المطلق- قد مسحا سطح السفينة، في كلِّ المناخات، وهما الموسومان بغليونيهما ووشاحيهما الصوفيّين، وفي حين كان بوي يجلس في البار يتحرَّش بالنادلات، ويجادل في السياسة اللورد بيلفوار الصغير الذي كان أقوى انطباع له عن روسيا هو شعور واضح بظلال المقصلة، وما نتج عنه من هبوط في حماسه للقضيَّة. هذا ما وضع بوي في مأزق؛ عادةً ما كان يواجه أيَّ إشارة إلى الارتداد بعاصفة من الجدال والمنازعة، لكن منذ تلقّي نصيحة فيليكس هارتمان، كان مفترضاً به، هو نفسه، أن يظهر علامة خيبة أمل، تحرّر من وهم النظام السوفييتيّ. ووجب عليه أن يقوم بلعبة متقنة من الإخفاء اللفظيِّ، والإجهاد كان بادياً عليه.

«ماذا بحقِّ الجحيم يدِّعي بانيستر؟»، أراد آرتشي فليتشر أن يعرف، ووجهه الورديُّ الصغير مقروص بالغضب.

«إنَّها الصدمة»، قلت، «هل تعلم ما يقولون: لا ينبغي لك على الإطلاق

أن توقظ مسرنَماً».

«ماذا؟ ماذا يعني ذلك بحقِّ الجحيم؟»، لم يحبِّني آرتشي يوماً.

«لقد انتهى الحلم بالنسبة إليه. لقد رأى المستقبل، وليس ناجحاً. ألا تشعر بذلك أيضاً؟»

«كلّا، حسناً لا أشعر بذلك».

«حسناً»، مع إظهار أسفٍ سائم، «أنا أشعر بذلك».

رمقني آرتشي بنظرة غاضبة ومشى مغادراً. بوي، الذي كان يتعرَّق يائساً، غمز لي على نحو بائس باتِّجاه كتف بيلفوار الصغير.

لم أكتشف قطُّ هويَّة هايدغر أو أخيه الكبير. وبوي لم يكن مفيداً. كنت افترضت أنَّه، هو أيضاً، في فترة ما بعد الظهر الضائعة، كان قد دنا منه ذو المعطف الجلديِّ وأخذه إلى مقابلتهما، لكنَّه أنكر ذلك («أوه لا أيُّها الشابّ الهرم»، قال مع ابتسامة متكلّفة، «أنا واثق من أنَّ الذين تحدَّثتُ إليهم هم في مراكز أعلى بكثير»). سنة بعد سنة عمدت إلى مسح صور الصحف لأعضاء المكتب السياسيِّ في الحزب الشيوعيِّ وهم على شرفات مكاتبهم في استعراضات يوم العمَّال، لكن عبثاً. أعطتني فراغات بعينها على طول الرؤوس الجاثمة، والأيدي التي تلوِّح بلطف، لحظة صمت: هل كان ذو البزَّة المقلَّمة يقف هناك، قبل أن يكنسوه خارجاً بسرعة؟ حتَّى إنّني انتهزت الفرصة، بعد الحرب، وحضرت واحداً أو اثنين من حفلات الاستقبال المملَّة والخانقة في وزارة الخارجيَّة أو في القصر، من أجل زيارة الوفود السوفييتيَّة، على أمل رؤية رأس مألوف، أصبح أصلع الآن، أو شارب منقَّط بالرماديّ مثل فرشاة الأسنان، دون جدوى. اختفى هذان الشخصان كما لو أنَّهما كانا استُحضرا إلى الوجود لمجرَّد تولِّي القيام باحتفاليَّة تجنيدي في الاستخبارات،

وبعد ذلك تمَّ التخلّص منهما، بصمت وكفاءة. سألت فيليكس هارتمان عنهما، لكنَّه هزَّ كتفيه فحسب؛ كان فيليكس يشعر بطبيعة الحال بالنسيم على وجهه. كلَّما كنت أفكِّر في هذين الرجلين الغامضين، في السنوات التي كنت فيها فعّالاً في الوكالة، كنت أعاني من ارتعاشة اعتقال خفيفة، مثل صفعة الهواء الباهتة التي تنشأ في الهواء بتأثير انفجار بعيد لا يسمع صوته.

كنت سعيداً في سرِّي، كما كان لورد بيلفوار، لترك روسيا وراءنا، على الرغم من كآبتي لتفكيري في أنِّي لن أرى أبداً من جديد أعمال بوسان في الإرميتاج أو أعمال سيزان في متحف بوشكين -أو بالتأكيد تلك الأيقونة الغامضة، التي كانت في وقت من الأوقات مؤثِّرة ورزينة، تتوهَّج بغموض في أعماق كنيسة صغيرة كنت أخفيتها فيها لمدَّة نصف ساعة حين تمكَّنت من الانزلاق بعيداً عن دليلنا السياحيِّ في صباح بهيج مضاء بالشمس عند مفترق طرق وسط حقول الذرة الشاسعة الجرداء القاحلة في مكان ما جنوب موسكو. السفينة البيضاء الصغيرة التي ركبناها من هلسنكي، ببريق الجاز خاصَّتها، وقرع الكؤوس، وضحكات الفتيات لايدون الطائشة غير المبالية، كانت بمنزلة حجرة انتظار عالَمٍ عرفت في قلبي أنَّني لن أتخلَّى عنه أبداً. لقد أدركت أنَّ روسيا كانت انتهت؛ وما بدا أنَّه بداية كان نهاية حقّاً، كسهرة تبدو كحفل. أوه، على الأرجح، قلت لنفسي من المحتمل أن تنجح الثورة، ربَّما خُلقت لتنجح -تذكَّرت ضحكة ذي المعطف الجلديّ المتجهِّمة- لكن على الرغم من ذلك، كانت البلاد محكوماً عليها بالفشل. لقد عانت من أحداث تاريخيَّة كثيرة. في إحدى الأمسيات، في صالة السفينة، توقَّفت لأنظر بخمول إلى خريطة مؤطَّرة لأوروبا معلَّقة على الحائط، وفكَّرت في أنَّ الاتحاد السوفييتيّ بدا لا يشبه شيئاً سوى كلب كبير عجوز يحتضر ورأسه متدلّ،

يتطلَّع نحو الغرب، وبكل لعابه السائل ومخاطه الراشح ينبح نباحه الأخير.
كان بوي مصدوماً، لكن لـمَّا فكّرت في روسيا عرفت ذلك، وعلى العكس منه، لم أكن مضطرّاً إلى أن أدَّعي التحرُّر من الوهم. سوف تضحكين، آنسة فانديلور، (إذا كنت تضحكين حقّاً، فأنا لم أسمعك قطُّ تضحكين)، لكن ما اكتشفته، ونحن نشقُّ طريقنا عبر موجات شتاء البلطيق، هو أنَّني لم أكن -كما كان حال بوي، بالتأكيد، وحال الجميع- أكثر من وطنيٍّ قديم الطراز.

عدت من روسيا إلى خريف إنكليزيٍّ مفعم بالدخان، واتَّجهت مباشرة إلى كمبردج. كان الطقس في منطقة فينلاندز كئيباً ورطباً؛ مطر غزير هطل فوق المدينة أشبه باندفاع سلاسل فضّيَّة. وارتدت غرفتي ذات الجدران البيض مظهراً متجهّماً رافضاً، متجاهلة إيَّاي كما لو كانت تعرف أين سافرت، وما أسفرت عنه زيارتي. لطالما كنت أحبُّ هذا الوقت من العام، بإحساسه بالترقُّب، طيِّعاً أكثر بكثير من تحذيرات الربيع الزائفة، لكنَّ احتمال قدوم الشتاء الآن كان باعثاً على الكآبة على نحو مفاجئ. كنت قد أنهيت مقالتي الطويلة عن لوحات بوسان في ويندسور، ولم أكن أخفي عن نفسي حقيقة أنَّها كانت مقالة فقيرة وجافّة. غالباً ما أسأل نفسي عمَّا إذا كان قراري متابعة حياة العلم -إذا كانت كلمة قرار مناسبة- نتيجةَ فقر حقيقيٍّ في الروح، أو ما إذا كان الجفاف الذي أشكُّ فيه أحياناً هو العلامة المميِّزة فعلاً على أنَّ حياتي العلميَّة كانت نتيجة حتميَّة لهذا القرار. ما أقصد قوله هو، هل كان السعي وراء الدقَّة أو ما أسمِّيه المعرفة الصحيحة للأشياء قد أخمد نيران الشغف في داخلي؟ نيران الشغف: هكذا يبدو صوت الرومانسيَّة المدلَّلة.

أفترض أنّ ذاك هو ما قصدته حين سألتني الآنسة فانديلور، أوَّل الأمر، لمَ أصبحت جاسوساً، وأنا أجبت، قبل أن أعطي نفسي وقتاً للتفكير، إنَّ هذا كان في الأساس دافعاً تافهاً؛ هرب من السأم وبحث عن التسلية. حياة الإثارة والذهول، هي ما كنت أتوق إليه دائماً. مع ذلك لم أنجح في تعريف ما كان

ربّما يشكِّل فِعلاً بالنسبة إليَّ حتَّى ظهر فيليكس هارتمان وحلَّ المسألة لي.

«فكِّر فيها»، قال بأسلوب سلس، «كشكل آخر من أشكال العمل الأكاديميِّ. أنت متدرِّب على مجال البحث؛ حسناً، ابحث لأجلنا».

كنَّا في حانة ذا فوكس في راوندلي. وكان قد قاد سيَّارته من لندن في فترة ما بعد الظهر، ومرَّ عليَّ واصطحبني من غرفتي. لم أكن قد دعوته، بسبب مزيج من الخجل وعدم الثقة -عدم الثقة بنفسي. العالم الصغير الذي أحطت نفسي به -كتبي، مطبوعاتي، بونينغتون خاصَّتي، موت سينيكا خاصَّتي- كان بناءً رقيقاً، وأنا خشيت أنَّه ربَّما لن يتحمَّل تفحُّص فيليكس له دون التسبّب في أذيَّة له. كانت سيَّارته على نحو غير متوقَّع طرازاً فاخراً، منخفضة وأنيقة بإطارات شبكيَّة ومصابيح أماميَّة كرويَّة متألِّقة على نحو مقلق، فوق خدود من الكروم. ومع اقترابنا منها، انزلقت انعكاسات صورنا متقوِّسة تتموَّج وسط بقع شكَّلتها قطرات المطر. كان المقعد الخلفيُّ مترعاً بمعاطف المنك والفرو اللامع، مشرقة وشرِّيرة؛ بدت وهي مرميَّة هناك مثل وحش بنّيّ كبير شاحب اللون رُمي ميتاً؛ ثور التيبت ياك، أو غول الهيمالايا ياتي، أو أيّاً ما كان اسمه. شاهدني هارتمان أنظر إليها، وتنهَّد على نحو كئيب، وقال: «إنَّها لأجل العمل». جذبني مقعد السيَّارة إليه بقوَّة. كانت ثمَّة أنفاس عطور نسائيَّة دافئة؛ حياة هارتمان العاطفيَّة كانت سرّيّة بقدر سريَّة عمله في التجسُّس. قاد سيَّارته عبر الشوارع التي يلطِّخها المطر في سرعة أربعين ثابتة -كان ذلك يعدُّ سرعة زائدة وخطرة في تلك الأيَّام- ينزلق على الحصى، وكاد يدهس طالب تخرُّج يخصّني كان يقطع الطريق أمام كليَّة بيترهاوس. خارج المدينة كانت الحقول تتقهقر داخل الشفق المخضلِّ. فجأة، لـمّا نظرت إلى الخارج، إلى المطر، وحزم الشفق تتلاشى على جانبي أضواء

السيَّارة الأماميَّة الثابتة والقويَّة المنقِّبة أمامنا، ارتفعت في داخلي موجة من الحنين إلى الوطن، ونقعتني في حمَّام من الحزن عظيم، استمرَّ لثانية، ومن ثمَّ تناثرت الموجة بالسرعة نفسها التي تجمَّعت فيها. لـمّا وصلتني، في صباح اليوم التالي، برقيَّة تخبرني أنَّ والدي كان قد أصيب بأوَّل نوبة قلبيَّة في اليوم السابق، تساءلت مرتعشاً عمَّا إذا كان ما شعرت به من حنين بشكل ما هو تنبّؤ بكربه، وما إذا كانت فكرة إيرلندا والوطن تلك التي خطرت في بالي بلا دعوة هناك في الخارج على الطريق الرطب، جاءت في اللحظة نفسها التي أصيب فيها بالذبحة، وأصابت قلبي أيضاً بنوبة قصيرة (يا لي من شخص ذاتويٍّ[69] عنيد!)

في ذلك اليوم كان هارتمان في مزاج غريب، ابتهاج مضطرب مشوب بقلق -كنت تساءلت، في الفترة الأخيرة، مع ازدياد الحديث عن المخدِّرات، ما إذا كان مدمناً- وكان متعطِّشاً للحصول على تفاصيل رحلة حجِّي إلى روسيا. حاولت أن أبدو متحمِّساً، لكن يمكنني القول إنِّي أحبطته. في أثناء حديثي، أصبح مضطرباً أكثر فأكثر وهو يلعب بمقبض السرعة ويدقُّ بأصابعه على المقود. وصلنا إلى مفترق طرق حيث جرَّ السيَّارة إلى نقطة توقُّف مائلة، ثمَّ خرج منها وداس في منتصف الطريق، ووقف ينظر في جميع الاتِّجاهات، كما لو أنَّه كان في بحث يائس عن طريق للهرب، وقبضتا يديه في جيبَي معطفه، وشفتاه تتحرَّكان وقد بلَّلهما المطر الفضيُّ. وبسبب ساقه المعطوبة انحنى بزاوية طفيفة بحيث بدا كأنَّه يميل بكلا الجانبين مع الريح القويَّة. انتظرت واجساً، غير عارف ما أفعل تماماً. لـمَّا عاد جلس للحظة طويلة يحدِّق عبر الزجاج الأماميِّ. فجأة أصبح منهكاً وفارغاً. سال خطٌّ مزخرف من قطرات

---

(69) الذاتويّة هي فكرة فلسفيّة تقول إنّه لا وجود لشيء خلا الذات، أو لا وجود حقيقيّ إلا لعقل الفرد، وهي موقف معرفي يقول بأنّ المعرفة المتعلّقة بأيّ شيء خارج عقل الإنسان غير مؤكّدة. (م)

المطر، دقيق كما هي تخريمة الدانتيلا، بنعومة على كتفَي معطفه. تمكَّنت من شمّ رائحة الصوف المبلَّل. بدأ يبربر حول المخاطر التي كان يخوضها، والضغط الذي كان يرزح تحته، يتوقَّف بين حين وحين ويتنهَّد بغضب، ويحملق في المطر. هذا لم يكن يشبهه على الإطلاق.

«لا أستطيع أن أثق بأحد»، غمغم، «لا أحد».

«لا أعتقد أنّه ينبغي لك أن تخاف من أيٍّ منّا»، قلت بتلطُّف، «سواء من بوي، أم من ألاستير، أم من ليو، أم منّي».

تابع تحديقه خارجاً في الظلام العميق كأنَّه لم يسمعني، ثمَّ اهتاج.

«ماذا؟ لا، لا، أنا لا أقصدك» -أومأ- «أقصدهم هناك». فكَّرت في ذي المعطف الجلديّ، وسائقه المجهول، وتذكَّرت، مع رعشة لا يمكن تفسيرها تماماً، بقع صابون الحلاقة تحت شحمة أذن ذي المعطف الجلديّ. ضحك هارتمان ضحكة قصيرة بدت ككحَّة، وقال: «ربَّما ينبغي لي أن أنشقَّ. ما رأيك؟»، لم يبدُ الأمر نكتة على الإطلاق.

سافرنا بعد ذلك إلى راوندلي، وتوقَّفنا في ساحة القرية. كان الظلام دامساً حينها، والمصابيح تحت الأشجار لا تزال تتوهَّج في المطر الغزير، مثل شلال متدفِّق من زهور تنضح منها بذورها. حانة ذا فوكس في تلك الأيَّام -أتساءل إن كانت لا تزال موجودة؟- كانت مكاناً طويلاً، متمايلاً، مقوَّساً، مع حانة عامَّة ومطعم، وغرف علويَّة حيث الباعة المسافرون والأزواج غير الشرعيِّين يقيمون أحياناً. كانت الأسقف، وقد لطَّختها قرون من تدخين التبغ، قد أصبحت كشجيرة زهر العسل ناعمة على نحو رائع، ولونها أصفر بنّيّ. كانت هناك أسماك مثبَّتة في عبوات زجاجيَّة على الحائط، وجرو ثعلب محشوٌّ تحت أحد النواقيس. هارتمان، كما رأيت، وجد كلَّ شيء ساحراً على

نحو لا يقاوم؛ كان لديه ضعف تجاه الفنِّ الإنكليزيِّ الهابط الموجود هناك. صاحب الحانة، نوكيس، كان وحشاً ضخماً بذراعين لحميَّين، وشاربين عريضين متَّصلين مع السالفين، وجبين مجعَّد مثل حقل محروث على نحو سيِّئ؛ جعلني أفكِّر في أحد الملاكمين من أزمنة ريجنسي[70]، أحد أولاء الملاكمين الذين ربَّما كانوا نازلوا الشاعر لورد بايرون جولات عدَّة. كانت لديه زوجة صغيرة بغيضة تناكده أمام الملأ، وقيل إنَّه كان يضربها حينما يكونان وحدهما. استخدمنا المكان لسنين، حتَّى اندلعت الحرب، لأجل الاجتماعات وتبادل الرسائل السرّيَّة، حتَّى في إحدى المرّات لأجل المؤتمرات مع موظَّفي السفارة أو العملاء الزّوار، لكن نوكس في كلِّ مرَّة نجتمع فيه هناك كان يعاملنا كما لو أنَّه لم يرنا من قبل. أشكُّ في أنَّه، من الطريقة الساخرة التي كان يتفحّصنا بها، من وراء صفِّ صنابير البيرة خاصَّته، كان يعتقد أنَّنا تلك الحلقة التي كانت الصحف تسمِّيها في تلك الأيَّام «حلقة المثليِّين الجنسيِّين»؛ تبصُّرٌ في غير مكانه، نوعاً ما.

«لكن أخبرني ما المتوقَّع منّي أنا أن أفعل»، قلت لهارتمان حين استقرَّينا، ونحن نحمل شرابَي بيرة، على مقعدين عاليي الظهر في مواجهة بعضنا بعضاً على جانبي نار الكوك (الكوك: هو شيء آخر اختفى، وإذا حاولت، لا أزال أستطيع شمَّ رائحة الدخان، والشعور بوخز لاذع في الجزء الخلفيِّ من حنكي).

«تفعل؟»، قال وهو يرسم تعبيراً خبيثاً مسلِّياً؛ كان مزاجه السابق العنيف قد خمد، وعاد إلى مزاجه الرائق من جديد «لا تفعل أيَّ شيء، حقّاً». ارتشف جرعة بيرة، وبتلذُّذ لعق خطّ الرغوة عن شفته العلويَّة. شعره

---

(70) بداية القرن التاسع عشر في بريطانيا، تميّزت بأسلوب أدب وعمارة خاصّين. (م)

الدهنيُّ الأسود المزرقُّ كان قد مُشِّط إلى الوراء على نحو صارخ، فوق جبينه، معطياً إيَّاه مظهراً أنيقاً رقيقاً جذَّاباً لأحد الطيور الجارحة. كان يرتدي حذاءً مطَّاطيّاً فوق حذاء الرقص الأنيق خاصَّته. يحكى عنه أنَّه كان يرتدي شبكة شعر في السرير في أثناء نومه «قيمتك بالنسبة إلينا هي أنَّك في قلب المؤسَّسة الإنكليزيَّة-»

«هل أنا كذلك؟»

«-وبناء على المعلومات التي تزوِّدونا بها، أنت وبوي بانيستر والآخرون، سنكون قادرين على تشكيل صورة لقواعد السلطة في هذا البلد». كان يحبُّ هذا النوع من الشروحات، تحليل الأهداف والغايات، مواعظ في الاستراتيجيا؛ كلُّ جاسوس هو كاهن في جزء منه، وفي جزء آخر هو متحذلق. «إنَّ الأمر مثل -ماذا كان اسمها-؟»

«أحجية الصور المقطوعة؟»

«نعم!»، عبس، «كيف عرفت أنَّ هذا ما قصدته؟»

«أوه، مجرَّد تخمين».

ارتشفت بيرتي، لم أكن أشرب البيرة إلَّا حين أكون مع الرفاق -التضامن الطبقيُّ، وكلُّ تلك الأمور؛ كنت سيِّئاً بقدر سوء ألاستير، لكن بطريقتي. ثمَّة شيطان أحمر بقرنين صغيرُ لكنَّ تفاصيله مميَّزة كان يتوهَّج ويبتسم لي من قلب النار الحيَّة.

«لذا»، قلت، «سأكون مثل كاتب يوميَّات اجتماعيٍّ، أليس كذلك؟ جواب الكرملين لوليام هيكي».

جفل حين ذكر الكرملين، وألقى نظرة على البار، حيث كان نوكيس يقوم بتلميع أحد الأقداح ويصفِّر بصمت، شفتاه الكبيرتان المتغضِّنتان

دارتا إلى جانب واحد.

«أرجوك قل لي»، همس هارتمان، «من يكون ويليام هيكي؟»

«مزحة»، قلت بتعب، «مجرَّد مزحة. في الواقع ظننت أنَّه سيكون مطلوباً منِّي أن أفعل أكثر من تمرير ثرثرة حفل الكوكتيل. أين هو كتاب الرموز خاصَّتي، حبَّة السيانيد التي تخصّني -مزحة أخرى».

عبس، وقد أوشك أن يقول شيئاً ما، لكنَّه فكَّر في الأمر، وبدلاً من ذلك ابتسم ابتسامته الملتوية الأكثر جاذبيَّة، وهزَّ كتفيه على نحو مبالغ به.

«يجب على كلِّ شيء»، قال، «أن يتقدَّم بطيئاً جدّاً في عالم عملنا الغريب هذا. في فيينا ذات مرَّة كنت أتولَّى مهمّة مراقبة أحدهم لمدَّة عام -عام كامل! ثمَّ اتَّضح أنَّه كان الرجل الخطأ. هكذا كما ترى».

ضحكت، وهو ما لم يكن ينبغي لي أن أفعله، ورمقني بتلك النظرة الموبِّخة، ثمَّ بدأ يتكلَّم بجدِّية للغاية كيف أنّ الأرستقراطيّة الإنكليزيَّة كان قد خرقها المتعاطفون مع الفاشيَّة، ومرَّر لي قائمة بأسماء عدد من الناس كانت موسكو مهتمَّة بهم على نحو خاصّ. ألقيت نظرة إلى القائمة، ومنعت نفسي من الضحك من جديد.

«فيليكس»، قلت، «أولاء الناس لا أهميَّة لهم. إنَّهم رجعيُّون فحسب لا يختلفون عن غيرهم؛ ذوو أفكار غريبة؛ يلقون الخطب بعد حفلات العشاء».

هزَّ كتفه، ولم يقل شيئاً، وأشاح بنظره بعيداً. شعرت بكآبة مألوفة تحلُّ عليَّ. الجاسوسيَّة فيها شيء من الحلم. في عالم الجاسوس، كما في الأحلام، التضاريس هي دائماً غامضة. فأنت تضع قدمك على ما تبدو أنَّها أرض صلبة، فتنهار أمامك، فتدخل في نوعٍ من السقوط الحرِّ، فتنقلب رأساً على عقب ببطء وتمسك بأشياء هي نفسها تسقط. عدم الاستقرار هذا، الكمُّ الكبير

من الأشكال التي يتَّخذها العالم، هو الجاذبية والرعب في أن تكون جاسوساً. الجاذبيَّة لأنَّك وسط عدم الاستقرار هذا غير مطلوب منك على الإطلاق أن تكون نفسك؛ فأيّاً كان ما تفعله، فثمَّة بديل آخر، تقف إلى جانبه غير مرئيٍّ، تراقب، وتخمِّن، وتتذكَّر. هذه هي القوَّة السرّيّة للجاسوس، تختلف عن القوَّة التي تأمر الجيوش بالقتال في المعركة؛ إنَّها شخصيَّة تماماً؛ إنَّها القدرة على أن تكون أو لا تكون، أن تنفصل عن نفسك، أن تكون ذاتك وفي الوقت نفسه شخصاً آخر. المشكلة هي أنَّه إذا كنتُ دائماً نسختين على الأقلّ من نفسي، إذاً كل الآخرين يجب أن يكونوا أيضاً مزدوجي الإصدارات على نحو متشابه مع أنفسهم بهذه الطريقة المروِّعة الغامضة. وهكذا، على نحو ساخر كما يبدو، لم يكن مستحيلاً أنَّ الناس المدرجين على قائمة فيليكس ليسوا فحسب مضيفات المجتمع والمملّين من ذوي الأسماء المزدوجة الذين ظننت أنِّي أعرفهم، بل الحلقة الفعَّالة والعنيفة من الفاشيِّين المستعدِّين لانتزاع السلطة من الحكومة المنتخبة، وإعادة تعيين ملك متنازل عن عرشه على عرش مغطَّى بصليب معقوف. وهنا يكمن السحر، والخوف -ليس من المؤامرات والمعاهدات والخداعات الملكيَّة (لم أستطع قطّ أن آخذ الدوق أو تلك المرأة الرهيبة سيمبسون على محمل الجدِّ)، لكن من احتماليَّة أن لا شيء، لا شيء بالمطلق هو كما يبدو عليه.

«أصغِ، فيليكس»، قلت، «هل تقترح جادّاً أنَّه ينبغي لي أن أقضي وقتي في حضور ولائم العشاء والذهاب إلى حفلات نهاية الأسبوع المنزليَّة، بحيث أتمكَّن من العودة إليك بتقرير عمَّا سمعت فروتي ميتكالف تقوله لنانسي آستور عن صناعة الأسلحة الألمانيَّة؟ هل لديك أدنى فكرة عن المحادثات في تلك المناسبات؟»

تأمَّل في كأس البيرة التي تخصّه. امتدَّ ضوء من النار على فكّه مثل ندبة ورديَّة لامعة. ذاك المساء اكتست عيناه أثراً شرقيّاً على نحو مميَّز. أتساءل هل بدت عينايَ إيرلنديَّتين بالنسبة إليه؟

«لا، لا أعرف كيف تبدو مثل هذه المناسبات»، قال بعناد، «ليس من المرجّح أن تتمَّ دعوة تاجر الفراء من الحيِّ الشرقيِّ في لندن إلى كليفيدين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع».

«إنها كليفدين»، قلتُ بذهول، «تُلفظ كليفدين».

«شكراً لك».

ارتشفنا آخر جرعتين لنا من البيرة في صمت، أنا منزعج، وهارتمان مستاء. دخل عدد قليل من السكان المحلِّيِّين وجلسوا على نحو فظّ في الظلمة المحمرَّة، ورائحة الغنم تنبعث منهم وسط أدخنة الفحم. الهمهمة في وقت مبكِّر من المساء في المنازل العامَّة الإنكليزيَّة، ضاغطة ومرهقة للغاية، ومحترسة للغاية، ودائماً ما تحبطني. لا يعني هذا أنَّني أذهب إلى المنازل العامَّة في كثير من الأحيان في هذه الأيَّام. أتوق أحياناً إلى المرح الصاخب في الحانات أيَّام طفولتي. لـمَّا كنت صبيّاً في كاريكدرام غالباً ما كنت أغامر بالذهاب ليلاً إلى داخل آيريش تاون، وهي مساحة نصف فدان من أرض عليها أكواخ منتشرة على نحو فوضويٍّ خلف شاطئ البحر حيث كان الفقراء الكاثوليك يعيشون فيما يبدو لي في بؤس سعيد. كانت ثمَّة حانة في كلِّ زقاق، أبنية منخفضة من غرفة واحدة نوافذها الأماميَّة كانت مطليَّة في أعلاها بلون بنّيّ في شكل تخريمة، حيث كان يتألَّق على نحو غير واضح داخل الظلام ضوء زبديٌّ مثقل بالدخان بهيج وجذَّاب. كنت أتسلَّل إلى صالة مورفي أو حانة مالوني، وأقف خارج الباب المغلق وقلبي ينبض في حلقي -كان معروفاً

كحقيقة أنَّه إذا قبض الكاثوليكيُّون على صبيٍّ بروتستانتيّ فسوف يتم إخفاؤه، ودفنه حيّاً في قبر ضحل في التلال فوق البلدة- وأستمع إلى اللغط في الداخل، الضحك، والشتائم الصارخة وقصاصات الأغاني، في حين يرتفع قمر أبيض فوقي في مشنقته غير المرئيَّة، يطيّن حجارة الزقاق بلطخة توحي بإناء وسخ. كانت تلك الحانات تجعلني أفكّر في سفن شراعيَّة أكلها الطقس، انطلقت بسرعة في وجه بحر الليل، تهتُّز في مرح متمرِّد، طاقمها سكارى، والقبطان مقيَّد بالسلاسل، وأنا، صبيُّ القُمرة الشجاع، على استعداد لأن أغوص وسط العربدة وأستولي على صندوق البندقيَّة القديمة الموسكيت. آه، رومانسيَّة العوالم الوحشيَّة المحرَّمة!

«أخبِرني، فيكتور»، قال هارتمان، وأستطيع القول إنَّه، من لفظه اسمي على نحو لاهث مظهراً الأحرف الساكنة (فيك-توور)، قد أوشك أن يتحوّل إلى حياتي الشخصيَّة، «لمَ تفعل هذا؟»

تنهَّدت. كنت قد فكَّرت في أنَّه سيسأل ذلك عاجلاً أم آجلاً.

«فساد النظام»، قلت بمرح، «أجور عمّال المناجم، أطفال مصابون بالكساح، كما تعرف. دعني الآن أشتِر لك ويسكي فهذه البيرة كئيبة للغاية».

حمل كأسه باتِّجاه الضوء الخافت وتأمَّلها بتهيُّب.

«نعم»، قال. بتهدّج جنائزيٍّ، «لكنَّ هذا يذكِّرني بالوطن».

يا إلهي؛ كان بإمكاني سماع صوت آلة قانون مخفيّ. لـمّا رجعت بالويسكي نظر إليها بارتياب، ارتشف، وجفل؛ لا شكَّ في أنَّه كان يفضِّل براندي الخوخ، أو أيّاً ما كانوا يشربونه في ليالي الخريف الباردة على شواطئ بحيرة بالاتون[71]. شرب من جديد، كميّة أكبر هذه المرَّة، وجثم ملتفّاً على

---

(71) بحيرة مشهورة في هنغاريا. وهي أكبر بحيرة وسط أوروبّا وأحد مقاصد السيّاح. (م)

نفسه بشدَّة، المرفقان مضغوطان على أضلاعه، وقدماه التفَّتا حول بعضهما بأسلوب اللولب الفلِّيني مع قدم واحدة رفيعة مثبَّتة خلف العقب مثل زند بندقيَّة جاهز. إنَّهم حقّاً يحبُّون الدردشة المريحة، أولاء الجواسيس الدوليُّون.

«وأنت»، قلت، «لمَ تفعل هذا؟»

«إنكلترا ليست بلدي-»

«وليست بلدي أيضاً».

أومأ برأسه من جديد بسخط.

«لكنَّها وطنك»، قال وقد تصلَّب فكُّه، «إنَّها حيث تعيش، حيث يوجد أصدقاؤك. كمبردج، لندن...»، أطلق إيماءة كاسحة بكأسه، وانحرفت جرعة الويسكي، وفي أعماقها لمعت نار كبريتيَّة رائعة، «الوطن».

انزلاق مخفيٌّ آخر للأوتار. تنهَّدتُ.

«أنت تعاني من حنين إلى الوطن؟»

هزَّ رأسه.

«ليس لديَّ وطن».

«لا»، قلت، «أعتقد أن لا وطن لديك. كان ينبغي لي أن أفكِّر في أنَّ هذا يجعلك تشعر بأنَّك... حرٌّ تماماً؟»

مال إلى الوراء على ظهر المقعد، وغرق وجهه في الظلام.

«يعطينا بوي بانيستر معلومات يحصل عليها من والده»، قال.

«والد بوي؟ والد بوي ميت».

«زوج أمِّه إذاً».

«متقاعد بالتأكيد».

«لا تزال لديه اتِّصالات مع الأميراليَّة»، توقَّف، «هل...»، برقَّة، «هل

كنت لتفعل ذلك؟»

«أخون والدي؟ أشكُّ في أنَّ أسرار أسقفيَّة داون ودرومور ستكون ذات أهميَّة عظيمة لأسيادنا.»

«لكن، هل ستفعل؟»

الجزء الأعلى من جذعه ابتلعه الظلُّ، لذا كلّ ما رأيته كان ساقيه المطويَّتين وإحدى يديه مرتاحة على فخذه مع سيجارة مقصوصة بين إبهامه وإصبعه الوسطى. أخذ رشفة من الويسكي فقعقعت حافة الكأس كأنَّها صفيح على أسنانه.

«بالطبع سأفعل»، قلت، «إذا كان ذلك ضروريّاً، ألن تفعل أنت ذلك؟»

لمّا غادرنا الحانة كان المطر قد توقَّف. والليل كان يعجُّ بالريح والمزاج السيِّئ، والظلام الفسيح الرطب جوَّفته الريح. أوراق شجر جمّيز مبلولة قفزت بوثبات غير منسجمة في الطريق مثل ضفادع مصابة. رفع هارتمان ياقة قميصه وارتجف «آه، هذا الطقس!» كان في طريق عودته إلى لندن ليستقلَّ القطار إلى باريس. هو يحبُّ القطارات. تخيَّلته على متن أحد القطارات المرفَّهة في يده مسدَّس وفي سريره فتاة. اندفعت خطواتنا على الرصيف، وفي حين كنَّا نمشي من ضوء مصباح إلى ضوء مصباح آخر كانت ظلالنا تقف على عجل لمقابلتنا ثمَّ تسقط على ظهورنا وراءنا.

«فيليكس»، قلت، «أنا لست مغامراً على الإطلاق، كما تعرف؛ يجب ألّا تتوقَّع أعمالاً بطوليَّة».

وصلنا إلى السيَّارة. اهتزَّت إحدى الشجرات المتدليَّة هزّة رديئة فنثرت عليَّ رشَّات طائشة من قطرات المطر، فطقطقت على إطار قبَّعتي.

فجأة رأيت الطريق الخلفيَّ في كاريكدرام، وتذكَّرت نفسي وأنا أمشي

مع والدي في إحدى ليالي نوفمبر الرطبة، مثل هذه الليلة، حين كنت صبيّاً: الضوء البخاريّ للمصابيح الغازيَّة المتقطِّعة إضاءتها، والأجزاء السفليَّة للأشجار الكئيبة تتخبَّط فيما بدا كرباً ألمَّ بها، والتورُّم المفاجئ الذي لا يمكن تفسيره للحماسة في داخلي التي جعلتني أرغب في الصراخ في حزن منتشٍ، أتوق إلى شيء لا اسم له، أفترض أنَّه لا بدَّ كان المستقبل.

«في حقيقة الأمر، ثمَّة شيء نريدك أن تفعله»، قال هارتمان.

كنَّا نقف إلى جانبي السيَّارة، يواجه أحدنا الآخر عبر سقفها اللامع.

«نعم؟»

«نريد منك أن تصبح عميلاً للمخابرات العسكريَّة».

زوبعة أخرى من الريح، رشَّة أخرى من ماء المطر.

«أوه، فيليكس»، قلت، «أخبرني أنَّها نكتة أخرى».

دخل السيَّارة وأغلق الباب بقوَّة. قاد لبضعة أميال في صمت حانق، بسرعة كبيرة، يلعب بعصا السرعة كأنَّه يحاول طرد شيء ما من أحشاء السيَّارة.

«حسناً، أخبرني إذاً»، قلت أخيراً «كيف من المفترض أن أدخل في الخدمة السرّيَّة؟»

«تحدَّث إلى الناس في كلِّيتك. البروفيسور هوب-وايت، في سبيل المثال. عالم الفيزياء كراوثر».

«كراوثر!»، قلت، «كراوثر هو من سادة التجسُّس؟ لا يمكن. وهوب-وايت؟ إنّه باحث في اللغات الرومانسيَّة، يا إلهي! إنَّه يكتب قصائد عن الأطفال باللهجة البروفنسيَّة[72]»، هزَّ هارتمان كتفه، وابتسم؛ يحبّ أن

(72) لهجة شائعة في جنوبي فرنسا، ولا سيّما في منطقة بروفنس، وهي مدينة جنوبيّة مطلّة على المتوسّط وتشتهر بمواقعها السياحيّة. (م)

يكون مفاجِئاً. في توهُّج أضواء لوحة القيادة اكتسى وجهه شحوباً أخضر. ظهر ثعلب على الطريق أمامنا وحدَّق إلى المصابيح الأماميَّة وقد فوجئ قبل أن ينزل ذيله ويركض في تخوم الظلام. أتذكَّر الآن أرنباً قفز من وراء حاجز، وحدَّق إلى شابَّين يتمشيان في اتِّجاهه في طريق التلّ. «أنا آسف، فيليكس»، قلت، وأنا أراقب الليل يندفع أمامنا بائساً في الزجاج الأماميّ، «لكنَّني لا أستطيع رؤية نفسي أمرِّر أيّامي أفكُّ شيفرة تقديرات وسائط النقل المتحرِّكة الألمانيَّة في شركة حكَّام إيتون السابقين وضبَّاط الجيش الهنود المتقاعدين. لديَّ أعمال أفضل أقوم بها. أنا باحث».

هزَّ رأسه مجدّداً وقال: «حسناً».

كانت ظاهرة أصبحت على دراية بها، هذه الطريقة التي يحاولون بها اختبار شيء ما، ثمَّ يسقطونه حين يواجهون أدنى مقاومة. أتذكّر أوليغ، وهو يندفع، بذعر عظيم، إلى بولاند ستريت في أحد الأيَّام إبّان فترة الحرب بعد أن اكتشف أنَّنا، بوي وأنا، كنَّا نتشارك الغرفة عينها هناك (لا يمكن للعملاء أن يعيشوا معاً على هذا النحو، هذا مستحيل!) ثمَّ بقي ليثمل مع بوي ثملاً سلافيّاً بكائيّاً ويسقط بعدها على الأريكة في غرفة المعيشة تلك الليلة. الآن قال هارتمان:

«ضابط إدارة عملاء جديد سيصل قريباً».

التفتُّ نحوه، جافلاً.

«وماذا عنك؟»

أبقى عينيه ثابتتين على الطريق.

«يبدو أنَّهم قد بدؤوا يشكّون فيَّ»، قال.

«يشكُّون فيك؟ فيمَ؟»

هزَّ كتفيه.

«في كلِّ شيء»، قال، «في لا شيء، سيشكُّون في الجميع، في نهاية الأمر».

فكَّرت للحظة.

«لعلمك»، قلت، «ما كنت لأوافق على العمل معهم لو كانوا أرسلوا روسيّاً».

أومأ برأسه.

«الرجل الجديد سيكون روسيّاً»، قال متجهِّماً.

كنَّا صامتين. في السماء المظلمة أمامَنا عكست غيمة منخفضة، جزء منها أسود فحميٌّ، أضواءَ كمبريدج.

«لا»، قلت من فوري، «لن يحدث ذلك. عليك أن تخبرهم أنَّه لن يحدث. سأتعامل معهم عن طريقك، أو لن أتعامل على الإطلاق».

ضحك ضحكة كئيبة.

«أخبرهم؟»، قال، «آه فيكتور، أنت لا تعرفهم، صدِّقني. أنت لا تعرفهم».

«ومع ذلك، عليك أن تخبرهم أنَّني سأعمل معك فحسب».

*

لقد نسيت اسم الروسيِّ، وسكراين رفض دائماً تصديق ذلك، لكن هذا صحيح. كان اسمه الرمزيُّ يوزيف، الأمر الذي صدمني كما هو واضح على نحو خطر (في المرَّة الأولى التي أجرينا فيها اتِّصالاً، سألت ما إذا كنت أستطيع أن أناديه جو، لكنَّه لم يرَ ذلك أمراً مضحكاً). إنَّه أحد الأشخاص الكثيرين، من حياتي الماضية، الذين لا أهتمُّ بالاسترسال في الكلام عنهم بإفراط؛ التفكير فيه يلسع وعيي مثل تيّار هوائيٍّ عبر على ظهر مريض بالحمَّى.

كان لا يوصف، لكنَّه كان رجلاً عنيداً بوجه حادٍّ صغير، لطالما ذكَّرني على نحو مخيف بسيِّد لاتينيّ، حادّ اللسان، ومقلِّد لطيف، ولا سيّما للَّهجة الإيرلنديَّة الشماليَّة، كان قد جعل حياتي جحيماً في سنتي الأولى في مارلبورو. بناءً على إصرار يوزيف، كانت اجتماعاتنا تُعقد في العديد من الحانات في ضواحي لندن الأكثر نبلاً، حانة مختلفة في كلِّ مرَّة. أعتقد أنَّه كان، في سرِّه، يحبّ تلك الأبنية الشنيعة؛ أفترض أنَّه، مثل فيليكس هارتمان، يراها مظاهر أنموذجيَّة لإنكلترا المثاليَّة، بلوحات الخيل النحاسيّة خاصَّتها، وألواح النبالة، ومالكيها الذين يرتدون ربطات العنق الحمر دائماً، وكانوا كلّهم ينظرون إليَّ بأنِّي الشابُّ المبتهج الذي يجعل زوجته ترافقه بكلِّ لطافة إلى الحمَّام الأسيديِّ في الطابق العلويِّ. كان الإيمان بهذه النسخة الأسطوريَّة من جون بول[73] أحد الأشياء القليلة التي يتشاركها أصحاب القرار النخبة الروس والألمان وأتباعهم في الثلاثينيَّات. كان يوزيف فخوراً بما تخيَّل أنَّه قدرته على التحوُّل إلى مواطن إنكليزيٍّ أصيل. كان يرتدي بزَّة تويديَّة وحذاء «بروغ» إيرلنديٍّ وبلوفرات رماديَّة بلا أكمام، ويدخِّن سجائر «كابستان». كان يفترض أن يكون أثر لباسه إبداعيّاً لكنَّه كان على نحو بائس تقليداً غير دقيق للمخلوق الإنسانيّ، شيء ما قد يرسله فريق استكشاف من عالم آخر ليختلط مع الأرضيِّين وينقل بعد عودته بيانات مهمَّة -هذا وصف دقيق له يخطر في بالي دائماً حين أتذكَّره. كانت لكنته مضحكة على الرغم من أنَّه تخيَّلها لكنة لا تشوبها شائبة.

من أجل اجتماعنا الأوَّل استدعيت ظهرَ أحد الأيَّام الباردة في وقت مبكِّر من شهر ديسمبر إلى حانة في جانب حديقة في بوتني. وصلت متأخراً،

---

(73) اسم يطلق على الرجل الإنكليزيّ التقليديّ الأنموذجيّ، ظهر أوّلاً في الرسوم السياسيّة ثمّ انتشر ليصبح علامة. (م)

وكان يوزيف غاضباً. وما إن عرَّف نفسه -إيماءة ماكرة، ابتسامة متوتِّرة، دون مصافحة بالأيدي- طلبتُ معرفة السبب في عدم وجود فيليكس هارتمان هناك.

«لديه واجبات أخرى الآن».

«أيُّ نوع من الواجبات؟»

هزَّ كتفاً ناتئة العظام. كان يقف إلى جانبي عند البار مع كأس من عصير الليمون الفوَّار بيده.

«في السفارة»، قال، «أوراق. تواقيع».

«هل هو في السفارة الآن؟»

«جِيء به إلى هناك من أجل حمايته. كانت الشرطة قد بدأت تبحث عنه».

«ماذا حلَّ بعمله في تجارة الفراء؟»

هزَّ رأسه، منزعجاً، متظاهراً بنفاد صبره.

«أوه، لا تهتمّ».

أراد منَّا الذهاب إلى «طاولة هادئة في الزاوية» -كان المكان فارغاً- لكنِّي لم أتزحزح. على الرغم من أنَّني لا أهتمّ لمثل هذه الأشياء إلَّا أنَّني طلبت فودكا فقط من أجل رؤيته يجفل.

«*Na Zdrovye!*[74]»، قلت، وشربت جرعة الشراب حسب الطريقة الروسيَّة متذكِّراً الأخوين هايدغر. ضاقت عينا يوزيف الصغيرتان حتَّى كادتا تغلقان. «أخبرت فيليكس أنَّني سأعمل معه فحسب»، قلت.

رشق النادلَ بنظرة حادَّة.

---

(74) اللفظ الصوتي لعبارة На здровье بالروسيَّة وتعني بصحّتك. (م)

«أنت لست في كمبريدج الآن، جون»، قال، «لا يمكنك اختيار زملائك».

فتح الباب، ودخل شابٌّ رثُّ الثياب مع كلب، يسبقه رذاذ شاحب من أشعَّة الشمس الشتويَّة.

«ماذا دعوتني؟»، قلت، «اسمي ليس جون».

«بالنسبة إلينا إنَّه كذلك. من أجل لقاءاتنا».

«هراء. لن أحصل على أسماء رمزيَّة سخيفة مكره عليها. لن يكون في مقدوري تذكُّرها. سوف تتَّصل بي وأنا سأقول لا يوجد جون هنا وأقطع الاتصال. هذا مستحيل. جون، مستحيل!»

تنهَّد. كان بإمكاني رؤية أنَّني خيَّبت أمله. ولا شكَّ في أنَّه كان يتطلَّع لقضاء ساعة ممتعة بصحبة سيِّد بريطانيٍّ نبيل، من الطراز الجامعيِّ، خجول ولطيف، صادف للتوِّ أنَّه ولج أسرار مختبر كافنديش[75] وغضَّ النظر عنها بذهول ذهن ساحر، وبأسلوب تعليم ارتجاليّ. طلبت شراب فودكا آخر وشربته؛ بدا كأنَّه يمشي مستقيماً إلى الأعلى وليس إلى الأسفل، ورأسي دار وأصابني إحساس بأنِّي أحلِّق في الهواء لمدَّة ثانية على ارتفاع إنش فوق الأرض. استقرَّ الشابُّ البدين مع كلبه عند إحدى الطاولات في الزاوية، وبدأ يسعل على نحو مرهق فأثار ضجيجاً مثل ضجيج مضخَّة الشفط في أثناء العمل، وفي الأثناء كان الكلب يدرسنا، أنا ويوزيف، وجهه مائل إلى جنب وشحمتا أذنيه متدليّتان مثل كلب «التيريير» الشهير ذاك على أقراص شركات تسجيل الموسيقا. حتى يوزيف ظهره مواجهاً نظرة الكلب المتأهِّبة، ومرَّر يده

---

(75) قسم الفيزياء في جامعة كمبريدج افتتح كمختبر للتدريس عام 1874. فاز 29 باحثاً من العاملين فيه بجوائز نوبل. (م)

على النصف الأسفل من وجهه فيما يدعوه الكوميديُّ بالحرق البطيء حين يريد قول شيء غامض.

«ليس في مقدوري سماعك إذا تحدَّثت بهذه الطريقة»، قلت.

في نوبة من الغضب لُجمت في الحال، قبض على ذراعي -قبضة أعترف أنَّها كانت مفاجئة ومخيفة وحديديَّة- ووضع وجهه بالقرب من وجهي، وهو ينظر إلى كتفي ويدوِّر فمه أمام أذني.

«النقابيُّون[76]»، هسهس، قطرة ريق استقرَّت على خدِّي.

«ماذا؟»

ضحكت. كنت ثملاً قليلاً بطبيعة الحال، كلُّ شيء أصبح يبدو جذلاً ويائساً في الوقت عينه. شرح يوزيف، في همس حارٍّ، وسط الخلجات والارتعاشات والأنفاس المصفِّرة، كمنشد في جوقة يخبر الصبيَّ المجاور له نكتة قذرة، أنَّ موسكو ترغب في الحصول على نسخة من مداولات نقابيٍّ كمبريدج، متوهِّمين أنّ هذا الجسد المهيب كان نوعاً من الاتِّحاد السرّيّ العظيم والقويِّ لجامعتنا العظيمة والقويَّة، مازجاً بين الماسونيَّة وحكماء صهيون.

«يا إلهي! إنَّهم مجرَّد لجنة تابعة لمجلس الجامعة!»

هزَّ حاجباً هائلاً.

«تماماً».

«إنَّهم يديرون أعمال الجامعة. فواتير الجزَّارين. مخزون النبيذ، هذا كلُّ ما يفعلونه».

---

(76) النقابيَّة Syndicalism منهب سياسيّ اقتصاديّ مناهض للرأسماليّة، وينادي بجعل الطبقة العاملة تسيطر على العالم. (م)

هزَّ رأسه ببطء من جانب إلى جانب، زاماً شفتيه وتاركاً جفنيه يتدلَّيان على مهل. كان يعرف ذلك. أوكسبريدج[77] كانت تدير البلاد، والنقابيُّون كانوا يديرون نصف أوكسبريدج: كيف يمكن لتقرير عن أفعالهم أن يكون أيَّ شيء أقلّ من ساحر بالنسبة إلى أسيادنا في موسكو؟ تنهّدت. لم تكن تلك بداية مبشِّرة لحياتي المهنيَّة كعميل سرِّي. ثمَّة دراسة تكتب عن أثر تاريخ أوروبا في قرننا في عجز أعداء إنكلترا عن فهم هذه الأمَّة الفاسدة، والعنيدة، والخبيثة، وغير المعقولة. سأصرف كثيراً من وقتي وطاقتي في العقد والنصف المقبلين في تعليم موسكو وأمثال يوزيف أن يميِّزوا بين الشكل والمضمون في الحياة الإنكليزيَّة (ثق بإيرلنديّ من أجل معرفة الفرق). كانت مفاهيمهم الخطأ سخيفة على نحو مخزٍ. لـمَّا سمع مركز موسكو أنَّني زائر منتظم في ويندسور، وفي علاقة لطيفة مع جلالته، وغالباً ما أدعى إلى البقاء في الأمسيات للعب ألعاب ما بعد العشاء مع زوجته -التي كانت تربطني بها أيضاً صلة قربى بعيدة- اهتاجت مشاعرهم، معتقدين أنَّ أحد رجالهم قد تغلغل في مقرِّ السلطة في البلاد. معتادين على القيصريَّة، من الطراز القديم أو الحديث، لم يستطيعوا فهم أنَّ حاكمنا المتوَّج لا يحكُم، بل هو نوعٍ من الوالد البديل للأمَّة، ولا أحد يأخذه على محمل الجدِّ ولو للحظة. عند نهاية الحرب، لـمَّا نجح حزب العمَّال في الانتخابات، أشكُّ في أنَّ موسكو اعتقدت أنَّها مسألة وقت قبل أن يتمَّ نقل الأسرة المالكة، الأميرات الصغيرات والجميع، إلى قبو القصر، وجعلهم يقفون قبالة الحائط. لم يفهموا آتلي[78] بالطبع، وحيرتهم ازدادت حين أشرت إليهم بأنَّ سياسته متأثِّرة على

---

(77) دمج لاسمَي جامعتَي كمبريدج وأكسفورد، أقدم جامعتين في بريطانيا والعالم. (م)

(78) كليمنت أتلي (1883-1976) سياسيّ بريطاني، تولّى رئاسة الحكومة عقب الحرب العالميّة مباشرة عن حزب العمّال بين عامي (1945-1951). (م)

نحو أقلَّ بماركس عن موريس وميل (أراد أوليغ أن يعرف ما إذا كان هؤلاء أشخاصاً في الحكومة). ولـمَّا ربح المحافظون، ظنُّوا أنَّ الانتخابات كانت قد زوِّرت، غير قادرين على تصديق أنَّ أفراد الطبقة العاملة، بعد كلِّ ما تعلَّموه في الحرب، صوّتوا بحرّيّة لعودة الجناح اليمينيِّ إلى الحكومة («عزيزي أوليغ، ليس ثمَّة محافظ عنيد سوى الرجل الإنكليزيِّ العامل»). كان بوي محتدّاً ومحبطاً من الاخفاقات في الفهم هذه، مع ذلك كان لديّ تعاطف مع الرفاق. أنا أيضاً، مثلهم، جئت من عِرق فطريٍّ ومتطرِّف. لا شكَّ في أنَّ هذا هو السبب في أنَّني وليو روذنستاين أنجزنا معهم على نحو أفضل من الرجال الإنكليز الأصيلين من أمثال بوي وألاستير: لقد تشاركنا الرومانسيَّة الغريزيّة الكئيبة لعرقينا المختلفين، وإرث التهجير، وعلى نحو خاصّ التوقُّعَ الحيَّ الدائم للانتقام النهائيّ الذي يمكن أن يكون، حين يتعلَّق الأمر بالسياسة، مدعاة للتفاؤل.

في هذه الأثناء، كان يوزيف لا يزال يقف قبالتي مثل دمية تتكلَّم من بطنها، بكمَّي قميصه الطويلين جدّاً، وعضلات وجهه التي بدت تعمل بالأسلاك، يقظاً ومتأمِّلاً مثل كلب ذاك الرجل العجوز، وبما أنَّني متعب منه، ومحبط، وآسف لأنَّني سمحت لهارتمان أن يحثَّني على ربط مصيري بأمثال هذا الشخص البغيض، أخبرته أنِّي، نعم، سأحصل على نسخة من محضر اجتماع النقابيِّين إذا كان هذا حقّاً ما يريده، وهو، أعطى إيماءة صغيرة خاطفة جدّيّة، إيماءة سأصبح متآلفاً معها بعد ذلك حين ألتقي أشخاصاً مغرورين حمقى في غرف عمليَّات الحرب ولجان الطوارئ السريَّة حين أجيء من الوكالة لأجل تقديم معلومات سرّيّة لا قيمة لها على الإطلاق. جميع المعلِّقين في الوقت الحاضر، وجميع المتحذلقين في الكتب، وفي الصحف،

يستخفُّون بعنصر المغامرة في عالم التجسُّس، لأنَّ الأسرار الحقيقيَّة تُفضح، ولأنَّ المعذَّبين موجودون، ولأنَّ الرجال يموتون -كان من المفترض أن يقضي يوزيف، مثل كثيرين من خدم النظام الثانويِّين، برصاصة من الشرطة السريَّة السوفييتيَّة في مؤخِّرة رأسه- فإنَّهم يتخيَّلون أنَّ الجواسيس بشكل أو بآخر مستهترون، وأشرار على نحو غير إنسانيّ، مثل الشياطين التي تنفِّذ أوامر الشيطان الأعظم، في حين كنَّا في الحقيقة أكثر ما نشبه أولاء الشبّان الشجعان، لكن لعوبين ودهاة دائماً في قصص المدارس، من أمثال بوب وديك وجيم، الذين كانوا ماهرين في الكريكيت، وينفّذون مقالب غير مؤذية لكن مبتكرة، وفي النهاية يزيلون القناع عن المدير فيكشفون أنَّه مجرم دوليّ، في حين يتمكَّنون في الوقت عينه من الاجتهاد في دراستهم على نحو سرّيّ لينالوا الدرجات الأولى، درجات الامتحان، ويحصلوا على المنح الدراسيَّة، وبذلك يعفون أهاليهم اللطيفين الفقراء من أعباء الدفع لأجل إرسالهم إلى إحدى جامعاتنا الكبرى. هكذا كنَّا نرى أنفسنا، في أيِّ حال، على الرغم من أنَّنا بالطبع لم نضعها في تعابير كالتي ذكرت. حسبنا أنفسنا جيِّدين، تلك هي النقطة. من الصعب الآن التقاط الطعم الـمُسكر لتلك الأيَّام التي سبقت الحرب حين كان العالم في طريقه إلى الجحيم والأجراس تُقرع، والصفّارات تدوِّي بجنون، ونحن وحدنا بين زملائنا كنَّا نعرف تماماً ما كانت مهمَّتنا بالضبط. أوه، أنا أدرك تماماً أنَّ الشبّان كانوا يغادرون إلى إسبانيا للقتال، ويشكِّلون نقابات عمَّال، ويستيقظون على المطالب، وهلمّ جرّا، لكنّ ذلك النوع من الأشياء، على الرغم من الضرورة، كان فعلاً لسدِّ الفجوة؛ في السرّ، رأينا أنَّ أولاء الرفاق البائسين التائقين ليسوا أكثر من جنود المدافع، أو مدَّعي المدَّعين فاعلي الخير. ما كان لدينا، ويفتقرون إليه،

هو المنظور التاريخيّ الحتميّ؛ وفي حين كان قادة الألوية الإسبان يصرخون بالحاجة إلى إيقاف فرانكو، كنَّا نحن، بطبيعة الحال، نخطِّط للفترة الانتقاليَّة بعد هزيمة هتلر حين تسقط الأنظمة الغربيَّة التي دمَّرتها الحرب في أوروبا الغربيَّة، بطريقة الدومينو، بدفع لطيف من موسكو، ومنَّا -نعم، كنَّا مؤيِّدين أوائل لتلك النظريَّة التي فقدت مصداقيَّتها الآن- والثورة انتشرت مثل بقعة دم من البلقان إلى ساحل كونيمارا. ومع ذلك، في الوقت نفسه، كم كنَّا منفصلين. بطريقة ما، على الرّغم من كلِّ أحاديثنا، حتَّى بعض أفعالنا، تدحرجت الأحداث العظيمة في ذلك الوقت أمامنا، حيَّة، مبهرجة الألوان، حقيقيَّة جدّاً أكثر من اللازم، مثل دعائم مسرح متنقِّل يتمُّ نقلها على ظهر شاحنة بعيداً إلى بلدة أخرى. كنت أعمل في غرفتي في ترينيتي حين سمعت نبأ سقوط برشلونة، عبر المذياع الذي كان يصخب في غرفة جاري المجاورة -ويلشمان، كان يحبُّ موسيقا فرق الرقص، أخبرني كلَّ شيء عن آخر أنواع الشعوذة التي يجري العمل بها في مخبر كافينديش- وواصلت النظر بهدوء في عدستي المكبِّرة في اثنين من الرؤوس المقطوعة الملقاة على قطعة قماش في مقدِّمة لوحة بوسان استيلاء تيتوس على أورشليم كما لو أنَّ الحدثين، الحقيقيَّ والمصوَّر، كانا بالقدر نفسه، بعيدين عنِّي في العصور القديمة، أحدهما ثابت ومنتهٍ كالآخر، كلُّ الصراخ المتجمِّد والخيول الهائجة والوحشيَّة الجميلة الأنموذجيَّة. هل ترون...؟

ثمَّة صورة وحيدة أخيرة ليوزيف أريد رسمها قبل أن أعيده إلى الرفِّ إلى الأبد، في ورقة الشفَّاف خاصَّته إلى جانب العديد من الشخصيَّات الأخرى الأكثر نسياناً، الذين تبعثرت حياتي معهم. لـمّا كان يغادر الحانة -كان قد أصرَّ على أن نخرج منفصلَين- خبَّ كلب الشابِّ الصغير إلى الأمام، يلتفُّ ويدور

حول نفسه كما الكلاب المتحمِّسة، كأنَّ جسده المشدود كقطعة نقانق، كان محمَّلاً، على نحو ما، بنابض، وحاول أن يفرك نفسه بعقب قدم يوزيف، فزجره بركلة جانبيَّة ماهرة من مقدَّمة حذائه اللامع. ولول الحيوان، من الحزن أكثر منه من الألم، وانزلق بعيداً، مخالبه تطقطق على بلاط الأرضيَّة، وجلس من جديد بين قدمَي سيِّده المتباعدتين، يلعق شفتيه بسرعة في حيرة وذعر. خرج يوزيف، ولوهلة سمح بدخول أشعّة الشمس التي كانت تلعب على عقبه، وحملق فيَّ الرجل العجوز من تحت حاجبيه بنوع من التجهُّم، ولوهلة رأيت ما أعتقد أنَّه رآه فيَّ: أحد آخر من التافهين، قليلي الصبر، القاسين، رافسي الكلاب، الدافعين بالمرافق، الدافعين في أثناء الخروج، وأنا أردت أن أقول له، لا، لا، أنا لست كذلك! أنا لست مثله! ثمَّ فكَّرت لكن ربّما أكون كذلك؟ ألتقطُ تلك النظرة نفسها هذه الأيَّام حينما يتعرَّفني أحد محاربي الحرب العالميَّة القدماء، أو أحد حرَّاس القيم الغربيَّة المخلصين الذين عيَّنوا أنفسهم في هذا الدور، في الشارع، ويبصق عليَّ على نحو مجازيٍّ.

في أيِّ حال، هكذا بدأت حياتي المهنيَّة كجاسوس. أتذكَّر أمل فيليكس هارتمان في أن نزوّد موسكو، نحن، سلالة الطبقات النبيلة، بلوحة أحجية صور منجزة للحياة الإنكليزيَّة (لم أجرؤ على سؤاله إن كان قد سبق له قطُّ أن درس الموضوعات التي اختارها مصنِّعو مثل تلك الأحاجي، لكن تشكَّلت لديَّ صورة عن مفوَّضين شيوعيِّين صلعانَ يتأمَّلون جدّيّاً في مشهد فيه كراميلا وسكاكر ورديَّة، ويكتمل المشهد بكوخ وورد وغدير ماء متموِّج وفتاة صغيرة بشعر مجعَّد تتأبَّط تحت ذراعها البدينة سلَّة من زهر الحوذان: إنكلترا، إنكلترا التي تخصّنا!). على نحو مواظب بدأت أقبل دعوات العشاء التي كنت أرفضها سابقاً مذعوراً، ووجدت نفسي أناقش مسألة

الألوان المائيَّة وأسعار الدواجن مع زوجة أحد الوزراء ذات الشارب والعينين المجنونتين قليلاً، أو أستمع مرتبكاً وأنا أحمل كأس براندي وسيجاراً، في حين يومئ أحد النبلاء، بخدّين أحمرين قرميديَّين ونظَّارة أحاديَّة، بإسهاب وهو يشرح للجالسين إلى الطاولة الطرائق الشيطانيَّة الذكيَّة التي كان قد استخدمها اليهود والماسونيُّون للتسلّل إلى كلِّ مستوى في الحكومة، إلى الحدِّ الذي أضحوا فيه الآن جاهزين للاستيلاء على السلطة واغتيال الملك. كتبت تقارير مفصَّلة في هذه المناسبات -مكتشفاً، بالمناسبة، ميلاً غير متوقَّع للسرد؛ بعض هذه التقارير المبكِّرة كان مفعماً بالألوان إذا كان بالإمكان تلوينها على نحو ما- ومرَّرتها إلى يوزيف، الذي كان يفحصها بسرعة، فيقطِّب وجهه، وينفث زفيراً واضح الصوت من منخريه، ثمَّ يخفيها في جيب داخليّ، ويلقي نظرة مخفيَّة حول البار، ثمّ يبدأ الكلام، جاهزاً على نحو تقليديٍّ، عن الطقس. بين الحين والآخر كنت أجمع قليلاً من المعلومات أو الإشاعات التي تثير إحدى ابتسامات يوزيف النادرة، العصبيَّة، التي يقضم فيها شفتيه. ما عدّته موسكو أعظم انتصار مبكِّر لي كان الحديث الطويل، المملَّ للغاية بالنسبة إليّ، الذي أجريته في أثناء إحدى الولائم في ترينيتي مع السكرتير الخاصِّ لوزارة الحرب، وهو رجل بدين أملس الشعر بشارب صغير، حينما يثرثر كان يذكِّرني بأولاء أصحاب الهفوات المرحين في سلسلة كرتون «بات مان»؛ مع حلول الليل أصبح ثملاً على نحو رسميٍّ وهزليٍّ -صدريَّته ظلَّت تطير إلى الأعلى كما حدث في مسرحيَّة هزليَّة موسيقيَّة- وأخبرني، بتفاصيل غير واضحة، كيف أنَّ قوَّاتنا العسكريَّة لم تكن جاهزة للحرب، وأنَّ الصناعة العسكريَّة كانت مزحة، وأنَّ الحكومة لم تكن لديها الإرادة أو الوسائل لفعل أيِّ شيء لأجل تصحيح الوضع. في وسعي رؤية كيف أنَّ

يوزيف، الجالس إلى طاولة منخفضة في الزاوية في حانة «ذا هير آند هاوندز» في هايبري، والمنكبّ كليًّة على تقريري، لم يتمكّن من الحكم فيما إذا كان عليه أن يشعر بالفزع أو بالتهليل بشأن الآثار المترتِّبة على أوروبا بالعموم، وروسيا بالخصوص، حول ما يتعلّق بما كان يقرؤه. ما بدا أنَّه غير مدرك له هو أنَّ كلَّ موزِّع صحف في البلاد كان يعرف بطبيعة الحال كم كنَّا مغلَّفين بالفزع من الحرب على نحو مخزٍ، وكم كانت الحكومة ضعيفة.

كانت هذه السذاجة من جانب موسكو ومبعوثيها سبباً للشكِّ لنا جميعاً من جانبنا؛ كثير ممَّا مُرِّر للمخابرات عن طريق المبعوثين كان متاحاً من دون حساب أمام الجمهور. ألم يقرؤوا قطّ، سألت فيليكس هارتمان ساخطاً، الصحفَ أو استمعوا إلى أخبار الساعة العاشرة في الإذاعة؟ «ماذا يفعل أناسك في السفارة طوال اليوم، بصرف النظر عن إصدار بيانات رسميَّة مضحكة حول الإنتاج الصناعيِّ الروسيِّ، ورفض تأشيرات الدخول لمراسلي الدفاع في صحيفة ديلي إكسبرس؟» ابتسم، وهزَّ كتفه، ونظر إلى السماء، وبدأ يصفِّر عبر أسنانه. كنَّا نمشي عند بحيرة سيربنتين المتجمِّدة. كان شهر يناير، وكان الهواء كثيفاً بدخان الصقيع الأبيض البنفسجيِّ، والبطَّات كانت تتجوَّل على غير هدى على الجليد، مرتبكة ومستاءة بسبب هذا التصلُّب المتعذر تفسيره لعالمها المائيِّ. بعد عامين من الخدمة تمَّ استدعاء يوزيف على نحو مفاجئ: لا يزال بإمكاني رؤية البريق الشاحب للعرق على جبينه الذي كان شديد الشحوب أصلاً ذاك اليوم حين أخبرني أنّ لقاءنا سيكون الأخير. تصافحنا بالأيدي، وفي المدخل -حانة كينغر هيد، هايغيت- استدار وألقى عليّ نظرة متوسِّلة ماكرة، وسألني بصمت سؤالاً في غاية البغض.

«الحياة في السفارة هي إلى حدٍّ ما... مقيَّدة، الآن فحسب»، قال هارتمان.

منذ رحيل يوزيف المفاجئ اتَّصلت بالسفارة مرّات عدَّة، لكن لم أسمع ردّاً حتّى ذلك اليوم، حين ظهر هارتمان، يرتدي ملابس سوداً كالعادة، وقبَّعة سوداء بحافّة منخفضة قليلاً إلى الأمام. لـمّا سألت عمّا يجري ابتسم فحسب ووضع إصبعاً على شفتيه، وقادني إلى الشارع باتّجاه الحديقة. توقَّف ونظر عبر الحديد، وهو يتأرجح ذهاباً وإياباً على عقبيه، ويداه محشورتان عميقاً في جيبَي معطفه الطويل.

«أصبحت موسكو صامتة»، قال، «أنا أرسل رسائلي عبر قنوات الاتّصال الاعتياديَّة، لكنَّ ردّاً لم يرجع. أنا مثل شخص نجا من حادث. أو مثل شخص ينتظر أن يقع حادث. إنَّه شعور غريب للغاية».

على الضفّة القريبة منّا، كان ثمَّة صبيّ صغير، أحضرته مربِّية ترتدي جوربين أسودين، يرمي كسرات الخبز للبطّات. ضحك الطفل ضحكة عميقة بابتهاج لرؤية الطيور وهي تتعثَّر وتتزحلق على نحو مخزٍ، أجنحتها تضرب بشدَّة وهي تطارد فتات الخبز الذي يسقط بسرعة. التفتنا وتابعنا مشينا. على الجانب الآخر من البحيرة، على مضمار روتن رو، مجموعة من الدرَّاجين كانوا يتجوَّلون بدرَّاجاتهم على طول المضمار بغير تنسيق وسط بخار أنفاسهم. في صمت وصلنا إلى الجسر، وهناك توقَّفنا. بعيداً وراء قمم الأشجار السود حولنا لاحت لنا هيئة لندن المخفيَّة. وقف هارتمان، مبتسماً على نحو حالم، ورأسه مائل إلى جنب كما لو كان يستمع إلى صوت صغير مُنتظَر.

«سأعود»، قال، «أخبروني أنَّه يتوجَّب عليَّ العودة».

عالياً، في الجزء العلويّ من الضباب المتجمِّد، فوق الأبراج والمداخن بدا لي أنَّني أرى شيئاً ما رفرف لمدَّة ثانية. هيئة عملاقة، كلّها فضَّة وذهب تشرق على نحو باهت. سمعت نفسي أبتلع ريقي.

«أقول أيُّها الرجل العجوز»، قلت، «إنَّ في ذلك لحكمة، هل تعتقد ذلك؟ يخبرونني أنَّ الطقس هناك ليس مناسباً على الإطلاق في هذه الأيَّام، الأبرد منذ فترة طويلة».

التفت بعيداً عنِّي ونظر نحو السماء، كما لو كان، هو نفسه، شعر بنذير يحوم.

«أوه، سيكون كلُّ شيء على ما يرام»، قال بذهول، «يقولون إنَّهم يريدون منِّي تقديم تقرير شخصيٍّ، هذا كلُّ شيء».

أومأت برأسي. غريب، شعرت بضحكة وشيكة. انطلقنا عبر الجسر.

«يمكنك الإقامة هنا دائماً»، قلت، «أقصد، لا يستطيعون جعلك تذهب، أليس كذلك؟»

ضحك، وشبك ذراعه بذراعي.

«هذا ما يعجبني فيك»، قال، «كلُّ ما فيك. تبسّط الأمور جدّاً». رنَّ صوت خطواتنا على الجسر مثل ضربات الفأس. ضغط على ذراعي باتِّجاه ضلوعه. «يجب أن أذهب»، قال، «وإلَّا لن يكون هناك شيء... هل ترى؟»

غادرنا الجسر ولا يزال الذراع متشابك بالذراع، ووقفنا على حافة صعود المتنزَّه اللطيف، وسبرنا المدينة الجاثمة أمامنا ساكنة في الضباب.

«سأفتقد لندن»، قال هارتمان، «كينسينغتون غور، طريق برومبتون، توتينغ بيك -هل هناك حقاً مكان يدعى توتنغ بيك؟ وشارع بيشام بلايس، الذي أخيراً، البارحة فقط، تعلَّمت كيف ألفظ اسمه بالطريقة الصحيحة. يا له من تبديد؛ كلُّ هذه المعرفة القيِّمة».

ضغط على ذراعي مرَّة أخرى، وألقى نظرة جانبيّة عليَّ، وأنا شعرت بشيء فيه يتداعى، كما لو أنّ جزءاً من الآليَّة الداخليَّة كان فجأة وأخيراً قد انهار.

«أصغِ إليَّ»، قلت، «الأمر هو... يجب ألّا تذهب، لن نسمح لك كما تعرف».

ابتسم فحسب، واستدار، ثمَّ تقدّم ببطء، عائداً في الاتِّجاه الذي كنَّا قد جئنا منه، فوق الجسر، تحت الأشجار الكثيفة السود المغطَّاة بالضباب، ولم أره بعد ذلك على الإطلاق.

حاولت لسنوات اكتشاف ما أصبح عليه حاله. كان الرفاق صامتين؛ حينما يسقطونك فإنَّك تختفي بين ألواح الأرضيَّة. انتشرت الشائعات حقّاً. شاهده شخص ما في لوبيانكا، في حال سيِّئة، فاقداً إحدى عينيه؛ شخص آخر ادَّعى أنَّه كان في مركز موسكو، تحت المراقبة لكنَّه يدير مكتب لشبونة؛ كان في سيبيريا؛ في طوكيو؛ في القوقاز؛ شوهدت جثَّته في الجزء الخلفيِّ من سيّارة في شارع دزيرجينسكي. تلك الهمسات ربَّما كانت تأتيني من الجانب المظلم من القمر، فروسيا كانت بعيدة جدّاً، ولطالما كانت بعيدة جدّاً. كان الأسبوعان اللذان قضيتهما هناك قد أفاداني في أن جعلا المكان أكثر بعداً فحسب. هذه حقيقة غريبة تخصُّنا -أظنُّ أنَّها غريبة- وهي أنَّ البلد الذي ربطنا أنفسنا به كان ضبابيّاً في أذهاننا، والأرض الموعودة لم نصل إليها قطّ، ولم نرغب يوماً في الوصول إليها. لم يكن أحد منَّا قد حلم بأن يعيش هناك طواعية؛ في وقت لاحق كان بوي، على الرغم من محاولته إخفاء ذلك، مذعوراً حين وصل إلى إدراك أنَّه لا خيار لديه سوى أن يرتدَّ عن حزبه. الخصوم بدوا أكثر دراية بالمكان ممّا كنَّا عليه. كان هناك أشخاص في الوكالة، رجال مكاتب لم يسبق لهم الوصول إلى شرق جبال الألب، يتكلَّمون كما لو كانوا داخل لوبيانكا وخارجها كلَّ يوم، يتجوَّلون في شارع دزيرجينسكي -الذي أكاد لا أعرف كيف يلفظ اسمه- للحصول على نسخة من صحيفة برافدا وعلبة سجائر أيّاً ما كان اسمها من أكثر الماركات شعبيَّة في موسكو في تلك الأيَّام.

لماذا عاد؟ كان يعرف، بقدر ما أعرف، ماذا ينتظره -كنت قد قرأت تقارير المحاكمات الصوريَّة التي اجتاحت الصحف في رعب خلف الأبواب المغلقة، ويداي رطبتان، ووجهي مشتعل، مثل مراهِقة فزعة تلتهم كتيِّب التوليد. كان بإمكانه أن يهرب، وكان لديه معارف، وطرق الهروب، وكان بإمكانه الوصول إلى سويسرا أو أميركا الجنوبيَّة، لكن لا، هو عاد. لماذا؟ أطلت التفكير في السؤال؛ ولا أزال أفعل. لديَّ إيمان متزعزع بأنَّه إذا كان بإمكاني الإجابة عنه، فيمكنني الإجابة عن أسئلة أخرى كثيرة، أيضاً، ليس فحسب في ما يتعلَّق بفيليكس هارتمان، بل في ما يتعلَّق بي. الحيرة الفارغة التي تسيطر عليَّ مثل ضباب حين أتأمَّل ذلك القرار المصيريَّ الأخير الذي اتَّخذه، هي اتِّهام فظيع بافتقادي شيئاً ما في داخلي، شيئاً ما عاديّاً تماماً، الشعور المرافق بأنَّ الآخرين يمرُّون على نحو طبيعيّ. جرَّبت ذاك النوع من الفكر الذي كان تشاركين العجوز، مدرِّس الفلسفة في ترينيتي، يستخدمه ليحثَّنا على إدارة الخيال، متخيِّلاً نفسي قدر ما أستطيع داخل ذهن فيليكس هارتمان، مخطِّطاً لفعل معقول في الظروف نفسها. إلّا أنَّ ذلك كان بلا فائدة، إذ لم أستطع قطُّ أن أبتعد أكثر من اللحظة التي يصبح فيها الاختيار أمراً لا مفرَّ منه: مواجهة قدرك أو الهروب. كيف سيكون شعورك حين تصل إلى هذا المسار؛ أن يكون مطلوباً منك التضحية بحياة شخص لأجل خاطر القضيَّة -ليس حتَّى لأجل القضيَّة نفسها، بل لحفظ ماء وجهها فحسب، كما هي الحال لـمَّا تنقذ ظاهرة ما كما اعتاد علماء الكون القدامى القول؟ لمعرفة أنَّ المرء، على الأرجح، سينتهي به المطاف في حفرة في غابة مع الآلاف من الجثث الأخرى المغربلة، لكنَّه على الرغم من ذلك يعود من غير حسبان للنتائج: هل كانت تلك شجاعة، أو غروراً، تهوّراً، عناداً مثاليّاً فحسب؟

ألأشعر بالذنب الآن لضحكي سرّاً على تكلُّفه وادِّعاءاته. مثل محاول الانتحار -الذي كان ذلك وضعه أصلاً- حقَّق أسطورته الخاصَّة وأكَّد عليها. كنت أتمدَّد مستيقظاً في الليل أفكِّر فيه، كومة لا شكل لها من الألم واليأس في زاوية زنزانة لا ضوء فيها، يرتعش تحت بطانيَّة قذرة، يستمع إلى انزلاق مخالب جرذ، وقعقعة أنابيب المياه، وثمَّة شابّ في مكان ما يبكي طالباً أمَّه. إنّما حتَّى هذا لم أستطع جعله حقيقة، وكان الأمر يتحوَّل دائماً إلى ميلودراما، صورة خارجة من حكاية مغامرات رخيصة.

ضحك بوي عليَّ.

«أصبحت رقيقاً، فيكتور»، قال، «الرجال الدمويّون يمكن أن يكونوا في أيِّ مكان. إنَّهم يأتون ويرحلون مثل الغجر، أنت تعرف ذلك». كنَّا في بيربيغنان، في مطعم عند النهر، وكان شهر أغسطس، آخر أسبوع قبل الحرب. الظلال الأرجوانيَّة تحت شجر الدلب، وحبَّات ضوء متلألئة على الجوانب السفليَّة لأوراقها الخضر -الرماديَّة الكبيرة الساكنة. كنَّا قد انطلقنا من كاليه بسيّارة بوي المكشوفة، وبطبيعة الحال نرزح تحت عبء مرافقة أحدنا للآخر. أتعبني إلى درجة الإنهاك ولعُه الشديد بالصبيان والشراب، وحسبني فتاة كبيرة في السنّ. كنت قد قرَّرت الذهاب في الرحلة لأنَّ نيك كان من المفترض أن يكون معنا، لكن «حدث شيء ما»، وبدلاً من ذلك سافر إلى ألمانيا من جديد في مهمّة سرّيّة أو لغاية أخرى. رمقني بوي الآن بإحدى نظراته الفظَّة «من الواضح أنَّك مفتون، فيك. هارتمان هو الرجل الذي يخفق قلبك له. لا بدَّ أنَّها كانت اللمسة الكهنوتيَّة، اللمس والرفض بالأيدي. كنت تعشق والدك حين كنت فتى، أليس كذلك؟ هذا يعطي معنًى جديداً لكلمة أسقفيَّة».

سكب لنفسه آخر ما تبقَّى من النبيذ، وطلب قنينة أخرى.

«أظنُّ أنك لا تهتمّ على الإطلاق على من يطلقون النار»، قلت، «أو كم عدد من يطلقون النار عليهم».

«أيُّها المسيح، فيك، يا لك من نوَّاح».

إلّا أنَّه لم ينظر في عينيَّ. كان وقتاً سيِّئاً بالنسبة للمخلصين الحقيقيِّين أمثال بوي. سفارة لندن كانت عمليّاً غير مزوَّدة بالرجال. ضابط تجنيد بعد آخر -يوزيف، فيليكس هارتمان، نصف دزينة من آخرين- كان استُدعي ولم يتمَّ استبداله، ما جعلنا نتدبَّر أحوالنا بأفضل ما نستطيع. في الآونة الأخيرة كنت أرسل الأشياء التي أسرقها من ملفَّات الوكالة، وأسلِّمها إلى فيليكس هارتمان داخل وسائط النقل -ربَّما كان يبالغ في تقدير قيمتها بتهذيب يعود إلى العالم القديم- عبر صندوق بريديٍّ في حانة إيرلنديَّة في كيلبورن، ولم أستطع التأكّد من أنَّها مرَّت عليه، أو في حال كانت كذلك، من أنَّ أحداً ما قرأها. لا أعرف لماذا واصلت الأمر، حقّاً. لو لم تكن أرسلت لأجل الحرب فلربَّما كنت توقَّفت عن إرسالها. كان ينبغي لنا أن نحفِّز أنفسنا، مثل مستكشفين تائهين يذكِّرون بعضهم بعضاً بمباهج الوطن. كان عملاً شاقّاً. نشر ألاستير سايكس مؤخراً ثرثرة من خداع الذات لا أمل منها في صحيفة سبيكتيتور يناقش ضرورة تطهير موسكو في مواجهة التهديد الفاشيّ. ضحكت وأنا أقرؤها، متخيِّلاً إيَّاه في الأعلى هناك في غرفته في ترينيتي، جاثماً أمام آلته الكاتبة القديمة تلك، ينقر عليها مثل رجل مجنون بإصبعين، وحاجباه ممدودان، وشعر رأسه منتصب، وغليونه ينفث وابلاً من الشرر.

رفع بوي قطعة جبن ذائبة بشوكته وصرخ: «آه، يا لها من رائحة كريهة

«Saveur de matelot[79]...» توقَّف، وعبس محدِّقاً وراء كتفي، وقال: «أقول، انظر إلى ذاك». نظرتُ. ظلال ودخان، يلمعان بتقوُّس على الجانب المتكتِّل من آلة صنع القهوة، وصورة ظليلة لرأس وعنق نحيلة لفتاة تخبِّئ ضحكتها، وخلفها رأس رجل شابّ، النافذة، تؤطِّر منظراً كبيراً ومعبّراً لشجرة وحجر منبعث لفحته الشمس، ومياه باهرة للنظر. هذا ما نتذكَّره، فوضى الأشياء غير المهمَّة. «هناك أيُّها الأحمق»، همس بوي مشيراً بشوكته. إلى الطاولة، جانبنا، رجل أصلع بدين يضع نظارةً أنفيَّة جلس بفخذين ممتلئتين متباعدتين وأنفه مرفوع على نحو يُظهر ضعف نظره، يقرأ نسخة من صحيفة لوفيغارو ويحرِّك شفتيه بصمت وهو يقرأ. ارتفع العنوان الرئيسُ في الصفحة الأولى، بلون طباعة أسود مخيف، ثلاثةَ إنشات. نهض بوي على نحو فاضح وهو يتخلَّص من منديله وفتات الخبز من على حضنه، وقام بما يشبه الاندفاع.

«Votre journal, monsieur, vous permettez[80]...?»

أزال الرجل البدين نظارة أنفه، وحملق بِبوي، وعبس، الجلد فوق أذنيه المجدَّلتين المتجعِّدتين على نحو حسَّاس تغضَّن إلى ثلاث تجعيدات متوازية في شكل هلال.

«Mais non»، قال وهو يهزُّ إصبعاً سميناً *«ce n'est pas le journal d'aujourd'hui, mais d'hier»*، وربَّت على الصفحة الأولى من الصحيفة بظفره «*C'est d'hier*[81] هل تفهم؟ إنَّها صحيفة البارحة».

---

(79) بالفرنسيّة في الأصل، وتعني بنكهة المحار. (م)

(80) بالفرنسيّة في الأصل، وتعني هل تسمح لي بصحيفتك يا سيّدي؟ (م)

(81) بالفرنسيّة في الأصل وتعني، لكن لا/ليست صحيفة اليوم، إنّها صحيفة البارحة/ إنّها تخصّ البارحة. (م)

بوي، شفتاه أرجوانيَّتان، وعيناه جاحظتان -لا أحد عنيف كمهرِّج غاضب- حاول أن ينتزع الصحيفة من يديه. قاوم الرجل البدين، وانمزقت الصفحة الأولى في وسطها، فانقسم العنوان الرئيس إلى نصفين، وهكذا تمّ فصل اتِّفاق هتلر-ستالين للحظة، الاتِّفاق الذي جرى توقيعه في موسكو قبل يومين. إلى الأبد بعد ذلك التحالف الخطر، أصبحت الخيانة الواضحة لكلِّ ما آمنَّا به، مرتبطة في ذهني بمنظر ذلك الرجل البدين ذي النظَّارة على أنفه، والفخذين المريضتين مرضاً مزمناً، وأشعّة الشمس على النهر، ورائحة الجوارب المتَّسخة لجبنة الكاميمبيرت.

*

ذهبنا مباشرة إلى الفندق، وجمعنا حقائبنا، وانطلقنا شمالاً. كدنا لم يكلّم أحدُنا الآخر. أكثر ما كنَّا مدركينه هو شعورنا العميق بالحرج؛ كنَّا مثل زوجين من الأشقَّاء للتوِّ ألقي القبض على والدهما الموقَّر بجرم فحش عظيم في مكان عامّ. مع هبوط الليل كنَّا قد وصلنا إلى ليون، حيث وجدنا غرفتين في فندق يبعث على الشعور بالرهبة، مطلٍّ على طريق مشجَّر خارج المدينة، وتناولنا الغداء في قاعة طعام فسيحة خفيفة الإضاءة مهجورة حيث توارت الكراسي من ذات الأذرع المغطاة بالجلد في الزوايا المظلمة مثل أشباح الضيوف السابقين، والمدام صاحبة المكان نفسها، وهي سيِّدة كبيرة جليلة ترتدي فستاناً قطنيّاً أسود وقفَّازين مخرَّمين من دون أصابع، جاءت وجلست معنا وأخبرتنا أنَّ ليون كانت *le centre de la magie*[82] في فرنسا، وأنَّه كانت ثمَّة عصبة يهوديَّة تحتفل بالقدَّاس

---

(82) بالفرنسيّة، في الأصل، وتعني مركز السحر. (م)

الأسود[83] كلّ سبت مساءً في منزل سيِّئ السمعة عند النهر (Avec des femmes nues messieurs[84]). أمضيت ليلة مضطربة في سرير متكتّل مغطّى بناموسيَّة، أنام نوماً خفيفاً وأحلم (امرأة عجوز عارية، هتلر يعتمر قبّعة ساحرة متلألئة، أحلام كهذه). نهضت عند الفجر، وجلست عند النافذة ملتحفاً بلحاف، وشاهدت شمساً بيضاء عظيمة تخرج خلسة عبر الأشجار السود المخضرَّة على التلَّة وراء الفندق. كان بإمكاني سماع صوت بوي يتنقَّل في غرفته الملاصقة لغرفتي، وعلى الرغم من وثوقي بأنَّه كان يعرف أنِّي مستيقظ، فإنَّه لم ينقر على الجدار ويدعوني إلى المجيء لأشرب شيئاً معه، كما كان يفعل في أيِّ صباح آخر، فهو كان يكره دائماً أن يكون وحيداً ومؤرَّقاً.

في كاليه قضينا يوم أحد قلقاً نمشي في المدينة المؤقَّتة، ونشرب كثيراً من النبيذ في إحدى الحانات حيث كان بوي قد فُتن بابن مالك الحانة، الصبيّ. في اليوم التالي لم نتمكَّن من الحصول على مكان في العبَّارة من أجل سيَّارة بوي، فتركها وراءنا على رصيف حوض الميناء كي يجري إرسالها في الإبحار التالي؛ قبعت هناك وهي تبدو واعية لنفسها على نحو غريب في حين كنَّا ننزلق بعيداً، كما لو كانت مدركة أنَّها كانت تتنبّأ بمناسبة أخرى، أكثر احتفاليّة حين يتخلّى بوي عن سيَّارته عند رصيف الميناء. في أثناء العبور إلى دوفر كان الحديث يدور عن الحرب، وفي كلِّ مكان كان هناك ذلك الضحك الكئيب، الذقن مرفوعة والحاجبان يرتعشان بتهكُّم، هذا أحد الأشياء التي أتذكَّرها على نحو واضح من الزمن الصاخب واليائس على نحو مخيف. قابلنا

---

(83) طقس احتفالي دينيّ، تحتفل به مجموعات شيطانيّة، ويستند مباشرة إلى القدّاس الكاثوليكيّ لكنّه يسخر منه. تقام فيه أفعال شنيعة. شاع في الأدب الفرنسيّ في القرن التاسع عشر. (م)

(84) بالفرنسيّة، في الأصل، وتعني مع نساء عاريات أيّها السيّدان! (م)

نيك هناك في تشارلينغ كروس. كان قد انضمَّ إلينا هناك في الشهر الماضي -وكانت الوكالة قد رتَّبت له عمولة- يرتدي زيَّ النقيب خاصَّته، ويبدو ذكيّاً جدّاً، وراضياً عن نفسه. تقدَّم مع تدفُّق غاضب من الدخان على المنصّة مثل ذكرى فلاندرز. عبث بشاربين دقيقين لم أكن قد شاهدتهما من قبل، بديا مثل زوجين من الريش الأسود الناعم التقَّا إلى الأعلى عند الطرفين، وكنت أظنّ ذلك أمراً خطأً. كان في أحد مزاجاته الرقيقة.

«مرحباً بكما، أنتما الاثنان! أقول يا فيكتور، تبدو شاحباً على نحو واضح، هل هو دوار البحر، أو أنَّك متقزّز ممَّا فعله عمَّك جو؟»

«أوه، توقَّف عن هذا، نيك».

ضحك، وأخذ حقيبتي منِّي وعلَّقها على كتفه. كانت المحطَّة صاخبة وحارَّة وتعبق برائحة البخار وغاز الفحم والرجال. وكان ثمَّة بزّات عسكريَّة في كلِّ مكان. تلك الأيَّام الأخيرة التي سبقت إعلان الحرب بقيت معي حيَّة؛ الحشود، والشمس، والدخان، والوافدون والمغادرون الذين لا نهاية لهم، وصراخ بائعي الصحف -لم يسبق لهم أن كانوا في مثل هذه الحال من النشاط- والحانات مكتظّة حتَّى الأبواب، والجميع عيونهم مشرقة بنوع من الخوف العصيب والسعيد. خرجنا من المحطَّة إلى داخل وهج ظهر شهر أغسطس متنافر النغمات. احتشدت سيَّارات الأجرة على الساحل ثمَّ اندفعت مثل سرب في قناة، أسطحها تلمع بالسَّواد في وهج الشمس. نيك كانت لديه سيَّارته، ولم يسمع بوي حين قال إنَّه سيتَّخذ طريقه نحو منزله.

«أنا خارج الخدمة الآن، دعونا نذهب إلى ذا غريفن، ونثمل».

هزَّ بوي كتفيه. لطالما حيَّرني موقفه من نيك -متجهِّماً، يقظاً، مع لمسة مراعاة. وضع نيك حقائبنا في صندوق السيَّارة، وقام بتلك الخدعة التي كان

يفعلها، وبدت كأنَّها طيران لقدميه في الهواء قبل نزولهما بارتخاء وراء مقود القيادة. قلت إنَّه ينبغي أن أرى بيبي.

«آه، نعم»، قال، «بالطبع: الزوجة الصغيرة. أو هي ليست صغيرة جدّاً في الواقع. هي تقول إنَّها تشعر كما لو كانت منطاد باريج[85]. أقول لها إنَّ مناطيد باريج خفيفة، وأنت يجب أن يكون وزنك على الأقلّ مئة رطل. أنت كلبٌ صيَّاد، كما تعرف، فيكتور، تنطلق هكذا تماماً في اللحظة التي تكون هي مستعدَّة للرقص. في أيِّ حال، إنَّها في مكان إقامتي، تقضي يومها وتنتظر بتوق بطلها الرحَّالة».

اتَّجهنا بالسيّارة إلى أعلى طريق تشيرنغ كروس عند سيرك كمبريدج، وكدنا ننزلق تحت شاحنة عسكريَّة محمَّلة بالجنود البريطانيِّين الصاخبين.

«تعبئة عامّة»، قلت.

«سيكون الأمر دمويّاً من دون الجبهة الشرقيَّة، كما تعرفان»، قال نيك، محاولاً أن يبدو صارماً، وهو تأثير لم يقدِّم له فيه شاربه أيَّ مساعدة.

شخر بوي، في المقعد الخلفيِّ، شخرة متهكِّمة. نظر نيك إليه في مرآة السيَّارة، ثمَّ التفت إليَّ.

«ما هو رأي الحزب، فيك؟»

هززت كتفيَّ.

«نجد أصدقاءنا حيث يمكننا ذلك»، قلت، «بعد كلِّ شيء وينستون لديه روزفلت».

همهم نيك ساخراً.

---

(85) منطاد كبير في شكل صاروخ، يثبّت في الأرض بكابلات وشبك. شاع استخدامه في الحرب العالميّة الثانية كطعم للطائرات التي تطير على ارتفاع منخفض. (م)

«أوه، يا إلهي!»، قال، «تكلَّم يوريزين[86]».

كان منزل بولاند ستريت هادئاً على نحو غير معهود في فتور بعد ظهر أحد أيّام الصيف. لـمَّا كنَّا نترجَّل من السيَّارة سمعنا صوت جاز في الأعلى. صعدنا إلى غرفة نيك ووجدنا بيبي ترتدي فستاناً، وبطنها منتفخ، تجلس على كرسيّ قصبيٍّ عند النافذة، وقد باعدت ما بين قدميها، وعشرات الأسطوانات منثورة عند قدميها، وفونوغراف نيك ينفجر صاخباً بأعلى صوت. انحنيت نحوها وقبَّلت خدّها. كانت رائحتها، ليست برائحة حليب مكروهة، كرائحة ماء زهر بائت. تأخّرت ولادتها أسبوعاً وكنت آمل أن أفوّت الولادة.

«أكانت رحلة لطيفة؟»، قالت، «سعيدة لأجلكما. بوي، عزيزي: قبلة، قبلة».

ركع بوي على ركبتيه أمامها، وضغط رأسه في التلّ الكبير المتشكّل من بطنها، يبكي بكاء أطفال بهيام ساخر، في حين تقبض عليه من أذنيه وتضحك. كان بوي لطيفاً مع النساء. تساءلت على مهل، كما أفعل غالباً، ما إذا كان هو وبيبي قد عاشا علاقة غراميَّة في أحد أطواره الجنسيَّة حين كان يعاشر من غير جنسه. أبعدت وجهه، فانثنى وجلس عند قدميها ومرفقه مثبَّت على ركبتها.

«لقد افتقدك زوجك على نحو فظيع»، قال، «سمعته كلّ ليلة ينتحب انتحاباً مروِّعاً».

شدَّت شعره.

«أنا متأكِّدة»، قالت، «من الواضح أنَّ كليكما مرَّ بوقت عصيب. كم

---

(86) في أسطورة الشاعر الإنكليزيّ ويليام بليك يوريزين تجسيد للعقل والقانون، وعادة ما يُصوّر بأنّه رجل مسنّ ملتح صاحب حكمة كونيّة. (م)

أنتما مدبوغان. كلّي لهفة إليكما، حقّاً؛ أتمنّى ألّا أبدو امرأة رثّة الملابس».

كان نيك يمشي مضطرباً. حملق في الفونوغراف.

«هل تمانعين في أن أوقف هذا الصخب الزنوجيَّ»، قال، «لا أستطيع سماع نفسي وأنا أفكّر».

رفع ذراع التشغيل وترك الإبرة تطلق صرخة عبر الأخاديد.

«خنزير!»، قالت بيبي بخمول.

«خنزيرة»، أدخل الأسطوانة في غلافها ذي اللون البنّيّ، ثمَّ ألقاه جانباً، «دعونا نشرب بعض الجن».

قالت بلهجة الأطفال: «أوه، نعم أرجوك. شراب لطيف لِـمامي. أو هل ينبغي لي؟ أليس هو الجن الذي ينقذ فتيات المتجر؟ لنفترض أنّ الوقت قد فات بالنسبة إليَّ كي أجهض، مع ذلك».

عانق بوي ركبتيها «كوني شجاعة عزيزتي».

وهكذا بدأت الأمسية، نيك وبيبي رقصا معاً لبعض الوقت، ونحن أنهينا قنينة الجن، ثمّ غيَّر نيك لباسه العسكريَّ، وكلّنا نزلنا إلى حانة ذا كوتش آند هورسيز، وتناولنا بعض الشراب. بعد ذلك ذهبنا للعشاء في مطعم سافوي. كان سلوك بوي سيِّئاً وبيبي شجّعته، وصفّقت بيديها مثل فقمة وهي تضحك، والناس حول الطاولة المجاورة نادوا رئيس النادلين واشتكوا منّا. حاولت الانضمام إلى هذا المرح القبيح -على الرغم من كلِّ شيء كنَّا أطفالاً في العشرينات من أعمارنا- لكنَّ قلبي لم يمل إلى ذلك. كنت في الثانية والثلاثين، وأوشك أن أصبح أباً؛ وكنت باحثاً أتمتّع بسمعة ليست بقليلة (كيف تسمح دقّة اللغة بالتعبير عن هذه الأشياء)، لكنَّ ذلك لم يكن تعويضاً كافياً لواقع أنّني لم أصبح قطُّ عالم رياضيّات، أو فنّاناً، وهما

الوظيفتان الوحيدتان اللتان رأيتهما جديرتين بذكائي (صحيح، هكذا كنت أفكِّر). من الصعب على المرء أن يعيش حياة دائماً ما تكون على مفصل من الحياة التي يعتقد أنَّه يتوجَّب عليه أن يعيشها. لم أطق الانتظار حتَّى تبدأ الحرب.

كان نيك خافتاً أيضاً، استرخى بكلا جانبيه في كرسيِّه ومرفقه على الطاولة وجبينه مثبّت بسبَّابته، يشاهد سلوك بوي وأخته بنفور واضح.

«هل لا تزال تلعب لعبة الجاسوسيَّة؟»، قلت.

حوَّل نظرته المتجهِّمة نحوي.

«ألستَ كذلك؟»

«أوه، لكنَّني مختصٌّ باللغات، هذا يكاد لا يُحدث فرقاً. أتخيَّلك تتبادل الحقائب على منصَّة محطّة في إسطنبول، هذا النوع من الأشياء. كثير من الأعمال التي تُظهر شجاعة بطوليَّة».

عبس.

«ألا تعتقد أنَّ وقت التذاكي قد ولَّى».

كم كان يبدو سخيفاً على نحو محبَّب حين يقول أشياء كهذي، وكان يعلم ذلكِ. يا له من آلة حاسبة.

«أنا حسود فحسب»، قلت، «كلب بليد».

هزَّ كتفيه. لمع شعره الأسود المغطَّى بالزيت بلمعان سترته الكئيب نفسه.

«يمكنك أن تفعل شيئاً ما»، قال، «انشغل بأمر آخر. كلُّ شيء سيتغيَّر في أيِّ يوم الآن. وستفتح كلُّ أنواع الفرص».

«مثل ماذا؟»

كان بوي يوازن زجاجة النبيذ على ذقنه. ولـمّا تكلَّم بدا صوته المطبق المخنوق الخارج من جسده كما لو أنَّه قادم من السقف.

«لماذا لا تعيد تأهيله كعضو في البرلمان»، قال.

كانت بيبي، بابتسامة شريرة، تدغدغ حنجرة بوي لتجعله يُسقط الكأس.

«لا أعتقد أنَّ فيكتور سيكون أفضل في السياسة»، قالت، «لا أستطيع تخيُّله في حملة انتخابيَّة، أو يلقي خطابه الأوَّل في المجلس».

«إنَّه يقصد الشرطة العسكريَّة»[87]، قال نيك، «زيٌّ جديد. بيلي ميتشيت هو المسؤول. تخلَّي عن ذلك بيبي، هل تفعلين؟ سنكسر الكؤوس كلَّها فوق الطاولة».

«معكِّر لحظات الفرح».

قلب بوي كأس النبيذ من على ذقنه وأمسكها برشاقة. ثمَّ طلب زجاجة شمبانيا. بطبيعة الحال كنت أستطيع الشعور بصداع، صباح اليوم التالي يبدأ الطرق في رأسي. لمست ذراع بيبي: كم كانت بشرتها ناعمة ومشدودة في تلك المرحلة المتأخِّرة من الحمل.

«أعتقد أنَّ وقت الذهاب إلى المنزل قد حان»، قلت.

«يا إلهي»، قالت موجِّهة كلامها إلى الطاولة، «ألا يبدو أباً بالفعل؟»

أدركت أنَّني كنت ثملاً، بطريقة ثقيلة لم أرغب فيها: شفتاي كانتا قد تخدَّرتا، ووجنتاي كانتا مغطَّاتين بزبد هشٍّ، لامع، جافّ. لطالما كنت مهتمّاً بآثار الثمالة، متسائلاً، كما أفترض، ما إذا كنت، في يوم ما، سأشرب كثيراً وأفشي كلَّ أسراري. ثمَّ حينما أكون ثملاً أظنُّ هذا ما يبدو عليه باقي الناس

---

(87) اللبس في المعنى هنا جاء من الاختصار MP الذي يعني عضو برلمان، ويعني أيضاً الشرطة العسكريّة. (م)

طوال الوقت: متهوِّراً، أخرقَ، عاطفيّاً، ضعيفاً. كان بوي وبيبي يلعبان لعبة بأعواد الكبريت وملاعق القهوة، يميلان برأسيهما معاً ويقهقهان. كان نيك قد أشعل سيجاراً كبيراً غريباً. كان للشمبانيا مذاق سيِّئ.

«اسمع»، قلت له، «أخبرني عن موضوع الشرطة العسكريَّة هذا. هل سيكون ظريفاً؟»

فكَّر، وهو يحدِّق إلى غيمة الدّخان.

«ينبغي أن أحسبه كذلك»، قال بارتياب.

«كيف يمكنني الدخول؟»

«أوه، لا تقلق بشأن هذا. يمكن أن أسوِّي الأمر. لي كلمة لدى بيلي ميتشيت. وغالباً ما أصادفه في الأرجاء».

«ماذا عن» -هززت كتفيَّ- «ماضيَّ؟»

«تقصد تلك الأمور المتعلِّقة بالجناح اليساريّ؟ لكنَّك تخلَّيت عن كلِّ ذلك، أليس كذلك؟ ولا سيّما الآن».

«لِمَ لا تنضمُّ إلى الجيش، مثلما يفعل كلُّ شخص آخر؟»، قالت بيبي، وهي ترمقني بنظرة قلقة غير ثابتة، «ذلك العميد الذي يعرفه بابا يمكن أن ينسّبك إليه. إذا أخذوا نيك فإنَّهم سيأخذون أيَّ أحد».

«إنَّه يتوق إلى العباءة والخنجر»، قال بوي، «أليس كذلك، فيك؟»

حملق نيك في الطاولات القريبة المجاورة.

«هلّا صمتَّ يا بوي»، قال، «لا نريد أن يعرف نصف أبناء لندن بشؤوننا».

هزَّت بيبي رأسها باشمئزاز.

«يا له من فتى يكشفكم جميعاً».

«بوي في الكشَّافة»، قال بوي بميوعة.

ضربته بيبي على ذراعه.

«أصغِ إليَّ»، قال نيك موجِّهاً حديثه إليّ، «تعالَ في الصباح إلى جوار المنزل. سنجد ميتشيت، وسأقدِّمك إليه. إنَّه مستقيم تماماً. بيلي العجوز، سيجدك مناسباً».

وصلت زجاجة شمبانيا جديدة.

«عجباً»، قالت بيبي الآن، «لا أشعر بأيِّ سوء». كانت تجلس ومرفقاها على الطاولة، تلوي منديلاً بين أصابعها. شاحبة وعيناها كانتا باهتتين، وعلى نحو ما شاردتين كأنهما تحاولان إيجاد طريقة للالتفاف والنظر إلى شيء ما داخل رأسها. «عجباً»، قالت من جديد، وأخذت نفساً عميقاً بسرعة. ثمَّ رفعت نفسها ووقفت تتمايل، يدٌ على ظهر كرسيِّها والثانية تضغط بإحكام تحت بطنها «سأذهب للتبرُّج»، تمتمت وانطلقت نحو حمَّام السيِّدات. وقفت لأساعدها، لكنَّها دفعتني جانباً، واتَّخذت طريقها وحدها بين الطاولات تتمايل على عقبيها الجميلين المتناسقين على نحو غريب -تلك العظام لطالما جعلتني أفكِّر في الفراشات- وكعبَيها المرتفعين النحيلين.

«اجلس فحسب، فيكتور»، غمغم نيك بغضب، «الناس يحملقون».

جلست. شربنا شمبانيا أكثر. وبعد ما بدا أنّه وقت طويل عادت بيبي، تخطو بحذر شديد محافظة على الابتسامة الشاحبة نفسها. لمَّا وصلت إلى الطاولة وضعت يدها لتثبِّت نفسها، ووقفت تفحصنا بجوٍّ من المفاجأة المشرقة.

«من كان يصدِّق ذلك؟»، قالت، «ثمَّة ماء. لقد نزل ماء الرحم حقّاً».

*

ولد ابننا في الساعات الأولى في الصباح التالي. لم أوثِّق الوقت المحدَّد لولادته -كنت لا أزال نصف ثمل- ولم يكن لبقاً السؤال. أفترض أنَّ هذا ربَّما يعدُّ المثال الأول لإهمالي، في العموم، لابني، الأمر الذي كان ضمنيّاً يتَّهمني به دائماً. لـمَّا سمعت صرخته الأولى كنت أتمشَّى وأدخِّن، كما يفترض بأيِّ أب مترقِّب أن يفعل، خارج غرفة الولادة -لم يكن هناك، في تلك الأيَّام، أيُّ من الهراء المتعلِّق بجرِّ الأب ليشهد الولادة- واختبرت هزَّة، نوعاً من الوثبة، في منطقة الحجاب الحاجز خاصَّتي، كما لو كان ثمَّة حياة جديدة، طوال الوقت، تنمو فيّ أيضاً، غير ملاحظة حتَّى لحظتها. أتمنَّى لو أستطيع القول إنَّني شعرت بالفرح، والإثارة، ذلك الإدراك الغامض لكوني أصبحت فجأة في سموّ روحيٍّ -وكان ينبغي لي ذلك. بالتأكيد كان ينبغي لي ذلك- لكن ما أتذكَّره بوضوح تامّ هو شعور بالبلادة والثقل كما لو أنَّ هذه الولادة قد أضافت إليَّ حقاً على نحو ما، وأقصد إلى تكويني الجسديّ؛ كأنَّ فيفيين قد مرَّرت إليّ وزناً إضافيّاً غير ملائم سينبغي لي حمله معي من الآن فصاعداً في كلِّ مكان. الطفل الحقيقيُّ، في الجانب الآخر، لم يكن يزن شيئاً تقريباً. حملته بين ذراعيَّ بحنان أخرق، محاولاً التفكير في شيء أقوله. ولـمَّا تذوَّقت الماء الدافئ المالح الذي كان يقطر في زاويتَي فمي فحسب أدركت أنَّني كنت أبكي. فيفيين، المترنِّحة في سريرها الذي كان لا يزال ملطَّخاً بالدم، وعيناها محمرَّتان، وشعرها قد استغرق في العرق، تجاهلت دموعي بلباقة.

«حسناً»، قالت بصوت ثقيل، وهي تحرِّك لسانها الرماديَّ الممتلئ على نحو مثير فوق شفتيها المتشقِّقتين، «على الأقلِّ سينادي الناس باسمي

الحقيقيّ من الآن فصاعداً. من سيستطيع الحديث عن ابن بيبي ويبقى وجهه مستقيماً[88]؟»

*

كانت الشمس مرتفعة حين وصلت إلى المنزل -كان المنزل وقتها شقَّة في بايسوتر كان علينا الإبقاء عليها وقتاً طويلاً فترة الحرب، مع أنَّ أحداً منَّا لم يقضِ وقتاً طويلاً فيها- لكنَّ الحديقة التي كان قد حُفر خندقها حديثاً في شكل خطٍّ متعرِّج كانت لا تزال رماديَّة بفضل الندى، وكان ثمَّة حزم ضباب تحت أغصان الأشجار المترنِّحة أصلاً. استلقيت على إحدى الأرائك، وحاولت النوم، لكنَّ شراب الليل كان لا يزال يعمل داخلي وذهني كان في سباق. نهضت، وشربت قهوة مضافاً إليها البراندي، وجلست في المطبخ أشاهد الحمامات على مخرج الطوارئ وهي تنظِّف ريشها ويدفع بعضها بعضاً. صمتُ الصباح الداخل من الشوارع جلب معه إحساساً غريباً بالخفَّة، كما لو كان العالم يطفو على نحو حالم، ينتظر صخب النهار ليبدأ في التحرُّك، وليعطي كلَّ شيء وزنه المناسب. وبعد أن أنهيت تناول طعامي لم أستطع التفكير في ما سأفعله غير ذلك. طفوت في الشقة مثل شبح قلق. كان غياب فيفيين أشبه بوجود. أضافت الفجوات في الجدران إحساساً كئيباً بأنَّ الأشياء موجودة على نحو ما هناك -بسبب توقُّع الغارات الجويَّة دفعت المعهد ليسمح لي بتخزين لوحاتي: بما فيها لوحة موت سينيكا في القبو السفليّ. كان الوقت صباحاً، وأنا كنت أباً، لكنِّي بدوت كأنَّني في نهاية ولست في بداية. استمعت

---

(88) اسم دلعها بيبي Baby، وكلمة رضيع معناها بالإنكليزيَّة baby، أيّ أنَّهما، هي ورضيعها، سيحملان الاسم نفسه، لذا سيناديها الناس الآن باسمها فيفيين. (م)

إلى أخبار الساعة السابعة عبر المذياع. كانت كلُّها أخباراً سيِّئة. جلست على الأريكة من جديد، لأستريح للحظة ولأهتمَّ بوجهي المتألِّم. وبعد ذلك بثلاث ساعات وجدت نفسي أصارع من أجل النوم بعينين محترقتين، ورقبة متصلِّبة، وغطاء فظيع من الريق الجافّ على لساني. أذكر أنَّها كانت قيِّمة على نحو غامض، تلك الإغفاءة القصيرة. بدت خطوة خارج العالم، وخارج نفسي، كالنوم الذي يُمنح للبطل في حكاية سحريَّة قبل الانطلاق إلى مغامراته المحفوفة بالمخاطر. حلقت ذقني، محاولاً تجنُّب ملاقاة عينيَّ في المرآة، ونزلت إلى وايتهول لأتحدَّث إلى بيلي ميتشيت.

كان شابّاً في الخامسة والثلاثين، أحد أنواع طلاب المدارس العامَّة الخالدة التي كان واجباً عليها أن تنهض بنا في السنوات الأولى من الحرب، صغيراً، قصيراً، قويَّ البنية، بوجه ورديّ معبِّر على نحو مؤثر، وعقصة من الشعر الأشقر الخشن علقت منخفضة على جبينه، ثمَّ ارتفعت في دوامة معقَّدة على تاج رأسه، معطية إيَّاه مظهر كُدس قمح غير مرتَّب. يرتدي بذلة تويديَّة وربطة عنق إيتون بعقدة بدت كما لو أنَّ أمَّه كانت قد عقدتها له في أوَّل يوم من أيَّام المدرسة ولم تُفكَّ منذ ذلك الحين. كان يحمل غليوناً لا يناسبه، ولم يتمكَّن من التعامل معه، فبقي يحشوه ويدكُّه ويجرِّب إشعاله من غير فاعليَّة باستخدام أعواد ثقاب مفرقعة. وكانت غرفة مكتبه الضيِّقة تطلُّ على مشهد أخَّاذ لقناطر وأسقف مسنودة وسماء فخمة. كان نائب مراقب المخابرات العسكريَّة، وكان من الصعب تصديق ذلك.

«عجباً، بيلي!»، قال نيك وجثم عند زاوية مكتب ميتشيت، وهو يؤرجح ساقاً واحدة. كنت قد اتَّصلت به من الشقَّة. وهو كان ينتظرني في مكتب الأمن حين وصلت، فابتسم ابتسامة عريضة لأجل سحنتي المسلولة

وعينيَّ المنتفختين؛ لم يعد نيك يعاني من صداع الكحول، فهذا النوع من الأشياء كان يناسب رتباً أخرى. «بيلي، هذا هو ماسكل»، قال الآن، «الشابُّ الذي كنت أخبرك عنه. أتوقَّع منك أن تعامله كما تفعل مع صهر لي».

هبَّ ميتشيت واقفاً، وهو ينقر على مجموعة من الأوراق على المكتب، وصافح يدي بقوَّة.

«رائع!»، قال مبتسماً بفمه وعينيه وأذنيه، «بالتأكيد!»

رفع نيك بشغف وسرعة الأوراقَ التي كان بيلي قد أسقطها، ثمَّ أرجعها فوق المكتب. كان يفعل ذلك دائماً؛ ينظِّم الأشياء على نحو صحيح، كما لو أنَّ مهمَّته الخاصَّة كانت هي تخفيف الكوارث الصغيرة، ودون أيِّ ضرر؛ الكوارثَ الصغيرة التي لم يكن في مقدور الآخرين، الأقلِّ رشاقة منه، إلَّا أن يحدثوها وهم يتعثَّرون في طريقهم عبر العالم.

«إذا كنت تفكِّر في شحوبه»، قال، «فهذا لأنَّه كان مستيقظاً طوال الليل -أختي، زوجته، ليساعدها الله، أنجبت أوَّل طفل لهما منذ بضع ساعات».

نمت ابتسامة أعرض على وجه ميتشيت، وشدَّ على يدي مرَّة أخرى، بقوَّة متجدِّدة، على الرغم من أنَّ شيئاً ما مضطرباً، ماكراً قد ظهر على نظرته؛ أطفال صغار، الآن، الأطفال الجدد ليسوا موضوعاً ينبغي لشاب أن ينظر فيه في هذه اللحظة من التاريخ التي وجدنا أنفسنا فيها.

«رائع!»، قال مرَّة أخرى، وعلى نحو واضح ينبح بالكلمة. «صبيٌّ، أليس كذلك؟ ظريف جدّاً. الصبيان هم الأفضل. متعدِّدو البراعات. اجلس. هل تدخِّن؟»، تراجع إلى ما وراء مكتبه وجلس ثانية، «الآن -نيك أخبرني أنَّك سئمت كونك ناسخاً؟ مفهوم. آمل أن أخرج إلى الميدان بنفسي، بأسرع وقت».

«أتظنُّ أنَّ حرباً ستندلع؟»، قلت. كان هذا سؤالاً أحبُّ طرحه في تلك الأيَّام، فهو سؤال لم يفشل قطُّ في تقديم أجوبة مسلِّية. كان ردُّ فعل بيلي ميتشيت ممتعاً على نحو الخصوص، فقد كشَّر، بعينين جاحظتين، بدهَش شفوق، وضرب يده على المكتب، ونظر حوله إلى جمهور وهميّ طالباً جذب انتباههم إلى سذاجتي.

«لا شكَّ في ذلك، أيُّها العجوز. مسألة أيَّام. ربَّما نكون خذَلْنا التشيكيَّ جوني -على نحو مخز، إذا أردت معرفة رأيي المتواضع- لكنَّنا لن نتخلَّى عن البولنديِّين. الصديق أدولف يوشك أن يتلقّى مفاجأة بغيضة هذه المرَّة».

نيك، لا يزال يؤرجح قدميه، وكان يبتسم لميتشيت بفخر، كما لو كان قد اخترعه.

«وأولاد بيلي»، قال، «سيكونون في طليعة الحفل المفاجئ، صحيح بيل؟»

أومأ ميتشيت بسعادة وهو يمتصُّ غليونه، وطوى ذراعيه بإحكام حول صدره كأنَّه كان يمنع نفسه من القفز والقيام بحركات رقص.

«لقد حصلنا على مكان بالقرب من آلدرشوت. منزل قديم كبير وأراضٍ. هذا هو المكان الذي ستقوم فيه بتدريبك الأساسيِّ».

مرَّت فترة صمت عمد كلاهما في أثنائها إلى النظر إليَّ والابتسام.

«التدريب الأساسيُّ؟»، قلت بصوت خفيض.

«أخشى ذلك»، قال ميتشيت، «أنت الآن في الجيش، وكلّ تلك الأمور المتعلِّقة به. حسناً، ليس الجيش بالضبط، لكن بالقرب منه. افهم. ما نحن عليه هو أمن الميدان، وهو فرع من فيالق الشرطة العسكريَّة. كثير من الهراء، تلك الألقاب الوهميَّة، لكن ها أنت ذا». نهض من جديد، وبدأ يمشي على رقعة الأرضيَّة أمام مكتبه، الغليون يتدلَّى من أسنانه، وإحدى

يديه في الخلف تضغط على جزء صغير من ظهره، مشية لا بدّ استعارها من بطل ما في مرحلة شبابه، عمّ عسكريّ محترم، أو من مدير قديم، كلُّ شيء يتعلَّق ببيلي ميتشيت كان قد جاء من مكان آخر. غمزني نيك. «أنت مختصٌّ باللُّغات، صحيح؟»، قال ميتشيت، «هذا جيِّد، هذا جيِّد. كيف هو حالك في اللُّغة الفرنسيَّة؟».

«الفرنسيَّة؟ أستطيع تدبير نفسي».

«إنَّه يتواضع»، قال نيك، «هو يتحدَّثها مثل مواطنيها».

«ممتاز، لأنَّنا سنحتاج إلى متحدِّثين بالفرنسيَّة. هذا سرِّي. أنت تفهم ذلك، لكن بما أنَّك في الوكالة فسأخبرك: بمجرَّد أن يرتفع المنطاد، فسيتمُّ إرسال بعثة كبيرة من قوَّاتنا بسرعة إلى هناك لترفع معنويات الفرنسيِّين -أنت تعرف كيف يكون حالهم. سيحتاج شبّاننا إلى إبقاء عيونهم مفتوحة -تسلُّل محتمل، فحص رسائل، وأشياء من ذا القبيل- حيث ندخل. هل لديك أيّ فكرة عن منطقة النورماندي، تلك المنطقة؟ حسناً، أنا لم أقل ذلك» -أغمض عيناً، ووجَّه إصبعه إليَّ كما لو كانت ذراع بندقيَّة- «لكنَّني أعتقد أنَّه ليس مستحيلاً أنَّك ربَّما تركِّز جنوداً ليس على مسافة بعيدة من تلك المنطقة. لذا: وضِّب أغراضك، قبِّل زوجتك وابنك، واتَّخذ أوَّل قطار متاح إلى بينغلي مانور».

مذهولاً، مرَّرت نظري من ميتشيت إلى نيك وبالعكس.

«اليوم؟»، قلت.

أومأ ميتشيت.

«بالتأكيد إذا لم يكن قبل ذلك».

«لكن»، قلت، «ماذا عن... ماذا عن منصبي الحالي؟»

«أخبرتك أنَّني سأسوِّي ذلك»، قال نيك، «لقد تحدَّثت صباح اليوم إلى رئيس قسمك. لقد تمَّ تحريرك من تاريخ...»، نظر في ساعته، «...ابتداءً من الآن تماماً».

رمى ميتشيت نفسه من جديد على مقعده، وفرك يديه، وضحك.

«نيك شخص فاعل»، قال، «كلُّنا في حاجة إلى أن نكون فاعلين، قريباً»، عبس فجأة، «لكن تمهَّل: ماذا عن تضارب الولاءات؟»

حدَّقته.

«تضارب ماذا...؟»

«نعم، أنت إيرلنديٌّ، أليس كذلك؟»

«حسناً أنا... بالطبع أنا...»

انحنى نيك إلى الأمام، وربَّت على كتفي بلطف.

«إنَّه يخدعك، فيكتور».

نخر ميتشيت بحبور.

«آسف أيُّها الشابُّ العجوز»، قال، «مازح رهيب، أنا. ينبغي أن تكون قد عرفتني منذ أيَّام المدرسة. كنت مرعباً». وقف، وعرض عليَّ يده عبر المكتب، «مرحباً بك على متن السفينة. لن تندم على ذلك. وفرنسا، كما يخبرونني، ليست مكاناً سيِّئاً على الإطلاق، في الخريف».

لـمَّا صرنا خارجاً، أخذني نيك إلى حانة رينر في شارع جيرمين ليشتري كوباً احتفاليّاً من الشاي «-خزان الذهب»، قال، «كما أفترض أنَّه ينبغي لنا أن نسمِّيها من الآن فصاعداً. رحيق الرجل المقاتل».

شعاع من أشعّة شمس صفراء ضرب الطاولة بيننا، واهتزَّ في الوقت نفسه مع خفقان صدغيَّ. على الرغم من رقّة يوم آخر الصيف الحالم، فإنَّ

السيَّارات المارَّة في الشارع بدت لي حدباء قلقة.

«يا يسوع المسيح، نيك»، قلت، «هل سيكونون جميعاً هكذا؟»

«تقصد بيلي؟ أوه، بيلي بخير».

«إنَّه طفل دمويٌّ».

ضحك، وأومأ برأسه، وهو يلفُّ رأس سيجارته على طرف منفضة السجائر ليجعلها في شكل مخروط.

«نعم. هو قاس بعض الشيء، لكنَّه مفيد»، حملق فيَّ ثمّ بعيداً، يبتسم ويعضُّ شفته، «الحرب ستجعله يكبر». أحضرت النادلة شاينا. بذهن شارد ابتسم لها ابتسامة رائعة، كان يتدرَّب دائماً، كان نيك. «إذاً»، قال بعد أن ذهبت المرأة، «أيّ اسم ستطلقه على هذ الولد، ابنك؟»

*

كانت فيفيين، لـمَّا وصلتُ إلى المستشفى ظهر ذلك اليوم، قد تغيَّرت هيئتها. كانت تجلس في السرير، مرتدية غطاءً من الساتان أبيض بلون اللؤلؤ، تلمِّع أظافرها. كان شعرها مموَّجاً («جاء ساشا بنيسه ليصفِّف لي شعري») وكانت تضع أحمر شفاه، وقد تورَّد خدَّاها ببقعتين حمراوين قياس كلٍّ منهما بقياس عملة (فلورين).

«تبدين كمهرِّج»، قلت.

فغرت ثغرها نحوي.

«أفترض أنَّه أفضل من عاهرة، أو هل هذا ما قصدت قوله؟»

كان ثمَّة زهور في كلِّ مكان، على عتبة النافذة، وعلى الطاولة الجانبيَّة، حتَّى على الأرض، بعض الطاقات لا تزال في ورقتها الحافظة؛ عطرها المسكيُّ

الخاصّ فاح في جوّ الغرفة. مشيت باتِّجاه النافذة، ووقفت ويداي في جيبيَّ أنظر خارجاً نحو جدار من الطوب الأسود تظهر عليه شبكة معقَّدة لأنابيب الصرف. خطوط ميلان أشعَّة الشمس وظلال القرميد أوحيا بأنَّ ظهر الصيف الحارّ يستمرُّ في مكان آخر.

«كيف هو... كيف هو الطفل؟»، قلت.

«الــ.. ماذا؟ يا إلهي، لم أفهم ما قصدت للحظة. إنَّه هنا، إذا كان يجب عليك رؤيته». دفعت جانباً سعفة سرخس معلَّقة لتكشف عن سرير طفل مع بطانيَّة زرقاء، فوق الطوية حيث تُرى تحتها قطعة لحم ورديّة. لم أتحَّرك من عند النافذة. ابتسمت لي، ارتعش حاجبها «نعم، إنَّه لا يقاوم، أليس كذلك. ومع ذلك لـمَّا رأيتَه أوَّل مرَّة بكيت، أو هل كان ذلك فحسب بسبب كلِّ الشمبانيا التي شربتَها الليلة الفائتة؟»

اقتربت، وجلست على طرف السرير، وانحنيت لأردَّ البطانيَّة، وتأمَّلت وجنة الطفل الدافئة وفمَه المنمنم الصغير. كان نائماً ويتنفَّس بسرعة كبيرة، محرِّك ناعم صغير جدّاً. شعرت... بالخجل هي الكلمة الوحيدة المناسبة. تنهَّدت فيفيين.

«هل ارتكبنا خطأً»، قالت، «أحضرنا مخلوقاً صغيراً بائساً إلى هذا العالم المروّع؟». أخبرتها عن مقابلتي مع بيلي ميتشيت، وأنَّني قد أسافر بعيداً. كادت لم تسمعني واستمرَّت في النظر مذهولة بالطفل.

«لقد قرَّرتُ اسماً»، قالت، «هل أخبرتك؟ سيشعر أبي بخيبة أمل، وأفترض أنَّ والدك سيشعر كذلك أيضاً. لكنَّني أعتقد أنَّ من الخطأ أن نقيِّد الطفل باسم أحد أجداده. فهذا سيتطلَّب أن نبذل ما في وسعنا كي يكون جديراً بالاسم، أو لن يتطلَّب منَّا شيئاً، وفي الحالتين هو أمر سيِّئ».

بدأ صوت سيَّارة إسعاف يدوِّي بالقرب منّا. كان صوتاً عالياً، وعلى نحو ما هزليّاً، وتوقَّف فجأة كما بدأ.

«ربَّما هو تدريب»، قلت.

«ممم. ليلة أمس كان لدينا تدريب على إطفاء الأنوار كاملة. كان شائقاً ومريحاً. مثل تدريب المدارس. أنا واثقة من أنَّهم قضوا وقتاً لطيفاً في العنابر العامَّة، شعور بالبهجة وأشياء كهذه. الممرضات عدّوه لهواً رائعاً.

أمسكت يدها. كانت منتفخة قليلاً، وحارَّة على نحو محموم. كنت أستطيع تحسُّس الدّم المحتشد تحت الجلد.

«لن أكون بعيداً»، قلت، «هامبشاير، أسفل الطريق فحسب، فعلاً».

أومأت برأسها وهي تقضم بحيرة شفتَها، ولا تزال نظرتها مثبَّتة على الطفل.

«ربَّما ينبغي لي الذهاب إلى المنزل».

«سأطلب من شخص ما أن يعتني بكِ».

برقَّة، كما لو كانت غير مدركة لما تفعل، سحبت يدها من يدي.

«لا، أقصد أكسفورد. لقد تحدَّثت مع ماما عبر الهاتف، وسوف يأتون ليأخذوني، لا داعي للقلق».

«أنا قلق حقّاً»، قلت، وبدوت لنفسي على الفور حانقاً وعدوانيّاً.

«نعم، حبيبي»، قالت بذهول، «بالطبع أنت كذلك».

لم أكن أعتقد أنَّ كلَّ هذا سيكون صعباً للغاية.

«يهديك نيك حبَّه»، قلت، لكن هذي المرة بدوت منزعجاً، على الرغم من أنَّها لم تلاحظ ذلك، كما كان يبدو.

«أوه، نعم»، قالت، «لقد ظننت أنَّه ربَّما يزورنا لرؤية ابن اخته. غريبة

هذه المفردات الجديدة التي سيتعيَّن علينا الاعتياد عليها. أقصد مفردات مثل ابن أخت، خال، ابن، أمّ... أب». ابتسمت لي نصف ابتسامة متردِّدة كأنَّها تعتذر عن شيء ما. «أرسل بوي برقيَّة»، قالت، «انظر: كنَّا نعرف أنَّك تملك ذلك في داخلك. أتساءل ما إذا كان هذا أصيلاً؟»

«من المحتمل أن يأتي نيك لرؤيتك قريباً»، قلت.

«نعم. أفترض أنَّه مشغول للغاية، بالجيش وباقي الأمور. هذا يناسبه، أليس كذلك -كونه جنديّاً؟ وأتوقَّع أن يناسبك أنت، أيضاً».

«لن أصبح جنديّاً تماماً؛ بل أقرب إلى رجل شرطة».

وجدتُ ذلك ظريفاً.

«أنا واثقة من أنَّك ستبدو أنيقاً جدّاً، في لباسك العسكريِّ». كم هي غريبة لحظات الصمت تلك التي تحلُّ بين الأصدقاء الحميمين، تجعلهم غرباء عن بعضهم، وتجعلهم أنفسَهم. في لحظات كهذه، أيّ شيء قد يحدث. ربَّما كنت سأقف، على مهل، دون أن أنطق بكلمة، كما يقف المسرنَم، وأخرج من الغرفة، من الحياة، ولا أعود أبداً، ويبدو كأنَّ الأمر على ما يرام، وأنّ أحداً لن يلاحظ، أو يهتمَّ. لكنِّي لم أنهض، ولم أغادر. جلسنا لبعض الوقت، ومن الغريب أنَّنا كنّا مرتاحين مع أنفسنا ومع بعضنا بعضاً على نحو مثير للفضول، غارقين في غشاء الصمت ذاك، الذي لـمَّا تكلَّمت فيفيين، لم يبدُ أنَّها خرقته، لكن على نحو ما انزلقت داخله، كأنَّها انزلقت إلى داخل وسطٍ كثيف مغلق شقَّ جداره، حين دخلته، وأغلق وراءه والدبق يتخلَّله. «هل تذكر»، قالت برقَّة، «تلك الليلة في شقَّة نيك، حين كنت أرتدي ثياب صبيان، وأنت وكويريل جئتما ثملين، وبدأ كويريل يشتم شيئاً ما؟» أومأت؛ أذكُر «وأنت جلست على الأرض إلى جانب كرسيِّ، وأخبرتني عن نظريّة

بليك، أنَّنا نبني تماثيل وهميَّة عن أنفسنا، وأنَّنا نحاول أن نتصرَّف وفقاً له».

«ديدرو»، قلت.

«ممم؟»

«فكرة التماثيل كانت فكرة ديدرو، وليست فكرة بليك».

«نعم. لكن كان ذلك جوهرها، أليس كذلك؟ تماثيل منتصبة لأنفسنا، في رؤوسنا؟ اعتقدت أنَّك ذكيٌّ جدّاً، لذلك... أنت عاطفيّ. الإيرلنديُّ الجامح خاصَّتي. ثمَّ في وقت لاحق -لا بدَّ كان عند الفجر تماماً- لـمَّا كلَّمتني عبر الهاتف، وسألتني أن أتزوجك، كان هذا الأمر الأكثر إثارة للدهشة مع أنَّني لم أكن قد فُوجئت على الإطلاق».

هزَّت رأسها في ذهول مبهم، وهي تحدِّق إلى الماضي.

«لمَ تفكِّرين في هذا الآن؟»، قلت.

سحبت قدميها من تحت البطانيَّة، مع تكشيرة ألم حاولت قمعها مباشرة، ووضعت ذراعيها حول ركبتيها وعانقت نفسها وهي تتأمَّل.

«أوه، إنَّه فحسب...»، حدَّقتني ممتعضة، «كنت أفكِّر للتوِّ، لا يبدو أنَّني سأراك بعد الآن، تمثالَك فحسب».

لو كنت وقتها أخبرتها عن فيليكس هارتمان، وبوي، وألاستير، وليو روذنستاين. عن تلك الحياة الأخرى التي كنت أعيشها لسنوات دون أن تعلم شيئاً عنها، لكنِّي لم أستطع أن أضع نفسي على تلك الحافَّة، فأنا لم أخبرها قطُّ، ولا أيَّ شيء من ذلك، طوال السنين. ربَّما كان ينبغي لي ذلك؟ ربَّما كانت أضحت الأمور مختلفةً بيننا، لكنَّني لم أكن أثق فيها. كنت أخشى أن تخبر نيك، ولم أكن أطيق معرفة نيك ذلك. وفي النهاية، كانت هي من أخبرتني كلَّ ما كان يجب أن تعرفه.

«أنا آسف»، غمغمت، وأخفضت بصري.

ضحكت ضحكة متألِّقة.

«آسف، نعم»، قالت، «الجميع آسفون، لا بدَّ أنّ هذا الوقت عصيب».

فجأةً كنت قد برمت من كوني بعيداً. رائحة الأزهار، وقبلها رائحة المستشفى -رائحة الإيتير والطعام المغليّ، والبراز- ودفء الغرفة الصوفيّ، كلّ ذلك جعلني أشعر بالغثيان. فكَّرت في إيرلندا، الحقول المذروَّة بالريح فوق كاريكدرام، وسطح البحر الأزرق الشاحب وهو يمتدُّ على طول الطريق إلى بلفاست بجسورها وأبراجها وتلالها السود المسطَّحة. كانت هيتي قد كتبت إليَّ إحدى رسائلها النادرة مؤخّراً، قلقة من احتمال نشوب الحرب، وتسأل مهتمَّة عن حمل بيبي. كانت الرسالة مثل وثيقة من القرن الماضي؛ الورقة الثقيلة برائحة الصمغ مزخرفة بنقوش نافرة لكنيسة القديس نيقولا، وخطُّ هيتي الأنيق والهائج قليلاً. كلُّ حروف t ذات القبَّعات، وحروف o المذهولة، والصواعد والنوازل من الحروف الناتئة. آمل أن تكون فيفيين غير متضايقة. آمل أن تعتني بنفسك، أن تأكل جيِّداً في هذا الوقت العصيب فالحمية هي الأمر الأكثر أهمية. والدك لا يزال متوعِّكاً. هطل المطر عندنا أخيراً، لكنَّه لم يكن كافياً، فكلُّ شيء جافٌّ جدّاً وحالة المزرعة سيِّئة جدّاً...

كان لديّ خيال، نوع من أحلام اليقظة أنغمس فيها بين الحين والآخر، أي إذا ما ساءت الأمور -إذا خانني أحدهم، أو إذا ألقي القبض عليَّ بسبب إهمال منّي- فإنَّني، بطريقة ما، سأتَّخذ طريقي إلى إيرلندا، وأختبئ هناك في التلال، في ملجأ تحت الصخور، بين شجيرات الوين، وهيتي تأتيني كلَّ يوم بعربة الخيل مع سلَّة من الطعام لأجلي، مغطَّاة بمنديل أبيض، وتجلس معي حين آكل، وتستمع إلى قصَّتي، اعترافي، تلاوة أخطائي.

«يجب أن أذهب»، قلت، «متى سيأتي والداك؟»

غضَّت فيفيين طرفها، وأنهضت نفسها؛ كيف كان حلمها في الهروب، تساءلت؟

«ماذا؟»، قالت، «أوه، قبل نهاية الأسبوع».

في مهده، أصدر الصغير صوتاً في أثناء نومه مثل مفصل صدئ يتمُّ تحريكه. «علينا أن نفكّر في حفل التعميد، أنت لا تعرف، في هذه الأيَّام». لا تزال فيفيين متمسِّكة، بعناد أغضبني، بقليل من بقايا المسيحيَّة الرثَّة؛ كان هذا مصدر خلاف دائم بينها وأمِّها، «ينبغي أن يكون في أكسفورد، أظنُّ، ألا تعتقد ذلك؟»

هززت كتفيَّ.

«بالمناسبة، ماذا ستطلقين عليه اسماً؟»، قلت.

لا بدَّ أنَّني بدوت منزعجاً لأنَّها تقدَّمت بسرعة إلى الأمام، ووضعت يدها على يدي، وبلهجة لا يمكن أن تكون عبثاً أو ضرباً من التسلية:

«عزيزي، أنت لا تريد أن يُنادى فيكتور، أليس كذلك؟»

«لا، سيتنمَّر عليه رفاقه الألمان على نحو مروِّع في المدرسة، إذا ما خسرنا الحرب».

قبَّلت جبينها البارد الشاحب. وبينما كانت تنحني لتتلقَّى قبلتها، فتُح عنق سترتها قليلاً، ولمحت ثدييها الفضيَّين المنتفخين، فأحسست بشيء من الشفقة الغاضبة ترتفع في داخلي كالبركان.

«حبيبتي»، قلت، «أنا... أنا أريد...»

كنت نصف راكع على حافَّة السرير وفي خطر أن أقع، أمسكت بمرفقي كي تثبِّتني، ورفعت يدها، ولمست خدِّي.

«أعرف»، غمغمت، «أعرف». خطوتُ إلى الوراء، وأنا أزرّر سترتي وأنفض الغبار عن جيوبها. حرَّكت رأسها باتِّجاه واحد، وتأمَّلتني متعجِّبة. «ألن يكون هذا غريباً»، قالت، «في الأسابيع القادمة. كلّ هذه المشاعر، ولحظات الفراق الدامعة؟ تشبه القرون الوسطى، حقّاً. هل تشعر بأنَّك فارس توشك أن تخرج إلى القتال؟»

«سأتَّصل بك حين أصل هناك»، قلت، «إذا استطعت. قد لا يسمحون لنا باتِّصالات خارجيَّة».

«يا إلهي، هذا يبدو شائقاً حقّاً. هل سيكون معك مسدَّس وحبر سرّيّ وأشياء كهذه؟ لطالما رغبت في أن أكون جاسوسة. كما تعرف. أن أحصل على أسرار».

قبَّلت راحة أصابعها مودِّعة إيَّاي. ولـمَّا كنت أغلق الباب ورائي سمعت الطفل يبكي. كان ينبغي أن أخبرها؛ نعم، كان ينبغي أن أخبرها بهويَّتي: ما كنت، ومن كنت. وكان ينبغي لها، حينها، أن تخبرني أيضاً، في وقت أقرب ممَّا فعلت.

الشيخوخة، كما قال مرَّة شخص أحبُّه، ليست مغامرة تنطلق فيها بخفَّة. اليوم ذهبت لأرى طبيبي، وهي أوَّل زيارة منذ فضيحتي. كان لطيفاً بعض الشيء، كما فكَّرت، لكن لم يكن عدائيّاً. أتساءل ما هي مواقفه السياسيَّة، في حال كانت لديه مواقف أصلاً. هو من الطراز القديم، جافّ، لأكون صادقاً، طويل وعملاق، مثلي، لكنَّه أنيق في لباسه: أشعر أنَّني رثُّ الثياب تماماً أمام أناقته القاتمة، المعتدلة، الكئيبة قليلاً. في خضمِّ الفحص الاعتياديِّ من جسٍّ ونخسٍ أذهلني بقوله فجأةً، بنبرة موضوعيَّة: «أنا آسف لسماعي عن هذي المسألة عن تجسُّسك لصالح الروس! لا بدَّ أنَّها تسبّبت

بالإزعاج». حسناً، نعم، إزعاج: ليست كلمة فكَّر أحد آخر في أن يستخدمها في هذه الظروف. وبينما كنت ألبس بنطالي، جلس إلى طاولته وبدأ يكتب في إضبارتي.

«أنت في حال جيِّدة للغاية»، قال شارداً، «إذا أخذنا الأمر بعين النظر».

أصدر قلمه صوت خربشة.

«هل سأموت؟»، قلت.

واصل الكتابة لمدَّة دقيقة، وظننت أنَّه ربَّما لم يكن قد سمعني، لكن بعد ذلك، توقَّف، ثمَّ رفع رأسه ونظر إلى الأعلى كما لو أنَّه يبحث عن الصيغة الصحيحة تماماً للكلمات.

«حسناً، كلُّنا سنموت، كما تعرف»، قال، «أدرك أنَّها ليست إجابة مُرضية، لكنَّها الإجابة الوحيدة التي بإمكاني تقديمها. وهي الوحيدة التي أقدِّمها على الإطلاق».

«إذا أخذنا الأمر بعين النظر»، قلت.

حملق فيّ مع ابتسامة باردة، ومن ثمَّ عاد إلى الكتابة، وقال شيئاً غريباً.

«كان ينبغي أن أفكِّر في أنَّك ميت بطبيعة الحال، بطريقة ما».

عرفت ما قصد، بالطبع -الإذلال العلنيّ على نطاق واسع الذي اختبرته هو بالتأكيد نسخة من الموت، وهي ممارسة مستمرَّة إذا جاز التعبير- لكنَّها ليست نوع الأشياء الذي تتوقَّع سماعه من مستشار في شارع هارلي، أليس كذلك؟

كان لا يزال هناك الجزء الأفضل من الأسبوع قبل صباح الأحد ذاك، حين أخبرنا تشامبرلين، عبر أثير الإذاعة، بأنَّنا في حالة حرب. إنَّما كان هناك أيضاً ذاك الثلاثاء الخياليُّ، وهو اليوم الذي ولد فيه ابني، وأنا تزوَّدت فيه بأوَّل بزَّة عسكريَّة لي، ذاك اليوم الذي أظنُّ أنَّه كان الافتتاح الحقيقيَّ للعداوات، بالنسبة إليَّ. وأنا كنت لا أزال أعاني من صداع ما بعد الثمالة، وأتزوَّد بأيٍّ ما كانت احتياطات الطاقة التي لا يمكن تعويضها، غادرتُ المستشفى، وأخذت سيَّارة أجرة مباشرة إلى واترلو، وكنت في آلدرشوت عند الساعة الرابعة من بعد الظهر. لمَ تفوح من تلك البلدات رائحة خيول؟ مشيت بتثاقل عبر الشوارع التي تنضح بالحرارة إلى محطَّة القطار، أتعرَّق كحولاً صرفة، ونمت في الحافلة، وتوجّب على قاطع التذاكر هزِّي لأجل إيقاظي («تبّاً يا رجل، لوهلة ظننتك ميتاً»). بينغلي مانور كانت عبارة عن ركام قرميد أحمر بشع يعود إلى الحقبة القوطيَّة في القرن التاسع عشر، ينتصب في حديقة مسطَّحة كبيرة، مع منصَّات معزولة لشجر الصنوبر والصفصاف متهدِّل الأغصان، مثل مقبرة ممتدَّة غير مُعتنى بها. كان قد تمَّ الاستيلاء عليها من قبل بقايا أسرة كبيرة، كاثوليكيِّين حسب ما أعتقد، ثمَّ أعيد توطينهم في مكان ما في بلدة سومرست المظلمة. أصبت بالاكتئاب في الحال حين رأيت المكان. ضوء المساء الكثيف الذهبيُّ عمل فحسب على تعميق الجوِّ الجنائزيِّ. كان ثمَّة عرِّيف متغطرس يجلس في قاعة الاستقبال الكبرى -أحجار لوحيَّة،

قرون حيوانات، رماح متقاطعة، ودروع مغطّاة بالفراء- وقدماه على طاولة معدنيَّة، يدخِّن سيجارة. عبَّأت استمارة، وسلَّمني بطبيعة الحال بطاقة هويَّة قذرة. بعد ذلك، صعدت سريعاً الدرج، وعلى طول الممرَّات الخالية، كلُّ واحد منها أضيق وأكثر اهتراءً ممّا سبقه، بصحبة رقيب أوَّل أحمر الوجه، نافد الصبر، حافظَ، على الرّغم من محاولاتي لإقامة حوار، على نوع من الصمت الغاضب كأنَّه كان يرزح تحت نوع من منع كلام خاصّ. أخبرته أنَّني للتوِّ أصبحت أباً. لا أعرف لماذا قلت ذلك -فكرة سخيفة تقول إنَّ الطبقات الدنيا تعاني من ضعف تجاه الأطفال، كما أفترض. في أيِّ حال، لم تنجح الفكرة، فقد أطلق ضحكة غاضبة أقرب إلى شخير، واهتزَّ شارباه. «مبارك، سيِّدي، بالتأكيد»، قال دون أن ينظر إليَّ. على الأقلّ فكَّرت في أنَّه ناداني بسيِّدي على الرّغم من بزّتي المدنيَّة.

زوَّدوني بلباس عسكريٍّ قياسه غير مناسب -لا أزال أستطيع الشعور بالدغدغة والحكَّة في ذلك النسيج الصوفيِّ- ودلَّني الرقيب الأوَّل على سريري في ما كان في الماضي قاعةَ رقص طويلة مرتفعة، فيها كثير من النوافذ، مع أرضيَّة من خشب البلُّوط المصقول، وزخارف نباتيَّة جصِّيّة في السقف. كان هناك ثلاثون سريراً، وُضعت في ثلاثة صفوف منظَّمة. تسلَّلت أشعّة شمس ذهبيَّة عبر تلك الأسرَّة الأقرب إلى النوافذ مثل طائرات ورقيَّة مكسورة. شعرت بالضياع والرغبة في البكاء مثل ولد صغير في أوَّل أيَّامه في المدرسة الداخليَّة. ولاحظ الرقيب الأوّل حزني بكلِّ ارتياح.

«أنت محظوظ يا سيِّدي»، قال، «لا يزال العشاء يُقدَّم. يمكنك النزول بعد أن تغيّر ملابسك». قمع ابتسامة متكلّفة. واهتزَّت أجمة شاربيه الغاضبة من جديد، «اللباس العسكريُّ، نحن لا نلبس هنا ثياباً أخرى».

كانت إحدى غرف الخدم الكبيرة في القبو قد حوِّلت إلى قاعة طعام. وكان زملائي المجنَّدون بالفعل يأكلون. بدا المشهد رهبانيّاً على نحو محرج؛ أرضيَّة حجريَّة ومقاعد خشبيَّة، وأعمدة من أشعَّة الشمس المسائيَّة في النوافذ المقنطرة، وأشخاص أشبه بالرهبان ينحنون على قدور العصيدة. التفتت بضعة رؤوس حين دخلت، وأحدهم أرسل هتافات مثيرة للسخرية للوافد الجديد. وجدت مكاناً إلى جانب رجل اسمه باكستر، زميل وسيم على نحو بغيض، بشعر أسود سينفجر من بزَّته العسكريَّة. قدَّم نفسه في الحال، وصافحني باليد بشدَّة جاعلاً براجم أصابعي تصرُّ، وتحدَّاني لأقول ما ظننت أنَّه يقوم به من أجل لقمة عيشه في شارع سيفي. قدَّمت بضعة تخمينات بائسة، ابتسم لها وأومأ برأسه بسعادة، وأغلق عينيه الاثنتين بأهدابهما الطويلة. كان، كما اتَّضح، رجل مبيعات وسائل منع الحمل. «أسافر في كلِّ أنحاء بريطانيا، ثمَّة طلب عظيم على الواقيات المطاطيَّة، ربَّما تُفاجأ. ماذا أفعل هنا؟ حسناً، إنَّها اللغة، أستطيع تكلُّم ستِّ لغات -سبع إذا حسبت الهنديَّة التي لا أحسبها». الحساء، راسب مائيٌّ بنّيّ رقيق، مع حبوب عائمة من الدهن، ورائحته رائحة أوراق تبغ رطبة. لعقه باكستر، ثمَّ زرع مرفقيه على الطاولة وأشعل سيجارة. «ماذا عنك؟»، قال بعد أن نفخ غيوماً نشطة من الدخان، «ما هو عملك؟ لا، لحظة، دعني أخمِّن. موظَّف حكوميٌّ؟ مدير مدرسة؟». لـمَّا أخبرته ابتسم ابتسامة عريضة بقلق، كأنَّه فكَّر في أنَّني أمازحه، ووجَّه انتباهه إلى الشخص في الجانب الآخر. بعد وهلة عاد إليَّ، مع ذلك بدا أكثر قلقاً من ذي قبل. «أيُّها المسيح»، تمتم، «اعتقدت أنَّك سيِّئ، لكنَّ هذا الرجل الهرم»، وهو يشير إلى جاره، بلفتة من عينه وفمه إلى جانبه، «إنَّه كاهن دمويٌّ جُرّد من ثوب كهنوته!»

لم أرَ باكستر بعد ذلك المساء على الإطلاق. سيختفي عدد من رفاقنا بصمت هكذا على هذا النحو في غضون الأسابيع القليلة الأولى. لم يخبرنا أحد ما حلَّ بهم، ونحن لم نطرح الموضوع قطُّ فيما بيننا؛ كنَّا مثل نزلاء مصحَّة، نمشي كلَّ صباح لنجد أحد الأسرَّة قد أصبح فارغاً، ونتساءل أيّاً منَّا سيخطفه القاتل الصامت في المرَّة التالية. كثيرون ممَّن بقوا بدوا حتَّى أقلَّ ظرافة من المنبوذين. كانوا أكاديميِّين، ومعلِّمين من مدرسة اللغات، رجالَ مبيعات مسافرين مثل باكستر، وبضعة غامضين، أشخاصاً مراوغين يميلون إلى التخفِّي، ويبتسمون في وجه أحدهم بهدوء غامض مثل لوطيِّين قلقين عازمين على البقاء في أحد الأكواخ ليلاً. مع مرور الوقت بدأت تُنسج شبكة غريبة من التحالفات والعداوات بيننا. قيود الطبقة، والمهنة، والاهتمامات المشتركة كانت كلّها قد حُلَّت. في الواقع، كلَّما ازداد التباين في الخلفيَّات بيننا، كان انسجامنا مع بعضنا أكبر. كنت مرتاحاً للغاية مع أمثال باكستر أكثر من أولاء الذين جاؤوا من عالمي. أتمنَّى لو كان في استطاعتي القول إنَّ هذا الاختلاط الاعتباطيَّ للطبقات عزَّز جوّاً ديمقراطيّاً (لا، أنا لا أسارع إلى القول إنَّني اهتممت -أو أهتمُّ- كثيراً بالديمقراطيَّة). لـمَّا وصلت في المرَّة الأولى، عاملني الرقيب الأوَّل باحترام يشوبه امتعاض، لكن بمجرّد ارتدائي البزَّة لم يعد هناك مناداة بـ«سيِّدي». وفي ساحة العرض صرخ في وجهي بما اعتقدت أنَّه كان لهجة إيرلنديَّة. ورشَّني بالبصاق، كما لو كنت مجنَّد الطبقة العاملة الغرَّ الجاهل الذي سُحب إلى الجنديَّة من الأحياء الفقيرة. في أيِّ حالٍ، تمَّ ترفيعي على الفور -ولا أعرف بتأثير أيِّ وكالة- إلى رتبة نقيب، وتوجّب على البائس الفقير أن يعود إلى التملُّق متبلِّد الحسّ المميَّز الذي يتطلَّبه بروتوكول الجيش غير الرسميِّ.

بدأنا مباشرة في التدريب الأساسيِّ، وهو أمر استمتعت به -ما أدهشني. الإرهاق الشديد الذي يصيب أحدنا في نهاية يوم من تدريبات النظام المنضم، وتفتيش الأمتعة، وتنظيف الأرضيَّات، كان مثيراً لشهوة تتلاشى مع النوم. تلقَّينا تدريبات في فنِّ القتال القريب الذي أقبلنا عليه بحماس الأولاد الصغار. استمتعت، على نحو خاصّ، بقتال الحراب؛ الرخصة التي يجيزها بأن تزعق في أعلى رئتي الإنسان، في حين تنتزع برشاقة أحشاء عدوّ متخيَّل، لكنَّه ملموس ويرتجف على نحو غريب. تعلَّمنا قراءة الخرائط، ودرسنا في الأمسيات، على الرغم من إرهاقنا، تقنيات الترميز البدائيَّة وقواعد المراقبة. نفَّذت قفزاً مظلِّيّاً، وأنا أقفز من الطائرة والهواء المتجلِّد يصفعني امتلأت بنوع من الرعب المقدَّس، رعب ممتع لا يمكن توضيحه. اكتشفت في نفسي قدرة على التحمُّل لم أكن أعرف أنَّني أمتلكها، ولا سيّما في الرحلات الطويلة التي أجبرنا على القيام بها في منطقة ذا داونز في حرارة آخر الصيف الذي تفوح منه رائحة القشّ. بلي رفاقي تحت هذه الظروف، لكنِّي رأيتها كمراحل من طقس تطهيريٍّ. استمرَّ الإحساس بالرهبانيَّة الذي اكتشفته في المطعم في الأمسية الأولى؛ ربَّما كنت راهباً لم يرسَّم بعد، عاملاً في الحقول، أحدَ أولاء الذين كدحهم المتواضع هو أصدق أشكال الصلاة. مثل كلِّ الذكور في صفِّي، أكاد لا أعرف كيف أربط عقدة حذائي الخاصّ. الآن أصبحت أتقن كلَّ أنواع المهارات الممتعة والمفيدة التي لم تكن لتُتاح لي فرصة تعلُّمها في الحياة المدنيَّة. بدا كلُّ ذلك ممتعاً للغاية، حقّاً.

تعلَّمت، في سبيل المثال، كيف أقود شاحنة. أنا كدت لا أتقن قيادة سيَّارة، لكنَّ هذا الوحش ذا الدخان العظيم، بنهايته الأماميَّة الكليلة، وأجزائه الخلفيَّة المرتعدة، كان عنيداً وثقيلاً مثل عربة يجرُّها حصان.

ومع ذلك ما كان مثيراً للانفعال تحرير القابض والهبوط على عصا تبديل السرعة المرتعشة بطول قدمين، وتحسُّس تشابك أسنان العجلات، وأنَّ الماكينة الضخمة تتقدَّم إلى الأمام كأنَّ روحها أصبحت حيَّة تحت يديَّ. كنت مفتوناً. كان ثمَّة سيَّارة من ماركة «وولزلي»، قديمة بلون أزرق رماديّ، مرتفعة وضيِّقة، بواجهة داخليّة من خشب الجوز، ومقود خشبيٍّ، وزرٍّ صمَّام من خشب الأبنوس كنت أنسى كبسه دائماً، وهكذا في أيِّ وقت أرفع فيه قدمي عن دوَّاسة الوقود يئنُّ المحرِّك كما لو أنَّه يتألَّم، ولطخ من الدخان الأزرق الغاضب تتجشَّؤها السيَّارة إلى الخارج في الخلف؛ كانت الأرضيَّة جانب السائق مهترئة جدّاً إلى درجة أنَّها لم تكن أكثر من مجرَّد قطعة من الصدأ، وإذا نظرتُ إلى الأسفل، بين ركبتيّ، حينما أكون أقود السيَّارة، كان بإمكاني رؤية الطريق يندفع مسرعاً تحتي مثل نهر في حالة فيضان. هذا الشيء البائس وصل إلى نهاية حزينة: في إحدى الليالي، ولـمَّا لم يكن دوره في القيادة، سرق محاسب قانونيٌّ -كان يتحدَّث البولنديَّة بطلاقة- المفاتيح من خزانة الحائط في غرفة آمر القاعدة، وقادها إلى آلديشوت من أجل مقابلة فتاة كان يحبّها، وكان ثملاً، فاصطدم بشجرة في طريق العودة، وقُتل. كان أوَّل نكبات الحرب خاصَّتنا. ولخجلي أعترف أنَّني حزنت على السيَّارة أكثر من حزني على المحاسب.

في مستوطنتنا الصغيرة هذه، كان اتِّصالنا مع العالم الخارجيِّ ضعيفاً، فقد كان مسموحاً لنا مرَّة واحدة في الأسبوع أن نتَّصل هاتفيّاً بزوجاتنا أو صديقاتنا. وفي ليالي السبت، قيل لنا إنَّنا يمكن أن نجازف في آلدرشوت، وعلى الرغم من أنَّه لم يكن علينا أن نجتمع، أو حتَّى نسلِّم بأنَّنا نعرف بعضنا بعضاً تحت أيِّ ظرف من الظروف، فقد توجَّب علينا أن نلتقي

مصادفة في حانة ما أو قاعة رقص؛ وكانت النتيجة غزواً أسبوعيّاً للمدينة من قبل سكّيرين منفردين، ورجال خجولين بائسين، الكُلّ متشوّق إلى صحبة زملائه الذين يقضون أوقاتهم، في بقيَّة الأسبوع، محاولين تجنُّب ذلك.

بالطبع لم يكن لديَّ أيُّ اتصال مع موسكو على الإطلاق، أو حتَّى مع سفارة لندن. افترضتُ أنَّ مسيرة عملي كعميل مزدوج كانت في نهايتها. لم أكن أسفاً. في استعادة لأحداث الماضي، يبدو كُلُّ هذا غير واقعيٍّ الآن، لعبة اعتدت لعبها والآن لم أعد أستطيع لتقدُّمي في السنِّ.

الإعلان بأنَّنا في حالة حرب، رُحِّب به في بينغلي مانور بفتور على نحو غريب، كما لو أنَّ الحرب لا علاقة لها بنا. لما وصلت الأخبار، كنَّا محتشدين في قاعة الطعام التي كانت أيضاً بمنزلة كنيسة صغيرة -العميد برادشو، الضابط الآمر، كان قد حضر إلى قدَّاس الأحد مرغماً من أجل المحافظة على معنويَّاتنا، كما قال، على الرغم من إيمانه الضعيف. وكان ثمَّة قسٌّ شابٌّ، مضطرب وعاجز عن التعبير، يكافح في خطبته التي استخدم فيها استعارات عسكريَّة معقَّدة تتضمَّن القدِّيس ميخائيل وسيفه الملتهب، لـمَّا جاء أحد السعاة ومعه رسالة إلى العميد الذي وقف، ورفع يده لإسكات القسِّ الملحق بالجيش، والتفت إلى الحشد، وأعلن أنَّ رئيس الوزراء يوشك أن يخاطب الأمَّة. حُرِّك مذياع هائل على عربة شاي بعجلات، وبعد عمليَّة بحث عن مقبس، تمَّ التوصيل بهدوء شديد. ومثل صنم أحول، فتح المذياع عينيه الوامضتين بالأخضر ببطء في حين كانت تُحمَّى صمَّاماته، وبعد تصفية صوته بعدد من النخعات الصادرة عن غدَّته الدرقيَّة، استقرَّ به الحال على همهمة تشبه التعويذة. انتظرنا، ونحن نحرِّك أقدامنا؛ همس أحدهم بشيء ما، وأحد ما كبت ضحكة. تقدَّم العميد إلى الأمام على أطراف أصابعه،

مؤخّرة عنقه محمرّة، وانحنى نحو الآلة وعبث بالأزرار، مظهراً لنا مؤخِّرته العريضة المكسوَّة بالكاكي. صرصر المذياع، وتمتم، ونطق. وفجأة جاء صوت تشامبرلين، نكداً، متذمِّراً، ومرهَقاً، مثل صوت الربِّ نفسه، عاجزاً في مواجهة خلقه، ليخبرنا أنَّ العالم وصل إلى نهايته.

*

لـمَّا ذهبت أوَّل مرَّة للعمل في الوكالة -على الرغم من أنَّ كلمة عمل هي كلمة قويَّة لما كان يحدث في قسم اللغات- لم يفكِّر أحد في الاستفسار عن ماضيَّ السياسيّ. كنت ابن أسقف -وإن كان أسقفاً إيرلنديّاً- متخرّج في ملبورو، رجل كمبريدج. وضعي كباحث معترف به دوليّاً ربَّما كان أثار شكوكاً في بعض الأوساط -المعهد، المليء باللاجئين الأجانب، كان ينظر إليه دائماً نظرة الشكِّ في الأوساط الأمنيَّة. في الجانب الآخر، تمَّ استقبالي في ويندسور، ليس فقط في غرفة اللوحات وفي مكتبة البرج، لكن في الجناح العائليِّ، أيضاً، ولو ضَغطت أكثر فأنا متأكِّد أنَّني كنت سأحصل على كفالة جلالة الملك شخصيّاً. (يجب على الجاسوس الناجح أن يكون قادراً على العيش على نحو موثوق في كلِّ حياة من حيواته المتعدِّدة. والصورة العامَّة لنا كمنافقين مبتسمين نغلي بالكراهية السرّيّة لبلدنا ولشعبه ومؤسساته هي صورة مغلوطة. لقد أحببت جلالته بصدق وأجللته، وربَّما على نحو مثير للإعجاب، ولم أبذل أيَّ محاولة لأخفي عنه ازدرائي لزوجته السخيفة التي كانت تفشل دائماً في تذكّر أنَّنا، هي وأنا، في صلة قرابة. الحقيقة هي أنَّني كنت ماركسيّاً وملكيّاً. وهذا شيء كانت تفهمه ضمنيّاً السيِّدة و. التي امتلكت الذهن الأرقَّ في تلك الأسرة التي افتقرت إلى التميز الفعليِّ. لم أكن مضطراً

إلى الادِّعاء بأنِّي مخلص. كنت مخلصاً؛ بأسلوبي). هل كنت مفرطاً في ثقتي؟ كان في وسع بوي وحده الإفلات من تبجّح أولاد المدارس اللامع هذا، الذي فيه يمكن للعميل الناجح أن يتمسّك بتعجرف بأسراره، وبذلك يمكن أن يسقط بسهولة. لـمَّا استدعيت إلى مكتب العميد بعد أسبوعين من الإعلان الرسمي لاندلاع الحرب، تخيَّلت أنَّ الأمر كان لأجل إخباري أنَّه تمَّ اختياري لمهمَّة خاصَّة. كانت مخالب الإنذار الأولى تتشبَّث في باطني حين لاحظت نفوره من مواجهة عيني.

«آه، ماسكل»، قال وهو يحفر بين الوثائق على مكتبه، مثل طائر أسمر كبير يصطاد الديدان تحت كومة من أوراق الشجر الميتة. «أنت مطلوب في لندن»، نظر باتِّجاه معدتي، وعبس، «استرح!».

«أوه، آسف سيِّدي»، كنت نسيت أن أحيِّيه.

كان مكتبه في غرفة الأسلحة السابقة، وكانت هناك مطبوعات عن الصيد على الجدران؛ وبدا لي أنِّي اكتشفت وجود رائحة واهنة ومستمرَّة لزعانف أسماك وريش ملطَّخ بدم. عبر النافذة خلفه كان بإمكاني رؤية مجموعة من زملائي وهم يرتدون ملابس مموَّهة ويزحفون على مرافقهم وركبهم باتِّجاه المنزل في محاكاة لهجوم سرّيٍّ، كان منظراً هزليّاً، وفي الوقت نفسه يفقد الثقة بالنفس.

«آه، هو ذا»، قال العميد، وهو يرفع رسالة من كومة الأوراق أمامه». قرَّبها من أنفه ليقرأها، وهو يحرِّك رأسه من جنب إلى جنب يتابع الكلمات، ويغمغم تحت أنفاسه «... يوم عمل... سرعة قصوى... لا مرافقة مطلوبة... مرافقة؟ مرافقة؟... ستَّ عشرة ساعة...» أخفض الورقة، ولأوَّل مرَّة نظر إليَّ مباشرة؛ تأهَّب حنكه الأزرق الكبير، ومنخراه اشتعلا، مظهرين تجاويف،

مرعبة، سوداء، «ماذا بحقّ الجحيم كنت تفعل، ماسكل؟»

«لا شيء سيِّدي، على حدِّ معرفتي».

ألقى الرسالة فوق كومة الأوراق، وصار ينظر حوله بضراوة، يداه تشابكتا بشدَّة حتَّى ابيضَّت براجم أصابعه.

«أناس دمويُّون»، تمتم، «ما الذي يعتقدون أنَّنا نديره هنا، مركز فحص؟ أخبر ميتشيت بلساني، من الأفضل له أن يتوقَّف عن إرسال الفاشلين إليَّ، أو فليغلق متجرنا».

«سأفعل، سيِّدي».

ألقى نظرة حادَّة إليَّ.

«أتظنّ ذلك مضحكاً، ماسكل؟»

«لا، سيِّدي».

«جيِّد. ثمَّة قطار سيقلع عند الظهر- أنت لا تحتاج» -مع صهيل غاضب- «مرافقة».

يوم رائع. يا له من شهر سبتمبر ذاك الذي كان. رائحة المحطة رماد دفَّأته الشمس وعشب مقصوص. الجنود متجمهرون على أرصفة المحطَّات وقد احدودبت أجسادهم في شكل حرف s ساخطين، والحقائب مرفوعة على كتف واحد، ويعبثون بأعقاب السجائر في قبضاتهم. اشتريت نسخة من عدد الأمس من صحيفة «تايمز»، وجلست كيفما اتَّفق ادَّعي أنّني أقرؤها في عربة قطار درجة أولى فارغة أجرها ثلاثة أرباع الجنيه. شعرت بالحرارة في كلِّ مكان، مع ذلك كان هناك مقدار من نذير داخليّ بارد كما لو كان أُسقط مكعَّب من الثلج في تجويف معدتي. لاحظت أنَّ امرأة شابَّة تجلس قبالتي، ترتدي نظَّارة بلون قوقعة السلحفاة، وثوباً أسود، وحذاءً أسود بكعبين ثخينين -من

النوع الذي عاد أخيراً إلى ساحة الموضة كما لاحظت- بقيت تنظر إليَّ بتعبير يخلو من المعنى كما لو أنَّها لم تكن تراني بل ترى شخصاً أذكّرها به. تلوَّى القطار بخطوات بطيئة مُكربة، وتوقَّف على نحو متردِّد في كلِّ محطّة، يتنهَّد ثمَّ يمشي متثاقلاً، كأنَّه كان قد نسي شيئاً ويتساءل ما إذا كان سيعود ويجلبه. ومع ذلك وصلت إلى لندن قبل ساعة من الموعد. فانتهزت الفرصة لإحضار بزَّتي العسكريَّة إلى دينبيز لتبديلها. فكَّرت في الاتِّصال هاتفيّاً بفيفيين في أكسفورد، لكن قرَّرت ألّا أفعل؛ فلن أتحمَّل لهجتها اللاذعة. لـمّا غادرت مشغل الخيَّاط، منتقِّلاً من شارع سانت جيمس إلى شارع بيكاديللي كدت أصطدم بالمرأة الشابَّة نفسها ذات النظارة في القطار. نظرت إليَّ بفتور، واستعجلت خطاها إلى الأمام. قلت لنفسي إنَّها مصادفة، لكن لم أستطع منع نفسي من استدعاء صهيل العميد حين لفظ كلمة مرافقة. سقط مكعَّب ثلج آخر في داخلي، هذه المرَّة مع صوت سقوط صغير لاذع.

كم بدت لندن جميلة، حيَّة، ومع ذلك واهية على نحو غامض، مثل المدن في أحلام المرء. كان الجوُّ هادئاً وصافياً، ونصف السيَّارات والحافلات خارج الطريق -لم أكن قد اختبرت مثل هذه الأجواء الفسيحة والرقيقة منذ طفولتي- وكان هناك جوٌّ عامٌّ من الجدِّية، على نقيض من شعور التشويق المحموم الذي ساد في الأسابيع التي سبقت اندلاع القتال. وفي شارع ريجينت، كانت قد نُصبت تلال من الأكياس الرمليَّة أمام المتاجر، رُشَّت بالإسمنت، وطُليت بظلال كرنفاليَّة من الأحمر والأزرق.

لـمَّا دخلت مكتبه، وثب بيلي ميتشيت قليلاً لاستقبالي كما لو كان مدفوعاً بنابض في كرسيِّه. جعلني العرض الدافئ هذا أكثر قلقاً من ذي قبل. سحب كرسيّاً لي، وضغط عليَّ لآخذ سيجارة، وكوب شاي، ومشروباً -«على

الرغم من إدراكي الآن أنَّه لا يوجد أيُّ شراب في البناء إلّا في مكتب الضابط المراقب، لا أعرف لماذا أعرض شراباً أصلاً، هه، هه»- حتَّى إنَّه هو أيضاً، مثل العميد برادشو، تجنَّب النظر في عينيَّ مباشرة، وبدلاً من ذلك أجرى تحريكاً عظيماً للأشياء على مكتبه، مصدراً، لبعض الوقت، صوت هدير منخفضاً وحزيناً من حنجرته.

«كيف هي أمورك في مانور»، قال، «هل تجدها ممتعة؟»

«ممتعة جدّاً».

«جيِّد، جيِّد». تبع ذلك صمت، بدت فيه حتَّى الحجارة المتجمِّدة للأقواس، والدعائم الطائرة في الخارج كأنَّها تشارك، معلَّقة في الانتظار. تنهَّد، والتقط غليونه البارد، وحملق فيه على نحو كئيب «الأمر هو، أيُّها الشابّ الهرم... أحد عناصرنا كان قد اطَّلع على ملفِّك -روتين محض، كما تفهم- وتوصَّل إلى... حسناً، إلى دليل، في الواقع».

«دليل؟»، قلت؛ بدت الكلمة طبيَّة على نحو غامض ومخيف.

«نعم، يبدو-»، ألقى غليونه جانباً، وصار يدور على كرسيّه من كلا الجانبين، وقد رمى ساقيه الصغيرتين المليئتين أمامه وأغرق ذقنه في صدره، وحدَّق على نحو مهيب إلى مقدِّمة حذائه، وشفته السفلى مقلوبة، «يبدو أنَّك كنت شيئاً ما مثل بلشفيٍّ».

ضحكتُ.

«أوه ذلك الأمر، ألم يكن الجميع كذلك؟»

رمقني بنظرة دهشة.

«أنا لم أكن كذلك»، عاد إلى طاولته من جديد. وفجأةً سيطرت الأعمال، تناول نسخة عن تقرير وصار يحرِّك إصبعه عليه حتَّى وجد ما كان

يبحث عنه «كانت هناك تلك الرحلة إلى روسيا التي قمتما بها، أنت وبانيستر ومتخرّجو كمبريدج أولاء، صحيح؟»

«حسناً، نعم. لكنّي سافرت إلى ألمانيا، أيضاً، وهذا لا يجعلني نازيّاً».

طرف بعينيه.

«هذا صحيح»، قال متأثّراً رغماً عنه، «ذلك صحيح»، راجع التقرير من جديد، «لكن، انظر هنا، ماذا عن هذه الأشياء التي كتبتها. هذا النقد الفنّي في -ماذا كانت؟- ذا سبيكتيتور: الحضارة في اضمحلال... التأثير المهلك للقيم الأميركيّة... المسيرة التي لا يمكن إيقافها للاشتراكيّة الدوليّة... ما علاقة كلّ هذا بالفنّ؟ لاحظ أنَّ هذا لا يعني ادّعائي المعرفة بالفنّ».

تنهّدت تنهيدة ثقيلة، قصدت بها الإشارة إلى الملل، والازدراء، والبهجة المتغطرسة، لكن عنيت بها أيضاً العزم على التحلّي بالصبر والاستعداد لتوضيح الأشياء المعقّدة بمصطلحات بسيطة. إنّه موقف -أرستقراطيّ، تعطُّفيّ، بارد لكن ليس فظّاً- كنت أجده أكثر فاعليّة لـمّا أُحشر في زاوية ضيّقة.

«لقد كُتبت هذه المقاطع»، قلت، «حين اندلعت الحرب الأهليَّة الإسبانيَّة. هل تذكر ذلك الوقت، جوَّ اليأس، والقنوط؟ الآن يبدو ذلك منذ وقت طويل، أعرف. لكن القضيَّة كانت بسيطة: الفاشيَّة أو الاشتراكيَّة، على المرء أن يختار. وبالطبع كان الاختيار حتميّاً بالنسبة إلينا».

«لكن-»

«وأثبت ذلك أنَّنا كنَّا محقّين. إنكلترا الآن في حالة حرب مع الفاشيّين على الرغم من ذلك».

«لكنَّ ستالين-»

«-كسب بعض الوقت، هذا كلُّ شيء. ستكون روسيا في جبهة القتال

معنا قبل انقضاء العام. أوه، لكن انظر» -رفعت يداً رخوة، ومسحت كلّ هذه التوافه جانباً- «النقطة هي، بيلي، أعرف أنَّني كنت مخطئاً، لكن ليس للسبب الذي تظنُّه. لم أكن قطُّ شيوعيّاً -أقصد، لم أكن قطُّ عضواً في الحزب- وتلك الرحلة إلى روسيا، كما درَّبتَ كلابك البوليسيَّة، أفادت فحسب لتؤكّد كلَّ شكوكي حول النظام السوفييتيّ. إنّما في ذلك الوقت، قبل ثلاث سنوات، لـمَّا كنت أصغر بعشرين عاماً من عمري الآن، وإسبانيا كانت ميزان الحرارة لأوروبا، فكَّرت أنَّه واجبي، واجبي الأخلاقيّ، كما فعل كثيرون آخرون، أن أرمي أيَّ ثقل أملكه في المعركة ضدَّ الشرّ الذي بدت طبيعته صافية تماماً، وواضحة. بدل الذهاب إلى إسبانيا للقتال، كما كان ينبغي أن أفعل، قدَّمت التضحية التي كان في وسعي تقديمها: تخلَّيت عن النقاء الجماليّ لصالح الموقف السياسيّ العلنيّ».

«النقاء الجماليّ»، قال بيلي وهو يومئ بحيويّة، ويتصنَّع عبوساً عميقاً. تحمَّلت مخاطرة محسوبة بمناداته باسمه الأول، ظانّاً أنَّ ذلك سيكون بالتأكيد نوعاً من الأشياء التي يتوقَّع أن يقوم بها الشابُّ وسط اعتراف صريح وعاطفيٍّ مثل الذي كنت أدَّعي أنَّني أقوم به.

«نعم»، قلت وأنا وقور، كئيب، ونادم على نحو جذَّاب، «النقاء الجماليُّ، الشيء الوحيد الذي يجب على الناقد أن يتمسَّك به إذا كان يريد أن يكون جيِّداً على الإطلاق. لذلك نعم، أنت محقٌّ. وكشَّافوك محقُّون: أنا مذنب بالخيانة، لكن بالمعنى الفنّيّ وليس السياسيّ. وإذا كان هذا يجعل منِّي خطراً أمنيّاً -إذا كنت تعتقد أنَّ الرجل الذي يخون قناعاته الفنّيَّة من المحتمل أن يخون بلده أيضاً- إذاً، فليكن الأمر كذلك. سأجمع أمتعتي في بينغلي مانور، وسأرى ما إذا كان بإمكاني الانضمام إلى قسم التدابير الوقائيَّة من الغارات

الجويَّة أو خدمة الإطفاء، فأنا مصمِّم على أن أفعل شيئاً جيِّداً مهما كانت قدراتي متواضعة».

كان بيلي ميتشيت لا يزال يومئ برأسه بوقار، ولا يزال متجهِّماً. وهو غارق في فكره، مدَّ يده إلى غليونه، ووضعه في فمه وبدأ يمتصُّه ببطء. انتظرت محدِّقاً إلى النافذة، لا شيء مثل سلوك غامض لإزالة الشكِّ. في النهاية، حرَّك ميتشيت نفسه، وأعطى كتفيه هزَّة عظيمة، مثل سبَّاح يحمِّي كتفيه، وأزاح التقرير المنسوخ بعيداً عنه بطرف يده.

«انظر هنا»، قال، «كلُّ هذا هراء. ليس لديك أدنى فكرة عن حجم التقارير السخيفة التي أطَّلع عليها في أسبوع واحد. أنا أستيقظ مكتئباً في الليل لأسأل نفسي ما إذا كانت هذه هي الطريقة التي سنخوض بها الحرب، مع كلِّ هذه التقارير وعلامات الاستفهام والتوقيعات المطلوبة بثلاث نسخ. يا إلهي! ومن ثمَّ يُطلب إليَّ سحب شبَّان لطفاء مثلك وأضعهم في آلة العصر لأجل شيء قالوه لمدير مدرستهم حين كانوا في المدرسة. كان الوضع سيِّئاً بما يكفي قبل الحرب، لكن الآن...!»

«حسناً»، قلت برحابة صدر، «هذا غير مقبول. بعد كلِّ شيء يجب أن يكون هناك جواسيس في متناول اليد».

ويحي. رمقني بنظرة سريعة وحادَّة، قابلتها بنظرة في غاية الرقَّة، محاولاً التحكُّم في العصب الواشي تحت عيني اليمنى الذي كان يميل إلى الارتعاش حين أشعر بالقلق.

«موجودون»، قال متجهِّماً، «وبينغلي مانور مليئة بهم!». كبت صرخة ضحكة، وضرب يديه ببعضهما، ثمَّ عاد إلى اتزانه مباشرة، «اسمع، أيُّها الشابُّ العجوز»، قال بصوت أجشّ، «ستعود إلى هناك وتنهي تدريبك. لديَّ

عمل لك، مجموعة صغيرة لطيفة، ستحبُّها. صه! لا أريد كلمة في الوقت الحالي. سيحين ذلك في الوقت المناسب». وقف، وجال حول مكتبه، ثمَّ سحبني بسرعة نحو الباب، «لا تقلق، سأتَّصل بالعجوز برادشو، وسأخبره أنَّنا دقَّقنا بأمرك، ووجدناك نظيفاً كمغنِّي الكورس الولد -على الرغم من أنَّني حين أفكِّر في أولاد الكورس الذين عرفتهم...»

صافح يدي على عجل متلهِّفاً للتخلُّص منِّي. تباطأت وأنا أرتدي قفازيَّ.

«لقد ذكرت بوي بانيستر»، قلت، «هل هو...؟»

حدَّقني ميتشيت.

«ماذا؟ موضع شكّ؟ أيُّها الربُّ، إنَّه أحد نجومنا. البارع على الإطلاق. لا، لا، بانيستر العجوز بارع تماماً».

*

كم ضحك بوي، حين اتَّصلت به من شقَّتي في وقت لاحق، وأخبرته أنَّه كان أحد نجوم بيلي ميتشيت، «يا له من حمار»، قال. وراء ضحكته ظننت أنَّني كشفت إشارة إلى قيد ما، «في كلِّ حال»، قال بصوت عال على نحو تمثيليٍّ، «نيك هنا. يريد أن يكلِّمك».

لـمّا دخل نيك في المكالمة كان يضحك أيضاً.

«كنتَ قيد التحقيق، أليس كذلك؟ نعم، أخبرني بوي، لقد اتَّصلت به. كبير المحقِّقين، أليس كذلك. سوف أتأكَّد من أنَّ ذاك الدليل سيختفي من ملفِّك. بالمناسبة، أعرف فتاة في مكتب السجلّات. هذا النوع من الأشياء يمكن أن يلاحقك لسنوات. ونحن لا نريد ذلك. ولا سيّما أنَّنا، أنت وأنا،

سنقوم برحلة في أيّ يوم، وكلُّ التكاليف مدفوعة».

«رحلة؟»

«هذا صحيح، أيُّها الرجل العجوز، ألم يخبرك بيلي؟ لا؟ حسناً، في هذه الحالة عليّ التزام الصمت أنا أيضاً، فالحديث الفارغ لا فائدة منه... أورفوار!» وأقفل الخطّ، وهو لا يزال يضحك، ويدندن بنشيد، «لا مارسييز»[89].

*

في رسالة إلى صديقه بول فريرت دي شانتيلو[90] في العام 1649، قدَّم بوسان، في إشارة إلى إعدام تشارلز الأول[91]، الملاحظة التالية: «إنَّه لمن دواعي سروري الحقيقيّ العيش في قرن تحدث فيه مثل هذه الأحداث العظيمة، شريطة أن يستطيع المرء أن يحصل على ملجأ في ركن صغير ويشاهد المسرحيَّة مرتاحاً». هذه الملاحظة هي تعبير عن طمأنينة آخر الرواقيِّين، وبالتحديد سينيكا. هناك أوقات أتمنَّى فيها لو كنت عشت عمراً أطول وفقاً لهذا المبدأ. إنّما من سيتمكّن من البقاء ساكناً في هذا القرن المتوحِّش؟ اعتقد زينون[92] والفلاسفة السابقون من مدرسته أنَّ الفرد لديه واجب واضح في أن يقدِّم يد المساعدة لأحداث زمنه ويسعى إلى صياغتها على نحو يخدم الصالح العام. هذا شكل آخر للرواقيَّة، أكثر حيويَّة. كنت في حياتي قد

---

(89) النشيد الوطنيّ للجمهوريّة الفرنسيّة. (م)

(90) جامع لوحات وراع للفنون. عاش بين عامي 1609 و1694، شجّع كبار الفنّانين في عصره ولا سيّما بوسان وبيرنيني. اشتهر بمذكّراته. (م)

(91) ملك إنكلترا واسكتلندا وإيرلندا (1625-1649). اندلعت في زمنه حربان أهليّتان بين أنصاره وأنصار البرلمانيّين. أعدم في العام 1649. (م)

(92) فيلسوف يونانيّ (490-430) ق.م. يعدّ مخترع الجدل الفلسفيّ، له نظريّات مهمّة مثل نظريّة نفي الحركة. (م)

جسَّدت كلا الوجهين لهذه الفلسفة. لـمَّا طلب مني ذلك، تصرّفت بدراية تامّة بالغموض المتأصِّل في هذا الفعل، والآن وصلت إلى الراحة -أو لا، ليس الراحة: السكون. نعم: وصلت إلى السكون.

اليوم، مع ذلك، أنا مضطرب تماماً. لوحة موت سينيكا ستخضع للتنظيف والتخمين. هل أرتكبُ خطأً؟ المخمِّنون يمكن الاعتماد عليهم، حذرون جدّاً، فهم يعرفونني جيّداً، مع ذلك لا يمكنني أن أقمع الشكوك غير المركّزة التي تستمرّ في تحليقها داخلي بحزن مثل سرب مضطرب من طيور الزرزور مع اقتراب الليل. ماذا لو أتلفها المنظِّفون، أو بطريقة ما حرموني منها، عزائي الأخير؟ يقول الإيرلنديُّون إنَّه حينما يفارق الطفل والديه، يتصرَّف على نحو غريب؛ يُعتقد أنَّ قوماً خرافيِّين، قبيلة غيرى، تسرق طفلاً لطيفاً للغاية من بني البشر وتترك طفلاً بديلاً مكانه. ماذا لو عادت صورتي ووجدت أنَّها غريبة؟ ماذا لو نظرت من مكتبي في يوم ما ووجدت «طفلاً بديلاً» أمامي؟

لا تزال على الحائط؛ لا يمكنني استجماع شجاعتي لرفعها عنه. إنَّها تنظر إليَّ كما فعل ابني ذو السنوات الستِّ من العمر في ذلك اليوم حين أخبرته أنَّه سيرسل إلى مدرسة داخليَّة. إنَّها نتاج السنوات الأخيرة للفنّان. فترة ازدهار عبقريَّته المتأخِّرة، فترة لوحات الفصول، أبول ودافني، شظيَّة هاجار. أرَّختها مبدئيّاً بالعام 1642. إنَّها غير عاديَّة بالنسبة إلى أعماله الأخيرة، التي تشكِّل معاً تأمُّلاً سيمفونيّاً حول عظمة الطبيعة وقوَّتها بمظاهرها المختلفة، تنتقل، كما تفعل عادة، من منظر طبيعيّ خارجيّ إلى داخليّ، من العالم الخارجيّ إلى العالم الداخليّ، من الحياة العامَّة إلى الخاصَّة. الطبيعة هنا موجودة فحسب في المنظر الساكن للتلال البعيدة والغابات المؤطَّرة في النافذة فوق أريكة

الفيلسوف. الضوء الذي يستحمُّ فيه المشهد يتمتّع بجودة عالية كما لو أنَّه لم يكن ضوء نهار بل إشعاعاً آخر من الفردوس. ومع أنَّ الموضوع مأساويّ، فإنَّ اللوحة تنقل إحساساً بالصفاء والعظمة البسيطة التي تؤثِّر عميقاً جدّاً. يتحقَّق التأثير عبر التنظيم الرقيق البارع للألوان، تلك الزرقاء والذهبيَّة، التي ليست زرقاء تماماً، ولا ذهبيَّة تماماً، تقود العين من الرجل الميت بتوضُّعه المرمريِّ -بالفعل تمثاله الخاصُّ، إذا جاز التعبير- عبر العبدين، وضابط الحراسة الأخرق كحصان المعركة، بأبازيمه وخوذته، إلى شخصيَّة زوجة الفيلسوف، إلى المرأة الخادمة تحضِّر الحمَّام الذي سيغطس الفيلسوف فيه، وفي النهاية النافذة والعالم الفسيح الهادئ وراءها، حيث ينتظر الموتُ.

أنا خائف.

أمضيت صباحاً لطيفاً وأنا أخبر الآنسة فانديلور عن أيَّامي زمن الحرب؛ لقد دوَّنتْ كلَّ شيء، وهي رائعة في تدوين الملاحظات. سقطنا حتماً في سلوك المعلِّم والتلميذ؛ فهناك المزيج نفسه بين الألفة والاضطراب غير الواضح الّذي أتذكَّره من أيّام عملي في التدريس؛ وهي، بدورها، تجاوزت ذاك الحدَّ الرقيق من الاستياء الذي يظهر في غضب الطالب المتخرِّج لالتزامه الاحترامَ لمعلِّمه، الأمر الذي شعرت بحقّ أنَّه لم يعد مطلوباً منها. أنا أستمتع بزياراتها، بطريقتي الصامتة، فهي الآن الرفقة الوحيدة التي لديَّ. تجلس قبالتي على كرسيٍّ وطيء، ودفتر ملاحظاتها المسلَّك الخاصُّ بالصحافيِّين مفتوح على ركبتيها، ورأسها محنيٌّ، تُظهر لي خصلتَي شعرها الناعمتين، وخطَّ فرق الشعر بينهما، المستقيم على نحو مؤلم، ولونه بلون الثلج المتَّسخ قليلاً. تكتب بسرعة ملحوظة، مع شيء من التركيز اليائس؛ فيتكوَّن لديَّ انطباع أنَّها، في أيِّ لحظة، قد تفقد السيطرة على يدها التي تكتب فتبدأ بالخربشة في كلِّ أرجاء الصفحة؛ إنَّه أمر مثير للغاية. وبالطبع أنا أحبُّ حقّاً صدى صوتي الخاصّ.

تأمَّلنا في أصل العبارة، حرب جيِّدة. قلت إنَّني لست متأكّداً من أنَّني سمعتها من قبلُ خارج الكتب أو المسرح. كان الناس الذين كتبوا للسينما، على نحو خاصٍّ، مولعين بها. ففي أفلام نهاية الأربعينيَّات والخمسينيَّات كان هناك دائماً شبّان أنيقون، بوجوه لطيفة، يرتدون ربطات العنق، ويتوقَّفون

عند الموقد لينفضوا غلايين غريبة الشكل، ويسأل أحدهم الآخر قلقاً «هل عشت حرباً جيِّدة، أفعلت؟» وحينها يقوم الشابُّ الآخر، ذو الشارب، وفي يده كأس شراب زجاجيّة مزخرفة لم يشرب منها قطُّ، بهزَّة كتف إنكليزيَّة جدّاً، وإيماءة انزعاج صغيرة يفترض بنا أن نشاهد من خلالها ذكرى ما للقتال المباشر في آزدين، أو الهبوط الليليّ في جزيرة كريت، أو نافث اللهب الخاصّ بأحد الأصدقاء المقرَّبين ينفث الدخان واللهب فوق القناة.

«وماذا عنك؟»، قالت الآنسة فانديلور دون أن ترفع رأسها من على دفتر ملاحظاتها، «هل عشت حرباً جيِّدة؟»

ضحكت، لكنَّني، بعد فترة صمت، دُهشت.

«حسناً، كما تعرفين»، قلت، «أنا أؤمن حقّاً أنَّني عشتها. على الرّغم من حقيقة أنَّها بدأت بالنسبة إليَّ في جوٍّ من المهزلة. أكثر من هذا: مهزلة فرنسيّة».

*

كانت الآنسة فانديلور هي من لاحظت كم هي كثيرة ذكرياتي مع نيك بريفورت، التي تتضمَّن رحلات بحريَّة. هذا صحيح، وكنت لاحظت ذلك بنفسي، ولا أعرف السبب في ذلك. أودُّ لو كنت قادراً على رؤية شيء ما عظيم وبطوليّ فيها -السفن السود، ومقدِّمات الشواطئ الملطَّخة بالدماء، وحرائق طروادة تلوح في الأفق- لكنِّي أخشى أنَّ جوَّ هذه الذكريات ليس بقدر كبير جوَّ هوميروس بقدر ما هو جوُّ هوليوود. حتَّى العبور الذي قمنا به معاً إلى فرنسا في يوم مبكِّر في شهر ديسمبر من عام 1939، كانت فيه لمسة من رومانسيَّة تافهة مزيَّفة مضافة إليه. كانت ليلة هادئة على نحو غير طبيعيّ،

وسفينة الجند التي تخصّنا، وهي سفينة بخاريَّة كانت قبل اندلاع الحرب تنطلق يوميّاً برحلات بين ويلز وجزيرة إيلين فانين، قد انزلقت عميقاً مثل سكِّين في بحر حليبيٍّ يضيئه القمر على نحو خياليٍّ. أمضينا الجزء الأعظم من الرحلة ممدودين على كراسٍ خشبيَّة في الخارج على مؤخِّرة السفينة، ملفوفين بمعاطفنا، وقبَّعاتنا منخفضة فوق أعيننا. بدت رؤوس سجائرنا النابضة، والأنفاس الطائرة للدّخان الذي كنَّا ننفثه باتِّجاه الليل كمنظر عبثيٍّ مثير. على متن السفينة كانت معنا مجموعة من الجنود الأغرار -هذي هي الكلمة الوحيدة- في طريقهم للانضمام إلى الحملة العسكريَّة. استولوا على الردهة، حيث استرخوا وسط حقائب أمتعتهم المنفوخة، يحدِّقون أمامهم ويرخون أحناكهم ضجرين، ويبدون أقرب إلى مجموعة مشاغبين من فوج في طريقه للانضمام إلى معركة. وكلُّ ما كان ينفخ الحياة فيهم، كما بدا، هو طقس الاحتفال المتكرِّر بالشاي والسندويشات. هل بدا رجال أوديسيوس في مثل هذه الحالة وهم يجلسون على الرمل إلى جانب أوراك الثيران المشويَّة وكؤوس النبيذ الأسود من لون ماء البحر المدمَّى[93]. لـمَّا قمنا، أنا ونيك، بدورة فوق سطح السفينة، ونظرنا عبر الكوى، كان الأمر أشبه بالنظر داخلاً إلى حفل أولاد الرجال، الرجال-الأطفال نصف سعداء ونصف قلقين وهم يشاهدون مضيفي السفينة- وكانوا لا يزالون بمعاطفهم البيض- يتقدَّمون بينهم مشمئزِّين مع غلَّايات الشاي الضخمة وصينيَّات شطائر لحم البقر المعلَّب.

«هي ذي»، قال نيك، «البروليتاريا خاصَّتك».

«يا لك من متكبِّر»، قلت.

---

(93) إشارة إلى رجال أوديسيوس (يوليسيز)، وهو ملك إيثاكا الأسطوريّ (من الميثولوجيا الإغريقيّة). ترك بلده ليصبح من قادة حرب طروادة، صاحب فكرة الحصان الذي هزم بوساطته الطرواديّين. خلِّد في قصيدة هوميروس الشهيرة الأوديسّة. (م)

كنَّا متحمِّسين للغاية لكلِّ تصرُّف نتدارسه معاً ليخلّصنا من سأم الدنيا. تخيَّلنا من غمزات بيلي ميتشيت وتلميحاته أنَّنا أرسلنا إلى فرنسا في مهمَّة سرّيّة وربَّما خطرة، فلم نكن نتكلَّم حقّاً، حتَّى مع نفسينا، عن الخطَّة المثيرة؛ التسلُّل إلى ما وراء خطوط العدوِّ، لكن كلُّ واحد منَّا كان يعلم أنَّ الكلمات ترتجف على لسان الآخر. في الأسابيع الأخيرة في بينغلي مانور تملَّكني فضول عظيم لما سيكون عليه قتل رجل في الحقيقة. لـمَّا كنت أمسح الأرضيَّات أو ألـمِّع حزام بزّتي، كنت أستحضر مشاهد العنف الأنيقة في الباليه. كان أمراً مثيراً للغاية؛ وأنا كنت أشبه بتلميذ مدرسة يمتِّع نفسه بأفكار قذرة. عادة ما كانت تلك الخيالات، حالات القتل النظيف، تحدث في الليل، ويتورَّط فيها الحرَّاس. رأيت نفسي أنهض في الظلام، ماهراً وصامتاً كقطٍّ، وفي اللحظة الأخيرة أقول شيئاً ما، أصدر ضجَّة ما، فقط من أجل أن أعطي فريتز البائس فرصة. وهو يدور في الأرجاء، يتحسَّس بندقيَّته، وعيناه تلمعان بخوف كخوف الخيل، وأنا أبتسم له، باقتضاب، ببرود، قبل أن أغرز السكِّين، وينهار على العشب في بركة من دمه الأسود، ويقضي مع صوت غرغرة ناعم. عيناه فارغتان الآن وقد غطَّاهما الدّمع، في حين يقترب انعكاس ضوء كشَّاف بثبات، مثل عين أخرى دَهشة جاحظة على جبين خوذته. أسارع إلى القول إنَّني لم أقتل أحداً قطُّ، ولا حتَّى بيديّ العاريتين في أيِّ حال. كان لديَّ بالفعل مسدَّس، وكنت فخوراً جدّاً به. كان مسدَّس ستّ حلقات 455، من ماركة ويبلي إم كي6، مرخَّصاً عسكريّاً، بطول إحدى عشرة بوصة وربع البوصة، ووزنه 38 أونصة، من صنع المملكة المتَّحدة، وهو ما أطلق عليه مدرب الرماية في بينغلي «يقتل بطلقة واحدة». لم أحمل بيدي شيئاً خطراً جدّاً (باستثناءٍ واحد واضح، بالطبع). جاء مع

قراب معقَّد، مربوط به حبل جلديٌّ كانت، في الأجواء المشبعة بالضباب، تصدر عنه رائحة جلد مدبوغ كريهة، وكانت تبدو بالنسبة إليّ رائحة الجرأة والمغامرة الرجوليَّة تماماً. ومع أنَّني كنت لأسعدَ لو أطلقت رصاصة منه، أو رصاصات عدّة بغضب (المتوحش بيل ماسكل غاضب)، فإنَّ الفرصة لم تواتِني. لا يزال السلاح في مكان ما، ويجب أن أرى ما إذا كان بإمكاني إيجاده؛ أنا متأكِّد من أنَّ الآنسة فانديلور ستكون مهتمَّة بإلقاء نظرة عليه، إذا لم يبدُ ذلك فرويديّاً جدّاً على نحو مرهِق.

ماذا كنت أقول؟ هذا الميل نحو الهراء مزعج. أعتقد أحياناً أنَّني في طريقي إلى الخرف.

قضينا خمسة أشهر في فرنسا، نيك وأنا، متمركزين في بولون. كلُّ ذلك كان خيبة أمل كبيرة. كانت مهمَّتنا هي بالضبط ما قال بيلي ميتشيت إنَّها ستكون: إبقاء العين مفتوحة على أفعال رجال الحملة العسكريَّة في منطقتنا. «جواسيس بغيضون، هذا كلُّ ما نحن عليه»، قال نيك مشمئزّاً. كُلِّفنا بهذه المهمَّة، بصورة رسميَّة، من أجل الحماية من تسرُّب الجواسيس، انطلاقاً، حسب ما أظنُّ أنَّه لا يعرف الجاسوس إلَّا جاسوس مثله؛ في الحقيقة وجدنا نفسينا نقسم طاقتينا بين الإدارة الأمنيَّة كلَّ يوم، والتنصُّت على الحياة الخاصَّة للكتيبة. أعترف أنِّي حقَّقت متعة مقيتة من مهمَّة مراقبة خطابات الرجال إلى منازلهم، والاهتمام الشهوانيّ بخصوصيَّة الآخرين هو أحد الشروط الأولى للجاسوس الجيِّد، لكن سرعان ما تلاشت هذه المتعة. لديَّ تقدير عالٍ للرجل المقاتل الإنكليزيِّ -حقّاً، لديّ- لكن أسلوبه في الكتابة، كما أخشى، ليس من بين صفاته الأكثر مدعاة للإعجاب («عزيزتي مافيس، يا له من مكان تافه هذه الـمكان الذي يدعى ~~بولون، الضفادع في كلِّ مكان،~~ ولا

يملكون أدنى احترام. أتساءل إن كنتِ تلبسين ثيابك التحتانيَّة هذه الليلة؟ أليس ثمَّة إشارة من جيري؟ -الشطب هو، بالطبع، عملُ قلمي الأزرق).

بولون. ثمَّة أناس، ليس لديّ أدنى شكّ، وصانعو نبيذ، وهواة صنع مربَّيات التفّاح، ناهيك عن القذرين الذين لا يعملون إلّا في عطل نهايات الأسبوع، الذين عروقهم الدمويَّة على اسم ذلك الميناء الصغير القذر، لكن حينما أسمع اسم بولون، ما أتذكَّره، مع قشعريرة، هو مزيج من الضجر والبؤس ونوبات الغضب عانيت منها فيه تلك الأشهر الخمسة هناك. بسبب كفاءتي في اللغة، كان طبيعيّاً أن أضطلع بدور ضابط الاتِّصال غير الرسميِّ مع السلطات الفرنسيَّة؛ العسكريَّة والمدنيَّة. يا له من أنموذج بائس رجلك الفرنسيُّ الأنموذجيُّ -كيف سمح بوسان لنفسه أن يولد في هذا العرق الغبيِّ الرجعيِّ؟ وبين الأنواع الفرعيَّة لم يكن هناك من هو أكثر بؤساً من مأمور البلدة الصغيرة. كان العسكريُّون على ما يرام -حسَّاسون بالطبع، ودائماً ما كانوا يبحثون عن إهانات لنبل شخصيّاتهم ونبل مهمَّتهم- وأنا استطعت إدارة حتّى أربعة فروع للشرطة التي اضطررت إلى التعامل معها، لكنَّ مواطني بولون، المتمتِّعين بحكم ذاتيّ، هزموني تماماً. ثمّة وضع جسمانيٌّ محدَّد، يجسِّده الرجل الفرنسيُّ حين يقرِّر الوقوف عند كرامته والتراجع عن التعاون: إنَّها مسألة من أكثر المسائل الدقيقة التواءً- الرأس مائل قليلاً إلى اليسار، والذقن مرفوعة ميليمتراً واحداً، والنظرة موجَّهة بعناية إلى منتصف المسافة- لكنَّها جليَّة، والتصميم الذي تعبِّر عنه بصمت لا يمكن كسره.

حصل نيك على كثير من البهجة من التسبُّب في إحراجي. كان ذلك في فرنسا حين بدأ، أوَّل مرَّة، بمناداتي «دكتور»، ومخاطبتي بالأساليب الطريفة لصبيٍّ مدرسة يضايق معلِّماً عاثر الحظّ. وأنا احتملت سخرياته بصبر؛ إنَّه

الثمن الذي يدفعه المرء بسبب تفوُّقه وتميُّزه الفكريّ. كلانا حمل رتبة نقيب، لكن من خلال خدعة تسلسليَّة غامضة من جانبه، الخدعة التي لا تزال تحيّرني، كان مفهوماً بيننا منذ البداية أنَّه كان الضابط الأقدم. ظاهريّاً، بالطبع، كان جندياً نظامياً -صلاتنا بالوكالة بقيت سرّيّة حتّى بالنسبة إلى الضبّاط الزملاء في منطقتنا، مع أنَّني بسرعة فهمت أنَّني كنت محسوباً على أفراد بينغلي، وهي سلالة احتقرها رجال الحملة العسكريَّة، التي تنقَّلنا فيها مثل- حسناً، مثل جواسيس. استفاد نيك من نفوذه، وحصل لنا على مكان للسكن أسفل شارعٍ جانبيٍّ مرصوف بالحصى على التلِّ بالقرب من الكاتدرائيَّة، في منزل مائل صغير محصور بين محلِّ الجزّار ومحلِّ الخبّاز. المنزل يملكه عمدة المدينة. وانتشرت شائعات تقول إنَّه استخدمه قبل الحرب لإيواء سلسلة من عشيقاته، وبالتأكيد كان ثمَّة شيء خليع، شيء ما مثل قصر «بيتي تريانون»[94] متعلّق بتلك الغرف العالية والضيِّقة بنوافذها الصغيرة المتعدِّدة ذوات الإطارات، وبأثاث بيت اللعبة. مباشرة أضاف نيك الجوَّ الأنيق بأن اتَّخذ عشيقة، مدام جولييت، إحدى النساء الناضجات واللامعات اللاتي نشأن نشأة سليمة، في أواخر الثلاثينيَّات من العمر، اللاتي بدون، من دون شكّ، كأنَّ فرنسا طوّرتهنَّ بالكامل، مع ثقافتهنّ، وتهذيبهنّ ليكنَّ جاهزات للعمل، كما لو أنهنَّ لم يعشنَ مرحلة الشباب قطُّ. كان نيك يُدخلها المنزل تهريباً، في الليل عبر الحديقة الخلفيَّة الصغيرة التي كانت تشرف على ممرٍّ مغطّى بأزهار الليلك- البيض المخفوق مع الأعشاب الطازجة كان اختِصاصها- في حين أجلس إلى طاولة المطبخ المغطّاة بقماش مشمَّع أتلمَّس قلقاً كأس نبيذ، ونيك يقف عند المغسلة وسترته محلولة الأزرار، ويده في

---

(94) قصر شهير في فرنسا، بني بين العامين 1762 و1768 أيّام الملك لويس الخامس عشر. كان مقرّاً للملكة ماري أنطوانيت آخر أيّامها، وقبل الثورة الفرنسيّة. (م)

جيبه، وكاحلاه متصالبان، يدخِّن سيجارة ويغمز لي مثل آن ماري وهي تثرثر حول موضات لندن، ودوقة ويندسور، والنزهة التي قامت بها إلى آسكوت في فترة ما بعد ظهر يوم صيف إنكليزيٍّ مثاليٍّ أسطوريّ منذ وقت غير محدَّد من السنين قبل هذه الحرب. كانت تصرخ «هذه الحرب الفظيعة، الرهيبة!» وهي ترفع نظرها إلى السقف وتشكِّل فماً مربَّعاً مضحكاً كأنَّها تندب الطقس السيِّئ. شعرت بالأسف تجاهها. خلف السطح اللامع لمظهرها الخارجيِّ، كان ثمَّة خوف كامن لامرأة جميلة تشعر بطبيعة الحال، تحت وطء أقدامها، بأنَّها تخطو على أوَّل انحدار في العمر. عدَّها نيك غنائم حرب. لم أهتمَّ، بتكهُّن، بطبيعة علاقتهما الغراميَّة وإن كان ثمَّة ليالٍ أُجبرتُ فيها على أن أغطِّي رأسي بالوسادة كي لا أسمع الضجَّة القادمة من غرفة نيك، وفي أكثر من مناسبة كشفت مدام جولييت في الصباح عن فمها المتورِّم وعينها المسودَّة، اللذين كانا إشارة إلى الإخلاص العبوديِّ، ولا يمكن إخفاؤه بإضافة أيِّ قدر من مستحضرات التجميل.

كنَّا أسرة صغيرة غريبة؛ الجوُّ يرتعش بعواطف صامتة غير معلنة، ومشحون على نحو متواصل بقلق الدموع المخنوقة. كان ثمَّة شيء غريب له متعته يتعلَّق بما يشبه الحياة المشتركة التي كنَّا نعيشها على نحو منقوص. بالنسبة إليَّ كانت رسماً، نسخة كرتونيَّة، لألفة الزواج المثاليَّة التي لم أختبرها في حياتي الواقعيَّة. على نحو طبيعيٍّ شكَّلنا، مدام جولييت وأنا، قرابة كان فيها نيك طفلاً من نوع ما. شعرنا، هي وأنا، كما لو كنَّا زوجاً من أخوين محبَّين لبعضهما، خارجين من حكاية خرافيَّة، سعيدَين في مهمَّاتنا، هي، بمكنستها، وأنا، بقلمي الأزرق، هناك في بيتنا رائع الزخرفة في أعماق شارع كلواتر. كانت المدينة قد جهَّزت نفسها ضدَّ الشتاء والحرب، والأيَّام قصيرة،

تكاد لا تكون أيَّاماً على الإطلاق، أشبه بشفق ضبابيٍّ طويل جدّاً. غيوم بحريَّة داكنة عظيمة تندفع من الشمال، والريح تتنهَّد وتهمس في النوافذ المؤطَّرة، تجعل شموع مدام جولييت ترتعش -كانت مدام جولييت الأفضل في اللمسة الرومانسيَّة التي تزيِّنها شمعة محترقة في كلِّ وجبة. حينما أفكِّر في ذلك الوقت، أتذكَّر رائحة شمع العسل، والوخزة الحادَّة لعطرها، وفي الخلفيَّة الرائحة الضعيفة للغاز المنزليِّ -كثير من وقتنا كنَّا نقضيه في المطبخ- والرائحة النتنة المنبعثة من مصارف المياه، وكرات الأقحوان الذابل الذي كان يرتفع من الأرضيَّة المكسوَّة بالآجر، التي كانت نديَّة دائماً، تتكثَّف بالرطوبة كأنَّ المنزل نفسه كان باستمرار يتعرَّق عرقاً بارداً. غالباً ما كان يتركنا نيك، كلينا، ننصرف، بعد العشاء في مأموريَّة رسميَّة مفترضة، ونعود بعد وقت طويل من منتصف الليل، برَّاقين ومبتسمين، في مزاج من البهجة الخطرة. حينها كنَّا، مدام جولييت وأنا، وقد انحنينا على مرفقينا في قبَّة دافئة لضوء الشمعة ودخان الغلوايز، ثملين ونحن في قمَّة الراحة من ثمالتنا، بعد أن شربنا ليكور الكمَّثرى الذي كانت تحبُّه، وأنا أشربه لأحافظ على رفقتها فحسب، لأنَّ مذاقه بالنسبة إليَّ كان مثل مذاق طلاء الأظافر. في تلك المحادثات الليليَّة كنّا، أنا وهي، نكاد لا نتحدَّث عن أنفسنا. أسئلة متردِّدة من جانبي، تخصُّ حياة مدام جولييت، كانت تقابل بزمٍّ شفتين وهزِّ كتفين غير مُدركٍ بالحسِّ تقريباً لكنَّه راشح بالازدراء بكلِّيته، ازدراء تُعرف به المرأة الفرنسيَّة حين تنبذ إخفاقات معشر الرجال المحيطين بها. أخبرتها عن فيفيين قليلاً، وعن ابننا، وكانت تعود إلى موضوعهما على نحو متكرِّر، وأعتقد أنَّ السبب ليس لأنَّهما كانا زوجي وولدي، بل لأنَّهما كانا أخت نيك وابن أخته. فنيك كان كلَّ ما نتحدَّث عنه، حقّاً، حتّى حين يكون الموضوع قيد المناقشة ليس

بذي علاقة به إطلاقاً. مدام جوليت، سرعان ما أدركت أنَّها كانت سطحيَّة تماماً. ما كان قد بدأ كعلاقة صغيرة يمكن إدارتها مع نقيب إنكليزيٍّ وسيم وغير مبال تحوَّل إلى شيء فيه خطورة مثل الحبِّ، والحبُّ بالنسبة إليها فيه القوَّة المدمِّرة لظواهر الطبيعة، مثل برق، أو عاصفة صيفيَّة، أو شيء ما، وإلّا تصبح الحياة وكلُّ شيء جعلنا نتحمَّلها خراباً منثوراً. لـمَّا كانت تتكلَّم عنه، كانت تطلق إشعاعاً من الكرب حاولت دون جدوى قمعه؛ هناك في ميداننا المصغَّر المضاء بالشموع كانت تظهر وضعيَّتها البائسة، مكافحة ألّا تُظهر رعبها، مثل مؤدٍّ في سيرك، في قفص مع حيوان كان من المفترض أنَّه حيوان مروَّض وقد تحوَّل فجأة إلى حيوان برِّيّ. في مرَّة، أو مرَّتين، بعد كأس أخرى من زجاجة براندي من ماركة «باوير ويليامز»، كانت رائحة خوف آن ماري وتوقها تتحوَّل إلى نفحة صافية من الإثارة، وبعدها يبدو الأمر كأنَّه ينبغي لي أن أقفز في القفص وانضمَّ إليها، ذراع أحدنا بذراع الآخر، نحضن بعضنا بعضاً ونواجه معاً الوحش الجشع. إلّا أنّ شيئاً من هذا لم يحدث. كانت تمرُّ اللحظة دائماً، وكنَّا نميل مبتعدَين عن بعضنا، بعيداً عن ضوء الشموع، ونجلس نحملق في كؤوس الليكور، أجوفَين، هادئَين، وفي الحال نادمَين ومرتاحَين.

لم يُصادف أن شعر نيك بالغيرة منَّا. كان يعرف تماماً مدى إحكامه القبض علينا؛ كان عليه فحسب أن يثني مخالبه وسوف ينبع الدّم من صدرينا. أعتقد أنَّه كان يسلِّيه أن يتركنا معاً في الليالي، مثل تلك الليلة، ليرى ما قد نفعله، وما هي استراتيجيَّات الهروب التي قد نحاولها.

لم تصلنا أيُّ إشارة عن الحرب، ولأيَّام متتالية نسيت السبب وراء وجودنا في فرنسا. في مواجهة مجموعات الجنود على الطرقات، أو وهم يتدرَّبون

على نحو جدِّيّ في الحقول وبين البساتين المثمرة، وجدت نفسي معجباً بحياة النظام، والتآلف مع كلِّ هذا التوزيع الصحيح والمناسب للرجال، كما لو أنَّه لم يكن مشروعاً عسكريّاً ذاك الذي شاركنا فيه على الإطلاق، بل بعض تفاصيل عمل خيريٍّ واسع النطاق. مرَّة كلَّ أسبوعين كنت أقود مع العريف هيغ إلى مقرِّ قيادة الحملة العسكريَّة في آراس، على نحو يفترض فيه أن أقدّم تقريراً عن النشاط في قطاعنا، لكن نظراً لعدم وجود أنشطة، لم يكن ثمَّة شيء أقدِّم عنه تقريراً، والليلة التي تسبق كلَّ رحلة كنت أقضي فيها ساعات مرهقة أعذِّب دماغي من أجل تجميع بضع صفحات مقبولة، ولو دون معنى، سوف تختفي دون أيِّ أثر في الأجزاء الداخليَّة للآلة العسكريَّة. لطالما كنت مفتوناً بالجوع إلى الحصول على الوثائق التي تتشاركها كلُّ المعاهد العظيمة، ولا سيّما تلك التي يُفترض أن يديرها رجال فعَّالون، مثل الجيش أو الاستخبارات. لا يمكنني حساب الأوقات التي تمكَّنت فيها من إحباط هذا التطوُّر غير الملائم في الوكالة، ليس من خلال إزالة المستندات، أو إخفائها، لكن عن طريق إضافة مستندات جديدة إلى مستندات منتفخة بطبيعة الحال.

أتساءل هل ذكرت العريف هيغ من قبل؟ لقد كان «باتمان» الخاصَّ بي، نسخة، من قاعة الموسيقا، لشخص من شرقيّ لندن، ينضح بالابتسامات والغمزات وتدوير العينين. في بعض الأحيان كان يمثِّل الدور على نحو مبالغ فيه للغاية إلى درجة ظننت معها أنَّه كان قد درسه، لأنَّه خلف مظهر الشابِّ منتفخِ الخدَّين كان ثمَّة شيء مقلق، شيء ما يائس، ومخيف. هيغ -اسمه الأوَّل، رولاند، بغيض على الرَّغم من رنَّته- كان قصيراً ومكتنزاً، بكتفين كبيرتين وقدمين صغيرتين، مثل ملاكم، وثمَّة فجوة في أسنانه الأماميَّة،

وأذناه منتصبتان. بدا كما لو كان في الجيش مُذ كان طفلاً. وكان بوي، الذي نزل للزيارة في عيد الميلاد من دانكيرك، حيث المكان الذي عيِّن فيه كي يقوم بالدعاية لأمر ما، قد أعجب به منذ اللقاء الأوَّل، وأطلق عليه لقب مارشال الميدان، وقضى العطل محاولاً إغراءه. هل يمكن أن يكون قد نجح في ذلك؟ -هذا ربَّما يفسِّر الجانب المذنب والمراوغ في سلوك هيغ. أتساءل عمَّا حلَّ به، وما إذا كان قد نجا من الحرب. لديَّ شعور بأنَّه لم ينجُ. كان أشبه بالشخصيَّة الثانويَّة التي تختبر الآلهة سيوفها عليها، قبل الشروع في معارك جيشَي هيكتور وأغاممنون[95].

مثل غالبيَّة الرجال في الحملة عدَّ هيغ الحربَ أمراً مضحكاً، لكنَّها ليست مضيعة للوقت بكلِّيتها، مخطَّطاً آخر من المخطَّطات الهائلة المجنونة التي تحلم بها القوى الجبّارة، الغرض الوحيد منها بدا كأنَّه تعكير الحياة الهادئة للمستويات الدنيا من البشر، وعدَّ الحملة الفرنسيَّة سخيفة جدّاً حتَّى من خلال معاييرهم. كان مثل مسافر تقطَّعت به السبل، نصف ساخط على عدم جدوى الأمر كلِّه، ونصف مستمتع بجوِّ العطلة السرمديَّة، وإن كان مملًّا. وبالطبع كان سعيداً بفرصة التذمُّر. وفي حين كنَّا نسرع في سيَّارة الأوستن السوداء الصغيرة التي تخصّنا (كانت دائماً تذكِّرني بخنفساء سوداء لامعة مهتاجة ومصمِّمة للغاية)، على طول تلك الطرقات الضيّقة لصفِّ الأعمدة المهسهس لأشجار الدلب، كان هو ينغمس في نوع من نغمة مؤكِّدة من التذمُّر والشكوى: الطعام القذر، ودورات المياه ذات الرائحة الكريهة التي لم تكن أكثر من ثقوب في الأرض، والبنات اللاتي لا يتكلَّمنَ كلمة واحدة بالإنكليزيَّة ويظهرنَ كأنَّهنَّ يضحكنَ طوال الوقت، ومن المحتمل

---

(95) إشارة إلى معركة طروادة الشهيرة التي ذكر عنها في ألياذة وأوديسّة هوميروس، وهيكتور هو ابن ملك طروادة مات دفاعاً عنها، وأجاممنون هو أخو الملك مينلاوس الذي حاصر طروادة. (م)

أنَّ نصفهنَّ مصاب بالسفلس. («أخبرك، سيِّدي، أنَّني لن ألمس فرج امرأة هنا حتَّى لو دفعوا لي»).

في إحدى تلك الرحلات إلى آراس توقَّفنا في إحدى القرى، أظنُّ أنَّها كانت هيزدِن، وأخذته إلى المطعم عند النهر الذي كان قد أوصى به بوي. كان اليوم بارداً جدّاً، وكنَّا المرتادَين الوحيدَين. غرفة الطعام كانت صغيرة جدّاً، وسقفها منخفض، وقذرة إلى حدٍّ ما، والمرأة المسنَّة البدينة التي تدير المكان كان منظرها كمنظر مومس، لكن كانت ثمَّة مدفأة حطب لطيفة، وكان في استطاعتنا سماع صوت النهر وهو يقعقع فوق الحجارة تحت النافذة المطليَّة، وقائمة الطعام كانت عملاً فنّيّاً رائعاً. كان هيغ مضطرباً؛ وتمكَّنت من رؤية أنَّه لم يكن واثقاً تماماً من موافقته على الاختلاط غير الرسميِّ بين الرتب. بعد أن أسدل قبَّعته بدا إلى حدٍّ ما محروماً وضعيفاً، مجزوز الشعر، وأذناه بدتا بارزتين أكثر من المعتاد. استمرَّ في تمليس شعره اللامع، والتنشُّق بعصبيَّة. تملَّكتني رغبة في التربيت على ظهر يديه الناعمتين على نحو مدهش، اللتين تكادان تكونان لفتاة (كم استغرقني الأمر طويلاً جدّاً لأدرك أنَّني شاذّ؟). انخرطَ في معركة رمي ثلج قصيرة مع منديله، ثمَّ جلس لوقت طويل يحملق عاجزاً في قائمة الطعام. اقترحت أن نبدأ بالمحار، وهو ابتلع ريقه حتَّى وثبت تفاحة آدم التي تخصّه مثل كرة على مضرب.

«ماذا، هيغ»، قلت، «ألم تأكل محاراً قطُّ؟ سنعالج الأمر».

أمضيت خمس دقائق ممتعة أتشاور مع السيِّدة صاحبة المكان، التي أقنعِتني، مع كثير من الحركات المسرحيَّة، وتقبيل الأصابع المضمومة، أن آخذ حساء حمِّيض ويخنة لحم البقر. «هل هذا مناسب لك، هيغ؟»، قلت، وأومأ هيغ برأسه، وبلع ريقه من جديد. أراد بيرة، لكنِّي لم أسمح بذلك، وطلبت

لكلينا كأساً من شراب نبيذ أبيض محليّ من نوع جيّد لنشربه مع المحار. تظاهرت بأنّني لم ألحظه وهو ينتظر ليقرّر أيّ سكّين طعام سيلتقط أوّلاً. تخبّط مع صدفات المحار جاعلاً إيّاها تطقطق مثل أسنان زائفة، وعانى في التقاط فتات المحار المزركش.

«حسناً»، قلت، «ما رأيك؟»

ابتسم ابتسامة شاحبة.

«إنّه يذكّرني بـ...»، احمرّ خجلاً مظهراً احتشاماً غير معتاد، «حسناً، لا أرغب في القول، سيّدي، إنّ الجوّ بارد فحسب».

أكلنا صامتَين لفترة، لكنّي شعرت به على نحو مرهِق يحضّر نفسه لشيء صعب. كنّا قد أوشكنا أن ننهي حساءنا حين تكلّم أخيراً.

«هل تسمح لي بالسؤال، سيّدي، هل جرى استدعاؤك، أو، هل انضممت من تلقاء نفسك؟»

«أيّتها السماء»، قلت، «يا له من سؤال، لمَ تسأل؟»

«حسناً، أنا أتساءل فحسب، كونك إيرلنديّاً وباقي الأمور».

سجّلت الصدمة الخافتة المألوفة، مثل سقوط السخام في المدخنة.

«هل أبدو لك إيرلنديّاً جدّاً، هيغ؟»

نظر إليّ بارتباك، وضحك.

«أوه، سيّدي، لا»، قال وأخفض وجهه نحو صحن الحساء، «ليس كثيراً».

في تلك اللحظة لمعت في ذهني صورة واضحة ومفصّلة له، يجلس في المقصف في المقرّ الرئيسيّ مع زملائه السائقين، كأس في إحدى يديه وسيجارة في اليد الأخرى، يرتدي وجهاً متغطرساً ومقلّداً لهجتي: لكن عزيزي هيغ أنا لا أكاد أكون إيرلنديّاً، على الإطلاق، على الإطلاق.

أتساءل عمَّا إذا كان بوي قد نجح حقّاً في إغوائه؟ هذه الأسئلة مثيرة للقلق. بالنسبة إلى رجل عجوز، يخنة لحم البقر، كما أذكر، كانت ممتازة.

بعد أن تنازلت عن الخدمات المقدَّمة من النساء المحلِّيَّات، كان يمكن لهيغ أن يقدِّم لي مساعدة بسيطة في أكثر مشكلاتي إرهاقاً، وهي الحاجة إلى توفير بيت دعارة ثانٍ في بولون لصالح أفراد الحملة العسكريَّة. مع وصول الحملة، كان ثمَّة بناء لماخور المدينة -شبكة من الغرف الداكنة الحقيرة فوق محلِّ الحلَّاق، على مقربة من المكان الذي كنَّا نقيم فيه، أنا ونيك، تديره مدام مرقَّطة بالشامات، وترتدي ثوباً فضفاضاً وباروكة شعر منسدل بلون الحنَّاء، تشبه، إلى حدٍّ كبير، أوسكار وايلد في سنواته الأخيرة- كان قد ازدهر على نحو نشط للزيادة الكبيرة في الطلب، لكن في وقت قصير اكتظّت تجمُّعات العامَّة أمام مدام موتون والهاويات تدخَّلن لاستيعاب فائض العمل. وسرعان ما امتلكت أيُّ حانة أو مخبز غرفةً في الطابق العلويِّ مع فتاة فيها. كانت هناك معارك واتِّهامات بالغشِّ والسرقة وانتشار سريع للمرض على نطاق واسع. لا أستطيع تذكُّر كيف أصبح الأمر مسؤوليَّتي، فقد أمضيت أسابيع لا فائدة منها أتسكَّع بين أقسام الشرطة ومبنى البلديَّة. حاولت أن أكسب دعم أطبَّاء البلدة، حتَّى إنَّني تحدَّثت إلى قسِّ الأبرشيَّة، وهو صبيٌّ كبير السنّ ماكر بعين زائغة، تبيَّن أنَّه متآلف، على نحو مثير للشكِّ مع عمل مدام موتون. شعرت أنَّني شخصيَّة في إحدى مسرحيَّات فيدو[96] الكوميديّة، أدور على نحو يائس عبر مجموعة من حالات سوء فهم، واحدة تلو أخرى، أصطدم في كلِّ مكان مع شخصيَّات تقليديَّة، كلّهم عارفون متملِّقون، يرشحون بالازدراء وعنيدون تماماً.

---

(96) جورج فيدو (1862-1921) كاتب مسرحيّ فرنسيّ، اشتهر بعروضه المسرحيّة الساخرة والكوميديّة. ألّف أكثر من ستّين مسرحيّة. (م)

«الحرب جحيم، حسناً»، قال نيك، وضحك، «لمَ لا تحصل على مساعدة آن ماري؟ أعتقد أنَّها مدام جيِّدة».

كانت لغة مدام جولييت الإنكليزيَّة ضعيفة جداً، ولـمَّا سمعت نيك ينطق اسمها في محادثة معي، ابتسمت ابتسامة خاصّة، فيها فضول، وهي تميل رأسها وترفع أنفها الصغير الجميل في محاكاة غير مقصودة لغنج مسرحيٍّ.

«يظنُّ نيك أنَّك ربَّما تساعدينني مع مدام موتون وفتياتها»، قلت لها بلغة فرنسيَّة، «أقصد، هو يظنُّ أنَّك ربَّما تكونين قادرة على... أنَّك...»

ماتت ابتسامتها، وخلعت مئزرها، مرتبكة في حلِّ شريطه، وأسرعت خارج المطبخ.

«أوه، دكتور، يا لك من أبله»، قال نيك وابتسم لي مرحاً.

لحقت بآن ماري، كانت تقف عند النافذة في الردهة الأماميَّة الصغيرة. وحدها المرأة الفرنسيَّة يمكن لها أن تعصر يديها على نحو مقنع. دمعة لامعة ارتعشت عند زاوية كلِّ عين. بدَّلت الآن دور المغناج بدور فايدرا[97].

«هو لا يهتمُّ بي»، قالت بصوت يغزِل، «لا يهتمُّ إطلاقاً».

كان ذلك في منتصف الصباح، وعمود من أشعَّة شمس الربيع، رقيق أبيض، كان يخترق النافذة البنِّيّة لمحلِّ البهارات في الجانب الآخر من الشارع. كان بإمكاني سماع النوارس في الأسفل، في الميناء تصرخ. وفجأة، بحيويَّة تهُّز القلب، رأيتُنا، نيك وأنا، نقف على الواجهة البحريَّة لكاريكدرام منذ زمن لا يزيد عن عام، في حياة أخرى.

«لا أعتقد أنَّه يهتمُّ أكثر بأيِّ أحد»، قلت، ولم يكن هذا ما قصدت قوله. أومأت برأسها، ولا يزال وجهها نحو النافذة. ثمَّ تنهَّدت، وتحوَّلت

---

(97) بطلة مسرحيّة فايدرا للكاتب المسرحيّ الفرنسي جان راسين، عرضت أوّل مرّة عام 1677، وهي مسرحيّة تراجيديّة. (م)

التنهيدات إلى نشيج صغير ذابل.

«هذا صعب جدّاً»، تمتمت، «صعب جدّاً».

«نعم»، قلت، شاعراً بالعجز والبؤس؛ لم أكُ قطُّ جيّداً بحضور ألم الآخرين. بعد لحظة من الصمت ضحكت مدام جولييت، وأدارت رأسها إليَّ وعيناها تتلألآن بالحزن، وقالت:

«حسناً، ربَّما سيحالفني حظٌّ أفضل حين يأتي الألمان. إلّا...»، تلعثمت في كلامها، «إلَّا أنَّني يهوديَّة».

*

حصلت الآنسة فانديلور على قصة سخيفة حول شجاعتي تحت خطِّ النار. لقد حاولت أن أوضح لها أنَّ مفهوم الشجاعة زائف كليَّة. نحن هو ما نحن عليه، ونفعل ما نفعله. في المدرسة، لـمَّا قرأت لهوميروس أوَّل مرَّة، كان ما أثار دهشتي عن أخيليس هو غباؤه الشديد. بالنسبة إليَّ لم أكن غبيّاً، وكنت خائفاً، لكن كان لديَّ ما يكفي من ضبط النفس لا أظهره خلا مناسبة واحدة (مرَّتين، في الواقع، لكن في المرَّة الثانية، لم يكن ثمَّة من يراه، لذلك لا تُحسب). لم أقم بأيِّ أعمال جريئة، ولم أرمِ نفسي أمام القذائف، أو أهرب إلى أراضٍ لا بشر فيها لأنقذ هيغ من المغول. ببساطة، كنت هناك، وحافظت على حياتي. لم يكن ثمَّة ما أتباهى به. في أيِّ حال، كان هذا التزاحم من أجل العودة إلى الوطن في دانكيرك له وقع قويّ كما لو كنتِ تحضر مسرحيّة هزليَّة ولم يسمح لأحد حينها أن يفكِّر جديّاً في الحتف الرهيب الذي قد يلاقيه لو وصل هناك. إذا كانت الشجاعة تعني القدرة على الضحك في وجه الخطر، حينها يمكنك أن تدعوني شجاعاً، لكن ذلك

فحسب لأنَّ وجهي دائماً في هيئة مهرِّج.

عرفنا أنَّ الألمان قادمون. حتَّى قبل أن يشنُّوا هجومهم وينهار الجيش الفرنسيُّ، كان واضحاً أنَّ شيئاً لن يوقف القوَّات المدرَّعة الألمانيَّة باستثناء القناة، والآن حتَّى القناة لم تبدُ أكثر من خندق مائيٍّ لقلعة. كنت نائماً في الصباح حين وصلت دبابات بانيستر الألمانيَّة إلى ضواحي المدينة. كان ضجيج هيغ وهو يدعس على الدرجات إلى غرفتي أعلى من صوت إطلاق النار من البنادق الألمانيَّة. كان يرتدي بزَّته، لكنَّ قطعة من منامته كانت تُرى من فوق ياقة سترته. تعلَّق على هيكل الباب، وهو يلهث بعينين جاحظتين، ولم أكن قد لاحظت من قبل كيف كان يبدو كالسمكة، بتينك العينين المنبثقتين والفم الناتئ والأذنين شبيهتي الزعانف.

«إنَّهم الألمان، سيِّدي- إنَّهم هنا، الوحوش!»

جلست، سحبت بخجل البطانيَّة حتَّى ذقني.

«أنت لبست ثيابك على النحو الخطأ، هيغ»، قلت مشيراً إلى طرف القماش القطنيِّ المقلَّم الواضح على رقبته. ابتسم ابتسامة يائسة وهزَّ نفسه مثل سمكة سلمون على خطَّاف.

«أوه، سيّدي، سيكونون هنا في غضون ساعة»، قال بانتحاب مزعج، مثل صبيّ مدرسة يلحُّ ببطء على أستاذ الألعاب.

«ثمَّ كان علينا أن نكون أذكياء... أليس كذلك؟ أو هل تشعر أنَّه علينا أن نقف في وجه الدبَّابات؟ في الواقع أظنُّ أنَّني لم أعرف أين وضعت مسدَّسي».

كان أحد صباحات مايو، صباحاً جميلاً منعشاً، كلّه ابتهاج ولمعان، والمسافات العابقة بالدّخان لطيفة وهادئة. كان هيغ ينتظر في سيَّارة الأوستن

والمحرِّك يدور. لطالما كنت أتأثَّر على نحو غريب برائحة الأدخنة المنبعثة في هواء الصباح. كانت السيَّارة الصغيرة ترتجف مثل عجل، كما لو أنَّها كانت تعرف مصيرها القريب. ونيك مسترخ في مقعد المسافر الأماميِّ وقبَّعته مائلة على نحو أنيق، وياقته غير مزرَّرة. صعدت في المقعد الخلفيِّ، وانطلقنا أسفل التلِّ باتِّجاه الميناء. ولـمَّا تباطأنا في حركتنا عند أحد المنعطفات صرخ رجل عجوز يتَّكئ على عكَّاز بشيء ما، ثمَّ بصق علينا.

«يوم عظيم للهزيمة»، قلت.

ضحك نيك.

«لقد قضيت وقتاً طويلاً»، قال، «ماذا كنت تفعل- تصلِّي؟»

«كان يجب أن أحلق ذقني».

نظر إلى هيغ، وأومأ بتجهُّم، «الجيش الألمانيّ يوشك أن ينقضَّ علينا، وهو ينبغي له أن يحلق ذقنه»، دار نحوي مرَّة أخرى، «وما هذه؟»

«عصا الاختيال[98]».

«هذا ما ظننته».

وصلنا إلى مجموعة من رجالنا يسيرون بصعوبة أسفل التلِّ. نظروا إلينا بامتعاض حين مررنا أمامهم.

«أين الآخرون؟»، سألت.

«ذهب معظمهم إلى دانكيرك»، قال هيغ، «لقد أرسلوا سفينة ركَّاب من دوفر. يقولون إنَّ اسمها سفينة الملكة ماري. رجال محظوظون».

كان نيك يحدِّق عبر النافذة الخلفيَّة إلى المتشرِّدين.

«ربَّما كان ينبغي أن نتحدَّث إليهم»، قال، «بدوا محبطين جدّاً».

---

(98) عصا كان يحملها الضبّاط في الجيش أو المتنفّذون في السلطة كرمز لسلطتهم، وهي عادة أقصر من العصا العاديّة. (م)

«أحدهم كان يحمل شيئاً بدا مثل فخذ خنزير»، قلت.

«أوه، عزيزي، آمل حقّاً ألّا يلجؤوا إلى النهب. يميل الناس إلى التفكير في مثل هذه الأمور، ولا سيّما الفرنسيِّين».

كانت ثمَّة جلجلة في مكان قريب، شعرت بها من خلال خفقان المحرِّك. وبعد ذلك بلحظة، رنَّ وابل من الحطام الناعم على سطح السيَّارة. سحب هيغ رأسه إلى الأسفل بين كتفيه مثل سلحفاة.

«لمَ يطلقون النار علينا؟»، قال نيك، «ألا يدركون أنَّنا في حالة انسحاب».

«إنَّه مجرَّد ابتهاج»، قلت، «أنت تعرف الألمان».

اكتسى الميناء بمنظر احتفاليٍّ رائع مع تجمهر حشود من الرجال حول رصيفه، وقوارب من مختلف الأنواع تتدافع على سطح البحر. تلوَّن الماء بلون أزرق فضّيّ، والسماء علقت بها كلّها نتفُ غيم قطنيَّة.

«هل تمكَّنت من توديع مدام جولييت؟»، قلت.

هزَّ نيك كتفه، مبقياً قفا رأسه موجَّهاً صوبي.

«لم أتمكَّن من العثور عليها»، قال.

الآن، كنَّا نشقُّ طريقنا عبر الحشود على الرصيف. انحنى هيغ نحو البوق، وصار يشتم بصوت خفيض. لمحتُ زميلاً لي في أيَّام المدرسة، فجعلت هيغ يوقف السيَّارة.

«مرحباً، سلوبر»، قلت.

«أوه، مرحباً ماسكل».

لم نكن قد التقينا منذ كنَّا في السابعة عشرة. وضع مرفقه على الباب، وحنى رأسه الكبير الشاحب إلى الأسفل عند النافذة. قدَّمت نيك، وتصافحا

على نحو أخرق من وراء ظهر مقعد نيك».

«يجب أن أحيّي، بالطبع»، قال نيك. عندئذ فقط لاحظت رتبة رائد على كتف سلوبر.

«عفواً سيِّدي»، قلت، ورسمت تحيَّة. كان يتقدَّمني في صفِّ المدرسة، أيضاً.

مع صرخة ذعر، سقطت قذيفة في الميناء، ما رفع عمود ماء كبيراً وجعل حجارة الرصيف ترتعش.

«هل تعتقد أنَّ ثمَّة فرصة للفرار اليوم، سيِّدي؟»، قال نيك.

نظر سلوبر إلى الأسفل وعضَّ شفته.

«لم يتبقَّ سوى قارب واحد قديم»، قال، «ولا أحد سيأخذه لأنَّ-»

جاء جنديٌّ بجبهة مضمَّدة على نحو جذَّاب، مهرولاً، يمسك بورقة، وصرخ:

«رسالة من دوفر، سيِّدي، سنقوم بالإخلاء في الحال».

«هل هذا صحيح واتكينز؟»، قال سلوبر بعد أن أخذ الرسالة منه، ونظر فيها متجهِّماً، «حسناً، حسناً».

«أين يمكننا أن نجد هذا القارب، سيِّدي؟»، قال نيك.

أومأ سلوبر إيماءة غير واضحة، وعاد إلى قراءته. طلبت إلى هيغ أن يقود.

«سلوبر القذر، رائد»، قلت، «حسناً، عجبي».

كان القارب سفينة صيد بريتونيَّة مع إكليل من الورد مرسوم على مقدِّمتها. تتأرجح ببطء بحبالها، ولم يكن ثمَّة أحد على متنها. المجموعة التي كنَّا قد مررنا أمامها عند التلِّ وصلت الآن، ووقف أفرادها مكتوفي

الأيدي على الرصيف، وحقائبهم عند أقدامهم، يحملقون صوب إنكلترا يملؤهم الحزن.

«هنا، أنت، غريمس»، قلت لأحدهم، «ألم تكن صيَّاد سمك؟»، كان شابّاً قصيراً، شكله كالبرميل، متقوّس الساقين، بوجه أحمر، وخصلة شعر شقراء تغطّي أعلى جمجمته. «هل بإمكانك قيادة هذا الشيء؟»

كان بإمكانه. وفي الوقت الحالي كنَّا نقود في طريقنا خارج الميناء باتّجاه البحر المفتوح. تخبّط المركب وتمايل مثل بقرة عجوز تقطع طريقها عبر حقل موحل. في غرفة القيادة وقف غريمس مثبّتاً قدميه المحنيّتين، ويصفر بسعادة. والآن كانت هناك قذيفتان أو ثلاث تنزل باتجاهنا كلَّ دقيقة. كان هيغ جاثماً في المؤخّرة، يمسك بسيجارة، ويرتعش.

«ابتهج يا هيغ»، قلت، «كان ينبغي لها أن تذهب، أنت تعرف ذلك». كنَّا قد تخلَّصنا من سيَّارة الأوستن في الميناء. وهيغ شاهد بحزنٍ غير المصدِّق السيَّارة الصغيرة تنقلب من فوق رصيف الميناء وتغرق، مقدِّمتها أوّلاً داخل الماء الزيتيّ، وتغرق ببلعة عظيمة. «أنت لم ترد أن يحصل عليها جيري، أليس كذلك؟»

رمقني بنظرة كلب قد ركل للتوِّ، ولم يقل شيئاً، ثمَّ رجع إلى اكتئابه. شققت طريقي جانبيّاً على طول الممرّ المزدحم إلى مقدِّمة السفينة، حيث كان نيك يجلس على السطح وظهره باتِّجاه الحافَّة العلويَّة للمركب، ومرفقاه على ركبتيه، وأصابعه متشابكة، يتمعَّن في السماء. سقطت قذيفة على بعد ثلاثين ياردة إلى يسارنا مع صوت ارتطام ضعيف على نحو لافت للنظر.

«كنت أجري عمليَّات حسابيَّة»، قال نيك، «آخذاً في الحسبان تواتر إطلاق النار، والمسافة التي يجب أن نقطعها قبل أن نصبح خارج نطاقها،

يمكن أن نتعرَّض لقذيفة أو اثنتين قبل أن نخرج من حدود مرماهم».

جلست إلى جانبه.

«تبدو هذه القذائف أليفة بالنسبة إليَّ»، قلت، «هل تظنُّ أنَّ إحداها ستغرقنا؟»

ألقى عليَّ نظرة جانبيَّة، وضحك.

«حسناً، إذا وضعنا في حسباننا الأشياء المخزَّنة في الطوابق السفليَّة من السفينة، أعتقد أنَّها فرضيَّة مقبولة».

تساءلت لمَ تنبعث من البحر رائحة قطران؟ أو تلك القوارب هي من تصدر تلك الرائحة ونحن نتخيَّل أنَّها من البحر؟ الحياة تفيض بالأسرار.

«ماذا»، قلت، «هناك في الأسفل؟»

هزَّ كتفيه.

«في الواقع، أربعة أطنان من المتفجِّرات الشديدة. هذه سفينة تخزين. ألم تكن تعرف ذلك؟»

*

مؤخَّراً، كانت قد تطوَّرت لديّ حالة ارتعاش عامّ ضعيف جدّاً. ارتعاش غريب، وأنا مُفاجَأ لملاحظة أنَّه ليس شعوراً غير مبهج تماماً. في السرير ليلاً، حينما يجافيني النوم، أكون مدركاً إيَّاه طوال الوقت. نوع من وميض تحت الماء متموِّج، يبدو كأنّه يولد في مكان ما من أسفل صدري حول منطقة الحجاب الحاجز، ويتدفَّق إلى الخارج حتَّى رؤوس أصابع يديَّ وأصابع قدميَّ الضعيفة الباردة. أفكِّر في شحنة كهربائيَّة منخفضة الجهد تمرُّ عبر وعاء فيه سائل كثيف دافئ أرجوانيّ. ربَّما هذي أوَّل علامة ارتعاش على بداية

داء باركنسون؟ الكوميديا السوداء لهذا الاحتمال ليست على عاتقي: بما أنَّ الطبيعة محافظة، فإنَّ مهاجمة مرضين رئيسيَّين في الوقت عينه لكائن حيويّ ستبدو تبذيراً، على أقلِّ تقدير. قد يظنُّ المرء السرطان كافياً لي هذه اللحظة. إنَّما حتَّى لو كان الإعلان المسبق عن أحد هذه الأمراض الحديثة (هل يسبِّب مرض الزهايمر ارتعاشاً؟)، فأنا مقتنع أنَّ هذا الارتعاش، على نحو ما، يعود في أصله إلى تلك اللحظة عند العودة من بولون، حين أدركت أنَّني كنت أجلس على قنبلة عائمة. كان ذلك لـمَّا ضربت الشوكة الرنَّانة للرعب أوَّل مرَّة، كما أعتقد، وانحدرت الاهتزازات، الآن فحسب، إلى حدٍّ يمكن أن يكشفه جهاز الاستقبال البشريّ الذي يخصّني. تعتقدون أنَّني أتوهَّم؟ التأثيرات العميقة هي فاعلة دائماً قبل أن نسجِّلها مع قدراتنا الضعيفة على الشعور والإدراك. أفكِّر الآن في تعجُّب والدي الظريف، حين كان في الستينيَّات، وبعد أن عانى من أوَّل هجمات الشريان التاجيّ، أخبره الأطباء أنَّ حالته هي نتيجة ضرر لحق ببطينَي قلبه بسبب نوبة من الحمَّى الروماتيزميَّة كان قد عانى منها في الطفولة المبكِّرة. لذا من الممكن تماماً أن تكون هذه الهزَّة التي أصابتني الآن في سنِّ الثانية والسبعين، هي مظهر، بعد انقضاء واحد وأربعين عاماً، من مظاهر الخوف الذي أصابني ولم أتمكَّن من كشفه في ذلك اليوم في ميناء بولون ونحن نمضي في طريقنا إلى الوطن تحت أشعَّة الشمس السعيدة مع قذائف الدبَّابات وصياح النوارس حولنا.

كنت قد توقَّفت لفترة طويلة بين الفقرة الأخيرة وهذه الفقرة، فقد كنت أتأمَّل في السؤال الذي سبق، وتأمَّلت فيه من قبل، حول ما إذا كانت لحظات الكشف العظيمة هذه قد حدثت حقّاً، أو ما إذا كانت بحكم الضرورة تفتقر حيواتنا إلى الدراما، فنكسو الأحداث الماضيات بقيمة لا مسوّغ لها.

مع ذلك، لا يمكنني التخلُّص من الاعتقاد بأنَّ شيئاً ما قد حصل لي في ذلك اليوم، شيئاً ما غيَّرني، مثلما يقال إنَّ الحبَّ، أو المرض، أو الخسارة العظيمة تغيّرنا، تبدِّلنا درجة حيويَّة أو درجتين، فننظر إلى العالم من منظور جديد. واجهت الخوف كما يواجه أحدنا المعرفةَ لينهل منها. في الواقع، يبدو فعلاً مثل شكل من المعرفة المفاجئة التي لا تقبل الجدال. مشاعري المباشرة، حين أخبرني نيك عن الديناميت في مخزن السفينة مبتهجاً، كانت، أولاً، ضغطاً شديداً في صدري أدركت أنَّه كان رغبة ملحّة في الانفجار بالضحك؛ لو كنت ضحكت حينها لكان ربَّما انقلب إلى صراخ. بعد ذلك، لمعت في ذهني، على نحو غريب، صورة واضحة وحيّة للوحة موت سينيكا، كاملة مع إطارها -الإنكليزيَّة، أواخر القرن الثامن عشر، لكن جيِّدة- وبقعة من الجدار الشماليّ المضاء في شقة غلوسيستر تيراس حيث كانت معلَّقة، حتَّى الطاولة الصغيرة المطليَّة بالورنيش التي كانت دائماً منتصبة تحت اللوحة. كان ينبغي لي أن أفكِّر في الزوجة والولد، الأب والأخ، الموت، المحاكمة والقيامة، لكنّي لم أفعل؛ فكَّرت، سامحني أيُّها الربُّ، في ما أحببته حقّاً. الأشياء، بالنسبة إليَّ، كانت دائماً تحمل أهميَّة أكثر من البشر.

هذا النوع من الرعب، المبلَّل بالعرق، الذي يصيبك بإمساك البول لا يشبه، في سبيل المثال، الفزع الباهت الذي أشعر به هذه الأيَّام حينما أفكِّر في الموت المؤلم والبائس تماماً، الذي أعرف أنَّه ينتظرني، عاجلاً وليس آجلاً. ما جعله مختلفاً كان عنصر المخاطرة. لم أكن يوماً مقامراً، لكن في وسَعي فهم كيف يكون الشعور حين تجري الكرة الخشبيَّة الصغيرة في نهاية دورانها عكس عقارب الساعة، وهي تصدر خشخشة تذكِّر، على نحو يشتِّت الانتباه، بمرحلة الحضانة، وتقفز بإثارة داخل فتحات عجلة

الروليت وخارجها، أوَّلاً الحمراء، ثمَّ السوداء، ثمَّ الحمراء من جديد، مع كلِّ شيء معلَّق بنزواتها: المال، عقد الزوجة المرصَّع باللآلئ، تعليم الأولاد، وثائق القصر في التلال، ناهيك عن المنزل المؤقَّت وراء محلِّ بيع الدخان عند شاطئ البحر الذي لا يفترض بأحد أن يعرف عنه شيئاً. التشويق، وعذابه، الإثارة الجنسيَّة -الآن؟ هل سيكون الآن؟ هل هو الآن؟- وكلَّ الوقت ذلك الشعور المحموم بالرعب بأنَّ كلَّ شيء يوشك أن يتغيَّر، تماماً، على نحو غير معروف، إلى الأبد. هذا ما يعنيه حقاً أن تكون حيّاً، في وهج مغنيزيوم أفظع أشكال الرعب، على نحو رهيب وجذل.

نيك بالطبع لم يكن خائفاً. أو لو كان خائفاً فإنَّ أثر ذلك فيه سيكون حتَّى أكثر وضوحاً من أثره فيَّ. كان جذلاً. نوع من الإشعاع كان يصدر عنه كما لو كان مشتعلاً من الداخل. كان في وسعي شمُّه؛ فوق رائحة البحر، وبخار الملح الصادر عن ألواح السفينة حيث جلسنا، كان في وسعي شمُّه، وبلعت رائحته، الرائحة الكريهة الصافية المنبعثة منه، العرق والجلد والصوف المبلَّل، والرائحة النتنة للقهوة المحترقة التي كان يشربها في سيَّارة الجيب قبل ساعة من الزمن خارج المنزل في شارع كلواتر حين كان هو وهيغ ينتظرانني والدبَّابات الألمانيَّة قد بدأت إطلاق النار على المدينة. أردت أخذ يديه بيديَّ، أردت أن أعانقه، أضحِّي بنفسي في تلك النار. لا يمكنني إخباركم كم أشعر بالحرج الآن، وأنا أدندن مقطع الموسيقا *Liebestod*(99) المغنّي هذا، لكن ليس أمراً شائعاً أن يجد المرء نفسه يرتعش للغاية وهو قريب جدّاً من موت عنيف. تمنَّيت لو كان خوفي غير واضح. ابتسمت له، وهززت كتفي وأنا أحاول أن أبدو ساخراً وغير مبالٍ، كما ينبغي لأيِّ ضابط، وعلى الرغم من

---

(99) بالألمانيّة في الأصل، وتعني الموت عشقاً، وهي عنوان الحركة الموسيقيّة الأخيرة في أوبرا تريستان وإيزولدي للموسيقيّ الألمانيّ ريتشارد فاغنر. (م)

تصلُّب شفتي العليا، كان عليَّ أن أعضَّ السفليّة لأمنعها من الارتعاش. ولـمَّا ابتعدنا أخيراً عن نطاق نيران الأسلحة، وبدأ الرجال يهلِّلون ويرقصون على سطح السفينة، ماتت عينا نيك، واستدار عنِّي، ونظر إلى البحر، متجهِّماً، صامتاً، منهوك القوى، وأنا، شكرت الله لغفلته عن مشاعر أيِّ أحد سوى مشاعره.

لندن أيضاً كانت صامتة. قبل أشهر كان مزاج المكان احتفاليّاً تقريباً. قاذفات القنابل لم تكن قد جاءت، وعناصر قوَّات العاصفة لم يكونوا قد احتلُّوا الشاطئ الجنوبيَّ، وكلُّ شيء كان يبدو خفيفاً وبعيداً وغير حقيقيّ مثل المناطيد العملاقة العائمة فوق المدينة كأنَّها صورة خارجة من لوحة للرسام ماغريت[100]. الآن تغيَّر كُّل ذلك، وامتدَّ صمت ثقيل. عبرتُ الحديقة، تحت الأشجار الضبابيَّة الخفيضة، وكنت لا أزال أشعر بتأرجح سطح السفينة تحت قدميَّ، وبسبب دوار رأسي فكَّرت في أنَّني ربَّما كنت ميتاً، وتلك الحقول الخضر ليست إلّا جزيرة إليسيوم[101]، والمربيَّات المرتديات الأسود صارمات مثل إلهات تذرعن جيئة وذهاباً بزوارقهنَّ. وبالقرب من بوابة كلاريندون مرَّ أمامي رجل ضخم يمتطي حصاناً صغيراً بدا كأنَّه قنطور[102] يرتدي قبَّعة مدوَّرة. في غلوسيستر ثيراس كانت تقف سيَّارة أجرة من دون سائق تلهث في الشمس، أحد بابيها الخلفيّين مفتوح على نحو غير مفهوم في دعوة موحية. صعدت الدرج إلى الشقَّة، وبدت قدماي كما لو كانتا قد تحوَّلتا إلى رصاص

---

(100) رينيه ماغريت (1898-1967)، رسّام سرياليّ بلجيكيّ. عُرف بلوحاته الذكيّة المحاكية للفكر. (م)

(101) في الميثولوجيا الإغريقيَّة إليسيوم هي جزيرة الخالدين تقع في المغرب الأقصى لقرص الأرض، وهي جزيرة دائمة الخضرة يُرسل إليها المباركون. (م)

(102) مخلوق أسطوريّ في الميثولوجيا الإغريقيّة له جسد حصان وجذع ورأس إنسان، عرف عنه حبّ النساء والنبيذ والفلسفة. (م)

وقلبي إلى حجر. من المؤكَّد أنَّ أوديسيوس نفسه، العائد من الحرب، لا بدَّ أنّه اختبر مثل لحظة الرهبة الغريبة هذه على عتبة منزله. توقَّفت في الردهة، خارج الباب المألوف لي، وبدوت لنفسي عالقاً في نقطة ضغط لا تطاق مثلما يحصل لو تلامس كوكبان، وثمَّة شيء ما انتفخ في داخلي، وللحظة لم أستطع التنفّس. الإحساس بارتخاء المفتاح وهو يدخل في قفل الباب جعلني أرتجف.

فاحت من الشقة رائحة مختلفة. من قبل كانت رائحتها كرائحة غبار الكتب، صباغ عمره قرون، عفونة سرير، ورائحة نفَّاذة غريبة أفترض أنَّها كانت مجرَّد رائحة شراب جن الذي اعتدت شرب كثير منه، في ذلك الحين. أضيفت الآن رائحة صوف وحليب وبراز مائيٍّ رطب، وشيء ما مثل رائحة وجبات مدرسيَّة تقلب النفس. كانت فيفيين في غرفة المعيشة، تجلس في ضوء الشمس على الأرضيَّة أمام الأريكة في بركة من المجلات المنثورة، وقدماها الحافيتان إلَّا من جوربين، مطويَّتان تحتها. ربَّما كانت تتوضَّع لواحدة من لوحات فترة الحرب العاطفيَّة تلك -في انتظار رسالة، أو نيران مدفأة البيت موقدة- التي كان بريندن براكين من مقرِّه في وزارة الإعلام يأمر بإنجازها في قسم الأكاديميَّة الملكيَّة للخدع. كانت ترتدي تنُّورة مطويَّة بثنيات كبيرة، وقميصاً ورديّاً. لاحظت فمها القرمزيَّ وأظافرها المتناسقة، وشعرت برعشة شبقة ناعمة. وضعت قبَّعتي إلى الأسفل على الطاولة، وبدأت أقول شيئاً، لكنَّها رفعت يداً مُخرسة ولوت وجهها في رعب.

«شش»، همست وهي تومئ إلى غرفة النوم، «سوف توقظ العفريت النائم».

توجَّهت نحو نضد البوفيه.

«هل تريدين شراباً؟»، قلت، «أنا أريد».

كان كلُّ شيء جاهزاً لديها: الجن الأزرق في زجاجة بكتفين عاليتين، شرائح من الليمون المرّ، وعاء زجاجيٌّ مزخرف فيه مكعَّبات ثلج. أشعلت سيجارة. كان في وسعي الشعور بنظرتها الباردة، ورفعت كتفي نحوها مدافعاً.

«كم تبدو ذكيّاً»، قالت، «بزيِّك العسكريِّ».

«لا أشعر أنِّي ذكيّ».

«لا تكن حادّاً، عزيزي».

«آسف».

أحضرت لها الشراب. رفعت كلتا يديها لأخذه، وهي تنظر إليَّ بابتسامة مزمومة ساخرة.

«حبيبي أنت ترتجف»، قالت.

«أشعر بالبرد قليلاً. كان الجوُّ قارساً في القناة». ذهبت ووقفت عند الموقد، ملقياً بمرفقيَّ على رفِّه. احتشدت أشعَّة الشمس وأوراق الشجر عند النافذة، والشارع في الخارج همهم لنفسه مذهولاً بأوَّل إنذارات الصيف. وفي كأسي تجمَّعت مكعَّبات الثلج، تجمَّعت بحماس، ترنُّ وتنكسر. صمت. وضعت فيفيين شرابها إلى الأسفل على السجَّادة إلى جانبها، ونظرت باهتمام إلى طرف سيجارتها وهي تومئ لنفسها.

«نعم»، قالت بصوت منخفض، «أنا في حالة جيِّدة. شكراً لك. تكاد لم تؤثِّر الحرب فيَّ. ليس الأمر بهذا القدر من البهجة، بالطبع، والجميع يتسلّون لكونهم بعيدين، أو مشغولين للغاية في أعمالهم السرّيَّة في وزارة الحرب. أذهب إلى أكسفورد في عطل نهاية الأسبوع. والداي يسألان عنك. أخبرهما بأنَّه لا، هو لم يكتب لي بعد، أنا متأكِّدة من أنَّه لا بدَّ مشغول جدّاً، يستأصل عملاء النازيَّة، وما إلى ذلك»، كانت لا تزال تتفحّص رماد

سيجارتها، «نعم، وابنك أيضاً في حالة جيِّدة. اسمه جوليان بالمناسبة، في حال كنت قد نسيت».

«أنا آسف»، قلت من جديد، «كان ينبغي لي أن أكتب، أعرف، كان مجرَّد...»

اتَّجهت نحو الأريكة وجلست عليها، وهي، مالت عليَّ وذراعها على ركبتي، ونظرت نحوي إلى الأعلى. رفعت يدها ووضعت ظهرها على جبهتي كما لو كانت تختبر حرارتي.

«أوه، لا تتجهَّم، عزيزي»، قالت، «هذا هو حالنا، هذا كلُّ شيء. الآن أخبرني عن الحرب. كم ألمانياً قتلت؟»

زلقت يدي داخل قميصها، وتحسَّست ثدييها، كانا باردين وغريبين، وحلمتاهما خشنتان من إرضاع الطفل. حكيت لها عن هروبنا من بولون. استمعت مشتَّتة الذهن وهي تتلمَّس خيطاً مفكوكاً من خيوط السجَّادة.

«لا أستطيع تصديق نفسي هذا الصباح»، قلت، «بدا كأنَّ عمراً قد مضى. يعتقد نيك أنَّ الأمر كان ممتعاً للغاية. أحياناً أتساءل ما إذا كان إنساناً حقّاً».

«نعم»، قالت مذهولة. كنَّا هادئين جدّاً، وكنت أستطيع الشعور بالارتفاع والهبوط الطفيفين لثدييها وهي تتنفَّس. سحبت يدي من قميصها، وهي وقفت وأخذت كأسي إلى البوفيه، وأعدَّت لي شراباً جديداً. لقد انتهى شيء ما، تماماً مثلما سجَّله كلانا، خيط رفيع، أخير، انقطع. «بالمناسبة»، قالت بفرح دون أن تنظر إليَّ، «أحدهم اتَّصل بك هاتفيّاً، روسيّ، بدا ذلك من صوته، شيء مثل لوتسكي أو بوتسكي، لقد دوَّنته، وكان مصرّاً للغاية. لديك معارف غريبون».

«أتصوَّر أنَّه شخص ما من الوكالة»، قلت، «ماذا قلت كان اسمه؟»

ذهبت إلى المطبخ، وعادت مع مظروف مجعَّد، مهّدته، وحدَّقته بنصف عين. كان لديها قصر نظر، لكنَّها كانت معجبة بنفسها إلى درجة أنَّها لم تلبس نظَّارة.

«كروبوتسكي»، قالت، «أوليغ كروبوتسكي».

«لم أسمع باسمه قطُّ».

وكان هذا صحيحاً.

استيقظ جوليان من غفوته، وشعره منتصب، مع نحيب ممدود طويل كان معتاداً عليه في أوَّل حياته، بكاء رقيق لكنَّه حادٌّ على نحو غير عاديّ كبكاء امرأة بانشي[103]، لم يخفق قطّ في إرسال رعشة على طول فروة رأسي إلى مؤخِّرة عنقي؛ كان نيك يقول إنَّ الأصل الإيرلنديَّ البائس للطفل يظهر في هذا الصراخ.

«أوه، يا إلهي»، قالت فيفيين وهي تسرع إلى غرفة النوم، «هي ذي صفَّارات الإنذار أُطلقت».

جوليان، حتَّى وهو في عمر تسعة الأشهر، كان لديه شعر نيك الأسود بلون الغراب، ونظرة فيفيين اللامعة المصمِّمة. وأكثر من كان يشبه، مع ذلك، كما أرى الآن مصدوماً، هو فريدي. وكبالغ يبدو أقرب بالشبه إلى عمِّه البائس المرحوم أكثر من أيِّ وقت مضى، برأسه القيصريِّ الكبير وكتفَي حامل الأثقال. شيء متناقض جدّاً بالنسبة إلى رجل ابن مدينة. أتساءل ما إذا كان يدرك هذا الشبه؟ ربَّما لا، لا يظهر فريدي كثيراً في ألبومات صور الأسرة. تلوَّى الطفل الآن داخل طيَّات بطانية، يضرب شفتيه بباطن يده،

---

(103) البانشي هي في الأساطير الإيرلنديّة امرأة تنعي وفاة أحد أفراد الأسرة بالصراخ أو النواح. (م)

ويغمز بعينيه، وتفوح منه رائحة خبز ساخن. ابني.

«كم أصبح كبيراً»، قلت.

أومأت فيفيين بجدّيّة.

«نعم، الأطفال يفعلون ذلك. ينمون، أقصد. الآخرون لاحظوا ذلك على مدى الأجيال».

في الوقت الحاليّ وصل نيك، ثملاً ومعنويَّاته مرتفعة، وكان يرتدي بزّة سوداء بذيل طويل، وربطة عنق فراشيَّة مائلة قليلاً بدت مثل أشرعة طاحونة متوقِّفة.

«لا نزال في فترة الظهيرة»، قالت فيفيين وهي تنظر متجهِّمة إلى ثوبه، «ألم تلاحظ؟»

رمى نيك نفسه على الأريكة وكشَّر.

«لقد سئمت من ذلك الزيِّ العسكريِّ الفظيع»، قال، «لذا فكَّرت في لبس شيء مختلف تماماً. هل لديك شمبانيا؟ كنت أشرب الشمبانيا مع ليو روذنستاين. الولد اليهوديُّ اللعين». أراد أن يحمل الطفل لكن فيفيين لم تسمح له. ازداد عبوسه، وتراجع وراءً على الوسائد. «هل أخبرك فيكتور أنَّنا أوشكنا أن ننفجر. أتوقَّع أنَّه كان منزعجاً جداً من الأمر. لكنَّه كان قريباً جداً، وكنت ستستعيدينه في كيس من الخيش. ماذا كانوا سيجدون منه؟»

رنَّ جرس الهاتف، فأخذت فيفيين الطفل من بين ذراعيَّ.

«لا بد أنَّه السيد كروبوتسكي خاصَّتك»، قالت.

رفع نيك جسمه، وحدَّق غير مركِّز، وهو يحرّك رأسه من جنب إلى آخر. بدا ثملاً الآن أكثر ممَّا كان عليه حين وصل.

«هه؟»، قال، «السيِّد ماذا؟»

«روسيٌّ متحالف معه فيكتور»، قالت فيفيين، «جاسوس، على الأرجح».

لكنَّه كان كويريل.

«أصغِ، ماسكل»، قال، «أنت كنت دائماً أستاذَ رياضيّات، أليس هذا صحيحاً؟»

كان جدّيّاً تماماً، لكن كما هي الحال دائماً، تملَّكني انطباع بأنَّه كان يضحك بطريقة ما، ضحكته الكريهة المكبوتة تلك.

«ليس تماماً»، قلت باهتمام، «ليس ما تسمِّيه عالم رياضيّات، لماذا؟»

«ثمَّة إنذار عامّ بشأن الناس الماهرين في الأرقام. لا أستطيع قول أكثر من ذلك عبر الهاتف. قابلني بعد ساعة في ذا غريفن»

«لقد عدت توّاً»، قلت، «ونيك هنا».

كانت ثمَّة فترة صمت، مليئة بالأزيز السماويِّ والفرقعات.

«لا تحضر هذا الوغد». لحظة صمت مع صوت تنفُّس. «آسف، نسيت أنَّه ابن حميك. لكن لا تحضره معك».

كان نيك عند البوفيه ينقِّب بضجيج بين زجاجات الشراب.

«من كان ذاك؟»، سألني مهتمّاً.

«كويريل»، قلت، «وهو يرسل إليك تحيَّاته».

بدأ الطفل المتدثِّر بين ذراعَي فيفيين بالبكاء من جديد، ممكن على نحو أعمق هذه المرَّة مع شيء من الأسى.

*

كانت حانة ذا غريفن في دين ستريت بالفعل حانة شنيعة. وكان قد انتشر كثير من الهراء العاطفيّ حولها في الفترة الأخيرة. إلّا أنَّ الحقيقة هي أنَّه

كان أكثر قليلاً من مجرَّد حانة حيث الممثِّلون العاطلون من العمل والشعراء، في أوقات فراغهم، يضيِّعون أوقاتهم، فترة ما بعد الظهيرة، في الشرب والنميمة. أحد عشَّاق بيتي بولر الصاخبين القدامى الكثيرين، وهو زعيم عصابات، كما كان يقال، عوَّض لها بعد إجهاضها الفاشل بأن افتتح لها نادياً، وحصل على رخصته بعد أن دفع المال إلى أحد رجاله في شرطة اسكوتلنديارد. (لاحظي، آنسة ف. أنَّ «سوهو القديمة هي دائماً جيِّدة لصفحة ملوَّنة أو اثنتين»). بيتي كانت لا تزال امرأة جميلة. ضخمة ومفعمة بالحيويَّة، بتجعيدات من الشعر وبشرة كريميَّة، وفم صغير متغضِّن- أنموذج عن ديلان توماس[104] بمظهر حسن- وحقيقة أنَّ لديها قدماً خشبيَّة أسهمت في تعزيز هالة نضجها الرائع. كانت مدركة على نحو ما أنَّها شخصيَّة تناسب ذوقي (لا يعرفك حقّاً إلّا من هو مثلك). لم تكن حمقاء، ولطالما شعرت بأنَّها تفهمني بطريقة ما. كان النادي قبواً رطباً تحت متجر لبيع الأغراض الإباحيَّة. فضَّلت بيتي، التي كانت من سكَّان الضواحي في قلبها، المصابيح المظلَّلة بالورديِّ وأغطية الطاولات ذات الشرائط. أمَّا توني، رجل البار الغريب، فقد كان يعدُّ ساندويشات لائقة حين يكون في مزاج جيِّد، وكان هناك فتى بليد، ببقشيش قيمته بيني واحد كان يجلب طبقاً من المحار من محلّ السمك على طول الشارع. يا إلهي، كم يبدو هذا قديماً وطريفاً وبريئاً الآن؛ لندن ديكنز استمرَّت حتَّى وقت الغارات الجويَّة. قبض كويريل على جوِّ زمن الحرب في المدينة على نحو جيِّد في روايته المثيرة تلك التي تروي قصَّة القاتل ذي القدم المشوَّهة. ماذا كان عنوانها؟ الآن وهذه الساعة، شيء من هذا القبيل، بابويّ على نحو مداهن.

كان في الحانة حين وصلت. رأيته في الحال على الرغم من العمى الجزئيِّ

---

(104) شاعر من ويلز (1914-1953)، تميّز شعره بالعاطفة وتحرير المشاعر. اكتسب شعبيّة بسبب إذاعة أعماله عبر الإذاعة البريطانيّة. (م)

الذي أصابني في المكان المظلم بعد الشارع المشمس. كيف نجح في جعل الأمور تبدو كما لو أنَّ المرء هو عرضة للخطر لمجرَّد موافقته على مقابلته؟ تلك الابتسامة المائلة بشفتين بيضاوين، كانت ابتسامة قلقة اليوم. بدا أكثر ثراءً منه في آخر مرَّة شاهدته فيها؛ فبذلته، الضيقة كجلد ثعبان كما هي حالها دائماً، كانت باهظة الثمن، وكان يضع دبُّوس ربطة عنق بدا كأنَّه ماسَّة حقيقيَّة.

«اشرب المارتيني»، قال، «لقد أخبرني أحد الأميركيِّين من السفارة طريقة صنعه، وأنا كنت أعطي التعليمات لتوني هنا. السرُّ يكمن في أن ترمي نبيذ فيرموث فوق مكعَّبات الثلج، ومن ثمَّ ترمي المكعَّبات. تذوَّق طعم الخطيئة المحتشمة؛ شراب الكهنوت، سفاح القربى، واحدة من تلك الخطايا الممتعة حقّاً. بصحَّتك».

ابتسمت له ببرود. فهمت بالطبع أنَّ هذا الكلام اللمَّاح كان المقصود به أن يكون محاكاة ساخرة لعالم الكوكتيلات التافه والمداعبات عديمة الشفقة التي من المفترض أنَّني أنتمي إليه. طلبت جن وتونيك. وتوني، الذي كان يستمتع بمشاهدة أداء كويريل، رسم على وجهه ابتسامة تقدير ماكرة صغيرة، مثل ساحر يعرض طرف ورقة لعب قبل أن يخفيها في راحة يده.

«سمعت أنَّك كنت في فرنسا»، قال كويريل وهو ينظر إليَّ من على حافَّة كأسه مع وميض من المتعة.

«عدت هذا الصباح، وكنت مذعوراً بعض الشيء».

«ساعة راحتنا».

«حسناً، ماذا عنك؟»

«أوه، لا فرصة للبطولات لديَّ، أنا مجرَّد رجل مكاتب».

أنزل توني شرابي أمامي، فوضع الكأس على صحنها الفلّيني، مع حركة صغيرة بارعة من المعصم كما لو أنَّه كان يبدأ حركة تدوير دوَّامة لولب. ادّعى بوي أنَّ توني -بخصلة شعر جبينه، والأسنان المعوجَّة، وشحوب بشرته الدهنيَّة-كان شيطاناً في السرير. في أحد الأيَّام، وأنا ثمل من شرب الجن، في أثناء أزمة السويس، مررت به، ورفضني بضحكة ساخرة. أظنُّ في بعض الأحيان أنَّه كان ينبغي لي أن أتعلَّق بالنساء.

ذهبنا، أنا وكويريل، وجلسنا إلى طاولة في إحدى الزوايا تحت لوحة عري بالألوان المائيَّة، كانت لوحة صغيرة وجيِّدة إلى حدٍّ ما، رسمها شخص ما لم أتمكَّن من قراءة توقيعه -كانت لدى بيتي بولر عين تقِّدر الرسم، وأحياناً كانت تأخذ عملاً من أعضاء النادي المعوزين مقابل إلغاء ديونهم؛ لـمَّا ماتت في عقد الستينيَّات اشتريت لوحتين من مجموعتها. تبيِّن أنَّ لديها ابناً؛ شابٌّ ممتلئ الجسم، بملامح غير سعيدة، وأنفاس كريهة وصوت كالأزيز؛ وكان لديه عرج أيضاً، محاكاة غريبة لساق والدته الخشبيَّة، كما اعتقدت. قاد صفقة شاقَّة لعينة لبيع إحدى اللوحات، لكنّي حصلت مع ذلك، وبالنيابة عن المعهد، على لوحة فرانسيس بيكون الأولى تلك مقابل أغنية.

«هل حدث معك قطُّ»، قال كويريل، وهو يمسح بنظره الغرفة، برجالها الشاربين المنزوين والمنتشرين في الظلمة، «أنَّ هذا العمل هو مجرَّد عذر لأشخاص مثلك ومثلي لنضيع فترة ما بعد الظهر في مكان كهذا؟»

«أيُّ عمل؟»

رمقني بنظرة ساخرة. ثمَّ قال:

«إنَّهم ينشئون مركزاً لاختراق الشيفرات. مكان بالقرب من أكسفورد، سرِّي جدّاً. ويبحثون عن أشخاص لديهم قدرات في الرياضيَّات -لاعبي

شطرنج، حلّالي أحاجي، مدمني كلمات متقاطعة في صحيفة التايمز، وأشخاص من هذا القبيل. أساتذة مجانين. طلبوا إليّ أن أسأل عنهم».

كان من الغرور أن يتصرَّف كويريل كما لو أنَّ علاقته بالوكالة كانت عرضيَّة تماماً، كأن يستدعى في مناسبة ما لتقديم خدمة، أو نقل رسالة.

«لا يبدو لي من الأعمال المفضَّلة لديَّ» قلت؛ لا تظهر حماساً، هذه إحدى القواعد الأولى.

«لا توحي بذلك»، قال، «فأنت لست ألبرت آينشتاين بالتأكيد. لا، أنا فكَّرت فحسب في أنَّك ربَّما تقترح أسماء. أنا لا أعرف كثيراً من متخرّجي كِمبريدج، من الباحثين في كلِّ الأحوال».

«حسناً»، قلت، «هناك ألاستير سكايس، إنَّه أفضل العاملين الذين أعرفهم في الرياضيَّات»، وأشرت إلى كأسه الفارغة، «تريد كأساً أخرى؟»

لـمّا عدت مع شرابينا، كان كويريل يحدّق أمامه على نحو فارغ، وينكش أسنانه بعود ثقاب. حينما يبدأ عميلان، حتى لو كانا في الجانب نفسه، مناقشة عمل مهمّ، فإنَّ أثراً غريباً يحدث، نوعاً من التواني العامّ، كأنَّ بنية الموجة لكلِّ شيء، للضجَّة العاديَّة للذات وللعالم، كلَّها مطَّت مرتين أطول من تواترها العاديِّ؛ عبر هذه المرتفعات والأغوار الفسيحة الواسعة حيث يبدو المرء يندفع بلا هدف واثباً ومشدوداً مثل شعرة عالقة في الماء. قال كويريل:

«في الواقع، سكايس موجود معنا بالفعل. سيكون رجلاً بارزاً في العمليَّة».

«جيِّد».

«نعم، بالتأكيد».

«يساريٌّ آخر، أليس كذلك؟»، قال كويريل.

«لم يكن قطُّ في الحزب، إذا كان هذا ما تقصده».

ضحك.

«لا»، قال، «ليس هذا ما أقصد»، والتقط حبَّة الزيتون من الشراب وقضمها وهو مستغرق في تفكيره. «لا يعني هذا أنَّ الأمر لا يحمل مقداراً كبيراً من الأهميَّة، فحتَّى الرفاق مدعوُّون إلى القيام بواجبهم تجاه العالم. مع ذلك، يجب إبقاء العين عليه»، رمقني بنظرة جانبيَّة خبيثة، «هذا ما تفعلونه جميعكم»، أنهى شرابه بحركة من معصمه، ثمّ وقف، «تعالَ لمقابلتي غداً في المكتب وسأضعك في صورة الأمر. الوكالة تنشئ قسماً خاصّاً لمراقبة الشيفرات. قد ترغب في مدِّ يد العون. ليس ثمَّة فرصة كبيرة لأيِّ شيء يوجب التباهي، لكنَّك على الأرجح حصلت على كفايتك من هذا... بعد فرنسا».

«حقّاً لم يكن الأمر ممتعاً جداً، كما تعلم، فرنسا»، قلت، «ليس في نهايته في الأقلّ».

وقف، يهمُّ بالذهاب، ويده في جيب السترة، ينظر إليَّ في الأسفل مع ما تبقّى من تلك الابتسامة الشريرة.

«أوه، أعرف ذلك»، قال برقَّة، بنبرة ازدراء حميميَّة، «الجميع يعرف ذلك».

*

لـمَّا دخل أوليغ دافيدوفيتش كروبوتسكي حياتي، فإنَّ أوَّل شيء أذهلني هو كم كان هذا الرجل مجسَّداً على نحو ملحوظ في اسمه، بمقاطعه المزدحمة، ورجحان حرفي *o* و*s*، وحرف *k* الكبير ذي الزوايا المثلَّمة -كان يوحي بأحد الموظَّفين في قصص كافكا، كان فعلاً كذلك- ومقطع اسمِهِ ***pot*** الذي انتفخ مثل بطن وعاء. لم يزد طوله عن خمس أقدام؛ ساقان أنبوبيَّتان

صغيرتان، جذع عريض منخفض، وخدّان رماديّان أزرقان توضّعا مثل خدَّي علجوم على قبَّة قميصه، كلُّ ذلك جعله يبدو كأنَّه كان طويلاً يوماً ما، ونحيفاً، لكن على مدى السنين خضع لتأثير عظيم من عوامل ضغط الجاذبيَّة الأرضيَّة. اعتاد بوي أن يضايقه حين يخبره أنَّه كان يتحوَّل إلى رجل صينيّ -كان أوليغ يحتقر كلَّ الشرقيِّين- وأنَّه كان حقاً يشبه أحد أحجار اليشْم الصغيرة الـمُجَحْدرة تلك التي كان القندس الكبير يجمعها عادة. كان العرق يغلِّفه؛ حتَّى في أكثر الأيَّام برودة كان مغلَّفاً بطبقة من الرطوبة اللامعة الرماديَّة كأنه للتوِّ رُفع من خزَّان لسائل التحنيط. وكان يرتدي معطفَ مشمَّع متَّسخاً وقبَّعة بنّيَّة مهروسة، وبزَّات لا شكل لها من لون الأزرق الكهربائيِّ بسراويل فيها طيَّات. حينما يجلس -مع أوليغ، يبدو فعل الجلوس شكلاً من أشكال الانهيار- كان يخلع فردتَي حذائه دائماً، وينشرهما أمامه ورباطاهما معقودان، ولساناهما معلَّقان، مبلَّلان، باليان، ومقدِّمتا الفردتين منحنيتان في مكان الإبهامين في نحو يشابه النعال التركيَّة، كتمثيل قويٍّ عن كآبته وألمه الجسديِّ.

مخبؤه كان مكتبة لبيع الكتب المستعملة في شارع جانبيّ قبالة لونغ آكر. لم يكن لديه أيُّ معرفة بالكتب، ونادراً ما كان يحضر في المكتبة، وهو أمر لم يكن مهمّاً طالما جذب بضعة زبائن. كره لندن بسبب تمييزها الطبقيِّ الصارم ونفاق النخبة الحاكمة، كما كان يقول؛ أنا أشكُّ في أنَّ السبب الحقيقيَّ هو أنَّه كان خائفاً من المكان، غناه وأمنه، رجاله ذوي العيون الباردة، ونسِائه الرشيقات المرعبات. بوي وأنا عرَّفناه بالمنطقة الشرقيَّة للندن حيث كان أكثر ارتياحاً وسط البؤس والخشونة، وبالنسبة إلى لقاءاتنا فقد استقررنا على مقهى للعمَّال في مايل إند رود، بنوافذه التي يرشح منها البخار، والبصاق

على أرضيَّته، وإبريق الشاي البنّيّ القذر الضخم الذي يقعقع في أعماقه، مثل معدة حديديَّة، طوال اليوم.

جرى لقاؤنا الأوَّل في حديقة كوفنت. وأخبرته عن محادثتي الممتعة مع كويريل في حانة ذا غريفن.

«مكان يدعى بليتشيلي بارك»، قلت، «مراقبة حركة الإشارات الألمانيَّة».

كان أوليغ يميل إلى أن يكون مريباً.

«وهذا الرجل عرض عليك عملاً؟»

«حسناً، يكاد لا يكون عملاً».

رأيت على الفور أنَّ أوليغ لم يتأثَّر بي جدّاً. أظنُّ أنَّ الرفاق جميعهم كانوا يجدونني -كيف سأقولها؟- خارقاً للطبيعة بعض الشيء. أشكُّ في أنَّني أنضح برائحة ضعيفة من القداسة، موروثة عن سلسلة طويلة من الأسلاف الكهنة. الأمر الذي جعل أوليغ وأمثاله يخطئون بأنَّها إشارة إلى تعصُّب، الأمر الذي كان يثير فيهم القلق، لأنهم كانوا رجالاً عمليِّين، وحذرين من الأيديولوجيا. كانوا أكثر سعادة مع جشع بوي، وحماسه للمبادرة التي تشبه حماس ولد في المدرسة، حتَّى إنَّهم كانوا أكثر سعادة مع ازدراء ليو روذنستاين الأرستقراطيِّ- بالطبع على الرغم من كونهم روسيِّين صالحين، فقد كانوا جميعاً معادين أشدَّاء للساميَّة. على الرغم من أنَّنا مشينا لمرَّات ومرَّات حول السوق تحت أشعَّة الشمس، ونحن نشتمُّ الروائح الخضراء المقزِّزة باستمتاع من أكشاك الخضراوات، فإنَّ أوليغ استهلَّ كلامه بدفاع جادٍّ عن ميثاق ستالين مع النازيَّة. أصغيت بلباقة، ويداي متشابكتان خلف ظهري، وأذني تميل بتروٍّ إلى شرحه المعذِّب، وأنا أسلِّي نفسي بدراسة سلوك العصافير التي تقفز حذرة تحت أقدامنا. لـمَّا انتهى قلت:

«أصغ إليَّ، سيّد كروبوتكين-».

«هيكتور أرجوك، هيكتور هو اسمي الرمزيُّ».

«نعم، حسناً-».

«وكروبوتسكي هو اسمي الخاصُّ».

«حسناً سيِّد... هيكتور، أريد أن أوضِّح شيئاً ما. أخشى أنَّني لا أهتمُّ على الإطلاق ببلدك، أو حتَّى بقادتكم. سامحني على قول ذلك، لكنَّها الحقيقة. أنا أؤمن بثورتكم بالطبع. أنا فحسب أتمنَّى لو كانت حدثت في مكان ما آخر. آسف».

أومأ أوليغ برأسه فحسب، مبتسماً لنفسه. كان رأسه كبيراً ومدوَّراً، مثل الكرة على عمود أيِّ بوَّابة.

«وأين كان ينبغي أن تقوم الثورة حسب اعتقادك؟»، قال، «في أميركا؟»

ضحكت.

«حتَّى تتذكَّر بريخت»، قلت، «أعتقد أنَّ أميركا وروسيا كلتيهما عاهرتان- لكنَّ عاهرتي حبلى».

أوقف سبَّابته وإبهامه اللذين كانا يتلمَّسان شفته السفلى الطفوليَّة، ثمَّ أصدر شخرة، ما استغرق منِّي هنيهة لأدرك أنَّها ضحكة.

«جون، أنت محقٌّ، روسيا هي عاهرة عجوز».

كان ثمَّة عصفوران اثنان يتعاركان تحت حِمل عربة من الملفوف، يهجم أحدهما على الآخر كما لو أنَّهما مخلبان مبتوران يكسوهما الريش. تنحَّى أوليغ جانباً ليشتريَ كيساً من التفَّاح، وهو يعدُّ البنسات من محفظة جلديَّة صغيرة، ولا يزال يشخر شخيراً ناعماً ويهزُّ رأسه، وقبَّعته مدفوعة إلى الخلف. كنت أراه مثل تلميذ مدرسة، صبيّاً بديناً، مضحكاً، مضطرباً، هدفاً

لنكات الأولاد. مشينا من جديد. وراقبته جانبيّاً وهو يأكل تفَّاحته، الشفتان الورديتان القادرتان على الالتقاط، والأسنان الصفر وهي تهرس هريس التفاح الأبيض، وتذكَّرت كاريكدرم ومهر آندي ويلسون الذي كان يقلب فمه في محاولته عضَّ وجهي.

«عاهرة، نعم»، قال بسعادة «وإذا سمعوني أقول ذلك...»، وضع إصبعه على صدغه، «طاخ»، وضحك من جديد.

*

قنبلة أخرى فجَّرها الجيش الجمهوريُّ الإيرلنديُّ في شارع أكسفورد هذه الليلة. لم يُقتل أحد، لكن ثمَّة قدر كبير من الأضرار والإزعاج. كم هم مصمِّمون. كلُّ هذا الغضب. كلُّ هذه الكراهية العرقيَّة. كان ينبغي لنا أن نكون كذلك. لم يكن ينبغي لنا أن نظهر أيَّ رحمة ولا كبت ضمير. كنَّا لنسقط عالماً بأكمله.

كان ذلك في أثناء إحدى أولى غارات القصف النهاريِّ العظيم على لندن حين تلقَّيت نبأ وفاة والدي. أنا مقتنع بأنَّ هذا هو السبب في أنَّني لم أكن خائفاً من الغارة كما ينبغي أن أكون، فالصدمة قد خفَّفت من إحساسي بالرعب. أحبُّ أن أفكِّر في الأمر على أنَّه عطف والدي الأخير عليَّ. كنت قد عدت إلى غلوسيستر تيريس بعد أن ألقيت محاضرة في المعهد حين وصلت البرقيَّة، أرتدي الزيَّ العسكريَّ - كنت أرتديه دائماً حين أحاضر، كونه لباساً رسميّاً لا يمكن الاستغناء عنه- وصبيُّ البرقيَّات نظر إلى إشارات النقيب التي تخصّني بغيرة. في الواقع لم يكن صبيّاً، بل عجوزاً شديد الشحوب بسعلة مدخِّن وخصلة شعر هتلريَّة فوق جبينه. أصاب إحدى عينيه ضعف إلى درجة أنَّني لـمَّا أشحت بنظري عن الأخبار القاسية في البرقيَّة -أبوكم توفِّي. هيرميون ماسكل- اعتقدت أنَّه كان يرمقني بنظرة حائرة تنمُّ عن مؤامرة. الموت يختار رسلاً ممَّن هم أكثر الحاملين لانطباع سيِّئ. كان في مقدورنا سماع صوت القذائف وهي تنفجر، صوت مكبوت ساحق مثل صوت شيء ما ضخم وخشبيٍّ يسقط ببطء على سلسلة من الدرجات الصخريَّة. وتحت أقدامنا تتصدَّع الأرضيَّة. شنَّف أذنيه، وابتسم.

«أدولف العجوز يزورنا في وضح النهار»، قال مبتهجاً. أعطيته شلناً. وهو أشار إلى البرقيَّة بيدي، «ليست أخباراً سيِّئة، كما آمل، يا سيِّدي».

«لا، لا»، سمعت نفسي أقول، «لقد مات أبي».

عدت إلى الشقَّة. أُغلق الباب ورائي بجلجلة مهيبة؛ كيف تتَّخذ الأفعال الأكثر شيوعاً في أوقات كهذه شكلاً بهيّاً وحاسماً على نحو لطيف. جلست على مهل، على كرسيٍّ بظهر مستقيم، يداي على ركبتيَّ، وقدماي مزروعتان إلى جانب بعضهما بعضاً في السجَّادة؛ ما هو ذاك الإله المصريُّ برأس الكلب؟ حولي كانت فترة بعد الظهر قد استقرَّت على سكون حالم، باستثناء ضوء الشمس الساقط من النافذة، الذي كان كأنبوب ذهبيٍّ شاحب من الجزئيّات المزدحمة. والقذائف لا تزال تسقط بعيداً برشقات مدفعيَّة جنائزيّة باهتة. الأب. ثقل من الشعور بالذنب والحزن الجافّ هبط عليّ، تحمَّلته بضجر. كم بدا مألوفاً! كان مثل ارتداء معطف قديم. هل كنت بطريقة ما أعود بذاكرتي إلى وفاة والدتي، قبل ثلاثين عاماً؟

إلَّا أنَّ الشخص الذي وجدت نفسي أفكِّر فيه، لمفاجأتي، كان فيفيين، كما لو كانت هي من خسرتُ وليس والدي. كانت في أكسفورد، مع الطفل. حاولت أن أتَّصل بها هاتفيّاً لكنَّ الخطوط كانت مقطوعة. جلست لوهلة أستمع إلى أصوات القذائف. حاولت أن أتخيَّل الناس يموتون -الآن، في هذه اللحظة، وقريباً منّي- لكن لم أستطع. تذكَّرت عبارةً من محاضرتي في ذلك الصباح: مشكلة بوسان في تصوير المعاناة هي كيف نمَّطها، كما تتطلَّب قواعد الفنِّ الكلاسيكيّ، في حين كان عليه أن يجعلها محسوسة في الحال.

في تلك الليلة ركبتُ سفينة نقل البريد المتَّجهة إلى دبلن. كانِ المعبر هائجاً على نحو غريب. قضيت الوقت في الحانة، بصحبة بحَّار إنكليزيٍّ مسافر وعمَّال بناء إيرلنديِّين يشربون نبيذ بورت طوال الوقت. ثملت ثملاً شديداً، وحاولت إجراء محادثة عاطفيَّة مع ساعي البار الذي كان من تيبراري، وقد توفِّيت أمُّه منذ فترة قريبة. حنيتُ رأسي على معصمي وبكيت، بتلك

الطريقة، الغريبة، المنقبضة، التي لا يقوم بها سوى السكران؛ لقد جعلتني أشعر فحسب بحال أسوأ. وصلنا إلى كينغستاون عند الثالثة صباحاً. انهرتُ على مقعد تحت شجرة في واجهة الميناء. كانت الريح قد ولَّت، وأنا، جلست في الظلام البارد الرقيق لأواخر الصيف، وأصغيت في نشوة حزينة إلى طائر وحيد يصدح في أوراق الشجر فوقي. هجعت لوهلة، وحالاً ظهر الفجر وراء ظهري، فاستيقظت في حالة من الكرب غير مدرك للحظة أين أنا، وما كنت أفعله. وجدت بعدها سيَّارة أجرة. كان السائق لا يزال نصف نائم، لكنَّه سافر بي إلى المدينة، حيث توجَّب عليَّ أن أجلس منتظراً لساعة أخرى أعالج آثار دوار الشرب في محطَّة مهجورة يتردَّد فيها الصدى على نحو غريب، في حين أنتظر أوَّل قطار متَّجه إلى بلفاست. على منصَّة المحطَّة كانت هناك حمامات مشاكسة، في أقدامها أساور تتحرَّك في الأرجاء تحت قدميَّ، وشمس قويَّة، دون حرارة تضغط على السقف الزجاجيِّ المائل فوقي. تلك هي اللحظات التي أقامت في ذاكرتي.

*

لـمّا وصلت إلى كاريكدرام، كان الوقت منتصف الظهيرة، وكنت مخدَّراً من السفر ومن شراب الليل. كان آندي ويلسون في المحطَّة مع العربة. استقبلني بحذر متجنِّباً نظراتي.

«لم أعتقد يوماً أنَّني سأصمد أطول منه»، قال، «بالتأكيد لم أعتقد».

اِنطلقنا في الطريق الغربيِّ. أجمات الجولق؛ رائحة روث الخيل؛ البحر الأزرق الرماديُّ.

«كيف حال السيِّدة ماسكل؟»، قلت، وكجواب هزَّ آندي ولسون

بكتفه فحسب، «وفريدي؟ هل يدرك ما حدث؟»

«أوه، إنَّه يعرف، بما يكفي؛ كيف لا يكون كذلك؟»

تكلَّم بحماس عن الحرب. كان الجميع يقولون، كما قال، إنَّ بلفاست وأحواض السفن سوف تُضرب بالقذائف؛ تكلَّم عن هذا الاحتمال بنبرة من الأمل الجذل، كأنَّه وعد بالألعاب الناريَّة والبقاء مستيقظاً طوال الليل.

«كانت ثمَّة غارة على لندن البارحة»، قلت، «في وضح النهار».

«آها، سمعت عنها عبر المذياع»، قال، ثمَّ تنهَّد تنهيدة حزينة، «شيء فظيع».

أذهلني المنزل، كما هي العادة دائماً، بحميميَّته: كلُّ شيء لا يزال هناك، كلُّ شيء لا يزال مستمرّاً، غير عابئ بغيابي. وفي أثناء نزولي على الحصى تحت الدرجات الأماميَّة عرض عليَّ آندي يد المساعدة على نحو غير معهود. بدت راحة يده مصنوعة من حجر دافئ مرن. أدركت أنَّني الآن، في عينيه، سيِّد منزل القديس نيقولا.

وجدت هيتي في المطبخ الخلفيِّ الكبير المرصوف بالحجارة، جالسة على كرسيٍّ بظهر مغزليٍّ ترمي البازلّاء بتأنٍّ في قدر طبخ بالية. خصل شعرها الكستنائيَّة، تلك التي كانت يوماً تفخر بها حدَّ الشعور بالذنب، كانت قد تحوَّلت إلى عشٍّ متلبِّد بخصلات شعر رماديَّة تتدلَّى فوق جبينها، وتتابع إلى أسفل ظهر سترتها الصوفيَّة. كانت ترتدي فستاناً فضفاضاً بنِّيّ اللون، وفردتَي جزمة الكاحل، المبطّنتين بالفرو، اللتين لا تلبسهما سوى النساء العجائز الذاويات. رحَّبت بي من غير أن تُفاجأ، وفتحت محفظة بازلَّاء جديدة. انحنيت إلى الأسفل على نحو أخرقَ وقبَّلت جبينها، وهي تجنَّبتني بشيء من الذعر المتجهِّم، مثل بهيمة الفلاحة التي اعتادت الضرب أكثر من تربيتات

التحبُّب. شممت رائحتها.

«هيتي»، قلت، «كيف حالك؟»

هزَّت رأسها على نحو كئيب، وشهقت شهقة عظيمة. نزلت دمعة إلى الأسفل، إلى جانب أنفها البدين، وانزلقت إلى القِدر في حضنها.

«جيِّد أنَّك حضرت»، قالت، «هل كان أمراً خطِراً... السّفر؟»

«لا، القذائف تهبط في لندن فقط».

«قرأت في الصحيفة عن تلك الغوَّاصات».

«ليس في البحر الإيرلنديِّ، كما أظنُّ، يا هيتي. ليس حتَّى الآن في أيِّ حال».

أصدرت صوتاً كان نصف تنهيدة، ونصف شهيق، وهي تحني ظهرها إلى الوراء ثمَّ تتركه يسقط مرَّة أخرى، كحقيبة كبيرة قديمة من العظام. نظرتُ وراءها عبر النافذة إلى الحديقة، حيث تلألأ ضوء الشمس في أوراق شجر الجمِّيز القابع هناك في عزلته، وهي ترتجف بقوَّة وقد تخضَّبت خضرتها بلون الخريف الرماديِّ. في أحد الأيَّام، لـمَّا كنت صغيراً، سقطت من على تلك الشجرة، وتمدَّدت بلا حراك في العشب الوارف في نوع من التراخي الغامض، بذراع مخدَّرة ملتوية تحتي، أشاهد هيتي تركض بحركة بطيئة باتِّجاهي عبر الحشائش، عارية القدمين، وذراعاها ممدودتان، كأنَّها ميناذة جليلة خارجة من لوحة بيكاسو[105]، وفي تلك اللحظة اختبرت سعادة كاملة لا يمكن تفسيرها، كما لو أنَّني لم أعرفها من قبل، ولا لحظتها، ومن أجلها حتَّى ذراع مكسورة لم تبدُ ثمناً غير معقول للدفع.

«كيف أنت هيتي؟»، قلت من جديد، «كيف تديرين أمورك؟». بدت

---

(105) الميناذة، هي امرأة تشارك في مهرجانات باخوس إله الخمر، من الميثولوجيا الإغريقيّة. (م)

كأنَّها لم تسمعني. أخذتُ القِدر منها ووضعتها على الطاولة. بقيت منحنية الظهر والرأس، ثور عجوز حزين، تنتف الجلد المتقشّر حول أظافر أصابعها بحيرة. «أين فريدي؟»، قلت، «هل هو بخير؟»

رفعت عينيها إلى ضوء الشمس وخضرةِ سبتمبر الذابلة في النافذة.

«كان هادئاً جداً»، قالت، «هادئاً جدّاً، وطيّباً». ظننت للحظة أنَّها كانت تتكلَّم عن أخي. تنهَّدت من جديد، «كان هناك في الحديقة، كما تعرف، يضع بعض فضلات الطعام لثعلب ينزل ليلاً من التلال. رأيته ينحني، ثمَّ يجفل كأنَّه تذكَّر شيئاً ما مهمّاً. ثمَّ سقط فحسب». رأيتها من جديد، تتهادى نحوي عبر العشب، ذراعاها العاريتان ممدودتان، ساقاها البيضاوان الكبيرتان منثنيتان، وقدماها تكادان لا تبدوان تلمسان العشب الذي كانت تركض فوقه. «أمسك بيدي. طلب إليَّ ألَّا أزعجَ نفسي. لم أصدِّق أنَّه رحل». وضعت يديها على ركبتيها، ورفعت قدميها، وذهبت نحو المغسلة، وفتحت صنبور الماء البارد، وضغطت أصابعها المبلَّلة بشدّة في محجرَي عينيها. «جيِّد أنَّك حضرت»، قالت من جديد، «نحن نعرف كم أنَّك لا بدَّ مشغول، بالحرب».

أعدَّت الشاي لنا، متنقِّلة من المغسلة إلى الطاولة إلى البوفيه بخطاً بطيئة وثقيلة. أخبرتني أنَّ صديقة لها كانت قد أخذت فريدي إلى شاطئ البحر في فترة ما بعد الظهر- لطالما كان فريدي مفتوناً بالبحر، وكان يجلس على حصى الشاطئ لساعات يحملق باهتمام، مستغرقاً في هذا العنصر الغريب، المتقلِّب، الذي لا سبيل إلى معرفته، كأنَّه كان قد رأى في يوم ما شيئاً ما يرتفع منه، مثل وحش بحريٍّ، أو إله بحريٍّ، وينتظر بصبر ظهورَه من جديد.

«هل تحدَّثت إليه عن... والدنا؟»، قلت.

نظرت إليَّ في حيرة خاطفة.

«أوه، لكنَّه كان هناك»، قالت، «كلانا كان هناك، جاء وجلس إلى جانب والدك على العشب، وأمسك بيده أيضاً. كان يعرف ما يجري. بكى، ولم يغادر. اضطررت إلى الحصول على مساعدة من آندي لجعله يبقى في الداخل حين كنَّا ننتظر سيَّارة الإسعاف. أراد أن يذهب معهم حين كانوا يأخذون والدك بعيداً».

تصاعد بخار إبريق الشاي في الضوء الشاحب القادم من النافذة؛ قريباً سيكتمل الخريف. كانت لديَّ رؤية مفاجئة لعالم مشتعل.

«سيتوجَّب علينا الآن أن نفكِّر في مستقبله»، قلت.

أصبحت مشغولةً جدّاً بإعداد الشاي.

«نعم، نعم»، قالت، «سنحتاج إلى أن نجد مكاناً له».

فكَّرت في فريدي وهو يجلس مباعداً ما بين قدميه عند شاطئ البحر، بقميصه وبنطاله الملطَّخين، ووجهه متَّجه نحو الأفق، مبتسماً بسعادة داخل هذا الفراغ الفسيح.

«نعم، بالطبع»، قلت بصوت ضعيف، «مكان».

ذهبت للتنزُّه وحدي في التلال. حتَّى في أكثر الأيَّام وضوحاً كان ضوء الشمس يبدو هنا سديميّاً، ومغبَّشاً. يسقط مثل ضباب خفيف فوق الصخور والشجيرات محوِّلاً المسافات الزرق المرتعشة إلى سديم حليبيّ. كيف يبحث القلب المكروب عن الراحة لنفسه بمكر، مستحضراً أرقَّ الأحزان، وأكثرَ الذكريات وخزاً حلواً، التي فيها الطقس هو صيف دائم، مفعم بزقزقة العصافير والتألُّق البغيض لماضٍ متجدِّد. انحنيت على صخرة، وبكيت برقَّة، وشاهدت نفسي، أميل، وأبكي، وعلى الفور كنت راضياً وخجولاً.

لـمَّا عدت إلى المنزل، كانت هيتي تعدُّ الشاي من جديد، والمطبخ بدا

مليئاً بالناس. كانت صديقة هيتي هناك، السيِّدة بلينكينسوب، وهي امرأة طويلة ونحيفة بوجه شاحب، ترتدي قبَّعة مخيفة، وفريدي، الذي كان يجلس وكاحل قدمه متصالب مع ركبته، وذراعه اليمنى تتدلَّى فوق ظهر الكرسيِّ، بدا على نحو عجيب شبه والدي في إحدى حالات استرخائه النادرة. أكثر الأشياء إثارة للدهشة هو حضور آندي ويلسون. كان يجلس إلى الطاولة مع كوب شاي أمامه، وبعناء يمكن تعرُّفه بعد أن خلع قبَّعته، وبدا ورأسه الأصلع، شاحباً ككرَّاثة بيضاء فوق وجهه الماكر الصغير الضيِّق الذي لفحه الطقس. لم أعرف قطُّ في حياتي أنَّه يدخل بيتنا. والآن، بعد أن كان قد دخل، لم يعجبني سلوكه التملُّكيُّ المرتاح على نحو متحدٍّ. رمقته بنظرة قاسية فلم يجفل منها، ولم يتَّخذ أيَّ حركة لينهض. المرأة المسمَّاة بلينكينسوب بدورها، كانت تنظر نظرة قاسية باتِّجاهي، وبدت غير موافقة على ما تراه. دائماً ما يكون الأمر أنَّ معظم من لا تتوقَّع منهم ذلك هم من يسبرون أغوارك. رشقت كلمات التعازي بسرعة، وعادت إلى التحدُّث في شؤون الكنيسة مع هيتي التي كان جليّاً أنَّها لم تكن تصغي. فريدي كان يرميني بنظرات خجلى من تحت أهداب لا لون لها. زاوية فمه كانت مقضومة حتَّى اللبّ، ودائماً ما يكون هذا إشارة إلى إصابته بكرب شديد. وضعت يدي على كتفه، ودخل في نوبة عاطفيَّة مفاجئة، يرتجف مثل كلب صيد، ويضرب يدي بيده على نحو متشنِّج.

«لقد قضينا وقتاً رائعاً على شاطئ البحر»، قالت لي السيِّدة بلينكينسوب بصوتها المشيخيّ الحادّ والعالي، ثمَّ لفريدي، «أليس هذا صحيحاً، يا فريدي؟»

لم ينظر فريدي إليها، إلّا أنَّ نوبة مختلفة أصابته هذه المرَّة. عرفت تماماً ما كان يعتقده في السيِّدة بلينكينسوب.

«نعم»، قال آندي، «هو أحبَّ الساحل فعلاً».

كانت الجنازة أمراً متجهِّماً، حتَّى بالنسبة إلى جنازة فيها أوعية من زنابق البوق ذات رائحة اللحم في الكنيسة، وموسيقا الأرغن المرتعشة، والكثير من الرثاء التقليديّ الذي يؤدِّيه كهنة بدينون وذابلون بالتناوب. وقفت هيتي في صفِّ المقاعد الأماميِّ في الكنيسة، وفريدي تمسَّك بذراعها. كانا مثل زوجين من الأطفال العتيقين الضائعين. بين الفينة والأخرى ينبح فريدي نباحه المستذئب إلى العوارض الخشبيَّة المزركشة، وجماعة المصلِّين يهتاجون باضطراب، والتراتيل ترفرف. ألقى الطقس، على الرغم من كونه لطيفاً قبل الجنازة وبعدها، بحمَّام شمسيٍّ لطيف على الدفن. وبعد ذلك، لـمَّا كنَّا نسير عائدين إلى السيَّارات على طول الطريق الذي كان يقطر بشجر الصنوبر، انخرطتُ في تشاور خفيٍّ مع منافق ظريف عجوز اسمه ويذرباي كان سيصبح خليفة أبي في الأسقفيَّة، وأعرف عنه تبوّؤه مسؤوليَّة خاصَّة لعدد من المؤسّسات الخيريَّة في بلفاست. لـمَّا فهم غرضي حاول الانزواء عنِّي، لكنِّي لم أسمح له بذلك حتَّى خرج منه ما احتجت إلى معرفته، بالإضافة إلى وعد متردِّد بالمساعدة. وبالعودة إلى بيت القسِّ، أغلقت على نفسي في مكتبة والدي مع الهاتف، وفي وقت العشاء، في ذلك المساء، كانت لديَّ خطَّة جاهزة لتسليمها إلى هيتي. لم تستطع أخذها أوَّل الأمر.

«تعرفين أن لا سبيل آخر»، أخبرتها، «سيعتنون به هناك، لديهم مرافق».

كنَّا في غرفة الاستقبال في الطابق العلويِّ. بدت هيتي ضخمة في ثوب حدادِها، وهي تجلس على كرسيٍّ بذراعين عند النافذة، مثل تمثالٍ لمعبود قديم معروض على مذبح المعبد، وأشعَّة الشمس المتأخِّرة تتناثر حمراء على السجّادة عند قدميها. حملقت في وجهي دون أن يرفَّ لها جفن من تحت

الفراغات بين شعرها، عابسة في جهد للتركيز، وباضطراب صارت تجدل وتجدل أصابعها كأنَّها تحرِّك ببراعة زوجاً من إبر الحياكة.

«مرافق»، قالت، ربّما كانت كلمة من لغة أجنبيَّة.

قلت: «نعم، سوف يعتنون به، وسيكون هذا لصالحه. لقد تحدَّثت إلى كانون ويذرباي، واتَّصلت هاتفياً بالدار. يمكنني إحضاره اليوم».

فتحت عينيها واسعتين جدّاً.

«اليوم...؟»

«ليس هناك سبب للتأخير، لديك ما يكفي من الأمور التي ستواجهينها».

«لكن-»

«وإلى جانب ذلك، يجب أن أعود إلى لندن».

أدارت رأسها الضخم ببطء -كنت تقريباً أستطيع سماع المسنَّنات وهي تعمل- ونظرت إلى الخارج ذاهلة عن منظر وضربات الفرشاة الناعمة البعيدة للبحر الأزرق الأرجوانيِّ. نباتات الجولق والخلنج المختلطة مع بعضها توهَّجت على سفوح التلال.

«هذا ما تقوله ميرا بلينكينسوب أيضاً»، قالت هيتي التي أصبحت متجهِّمة الآن.

«ماذا تقول ميرا بلينكينسوب؟»

أدارت رأسها لتنظر مرَّة أخرى، بشيء من الفضول المرتبك، كما لو كنتُ شخصاً تظنُّ أنَّها كانت تعرفه لكنَّها الآن تكاد تتعرَّفه.

«هي تقول ما تقولُه أنت، ذلك المسكين فريدي ينبغي له أن يكون في الملجأ».

عند ذلك، صمتنا، كلانا، وجلسنا لفترة طويلة، نشيح بنظرينا عن

بعضنا، نجول بلا هدف داخل نفسينا. أتساءل ما ماهيَّة الموت. أتخيَّله رحلة متخبِّطة بطيئة يائسة داخل اضطراب عميق جدّاً، نوع من الثمالة الصامتة لن تتفتَّق عنه حكمة. هل أمسك والدي حقّاً بيد هيتي وأخبرها ألَّا تزعج نفسها، أو هي ابتكرت المشهد؟ كيف نموت؟ أرغب في معرفة ذلك. أودُّ لو أكون مستعدّاً.

في اليوم التالي جعلت آندي يخرج ديلمر -سيَّارة الأسقف، كما كنَّا نسمِّيها في الأسرة دائماً- من السقيفة المتداعية وراء المنزل، حيث قضت وقتها، معظم السنة، في ظلام مشبع برائحة الطين، ضخمة، لامعة وعازمة، مثل وحش برّيّ كان قد أُسر، ولم يسمح له بالخروج إلَّا من أجل السعال والزمجرة في مناسبات نادرة. عاملها آندي ككائن حسَّاس، فربَّت عليها برقَّة. وبكامل الحذر، وهو يجلس منتصباً على كرسيِّ السيَّارة ممسكاً المقود وناقل الحركة كما لو أنَّه كان يمسك الكرسيَّ بيد والمسدَّس باليد الأخرى. أصبح فريدي متحمِّساً للغاية، ومشى متثاقلاً على العشب في دوائر مرتبكة، يبتسم ويصيح. كانت السيَّارة مرتبطة عنده بأعياد الميلاد، ورحلات الصيف، وتلك الاحتفالات الكنسيَّة التي كان يحبُّها، وأشكُّ في أنَّه كان يؤمن أنَّها كانت تُقام خصيصاً من أجل بهجته. أحضرت هيتي حقيبة السفر التي كانت قد وضَّبتها لأجله. كانت حقيبة قديمة، تنتشر عليها ملصقات سفر مهترئة، كشهاداتٍ على سنوات والدي التي قضاها في السفر، أشار إليها فريدي بأصابعه مدهوشاً كأنَّها كانت بتلات نباتات نادرة من أراضٍ أجنبيَّة ملصقة على الجلد. كانت هيتي ترتدي قبَّعة من القشِّ سوداء، وقفازين أسودين؛ صعدت إلى المقعد الخلفيِّ، وركَّزت جلستها بخضوع كأنَّها دجاجة تستقرُّ وهي تتعرَّق وتتأوَّه. مررت بلحظة سيِّئة لمَّا جلستُ وراء المقود، وانحنى فريدي من مقعد

المسافر الأماميّ ووضع رأسه بحبٍّ على كتفي، وضغط بشعره القشّي الجافّ على خدّي. امتلأت خياشيمي برائحة الحليب والبسكويت خاصَّته -لم يفقد فريدي قطُّ رائحة الطفولة- وتعثَّرت يدي في تشغيل السيَّارة. إنَّما بعد ذلك رأيت آندي ويلسون واقفاً على العشب يراقبني بتكهُّن شرير، وأنا وضعت قدمي على دوَّاسة الوقود بقوَّة لا ترحم، واندفعت السيَّارة العريضة القديمة إلى الأمام على الحصى، وفي المرآة رأيت المنزل يتقلَّص فجأة إلى مصغَّر عنه اكتمل مع مجسَّمات لأشجار صغيرة، وغيوم قطنيَّة، وآندي ويلسون بحجم الدمية بذراع واحدة مرفوعة في وداع كهنوتيٍّ، ومزدرٍ كما بدا.

كان اليوم مشرقاً، والهواء الأزرق يتلألأ مع طوفانات الريح. وفي أثناء تقدُّمنا بهدوء جنوباً على طول بحيرة لوف كان فريدي ينظر خارجاً باهتمام كبير بالمنظر. في كثير من الأحيان كانت رجفة سيِّئة من الإثارة تجعل ركبتيه تصطكَّان. ماذا كان يمكن له أن يتوقَّع؟ ظلَّ عقلي يلامس فكرة أفق المستقبل أمامه ويجفل عنها مثلما يجفل الحلزون عن الملح. في المقعد الخلفيِّ كانت هيتي تتمتم تحت أنفاسها مع بعض تنهيدات صغيرة. أدهشني خاطر مرَّ ببالي، وهو أنَّني قريباً سأسافر في هذا الطريق من جديد، إلى جانبها هذه المرَّة، وأمتعتها في حقيبة في صندوق السيَّارة، في الطريق إلى خيانة أخرى لا مفرَّ منها. شاهدت وجه والدي أمامي، يبتسم نصف ابتسامة بطريقته المتردِّدة التهكميَّة، ومن ثمَّ يتقلَّب إلى الجانب الحزين، ويتلاشى.

دار الرعاية، كما يشار إليها على نحو مضلِّل، كانت بناءً كبيراً ومربَّعاً، مبنيّاً من الطوب الداكن، ينتصب وسط حديقة معتنى بها على نحو غير مشجِّع، تصل إليها من طريق كئيب قبالة شارع مالون. لـمَّا دخلنا البوابة انحنى فريدي من الزجاج الأماميّ ليلقي نظرة على واجهة المبنى القاسية،

وأنا ظننت أنَّني اكتشفت فيه أوَّل رعشات عدم الارتياح. استدار نحوي بابتسامة مستفسرة.

«هذا هو المكان الذي ستعيش فيه، فريدي»، قلت له، وهو هزَّ رأسه متأثِّراً، وأصدر صوتاً خانقاً. كان من المستحيل دائماً معرفة مدى فهمه لما يقال له، «لكن فقط إذا كنت ترغب في ذلك»، أضفت بجبن.

في المدخل كانت ثمَّة بلاطات متصدِّعة، وظلال بنّيّة، ووعاء طينيٌّ كبير لنبتة إبرة الراعي يابسة؛ رحَّبت راهبة من نوع ما، أو مساعدة دينيَّة، في ملابس من الصوف الرماديِّ وغطاء رأس معقَّد يشبه غطاء الرأس الذي يرتديه جامع العسل، وكان وجهها الصغير فيه كوجه بومة صغيرة، مؤطَّراً بإحكام. (من أين جاءت هذه الراهبة بحقِّ السماء؟ -هل كان الكاثوليكيُّون من يديرون المكان؟ بالتأكيد لم يكونوا كذلك. لا بدَّ أنَّ ذاكرتي عادت إلى حيلها القديمة من جديد). مظهرها لم يعجب فريدي على الإطلاق، وتوقَّف فجأة، واضطررت إلى دفعه بيدي المرتجفة، والضغط عليه للتقدُّم. أصبحت الآن في مزاج عدوانيّ. وهذا، كما لاحظت، استجابة مألوفة لديَّ حين يتعيَّن عليَّ فعل شيء مزعج. يثير فريدي على وجه الخصوص حنقي دائماً. حتَّى لـمَّا كنَّا أطفالاً، وكان يتعثَّر أمامي وهو يمشي معي في تلك الصباحات، متَّجهين إلى حضانة الآنسة مالينو، كنت أصل إلى هذا الحدِّ من الغضب في الوقت الذي نصل فيه إلى هناك، وكنت أكاد لا ألاحظ الأطفال الآخرين وهم يشمتون لرؤية ابن الكاهن المتغطرس وهو يدفع أخاه المعتوه إلى داخل الصفِّ من قفا رقبته.

قادتنا الراهبة إلى أسفل الردهة، ثمَّ صعدنا درجات داكنة، ثمَّ على طول ممرٍّ مطليٍّ بالأخضر بنافذة في النهاية البعيدة عبر الألواح الزجاجيَّة المتجمِّدة

التي أشرقت منها الشمس بلون أبيض، لون عالم آخر. بدت هيتي والراهبة كما لو كانتا تعرفان بعضهما -في ذروة شبابها كانت تقوم بزيارات لا حصر لها إلى منشآت كهذه- فمشيتا أمامنا، أنا وفريدي، تتكلَّمان عن الطقس، الراهبة تتقدَّم نشيطة وتظهر الازدراء، وهيتي التي بدت في الحال غامضة ومهتاجة، تترنَّح في حذاء الخروج الذي يخصّها، غير المعتادة عليه. توقَّفنا في منتصف الطريق، أسفل الممرِّ. وبينما كنت أنتظر بلباقة، صارت الراهبة تبحث بجدّ عن مفتاح بين المفاتيح في الطوق المعدنيِّ الكبير الموصول بعنقها، تاقت روح أخرى داخلي إلى تلك النافذة بضوئها الأبيض، وقد بدت وعداً حقيقيّاً بالهروب والحريَّة.

«وهذه ستكون»، قالت الراهبة وهي تفتح باباً بلون كريميّ متَّسخ، «هذه ستكون غرفة فريدي».

سرير معدنيٌّ عليه بطانيَّة مطويَّة، وثمّة كرسيٌّ أثريٌّ، وعلى الجدار الأبيض الفارغ تماماً صورة قديمة مؤطَّرة لشخص بارز يرتدي بذلة طويلة، وسالفاه متَّصلان بشاربيه. لاحظت الشبكة السلكيَّة خارج النافذة، والوعاء البلاستيكيّ والإبريق فوق منضدة الغسل، والعقد المعدنيَّة على طول إطار السرير حيث يمكن ربط أشرطة التقييد. تقدَّم فريدي متردِّداً وهو يضمُّ الحقيبة إلى صدره بكلتا ذراعيه، ويتطلَّع إليه في عجب شديد. نظرت إلى مؤخِّرة رأسه؛ العنق الناعم، الصافي، والأذنان الورديَّتان، ومغزل الشعر الصغير على الجمجمة، واضطررت إلى إغلاق عينيَّ للحظة. كان هادئاً جدّاً. نظر إليَّ، خلفه، من فوق ذراعه، وابتسم. تدلَّى لسانه للحظة ثمَّ أرجعه. كانت هذه وضعيَّة المزاج الجيِّد لديه؛ عرف أنَّ شيئاً عظيماً ينتظره، وخلفي تنهَّدت هيتي متألِّمة وذاهلة.

«سيكون وضعه رائعاً هنا»، قالت الراهبة، «سنعمل على العناية به هنا»، ثمَّ التفت نحو هيتي بثقة، «القسُّ، كما تعلمين كان كريماً معنا».

هيتي، الشاردة، تاهت في مكان ما داخلها، حملقت في المرأة بعينين بريئتين واسعتين لا تفهم ما تقول. جلس فريدي على السرير، وبدأ يرتفع ويهبط سعيداً، ولا يزال يضمّ الحقيبة إليه كما لو أنَّها كانت طفلاً صعب المراس. صلصلت نوابض السرير. تقدَّمت الراهبة نحو فريدي ولمسته من كتفه، ليس من دون لطف، وحالاً كان هادئاً، وجلس يحدِّق إليها بخنوع، مبتسماً ابتسامته البطيئة، وشفته السفليَّة بلون الدّم الورديّ، كانت قد تدلَّت.

«تعالَ معي الآن»، صرخت فيه بمرح، «سنُرِيك بقيَّة المنزل».

ثمَّ كان الممرُّ من جديد، ببصمة الضوء الأبيض عند نهاية النافذة، وبينما كنَّا نتقدَّم باتِّجاه الدرج اقتربت الراهبة منِّي وتمتمت «الشابُّ المسكين، ألا يتكلَّم إطلاقاً؟»

عند أسفل الدرج، تحوَّل فريقنا الصغير -الراهبة، وأنا، وهيتي وراءنا، وفريدي، متحرِّراً من حقيبته الآن، يمشي على عقبيها ويمسك بكمِّ معطفها بإصبع وإبهام- تحوَّل إلى داخل المنزل، حيث بدأ يصل إلى أسماعنا لغط، ضجيج مكتوم، كأنَّه صوت مجموعة كبيرة من الأطفال في لعب صاخب وعاصف. سمع ذلك فريدي، وأصدر أنيناً مكتوماً قلقاً. توقَّفنا عند مجموعة من الأبواب المزدوجة، كان ينبعث من ورائها الصخب، والراهبة، للتأثير فينا، نظرت إلينا من فوق كتفها مع ابتسامة صغيرة مزمومة الشفتين، وعيناها تتألَّقان على نحو ما، كما لو أنَّها توشك أن تعطينا هديَّة رائعة، وهمست:

«هذا ما نسمّيه الحجرة المشتركة».

وشرعت الأبواب على مشهد كان غريباً، وفي الوقت نفسه مألوفاً

على نحو مخيف لا يمكن شرحه. ما كان قد أذهلني أوّل الأمر هو أشعَّة الشمس، خيوط عظيمة خافتة منها تسقط من صفٍّ طويل من النوافذ الطويلة المقوَّسة ذات الإطارات، التي بدت، على الرّغم من كوننا في الطابق الأرضيّ، كأنَّها لا تطلُّ سوى على مساحة فارغة من السماء البيضاء التي تشعُّ على نحو غريب. الأرضيَّة كانت من الخشب المجرَّد، الأمر الذي قوّى من صوت الضجيج، مضيفاً هدير إيقاع طبول عميقاً. الناس في الغرفة كانوا من جميع الأعمار، رجالاً ونساءً، فتيات، وشبَّاناً، لكن في اللحظة الأولى، ببراعة التوقُّع، كما أفترض، بالنسبة إليَّ، بدوا جميعاً رجالاً أحداثاً، كلّهم في مثل عمر فريدي، بالأيدي الكبيرة نفسها، والشّعر بلون القشّ، والابتسامات السعيدة البلهاء على نحو مؤلم. جميعهم كانوا يرتدون سترات بيضاً (مثل الأطباء!) ولم يرتدوا أحذية؛ جوارب صوفيَّة سميكة فحسب. كانوا يتحرّكون خبط عشواء بطريقة اعتباطيَّة، من دون تنظيم، كما لو أنَّ شيئاً ما كان قد سقط وسطهم، قبل لحظة من دخولنا، وفرَّقهم مثل قناني لعبة القناني الخشبيَّة، بعد أن كانوا في صفوف منظَّمة. كانت الضجَّة كضجَّة حديقة حيوان. وقفنا في المدخل، نحدِّق المنظرَ، وقد تجاهلَنا الجميع ما عدا واحداً أو اثنين من الأرواح الحائرة، كانا يمعنان النظر إلينا بشكٍّ كأنَّهما كانا مقتنعين أنَّنا لم نكن أكثر من عيِّنات صلبة على نحو غير مألوف للأشباح اليوميَّة العاديَّة. كان فريدي صامتاً، وعيناه جاحظتان، تلمعان برعب ونوع من السعادة المخبولة -كثيرون جداً، ومجانين جدّاً! ابتسمت الراهبة لنا، ويداها المتلثتان، الصغيرتان، المرتعشتان، متشابكتان تحت صدرها؛ ربَّما كانت أمّاً تظهر لنا فخرها الذي يرثى له بذريَّتها الوافرة وغير المنضبطة.

إنّما، لمَ بدا كلُّ ذلك مألوفاً؟ ما الذي كان في المشهد جعلني أفكِّر في

أنَّني كنت هنا من قبل؟ -أو على نحو أكثر دقّة، ما الذي جعلني أفكِّر في أنَّني، أو في أنَّ جزءاً حقيقيّاً منّي، كان دائماً هناك؟ لم تبدُ الغرفة شيئاً بقدر ما بدت كالجزء الداخليِّ من رأسي: بياضه رماديٌّ، ومُضاء بإشراق جنونيّ، ومليء بشخصيَّات تائهة تتجوَّل على غير هدى قد تكون النسخ التي لا تعدُّ ولا تحصى من ذاتي المرفوضة، من روحي. اقترب منِّي رجل صغير، هيئته طفوليَّة، بصلعة ورديَّة، وبعيني طفل زرقاوين ولفائف من ضفائر صوفيَّة رماديَّة فوق أذنيه، يبتسم بغموض، وقد تقوَّس أحد حاجبيه على نحو خبيث، وأخذني برفق من طيَّة صدر السترة، وقال:

«أنا هنا للحفاظ على الأمن، كما تعرف. الجميع خائف».

تقدَّمت الراهبة، وخفضت ذراعاً بيننا مثل بوابة العبور.

«الآن، الآن، سيِّد مكمورتي»، قالت مازحة وهي تبتسم، «لا داعي لهذا، شكراً جزيلاً لك».

ابتسم السيِّد مكمورتي لي من جديد، وباستهجان الآسف خطا إلى الوراء داخل الحشد الصاخب. لم أكن لأُفاجأ لو رأيت زوجاً من الأجنحة الذهبيَّة المصغَّرة يبزغان من ظهره.

«هيَّا فرانكي، تعال»، كانت الراهبة تكلِّم فريدي، «تعالَ لنرتِّب لك الأمر».

انحنى نحوها بكل طواعية، لكن بعدها، كما لو كان تذكَّر نفسه، انفكَّ عنها بعنف، وابتعد، جاحظاً بعينيه، وهو يهزُّ رأسه، مصدراً صوت اختناق من مؤخِّرة حنجرته. أمسك بي، غارساً أصابعه القويَّة على نحو مروّع في ذراعي. أدرك أخيراً ما كان يجري، أدرك أنّه لم يكن في رحلة علاجيَّة، أو يشاهد مسرحيَّة إيمائيَّة، أو عرضاً سيِّئاً للسيرك؛ أدرك أنَّه هنا في المكان

الذي سيتمُّ فيه التخلِّي عنه، الركن الواضح حيث سيتحمَّل لبقيَّة حياته إثم الجريمة التي لا يذكر أنَّه ارتكبها. اشتعل غضب شديد داخلي، وشعرت بالأسى على نفسي، وأنّي ظالم متوحِّش. هيتي فاجأت الجميع بعد ذلك، وارتعشت مثل أحد ما يستيقظ بجهد من نوم مخدِّر، ودون أيِّ كلمة أخذت فريدي من يده، وقادته عائدة على طول الممرِّ وإلى أعلى الدرج، إلى غرفته. لحقتها، وتلكَّأت في الممرِّ، حتّى أراقبها، عبر الباب نصف المفتوح، وهي منشغلة مع الراهبة في إفراغ حقيبة فريدي وترتيب أغراضه. تجوّل فريدي في الغرفة لفترة من الوقت، وهو يدندن مع نفسه، ثمَّ توقَّف عند السرير، وجلس، رافعاً ظهره مستقيماً جدّاً، وضمَّ ركبتيه معاً، ومدَّ يديه على المرتبة إلى جانبيه. ولـمَّا استقرَّ رفع الولد الطيِّب عينه ونظر إليَّ حيث كنت أجثم مرتعداً عند مدخل الباب، وابتسمَ ابتسامته الأكثر براءة، الأكثر ابتهاجاً، وبدا- بالتأكيد تخيَّلت ذلك؟- بدا كأنَّه يومئ كما لو أنَّه يقول: نعم، نعم، أنا غير مهتـمّ، وأفهم.

سافرت عائداً إلى دبلن، في ذلك المساء، وركبت في سفينة نقل البريد إلى هوليهيد. كانت تحرّكات القوّات العسكريَّة قد عطَّلت رحلات القطارات، فلم أصل إلى لندن حتَّى الساعة الثامنة صباحاً. اتَّصلت هاتفيّاً بأوليغ من محطَّة يوستون، فأيقظته ودعوته إلى مقابلتي في حانة راينر. كان ذلك النهار ناضراً وصافياً، وكانت الطائرات المقاتلة تقوم بطلعاتها بطبيعة الحال، تنتشر ذيولها النفَّاثة في السماء مثل أعواد تنظيف الغلايين. في شارع توتنهام كورت تمَّ تحويل حركة المرور حول حفرة في منتصف الشارع، كان طرف قذيفة غير منفجرة قد علق فيها بزاوية مائلة. حجم هذا الشيء كان لافتاً للنظر، وكان قبيحاً على نحو ملحوظ. لم يكن لهذا السلاح شيء من نعومة

وأناقة مسدَّسي الشيطانيّ. كان مجرَّد علبة حديديَّة ضخمة وثخينة، بزعانف ذيل يبدو شكلها مثل علبة بسكويت ضخمة. ضحك سائق سيَّارة الأجرة من المشهد. خارج حطام متاجر جون لويس، كانت مجسَّمات العارضات الجصّيَّة العارية تنتشر على الرصيف مثل كثير من جثث لا تنزف منها الدّماء. «لم يسلم معرض مدام توسّو[106] من الضربة في الليلة الماضية»، قال السائق، «كان ينبغي لك رؤية المنظر: رأس هتلر تحت ذراع الملكة!».

كان أوليغ يجلس إلى طاولة الزاوية، مع كوب شاي وسيجارة، ومظهره يقول إنَّه معتلُّ الصحَّة؛ لم يكن رجلاً يحبُّ الصباحات. كان يرتدي معطفه المطريَّ، وقبّعته المكبوسة تقبع على الطاولة إلى جانب نسخة قذرة ملفوفة من صحيفة ديلي ميل. اتَّخذ مظهر نابليون المنهَك بفكَّيه المنتفخين ذينك، وعينيه المنتفختين، ومثلَّث الشَّعر الناعم على جبهته. جلستُ، وهو نظر إليَّ بحذر.

«حسناً جون»، قال، «الديك شيء لي».

طلبت من النادلة قهوة وكعكة. لم يكن ثمَّة قهوة، بالطبع.

«أصغِ إليَّ، أوليغ، أتمنَّى ألَّا تستمرَّ بمناداتي بهذا الاسم المضحك. لا أحد يهتمُّ بنا أدنى اهتمام؛ لا أحد يفعل».

ابتسم فحسب ابتسامته العريضة الشريرة.

«أنت دائماً غاضب جدّاً»، قال بتحبُّب.

جلبت النادلة شايَ أعشابٍ وكعكةً علقت بها حبَّة كرز مغلَّفة بالسكَّر. التهم أوليغ الكعكة بعينيه الجائعتين. قلت:

«هناك عميل لنا- أقصد الوكالة- في فريق عمل المكتب السياسيِّ في

---

(106) ماري غروسهلتز توسو (1761-1850)، فنّانة فرنسيّة، تعلّمت فنَّ تشكيل الشمع، وأسّست متحف مدام توسو لمجسّمات الشمع الشهير في لندن. (م)

موسكو. بقي في وظيفته لمدَّة خمس أو ستِّ سنوات. اسمه بيتروف. إنَّه أحد عناصر السكرتاريَّة الخاصَّة لِـميكويان».

استقبل أوليغ هذه المعلومات برباطة جأش مثيرة للقلق. حرَّك شايه على مهل وهو يحدِّق بعناية إلى الكوب. تنهَّد. أصابعه التي تشبه النقانق كانت ملطَّخة بالنيكوتين؛ لا يرى المرء هذا النوع من اللطخ، حتَّى على أكثر المدخِّنين إدماناً - أتساءل لماذا؟

«بيتروف»، قال مقطِّعاً الكلمة، «بيتروف...»، رفع نظره إليَّ، «منذ متى تعرف ذلك؟»

قلت: «لماذا؟ ما المهمُّ في ذلك؟»، رفع كتفيه، وخفض فمه العريض عند طرفيه، «عرفت ذلك منذ انضممت إلى الوكالة». أومأ من جديد وصار يحرِّك فكَّه، ثمَّ عاد إلى دراسة الشاي في كوبه.

«أنت تعرف ما سيحصل حين أخبر موسكو»، قال.

«سيطلقون النار عليه. أتخيَّل ذلك».

هزَّ كتفيه من جديد، وتدلَّت شفته السفلى الأرجوانيَّة اللامعة.

«في نهاية الأمر»، قال.

«في نهاية الأمر».

رفع عينيه البيضويَّتين نحو عينيَّ، ومن جديد ابتسم ابتسامة الطفل الفاجر.

«هل أنت آسف الآن»، برقَّة، «لأنَّك أخبرتني؟»

هززت كتفيَّ مستهجناً بنفاد صبر.

«إنَّه جاسوس»، قلت، «كان يعرف المخاطر».

هزَّ أوليغ رأسه على مهل وهو لا يزال يبتسم.

«غاضب جدّاً»، تمتم، «غاضب جدّاً». تحوَّلت عنه مذهولاً من انعكاس طيفي على النافذة جانبي. يا لها من نظرة في تينك العينين! «حسناً، لا تقلق، جون»، قال، «نحن بطبيعة الحال نعرف أمر بيتروف».

حدَّقته.

«من أخبرك؟ -بوي؟»

لم يعد بإمكانه المقاومة، مدَّ يده، وبكلِّ براعة استلَّ حبَّة الكرز من على كعكتي التي لم تُمسَّ ودفعها إلى فمه.

«ربَّما»، قال بابتهاج، «ربَّما».

*

لـمَّا وصلت إلى بولاند ستريت، كانت تفوح من المنزل روائح دخان السجائر والأجساد والبيرة العفنة. كان ثمَّة حفل في الليلة السابقة. زجاجات فارغة في كلِّ مكان، أعقاب سجائر على السجَّادات، وعلى أرضيَّة الحمَّام قيء بلون الجزر. فتحت النوافذ، فوجدت في صالة الاستقبال شابّاً أشقر ضخماً -تبيَّن أنَّه بحَّار لاتفيّ- نائماً في معطفه على كرسيٍّ بذراع. بوي أيضاً كان نائماً. نظَّفت فُسحةً في المطبخ، وأعددت الشاي، وجلست لأشربه وأشاهد رقعة من أشعَّة الشمس تتحرَّك على الأرض. وصل نيك الآن برفقة سلفيا لايدون، وكان يرتدي زيَّه العسكريَّ.

«أين كنت؟»، قال.

«في إيرلندا».

«أوه، صحيح، آسف بشأن والدك».

استمرَّت سيلفيا ترمقني بنظرات صغيرة ماكرة، وهي تعضُّ شفتها

لتمنع نفسها من الضحك. كانا كلاهما مستيقظين طوال الليل.

«ماذا تفعلين الآن؟»، قال نيك. وغمغمت هي بسرعة: «أوه، لا شيء، أمزح فحسب».

«حسناً، أنتما الاثنان تبدوان مرحين على نحو لافت»، قلت.

كان لديَّ صداع سيِّئ للغاية. بحث نيك عن شيء للأكل، في حين اتَّكأت سيلفيا على إحدى الطاولات وصارت تلعب بسلسلة حبَّات اللؤلؤ في عقدها. كانت ترتدي ثوباً من الساتان الأخضر، وقفّازين طويلين حتَّى المرفق.

«أوه نيكي»، قالت، «ربَّما نخبره أيضاً».

نيكي.

«نخبره، بمَ؟»

تذكَّرت رقصي مع سيلفيا لايدون على متن السفينة ونحن نندفع في بحر البلطيق؛ رائحتها الحادَّة، والماكرة، والشعور بثدييها الهزيلين يصطدمان بي.

«هيَّا»، قالت.

تجنَّب نيك عينيَّ. فتح صندوقاً للخبز، وأمعن النظر فيه بكآبة. ذهبت سيلفيا إليه وطوت ذراعها حول كتفه، ونظرت إليَّ من جديد، وابتسمت ابتسامتها المنتصرة بشفتيها الرقيقتين. وقفتُ، يكاد رأسي ينفلق من الصداع. حقّاً، سيِّئ جدّاً.

«حسناً، تهانيَّ لكما»، قلت. لم يقدِّم لي كلمة تحذير، ولا كلمة. «سأرى إن كان بإمكاني استعارة شمبانيا من بوي، موافقان؟»

*

فترة فاصلة ساحرة: عشاء الليلة الماضية مع ولديَّ- أقصد ابني وابنتي البالغين. كان عيد ميلادي البارحة. أخذاني إلى أحد الفنادق الضخمة تلك، قبالة ميدان بيركلي. لم يكن خياري. أفترض أنَّه نوع من الأماكن التي يدعو إليها جوليان زبائنَه المهمِّين، ومعظمهم عرب، على ما يبدو هذه الأيَّام. كان الهواء المحتبس في الممرِّ ذي الإضاءة الباهتة الكئيبة مشبعاً بالرائحة الطريَّة الغنيَّة للطعام المرفَّه. قابلنا عند مدخل قاعة الطعام نادلاً برأس لامع، متزلِّف، بابتسامة دمية فارغة وعينين ماكرتين، استقبل جوليان بحميميَّة خاصَّة، مترقِّباً من خمَّن أنَّه دافع كبير للبقشيش (كان مخطئاً). لـمّا جلسنا وقف فوقنا يلوِّح بقائمة طعام من القياس الكبير، مثل مدير حلبة يضرب بسوطه. طلب جوليان كوب ماء معدنيّ، وأنا طلبت مارتيني كثيفاً جدّاً. «وبالنسبة للسيِّدة...؟» المسكينة بلانش كانت مروَّعة جدّاً، وعند هذه اللحظة بعناء استطاعت النظر إلى الشابّ. كانت محدودبة في جلستها على هيئة حرف z مسحوق؛ ظهرها العريض انحنى، ورأسها انخفض بين كتفيها، تحاول عبثاً أن تجعل نفسها صغيرة. كانت ترتدي ثوباً غير لائق لها مصنوعاً من ياردات كثيرة من أشياء قرمزيَّة اللون، وشعرها وقف مثل أجمات من الأسلاك.

«حسناً»، قلت، «هذا لطيف».

رمتني بلانش بإحدى ابتساماتها السريعة الخفيَّة التي تنمُّ عن قلق. تستمتع بلانش دائماً حينما أكون مستفزّاً، على الرَّغم من أنَّها تتظاهر بعدم رضاها عن ذلك. تنحنح جوليان، وهزَّ كتفيه على نحو أخرقَ، وأدخل إصبعه تحت ياقة قميصه الضيِّق جدّاً، وشدَّه بقوَّة. إلى مائدة مجاورة كانت هناك امرأة بكتل لحميَّة ضخمة وثوب من دون حمَّالات كتفين. كانت قد بدأت تعرفني.

«رأيت ماما اليوم»، قال جوليان.

«أوه، صحيح؟ وهل هي بخير؟»

نظر إليَّ بخليط من اللوم والكرب، وذلك التضرُّع الخاصّ الذي يوجّهه إليَّ بصمت حين يفتح موضوع والدته. تقيم فيفيين الآن في دار رعاية المسنين في نورث أكسفورد، ضحيَّة مرض الملنخوليا المزمن. أُفضِّل عدم زيارتها فهي تنزعج من وجودي.

«في الواقع هي ليست بخير»، قال جوليان، «إنَّها ترفض وجباتها».

«حسناً، هي لم تكن قطُّ شرهة إلى الطعام، كما تعلم».

«هذا مختلف، والأطباء قلقون جدّاً».

«امرأة عنيدة جدّاً أمُّك».

بدأ فمه يعمل.

«أرسلت إليك حبَّها»، قالت بلانش بسرعة. (قصَّة محتملة). لدى بلانش طريقة مؤثِّرة في صنع خدع صغيرة مفاجئة حماسيَّة، مثل فأرة تخرج من ثقبها لتستولي على قطعة جبن، ومن ثمَّ تعود بالسرعة نفسها إلى داخل ثقبها مع رشفة من الخوف. هي تعمل في مدرسة للأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصَّة (أي أنَّهم مجانين). ولن تتزوَّج أبداً، الآن؛ أستطيع تخيُّلها وهي في الستينات من عمرها تقوم بأعمال خيريَّة، مثل البائسة هيتي، ويضحك عليها من ورائها أولاد جوليان المشاغبون. فتاتي المسكينة. أشعر أحياناً بالسعادة لأنَّني سأموت قريباً. «أخبرتها أنَّنا سنراك الليلة»، قالت بلانش، «فردَّت بأنَّها تتمنَّى لو كانت معنا».

لم أدلِ بأيِّ تعليق.

كان الحساءُ مرقاً صافياً رقيقاً لا طعم له. دفعت طبقي بعيداً مقرِّراً أن

أنتظر وجبتي. كانت بلانش قد طلبت سمكاً أيضاً، لكنَّ جوليان بطريقته الرجوليَّة المتقنة كان قد طلب شريحة لحم بقر. حقّاً إنَّ شبهه بالمسكين فريدي لافت للنظر. سألته عن حال الأمور في المدينة، فنظر إليَّ بحذر؛ هو يتخيَّل أنَّني أنتظر، بحدسِ الواثقِ، الانهيار الحتميَّ للرأسماليَّة. لا بدَّ أنَّني أشكِّل إحراجاً عظيماً له، بين زملائه في سوق الأوراق الماليَّة. أنا أقدِّر فعلاً ولاءه البنويَّ لي. حقّاً أقدِّر ذلك -لا أحد سيلومه، على الأقل أنا، إذا كان قد انفصل عنِّي بعد فضيحتي العامَّة. إنَّه يتأثَّر بسرعة.

«خالك نيك»، قلت، «كان في وقت من الأوقات مستشاراً لأسرة روذنستاين، هل كنت تعرف ذلك؟ قبل الحرب. كانت إحدى أكثر وظائفه غرابة. أرسلوه إلى ألمانيا لتقييم التهديد النازيِّ على ممتلكاتهم. بالطبع كنَّا جميعنا، جواسيسَ في تلك الأيَّام». أرخت هذه الكلمة الصمتَ على الطاولة مثل ظُلَّة. عضَّت بلانش شفتها، وجوليان سعل وعبس وهجم على شريحة اللحم. هه هه. إنَّها إحدى الامتيازات القليلة للشيخوخة أن يسمح لك أن تتصرَّف على نحو مروِّع مع أطفالك.

«ألم يشترِ اللورد روذنستاين تلك اللوحة، موت سيسيرو، لأجلك؟»، قال جوليان.

«بلى»، قلت على الفور، «لكنَّني رددت إليه ماله. لا يرغب أحد في أن يكون مديناً روذنستاين. وهو سينيكا وليس سيسيرو».

خطرت إلى بالي فكرة مخيفة: هل كان بوسان، إغراءً، أو طريقة لجعلي مديناً لهم؟ هل جعلوا وولي كوهين يتركها هناك بين نفايات المعرض، حيث أكون ملزماً باكتشافها؟ كان من الممكن أن تكون اللوحة من مجموعة روذنستاين الخاصَّة. كان قادراً على الاستغناء عنها. تذكَّرت النظرة الخاصَّة

التي تبادلَها مع بوي على الرصيف في تلك الليلة الصيفيَّة خارج إليغيري، وروذنستاين يضحك ضحكته العريضة اللطيفة تلك ويستدير مبتعداً. تملَّكني الذعر، وصوت جوليان يئزُّ غير مفهوم في أذني، في حين تفتَّحت أمام مخيِّلتي المروَّعة مثل شرنقة تنسلخ عنها كلُّ المؤامرات الصغيرة الفظيعة والمقرفة، لكنَّها انهارت بعد ذلك من جديد، بمجرَّد أن تكشَّفت؛ كانت الأجنحة ملفوفة، والغلاف الخارجيُّ قد تحوَّل إلى غبار، والغبار اختفى. هراء، هراء، جنون عظمة صافٍ. كنت قادراً على التنفُّس من جديد. استندت وراءً على كرسيّي، وابتسمت بوهن. كان جوليان قد سألني سؤالاً وينتظر إجابة. «أنا آسف»، قلت، «ماذا كنت تقول...؟»

«أوه، لا شيء».

تلك المرأة، إلى الطاولة المجاورة، كانت قد تعرَّفتني أخيراً، وهي الآن تتكلَّم بلهفة في أذن الرجل العجوز إلى يسارها، وعيناها البصليَّتان مثبَّتتان عليَّ بانفعال، وثدياها المنتفخان يرتعشان. من الجيِّد التفكير في أنَّ أحدنا لا يزال يستطيع أن يسبِّب ارتعاشاً. «مضحك»، قلت، «أنَّ ليو لم يُفضَح قطُّ».

حملق جوليان فيَّ.

«أنت تقصد أنَّه...؟»

«أوه، نعم. كان واحداً منَّا. لم يكن ناشطاً جدّاً، بل كان شخصاً أكثر سموّاً. وأسياد عملنا في موسكو كانوا حذرين منه، كونه يهوديّاً، وكونهم - حسناً، روسيّين؛ لكنَّهم كانوا يقدِّرون صلاته. ثمَّ كان هناك كلُّ هذا المال -بلانش، عزيزتي، هل أنت بخير؟»

«نعم، نعم. إنَّها عظمة... لقد علقت...»

كان جوليان قد توقَّف عن الأكل، وجلس وسكينه وشوكته في قبضتي

يديه، يحملق مشدوهاً بصحنه الملطَّخ بالدَّم.

«هل هذا صحيح؟»، قال، «أو هي إحدى نكاتك؟»

«وهل أمزح في مثل هذه الأمور؟»

نظر إلى ابتسامتي المتكلَّفة وقرَّر ألَّا يجيب، وبدلاً من ذلك سأل:

«خالي نيك- هل كان يعلم؟ بأمر روذنستاين، أقصد».

كانت بلانش، بوجهها القرمزيِّ، لا تزال تسعل وتضرب على صدرها.

«لم أسأله قطُّ»، قلت، «لم يكن نيك ملاحظاً دقيقاً، كما تعلم. الأشخاص المغرورون لا يميلون إلى أن يكونوا كذلك. بلانش، اشربي بعض الماء».

انكبَّ جوليان باهتمام على طعامه من جديد، كاشفاً لي عن رأس فريدي؛ الشَّعر الخشن نفسه؛ والجمجمة العريضة. غريب أن تختار الجينات تكاثرها.

«لم يكن هو واحداً منكم»، قال، «هل كان -الخال نيك؟»

كان نبيذ سانسيري الذي طلبه جوليان جيِّداً حقّاً، على الرَّغم من أنَّه يعرف أنَّني لا أحبُّ هذا النوع من النبيذ.

«المسكين نيك»، قلت، «كلّ تلك السنين، ولم يلاحظ شيئاً على الإطلاق. إنَّه الغرور، كما ترى. أيّ مكان ينظر إليه يتحوَّل مباشرة إلى مرآة. لكن، آه، يا له من سحر!». توقَّف جوليان عن المضغ مثبتاً عينيه على صحنه. ضحكت، وقلت: «لا، لا تقلق، هو مغاير جنسيّ على نحو عميق ومحبط، هكذا كان دائماً».

صمت رهيب آخر. هل ذهبت بعيداً جدّاً؟ لم يتصالح جوليان قطُّ مع مسألة شذوذي- حسناً، لم أكن أتوقَّع منه ذلك: أيَّ ابن سيكون؟ وفكرة

الحياة الجنسيَّة لوالدين متباينين جنسيّاً هي فكرة تبعث على التشنُّج بما يكفي. ومن ثمَّ هو مخلص جدّاً لأمِّه. بلانش أكثر تسامحاً من جوليان. النساء لا يأخذنَ الجنس على محمل الجدِّ. إنَّها حسَّاسة جدّاً وتراعي مشاعري- فأنا حقّاً لديَّ مشاعر، على الرَّغم من مظهري الّذي يوحي بعكس ذلك- لكنِّي متيقِّن من أنَّها لا بدَّ تفكِّر أنَّني خنت أمَّها. أوه، العائلات!

«هل تحدَّثت مع خالي نيك؟»، قالت، «أقصد منذ...؟»

«لا، لا. نيك وأنا لم نتحدَّث منذ سنوات. كنت شيئاً مثل درجة مفقودة على سلَّم نجاحه. كان من الضروريِّ له أن يتخطَّاني».

لسبب ما مدَّت بلانش يدها، وعصرت يدي، وعيناها تلمعان؛ إنَّها شيء بائس ناعم، وقلبها طيِّب جدّاً، حقّاً، بالنسبة إلى ابنة لي. لاحظ جوليان الحركة، وعبس. قال:

«هل كان يعلم... بأمرك؟»

«أنِّي جاسوس؟»، جفل؛ كنت حقّاً أشعر بأنِّي أصبح مستهتراً حيث أنا الآن، ويعود الفضل في ذلك إلى شربي معظم زجاجة النبيذ. قلت لنفسي إنَّه يجب عليَّ الحذر، فسيِّدة الصدر المرتفع كانت متلهِّفة. «أوه، لا»، قلت، «لِمَ ظننتَ ذلك؟ أنا واثق من أنَّه كان ليكشف ذلك، فهو كان صريحاً جدّاً، كما تعرف، صريحاً وأميناً للغاية، على الأقلِّ في تلك الأيَّام- يقولون حقّاً إنَّه كان متورِّطاً في بعض الأعمال الغامضة في طريقه إلى المكانة الحاليَّة من السلطة والتأثير. كان جزءٌ منه فاشيّاً دائماً، هكذا كان نيك القديم».

صهل جوليان، وقد فاجأني، فهو لم يكن معروفاً عنه قطُّ حسُّ الدعابة.

«هل منعه ذلك من العمل لحساب الروس؟»، قال.

قلبت كأس النبيذ بين أصابعي، معجباً باللهب الأصفر الناريِّ الذي أشرق فجأة في أعماقها.

«بالطبع»، قلت بتعبير لطيف، «أنت تجد صعوبة في التمييز بين الأيديولوجيّات المضادَّة. الرأسمال مصاب بعمى ألوان». أوشك أن يجيب، بعد أن لُسع، لكن بدلاً من ذلك نظر إلى طبقه من جديد، ونفث زفيراً غاضباً من منخريه. رمقتني بلانش بتضرُّع آخر، نظرة كئيبة. «هيَّا»، قلت، «دعاني أشترِ لكما شراباً. جوليان: براندي؟». التقطت النظرة التي تبادلاها: كانا متَّفقين على حدٍّ زمنيّ وهو المساء. فكَّرت في الشقَّة، بكرسيّها ومصباحها، بالنافذة التي تعوق الليل الأسود اللامع. بدأت بلانش تقول شيئاً ما لكنَّني قاطعتها. «أخبرني جوليان، كيف هي...؟»، لطالما عانيت من مشكلة نسيان اسم زوجته، «كيف هي باميلا؟»، كان ينبغي أن أسأل عن الأطفال أيضاً، لكنَّني لم أرغب في فتح هذا الموضوع، فلقد كنت أجد أنَّ فكرة الحفدة تُوقع الكآبة في النفس، ليس لأسباب واضحة، «آمل أنَّها ناجحة؟»

أومأ برأسه بتجهُّم، ولم يقل شيئاً. هو يعرف رأيي في باميلا؛ إنَّها تربّي الخيول. فجأةً، كما لو أنَّه تذكَّر أنَّ زوجته كانت بمفردها، انتهى من تناول وجبته، وأنزل منديله بحسم رزين، في حين مالت بلانشيت على عجل وصارت تحرِّك يدها تحت مقعدها من أجل حقيبتها، لطالما كان يتنمَّر عليها. تصارعنا قليلاً، أنا وهو، لأجل دفع الفاتورة؛ سمحت له بالفوز. وفي المدخل ساعدني في ارتداء معطفي، فشعرت فجأة بأنَّني عجوز نكد مظلوم. كانت ليلة باردة. بينما كنَّا نمشي على طول الرصيف، عقدت بلانش ذراعها في ذراعي، لكنَّني ابتعدت بعناد. أسرعت سيَّارة جوليان السوداء الكبيرة مخرخرة عبر الشوارع المظلمة- يصبح جوليان متهوِّراً على نحو غير معهود حين يصبح خلف المقود.

في بورتلاند بليس كانت كومة من الخرق قد ألقيت على أسفل الدرجات المؤدِّية إلى باب بيتي؛ ولـمَّا ترجَّلت من السيَّارة اهتزَّت الكومة وظهر منها وجه بائس نظر إليَّ في الأعلى بعينين مرهقتين.

«انظر»، قلت لجوليان، «هي ذي نتيجة رأسماليَّتك بالنسبة إليك!»

لا أعرف ما الذي دهاني حتَّى أصرخ في الشارع على هذا النحو. لم أكن أبدو نفسي على الإطلاق. لم يترجَّل جوليان من سيَّارته، وجلس الآن يحملق بقسوة عبر زجاج السيَّارة الأماميِّ وينقر بأصابعه، بإيقاع ضجر، على المقود. تبادلنا أمانيَ جامدة بليلة سعيدة. وعلى الرَّغم من ذلك توقَّفت السيَّارة عند المنعطف مع صوت صراخ، وفتح باب آخر، وجاءت بلانش راكضة حتَّى منتصف الطريق. من أين جاءت بتينك القدمين الكبيرتين؟- ليس منِّي، في كلِّ الأحوال. كنت، بطبيعة الحال، قد أدخلت المفتاح في قفل الباب. كافحت في خطواتها، وهي تلهث، قالت: «أنا أردت فحسب أن... أردت فحسب...»، ثمّ توقَّفت عن الكلام، ونظرت إلى الأرض. ثمَّ رفعت كتفيها، وضحكت ضحكة ناقمة تائهة، وقبَّلتني بسرعة على خدِّي واستدارت مبتعدة. توقَّفت هنيهة عند أسفل الدرجات، وانحنت نحو حقيبتها، وأصبحت أمَّ فيفيين للحظة. امتدَّت يد سوداء من كومة الخرق، وهي، وضعت قطعة نقود فيها. نظرت وراءها إليَّ من جديد، وابتسمت، بشجاعة، وبحزن، وكما ظننت، بتلميح اعتذار- عمَّ، لا أعرف- ومن ثمَّ أسرعت باتِّجاه السيَّارة المنتظرة.

ما هذا، سألت نفسي، ما هذا الذي يعرفه الجميع، وأنا لا أعرفه؟

*

هذا الصباح، في وقت مبكر، قبل أن ينبغي لمتطفِّل ما أن يأتي ويزيحه،

نزلت لإلقاء نظرة على ذلك البائس، على الدرج. كان مستيقظاً، مستلقياً داخل شرنقته القذرة، وعيناه المخيفتان مثبّتتان برعب في الهواء الّذي هو فحسب مَن يستطيع رؤيته. عمره غير واضح، وشعره المقصوص رماديّ، والجرب يغطيه، فاغراً فمه الأسود. كلّمته، لكنّه لم يردّ؛ أظنُّه لم يستطع سماعي. فكّرت في شيء ربّما أعمله لأساعده، لكنّني سرعان ما استسلمت بالطريقة الكئيبة اليائسة التي يقوم بها أحدنا حين يستسلم. كنت قد أوشكت أن أبتعد لـمّا رأيت شيئاً يتحرَّك تحت ذقنه، داخل طوق معطفه مغلق الأزرار. كان كلباً صغيراً، جرواً، حسب ما أظنُّ، بنّيّاً، أجربَ، بعينين كبيرتين حزينتين توّاقتين، وأذن ممزَّقة. صار يلعقني بلسانه، ويخرخر على نحو متزلِّف. لسانه كان صادماً بنظافته الورديَّة بكلِّ معنى الكلمة. رجل وكلبه. يا إلهي، على كلّ واحد أن يملك شيئاً يحبُّه، شيئاً ما من خردة الحياة. عدت وصعدت الدّرج وأنا أشعر بالخجل لاعترافي بأنّني حزنت على الكلب أكثر من حزني على الرجل. يا له من شيء، قلب الإنسان.

أعتقد أنَّ الآنسة فانديلور كانت تستمع إلى قصص جامحة عن الحياة في منزل بولاند ستريت إبَّان فترة الحرب، لأنَّني كلَّما ذكرتِ المكان كنت أضبط فيها، كما يبدو، قشعريرة مكتومة من الرفض وخجل الفتاة العذريِّ. هذا صحيح، كان ثمَّة فسوق جدير بالذكر هناك في فترة قصف لندن، لكن بحقِّ الله، آنسة ف. لقد كانت لندن، في ذلك الوقت على وجه العموم، على الأقلِّ في مستوى طبقتنا، تتمتَّع بجوِّ دول المدن الإيطاليَّة في أيَّام الموت الأسود[107]. على الرَّغم من أنَّها لم تعترف بذلك قطُّ، وهي الشابَّة المتحرِّرة، لكن ما كانت تشجبه كاتبةُ سيرتي حقّاً لم يكن الرخصة بالجنس في تلك الأيَّام، إنَّما طبيعة النشاط الجنسيِّ. كانت تتخيَّل، مثل كثيرين، أنَّ المنزل لم يسكنه سوى الشاذّين. أذكِّرها أنَّ صاحب المكان، ليو روذنستاين، لم يكن شاذّاً، ودمه أحمر بقدر ما يكون عليه الدَّم اليهوديُّ. وقبل كلِّ ذلك كان هناك نيك، هل أحتاج إلى قول المزيد؟ أعترف أنَّه لـمَّا انتقل بوي للعيش فيه، كان هناك دائماً شبَّان مشكوك فيهم في المكان، مع أنَّني كنت ألتقي أحياناً في أحد الصباحات فتاة مذهولة تتعثَّر وهي تخرج من غرفته وشعرها ملفوف في عقد، وتحمل جوربيها على ذراعها.

كان داني بيركينز أحد اكتشافات بوي.

---

(107) دول المدن الإيطاليّة هي ظاهرة سياسيّة من الدويلات المستقلّة في شبه جزيرة إيطاليا بين القرنين العاشر والخامس عشر، من مظاهر الحياة الاجتماعيّة فيها انتشار الفحش. والموت الأسود هو وباء طاعون اجتاح أوروبّا بين عامي 1347-1352. (م)

كان المنزل طويلاً وضيِّقاً، ويبدو مائلاً قليلاً إلى الخارج فوق الشارع. لا بدَّ أنَّ الشاعر بليك شاهد ملائكة تتدفَّق من تحت أشعَّة الشمس وهي تومض من تلك النوافذ العالية. مكان المعيشة يتكوَّن من ثلاثة طوابق فوق عيادة عمليَّات لأحد الأطبَّاء. كان الطبيب شخصاً مراوغاً؛ فقد أصرَّ بوي على أنَّه كان طبيب إجهاض. وليو، على الرَّغم من سلوك الإسبانيِّ النبيل الّذي كان يسلكه، فقد كان لديه تذوُّق للحياة المبتذلة، وكان قد اشترى المنزل كملاذ من الفخامة التافهة لقصر الأسرة في بورتمان سكوير. ومع ذلك، كان، في ذلك الوقت، نادر الحضور في بولاند ستريت، بعد أن انتقل وزوجته الجديدة، والحبلى أصلاً، إلى مكان آمن في الريف. كانت لديَّ غرفة نوم في الطابق الثاني مقابل حجرة الملابس الضيّقة حيث كان يعيش بوي في بؤس مدهش. فوقنا كانت شقَّة نيك. كنت لا أزال أملك منزل بايسووتر، لكنَّ القذائف كانت قد سقطت بالقرب من لانكاستر غيت، وعلى الجانب الغربيّ من ساسيكس سكوير، وفيفيين كانت قد رحلت فجأة مع الطفل إلى منزل أهلها في أكسفورد في تلك الفترة. كنت أفتقدهما حينما تصيبني نوبات دوريَّة من الشعور بالوحدة والشفقة على نفسي، لكنَّني لن أدَّعي أنَّني لم أكن راضياً كلَّ الرضا عن كلِّ ذلك الترتيب.

في الصباحات، كنت أحاضر في فنِّ بوروميني[108] في المعهد- يا له من إحساس بالإلحاح والانفعالات العميقة التي كانت تلقى على تلك المناسبات بسبب صوت القذائف الساقطة على المدينة- وفي فترات ما بعد الظهر أكون في مكتِبي في الوكالة. كان محلِّلو الشيفرات في بليتشلي بارك قد نجحوا في فكِّ شيفرات إشارة لوتفافه، وهي القوَّات الجويَّة الألمانيَّة، وكنت قادراً على تمرير

---

(108) فرانشيسكو بوروميني (1599-1667)، معماريّ سويسريّ، تميّز فنّه بالأجواء الغريبة وبالتجديد. (م)

قدر كبير من المعلومات القيِّمة لأوليغ حول قوَّة وتكتيك هذه القوَّات. (لا، آنسة ف. مع أنَّك ربَّما تلحِّين عليَّ، أنا لن أتنازل وأنشغل بانتقاد تعاملي مع بلد كان من المفترض أنَّه، في ذلك الوقت، يتعاون مع هتلر ضدَّنا؛ بالتأكيد أصبح واضحاً الآن أين تمتدُّ ولاءاتي دائماً، أيّاً كانت المعاهدة التافهة التي قد يضع ذلك الطاغية الحقير اسمه عليها). كما أدركتُ، أنا كنت سعيداً. وسط روائح قاعات الدراسة في المعهد- سحجات أقلام الرصاص، الورق الرخيص، رائحة الحبر المجفِّف للفم- أو العدو تحت النوافذ الكبيرة لغرفة المحاضرات في الطابق الثالث للمعهد، والنظر إلى أحد أفضل أفنية فانبرو[109]، والدفع إلى حفنة من الطلَّاب المهتمِّين بحصيلة أفكاري حول الموضوعات العظيمة لفنِّ القرن السابع عشر، أنا كنت، نعم، سعيداً. وكما أشرت من قبل، لم أكن أخاف القصف؛ وأعترف أنَّني حتَّى هلَّلت وابتهجت قليلاً، في السرِّ، لمرأى مثل هذا الدمار العظيم غير المضبوط. هل صدمتِ؟ عزيزتي، لا يمكنك تخيُّل غرابة تلك الأوقات. لا أحد الآن يتحدَّث عن حسِّ الفكاهة الغنيَّة، الذي أحدثه قصف لندن. لا أقصد أواني الغرفة الطائرة، أو الأرجل المقطوعة المرميَّة على أسطح المنازل، كلُّ ذلك كان مجرَّد حوادث غريبة. إنَّما في بعض الأحيان كان يبدو أنَّ أحدنا يسمع، في همهمة صوت قذيفة تنفجر على طول طريق مجاور، نوعاً من -ماذا سأسميه؟- نوعاً من الضحك السماويِّ، صوت إلهٍ طفلٍ مسرور ينظر إلى الأسفل، إلى تألُّق تلك الأشياء التي كان قد شكَّلها. أوه، في بعض الأحيان، آنسة سيرينا فانديلور، في بعض الأحيان أعتقد أنَّني لست أكثر من كاليغولا[110] رخيص، يتمنَّى لو أنَّ لدى العالم خنجرة واحدة،

---

(109) جون فانبرو (1664-1726) معماريّ وكاتب مسرحيّات إنكليزيّ، اشتهر بتصميمه القصور والمباني الضخمة. (م)

(110) إمبراطور رومانيّ شهير، حكم روما بين 37 و41 م. عرف عنه قساوته وساديّته وبذخه وانحرافه الجنسيّ، وصار رمزاً للطغيان. اغتاله ضباطه وأعوانه في الحكم. (م)

حتَّى يتمكَّن من خنقه مرَّة واحدة.

الصيف ينجلي، وينجلي معه فصلي أنا أيضاً. وبعد انقضاء تلك المساءات المحمرَّة أشعر بدنو الظلام؛ رعشتي؛ وَرَمي.

لندن تحت القصف الجوِّيّ. نعم، كلُّ شخص كانت لديه حكاية: كاسحات الألغام على نهر التايمز، مئات براميل الطلاء في مستودع محترق ترتفع إلى الأعلى مثل صواريخ؛ المرأة التي انتفخت تنُّورتها في الهواء وعلقت بحمَّالاتها وهي تمشي الهوينى أسفل بوند ستريت، وزوجها يخطو إلى الوراء باتِّجاهها ويحاول عبثاً أن يغطِّيها بسترته مثلما يفعل مصارع الثيران مع الثور الهائج؛ وزوج حمير الوحش اللذان كانا يسيران أسفل شارع برينس آلبرت، وأقسم نيك أنَّه شاهدهما، حين كان عائداً من رحلة إلى أكسفورد، بعد سقوط قذيفة طائشة على حديقة الحيوان، وتذكَّر شعور أعناقها السود الناعمة، وحوافرها الأنيقة.

Und so weiter...[111]

كنت في المطبخ في صباح أحد الأيَّام، بعد عودتي من إيرلندا، لـمَّا نزل بوي لتناول الإفطار، وهو يلبس (روب دي شامبر)، حافي القدمين وقد أصابه صداع ما بعد الشرب، وتفوح منه رائحة سائل منويٍّ وثوم عفن. أعدَّ خبزاً مقليّاً وشرب كأساً من الشامبانيا.

«لقد اخترت وقتاً سيِّئاً لتتوارى فيه»، قال، «لم يتوقَّف الألمان مُذ غادرت، بوم، بوم، بوم، ليلَ نهار».

«لقد توفِّي والدي»، قلت، «هل ذكرتُ ذلك؟»

«آه- أتُسمِّي هذا عذراً؟»، تأمَّلني بابتسامة ماكرة، كان نصف ثمل بطبيعة

---

(111) بالألمانيّة في الأصل، وتعني وكذلك الطقس... (م)

الحال، «هل تعرف أنَّك تبدو شيئاً قديماً مثيراً في هذا اللباس العسكريِّ. يا لخسارتك. التقيت شابّاً منذ بضعة أيَّام في حانة ذا ريفورم. طيَّار يقود طائرة نفَّاثة، يكاد لا يزيد عن ولد مدرسة. كان هناك في الخارج يطير في طلعات جوِّيَّة صباحيَّة. أصيبت طائرته وهو فوق القناة، فقفز من الطائرة بالمظلَّة والتقطه زورق نجاة، فهل تصدِّق ذلك، وها هو ذا، بعد ثلاث ساعات، كان يشرب جن بيمز. عينان خائفتان، وابتسامة عريضة، وقطعة ضماد جذَّابة فوق عين واحدة. ذهبنا إلى أوتيل مابيلي، وأخذنا غرفة. يا يسوع، كان الأمر مثل نكاح حصان صغير، بكلِّ ما رافق الأمر من هستيريا، وعضّ، وزبد متطاير. كانت هذه المرَّة الأولى له أيضاً- والأخيرة على الأرجح. هذه الحرب: أقول إنَّها ريح شريرة». جلس يمضغ، ويشاهدني وأنا أعدُّ فطوري، فلطالما كانت تسعده رؤية أساليبي الدقيقة في العمل مع هذه الأشياء. «إلى جانب ذلك»، قال، «ثمَّة وظيفة أعتقد أنَّها مناسبة لك. أولاء السُّعاة لما يسمَّى الحكومات الصديقة، يسافرون إلى أدنبرة في القطار الليليِّ كلَّ أسبوع للحصول على البرقيَّات التي ترسلها القوَّة البحريَّة. لقد طُلب إلينا أن نراقب أمتعتهم؛ الفرنسيّين والأتراك؛ شلّة المخادعين». صبَّ لنفسه كأساً جديدة من الشمبانيا. فاضت الرغوة، فغرفها من أعلى الطاولة المدهنة وامتصَّها من بين أصابعه. «نيك، بين جميع الناس، جاء بخطَّة»، قال، «ذكيَّة جدّاً، حقّاً. كنت مذهولاً. لقد حصل على هذا الشابِّ الذي يعمل صانع أحذية، أو إسكافيّاً ماهراً، أو أيّاً كان عمله. سيفكُّ هذا الشابُّ غرزات حقائب الإرسال، ويترك الأختام مكانها، كما ترى، فتلقي نظرة على الوثائق، تودع اللقطات المفيدة في ذاكرتك البصريَّة، ثمَّ تعيدها إلى الحقائب، ويدرز الإسكافيُّ مكان الغرزات من جديد، ولا أحد سيعرف بالأمر- سوانا. وهذا هو الأمر».

تأمَّلت مجموعة من خيوط أشعَّة الشمس المتلألئة على الأرضيَّة عند قدميّ. كان ثمَّة شيء يتعلَّق بمنتصف الصباح، شيء بليد يسبّب صداعاً، أجده دائماً محبِطاً ومؤثِّراً على نحو غامض.

«ومن تقصد بقولك نحن؟»، قلت.

«حسناً، الوكالة طبعاً. وأيّ شخص آخر قد نثق به»، وغمزني، «ما رأيك؟ خطَّة محكمة، ماذا؟»

ابتسم ابتسامة عريضة، وصار يحرِّك رأسه من جانب إلى آخر، مثل امرأة سعيدة، ولم يستطع إبقاء عينيه ثابتتين.

«كيف سنبعد الحقائب عن السعاة؟»، قلت.

«إيه؟»، غمز، «نعم، حسناً. هنا يأتي دور داني».

«داني؟»

«داني بيركينز يمكنه جعل أيّ شخص يفعل أيَّ شيء، سترى».

أحياناً يُظهر بوي موهبة تنبُّؤ مثيرة للإعجاب.

«داني بيركينز؟»، قلت، «من أين، بحقِّ السماء، يظهر شخص يحمل مثل هذا الاسم؟»

ضحك بوي، وتحوَّلت الضحكة إلى إحدى سعلاته الرهيبة الرنَّانة.

«يا يسوع. فيك»، قال وهو يضرب على صدره براحة يده، «يا لك من متزمِّت». صمت قليلاً ثمَّ قال وهو يتنفَّس بشدَّة من أسفل أنفه الحادِّ الكبير: «بالله عليك، يمكنك أن تبحث في شجرة أسرته إذا شئت».

اِندفع أمامي وهو يترنَّح إلى أعلى الدّرج، وفتح باب غرفة نومه. أوَّل ما صدمني كان التحسُّن الملحوظ للرائحة النتنة الوحشيَّة في الغرفة. رائحة بوي كانت لا تزال هناك- وسخ الجسم، ثوم، زناخة، مصدر محتمل لشيء رائحته

برائحة الجبنة لا يهتمُ الدماغ بالبحث عنها- لكن في الأسفل، هناك، كانت ثمَّة رائحة أنعم، على الرَّغم من أنَّها لا تقلُّ لذاعة، كأنَّ سرباً من الحمام، على سبيل المثال، قد أُدخل في منزل أسد. كان سرير بوي فراشاً مرمياً على الأرض، وقد تمدَّد هناك الآن في عشٍّ من البطانيَّات المحشوّة والشراشف القذرة شابٌّ قصير مكتنز بشرته دهنيَّة وبيضاء للغاية حتّى تكاد تكون شفَّافة، وهي كانت بالتأكيد علامة على الطبقة العاملة. كان يرتدي سترة وسروالاً كاكيّاً، وبوطاً عسكريّاً مفكوك الرباط. إحدى ذراعيه خلف رأسه، وكاحله متصالب مع ركبته المرفوعة، وكان يقرأ في عدد من صحيفة تيدبيتس. وجدت نفسي أنظر إلى الفجوة الرطبة المظلَّلة بالأزرق تحت إبطه. كان قياس رأسه صغيراً بالنسبة إلى كتفيه العريضتين وجذع رقبته الثخين، وعدم التوافق هذا صبغه بمظهر رقيق كمظهر البنات. شعره حالك السواد، الرفيع الناعم جدّاً، قُصَّ قصيراً على الجانبين، وتدلَّى على جبهته التي آسف أن أقول إنَّها كانت مرقَّطة بحبِّ الشباب، وسقط في تجويف لامع داكن، ووجدت نفسي أتذكَّر لحظة حدائق عدن تلك لـمَّا شاهدت أوَّل مرَّة القندس نائماً في البستان في مزرعة أبيه في أكسفورد قبل سنين.

«انتباه، جندي بيركينز!»، صرخ بوي، «ألا ترى وجود ضابط؟ هذا هو النقيب ماسكل، ألقِ التحيَّة».

ابتسم داني له فحسب بكسل، وألقى الصحيفة جانباً، ولفَّ نفسه على ركبتيه وقرفص وسط أشياء السرير المبعثرة، وبكلِّ راحة، نظر إليّ في الأعلى باهتمام ودود واضح، وقال:

«أرجوك. أنا متأكِّد من أنَّ السيِّد بانيستر أخبرني كلَّ شيء عنك».

كان صوته أزيزاً ناعماً، وبدا كلُّ شيء يقوله كما لو أنَّه يبوح بسرٍّ

مشترك، بلكنته الويلزيَّة التي بدت محاكاة ساخرة للَّكنة- ضحك بوي.

«لا تصدِّق هذا، فيكتور»، قال، «إنَّه كاذب بائس. لم أذكر قطُّ اسمك أمامه».

ابتسم داني من جديد، غير مهتمٍّ على الإطلاق، واستمرَّ في فحصه لي؛ كان اهتمامه مثل اهتمام خصم طيِّب في مباراة مصارعة، يبحث عن تعليق سيحبطني أقلَّ بالنسبة إلى كلينا. أدركت أنَّ راحتَي يديَّ كانتا رطبتين.

على نحو متثاقل، ومضحك، جلس بوي في الأسفل مصالباً رجليه على الفراش، ووضع ذراعه حول خصر داني. سقط (روب دي شامبر) بوي مفتوحاً فوق ركبتيه، وأنا حاولت ألَّا أنظر إلى عضوه الكبير المرتخي المتدلِّي في أدغاله.

«كنت أخبر النقيب ماسكل حول خطَّتنا لسرقة البريد السريع»، قال بوي، «هو يريد معرفة كيف سنحصل على الحقائب منهم. قلت إنَّ ذلك كان عملك».

هزَّ داني كتفيه، جاعلاً حزمة عضلات كتفيه تتموَّج.

«حسناً، علينا فحسب أن نسألهم بلطف، أليس كذلك؟»، قال بصوته الرقيق.

ضحك بوي، وسعل من جديد. ومن جديد، ضرب نفسه على عظم صدره.

«أصغِ إليَّ أيُّها العَزَب»، قال، مقلِّداً لكنة داني، «سلِّم تلك الأوراق فحسبِ الآن، وسوف أعطيك قبلة رطبة».

قام بمحاولة متعثِّرة لعناق داني الذي ردَّ عليه بدفعة ودود من وركه، ثمَّ تمدَّد على الفراش وهو لا يزال يضحك ويسعل، وثوبه المرتخي وقدماه

المشعرتان تدوران في الهواء. حدَّق داني بيركينز إلى المشهد وهزَّ رأسه.

«أليس سكّيراً رهيباً، نقيب ماسكل؟»

«فيكتور»، قلت، «نادِني فيكتور».

في الوقت الحاضر سقط بوي في سبات السكران، رأسه الضخم استرخى على نحو طفوليٍّ بين يديه المضمومتين، ومؤخّرته المزغبة منتصبة. وضع داني فوقه بطّانيَّة برفق، ومعاً ذهبنا إلى المطبخ، حيث صبَّ داني، الذي كان لا يزال يرتدي صدّارته، لنفسه كوباً من الشاي الفاتر، وحرَّك فيه مقدار أربع ملاعق من السكَّر.

«أوه، أنا ظمآن»، قال، «لقد جعلني أشرب تلك الشمبانيا في الليلة الماضية، وهذا لا يلائمني أبداً». كانت بقعة ضوء الشمس قد تحرَّكت من على الأرضيَّة إلى الكرسيِّ، وهو الآن يستحمُّ بها. ملاك مبتسم، داكن، بكتفين عريضتين. رفع نظره نحو السقف «إذاً، أنت تعرفه منذ وقت طويل؟»

«كنّا في كمبردج معاً»، قلت، «نحن صديقان قديمان».

«وأنت يساريٌّ آخر، مثله».

«وهل هو يساريٌّ؟» هزَّ رأسه فحسب كإجابة وابتسم، فقلت: «وأنت، منذ متى تعرفه؟»

تفحَّص بثرة على ذراعه.

«حسناً، أنا مغنٍّ، كما ترى».

«مغنٍّ»، قلت، «يا إلهي، كيف...»

ابتسم إليَّ متسائلاً دون امتعاض، وترك الصمت ليستمرَّ. «كان والدي يغنِّي في الكنيسة»، قال، «كان لديه صوت جميل وعذب».

احمررتُ خجلاً، وقلت: «أنا آسف»، وهو، أومأ برأسه أن لا مشكلة،

وهذا ما كان الوضع عليه حقّاً.

«حصلت على دور في مسرحيَّة تشو تشين تشاو[112]»، قال، «كان أمراً رائعاً. وهكذا التقيت بالسيّد بانيستر. كان في سيَّارته عند باب المسرح في إحدى الليالي، ينتظر شخصاً آخر، لكنَّه عندئذ رآني، وحسناً...»، ابتسم لي ابتسامة متأمِّلة ماكرة، «رومانسيٌّ، أليس كذلك؟»، استغرق في تأمُّله، وجلس وكتفاه محنيَّتان، يرشف شايه، ويحملق بحزن في أعماق ذكرياته. «ثمَّ اندلعت هذه الحرب الحقيرة»، قال، «وهذه كانت نهايتي على متن السفن»، عبس لوهلة ثمَّ توهَّج، «لكنَّنا سنحصل على بعض المرح في لهو البريد هذا، أليس كذلك؟ لطالما كنت مولعاً بالقطارات».

حينئذ وصل نيك. كان يرتدي قميصاً مزخرفاً، وصدريَّة صفراء، ويحمل مظلَّة ملفوفة بيد، وباليد الأخرى قبَّعة بنِّيَّة.

«عطلة نهاية أسبوع في مالو[113]»، قال، «وينستون كان هناك». ألقى نظرة حادَّة باتِّجاه داني وأكمل: «أرى أنَّكما تقابلتما، بالمناسبة فيك، بيبي كانت تبحث عنك».

«ماذا؟»

نظر إلى إبريق الشاي «هل لا يزال الفحم ساخناً؟ صبَّ لنا كوباً، بيركينز، مثل شابٍّ طيِّب، هل ستفعل؟ يا يسوع، رأسي. شربنا البراندي حتَّى الرابعة صباحاً».

«أنت ووينستون؟»

---

(112) كوميديا موسيقيّة كتبها وأنتجها وأخرجها أوسكار آشي، وهو ممثل أستراليّ. تستند هذه الكوميديا في جوهرها إلى قصّة علي بابا والأربعون حرامياً. في عرضها الأوّل في بريطانيا استمرّت خمس سنوات متواصلة. حقّقت بعدها نجاحاً عظيماً في أميركا. وحوّلت إلى دراما سينمائيّة. (م)

(113) قرية في الريف السويسريّ. (م)

رمقني بإحدى نظراته المتبلِّدة.

«لقد ذهب للنوم»، قال.

مرَّر داني الشاي إليه، وهو اتكأ على المغسلة وكاحلاه منتصبان، يمسك بالكوب بكلتا يديه. صباح لطيف، أشعَّة شمس شهر سبتمبر الباهتة، ومثل سراب متلألئ عند حافَّة المنظر، كانت الاحتمالات غير المحدودة للمستقبل. من أين جاءت لحظات السعادة غير المتوقَّعة تلك؟

«ليو روذنستاين يقول إنَّه أجرى محادثة طويلة مع رئيس الوزراء قبل وصول بقيَّتنا»، قال نيك بصوته الجدِّي، «يبدو أنَّنا انتصرنا في الحرب الجويَّة على الرَّغم من المظاهر التي تقول عكس ذلك».

«حسناً، كان عملنا جيِّداً»، قال داني. نظر إليه نيك بحدَّة، لكنَّ داني ردَّ فحسب بابتسامة رقيقة.

عاود بوي الظهور من الطابق العلويِّ، ووقف يتمايل في الممرِّ. رباط (الروب دي شامبر) خاصَّته كان لا يزال مفكوكاً، لكنَّه ارتدى سروالاً تحتيّاً رماديّاً متدليّاً.

«بحقِّ المسيح، أيُّها القندس»، قال، «هل كنت في حفلة تنكريَّة؟ تبدو مثل وكيل مراهنات. ألم يخبره أحد قطُّ أنَّ اليهود غير مسموح لهم ارتداء بذلات تويديَّة؟ ثمَّة مرسوم دينيٌّ ضدَّه».

«أنت ثمل»، قال نيك، «كما أنَّها لم تتعدَّ الحادية عشرة بعد. وبحقِّ الله ارتدِ بعض الثياب، أيمكنك ذلك؟»

بوي، تمايل متردِّداً، ثمَّ حدَّق نيك تحديقة متجهِّمة، وتمتم بشيء، وترنَّح في طريقه إلى الطابق العلويِّ من جديد، والآن سمعناه، وهو فوقنا، يرفس أشياء ويشتم وهو سكران.

«أوه، اسمعا ذلك»، قال داني وهو يهزُّ رأسه.

«اذهب وروِّقه، هلَّا فعلت؟»، قال نيك، وداني هزَّ كتفيه بودّ، وخرج، يصفّر، ويضرب أرض الدّرج ببوطه الضخم. التفت نيك إليَّ، وقال: «هل تكلَّمت مع بيركينز في مسألة البريد وما إلى ذلك؟»

«نعم»، قلت، «هل أنت من فكَّرت حقّاً في هذه الخطَّة الماكرة؟»

نظر إليَّ بارتياب.

«نعم،لم؟»

«أوه، أنا أتساءل فحسب. ستكون مبتكرة إذا نجحت».

شخر.

«بالطبع ستنجح، ولم لا؟» اقترب وجلس على كرسيٍّ داني ووضع رأسه بين يديه. «هل تظنُّ»، قال بصوت ضعيف، «أنَّه بإمكانك إعداد المزيد من الشاي؟ رأسي سينفجر حقّاً».

اتَّجهت نحو المغسلة، وملأت الغلَّاية. أتذكَّر اللحظة: لمعة الضوء المعدنيَّة على خدِّ الغلّاية، النفحة الرماديَّة في مصرف المياه، وعبر النافذة فوق المغسلة أسطح المنازل بالطوب الأحمر في بيرويك ستريت.

«ماذا تريد فيفيين منّي؟»، قلت.

ضحك نيك ضحكة قاتمة «لقد حبَّلتها من جديد أيُّها الولد العجوز». قعقعت الغلّاية. نظر إليَّ عبر أصابعه بابتسامة قاتلة، «أو فعل ذلك شخص ما في أيِّ حال».

*

وهكذا، للمرَّة الثانية في حياتي، أجد نفسي، في الخريف، في قطار متَّجه

إلى أكسفورد مع مواجهة صعبة قائمة نصب عينيَّ. من قبلُ، كانت السيِّدة القندس هي من أسعى إلى رؤيتها، قبل أن تبدأ كلُّ هذه الحكايات، والآن هي ابنتها. المضحك في الأمر أنَّني كنت لا أزال أفكِّر في فيفيين بأنَّها واحدة من أسرة بريفورت. تقبَّلت كلمة ابنة، وكذلك أخت، لكن زوجة كانت كلمة لم أتصالح معها قطُّ. كان القطار بطيئاً، ورائحته كريهة للغاية- أتساءل من أين جاءت فكرة رومانسيَّة السفر بالقطار البخاريِّ؟- وكانت مقاعد الدرجة الأولى كلُّها محجوزة حين وصولي إلى شبَّاك التذاكر. كلُّ مقصورة فيها فريقها من الجنود، مع رتب أخرى مختلفة، مع الضابط الغريب الذي يشعر بالملل، ويدخِّن بشراهة، ويراقب بحزن مرير حقول إنكلترا المضاءة بنور الشمس التي تتدفَّق أمامنا. استكنت في مكاني بقدر ما أستطيع من أجل أن أنجز عملي- كنت أقوم بمراجعة محاضرات بوروميني التي كنت آمل أن أقنع القندس الكبير بجمعها وطبعها في كتاب- حين طوى أحدهم نفسه على نحو متمعِّج في المقعد إلى جانبي وقال:

«آه، الانفصال الرائع للعالِم».

كان كويريل. لم أكن مسروراً لرؤيته، ولا بدَّ من إظهار ذلك، لأنَّه ابتسم لي برضا شديد، وصالب ذراعيه ورجليه الطويلتين العنكبوتيَّتين، واستقرَّ بسعادة في المقعد. أخبرته أنَّني ذاهب إلى أكسفورد. «وأنت؟»

هزّ كتفيه، «أوه، أبعد من ذلك. لكنَّني سأغيِّر القطار هناك»، بليتشي إذاً، فكَّرت بدافع من الغيرة، «كيف تجد العمل هنا، في قسمك؟»

«آسراً».

أدار رأسه، وانحنى قليلاً إلى الأمام لينظر إليَّ.

«هذا جيِّد»، قال دون نبرة واضحة، «سمعت أنَّك تتشارك مسكناً مع

بانيستر ونيك بريفورت».

«لديَّ غرفة في بناء لليو روزذنستاين في بولاند ستريت»، قلت بصوت بدا دفاعيّاً حتَّى لأذنيَّ. أومأ برأسه، ونقر بإصبعه الطويلة على مقدّمة سيجارته.

«تركتك زوجتك، أليس كذلك؟»

«لا، إنَّها في أكسفورد، مع ابننا. أنا في طريقي لرؤيتها».

لماذا كنت أشعر دائماً بضرورة أن أشرح نفسي له. في أيِّ حال لم يكن يصغي.

«بوي يثير القلق. ألا تظنُّ ذلك؟»، قال.

أبقار، مزارع على جرَّار آليٍّ، نوافذ مصنع تلمع بأشعَّة الشمس فجأة.

«يثير القلق؟»

تحرَّك كويريل في مكانه، ثمَّ رمى رأسه وراءه، ونفث خطّاً من الدخان نحو سقف العربة.

«أسمع أنَّه يتنقَّل في أرجاء المدينة، في حانة ذا ريفورم، أو في حانة ذا غريفن. هو ثمل دائماً، ويصرخ طوال الوقت حول هذا الموضوع أو ذاك. كان غوبلز[114] من قال عنه بوي، في أحد الأيَّام، إنَّه يأمل في أن يستولي على هيئة الإذاعة البريطانيَّة حين ينتصر الألمان. وفي اليوم التالي أصبح الناطقَ بصوت ستالين. لا يمكنني التعامل معه»، أرجع وجهه من جديد لينظر إليَّ «هل يمكنك ذلك؟»

«هذا مجرَّد كلام»، قلت، «إنَّه سليم تماماً».

---

(114) يوزيف غوبلز (1897-1945)، سياسيّ ألمانيّ نازيّ. وزير الدعاية في ألمانيا (1933-1945). كان من المتفانين لهتلر. انتحر وزوجته بعد تسميم أطفالهما الستّة بالسيانيد في اليوم التالي لانتحار هتلر. (م)

«أنت تظنُّ ذلك؟»، قال بتمعُّن، «حسناً، أنا سعيد لسماع ذلك». سرح في تأمُّله لفترة من الزمن، وهو يقلِّب سيجارته، ثمَّ قال: «اسمح لي، أنا أتساءل فعلاً عمَّا يراه زملاؤك سليماً»، وابتسم ابتسامة الحرباء التي تخصّه، ثمَّ انحنى إلى الأمام من جديد، بعد أن وجَّه نظره نحو النافذة. «ها نحن ذان في أكسفورد»، قال ونظر إلى الورق على ركبتي، «أنت لم تنجز أيَّ عمل. حقّاً أنا آسف». شاهدني وأنا أجمع أوراقي. كنت قد نزلت إلى الرصيف حين ظهر عند الباب ورائي، وقال: «في أيِّ حال، بلِّغ تحيَّاتي زوجتَك، سمعت أنَّها تنتظر مولودا جديداً».

كنت أغادر المحطَّة حين رأيته، وكان بطبيعة الحال قد خرج من القطار وتخلَّف عن الآخرين عند مكتب التذاكر، متظاهراً بقراءة جدول الرحلات.

*

كانت فيفيين مستلقية على كرسيّ استرخاء على العشب، مع بطّانيَّة من الصوف على ركبتيها، وحزمة من المجلَّات اللامعة على العشب إلى جانبها. عند قدميها كانت ثمَّة صينيَّة مع بقايا عدَّة شاي؛ مربّى، وخبز بالزبد، وقدر فيه قشدة مخثَّرة. من الواضح أنَّ ظرفها لم يؤثّر في شهيَّتها. كان لون التجاويف المتورِّمة تحت عينيها أرجوانيّاً أكثر من المعتاد، وشعرها الأسود، كشعر نيك، كان قد فقد شيئاً من لمعانه. استقبلتني بابتسامة، وهي تمدّ يداً ملكيَّة باردة لأقبِّلها. تلك الابتسامة: حاجب منتوف ومرسوم ومقوَّس، شفتان مزمومتان كما لو كانتا تمنعان انفجار ضحكة كانت موجودة هناك بطبيعة الحال، في عينيها. «هل أبدو شاحبة ومثيرة للاهتمام؟»، قالت، «أخبرني أنَّني كذلك». وقفت أمامها على نحو أخرق فوق العشب. كان يمكنني رؤية أُمِّها، من زاوية

عيني، تختبئ بين أصص الزهر إلى جانب المنزل، متظاهرة بأنَّها لم تلحظ وصولي. تساءلت ما إذا كان القندس الكبير في المنزل، فهو بطبيعة الحال كان قد كتب إليَّ مشتكياً من تقنين الورق وفقدان أهمّ مؤلِّفيه لصالح الجيش.

«كم تبدو ذكيّاً»، قالت فيفيين، وهي ترفع ذراعها لتظلِّل عينيها وتمسحني إلى الأعلى والأسفل، «تماماً مثل جنديّ صامد».

«هذا ما يقوله بوي بانيستر أيضاً».

«حقّاً؟ ظننته يفضّل النماذج الأخشن»، وحرّكت المجلّات لتفسح مجالاً لي على العشب إلى جانب كرسيِّها، «اجلس، وأخبرني عن القيل والقال. أفترض أنَّ الجميع يتحلَّى بالشجاعة على الرَّغم من القذائف. حتَّى القصر ليس محصَّناً. ألم يكن شيئاً يُغصُّ كيف أنَّ الملكة استمالت أبناء الحيِّ الشرقيِّ الشجعان؟ أشعر أنَّني أقوم بدور المتهرِّب المرتعد هنا؛ ولن تصيبني الدهشة لو أنَّ إحدى قيِّمات أكسفورد وضعت ريشة صفراء عليَّ في شارع هاي ستريت ذات صباح، أم تراهم كانوا يضعون ريشاً أبيض على رافضي الخدمة العسكريَّة في آخر مرَّة كنَّا فيها هناك؟ ربَّما يجب أن أعلِّق لافتة حول عنقي تعلن عن حالتي، التكاثر لأجل بريطانيا. كما تعلم؟»

على مهل راقبت حماتي وهي تزحف على طول أصيص زهور الأضاليا، تنتزع قواقع الحلزونات، وتلقيها في دلو من الماء المالح.

«كويريل كان معي في القطار»، قلت، «هل كنت ترينه؟»

«أراه؟»، ضحكت، «ماذا تقصد بحقِّ السماء؟»

«أنا متعجِّب فحسب. هو يعرف بأمر... أنَّك...»

«أوه، لا بدَّ أنَّ نيك من أخبره».

كم كانت ظريفة! وضعت السيِّدة القندس دلوها، واستقامت وهي

تضغط بيدها على ظهرها الصغير، ونظرت حواليها مع عرض كبير للشرود، ولا تزال تتجاهلني.

«نيك؟»، قلت، «ولمَ يخبره نيك؟»

«إنَّه يخبر الجميع. يظنُّه حدثاً مضحكاً، لسبب ما. وأنا أتمنَّى لو أعرف الجانب المضحك فيه».

«لكن، لمَ قد يخبر كويريل؟ اعتقدت أنَّ أحدهما يكره الآخر».

«أوه، لا، إنَّهما غبيَّان كلصَّين، كلاهما، أليس كذلك؟»، استدارت في كرسيِّها لتنظر إليَّ، «ماذا تقصد؟ هل كنت أقابل كويريل؟»، لم أقل شيئاً، ووجهها فقد تعبيره وأصبح جامداً. ثمَّ قالت: «أنت لا تريد هذا الطفل، أليس كذلك؟»

«لمَ تقولين هذا؟»

«هذا صحيح، أليس كذلك؟»

هززت كتفي.

«الوقت ليس ملائماً»، قلت، «مع هذه الحرب، والأسوأ قادم حين تنتهي على الأرجح».

تأمَّلتني مبتسمة.

«يا لك من وحش بلا قلب، فيكتور»، قالت بتعجُّب.

أشحت بنظري بعيداً.

«آسف»، قلت.

تنهَّدت، وبدأت تنتف بأظافرها القرمزيَّة البطَّانيّةَ في حضنها.

«وأنا كذلك»، قالت. استطعنا بصعوبة سماع أجراس صلاة المساء في كنيسة المسيح. «ستكون بنتاً».

«كيف تعرفين؟»

«أنا أعرف فحسب»، تنهَّدت من جديد بخفَّة حتَّى بدت كأنَّها تضحك تقريباً، «الصغيرة المثيرة للشفقة».

خرج القندس الكبير من المستنبت الزجاجيّ، يرتدي بنطالاً قصيراً، وسترة صيد- يا له من رجل سخيف- وكما يبدو، يعتزم أن يقول شيئاً لزوجته التي تقلِّب الطين بمجرفة الآن وهي جالسة على ركبتيها، ومؤخِّرتها العريضة باتِّجاه مرج العشب. وحين مشاهدتنا، فيفيين وأنا، تراجع ببراعة إلى داخل الممرّ، واختفى مثل خيال وراء الزجاج والمساحات الخضراء.

«هل ذهبت إلى الشقّة؟»، قالت فيفيين، «ألم تنفجر، أو شيء من هذا القبيل؟»

«لا. أقصد أنَّها لم تقصف. بالطبع كنت هناك».

«لأنَّه تشكَّل لديَّ انطباع، في الواقع، بسبب نيك، أنَّك كنت تقضي معظم وقتك في بولاند ستريت. وافترضت أنَّ الحفلات لا بدَّ كانت ممتعة. أخبرني نيك أنك اقتحمت إحدى عمليَّات الطبيب لأجل عظام مطَّاطيَّة لتعضَّ عليها حين يبدأ القصف»، توقَّفت، «أنا أكره الحياة، كما تعلم»، ثمَّ بانفعال رقيق، «أشعر أنَّني شخصيَّة من الإنجيل، أرسلت إلى منزل آبائها للتكفير عن نجاستها. أنا أريد حياتي. هذه ليست حياتي».

استقامت السيِّدة القندس من جديد لتريح ظهرها، ولم تعد قادرة على الاستمرار في التظاهر، على نحو محترم، بعدم رؤيتها لي، فقدَّمت بدايةً مبالغاً بها؛ حدَّقتني، ولوَّحت بمجرفتها.

«هل تظنِّين»، قلت بسرعة، «أنَّك ربَّما... تجهضين الجنين».

رمقتني فيفيين بتلك النظرة من جديد، أكثر قسوة من قبل.

«هي»، قالت، «أو هو، إذا كان، من قبيل المصادفة المجنونة، حدسي الأنثويّ مخطئاً. لكن لا تستخدم ضمير غير العاقل[115]».

«لأنَّ الشيء الذي لا ماضي له»، تابعت بإصرار، «ليس حيّاً بعد، أليس كذلك؟ الحياة هي الذاكرة؛ الحياة هي الماضي».

«يا إلهي»، قالت بفرح، وعيناها تتلألآن بالدموع، «يا له من بيان مثاليّ لفلسفتك! إذ إنَّه بالنسبة إلى البشر، يا عزيزتي، الحياة هي الحاضر. الحاضر والمستقبل. ألا تعين ذلك؟». كانت السيِّدة ب. قد وقفت على قدميها، وتتجه نحونا، وقد انتفخت تنّورتها الضخمة. وفيفيين كانت لا تزال تتأمّلني بابتهاج، والدموع تتغلغل في عينيها. «لقد أدركت شيئاً للتوِّ»، قالت، «أنت جئت إلى هنا طالباً الطلاق، أليس كذلك؟»، ضحكت ضحكة صغيرة رخيمة، «أنت بالفعل جئت لأجل ذلك، يمكنني رؤية الأمر في عينيك».

«فيكتور»، صرخت السيِّدة القندس، «يا لها من مفاجأة جميلة».

*

مكثت حتَّى العشاء. كان الحديث في مجمله عن خطوبة نيك. القندسان الكبيران جذلان للغاية: سيلفيا لايدون، الوريثة المحتملة، كانت صيداً ثميناً، حتَّى لو كانت بضاعة كاسدة معروضة في متجر. أمَّا جوليان، الذي بلغ من العمر سنة الآن، فقد بكى بشدَّة حين رفعته إلى الأعلى وأجلسته على ركبتي. أُحرج الجميع، وحاولوا تغطية الأمر بالضحك والحديث مع الطفل، لكنَّه لم يهدأ، وفي النهاية تخلَّيت عنه لأمِّه. أشرت إلى شبهه بنيك- لم يكن كذلك حقّاً، لكنَّني فكَّرت في أنَّ القنادس سيكونون سعداء بملاحظتي هذه-

---

(115) استخدم البطل/فيكتور في الجملة السابقة ضمير it للإشارة إلى الجنين، وهو ضمير غير العاقل في اللغة الإنكليزيَّة، وفيفيين تطالبه باستخدام ضمير *he* للمذكَّر أو *she* للمؤنَّث. (م)

لكنَّ الملاحظة لسبب ما جعل فيفيين تحدِّقني تحديقاً مخيفاً. تحدَّث القندس الكبير بمرارة عن انهيار فرنسا؛ بدا أنَّه ينظر إلى المسألة كما لو كانت إهانة شخصيَّة، كما لو أنَّ الجيش الأوَّل للجنرال بلانشارد قد تخلَّى عن واجبه الأساسيِّ الذي كان، بالتأكيد، التصرُّف كعازل بين القوَّات الألمانيَّة المتقدِّمة وضواحي شمال أكسفورد. قلت إنَّني فهمت أنَّ هتلر قد غيَّر رأيه، وهو لا يتَّجه نحو محاولة الاحتلال الآن. اكفهرَّ القندس الكبير، «محاولة؟»، قال بصوت عالٍ، «محاولة؟ ويدافع عن الساحل الجنوبيِّ الشرقيِّ موظَّفو تأمين متقاعدون مسلَّحون ببنادق خشبيَّة. كان بإمكان الألمان أن يتجوَّلوا في زورق مطاطيٍّ بعد الغداء، وعند العشاء يكونون في لندن». كان قد وصل إلى درجة مرتفعة من الإثارة؛ جلس يستشيط غضباً عند رأس الطاولة، وهو يدوِّر فتيت الخبز بأصابعه السمر الطويلة، وأنا كنت أبحث عن طريقة لأقدِّم موضوع كتابي عن بوروميني؛ تراجعت عن ذلك حزيناً الآن لإدراكي أنَّ الوقت غير مناسب. حاولت السيِّدة ب. وضع يدها على يده لتواسيه، لكنَّه أبعدها بنفاد صبر. «لقد انتهت أوروبا»، صرخ فينا غاضباً ونكس رأسه حزيناً، «انتهت». الطفل الملتصق على نحو تملُّكيٍّ بصدر أمِّه، امتصَّ إصبعه وطالعني باستياء ثابت وعين لا تطرف. وجدت نفسي، في داخلي، أقوم بشيء مثل عواء ذئب-أوه، أيُّها الربُّ! حرِّرني، حرِّرني!- وألقيت نظرة إليهم على نحو مذنب، غير واثق من أنَّ صراخي الصامت كان كثيفاً بما يكفي كي يُسمع. لـمَّا كنت أغادر، وقفت فيفيين معي على الدرجات الأماميَّة، في حين كان القندس الكبير، المتبرِّم من حِصَّته في البنزين، يخرج السيَّارة ليوصلني إلى المحطَّة.

«أنا لن أفعل ذلك، كما تعرف»، قالت وهي تبتسم، لكنَّ الغضب كان يرتعش في جفنيها.

«لن تفعلي ماذا؟»

(حرّريني!)

«لن أطلِّقك»، لمست يدي، «حبيبي المسكين أخشى أنَّك عالق بي».

*

كم هو لطيف! -الآنسة فانديلور أحضرت لي هديَّة الإكس ماس (هكذا لفظتها[116])، وهي زجاجة نبيذ. لم أطق الانتظار حتَّى تغادر وأفضَّ الهديَّة. نبيذ كلاريت بلغاري. أشكُّ أحياناً في أنَّ لديها روح دعابة، أو هل أنا جافٌّ؟ ربَّما كانت الإيماءة صادقة جداً. هل ينبغي أن أخبرها بما أخبرني إيَّاه تاجر النبيذ الذي يخصّني في أحد الأيَّام، أنَّ الجنوب أفريقيِّين يبيعون نبيذهم بكميَّات كبيرة للبلغار الذين يعبِّئونه تحت علامتهم التجاريَّة المقبولة سياسيّاً، ثمَّ يبيعونه إلى كلِّ أولاء اليساريِّين الليبراليِّين في الغرب؟ لكن بالطبع لن أفعل ذلك. يا لي من عجوز مشاكس، حتَّى حين أفكِّر في هذا الأمر.

---

(116) لفظتها بهذي الطريقة إكس ماس Xmas، كما تُلفظ اختصاراً لـ(الكريسماس) أو عيد الميلاد. (م)

شكَّلنا فريقاً رائعاً: داني بيركينز، ألبرت كليغ، وأنا. كان ألبرت قد عمل في فترة تدريبه المهنيِّ في معمل «لوب» لصناعة الأحذية؛ كان أحد أولاء العباقرة العوام الذين استخدمتهم الطبقة العاملة بوفرة قبل ظهور موجة محو الأميَّة العالميَّة. كان شاباً صغيراً، أقصر حتَّى من داني، وأنحف منه. لـمَّا كنا نجتمع، ثلاثتنا، ونحن في مهمَّة تعقُّب ملفٍّ، أسفل منصَّة سكَّة القطار، في سبيل المثال، لا بد أنَّنا كنَّا نبدو مثل صورة توضيحيَّة من مقرَّر التاريخ الطبيعيِّ المدرسيِّ، مظهرين تطوُّر الإنسان من قزم بدائيٍّ، لكن لا يفتقد الجاذبيَّة، إلى فلَّاح قويِّ البنية، لنصل إلى أنموذج الجنس البشريِّ في العصر الحاليِّ، الإنسان العاقل، الشاذِّ، المعتدل في وقفته، المتملِّق، المتزوج والمرهون. أحبَّ ألبرت حرفته فعلاً، مع أنَّها كانت أحياناً تعذِّبه وتثير غضبه أيضاً، فقد كان مهووساً بالكمال. في عمله لديه حالتان: تركيز عميق إلى درجة قريبة من التوحُّد، وغضب محبط. لم يكن ثمَّة شيء مناسب لديه على الإطلاق، أو مناسب بما يكفي؛ المعدَّات التي كان يعمل بها كانت دائماً رديئة، والخيوط خشنة جدّاً أو رقيقة جدّاً، والإبر كليلة، والمخرز مصنوع من فولاذ رديء. ولم يكن ثمَّة وقت كاف لإنهاء العمل بالمعايير التي تخيَّلها، وترضيه.

كان هو وداني دائمي الشجار؛ بصوت خفيض أقرب إلى الهسيس، وأعتقد أنَّ شجارهما، في غيابي، كان ينحدر إلى مستوى العراك. لم تكن رتبتي ما كانت تكبحهما، كما أظنُّ، إنَّما ذاك التحفُّظ، ورغبتهما الدائمة

في إظهار أفضل ما لديهما أمام الرتب الأعلى، ما كان أكثر سماتهما جاذبيَّة. كان داني يقف في مدخل مقصورتنا، يبدِّل مرتعشاً بين قدم وأخرى، ويصفِّر تلك الصفرة المتوتِّرة التي تكاد تكون بلا صوت، ويقوم بها دائماً، في حين يجثم ألبرت على المقعد المتأرجح مقابلي، مثل قزم غاضب يلبس الكاكي، وحقيبة إرساليَّة الحكومة البولنديَّة في المنفى على ركبته، يفكُّ درزاتٍ كان للتوِّ قد أنجزها بشقِّ النفس، مستعدّاً لبدء العمل كلِّه من جديد. في الأثناء، في المقصورة الثانية، يكون ياروسلاف، الساعي، في غيبوبة بسبب الفودكا وكافيار البلطيق الذي أغرقه به داني طوال المساء، يتقلَّب في سرير القطار؛ يحلم بالمبارزات ومهمَّات الفرسان، أو أيّاً ما كانت أحلام النبلاء البولنديِّين غير المهمِّين تدور حولها.

قدَّمنا أكثر من المشروبات القويَّة، والمواد الغذائية الوفيرة. كانت هناك امرأة شابَّة تدعى كريستي تسافر معنا، امرأة ناعمة صغيرة، بشعر أحمر مشرق، وبشَرة خزفيَّة، ولهجة أهل أدنبرة صافية على نحو رائع. لا أذكر أين وجدناها. كان بوي يلقِّبها بمصيدة فينوس[117]. كانت متفانية في عملها، بأسلوبها الخاصِّ بقدر ما كان ألبرت متفانياً، فكانت تظهر في ممرِّ القطار، بعد ليلة صعبة أمضتها وهي تسلِّي ساعي بريد إستونيّاً عمره ثماني عشرة سنة، ومظهرها يقول إنَّها لم تفعل شيئاً أكثر من الاستمتاع بساعة ممتعة في ثرثرة لطيفة مع صديق صغير في أحد المقاهي التي تقدِّم الشاي في برينسيز ستريت. ولـمَّا لا تكون ثمَّة حاجة إلى خدماتها، كانت تجلس معي، ترتشف من قنينة الويسكي التي تخصّني، («ماذا كان أبي ليقول لو عرف أنَّني أشرب مشروباً إيرلنديّاً!»)، وتخبرني عن خططها لفتح متجر للخردوات حينما

(117) إحدى النباتات آكلة اللحوم تتغذّى على الحشرات مثل النحل والذباب والعنكبوتيّات، وتسمّى أيضاً خنّاقة الذباب. (م)

تنتهي الحرب وتكسب ما يكفي لعمل عقد إيجار. كانت ملحقاً غير رسميّ لفريقنا -كان ليُفضَح بيلي ميتشيت- وقد موّلتها بسخاء كبير خارج ما كنت أدرجته كمصاريف عمليّات. اضطررت إلى إبعادها عن طريق ألبرت أيضاً، لأنَّه كان متزمِّتاً إلى حدٍّ ما. لا أعرف ما كان يتخيَّل أنَّه كان يحدث في تلك الليالي حين رُفضت كريستي، وبدلاً من ذلك اندسَّ داني في المقصورة المجاورة، ولم يظهر حتَّى بزغ الفجر فوق المرتفعات الجنوبيَّة.

واجهتنا بعض المرَّات التي نجونا فيها بأعجوبة. كان هناك التركيُّ الذي ظهر في الممرِّ بثيابه الداخليَّة، بعد بضع دقائق فقط قضاها مع كريستي، في الوقت الذي كان فيه ألبرت قد استهلَّ عمله في حقيبة إرساليَّة الشابّ بالمخرز والشفرة. لحسن الحظّ، كان التركيُّ يعاني من مشكلة في البروستات، وفي الوقت الذي عاد فيه من تفريغ مثانته التي لا بدَّ كانت بحجم كرة قدم، بدا متألِّماً ومرتاباً بالقدر نفسه، كان ألبرت قد خاط الدرزات القليلة التي كان قد فكَّها، وكنت قادراً على إقناع عبدول أنَّ رجلي لم يكن يعبث بحقيبته طبعاً، بل بالعكس، كان فحسب يتأكَّد من أنَّ كلَّ شيء سليم. إنَّما في بعض الحالات كان يتوجَّب علينا اتِّخاذ تدابير صارمة. اكتشفت أنَّ لديَّ موهبة في التهديد. حتَّى لـمَّا كان في مقدورنا التسبُّب بأذىً حقيقيّ، كان ثمَّة شيء ما بالطريقة الموحية اللطيفة التي أوجِّه فيها تهديدي يثبت أنَّها مقنعة. كان الابتزاز، ولا سيّما الجنسيُّ، أكثر فاعليَّة في تلك الأوقات العصيبة ممَّا هو عليه الآن. ولا يزال أكثر فاعليَّة حين كان داني، وليست كريستي، هو الطعم. أتذكَّر أنَّه كان هناك برتغاليٌّ سيِّئ الحظّ، شابٌّ في منتصف العمر بطريقة مشي أرستقراطيَّة يحمل اسم فونسيكا، سقط سقوطاً مروِّعاً. أمضيت وقتاً طويلاً أنظر في أوراقه، ولم يكن لديَّ سوى فهم أوليٍّ باللغة، لـمَّا

أدركت تبدُّلاً في جوِّ المقصورة، وسعل ألبرت، وأنا رفعت نظري لأجد سينيور فونسيكا، مرتدياً (روب دي شامبر) من أروع أنواع الحرير الأزرق، أزرق كما السماء في كتاب الساعات[118]، يقف في الممرِّ يراقبني. عرضت عليه الدخول، ودعوته إلى الجلوس، فرفض. كان مهذَّباً، لكن من ناحية أخرى كان وجهه الشاحب ينضح بالغضب. داني، الذي كان قد أمضى ساعتين شاقَّتين معه في وقت أبكر، كان نائماً في مقصورة غير قريبة. أرسلت ألبرت لإحضاره، فجاء يتثاءب ويحكُّ بطنه. وبعد أن سألت ألبرت أن يخرج إلى الممرِّ من أجل التدخين، جلست للحظة صامتاً، أراقب مقدِّمة حذائي. لطالما كان لحالات الصمت كهذه تأثير يفقد الأعصاب حتَّى لدى أكثر ضحايانا غضباً -ضحايا، أفترض أنَّها الكلمة الوحيدة المناسبة. حدَّثني فونسيكا بترفُّع وهو يطالب بتفسير، لكنّي قاطعته، وأشرت إلى قوانين مكافحة الشذوذ الجنسيّ، وأشرت إلى زوجته وأطفاله -«اثنان، أليس ذلك صحيحاً؟»- كنَّا نعرف كلَّ شيء عنه. تثاءب داني، وأنا قلت: «أليس من الأفضل لو أنَّ ما حصل هذه الليلة، كلّ شيء حصل هذه الليلة، لو يُنسى؟ أضمن لك حرّيَّة التصرُّف المطلقة بالطبع، ولديك وعدي كضابط».

كان المطر الأسود يتساقط من الظلام في الخارج، ويضرب بخشونة على النافذة المضيئة للقطار السريع. تخيَّلت الحقول، والمزارع الجاثمة، والأشجار الضخمة وقد تكثَّفت بالظلام الذي يرتفع مع الريح؛ وفكَّرت كيف أنَّ هذي اللحظة -ليل، عاصفة، هذا العالم الصغير المضاء المندفع سريعاً، المحبوسون داخله- لن تعود مرَّة أخرى أبداً، واخترقني حزن غريب. الخيال لا يوجد فيه شعور غير ملائم. كان فونسيكا يحملق فيَّ، وأدهشني كم كان

(118) كتاب تستخدمه الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة، يحتوي سبع صلوات مرتّبة زمنيّاً، وكلّ صلاة تعبّر عن مرحلة من مراحل يسوع في الأرض. (م)

يشبه تصويرَ دروشاوت[119] لشكسبير، بجبهته كالقبَّة، والخدَّين المقعَّرين، والعينين المؤرَّقتين الحذرتين. طويت الوثائق على ركبتي وأرجعتها إلى حقيبة الإرساليَّة.

«سيأتي الجنديّ كليغ إلى هنا، ليخيط هذا»، قلت، «إنَّه خبير؛ ولن يعلم أحد بهذا».

رمقني فونسيكا بنظرة غريبة مستسلمة.

«لا»، قال، «لن يعرف أحد»، واستدار نحوي داني، «هل يمكنني الحديث إليك؟»

قام داني بإحدى حركات رفع الكتفين الخجلى التي تخصّه، ثمَّ خطوَا، هو وفونسيكا، نحو الممرِّ. نظر إليَّ فونسيكا من جديد من وراء كتفه وأغلق الباب وراءهما. في الوقت الحاضر عاد ألبرت كليغ.

«ما الأمر مع البرتغاليّ، يا سيِّدي؟»، قال، «إنَّه هناك في أسفل الممرِّ، إلى جانب المرحاض مع بيركينز. أظنُّه يبكي»، ضحك ضحكة صغيرة، «هل رأيت هذا الشيء الذي كان يرتديه، الشيء الأزرق؟ بدا وهو يرتديه مثل قوَّاد لعين»، ثمَّ قطَّب جبينه، «اعذرني للغتي، سيِّدي».

بعد ذلك بثلاث ساعات وصلنا أدنبرة مدفوعين تحت سماء ملطَّخة وغاضبة. أرسلت كليغ ليوقظ فونسيكا. عاد بعد لحظة، يبدو مشمئزّاً، وقال إنَّ من الأفضل أن آتي وأرى بنفسي. كان البرتغاليُّ على أرضيَّة مقصورته، محشوراً في المساحة الضيّقة إلى جانب السرير المرتَّب، وجزء من رأس الشاعَر خاصَّته متفجِّر من جرَّاء طلق ناريّ، وثوبه الأزرق الرائع مرشوش

---

(119) مارتن دروشاوت (1601-1650)، نحّات إنكليزيّ من أصل فلمنكيّ. اشتهر بصورة البورتريه الخاصّة بوليام شكسبير التي زيّنت غلاف مجموعة أعماله، وطبعت عام 1623، ولا تزال حتّى الآن البورتريه الأكثر شيوعاً وتداولاً للكاتب العظيم. (م)

بالدم وفتات دماغه. انزلق مسدَّس من قبضة يده؛ لاحظتُ يده النحيفة الطويلة. في وقت لاحق، بعد أن أزال موظَّفونا الجثَّة، ونظَّفوا الفوضى، وكنَّا في طريق عودتنا إلى لندن، سألت داني عمَّا قاله له فونسيكا في الممرِّ، فأدار وجهه ونظر خارجاً إلى مناظر الطبيعة المخضلَّة التي كان يزحف عبرها قطارنا المحمَّل بالقوَّات.

«أخبرني أنَّه يحبُّني، وأشياء من هذا القبيل»، قال، «وطلب إليَّ أن أتذكَّره، وأموراً عاطفيَّة أخرى».

راقبته بإمعان.

«بيركينز، هل كنت تعلم ما كان مُقدماً عليه؟»

«أوه، لا سيِّدي»، قال مصدوماً، «في أيِّ حال، لا يمكننا القلق بشأن هذا النوع من الأشياء الآن، أليس كذلك؟ ثمَّة حرب مندلعة أصلاً». تلك العينان الصافيتان الواضحتان، بلون بنّيّ لامع، وبياض مزرق، وأهداب طويلة سود. أتذكَّره، مرتدياً صدريَّته، وهو يسقط على ركبة واحدة إلى جانب جثَّة فونسيكا، وبرفق يرفع يدَي الشابِّ المسكين، ويطويهما فوق صدره الملطَّخ بالدماء.

*

مرَّرت لأوليغ أيَّ شيء من الحقائب الدبلوماسيَّة التي ظننت أنَّها قد تكون ذات أهميَّة لموسكو -لم يكن من السهل معرفة ما إذا كان هذا الخيار أو ذاك يمكن أن يثير الرفاق، أو يحرِّك صمتهم المتجهِّم. لا أرغب في التباهي، لكنَّني أعتقد أنَّه يمكنني القول إنَّ الخدمة التي قدَّمتها من هذا المصدر لم تكن متواضعة. لقد قدَّمت على نحو منتظم تقديرات محدَّثة،

موثوقة إلى حدٍّ ما، لتنظيم وجاهزيَّة مختلف صنوف قوات العدوِّ الممتدَّة على طول الحدود الروسيَّة من إستونيا حتَّى البحر الأسود. وقدَّمت الأسماء، وغالباً مكان وجود العملاء الأجانب الفاعلين في روسيا، وكذلك قوائم المناهضين للاتِّحاد السوفييتيِّ في هنغاريا، وليتوانيا وبولندا الأوكرانيَّة -لم يكن لديَّ أيُّ أوهام بخصوص المصير المحتمل لأولاء التعسين. كما ضمنت أيضاً عدم انتهاك إرساليَّات موسكو حين نشرت قصَّة مفادها أنَّ حقائب السوفييت الخاصَّة كانت مفخَّخة، وستنفجر في وجه أيِّ شخص يعبث بها؛ كانت حيلة بسيطة، لكنَّها كانت فعَّالة على نحو مذهل. أصبحت حقائب موسكو المتفجِّرة جزءاً من أساطير الوكالة، وبدأت الحكايات تنتشر عن سعاة بريد وجدوا متمدِّدين تحت وافر من الوثائق الممزَّقة وأيديهم وأنصاف رؤوسهم كانت قد فُجِّرت.

إلا أنَّ أكثر ما كان يثير اهتمام موسكو هو طوفان المعلومات المخابراتيَّة القادمة من بليتشلي بارك. تمكَّنت من الوصول إلى قدر كبير من هذه المواد من مكتبي في الوكالة، لكن كانت ثمَّة ثغرات واضحة، حيث تمَّ حجب بعض أكثر الاعتراضات حساسيَّة. وبناء على إلحاح أوليغ سعيت إلى تعيين نفسي في بليتشلي كمحلِّل شيفرة، مستشهداً بمهاراتي اللغويَّة، وبراعتي في الرياضيَّات، وتدريبي في فكِّ شيفرة اللغة الغامضة لفنِّ التصوير، وذاكرتي الاستثنائيَّة. أعترف بالأحرى بأنَّه استهواني أن أكون عالِم بليتشلي. حثثت نيك على أن يذكر اسمي لدى الأشخاص الغامضين في المراتب العالية الذين يدَّعي أنَّهم أصدقاؤه، لكن دون نتيجة. بدأت أتساءل عمَّا إذا كان ينبغي أن أقلق: ذلك الدليل ضدِّي من أيَّام دراستي في كمبردج، ذلك النجم الأحمر ذو الرؤوس الخمسة الذي اكتشفه باحثو بيلي ميتشيت في سماء ملفِّي، كان لا

يزال متلألئاً هناك، على الرَّغم من وعد نيك بأن يطفئه؟

ذهبت إلى كويريل وطلبت إليه أن يوصي بي من أجل النقل. انحنى على كرسيه ووضع قدماً طويلة هزيلة على زاوية مكتبه، ونظر إليَّ بصمت للحظة. لطالما كان صمت كويريل يحمل تلميحاً لضحكة مكبوتة.

«إنَّهم لا يقبلون بأيِّ شخص كما تعلم»، قال، «هؤلاء الناس هم الأفضل على الإطلاق -أدمغة من الدرجة الأولى حقّاً. إلى جانب ذلك، يعملون حتَّى الموت، نوبات لمدَّة ثماني عشرة ساعة، وسبعة أيَّام في الأسبوع؛ هذا ليس نوعك المفضَّل في العمل، أليس كذلك؟»، كنت أمشي مبتعداً عنه حين ناداني، «لمَ لا تتكلَّم مع صديقك الحميم سايكس؟ لديه سلطة هناك؟»

بدا ألاستير، حين اتَّصلت به، غامضاً وهستيريّاً في الحال، ولم يكن سعيداً لسماعي.

«أوه، بالله عليك، أيُّها الذكيُّ»، قلت، «يمكنك أن تأخذ ساعة راحة من كلماتك المتقاطعة. سأشتري لك نصف ليتر من البيرة».

كان بإمكاني سماعه يتنفَّس، وتخيَّلته يحدِّق سمَّاعة الهاتف على نحو بائس، مثل أرنب محاصر، وأصابعه البدينة والقصيرة يجريها في شعره الشائك.

«أنت لا تعرف كيف هو الوضع هنا، فيك، إنَّه مستشفى مجانين رهيب».

قدت إحدى سيَّارات الوكالة. كان ذلك في أوَّل الربيع، لكنَّ الطرق كانت ملبَّدة بالجليد. زحفت إلى داخل بليتشلي وقت الغسق في ضباب متجمِّد. صرف زوج من الحراس عند البوابة وقتاً طويلاً حتَّى سمحا لي بالمرور. كانا شابَّين تكسوهما البثور، ومؤخَّرتا عنقيهما محلوقتان، وتبدوان ملتهبتين، وقبَّعتاهما بدتا كبيرتين جدّاً بالنسبة لرأسيهما النحيلين المجوَّفين؛ في أثناء فحصهما أوراقي، كانا عابسين ويحكَّان فكَّيهما الأزغبين. ربَّما كانا اثنين من

تلاميذ المدارس قلقين من واجباتهما المدرسيَّة. ربضت خلفهما الأكواخ في الضباب، وهنا وهناك كان ثمَّة نافذة تتوهَّج على نحو باهت بمصباح شاحب. قابلني ألاستير في المقصف، وهو كوخ طويل منخفض تنبعث منه رائحة الشاي المغليّ ورقاقات البطاطا المقليَّة. أرواح قليلة منعزلة كانت مبعثرة بين الطاولات، هبطت في هيئة رجال فوق أكواب شاي ومنافض سجائر ممتلئة.

«حسناً، أيُّها الشبَّان، أنتم حقّاً تسترخون في حضن الرفاهية هنا، أليس كذلك؟»، قلت.

بدا ألاستير بائساً. كان نحيلاً ومحدودباً، وبشرته ارتدت غشاءً رماديّاً رطبّاً. ولـمَّا أشعل غليونه اهتزَّ عود الثقاب بين أصابعه.

«إنَّه بدائيٌّ جدّاً، لكن لا بأس»، قال وهو غاضب قليلاً، كأنَّه مدير مدرسة وأنا أشكُّ في قدرات مدرسته، «لقد وعدونا بالتحسينات، لكنَّك تعرف كيف هي الأمور. تشرشل نفسه جاء وقدَّم لنا واحدة من خطبه اللاهبة- عمل حيويٌّ، الاستماع إلى أفكار العدو، وكلُّ هذه الأشياء. شخص قبيح قليلاً، عن قرب. ليس لديه أدنى فكرة عمَّا نفعله هنا في الحقيقة. حاولت أن أشرح له شيئاً عن عملنا، لكن كان بوسعي رؤية أنَّ كلامي دخل في أذن وخرج من الأخرى». جال بنظره في المكان، وتنهَّد، ثمَّ قال: «الضجَّة هي أسوأ شيء، تلك الآلات الصاخبة التي تطقطق أربعاً وعشرين ساعة في اليوم».

«أرى بعض الموادّ التي تنتجونها»، قلت، «لكن ليس كلَّها»، رمقني بنظرةٍ حادّة، فقلت: «اسمع، دعنا نذهب إلى الحانة، هذا المكان فظيع».

إنَّما، لم يكن حال الحانة أفضل بكثير، على الرَّغم من وجود موقد نار. شرب ألاستير البيرة، فغمس شفته الملتفَّة في الرغوة، وامتصَّ جرعات من

الشراب الدّافئ غطَّت خدَّيه، وتحرّكت تفاحة آدم خاصَّته. أراد أن يعرف كيف كانت تجري الحرب. «أنا لا أقصد الدعاية السياسيَّة في الصحف. ما الذي يجري فعلاً؟ نحن لا نسمع شيئاً هنا. مهزلة مروِّعة، أليست كذلك؟»

«ستكون حرباً طويلة»، قلت، «يقولون سنوات؛ ربَّما عقد من الزمن».

«أيُّها المسيح»، كوَّر جبهته بين يديه، وحدَّق بعبوس في البقعة المتجعِّدة المتشكِّلة من تلاقي مرفقيه، «أنا لن أتحمَّل»، رفع رأسه ونظر حوله بحذر، «فيكتور»، همس، «متى تظنُّ أنَّهم سيأتون؟»

«يأتون؟»

«أنت تعرف من أقصد»، ابتسم بقلق، «هل هم جاهزون، أتظنُّ ذلك؟ أنت كنت هناك... إذا اخترقوا...»

«لن يخترقوا»، قلت، وضعت يدي على ذراعه، «ليس حين يكون لديهم نحن لمساعدتهم: بوي، وأنا... وأنت».

ألصق فمه بالبيرة من جديد واجترع بلعة طويلة.

«لا أعتقد هذا»، قال، «أقصد نفسي».

بقينا لمدَّة ساعة. وبصرف النظر عن أنصاف الليترات التي طلبتها له لم يتحدَّث عن عمله. سأل عن فيليكس هارتمان.

«رحل»، قلت، «عاد إلى القاعدة».

«أكان اختياره؟»

«لا؛ لقد تمَّ استدعاؤه».

جلب ذلك صمتاً محرجاً.

كان من المقرَّر أن تبدأ نوبة ألاستير عند التاسعة. لـمَّا نهض من مقعده بدا مهزوزاً غير ثابت على قدميه، وفي السيَّارة انهار مسترخياً إلى جانبي؛

ذراعاه الصغيرتان القصيرتان مطويتان بإحكام، يتنهَّد ويتجشَّأ بهدوء. عند البوَّابة، كان ثمَّة اثنان جديدان في الحراسة. بدوَا أصغر سنّاً من الاثنين السابقين، حدَّقانا، ولـمَّا رأيا ألاستير لوَّحا لنا للعبور.

«ليس من المفترض أن يفعلا ذلك»، قال ألاستير بصوت ثقيل، «سأخبرهما في الصباح»، ضحك، «فربَّما كنَّا زوجاً من الجواسيس!»

عرضت عليه أن أنزل عند مكان إقامته- كان الطقس قد أصبح الآن قارساً، وإطفاء الأنوار ساري المفعول- لكنَّه أصرَّ على أن نتوقَّف قبل أن نصل هناك، الآن أراد أن يريني شيئاً ما. أوقفت السيَّارة عند أحد الأكواخ الكبيرة. ولـمَّا اقتربنا من الباب سمعت، أو بالأحرى شعرت، من خلال باطن حذائي بضجيج هادر مكتوم في الداخل. آلات فكِّ التشفير، بلون برونزيٍّ، آلات كبيرة بقياس خزانة ملابس، كانت تضخُّ وتطرق بنوع من الجدّيّة الهزليَّة، مثل حيوانات حمقاوات كبيرات بليدات تحلَّقت حول حلقة سيرك تؤدِّي حيلها المسعورة المملَّة. فتح ألاستير إحداها ليريني صفوف العجلات التي تدور وتطقطق على قضبانها. «متسوِّلون قبيحون، أليسوا كذلك؟»، صرخ ألاستير بسعادة. خرجنا من جديد إلى حيث الهواء البارد اللاذع. تعثَّر ألاستير، وكان من الممكن أن يسقط لولا أنَّني أمسكته. تلاحمنا للحظة على نحو أرعن في الظلام. كانت تفوح منه رائحة بيرة وملابس غير مغسولة ودخان تبغ قديم.

«هل تعلم أيُّها الذكيُّ»، قلت بصوت متَّقد، «أتمنَّى لو يجدوا فائدة لي هنا».

ضحك ألاستير من جديد، وفصل نفسه عنِّي، ومشى بعيداً يترنَّح قليلاً، «لمَ لا تقدِّم طلباً رسميّاً للانتقال؟»، قال من فوق ذراعه، وضحك من

جديد، وأنا فشلت في إدراك المضحك في الأمر.

لحقته، وسرنا معاً على غير هدى في الظلام والضباب الساكن.

«حينما ينتهي كلُّ هذا»، قال بتأثُّر، «فسأذهب إلى أميركا حيث سأصبح مشهوراً. أوه، هو ذا مكاني».

دخل الكوخ وشغَّل الإضاءة؛ كان لديَّ انطباع بأنَّني لن أشاهد سوى الفوضى والقذارة. تذكَّر سريان مفعول الإظلام، فأطفأ الإضاءة من جديد. فجأة سئمته، تعبَه، ونفَسه السيِّئ، وجوَّ المعاناة الغامض. ومع ذلك واصلنا الوقوف هناك، أنا على الطريق المكسوِّ بالرماد، وهو في الظلام العميق للمدخل.

«ألاستير»، قلت، «عليك أن تساعدني. عليك أن تتدخَّل».

«لا».

بدا مثل ولد حرون.

«ثمَّ أدخلني هنا. لن أورِّطك متى أصبحت في الداخل. أدخلني فحسب».

صمت لفترة طويلة حتَّى ظننته نام واقفاً. ثمَّ تنهَّد بقوَّة، وفي الضوء الخافت كان بإمكاني رؤيته وهو يهزُّ رأسه.

«لا أستطيع»، قال، «إنَّه ليس... ليس فحسب...»، تنهيدة أخرى، ومن ثمَّ استنشاق هائل؛ هل كان يبكي؟ قريباً منَّا، على طريق آخر، مرَّ شخص غير مرئيٍّ يصفِّر بنبرة سريعة إحدى افتتاحيَّات تينهاوزر[120]. استمعت إلى وقع الأقدام الطاحنة وهي تتلاشى. استدرت، وفي حين كنت أمشي خارج

---

(120) شاعر ومغنّ ألمانيّ، سيرته الشخصيّة غامضة، اشتهر بأشعاره بين عامي 1245 و1265، وبعضها أصبح من الفولكلور الألمانيّ. عُرف عنه أنّه كان فاسقاً. لكنّه في سنتيه الأخيرة تاب وطلب الغفران من البابا. (م)

الطريق قال من ورائي، من قلب الظلام: «أخبرهم أنِّي آسف، فيكتور».

*

ومع ذلك، فإنَّ أحداً ما كان قد ساعدني فعلاً. فجأة أصبح تدفُّق المواد القادمة من بليتشلي عبر مكتبي فيضاناً، كما لو أنَّ شخصاً ما في المصدر فتح بوَّابة السدِّ. بعد ذلك بسنوات، لـمَّا قابلت ألاستير مصادفةً في أحد الأيَّام في ستراند، سألته ما إذا كان قد غيَّر رأيه بعد أن كنت قدتُ سيَّارتي شمالاً لأراه في تلك الليلة. أنكرَ ذلك. كان عندئذ قد سافر إلى أميركا. «هل أنت مشهور؟»، سألته، فأومأ برأسه على مهل، وقال من المفترض أنَّه كذلك، في أوساط خاصَّة. صمتنا لوهلة، ونحن ننظر إلى حركة المرور، ثمَّ جرَّ قدميه قريباً مني، وفجأة ثار غضباً.

«أنت لم تخبرهم عن بليتشلي، أليس كذلك؟»، قال، «أقصد أنَّك لم تخبرهم عن الآلات وكلِّ تلك الأمور، أكيد؟»

«بحقِّ السماء، أيُّها الذكيُّ»، قلت، «كيف تفكِّر فيَّ! إلى جانب ذلك، لقد رفضت التعاون، أتذكر؟»

كانت تسريبات بليتشلي هي التي أدَّت في النهاية إلى أعظم انتصار لي، وهو الدور الذي لعبتُه في معركة الدبَّابات الكبرى في كورسك سالينت، في صيف عام 1943. لن أضجركِ بالتفاصيل، آنسة ف؛ فربَّما تبدو لك هذه المعارك نائية في الزمن مثل الحروب البونيقيَّة[121]. يكفي أن أقول إنَّها كانت مسألةَ تصميم دبَّابة ألمانيَّة جديدة، حصلت على تفاصيلها عبر بليتشلي ومرَّرتها إلى أوليغ. قيل لي، ولن يمنعني التواضع من تصديق ذلك، إنَّ الفضل

---

(121) الحروب الثلاثة التي دارت بين روما وقرطاج، وامتدّت بين عامي 246 و146 ق.م على المصالح الاستراتيجيّة في المتوسّط. (م)

يعود لتدخُّلي، إلى حدٍّ كبير، بانتصار القوات الروسيَّة في تلك المعركة الخطرة. بسبب هذا الإسهام في المجهود الحربيِّ السوفييتيِّ، وغيره من الإسهامات- وأنا مصمِّم على الاحتفاظ ببعض الأسرار لنفسي- قُدِّم لي وسام الراية الحمراء، أحد أرفع الأوسمة السوفييتيَّة. كنت مرتاباً بالطبع، ولـمَّا وضع أوليغ، على طاولة إلى جانب نافذة مقهانا في مايل أند رود، في خيوط ضوء الشمس المغبرِّ بلون النحاس، في ليلة من ليالي آخر الصيف، صندوقاً خشبيّاً رديء الصنع، ونظر حوله بحذر، ثمَّ فتحه ليريني الميدالية التي تبدو غير حقيقيَّة من شدَّة روعتها -لامعة جدّاً ونظيفة، مثل عملة نقديَّة مزيَّفة محفوظة في متحف الشرطة كدليل على مهارة مزيِّف مهزوم- فوجئت لاكتشافي أنَّني تأثَّرت. رفعت الميدالية لفترة قصيرة من فراشها من المخمل القرمزيِّ، وعلى الرَّغم من أنَّني لم أكن أتذكَّر سوى الغموض الذي كان يحيط بالمكان الذي يدعى كورسك، إلّا أنِّي للحظة رأيتُ المشهد: كما في أحد الأفلام الدعائيَّة القديمة الصاخبة التي كانت تنتجها موس فيلم؛ الدبَّابات السوفييتيَّة تتسابق على طول ساحة المعركة، بطل يرتدي قلنسوة في برج كلٍّ واحدة منها، مع دخان متطاير، وراية ضخمة شفَّافة تتموَّج في مقدِّمة كلِّ شيء، وجوقة غير مرئيَّة بأصوات سماويَّة جهيرة تخور بنشيد النصر. أغلق أوليغ بعدها غطاء الصندوق بوقار، ثمَّ أخفى الصندوق في جيب داخليٍّ داخل بذلته الزرقاء اللامعة. بالطبع لم يكن ثمَّة فرصة للاحتفاظ بالميدالية. «ربَّما»، قال أوليغ بهدوء، مع تصفيرة حزن، «ربَّما، في يوم ما، في موسكو...». يا له من أمل، يا أوليغ؛ يا له من أمل.

*

في العاشر من مايو، 1941 (تلك كانت أيَّام التواريخ المهَّمة)، ذهبت إلى أكسفورد لأقابل فيفيين. كانت للتوِّ قد أنجبت طفلنا الثاني وكانت بنتاً. كان الطقس دافئاً، وجلسنا في المستنبت الزجاجيِّ المضاء بالشمس، والطفلة في مهدها القشِّي إلى جانبنا تظلِّلها شجرة نخيل مزروعة في أصيص، وجوليان متمدِّد على سجادة عند قدميها يلعب بأبنيته. «كم هو مشهد لطيف!»، قالت فيفيين بإشراق وهي تنظر حولها إلى المشهد، «قد يظنُّ المرء غالباً أنَّنا أسرة». جلبت لنا الخادمة شاياً، والسيِّدة القندس استمرَّت في الدخول والخروج قلقة وهي تراقبنا، كما لو أنَّها تخشى أن يتحوَّل المشهد الأسريُّ بالضرورة إلى شجار فظيع، وربَّما يصاحبه عنف. تساءَلت في نفسي عن ماهيَّة تقرير زواجنا الذي قدَّمته فيفيين لوالديها. ربَّما لم تقدِّم تقريراً أصلاً، فهي لم تكن قطُّ تتكلَّم عن نفسها. القندس الكبير قام أيضاً بظهور مراوغ كما هو حاله دائماً؛ وقف مذهولاً وهو يأكل قطعة بسكويت، وقال إنَّنا، أنا وهو، ينبغي أن نجري حواراً جدّياً («في أمور العمل، بالتأكيد»، أضاف على عجل، مع تدويرة قلقة لعينيه)، لكن ليس اليوم، إذ كان ينبغي له الذهاب إلى لندن. عرضت عليه، على نحو خبيث، أن أقلَّه، ونظرت إليه بسرور وهو يؤدِّي رقص الأفعى خاصَّته للاعتراض، والاعتذار المراوغ؛ احتمال وجودنا معاً لبضع ساعات على الطريق كان أمراً مرحَّباً به بالنسبة إليه كما كان بالنسبة إليَّ.

«كم أحسدكم أيُّها الرجال الشجعان»، قالت فيفيين، «أحرار في المخاطِرة بالدخول في قلب أعماق الجحيم. لا أمانع في مشاهدة بعض المباني التي تحترق حتّى الأرض. أنا متأكِّدة من أنَّه لا بدَّ سيكون منظراً مثيراً للغاية. هل يسمع أحد صرخات الموت، أو هل يغطي صوتَهم صوتُ صفارات الإنذار

وما إلى ذلك؟»

«يقولون إنَّ الغارات أوشكت أن تنتهي»، قلت، «هتلر سوف يهاجم روسيا».

«هل هذا صحيح؟»، قال القندس الكبير، وهو يلتقط فتات البسكويت من على مقدِّمة صدريّته، «سيبعث هذا ارتياحاً».

«ليس بالنسبة إلى الروس»، قلت.

رمقني بنظرة متجهِّمة، وضحكت فيفيين.

«ألم تكن تعرف يا أبي؟ -فيكتور معجب سرِّيّ بستالين».

ابتسم لها بأسنانه، ثمَّ أصبح نشيطاً وهو يفرك يديه على نحو متعرِّج بقوَّة.

«حسناً»، قال، «يجب أن أكون في الخارج. فيفيين، استريحي. فيكتور، ربَّما نلتقي في لندن»- ضحك رجل العالَم ضحكة مكتومة- «نتلمَّس طريقنا مثل رجال عميان داخل حظر الأنوار». وضع يده بحذر شديد على رأس جوليان -الطفل، الصموت بطبيعة الحال، تجاهله- وانحنى ليحدِّق إلى سلَّة الطفلة وأنفه يرتعش عند حافة السلَّة. «فتاتي الحبيبة»، زفر، «جميلة، جميلة». ثمَّ بحركة مزاح حرَّك يداً قاتمة. رمق كلٌّ واحد منَّا الآخر بنظرة مبتسمة لامعة، وغادر ماشياً بهدوء على أطراف أصابع قدميه أمام الطفلة وإصبعه على شفتيه بإيماءة مبالغ فيها. في الساعات المبكِّرة من صباح اليوم التالي، وبينما كان يمشي في شارع جانبيّ متفرِّع من شارع تشارلينغ كروس رود، لأيٍّ غرض لم يكن أحد يعرف أو يهتمّ بأن يخمِّن، أُصيب في جبينه بشظيَّة كبيرة جدّاً كانت تطير فوق أسطحة المنازل من جرّاء انفجار قذيفة في شارع شافيتزبيري، وتوفِّي على الرصيف، وقد اكتشفت جثَّته امرأة شابَّة

عاملة كانت تشقُّ طريقها عائدة إلى منزلها بعد ليلة عمل في معمل في غريك ستريت. أتخيَّل ماكس المسكين، يتمشَّى بمرح، ويصفِّر لحناً، ويداه في جيبيه، وقبَّعته على مؤخِّرة رأسه. متسكِّع عجوز كان يمتلك حياة رغيدة قبل الحرب، كان على نحو مفاجئ قد اقترب من شظيَّة مؤذية تسبَّبت بها طائرات الجيش الألمانيِّ. أتساءل في أيِّ وقت بالضبط توفِّي؟ أنا مهتمٌّ، لأنَّه في ساعات الصباح الباكرة تلك كنت أنا أيضاً أخضع لتجربة تغيير عميقة.

كان الهجوم في تلك الليلة آخر غارة جويَّة كبيرة. وأنا أقود من أكسفورد، توقَّفت عند حاجز للشرطة في هامبستيد هيث. خرجت من السيَّارة، ووقفت في ضوء القمر، والأرض ترتعش تحت قدميَّ، ونظرت، مفتوناً، في الأسفل إلى نصف المدينة المغمور في بحر من اللهيب. كانت السماء تتدلَّى منها زخرفة النيران المضادَّة للطيران، وشعاع الكشَّاف يميل ويتأرجح، وبين الحين والحين، يتعثَّر بإحدى القاذفات التي بدت لي شيئاً غامضاً هزليّاً، وقد تقلَّصت، بسبب المسافة، إلى حجم دمية، وعلقت هناك في السماء، كما بدا، عند نهاية الخطِّ الأبيض للدخان المجرور وراءها. «شفق الآلهة، سيِّدي، إيه؟»، نوَّه شرطيّ مرح جانبي، «القدّيس بولص القديم، لا يزال واقفاً، مع ذلك؟»، أظهرت له هويَّة الوكالة، وهو تفحَّصها بضوء المصباح اليدويّ بشكٍّ ظريف. في النهاية، على الرّغم من ذلك، سمح لي بالمرور، «أنت بالتأكيد تعتزم القيادة إلى هذا المكان، سيِّدي؟»، قال.

كان ينبغي لي أن أفكِّر في بوش، وغرونفالد، وآلتدورفر ريغينسبورغ، وكلِّ أولاء الذين توقَّعوا نهاية العالم، لكنّي حقّاً لا أستطيع الآن تذكُّر أيّ شيء خطر في بالي وقتها على وجه الخصوص باستثناء ما قد يكون أفضل طريق للذهاب إلى بولاند ستريت. لـمَّا وصلت إلى هناك وأوقفت السيَّارة، وبعد

العديد من خضّات الطريق، وقع ثقل الضوضاء برمّته عليّ، جاعلاً طبلة أذني تهتزُّ على نحو مؤلم. على الرصيف نظرت إلى الأعلى باتجاه بلومزبري، ورأيت حزمة من القذائف تسقط بارتخاء إلى أسفل المنحدر العموديّ لحزمة ضوء الكشّاف. كان بليك ليفتن بالغارات الجوّيّة، لو رآها. وبينما كنت أدخل المنزل، أدهشني أنّني لم أرَ شيئاً غريباً على الإطلاق مثل هذا المفتاح وهو يدخل في القفل. السماء الشاحبة ألقت وهجاً ورديّاً رقيقاً على ظهر يدي. في الداخل، كان المنزل بأكمله يرتجف، بكلّ تفاصيله، بسرعة مثل كلب يرتجف وهو يُسحب من نهر جليديٍّ. كان أحد المصابيح مناراً في غرفة الجلوس في الطابق الأول، لكنَّ الغرفة كانت فارغة، والكراسي والأريكة كانت جاثمة حسب ما بدا أنّه صمت قلق، وأذرعتها مستعدّة، كما لو أنّها في أيّ لحظة ستنهض وتتشتّت طلباً للأمان. كانت تلك الغارات مملّة للغاية، وكانت إحدى المشكلات الدائمة أن تجد طريقة لتمضية الوقت. كانت القراءة صعبة، وإذا كان القصف قريباً فإنَّ الاستماع إلى الموسيقا -عبر الغرامافون- يكون مستحيلاً، ليس بسبب الضجّة فحسب، بل لأنَّ الصدمات أيضاً كانت تجعل الإبرة تقفز خارج أخدود الأسطوانة دائماً. أحياناً كنت أتصفّح مجلّداً لرسوم بوسان؛ الصمت الكلاسيكيّ للوحات كان مهدّئاً، لكنّني كنت مدركاً كم سيكون الأمر مبتذلاً، إن لم أقل سخيفاً، لو قُتلت ومثل هذا الكتاب بين يديّ (كان بوي دائماً يضحك لأمر طبيب كان يعرفه في تلك الأيّام، وُجد ميتاً، بذبحة قلبيّة، وهو جالس على كرسيٍّ بذراع، وكتاب طبّي جامعيّ في حضنه، مفتوح على فصل يتناول موضوع الذبحة القلبيّة). كان الشرب احتمالاً بالطبع، لكنّني وجدت أنَّ آثار الشرب كانت أسوأ من المعتاد في الصباحات التي تلي الغارات، وأفترض أنَّ ذلك

بسبب نوم الثمالة الذي كان كلُّه ضجيجاً، وأضواء ساطعة وأسرَّة مهتزَّة. لذا صرت أمشي في غرفة الجلوس، في حيرة إلى حدٍّ ما، حين نزل داني بيركينز إلى الأسفل، يرتدي بيجاما قطنيَّة مخطَّطة، ونعلين، و(الروب دي شامبر) المهلهل الخاصّ ببوي، الذي كان حبله قد ضاع. كانت عيناه متورِّمتين وشعر رأسه منتصباً. كان منزعجاً.

«كنت نائماً»، قال، «وتلك القذائف النضرة أيقظتني». ربَّما كان يشير إلى أفعال أحد الجيران الصاخبين. وقف، يهرش جسمه، ويحدِّق إليَّ، «كنت تزور الزوجة، أليس كذلك؟»

«أصبحت لديَّ ابنة جديدة»، قلت.

«أوه، هذا لطيف»، قال، ونظر إلى الغرفة المظلمة بغموض، وهو يمطُّ شفتين يقطر منهما الريق، ويمرِّر لساناً رماديّاً استكشافيّاً فوق أسنانه. «أتساءل ما إذا عيادة دكتور الزُّهري كان فيها أيُّ حبوب منوِّمة. ربَّما أكسر الخزانة، هل أفعل ذلك؟»

وقع انفجار هائل بالقرب منّا، والأرض تلوَّت وانخفضت على نحو منذر، والنوافذ طنَّت واهتزَّت. «أصغِ إلى هذا»، قال داني على نحو مشاكس وهو يطقطق بلسانه، وبنظرة خاطفة، وعلى الرغم من أنَّني لم أقابلها، كنت أستطيع رؤية أمِّه فيه.

«ألا تشعر بالخوف على الإطلاق، داني؟»، قلت.

فكَّر في السؤال.

«لا»، قال، «لا أظنُّ ذلك. ليس ما تسمِّيه على نحو صحيح خوفاً. أنا أشعر بالتوتُّر، أحياناً».

ضحكت.

«ينبغي لبوي أن يلتقيك في بثٍّ عبر المذياع»، قلت، «بثّ إذاعيّ لألمانيا. ستكون ضربة معاكسة للورد هاوهاو[122]. لمَ لا نجلس، بما أنَّ أيّاً منّا لن يكون قادراً على النوم الليلة؟»

جلس داني على الأريكة، وجلستُ على كرسيٍّ بذراع في الجانب الآخر من الموقد. كانت هناك أوراق متفحّمة في الموقد، مثل حزمة من الورد الأسود من السخام؛ أعجبتني هذي الأشكال الملفوفة، والمغزليّة، والمطويّة، بنسيجها المخمليّ الغنيّ. غالباً ما كان بوي يحرق الوثائق الحسّاسة هنا. لم يكن لديه شعور بالأمان.

«هل بوي هنا؟»، سألت.

رسم داني وجهاً مصطنعاً، وهو يجحظ عينيه. (الروب دي شامبر) كان قد انفتح، وفتحة أزرار بيجامته (التي لا أزرار فيها) كشفت شعر عانته الأسود الطحلبيّ.

«أوه، لا تتكلَّم معي عنه»، قال، «ثمل من جديد، مغمى عليه هناك، يشخر مثل خنزير. أقول له، أقول، سيِّد بانيستر، سوف يتوجَّب عليك أن تترك كبدك للبحث العلميّ».

انفجر إلى الشرق منّا عنقود جديد من القذائف؛ كراكراك كراكراك كراكراك. تأمَّل داني في الصوت وأكمل كلامه «لـمَّا كنَّا صغاراً كان أبونا يخبرنا دائماً عن عدد الثواني التي يحتاجها الرعد بعد وميض البرق حتَّى يرعد، وبتلك الطريقة كنَّا نعرف كم تبعد العاصفة. يبدو ذلك سخيفاً الآن. أليس كذلك؟ لكنَّنا كنَّا نصدِّقه».

«هل هذا ما تدعوه به دائماً؟»، قلت، فنظر إليَّ، وركَّز عينيه بعدما كانتا

---

(122) لقب أطلق على العديد من المذيعين العاملين في البرنامج الإذاعي ألمانيا تنادي الموجّه باللغة الإنكليزيّة للشعب البريطانيّ. أنتجته ألمانيا النازيّة، واستمرّ بثّه حتى 30 إبريل 1945. (م)

مبحرتين في أوديتهما، «بوي، هل تدعوه دائماً بالسيِّد بانيستر؟»

لم يعطِ جواباً، ابتسم فحسب إحدى ابتساماته الخليعة الماكرة الصغيرة.

«أترغب في كوب شاي؟»، قال.

«لا». كان الصمت في الغرفة بركة من السكون وسط عاصفة عاتية. همهم داني على مهل قطعة من أغنية «أتساءل كيف سيكون الأمر»، قلت، «لو ضربت قذيفة المنزل الآن. أقصد، أتساءل ما إذا كان أحدنا سيعرف، في الثانية التي تسبق انهيار كلِّ شيء؟»

«هذا يجعلك تفكِّر، سيِّدي، أليس كذلك؟»

«نعم داني، إنَّه يجعلك تفكِّر».

ابتسم ابتسامته البريئة تلك من جديد.

«وأخبرني، سيِّدي، فيمَ تفكّر الآن- بصرف النظر عن القلق من سقوط قذيفة فوق رؤوسنا؟»

فجأةً، شعرت كأنَّ رخاماً في حلقي؛ سمعت نفسي ابتلعه.

«أفكِّر»، قلت، «في أنَّني لا أودُّ أن أموت قبل أن أعيش حياتي».

هزّ رأسه، وصفَّر صفرة صغيرة رائعة.

«أوه، هذا فظيع. ألم تعش حياتك، سيِّدي؟»

«هناك أشياء لم أعملها بعد».

«حسناً الآن، هذا صحيح بالنسبة إلينا جميعاً سيِّدي، أليس كذلك؟ لمَ لا تأتي إلى هنا وتجلس إلى جانبي؟»

«لا»، قلت، «هذا ليس صحيحاً بالنسبة إلى الجميع؛ ليس بالنسبة إلى بوي، أو إليك أيضاً، كما أعتقد. هل ثمَّة مساحة لي للجلوس هناك؟»

«حسناً، هناك أشياء عدَّة لم أفعلها»، قال، «العديد من الأشياء». ورفع يده وربَّت على مساحة جانبه. وقفت، وأنا أشعر بأنَّني طويل على نحو غير معقول، وأتأرجح كأنَّني على ركائز. لم أجلس إلى جانبه بقدر ما تدحرجت نحو الوسائد المتكوِّمة. كانت تفوح منه رائحة خفيفة للحم، رائحة نتانة خفيفة؛ رجعت إلى الطفولة فجأة، وتذكَّرت الرائحة الكريهة التي كانت تتركها وراءها الثعالب المغيرة، في الحديقة، في الصباح الباكر. قبَّلته على نحو أخرق على فمه (يا لشعره الخشن!) فضحك، وسحب وجهه إلى الوراء، ونظر إليَّ، ساخراً مستمتعاً، وهزَّ رأسه «أوه، أيُّها النقيب»، قال بلطف. حاولت أخذ يده، لكنَّ هذا لم ينجح. لمست كتفه، وذهلت من صلابته. صلابة العضلة غير المعتادة، واستجابتها؛ ربَّما كنت أتحسّس خاصرة حصان. انتظر، متساهلاً، وهازئاً، ومغرماً.

«لا أعرف... ما تفعله»، قلت.

ضحك من جديد. وأمسكني من معصمي، ثمَّ جذبني بعنف.

«تعالَ هنا إذاً»، قال، «سأريك».

وفعل ذلك.



لا تزعجي نفسك، آنسة ف، فلن تكون ثمَّة شروح تصويريَّة للفعل، للجسمين اللذين كانا يدقَّان في انسجام، للصرخات والخرمشات، للإراحة المبهجة، للتشنُّج المألوف في محيط غير مألوف، ومن ثمَّ السقوط اللطيف في السكون -لا، لا، لا شيء من هذا، فأنا رجل نبيل من المدرسة القديمة، أخرق في مثل هذي الأمور، بل حتَّى مفرط الاحتشام من اللمس. القذائف،

بالطبع، أضفت جوّاً من الدراما على المناسبة، لكن للحقيقة، تلك الآثار المسرحيَّة كان مبالغاً فيها بعض الشيء، فاغناريَّة[123] على نحو فظٍّ كما فهم رجال شرطة هامبستيد مبكِّراً في تلك الليلة على نحو غير مرغوب فيه. ارتعشت المدينة، وأنا ارتعشت، كلٌّ منَّا تحت وطأة هجوم مختلف لا يقاوم. لم يكن لديَّ أيُّ شعور بالولوج في داخل أرض غريبة أو غير معروفة. في الواقع، كانت ممارسة الحبِّ مع داني بيركينز تجربة مختلفة تماماً عن الخدمات الباردة التي كانت تقدِّمها زوجتي وتفتقد للانهماك، لكنَّني كنت أعرف مكاني؛ أوه، نعم، عرفت أين كنت. ظننت أنَّ من المحتمل جدّاً ألَّا أتمكَّن من البقاء في هذه الحياة تلك الليلة، إذ إنَّ شغف العاطفة الذي اختبرته بدا من المرجَّح أنَّه سيفعل بي مثلما تفعل القذائف التي تسقط على المدينة، لكنَّني تأمَّلت في هذا الاحتمال بانفصال تام؛ الموت كان ملازماً لنا، ضجراً وسريع الامتعاض، يجلس نافد الصبر في الجانب الآخر من الغرفة، ينتظرنا، أنا وداني، حتَّى ننتهي، حتَّى يلقي القبض عليَّ، وأتبعه إلى المخرج الأخير. لم أشعر بالخجل ممَّا كنت أفعل، وفُعل بي، لا شيء من شعور الخطيئة الذي كنت أتوقَّعه. ولا أعتقد أيضاً أنَّني شعرت بأيِّ متعة حقيقيَّة في تلك المرَّة الأولى. في الحقيقة لم أشعر بشيء أكثر من شعور متطوِّع في تجربة طبِّيَّة طبيعيَّة وفعَّالة على نحو بارز. أخشى أن يغفر لي داني إجراء هذه المقارنة، لكن هذا ما كان عليه الحال، أنا خائف، على نحو دقيق. في لقاءات لاحقة عذَّبني عذاباً رقيقاً إلى درجة كنت معها أبكي عند قدميه وأصرخ من أجل المزيد- كان ثمَّة أثر ثقيل على جذر لساني، شعور بالاختناق نشويّ على

---

(123) نسبة إلى ريتشارد فاغنر (1813-1886)، وهو مؤلِّف موسيقيّ وكاتب مسرحيّ ألمانيّ. من المخضرمين في الموسيقا، يصفه النقَّاد بأنَّه سيطر على موسيقا العصر الرومانسيّ بعد بيتهوفن. (م)

نحو مرعب، ذاك الشعور الذي كان داني وحده من يزرعه فيَّ- لكن في ذلك الوقت، وبينما كانت القذائف تسقط، والآلاف يموتون حولنا، كنت أنا عيِّنة التشريح، وكان هو الدكتور المشرِّح.

بعد ذلك- يا للأسف، بطريقة ما يجب أن يكون هناك دائماً بعد ذلك- أعدَّ داني لنا إبريقاً من الشاي المخمَّر، وجلسنا في المطبخ نشربه، هو يرتدي سترتي، التي كان كمَّاها طويلين جدّاً بالنسبة إليه، وأنا، متجمِّع في (روب دي شامبر) بوي الرماديِّ، خجولاً، وراضياً عن نفسي على نحو سخيف. ولـمَّا كان الفجر يناضل ليبزغ، دوَّى إنذار نهاية الخطر، وانتشر نوع من الصمت المجلجل، كما لو أنَّ ثريا ضخمة كانت قد انهارت في مكان ما بالقرب منَّا وتحطَّمت إلى قطع.

«كانت غارة سيِّئة»، قال داني، «تلك الغارة. لا أظنُّ أنَّ كثيراً من الأشياء الباقية ستبقى واقفة بعدها».

صُدمت. في الواقع، ليس مبالغة أن أقول إنَّني كنت حانقاً. كانت تلك أوَّل مرَّة يتكلَّم فيها مذ تركنا الأريكة، وكلُّ ما كان في مقدوره قوله هو هذه التفاهات الحقيرة. ما همَّني إذا كان العالم بأكمله قد مُهِّد! راقبته بفضول بغيض وبشعور متضخِّم من الامتعاض، أنتظره عبثاً أن يتكلَّم موثِّقاً أهميَّة هذه المناسبة. ردَّة فعل كنت سأشاهدها غالباً في السنوات التالية بعد كلِّ أوَّل مرَّة. ينظر أحدهم إليك، وتفكِّر، كيف يمكن له الجلوس هناك، فظّاً جدّاً، هادئاً جدّاً، كأنَّ شيئاً لم يحدث بعد أن حدث هذا الشيء الرائع لي؟ حينما أحصل على قدر كبير جدّاً من السعادة من أحدهم، أو يكون جميلاً جدّاً، أو متزوِّجاً وقلقاً (ألاحظ أنَّ كلَّ هذا في زمن الحاضر غير المناسب)، أحاول الادِّعاء، من أجل خاطرهم، بأنَّني أيضاً شعرت بشيء جلل أو تغيير عظيم

كان قد حدث، وبعده أحد منَّا لن يكون نفسه من جديد. وهذا صحيح، بالنسبة إليهم كان ذلك وحياً لهم، تحوُّلاً ما، تعثُّراً مباغتاً وسط غبار الطريق؛ لكن بالنسبة إليَّ كان مجرَّد... حسناً، لن أستخدم الكلمة لتصفه مع أنِّي متأكِّد، بطبيعة الحال، من أنَّ الكلمة في محلِّها هنا، كما تعرف الآنسة ف. لأنَّ هذا ما تقوم به، هي وصاحبها السمكريُّ، أو أيّاً من كان، على سريرهما السحَّاب حين يعودان من الحانة كلَّ ليلة سبت.

وعلى الفور، مثل فاسق مغرم هرم، سعيت إلى تقديم داني إلى ما كان يُطلق عليه أشياء الحياة الناعمة. أحضرته إلى -يا إلهي، أحترق خجلاً حين أفكِّر في ذلك- أحضرته إلى المعهد، وجعلته يجلس ويستمع حينما أحاضر في فترة بوسان الثانية في روما، وفي كلود لورين وعبادة المناظر الطبيعيَّة، وفي فرانسوا مانسارت وطراز الباروك الفرنسيِّ. وكان انتباهه، في أثناء محاضرتي، ينحدر في ثلاث مراحل مختلفة مميَّزة؛ لمدَّة خمس دقائق أو نحو ذلك، يجلس مستقيماً جدّاً ويداه مطويَّتان على حضنه، يشاهدني بتركيزِ من يسترجع فكرة ما من كلامي؛ ثمَّ تأتي فترة رئيسة طويلة من الإثارة المتزايدة، يدرس فيها الطلَّاب الآخرين، أو ينحني على النافذة ليتابع حركة شخص ما يقطع الفناء في الأسفل، أو يعضّ أظافره بحركات رشيقة متناهية الصغر، مثل جواهريّ يقطع صفّاً من الأحجار الكريمة ويشكِّله؛ بعد ذلك، حتَّى نهاية المحاضرة، يغوص في غفوة من الملل ورأسه غارق بين كتفيه، جفناه ينخفضان عند طرفيهما، وشفتاه مرتخيتان قليلاً. أخفيت خيبة أملي فيه في تلك المناسبات قدر اَستطاعتي. كان مع ذلك يواكبني حقّاً ليبدو مهتمّاً أو متأثِّراً، فكان يستدير نحوي بعد ذلك، ويقول: «ماذا قلت عن ذلك الإغريقيِّ في تلك اللوحة، ذاك الشخص مع زميله ذي التنُّورة- تعرفه، ذاك، ماذا كان اسمه-

ذاك الذي كان طيِّباً جدّاً؛ فكَّرت في أنَّه كان طيِّباً جدّاً»، ثمَّ يعبس، ويومئ برأسه على نحو رزين، وينظر إلى حذائه.

لم أستسلم. ضغطُّ عليه بالكتب، بما فيها، ليس من دون خجل نظرية الفنِّ في عصر النهضة، الكتاب المفضَّل بين أعمالي الخاصَّة. حثثته على قراءة بلوتارك، فاساري، باتر، روجر فراي. أعطيته نسخاً من لوحات بوسان وإنغرز ليثبِّتها على الحائط في غرفة المخزن الصغيرة، المكان الخاصّ لديه، خارج غرفة نوم بوي. كما أخذته لسماع ميرا هيس وهي تعزف لباخ وقت الغداء في المتحف الوطنيّ. تحمّل كلَّ هذي التجارب بنوع من التسامح المؤسف، يضحك على نفسه وعليّ بسبب أوهامي ورغباتي الطفوليَّة. في عصر أحد أيَّام الأحد، ذهبنا معاً إلى المعهد، ونزلنا عبر البناء المهجور إلى الأقبية في الطابق السفليّ، حيث حللت الرباط، بكلِّ إجلال كبير الكهنة وهو يلقِّن شابّاً صغيراً أسرار العقيدة، عن لوحة موت سينيكا من كفنها الخيشيّ، ورفعتها لأثير إعجابه. صمت طويلاً، ثمَّ قال: «لمَ المرأة هناك في منتصف اللوحة تستعرض ثدييها؟»

كان الثمن الذي دفعه لتقديم نفسه إلى كثير من الثقافة هو النزهات القصيرة المتكرِّرة التي كنَّا نقوم بها معاً داخل عالم الترفيه الشعبيّ. اضطررت إلى مرافقته، على نحو منتظم، إلى المسرح؛ والمسرحيَّات الموسيقيَّة، والمسرحيَّات الهزليَّة والاستعراضات الكوميديَّة. بعد ذلك كنَّا نذهب إلى الحانة لأجل أن يقدِّم لي نقداً مفصَّلاً للعرض. كان ناقداً قاسياً، وكان يوفِّر استنكاره اللاذع للعازفين المنفردين الذكور والأولاد في الجوقة «لا يمكن أنَّه يغني من أجل السكاكر، ذلك المغنِّي -اسمعه وهو يحاول رفع صوته إلى تلك النغمة في نهاية المقطوعة؟ هذا ما أدعوه أمراً مثيراً للشفقة». كان مغرماً جدّاً بقاعة

الموسيقا، ومرَّة في الأسبوع، على الأقلّ، كنت أجد نفسي أتلوَّى في مقعد صلب في تشيلسي بالاس للعروض المنوَّعة أو في الميتروبوليتان في إدغويد رود حين تكون النساء البدينات بقبعاتهنَّ العريضة يغنين الأغاني الشعبيَّة الفاضحة، وثمَّة سحرة متعرِّقون يتلمَّسون الأوشحة وكرات البينغ-بونغ، وكوميديُّون شيطانيُّون بثياب ذات ترابيع يقذفون أنفسهم فوق الخشبة على دعامات مطاطيَّة، ويقومون بشقلبات مزدوجة، ويصرخون بعبارات شائعة لم أستطع فهمها لكنَّها كانت ترسل الجمهور في نوبات متنقِّلة من الجذل.

كان بوي يعاني من ضعف تجاه قاعة الموسيقا أيضاً، وغالباً ما كان يرافقنا في تلك الرحلات إلى الحّي الشرقيّ من لندن. كان يحبّ الصخب والضحك، ونشوة الجمهور الوحشيَّة. كان يصرخ إلى جانبي في مقعده، محيِّياً أولاء المغنِّين البدينين، ويشاركهم لازمات الأغاني، ويرفع ذراعيه مبتهجاً لنكات الكوميديين الفاحشة، ويصفِّر للأفخاذ العريضة، وليس للفتيات الشابَّات في الجوقة. كذلك كان الظلام يخفي تكشيرة الازدراء التي كنت أوجِّهها إليه وهو يتمايل ويصرخ. بالنسبة إليه كانت ثمَّة جاذبيَّة أخرى لتلك المناسبات له، وهي الفرص الغنيَّة المتوافرة بعد العرض بالنسبة إلى التقاط الشبَّان الوحيدين. عرف بوي، طبعاً، بما جرى بيني وبين داني -أخبره داني بما حدث حالما استيقظ في ذلك الصباح من غيبوبته الثملة. أتخيَّل أنَّ كليهما ضحك ضحكة مجلجلة. كنت قد انتظرت، ليس من دون خوف ردَّة فعل بوي؛ لا أعرف ما كنت أتوقَّع منه أن يفعل، لكن قبل كلِّ شيء، من المفترضَ أنَّ داني كان حبيبه. لم يكن ينبغي لي أن أقلق، فحالما سمع بوي، نزل متهادياً إلى أسفل الدرج، وعانقني عناقاً كريهاً، وقبَّلني قبلة رطبة كبيرة

على الفم. «مرحباً بك في عالم نخبة الشاذِّين[124]، عزيزي»، قال، «لطالما كنت أعرف، كما تعلم، أنَّ ثمة شيئاً ما في هاتين العينين الحنونين»، وضحك.

ما أقلقني حقّاً، بالطبع، كان سيفكِّر فيه نيك. حتَّى احتمال أنَّه سيخبر فيفيين لم يكن شيئاً مهمّاً إذا ما قورن باحتمال رفضه، أو، ما هو أسوأ من ذلك، سخريته. ينبغي لي أن أقول إنَّني، في تلك المرحلة، لم أعتقد للحظة، أنَّني تحوَّلت إلى مخلوق شاذ كامل الريش بين عشيَّة وضحاها. ألم أكن رجلاً متزوجاً، ولديَّ ولدان صغيران؟ هذا الانغماس في الملذَّات مع داني نظرت إليه على أنَّه انحراف، تجربة عيش، انغماس في الشذوذ غريب أجازه العصر، وهو نوع من الأشياء اختبره كثير من معارفي في المدرسة، لكنَّني بلغته متأخِّراً فحسب في الثلاثينات من عمري. صحيح، كنت مذهولاً، إن لم أقل مهزوزاً، بالكثافة العاطفيَّة والجسديَّة لتلك التجارب الجديدة، لكنَّني أيضاً يمكنني عدُّ ذلك مجرَّد عرض آخر للحمَّى العامَّة للزمان الاستثنائيّ الذي كنَّا نعيش فيه. وأفترض أنَّ هذه كانت من الحجج التي خطَّطت لقولها لنيك إذا ما تحدَّاني. أرى نفسي على شاكلة نويل كوارد[125]، مرهقاً من العالم، لامعاً، على نحو ذكيّ يتجاهل اعتراضاته على الحياة بنقرة على حامل سيجارة من خشب الأبنوس غير مرئيّ. («بحقِّ الله! أيُّها الولد العزيز، لا تكن تقليديّاً للغاية»). إلَّا أنَّه لم يتحدَّاني، بل على العكس من ذلك، التزم صمتاً مطبقاً، الأمر الذي كان أكثر إثارة للقلق من أيِّ تجربة للاشمئزاز منِّي. لم يقتصر الأمر على أنَّه لم يقل شيئاً قطُّ، بل لم تبدر منه أدنى إشارة إلى ما كان يفكِّر

---

(124) يقصد الكاتب هنا نخب المثليِّين من أعلام السياسة والثقافة والدين والفنّ في العالم، الذين يسعون على نحو غير رسميّ إلى شرعنة وجودهم ودورهم في الحياة العالميّة، ويشار إليهم بكلمات مثل homosexual mafia و Gay mafia. (م)

(125) السير نويل كوارد (1899-1973)، مسرحيّ بريطانيّ، وممثّل ومؤلّف موسيقيّ، تناولت مسرحيّاته الصراع الرومانسيّ بين رجالات الطبقات العليا ونسائها. (م)

فيه. الأمر كما لو أنَّه لم يلاحظ- في الحقيقة، كنت أتساءل لأحيان كثيرة ما إذا كان هذا الأمر بكلِّيته فوق إدراكه، وأنَّ هذا ما كان ليمنعه عن رؤية ما كان يحدث، وعن مهاجمتي، أو الازورار عنِّي في قرف. مع مرور السنين، وأنا كنت قد اعترفت بطبيعتي الحقيقيَّة له، إن لم يكن بكلمات كثيرة فبالتأكيد بأفعال لا يمكن تجاهلها، طوَّرنا، أنا وهو، فهماً ضمنيّاً اعتقدت أنَّه لم يحتضن صداقتنا فحسب، بل أيضاً علاقتي، كما كان يراها، مع فيفيين والأطفال وأسرة بريفورت في العموم. لا يمكنني أبداً أن أقرِّر أيَّها كنت أكثر: بريئاً أو أحمقَ. ربَّما كنت الاثنين بدرجة متساوية.

ولا أزال أستعيد ذلك اليوم الذي تلا ليلة الوحي تلك بشيء من الوميض له هلوسته وبهرجته. في منتصف الصباح، حين عاد داني إلى غرفته لينام- كان داني يحبُّ الاستلقاء على السرير في النهار، ملفوفاً بالتواصل الحسّيِّ الدافئ مع نفسه- وأنا كنت أستعدّ لأخطو خطوة داخل ما كنت مقتنعاً أنَّه سيكون مدينة مدمَّرة بالكامل، رنَّ جرس الهاتف، وجاءت مكالمة هاتفيَّة من شخص لم أستطع إدراك هويَّته، بل حتَّى جنسه لم يكن واضحاً لي، لكن بدا كأنَّه تربطه صلة قربى من نوعٍ ما بأسرة بريفورت، ليخبرني أنَّهم اكتشفوا في وقت مبكِّر من صباح اليوم في ليزلي ستريت جثَّة حميَّ، ممدَّدة على الرصيف، وغارقة في بركة من الدماء. افترضت أنَّ جريمة كانت قد ارتكبت- تمدُّد الجثَّة على الرصيف ذاك، والدّم المسفوك- وسألت ما إذا كان قد طلب الشرطة، الأمر الذي أثار صمتاً محيِّراً على الخطِّ، تبعه ما ظننته كان شخرة ضحك، لكن ربَّما كان تنهُّداً، وشرحاً طويلاً، بدت فيه شظايا الكلمات المتناثرة تعزف لحناً كوميديّاً غير متناسق. تبع ذلك مكالمات هاتفيَّة عدَّة (كيف نجت خطوط الهاتف في تلك الليلة؟)؛ اتَّصلت فيفيين

من أكسفورد، بدت صامتة واتِّهاميَّة، كما لو أنَّها كانت تحتفظ بي ولو جزئياً لتلومني على الفاجعة -وربَّما كانت كذلك- بما أنَّني كنت الممثِّل الوحيد المتاح لآلة الحرب الواسعة التي علق فيها والدها دون قصد وسُحق. تدخَّلت والدتها في المكالمة، مستعجلة وغير متماسكة، تقول إنَّها كانت تعرف، طوال الوقت كانت تعرف؛ وأنا عددت كلامها عن التنبّؤ بوفاة ماكس، وتقديمها الدليل، تأكيداً على موهبتها في استشراف المستقبل. استمعت إلى هذيانها، وتمتمت بين الحين والآخر بكلمات تعاطف كانت كلَّ ما هو مطلوب منِّي؛ كنت لا أزال في حالة من نشوة الحبِّ لا شيء يمكن أن يخترقها. فكَّرت، باهتياج لا يرحم، في المحاضرة التي كان من المفترض أن ألقيها في هذه اللحظة بالذات على طلَّابي في المعهد؛ موت القندس الكبير، بالإضافة إلى الغارات الجوّيَّة، سيفترض اضطراباً خطراً في جدول التدريس في المستقبل القريب. ثمَّ هناك مشكلة كتبي؛ هل سأجد ناشراً جديداً الآن، أو هل يمكنني الاعتماد على الخرِف عملياً إيمانويل كلاين لمواصلة دعم شريكه لي؟ حقاً، كان كلُّ شيء غير مريح للغاية.

كانت فيفيين قد أمرتني بالعثور على نيك وإخباره بما حصل. لم يكن في المنزل، ولم أتمكَّن من الوصول إليه في الوكالة. استغرق منِّي الأمر حتَّى وقت الغداء لأجده، في مطعم هنغاريا، حيث كان حشد صاخب، في أحد جانبي غرفة الطعام، يسعدون بتناول طعامهم، في حين كان النادلون ذوو المراويل الزرق، في الجانب الآخر من الغرفة، يكنسون الزجاج والشظايا عن نافذة كانت قد انفجرت من جرَّاء قذيفة نزلت في الليلة السابقة على المكان. نيك، بزيِّه العسكريِّ، كان يتناول غداءه مع سلفيا لايدون وشقيقتها. توقَّفت للحظة في المدخل، وأنا أشاهده يتكلَّم ويبتسم، ويدير رأسه في كلا

الجانبين وإلى الأعلى، بتلك الطريقة الخاصَّة به، كما لو أنَّه يقذف إلى الخلف من على جبينه جناحَ الشعر الأسود اللامع الذي لم يعد أصلاً موجوداً هناك، فيما عدا في ذاكرتي (كان، بطبيعة الحال، قد أصبح أصلع، وهذا أنسب له، فكَّرتُ، لكنَّه كان شديد الحساسيَّة في هذا الموضوع لأنَّه كان مغروراً بشعره). كانت أشعَّة الشمس تضرب على الطاولة، والفتاتان -سيلفيا بدت كقطَّة متراخية في حضور نيك، ليديا هي عانس رسميّاً في الوقت الحالي لكنَّها طائشة أكثر من ذي قبل- كانتا تضحكان بسبب نكتة رواها نيك، وفجأة رغبت في الاستدارة والمضيِّ بعيداً بسرعة -أستطيع رؤية نفسي أخطو خارج الباب وأسفل الدرج- وأترك الأمر لشخص غيري كي يمحو مربَّع الشمس الضعيف على الطاولة، حيث ارتاحت يد نيك، وهي تحمل سيجارة من طرفها، وارتفع عمود أزرق صقيعيٌّ رفيع من الدخان، متعرِّج، مستعجل، مثل سلسلة من إشارات استفهام مرتعشة. التفت نيك برأسه، ورآني، وعلى الرّغم من أنَّ ابتسامته بقيت في مكانها، إلَّا أنَّ شيئاً ما خلفها ترنَّح وانكمش. نهض وجاء عبر غرفة الطعام، محافظاً على نظرته عليَّ، وإحدى يديه في جيبه، والثانية تحمل سيجارته. لـمَّا وصل إلى المدخل حيث كنت أقف، توقَّف، ومال برأسه إلى جانب واحد، ونظر إليَّ، مبتسماً، متوتِّراً، قلقاً، رابط الجأش، كل ذلك في الوقت عينه.

«فيكتور»، قال مستغرباً بطريقة متحفِّظة، كما لو كنت صديقاً قديماً وليس عزيزاً بالقدر الكافي كان قد عاد على نحو غير متوقَّع بعد غياب طويل.

«أخبار سيِّئة أيُّها العجوز»، قلت.

تقلَّص هذا الشيء الخائف وراء نظرته. ارتعش قليلاً، عابساً في حيرته، ثمَّ حملق في ما وراء كتفي كما لو كان يتوقَّع رؤية شخص آخر يتقدَّم نحوه.

«لكن، لماذا أرسلوك؟»، قال.

«طلبت منّي فيفيين أن أجدك».

تعمَّق عبوسه. «فيفيين...؟»

«إنَّه والدك»، قلت، «كان في لندن الليلة الفائتة. توفِّي في القصف. أنا آسف».

التفت إلى جانبه للحظة، متشنِّجاً، ثمَّ أطلق زفيراً مهسهساً سريعاً كان أقرب إلى تنفُّس الصعداء. تقدَّمت نحوه، ووضعت يديّ على ذراعيه فوق المرفقين. «أنا آسف نيك»، قلت من جديد. أدركت أنَّني منتصب. أومأ ذاهلاً، واستدار نحوي، وببطء ألقى جبينه على كتفي. كنت لا أزال أضمّه بين ذراعيَّ. من طاولتهما نظرت الأختان لايدون إلينا في مهابة غير معتادة، ووقفت سيلفيا، وشاهدتها تمشي باتِّجاهنا بحركة بطيئة، تتلألأ خلال شقوق عموديَّة متناوبة من أشعَّة الشمس والظلِّ، يدها مرفوعة، وشفتاها متباعدتان توشك أن تقول شيئاً. كان نيك يرتعش، وكانت لحظة تمنَّيت ألَّا تنتهي.

*

تمَّ التعرُّف بالفعل على جثَّة ماكس رسميّاً من قبل بريفورت، ذلك المجهول الغامض -من كان يمكن أن يكون؟- الذي تكلَّمت معه عبر الهاتف، لكنَّ نيك أصرَّ على رؤية والده للمرَّة الأخيرة. وبينما كان يجلس صامتاً مع الأختين لايدون في المطعم، وكلٌّ واحدة منهما تمسك إحدى يديه، وتحملق فيه بتعاطف، ومن طرف ليديا على الأقلِّ كان ثمَّة خليط صريح من الشهوة. أجريتُ سلسلة جديدة من الاتّصالات الهاتفيَّة الصعبة والمحبِطة بمراكز مختلفة لما يُدعى سُلطة، نتج عنها القبول بأنَّه إذا كانت جثَّة شخص

يدعى بريفورت قد اكتشفت في ليزلي ستريت، الأمر الذي بدا أنَّ جميع المجيبين عن الاتِّصالات يشكُّون فيه -لم تتعرَّض ليزلي ستريت لقذائف، كما أخبرت، وماذا كان ذاك الاسم من جديد؟- فحينها إذاً من المحتمل أنَّه قد نُقل إلى محطَّة تشارلينغ كروس، التي كانت تستخدم في ذاك الصباح كمشرحة مؤقَّتة. لذا مشينا، نيك وأنا، إلى وايتهول في ضوء أشعَّة الشمس الربيعيَّة الحادَّة، متجاوزين تمثال تشارلز الأول المصنوع من النحاس المقوَّى المقاوم للصدأ. في جميع الجوانب كانت هناك تلال ضخمة من الأنقاض فوقها كان رجال الإسعاف ومتطّوعو الدفاع المحلِّيّ يتدافعون مثل تجَّار الخردة. في منطقة ستراند، كان تدفُّق المياه المتتالي يوحي بفرساي. إلَّا أنَّ الدمار، بغضِّ النظر عن مدى توسُّعه، كان مخيِّباً للآمال على نحو غريب؛ بدت الشوارع غير مدمَّرة، بل يعاد ترتيبها، كما لو كان مخطَّط إعادة بناء واسع قيد التنفيذ. أدركت أنَّني كنت أضع أملاً كبيراً على الحرب الجوّيّة؛ وهو ما ترغب الصحف هذه الأيَّام في تسميته نسيج مجتمع قويٍّ على نحو يوقع الكآبة في النفس.

«شيء مضحك»، كان نيك يقول، «موت الأب. أنت فقدت والدك- ماذا يشبه ذلك؟»

«مروِّع. ومع ذلك فيه شيء من التحرُّر، أيضاً».

توقَّفنا حيث تجمَّع حشد صغير ليحدِّقوا إلى حفرة لغم في الطريق. في أسفل الحفرة كان اثنان من النقَّابين يتأمَّلون، في رعب عظيم، قنبلةً ضخمة ممتلئة مثل يرقة عملاقة، تستلقي على جانبها نصف مدفونة في الطين.

«اعتقدت أنَّني أنا من سيتعامل معها»، قال نيك، «اعتدت على تصوير ماكس والبائسة أمّي يمشيان لرؤية البقايا المدمَّاة»، توقَّف، «لست متأكِّداً من أنَّني أستطيع النظر إليه. أعرف أنَّنا قمنا بكلِّ هذا من أجل ذلك،

لكنَّني فقدت أعصابي الآن. فظيع، أليس كذلك؟»

«نحن وصلنا تقريباً»، قلت.

أومأ برأسه، وهو لا يزال مذهولاً، يراقب النقَّابين وهما يؤدّيان عملهما بحذر شديد.

«أتساءل كيف سيكون عليه الحال»، قال، «لو انفجر هذا الشيء الآن».

«نعم. خطرت في بالي الفكرة عينها الليلة الماضية».

الليلة الماضية.

«هل كنَّا لنعرف أنَّنا سنموت»، قال، «أو هي مجرَّد لمعة ثمَّ لا شيء».

في المحطَّة وجَّهنا الحارس المسؤول عن الاحتياطات ضدَّ الغارات الجويَّة إلى أبعد منصَّة، حيث ألقيت الجثث، عدد ضخم منها، جنباً إلى جنب في صفوف أنيقة تحت شراشف من الكتَّان. اصطحبتنا ممرِّضة، كانت ترتدي خوذة من الصفيح وحزام رصاص للكتف، إلى أسفل الصفوف. كانت امرأة ضخمة مشتَّتة الذهن ذكَّرتني بهيتي كما كانت عليه حالها في سنيّ شبابها. وبينما كنَّا نسير على طول المنصَّة كانت هي تحصي الأرقام تحت أنفاسها، وفي النهاية انتفضت عند إحدى الجثث المغطَّاة، وسحبت الشرشف الكتّانيَّ. اكتسى ماكس تعبيراً مضطرباً، كما لو كان يعاني نوبات حلم معقَّد، والعلامة على جبينه حيث أصابته الشظيَّة كانت على نحو مفاجئ صغيرة وناعمة، وكانت أقرب إلى شقٍّ جراحيٍّ منها إلى جرح. ركع نيك على نحو أخرق، وانحنى إلى الأسفل وقبَّل وجنة أبيه. لـمَّا وقف من جديد حاولت ألَّا أنظر إليه وهو يمسح شفتيه بظهر يده.

«أحتاج إلى شراب»، قال، «هل تعتقد أنَّ ثمَّة حانات لا تزال مفتوحة؟»، رمقته الممرضة بنظرة استهجان باردة.

أمضينا بقيَّة فترة ما بعد الظهر نحاول أن نثمل، لم ينجح الأمر كثيراً. كانت حانة ذا غريفن مزدحمة، والجوُّ كان حتَّى أكثر هستيريَّة من المعتاد. كويريل كان هناك، جاء وجلس إلى طاولتنا، وصار يتنبَّأ بانهيار عامّ للروح المعنويَّة، يتبعه على الفور فوضى واقتتال داخليّ. «سيكون هناك قتل في الشوارع»، قال، «انتظرا تريا». ثمَّ تأمَّل في نظريته برضا واضح. لم يخبره نيك بوفاة والده، وأنا بدوري بقيت أفكِّر في داني، وفي كلِّ مرَّة أفعل ذلك كنت أختبر حقّاً اندفاعاً خفيّاً من الجذل كان مع كلِّ حلاوته، في ضوء الظروف، مخزياً للغاية.

في وقت لاحق، اتَّصلت فيفيين. كانت قد جاءت إلى لندن، وهي الآن في بولاند ستريت.

«كيف اهتديتِ إلى مكاننا؟»

«تخاطر. إنَّه أمر في الدّم. هل نيك بخير؟»

كان الهاتف حارّاً ولزجاً في يدي، وكنت أتساءل ما إذا كان داني لا يزال في المنزل؛ تخيَّلته يظهر في غرفة الجلوس مرتدياً صدريَّته، وصورة أخرى له مع فيفيين يجلسان على الأريكة -تلك الأريكة- يجريان محادثة طويلة لطيفة.

«نيك ليس على ما يرام»، قلت، «ليس شخصاً في حال جيِّدة».

صمتت للحظة.

«لمَ أنت سعيد جدّاً، فيكتور؟ هل ترك لك بابا شيئاً في وصيَّته؟»

لـمَّا وصلنا، أنا ونيك، إلى بولاند ستريت، لم يكن داني هو من يجالسها، بل بوي. كانا قد شربا معظم زجاجة الشمبانيا. نهض بوي وعانق نيك بإحراج غريب. كانت عينا فيفيين محاطتين بهالتين حمراوين، وعلى

الرَّغم من ذلك ابتسمت لي ببهاء. ولـمَّا ربَّتت على المساحة إلى جانبها على الأريكة، تذكَّرت داني وهو يفعل الشيء نفسه في الليلة السابقة، فأشحت بنظري.

«هل احمرَّ وجهك خجلاً، فكتور؟»، قالت، «ماذا كنت تفعل في الأيَّام السابقة؟»

كان بوي يرتدي ثوب المساء كاملاً، ماعدا خُفَّي المنزل.

«مسامير القدم»، قال وهو يرفع قدماً، «إنَّها تقتلني. لكن لا يهمُّ، كلُّ ذلك من العمل في الـــ (بي بي سي)، لا أحد يلاحظ».

كان قد وصل الآن ليو روذنستاين، والأختان لايدون برفقة طيَّارين أخرقين من سلاح الجوِّ الملكيِّ البريطانيِّ، وامرأة تدعى بيليندا، بشعر أشقر باهت وعينين بنفسجيَّتين غريبتين، ادَّعت أنَّها صديقة مقرَّبة من فيفيين على الرَّغم من أنَّه لم يسبق لي أن قابلتها من قبل. كان حظر الأنوار قد أرخى بظلاله، وبوي نسي موضوع الـ (بي بي سي)، وبدلاً من ذلك أحضر المزيد من الشمبانيا، ومن ثمَّ وضع أحد ما أسطوانة موسيقا جاز. كانت الحفلة قد بدأت.

في وقت لاحق صادفت ليو روذنستاين في المطبخ وهو يجري محادثة مرحة للغاية مع الشقراء الشملة بيليندا. ابتسم لي ابتسامته الأكثر استبداداً، وقال:

«يجب أن تشعر بالراحة التامَّة، ماسكل- إنَّه احتفال إيرلنديٌّ بالموت».

في وقت لاحق، والمزيد من الضيوف يصلون، وجدت نفسي محاصراً من جديد بكويريل الذي دفعني إلى الزاوية وحاضر فيَّ عن الدين. «نعم، نعم المسيحيَّة هي دين العبيد، الجنود المشاة، الفقراء، الضعفاء -لكن بالطبع أنت لا تحسب أولاء أناساً على الإطلاق. حقّاً أنت لا تفعل ذلك، أنت

ورفاقك الخارقون[126]». بعناء كنت أستمع إليه، وأومئ وأهزُّ برأسي حين الضرورة. كنت أتساءل من جديد عن مكان داني -لم أتوقَّف عن التفكير في ذلك طوال اليوم- وما الذي كان يفعله. تذكَّرت ملمس كتفه الفولاذيِّ الناعم، والوبر الحارَّ القاسي قليلاً فوق شفته العلويَّة، وتذوَّقت من جديد، في خلفيَّة حلقي، مذاق منيّه السميك الذي له طعم السمك ونشارة الخشب. «على الأقلّ أنا أومن بشيء»، كان كويريل يقول، وهو يدفع وجهه قريباً من وجهي، ويضحك عليَّ ثملاً، «على الأقلِّ، أنا لديَّ إيمان».

*

لم يأتِ داني إلى المنزل في تلك الليلة، أو في الليلة التالية، أو في الليلة التي تليها. نأيتُ بنفسي أطول فترة ممكنة، لكنِّي أخيراً ذهبت إلى بوي. في البداية لم يستطع فهم ما أنا مهتمٌّ به، وقال إنَّ عليَّ ألَّا أقلق، وإنَّ داني يعرف طريقه في العالم، ويمكنه الاعتماد على نفسه في رعاية نفسه. ثمَّ حملق فيَّ عن كثب، وضحك ضحكاً لا يخلو من التعاطف، وربَّت على يدي. «فيك المسكين»، قال، «أمامك الكثير لتتعلَّمه، نوعنا لا يستطيع تحمُّل هذا النوع من الغيرة». في الأسبوع التالي حين وجدت بوي، بعد ظهر أحد الأيَّام، في السرير مع داني، وقفت عند الباب لا أستطيع التفكير في شيء أقوله، ولا أستطيع التفكير في شيء أفكِّر فيه. داني، المستلقي على جانبه، لم يدرك أنَّني هناك حتَّى صرخ بوي بابتهاج، «مرحباً فيك، أيُّها الولد العجوز»، فاهتزَّ، وحَرَّك رأسه، ونظر إليَّ من فوق كتفه، وابتسم ببلادة كما لو كنت شخصاً

---

(126) وردت الكلمة هنا بالألمانيّة Übermenschen، وتعني الخارق/ الخارقون، ولسلامة الجملة بالعربيّة ترجمتها مباشرة. (م)

كان يعرفه منذ زمن بعيد، ويحافظ تجاهه على عاطفة مضطربة وغير واضحة فحسب. ثمَّ فُتح شيء ما في داخلي، لوقت قصير، وعلى نحو مخيف، كأنَّ نافذة صغيرة قد فُتحت على سهل شاسع بعيد مظلم.

الثالث

لقد حان الوقت بالنسبة إليَّ للتحدُّث عن باتريك كويلي، حبيبي القديم، وهو طاهٍ ومدبِّر منزل لا أزال أفتقده بشدَّة. حينما أفكِّر فيه أشعر بالذنب والعار؛ ولست متأكِّداً تماماً من السبب، فأعذِّب نفسي بالسؤال فيما إذا كان قد سقط أو قفز، أو حتَّى ما إذا كان -أيُّها الربُّ العزيز!- أحد ما ربَّما قد دفعه. قابلته حين كان يعمل مساعد مبيعات في متجر جواهر في مركز بيرلنغتون. كنت قد مررت عليه في أحد الأيَّام لشراء مشبك ربطة عنق فضّيّ رأيته معروضاً في إحدى نوافذ المتجر، وأردت شراءه هديَّة لنيك بمناسبة خطابه الوحيد في مجلس العموم، لكن انتهى بي الحال بأن أعطيته لباتريك، احتفالاً بترقٍّ غير عذريٍّ آخر حين جاء إلى سريري في تلك الليلة. كان طويلاً، بقدر طولي، ووسيماً جدّاً بوجهه العابس مقطَّب الجبين. جذعه العلويُّ كان مميَّزاً؛ كلُّه عضلات وأوتار مشدودة وشعر جسم وتريّ مثير. إلّا أنَّ ساقيه كانتا نحيلتين على نحو هزليٍّ، فقد كان أصدفَ، وهي مسألة كان يتحسَّس منها على نحو خاصّ، كما اكتشفت، حين لم أكن حكيماً بما يكفي، وأطلقت إشارة رعناء إليها (استاء مدَّة يوم كامل ونصف ليلة، لكن مع بزوغ الفجر تصالحنا على نحو رقيق؛ لم أستطع أن أكون أكثر... استيعاباً). كان مثلي، من مقاطعة ألستر في شمالي إيرلندا -بروتستانتيّ بالطبع، على الرغم من الاسم المسيحيّ- وانضمَّ إلى الجيش في سنٍّ مبكِّرة ليخرج نفسه من حيِّ الفقراء في بلفاست حيث ولد. ذهب إلى فرنسا في العام 1940 مع الحملة

العسكريَّة؛ كثيراً ما أتساءل عمَّا إذا كنت قد شاهدت رسائله إلى الوطن، بصفتي رقيب الرسائل حينها. ولـمَّا غزاهم الألمان، ألقي القبض عليه في لوفين، وأمضى بقيَّة الحرب في ما لم يبدُ، على الإطلاق، معسكرَ اعتقالٍ كريهٍ في منطقة الغابة السوداء في ألمانيا.

بعد ليلتنا الأولى معاً انتقل معي على الفور -كنت لا أزال أملك تلك الشقَّة في الطابق الأخير في المعهد- وبدأت في الحال ترتيبَ حياتي المنزليَّة. كان شخصاً مرتَّباً للغاية، وكان هذا مناسباً لي، فأنا إلى حدٍّ ما مهووس بالترتيب (يبدو أنَّ الشَّاذين يشكِّلون حزبين فحسب؛ المهملون، مثل بوي، أو الرهبان أمثالي). كان غير متعلِّم على الإطلاق، وبالطبع، كما كان أسلوبي دائماً، لم أستطع مقاومة محاولة تعريفه بالثقافة. والولد المسكين عمل حقّاً على ذلك، بجدٍّ أكثر ممَّا كان يفعل داني، لكنَّه لم يفلح في ذلك، وسخر أصدقائي وزملائي في المعهد من جهوده. وكره ذلك جدّاً، وحطَّم، في أحد الأيَّام، وعاءً زجاجيّاً في أثناء غضب شديد بعد أن كان نيك قد سلَّى نفسه إبّان مأدبة غداء في الشقَّة بتقليد لهجة باتريك (التي تعود إلى مدينة بلفاست)، ووجَّه إليه أسئلة ملغزة عن موضوع الرسم في القرن السابع عشر، وهو موضوع ينبغي أن أشير إلى أنَّ معرفة نيك به أقلُّ من معرفة باتريك.

كان باتريك مغرماً للغاية بالألبسة الجيِّدة، ويتردَّد على خيَّاطي بحماس وتجاهلٍ غريب لحسابي المالي. لكنَّني لم أستطع مقاومة تدليله، وإلى جانب ذلك، كان مثيراً جدّاً حين يرتدي بذلة حسنة الخياطة. بالطبع، كانت ثمَّة أماكِن عدّة لم أستطع إحضاره إليها، بغضّ النظر عمَّا قد يبدو عليه مظهره الأنيق، فقد كان كافياً أن يفتح فمه ليكشف سوء حاله. وكان هذا سبباً متكرِّراً للخلاف بيننا، مع ذلك خفَّ استياؤه كثيراً حين خاطرت

وسمحت له بمرافقتي إلى القصر في يوم منحي لقب فارس. حتَّى إنَّ السيِّدة و. وبَّخته، وباستطاعتكم تخيُّل ما حدث بعدها. (أتساءل في كثير من الأحيان، بالمناسبة، ما إذا كانت السيِّدة و. تدرك مكانتها البارزة في أخويَّة الشاذِّين. بالتأكيد وجدت والدتها، في صغرها، متعة بالغة في دور إلهة الشاذِّين، وكانت مولعة بإطلاق النكات عن كونها الملكة الوحيدة الحقيقيَّة في قصر مملوء بالملكات. غير أنَّ فكاهة السيِّدة و. كانت أقلَّ بذاءة، مع أنَّها كانت حقّاً تحبُّ المزاح مع تعابير وجهها الكالحة. يا إلهي. أنا أفتقدها، أيضاً).

كان ظهور باتريك بمنزلة مرحلة جديدة في حياتي -المرحلة الوسطى، كما يمكن للمرء أن يقول- زمن الراحة والتفكير والدراسة العميقة التي كنت سعيداً بها بعد سنوات الحرب. في أيِّ حال، كان مشهد لندن قد هدأ، ولا سيّما بعد أن ذهب بوي إلى أمريكا، على الرغم من أنَّ حكايات أفعاله هناك التي كانت تصلنا عبر المحيط الأطلسيِّ كانت تنشِّط حفلات العشاء المملَّة بصورة مختلفة. في العموم، كنت راضياً كالمفتون بزوجته، وتعبير «المفتون بزوجته» استخدم هنا في غير محلِّه لأسباب تقنيَّة. كان لدى باتريك أفضل صفات الزوجة، ولحسن الحظِّ كان يفتقر لاثنتين من أسوأ صفاتها: لم يكن أنثى، ولا ولوداً (أسأل نفسي، في أيَّام الاحتجاج هذه، وهذا السعي إلى ما يسمَّى تحرُّراً، ما إذا أدركت النساء تماماً كم يكرههنّ الرجال على نحو عميق وحزين). لقد اعتنى بي جيّداً؛ كان رفيقاً مسليّاً، وطبّاخاً ماهراً، وعاشقاً فاتناً ولو لم يكن مغامراً. كان أيضاً قوَّاداً واسع الحيلة، على نحو خالٍ تماماً من الغيرة الجنسيَّة، كان يحضر لي أولاداً بشغفِ قطَّة خجول تمضغ فئراناً نصف مضغة عند قدمي سيِّدها. كما أنَّ فيه خصلة استراق النظر، واستغرق الأمر منِّي بعض الوقت لأتغلَّب على احتشامي الغريزيّ، فأسمح له

بمشاهدتي وأنا أثب على السرير مع أولاء المخلوقات شبه البرّيَّة.

قبل موظّفو المعهد وجود باتريك في حياتي دون ملاحظة. بالطبع، كنَّا متحفِّظَين للغاية، على الأقلّ في الساعات التي تُفتح فيها المعارض للجمهور. كان باتريك يحبُّ إقامة الحفلات، وقليل من هذي الحفلات كانت تصبح صاخبة على نحو مقلق حقّاً لأنَّ رفاقه كانوا يميلون إلى إثارة الصخب. في الصباح التالي، مع ذلك، في الوقت الذي أصارع فيه آثارَ الشرب، تكون الشقَّة قد رُتِّبت بالكامل، وأزيلت مسبِّبات الفوضى، وأعقاب السجائر، وزجاجات البيرة الفارغة قد رُميت، وكُنست السجَّادات، والأجواء صافية وهادئة كما في الجزء الداخليِّ الأزرق لغرفة نوم سينيكا في لوحة بوسان فوق مكتبي، التي، في النهاية، لم يسرقها أحد الضيوف، أو تهشَّمت إلى قطع كما تخيَّلت أنَّها ستكون في كوابيسي المخمورة.

لم تأتِ فيفيين قطُّ إلى الشقَّة. قابلتها في هارودز في أحد الأيَّام حين كنت مع باتريك. وبعد أن عملت التقديمات المغمغمة وقفنا نتحدَّث لدقيقة، وكنت أنا الشخصَ الوحيد المحرَج. كان نيك يخال باتريك مزحة، وكنت آمل أن تنتابه الغيرة -وأقصد نيك. نعم، أنا مثير للشفقة، أعرف. في الجانب الآخر باتريك أحبَّ نيك من اللقاء الأوَّل، وكان يتضايق منه كثيراً، حين يزورنا، وهو يتبعه مثل كلب، ضخم، ودود لكن غير مبتهج للغاية. لم يبدُ أمراً مهمّاً سلوكُ نيك السيِّئ، فقد كان باتريك يغفر له دائماً. كان نيك يتقدَّم نحو منتصف العمر بخطا جليلة، ووزنه يزداد، لكن ما كان يراه الآخرِون فظّاً فيه هو ارتداؤه عباءة متغطرسة. لم يعد يتمتَّع بذاك الجمال الناعم، الشيطانيِّ على نحو ساحر، الذي كان يملكه حين كان في العشرينات؛ لنكن صادقين، كان يبدو مثل شابٍّ بريطانيٍّ رفيع المقام، نبيل، مهيب،

أنيق، بهذا اللمعان الذهبيِّ الرائع، الكامل الذي اكتسبه كلُّ الأثرياء والأقوياء على مرِّ السنين، ولا أعرف كيف. ذاك السلوك التفاخريُّ المتصابي، الذي لطالما كنت أراه هزليّاً ومحبَّباً، كان، مثل جسده، قد أصبح سمجاً، وسحق آخر مسحات حسِّ الفكاهة، الذي لم يكن بطبيعة الحال أحد خصاله القويَّة. فيما مضى كان جازماً، وحماس الشباب ويقينه يحفّزانه، أمَّا الآن فهو يتكلَّم مثل الأساقفة، تطغى على وجهه النظرة المخيفة الثابتة لشخص متنمِّر لا يجرؤ أحد على معارضته. كان قد أسَّس على مرِّ السنين، قافلة مكوَّنة من رجل واحد، مراكماً الأشياء الثمينة في الحياة، المال، السلطة، الشهرة، الزوجة والأولاد -فتاتان رائعتان ضخمتان، إحداهما نسخة عن أمِّها، والأخرى عن خالتها ليديا- والآن، أينما يظهر كان يحمل ثقل هذه الثروات معه، مثل سلطان شرقيٍّ يمشي أمام بطانته المكوَّنة من النساء الملثَّمات والعبيد المرهقين. ومع ذلك، بقيت أحبُّه، بلا أمل، على نحو خارج عن إرادتي، خجلاً من نفسي، وأضحك عليها؛ عالِم، متزمِّت، في منتصف العمر، تائق إلى شخص مثله، متخم، واثق جدّاً من نفسه، عمود جليل من أعمدة طبقته. كم كنت موهوماً. الحبُّ، لطالما كنت أجده في أعظم حالاته حين يكون المحبوب غير جدير به.

في نهاية إحدى تلك الحفلات، حفلات السُّكر والعربدة في الشقَّة، اعترفت لباتريك بكلِّ شيء عن حياتي السرّيّة الأخرى. ضحك، ولم يكن هذا الردَّ الذي توقَّعته. قال إنَّه لم يضحك مثل هذا الضحك مُذ أصيب ضابطه الآمر بطلق ناريّ من رشَّاش ألمانيّ حين كانوا في فرنسا. كان على علم بأنَّ لي شأناً مهمّاً في العالم السرّيّ للوكالة، لكن أن أعمل لصالح موسكو فهذا أمر عدَّه نكتة رائعة. كان يعرف ما يعنيه العيش بالخفاء، بالطبع.

وأراد معرفة كلِّ التفاصيل؛ تحمَّس للغاية، وبعدها توهَّج في الفراش على نحو خاص. لم يكن ينبغي لي أن أخبره عن تلك الأشياء. لقد مضيت في الأمر بعيداً. حتَّى إنَّني ذكرت الأسماء، بوي، ألاستير، ليو روذنستاين. كانت حماقة وتبجُّحاً منِّي، لكن أوه، لقد متَّعت نفسي حقّاً حين سمحت لكلِّ شيء بالانسياب.

كنَّا، أنا وباتريك، قد تشاجرنا في الليلة التي مات فيها، وهذا ما سبَّب لي تأنيب ضمير متواصلاً أكاد لا أحتمله. كنَّا قد تشاجرنا من قبل كثيراً بالطبع، لكن كان هذا أوَّل عراك حقيقيٍّ محتدم وعنيف كنت سمحت له أن يحصل بيننا؛ الأوَّل، والأخير. لا أذكر كيف بدأ -واثق من أنَّه كان من أجل شيء تافه. وقبل أن ندرك حقيقة الأمر وجدنا نفسينا نتجادل بشراسة، وكلٌّ منَّا يصرخ في الآخر غير واعٍ هذا الغضب الذي اعترى جسدينا على نحو جامح مثل زوج من عاشقين مخبولين هالكين في ذروة عرض أوبرا فاشل. تمنَّيت لو أنَّني عرفت القدر الحقيقيَّ الذي ينتظر باتريك المسكين بعد ساعات قليلة فقط؛ لم أكن حينها لأقول له مثل تلك الأشياء الفظيعة المروِّعة، ولم يكن هو ليجلس مكتئباً في الساعات المبكرة، ولا شرب أفضل شراب براندي لديَّ، ولا خرج إلى الشرفة وسقط عبر الظلام الدامس، من على ارتفاع طابقين، إلى موته في الفناء المضاء بضوء القمر. كنت نائماً حين سقط. أتمنَّى لو كنت أستطيع توثيق ذاك الحلم المشؤوم، أو أقول إنَّني استيقظت في خوف لا يمكن تفسيره لحظة وفاته. إلّا أنَّني لا أستطيع؛ أنا كنتِ نائماً، وهو كان متمدِّداً هناك على الحجارة، ورقبته النحيلة مكسورة، ولا أحد ينظر في أمره إن كان حيّاً أو ميتاً، أو يسمع أنفاسه الأخيرة. وجده البوَّاب حينما كان يقوم بجولته الصباحيَّة. أيقظني صوت حذاء الشابِّ على

الدرج «أستميحك عذراً، سيِّدي، أخشى أنَّ ثمَّة حادثة...»

في الوقت الذي كنت فيه لا أزال أخضع لجولة أخرى من الاستجوابات في الوكالة، وعلى نحو غريب جدّاً، تبيَّن أنَّ ذلك كان في مصلحتي، فبيلي ميتشيت وجماعته كانوا توَّاقين، مثلي، للإبقاء على الأمور هادئة. ظنُّوا أنَّني كنت، بعد سنوات من الاستجواب، أُوشكُ أن أنهار وأخبرَ بكلِّ شيء، وآخر ما كانوا يرغبون فيه أن تشتمَّ الصحافة الرائحة. لذلك كانت لأحدهم كلمة لدى الشرطة، وفي وقت لاحق لدى محقِّق الوفيات، وفي النهاية لم يرد ذكر للأمر في الصحف. كنت مرتاحاً للغاية؛ فضيحة كهذه كان سيكون لها أثر سيِّئ في القصر، حيث كنت لا أزال أُعامل بجفاوة. بقيتُ داخل الشقّة لأسابيع، أخاف الخروج. وكانت الآنسة ماكلنتوش، سكرتيرتي، تجلب لي البقالة وزجاجات الجن، وهي تحمل الأغراض إلى أعلى الدرج بنفسها على الرّغم من كبر عمرها، ومن التهاب المفاصل لديها، مبارك قلبها الطاهر اللطيف. إلّا أنَّني سرعان ما أدركت أنَّه يجب عليَّ ترك الشقَّة، فالإشارات إلى باتريك كانت في كلِّ مكان؛ كيف بكيت، وانحنيت مرَّتين عند طاولة المطبخ، ألفُّ وجهي بين قبضتيَّ. لـمَّا التقطت كوباً، في أحد الأيَّام، بصمات أصابع باتريك الخمس كانت مطبوعة بوضوح على جانبيه المخدَّدين. وجدت شيئاً آخر أيضاً. لـمَّا جمعت شجاعتي أخيراً لأذهب إلى الشرفة لاحظت أنَّ مقبض النافذة الفرنسيَّة كان مكسوراً بطريقة توحي أنَّ أحداً ما قد كسره بالقوّة. سألت سكراين ما إذا كان أصحاب الشأن قد زاروا البيت يفتِّشون عن أدلَّة ضدِّي، لكنَّه أقسم إنَّه لم يرسل أيَّ جاسوس على الإطلاق. صدَّقته. ومع ذلك، بقي الشكُّ يساور عقلي؛ هل صادف باتريك دخيلاً في الشقَّة تلك الليلة، باحثاً خفيّاً لم يترك أثراً، إلّا إذا كنتم تأخذون في الحسبان جثَّة

محطَّمة ملقاة في الصمت وضوء القمر؟ ألست أتوهَّم فعلاً؟ باتريك، آه، أيُّها الساذج المسكين.

*

في الوقت الذي كانت فيه المعارك المحتدمة في أوروبّا في طريقها إلى النهاية، رُقِّيتُ إلى رتبة رائد، وشاركت في بعض أشرس هجمات المخابرات الأجنبيَّة في الحرب. (تخيَّلوا هنا ابتسامة التواضع، وتصفية الحلق الأجشّ). على الرّغم من اجتهادي ونجاحاتي، لم أتمكَّن قطُّ من التسلُّق إلى أعلى مستويات التسلسل الهرميّ في الوكالة. وأعترف أنَّ هذا قد سبَّب لي الاستياء والخزي. كان نيك في القمَّة، وكويريل، وليو روذنستاين، بل حتَّى بوي، في بعض الأحيان، قدِّم لهم الدعم، ونُقلوا للمشاركة في المداولات الأوليمبيَّة في الطابق الخامس. (يا لها من مهزلة تلك التي أدَّوها هناك أربعتهم!) لم أستطع أن أفهم لمَ جرى استبعادي. كان يُشار إليَّ بتلميحات توحي بأنَّني فاسق جدّاً، وبأنَّني أستمتع بالمكر والخدع المزدوجة ولا يمكن أخذي على محمل الجدِّ تماماً، في حين رأيت أنَّه أمر مضحك، ولا سيّما حين كنت أفكِّر في نزويَّة نيك وإهماله المتكرِّر في شؤون الأمن. وإذا كان يُنظر إليَّ بأنَّني قذر على نحو خطر، فماذا عن بوي؟ لا، لقد قرَّرت: السبب الحقيقيُّ في أنّي رُفضت على نحو مستمرّ هو أنَّني كنت أُعاقَب بسبب انحرافي الجنسيِّ. ربَّما لم يذكر نيك قطُّ علاقتي مع داني بيركينز، أو العلاقات العديدة الأخرى التي استمتعت بها ما بعدِ فترة داني، لكنَّه كان، قبل كلِّ شيء، أخا زوجتي، وخال أبنائي. وكانت حقيقة علاقاته الغراميَّة الخاصّة الفاضحة - كمثال العلاقتين اللتين أقامهما في الوقت عينه مع الأختين لايدون، وصولاً إلى، كما قال بعضهم، ما بعد

زواجه من سيلفيا- حقيقة غير مهمَّة، على ما يبدو. لا أحتاج إلى القول إنَّني مُنعت من ذكر تلك الاتِّهامات. على أحدنا ألّا ينتحب؛ إنَّها القاعدة الأولى للرواقيِّين.

في أعماقي كنت خائفاً من أنَّ استبعادي من الطابق الخامس قد يكون بسبب شيء أكثر خبثاً من مجرَّد إجحاف، أو كلمة مسمومة قالها نيك. غذَّى خوفي استمرار هذا الصدى الغريب، تلك النقطة الضعيفة على جهاز السونار، التي بدا أنَّني لم أستطع التقاطها على نفسي عند منعطفات مهمَّة في فترة خدمتي في الوكالة. في بعض الأحيان، كنت أتوقَّف جامداً في مساراتي، مثل مسافر يتوقَّف في طريق ريفيٍّ في الليل، مقتنعاً أنَّه مُلاحق، على الرغم من أنَّه لـمَّا يتوقَّف، تتوقَّف الخطوات التي يتخيلها وراءه أيضاً. أغرب جوانب الموضوع كان أنَّني لم أستطع معرفة ما إذا كان هذا المطارد كظلٍّ، في حال وجوده، صديقاً أو عدوّاً. تصبح الأشياء في حوزتي أجزاء من معلومات، وثائق، خرائط، أسماء لم تكن ملكيَّتها من شؤوني الحقيقيَّة؛ تلك التي لم أسعَ إليها، لُقى ممتازة جعلت أوليغ يفقد أعصابه، على الرغم من أنَّه كان يسمح دائماً لطمعه بأن يتغلَّب على شكوكه. كان ثمَّة تأثير معاكس أيضاً، حين تكتسب فجأة قطعةُ المعلومات هذه أو تلك، التي كانت موسكو تطلبها، وغالباً ما تكون ذات درجة متدنّية، تصنيفاً أمنيّاً يضعها بعيداً عن متناول يدي. وسط كلِّ هذا، اعتقدت أنَّني اكتشفت ملاحظة خبيثة على نحو مخادع؛ كان الأمر كما لو أنَّني كنت راغباً في الرقص من أجل تسلية شخص ما، وبغضِّ النظر عن نضالي من أجل ذلك، فإنَّ الخيوط، الحسَّاسة والرائعة للغاية، بقيت مشدودة بإحكام إلى كاحليّ ومعصميّ.

شككت في الجميع، ولفترة من الزمن شككت حتَّى في نيك. إبّان

فترة الحرب، وفي ظهر أحد الأيَّام المكتومة بالضباب في عزِّ الشتاء، لـمَّا كنت مع أوليغ في مقهى راينير -نعم، واصلنا اجتماعاتنا هناك حتَّى النهاية، على الرغم من أنَّه كان قاب قوسين أو أدنى من الوكالة- رأيت نيك في الشارع يمشي إلى جوار النافذة الملطَّخة، وأكاد أقسم إنَّه لاحظني، مع أنَّه لم يبدِ أيَّ إشارة سوى أنَّه رفع قبَّعته واختفى في الضباب. دخلت بعد ذلك في دوَّامة شكّ لأيَّام، لكنَّ شيئاً لم يحدث. قلت لنفسي إنَّ كلَّ ذلك كان هراء. هل كان من المحتمل أنَّ نيك دخل في لعبة القطّ والفأر التي شككت في أنَّها كانت تُلعب معي- هل كان أصلاً يتحلَّى بالبراعة والذكاء ليلعبها؟ لا، قلت، لا، إذا وجب على نيك أن يرصد أنَّ أحد مقرَّبيه، حتَّى لو كان صهره، يرتبط سرّاً بوحدة تحكُّم سوفييتيَّة- حينها كان أوليغ معروفاً للجميع- فإنَّه كان ليسحب مسدَّسه العسكريَّ، ويندفع بخطاه إلى داخل محلِّ ريتشارد هاناي لبيع الشاي، ويدفع بالكراسي والندل جانباً، ويسير باتجاهي كي يسحبني ليتعامل معي رجال الأمن الداخليِّ في الوكالة. رجل الحافز والفعل السريع، المستقيم للغاية، وليس أحمقَ، تلك هي الصورة التي اختارها نيك كي يروِّجها لنفسه.

إذاً، هل هو بوي؟ لا: ربَّما كان قد بدأ الأمر على أنَّه مزحة عمليَّة، لكنَّه سرعان ما سئمها. كان ليو روذنستاين مشتبهاً به محتملاً. هذا النوع من الألعاب الراشحة بالازدراء بكلِّ أناقة كان يمكن أن تستهوي محدث نعمة من أبناء المشرق أو أرستقراطيّاً مثله، لكنَّني لم أعتقد أن كانت لديه حدَّة الذهنِ من أجلها، لا، ولا حتّى النزوع إلى الإيذاء، على الرغم من حفلاته، ومزحاته الثقيلة، وعزفه الراقص على البيانو. بيلي ميتشيت، غنيٌّ عن القول إنَّني أفكِّر فيه على الإطلاق. إذاً، لا يبقى سوى كويريل؛ كانت فرصة سانحة

له تماماً أن يلهو بي ويدفعني إلى هذا الطريق، أو إلى ذاك، ليسلِّي نفسه فحسب. أذكر أنَّه مرّة قال، وكان ثملاً حينها، إنَّ حسَّ الفكاهة ليس سوى الوجه الآخر من اليأس؛ أعتقد أنَّ هذا كان صحيحاً بالنسبة إليه، على الرغم من أنَّني لست متأكِّداً من أنَّ كلمة فكاهة هي الكلمة التي يمكن تطبيقها على نمط حياته اللاهية التي كان يلعبها ويمارسها مع العالم. وليست كلمة يأس مناسبة أيضاً مع أنَّني لا أستطيع التفكير في ماهيَّتها. لم أعتقد قطُّ أنَّه كان يؤمن بأيِّ شيء، حقّاً، على الرغم من كلِّ حديثه الحماسيِّ عن الإيمان والصلاة والنعمة الإلهيَّة.

في لحظاتي الأقلّ صخباً، سلَّمت بأنَّ هذه المخاوف والشكوك كانت وهماً. لم يكن أحد قادراً على التفكير بجلاء في سنوات الحرب الأخيرة المحمومة تلك، وأنا كان لديَّ الكثير لأكون محموماً أكثر من البقيَّة. كانت حياتي قد أصبحت نوعاً من التمثيل المسرحيِّ المحموم الذي قمت فيه بكلِّ الأدوار. لربَّما كان أمراً يمكن تحمُّله أكثر لو تسنَّى لي أن أنظر إلى المأزق الذي أنا فيه بطريقة تراجيديَّة، أو على الأقلّ جادَّة، أو لو سنح لي أن أكون هاملت تقوده ولاءات متضاربة إلى افتعال الحيل والتنكُّر والتظاهر بالجنون؛ لكن لا، كنت أقرب إلى أحد المهرِّجين، أعدو داخل المسرح وخارجه، وأقوم، على نحو يائس، بتغييرات سريعة، فأرتدي قناعاً فقط لأخلعه مباشرة، وأبدِّله بآخر، في حين يعانق الجمهور الوهميُّ لأسوأ تخيَّلاتي، كلَّ الوقت خارج الأضواء، نفسَه بسعادة مروّعة. بوي، الذي عربد في الأداء المسرحيِّ، وفي خطورة الحياة المزدوجة، اعتاد أن يضحك عليَّ (يا إلهي، هو ذا شيفرشانك وشكوكه من جديد!)، وكنت أحياناً أشكُّ في أنَّه حتَّى أوليغ كان يسخر من شكوكي وقلقي. إلَّا أنَّ حياتي كانت أكثر من حياة مزدوجة. كنت في يوم من

الأيَّام زوجاً وأباً، مؤرِّخاً فنّيّاً، مدرِّساً، عميلاً حصيفاً ومجدّاً للوكالة؛ ثمَّ هبط الليل، وخرج السيِّد هايد ليطوف خلسة[127]، في حالة من الإثارة المجنونة، برغباته المظلمة، وأسرار بلاده تقبض على صدره. لـمّا بدأت الخروج للبحث عن الرجال كان كلُّ شيء مألوفاً بالنسبة إليَّ: النظرة السرّيَّة المتأمِّلة، إشارات الأيدي، التبادل الفارغ لكلمات المرور، التحرُّر الحارُّ المتعجِّل- كلُّه، كلُّه كان مألوفاً. حتَّى الأماكن كانت نفسَها، في المراحيض العامَّة، حانات الضواحي القاتمة، الأزقَّة الخلفيَّة المليئة بالقمامة، وفي الصيف في حدائق المدينة الحالمة، الخضراء الرقيقة، البريئة، التي تلوَّث جوُّها المعتدل بهمساتي السرّيّة. في كثير من الأحيان، في وقت إغلاق الحانات، كنت أجد نفسي أقف إلى جانب أحد ما يحتمل أن يكون جنديّاً ببراجم أصابع حمر، أو رجلَ مبيعات متجوِّلاً مرتعشاً يرتدي معطفاً طويلاً، في إحدى حانات جورج الشهيرة أو حانات كوتش أو حانات فوكس آند هاوندز، في الزاوية نفسها داخل الحانة حيث كنت أقف مع أوليغ، في وقت سابق من اليوم، أمرِّر له فيلماً أو حزمة من الوثائق التي كان يفترض أنَّ الوكالة تعدّها سرّيّة للغاية.

الفن،كان الشيء الوحيد غير الملوَّث في حياتي. في المعهد كنت أحياناً أفلت من طلَّابي وأنزل إلى القبو في الأسفل وأُخرج شيئاً ما، ليس من الحجم الكبير، وليس لوحة سينيكا خاصَّتي التي كانت لا تزال مخزَّنة هناك، وليس إحدى لوحات سيزان العظيمة، بل رسماً لتيبولو[128]، في سبيل المثال، أو لوحة

(127) إشارة إلى شخصيّة هايد في رواية قضيّة الدكتور جيكل والسيِّد هايد للروائيّ الاسكتلنديّ روبرت ستيفنسون، نشرت في لندن عام 1886، من أشهر الروايات التي تتناول صراع الخير والشر داخل النفس الإنسانيّة، وهايد كان الجانب الشرير داخل الدكتور جيكل، وكان يصحو ليلاً لينفذ جرائمه. (م)

(128) جيوفاني باتيستا تيبولو (1696-1770)، رسّام إيطاليّ شهير من جمهوريّة البندقيّة، اشتهر باختراعه أنموذجاً جديداً لزخرفة الروكوكو الشائع حينها. (م)

ساسوفيراتو العذراء تصلِّي[129]، وأغسل حواسِّي بهدوء اللوحة وترتيبها، يتملَّكني الذنب والخوف، وأنا أنظر إلى صفاء اللوحة وتناسقها، مستسلماً كليَّة إلى صمتها الملحّ. أنا أعرف، ومن ينبغي له أن يعرف أكثر منِّي، أنَّ الفنَّ يُفترض به تعليمنا رؤية العالم بكلِّ صلابته وحقيقته، لكنَّ القدرة على السموّ، في تلك السنين، حتَّى ولو لمساحة ربع الساعة، هو ما كنت أسعى إليها مراراً وتكراراً، مثل أسقف يعود كلَّ ليلة إلى بيت الدعارة. ومع ذلك، لم ينجح السحر تماماً. كان ثمَّة خطأ ما، شيء ما متأنِّياً جدّاً، مدركاً لنفسه جدّاً، في مناسبات التأمُّل العميق تلك. كانت تحضر اللحظةَ شبهة احتيال دائماً. إذ يبدو أنَّني لم أكن أنظر إلى اللوحات، لكن إلى نفسي وأنا أنظر إليها. وبدورها تنظر إليَّ، مستاءة، بطريقة أو بأخرى، وتمسك عنِّي بعناد مباركة الهدوء والهروب القصير اللذين كنت أرغب فيهما بشدَّة. مضطرباً، ومغموماً على نحو غير قابل للتوضيح، أستسلم أخيراً، وأغطِّي اللوحة، وأبعدها، يملؤني الإحراج، كما لو أنَّني كنت مذنباً بقلَّة الاحتشام. فتأتيني فكرة رهيبة هي أنَّني ربَّما لا أفهم الفنَّ على الإطلاق، وأنَّ ما أراه فيه، وأسعى إليه، ليس موجوداً هناك، أو إذا كان كذلك، فإنَّني أنا من وضعته هناك. هل أمتلك أيَّ أصالة على الإطلاق؟ أو هل تعاملت بازدواجيَّة لفترة طويلة حتَّى فقدت نفسي الحقيقيَّة؟ نفسي الحقيقية، آه.

في تلك السنوات، لم نكن نتقابل كثيراً، أنا وفيفيين. هي اشترت، بالمال الذي تركه لها والدها، بيتاً صغيراً في مايفير، حيث عاشت ما كان بالنسبة إليَّ حياة غامضة، لكن تبدو مطمئنة. كان ثمَّة مربِّية للطفلين، وكان ثمَّة خادمة لها. كما كان لها أصدقاؤها، وكما أتخيَّل، عشَّاقها، لم نكن

---

(129) لوحة شهيرة تمثّل صلاة مريم العذراء، انتهى من رسمها في العام 1650 جيوفاني باتيستا سالفي دا ساسوفيراتو (1609-1685)، وهو رسّام إيطاليّ. (م)

نتكلَّم في مثل هذي الأمور. هي قبلت تبدُّلي الجنسيَّ دون أيِّ تعليق؛ أظنُّها وجدت الأمر مسلِّياً. كنَّا نتعامل مع بعضنا بلطف، وباحترام بارد، ودائماً نتوخَّى الحذر. لم ترقَ أحاديثنا المتبادلة إلى حدِّ المحادثات بقدر ما كان حديثاً مقتضباً، تماماً مثل مبارزة بين صديقين محبَّين يحوطهما الحذر. ومع مضيّ السنين تعمَّق حزنها، رعته مثل سرطان. كلٌّ منَّا كانت لديه خساراته؛ حزنت على والدها لوقت طويل بطريقتها المغلَّفة؛ ولم أدرك كم كانا قريبين إلى بعضهما، وصُدمت على نحو غريب. والدتها ماتت أيضاً، بعد سنين من التواصل الشجيِّ مع المغدور القندس الكبير. والمسكين فريدي مات. عاش ستَّة أشهر في ما كان يدعى الدار، ثمَّ استسلم بهدوء لنوع من أنواع الالتهاب الرئويّ- لم يتَّضح قطُّ ما الذي قتله بالضبط. «أوه، لقد كان القلب هو ما انكسر»، قال لي آندي ويلسون في الجنازة، «كان متلهّفاً، مثل كلب عجوز كنت أرسلتَه بعيداً عن مكانه الخاصّ»، ورمقني بنظرة سامَّة خبيثة. هيتي في ذلك اليوم، كانت أكثر ذهولاً من أيِّ وقت مضى. في المقبرة، ربَّتت على كمِّ ثوبي بارتعاش، وقالت بصوت أجشّ أقرب إلى همس مسرحيٍّ: «لكن فعلنا ذلك قبل الآن». كانت تظنُّها جنازة والدي التي كنَّا نحضرها. في ذات صباح من ذلك الشتاء، سقطتْ على الدرج الأماميِّ المتجمِّد لكنيسة القدّيس نيقولا، وكسرت حوضها. ومن المستشفى نُقلت مباشرة إلى دار رعاية المسنِّين، حيث، لتفاجئ الجميع دون أن تفزع أحداً، بمن فيهم هي نفسها، عاشت هناك لمدَّة خمس سنوات أخرى، مشوَّشة الذهن، وأحياناً مرتبكة وتائهة في ماضي طفولتها البعيد. ولـمَّا ماتت أخيراً، عهدتُ إلى وكيل محلِّيٍّ ببيع المنزل؛ كانت هناك أشياء لا يستطيع تحمُّلها حتَّى قلب قاس مثل قلبي. في ظهيرة يوم المزاد قرأت في سيرة بليك روايةَ الشاعر الخاصَّة عنه كيف أنَّه غادر كوخه

في أوَّل صباح له في قرية فيلفام الحلوة، وسمع ابن الحارس يقول لأبيه أبي، البوَّابة مفتوحة، وشعرت أنَّ والدي يرسل رسالة إليَّ، بطريقة ما، وعلى الرغم من أهميَّتها لا أستطيع الإخبار عنها.

*

ذهبت مع بوي إلى الحانة في اليوم الذي وصلنا فيه خبر موت هتلر. كان يوم العمَّال. بدأنا الشرب في حانة ذا غريفن، وترنَّحنا في حانة ذا ريفورم، مع استراحة في مرحاض عامّ في هايد بارك، المرحاض الكبير جانب سبيكرز كورنر الذي كان من المفترض أن يكون مكاني المفضَّل للصيد في السنين الأخيرة. وتلك أوَّل مرَّة أكون فيها خجولاً جدّاً من القيام بشيء سوى مشاهدة حركة الناس، على الرغم من كميَّة شراب الجن التي شربتها. ظللت أراقب، في حين كان بوي مع حارس شابٍّ قويِّ البنية بشعر أحمر وأذنين جميلتين للغاية يصدران صخباً، ويمارسان جنساً في أحد الأكشاك يتَّضح من الأصوات أنَّه لم يكن مُرضياً. وبينما كنت أقف حارساً دخل رجل هزيل يرتدي معطفاً واقياً من المطر وقبَّعة مستديرة، وألقى بنظرة باتِّجاه الباب غير المنغلق تماماً في الخلف، وكان يمكن سماع الأصوات وراءه بوضوح، الآهات والصرخات المخنوقة، وصفعة فخذي بوي القويَّة على ردفي الشابِّ ذي الشعر الأحمر. اعتقدت أنَّ الرجل لا بدَّ كان محقِّقاً، وقلبي وثب من مكانه تلك الوثبة الخفيفة الغريبة التي سأختبرها جيِّداً في السنوات القادمة في مثل هذه الظروف، التي كان مصدرها مزيج من الخوف والمرح الجامح والبهجة الفاجرة كلِّيَّة. تبيَّن أنَّ المتسكِّع ليس شرطيّاً، إذ إنَّه بعد أن نظر مرَّة أخرى بحزن إلى باب الكشك، ومن ثمَّ، بيأس إليَّ -واثق أنَّه ظنَّني

هاوياً- زرَّر بنطاله وتوارى في الظلام. (بالمناسبة، أنا شديد الأسف للتبنِّي العالميِّ لسحَّابات السراويل في نهاية حقبة الخمسينيَّات الجميلة. صحيح أنَّ السحّاب يعزِّز الوصول بسرعة، ولا سيِّما إذا كان المرء تنازعه رعشات العشق، لكنَّني كنت أحبُّ رؤية تلك الحركة الملتوية الأنيقة لأصابع اليد وهي تحاول فكَّ الأزرار التي غالباً ما يكون فكُّها صعباً؛ الإبهام والسبَّابة مشغولان كفأرين في حين ينأى بنفسه بعيداً ما سمَّاه الأمريكان على نحو بهيج الإصبع الصغير، الأمر الذي استحضر لي، ولو للحظة غريبة ورائعة، صورة سيِّدة مجتمع تحاول إمساك فنجان شايها بأصابع مرتجفة).

استيقظت في صباح اليوم التالي على الأريكة في بولاند ستريت، متصدّعاً من أثر الكحول، وكما هي الحال دائماً بعد قضاء ليلة في الخارج مع بوي، مليئاً بقلق كامن لا مسوّغ له، والهاتف يزقزق إلى جانب أذني. كان المتَّصل بيلي ميتشيت، مع استدعاء عاجل. لم يخبر شيئاً، لكنَّه بدا متحمِّساً. لـمَّا دخلت غرفته وقف وخبَّ نحوي من جانب مكتبه، وصافح يدي بشدَّة، مصدراً صوتاً عظيماً، ونظر أمام كتفي في شيء من الذهول. في هذا الوقت، كان مراقب الوكالة، لكنَّه كان لا يزال أحمق.

«إنَّه القصر»، قال بهمس مشحون، «هم -هو- هو يريدك أن تأتيه في الحال».

«أوه، هل هذا كلُّ شيء»، قلت وأنا ألتقط خيطاً فالتاً من طرف كمِّ قميصي؛ لقد أدهشني كم أفتقد ارتدائي للزيِّ العسكريّ. فكَّرت في أن أذكر لبيلي أنَّ صلة قربى تربطني بالملكة، لكنَّني قلت لنفسي إنَّني فعلت ذلك من قبل، ولم أرغب في أن أظهر كمن يضرب على وتر العلاقات، «ربَّما يتعلَّق الأمر بتلك اللوحات اللعينة في ويندسور التي لا يزال يفترض بي أنَّني

أؤرشفها له».

هزَّ بيلي رأسه متحمِّساً، متشوِّقاً، متلهّفاً على نحو مداهن. لطالما كان يذكِّرني بالكلب، على الرغم من أنَّني لم أتمكَّن قطُّ من تقرير سلالته.

«لا، لا»، قال، «لا -إنَّه يريدك في مهمَّة من أجله»، فتح عينيه واسعاً، «يقول إنَّها حسَّاسة للغاية».

«إلى أين؟»

«ألمانيا أيُّها الشابُّ العجوز- بافاريا الرهيبة. ما رأيك في ذلك، إيه؟»

*

جرى تعيين سيَّارة تابعة للوكالة، مع سائق، لأخذي إلى القصر، وهذا مؤشِّر في حدِّ ذاته، في تلك الأيَّام التي شهدت تقنيناً في البنزين، إلى مدى تأثُّر بيلي بهذا الاستدعاء الملكيِّ. أوصلنا سائقي إلى بوَّابة حرس الخيَّالة الملكيِّ، حيث كان هناك خفير أحمق بمظهر جميل، وبكامل ردائه الرسميِّ؛ قبَّعته الفرويَّة الأسطوانيَّة، وباقي الأشياء. هزئ من بطاقة مروري، وتحرَّك معنا. بدا كلُّ ذلك مألوفاً على نحو غريب، وأدركت حينها السبب: كنت أسترجع ذاك اليوم، قبل عقد مضى، حين قدت في طريقي إلى ساحة الكرملين، كما اعتقدت، لمقابلة والد الشعب. قاعات السلطة كلُّها متشابهة، ليس لأنَّ القصر كان يتمتَّع بالسلطة، مع أنَّ جلالته كان لا يزال لديه- أو يعتقد أنَّ لديه، في أيِّ حال- نفوذ أكبر ممَّا لدى ابنته السيِّدة و. اليوم. هو لا يحظى بتقدير كبير، أعرف ذلك، لكنَّه كان برأيي أحد أكثر ملوك العصر الحديث دهاءً.

«ستكون مشكلة عويصة»، قال، «إذا نجح شبّان حزب العمَّال، كما يبدو مرجّحاً الأمر على نحو متزايد». كنَّا في إحدى قاعات الاستقبال العظيمة

الباردة، التي تعدُّ أحد الملامح الكئيبة لذلك القصر الكئيب. كان واقفاً عند النافذة، يداه مشبوكتان خلف ظهره، مقطِّباً جبينه وهو ينظر إلى حدائق القصر التي تغسلها أشعَّة الشمس الرقيقة. كانت ثمَّة قطع فحم تحترق في موقد كبير، ومزهريَّة فيها أزهار نرجس برّيّة ذابلة فوق رفِّ الموقد. نظر إليَّ من فوق كتفه «ما رأيك، ماسكل؟ -أنت عضو أصيل في حزب المحافظين- أليس كذلك؟»

كنت جالساً، غير مرتاح، على كرسيٍّ مذهل من طراز لويس كوينز، وساقاي متصالبتين، ويداي ترتاح إحداهما على الأخرى فوق ركبتي، أبدو مفرطاً في الاحتشام، حسب ما ظننت، على الرغم من أنَّني لم أتمكَّن من التفكير في الطريقة الفضلى لإراحة نفسي في ضوء تلك الظروف: كرسيٌّ صغير، أطراف متجمِّدة، الاقتراب مكانيّاً من الملك. جلالته في حالة تشي بأنَّنا لسنا هنا في مزاج احتفاليّ، الحالة التي طالما وجدت صعوبة في تحمُّلها.

- «أعتقد أنَّني من حزب الأحرار[130] أكثر من كوني من المحافظين، سيِّدي»، قلت. ارتفع حاجبه الأيسر، وأنا أضفت «من حزب الأحرار المخلصين، بالطبع».

التفت إلى النافذة مع تجهُّم أعمق، لم تكن هذي، قلت لنفسي بامتعاض، بدايةً مبشِّرة للجمهور.

«بالطبع، فقد البلد السيطرة على نفسه»، قال بنكد؛ تأتأته كادت لا تكون ملحوظة حين كان يتكلَّم على هذا النحو، «وكيف لا تكون كذلك بعد مَا وجب علينا تحمُّله في سنوات الحرب الأخيرة؟ لعلمك، في أغلب

---

(130) فصيل سياسيّ، أصبح بعدها حزباً سياسيّاً في البرلمان الاسكتلنديّ، ومن ثمّ الإنكليزيّ. تصارع على السلطة مع المحافظين منذ ثمانينيّات القرن السابع عشر حتّى خمسينيّات القرن التاسع عشر. (م)

الأحيان أفكِّر في أنَّ عواقب الحرب هي التي كان لها الأثر الأعمق، وليست الحرب نفسها. النساء في المصانع، كمثال، أوه، لقد رأيتُهنَّ، ببناطيلهنَّ، يدخِّنّ السجائر، ويغتبنَ. قد قلت منذ البداية لن ينتج عنها خير- والآن، انظر أين نحن».

سقط في صمت كئيب. وأنا انتظرت، أتنفَّس بصعوبة من أعلى رئتيَّ. كان يرتدي بذلة من ثلاث قطع، مثاليَّة من التويد الناعم، مع ربطة عنق عسكريَّة؛ يا له من هدوء، يا له من تألُّق غافل، حتَّى في مزاجه السيِّئ- لا يمكنك حقّاً الفوز على الملوك في وقارهم وقت المحن. كان في الخمسين، لكنَّه بدا أكبر. وقلبه حينئذ كان قد بدأ يتهاوى.

«السيِّد آتلي»، قلت بحذر حكيم، «يبدو رجلاً عاقلاً».

هزَّ كتفه.

«أوه، آتلي بخير؛ أستطيع التعامل مع آتلي، لكن من حوله...!»، اهتزَّ غاضباً، ثمَّ تنهَّد، واستدار، ومشى نحو الموقد، ودفع بمرفقه فوقه. نظر باستكانة إلى زاوية بعيدة في السقف، «حسناً، سيتعيَّن علينا العمل معهم جميعاً، أليس كذلك. نحن لا نريد أن نعطيهم ذريعة لإلغاء الملكيَّة»، خفض عينيه فجأةِ من السقف وحدَّق إليَّ تحديقة مبتهجة، «هل علينا ذلك؟ ماذا يقول ابن حزب الأحرار المخلص؟»

«ليس لديَّ أدنى اعتقاد، سيِّدي»، قلت، «بأنَّ كليم آتلي، أو أيَّ شخص في حزبه، يحاول، أو حتّى يرغب في إلغاء العرش».

«من يعرف، من يعرف؟ كلُّ شيء ممكن في المستقبل -وهُم المستقبل».

«لبعض الوقت، ربَّما»، قلت، «حياة الحكومات قصيرة؛ والعرش دائم». حقّاً، فكرة أنَّ اليسار المعتدل في السلطة لأيِّ مدَّة زمنيَّة ملحوظة جعلتني

أرتعش من الداخل. حارّاً، انتشر نَفَس ما بعد شرب الكحول في مريئي مثل نار من فرن، «الناس واقعيُّون، لن ينخدعوا بوعود المربِّي للجميع، ولا سيّما حين يكون الخبز لم يُخبَز بعد حتَّى الآن».

ابتسم شاحباً.

«جيِّد جدّاً ما قلتَ»، قال، «مضحك جدّاً».

نظر إلى السقف من جديد؛ كان في خطر أن يضجر. عمدت إلى تقويم جلستي.

«المراقب، سيِّدي، الآمر ميتشيت، ذكر شيئاً عن ألمانيا...؟»

«نعم، نعم، تماماً»، أمسك بكرسيٍّ ثان مذهَّب ووضعه قبالتي، وجلس، المرفقان على الركبتين، واليدان متشابكتان أمامه، ثمَّ نظر إليَّ بجدّيّة، «أريد أن أسألك خدمة، فيكتور. أريد أن تذهب إلى بافاريا، إلى ريغينسبورغ- هل تعرف المكان؟- وتعيد بعض الأوراق التي يحتفظ بها ابن عمٍّ لنا. ويلي- وهو ابن عمِّنا المقصود- يمكنك القول إنَّه أمين الأرشيف لأسرتنا، المعيَّنُ ذاتيّاً. أجرؤ على القول إنَّ جميعنا قد تعوَّد عادة سيِّئة- إعطاءه... وثائق، وما إلى ذلك، من أجل حفظها في مكان آمن. ثمَّ اندلعت الحرب بالطبع، ولم يك ثمَّة طريقة لاستعادة الوثائق حتَّى لو كان ويلي على استعداد للإفراج عنها: إنَّه مرعب، ويلي العجوز، حين يتعلَّق الأمر بأرشيفه الثمين». توقَّف، بصعوبة كما بدا، وجلس بلا حراك لوقت طويل ورأسه محنيٌّ في يديه. لم يسبق له قطُّ أن خاطبني باسمي المسيحيّ (وبالمناسبة، لم يفعل ذلك في مناسبة أخرى). كنت مسروراً، بالطبع، وراضياً، وأعتقد أنَّني ربَّما كنت خجولاً بعض الشيء، ليس على نحو غير لائق، كما آمل، لكنَّني صدمت أيضاً، لكن لم أكن منزعجاً. أعتقد أنَّني كنت قد نوَّهت سابقاً، أنا ملكيٌّ مخلص كما كلُّ

الماركسيِّين الجيِّدين في أعماقهم. ولم أحبَّ أن أسمع الملك...، حسناً، ينزل من قيمته على هذا النحو. فكَّرت أنَّ تلك الأوراق لا بدَّ أنَّها وثائق حسَّاسة للغاية. كان جلالته لا يزال يعبث على نحو بليد بأصابعه المتشابكة. «أذكر لـمَّا كنتَ في ويندسور»، قال، «تعمل على تلك اللوحات الخاصَّة بنا- بالمناسبة، ألم تنهِ ذاك الكاتالوج بعد؟»

«لا، سيِّدي. إنَّه عمل فيه مضيعة للوقت. وكانت الحرب...»

«أوه، يا إلهي، نعم، نعم، أفهم، كنت أتساءل فحسب. كما تعلم، أتساءل... فحسب».

وقف فجأة وكاد يقلب نفسه من على الكرسيِّ الذي ارتدَّ لفترة قصيرة على ساقيه الصغيرتين الأنيقتين. بدأ يخطو جيئة وذهاباً أمامي، ويلكم برفق قبضة يده براحة يده الأخرى. ملك متردِّد هو مشهد لا ينسى. «تلك الـ.. آه، الوثائق»، قال، «ثمَّة رسائل من جدَّتي الكبيرة إلى ابنتها فريدريك، وأخرى من أمِّي إلى أبناء عمومتها الألمان. أوراق أسريَّة فحسب. أنت تفهم، لكن ليست أشياء ترغب في رؤيتها وهي تقع بين أيدي بعض الزملاء في الصحف الأميركيَّة، الذين لن يكونوا ملزمين بالصمت بموجب القانون الإنكليزيِّ. يبدو أنَّ الجيش الأميركيَّ قد سيطر على شلوس آلتبرغ، وحوَّلها إلى شيء مثل مركز ترفيهيّ لقوَّاته؛ آمل أن يكون لدى ويلي حسٌّ بإخفاء جواهر الأسرة- ونظراً لطريقة تسلُّطه على أمِّه في هذه الظروف فإنَّني أكاد لا أرغب في التفكير في ذلك. ستقابلها، الكونتيسة، دون شكّ»، أظهر منظر شبح مرتعش، وامتصَّ أنفاسه بشدة، كما لو كان يتذكَّر شيئاً مؤلماً، «هي شخص مرعب».

راقبته وهو يسير بخطا سريعة، وتأمَّلتُ في الاحتمالات الممتعة لهذه

المهمَّة التي سأُرسل فيها. أعلم أنَّه لم يكن ينبغي لي ذلك، لكنّي لم أتمكَّن من مقاومة الضغط قليلاً، برقَّة شديدة، على ما كان واضحاً أنَّه منطقة مكدومة وحسَّاسة.

«أظنُّ أنَّ من الأفضل، سيِّدي»، قلت ببطء، بنبرة اهتمام متذلِّل، «لو عرفت تفاصيل قليلة أكثر عن الأوراق التي يرغب القصر بشدَّة في استردادها. فأنا اكتشفت، من عملي» -أحبُّ تلك اللمسة- «أنَّه كلَّما زادت كميَّة المعلومات التي يحصل عليها المرء فإنَّ احتمال نجاح المهمَّة الموكلة إليه يصبح أكبر».

أطلق تنهيدة ثقيلة، وتوقَّف عن السير، وجلس بائساً على الأريكة المقابلة للموقد وهو يضغط بمفصل إصبعه السبَّابة على شفتيه المزمومتين وينظر نحو النوافذ. شخصيَّة راقية على الرغم من ضعفها. تساءلت عمَّا إذا كانت لديه ميول شاذَّة- لم أعرف قطُّ ملكاً حتَّى الآن ليست لديه هذي الميول. كنت أفكِّر بالتحديد في المعسكرات الصيفيَّة المخصَّصة لأولاء الفتيان من الطبقة العاملة التي كان يدعمها بحماس شديد. لاحظت أنَّه كان يرتدي جوربين صوفيَّين سميكين، ظهرا كأنَّهما حيكا يدويّاً، ليس بمهارة عظيمة؛ ربَّما كانت إحدى الأميرات قد حاكته له- فكَّرت في أنَّها الأميرة الأكبر عمراً، فلسبب ما لم يكن في وسعي تخيُّل الأميرة الصغيرة منشغلة بالصنَّارات وكتاب التصاميم. الآن تنهَّد من جديد، تنهيدة أثقل.

«كلُّ أسرة لديها مشكلاتها، وتعاني من»، قال، «نعجتها السوداء، وما شابهِ ذلك. أخي...»، تنهيدة جديدة، نعم كنت أنتظر أن يظهر أخوه قبل وقت طويل، «لقد تصرَّف أخي بحماقة بالغة في السنوات التي سبقت الحرب. وخُلع بشقِّ الأنفس، كما تعرف، عن طريق... التنازل، وكلّ تلك الأمور؛ شعر أنَّ

الأسرة، والبلد، خذلاه. وأنا أفترضُ أنَّه يريد الانتقام، شابٌّ مسكين. تلك الاجتماعات مع هتلر- حماقة بالغة، حماقة بالغة. وكان ويلي، كما ترى، ابن عمِّنا ويلي، رجلاً أذكى بكثير من المسكين إدوارد، كان الوسيط بين قادة النازيَّة وأخي و... زوجته».

أصبحت تأتأته أكثر وضوحاً.

«وأنت تعتقد»، قلت بلطف، «أنَّه ربَّما كان ثمَّة... مستندات تتعلَّق بتلك الاجتماعات؟ تسجيلات؟ بل حتَّى وثائق نصّيَّة؟»

ألقى نظرة خاطفة باتِّجاهي، متردِّدة، متضرِّعة، تكاد تكون خجلى، وعيناه تقطران بالشقاء، وأومأ برأسه.

«نحن نعلم أنَّ ثمَّة ما هو موجود»، قال بصوت أجشّ خامد مثل صوت طفل وقت النوم خائف من احتمال حلول الظلام، «نحن نثق بك، سيِّد ماسكل، لاستعادتها. كلّنا ثقة بأنَّك رجل المهمَّة، ونعلم أنَّك ستُبقي الأمر سرّاً».

بدوري أومأت برأسي، ورسمت تكشيرة عميقة لأشير إلى الموثوقيَّة والتصميم القويّ. سأحافظ على الأمر سرّاً، جلالتك، سأحافظ على الأمر سرّاً.

*

نُقلت إلى ألمانيا على متن طائرة شحن تابعة لسلاح الجوِّ الملكيِّ البريطانيِّ، رُبطت على نحو ثابت إلى كرسيٍّ مؤقَّت وسط أكياس البريد المنهارة وصناديق البيرة التي كانت تصطكُّ مثل الأسنان. دمار مذهل في الأسفل: غابات متفحِّمة، وحقول سود، ومدن بيوتها بلا أسطح. في أرض المطار، خارج نوريمبيرغ، استقبلني ضابط مخابرات في الجيش، شرير على نحو واضح،

بشارب أشعث وابتسامة معتوهة. أخبرني أنَّ اسمه النقيب سميث، لكنَّ هيئته تقول إنَّه لا يتوقَّع من أحد تصديقه. رحَّب بكلِّ شيء قلته بابتهاج ساخر وارتعاش شارب ينمُّ عن شكٍّ، مفترضاً، كما فكَّرت، أنَّني أيضاً لا بدَّ أكذب بشأن هويَّتي وغرضي، بسبب المهنة، إن لم يكن بسبب شيء آخر. لا يعني ذلك أنَّه كان مطلوباً منِّي ألّا أقول أكثر من الحدِّ الأدنى: سرعان ما أخبرني سميث، على نحو مزدرٍ، أنَّه غير مهتمٍّ بي مهما كان ما أنا وراءه. كانت لديه سيَّارة جيب سافرنا فيها بسرعة مرعبة عبر شوارع المدينة المدمَّرة، ثمَّ خرجنا منها إلى داخل الريف. كانت شمس آخر أيَّام الربيع تشرق بلا رحمة على الحقول المهمَلة. كان السائق برتبة عرِّيف، بديناً بأذني خنزير صغيرتين، وكتفين مدوَّرتين ككتفَي طفل، ومؤخِّرة عنقه ذات الشعر الخفيف تراكمت فيها طيَّات جلديَّة ثخينة فوق بعضها. دائماً ما أنجذب إلى السائقين؛ ثمَّة شيء مثير على نحو غريب في طريقة جلوسهم المصمِّمة دون حراك وراء المقود، صارمين جدّاً، على نحو ما بجلال، لا يكلِّمون أحداً، يبدون كأنَّهم يدفعون بالأميال خلفهم كأنَّهم عمَّال فولاذ يسحبون أكبالاً فولاذيَّة بأطوال محدَّدة لا تلبث أن تختفي وراءهم. سميث وهو، كان يعامل أحدهما الآخر بنوع من الازدراء الغاضب والساخر، يتشاحنان بصوت خفيض حقود مثل زوج شقيّ وزوجه في رحلة يوم أحد. قطعنا مسافة التسعين كيلومتراً إلى ريغينسبورغ في زمن يزيد على الساعة بقليل.

«سأعطي أدولف العجوز تلك»، قال سميث، «يمكنه أن يبني طريقاً لعيناً رائعاً».

«نعم»، قلت، «تماماً مثل الرومان»، وفوجئت حين استدار سميث دورة كاملة في مقعده، ليحملق فيَّ راسماً على وجهه تعبيراً باسماً وساخراً

على نحو عنيف.

«أوه، نعم»، شخر، وصوته مخنوق بغضب لا يمكن تفسيره، «الرومان وطرقهم!»

وصلنا أخيراً إلى ريغينسبورغ، وهي مدينة صغيرة غريبة، كثير من أبراجها المربَّعة الشاهقة تعلوه أعشاش اللقلق الضخمة، وتوحي بشمالي أفريقيا أكثر من قلب أوروبا، وهو انطباع تعزَّز لديّ حين وصلت للمرَّة الأولى، لـمَّا رأيت هلالاً مغربيّاً معلَّقاً في السماء المخمليَّة الأرجوانيَّة الشاحبة لتلك الأمسية. نزلتُ في فندق صغير حقير يُدعى ذا تيركس هيد. ودَّعني سميث دون مراسم عند باب الفندق، وابتعد مع سائقه، والسيَّارة ضرطت، وأخرجت دخاناً عظيماً من عادمها حين التفَّت على عجلتين عند المنعطف. حملت حقائبي وحدي. هناك، كان الجنود الأميركيُّون في كلِّ مكان، في الحانة، في قاعة الطعام، وكان بعضهم حتَّى يجلس على الدرجات، يدخِّنون، ويشربون، ويلعبون البوكر بصخب. كانت تنتابهم مشاعر من النشاط الذاهل؛ كانوا مثل أطفال مرهقين وقت النوم، لكنَّهم يرفضون الذهاب إلى النوم. أطفال، نعم: كان الأمر مثل حملة الأطفال الصليبيَّة، مع الفارق أنَّ هذا الجيش المكوَّن من أفراد من هنا وهناك من فتيان متخمين لن تلتهمه أوروبا الغول العجوز البغيضة، بل على العكس. إنّما لا تفهموني خطأ كما يقولون هم أنفسهم: أنا لا أكره الأميركيِّين؛ في الحقيقة، أجدهم متجانسين تماماً بطريقتهم القاسية غير الواعية. في الستينيَّات قمت بعدد من الرحلات إلى الولايات المتَّحدة- جولات محاضرات، واستشارات- وذات مرَّة، بغيضة كما تبدو، درَّست لفصل دراسيٍّ واحد في كليَّة ميدل ويسترن، حيث كنت في النهار أشرح عن عظمة الفنِّ الفرنسيِّ في القرن السابع عشر، في غرفة مليئة

بمسجِّلي الملاحظات المواظبين على نحو محموم، وفي المساء أخرج لأشرب البيرة مع الطلاب أولاء أنفسهم الذين أصبحوا الآن مرتاحين، وودودين. أتذكَّر على وجه الخصوص إحدى المناسبات البهيجة في صالون روديو، انتهت بي أسترجع أيَّام قاعات الموسيقا القديمة مع داني بيركينز، وأقف على الطاولة، وأغنِّي أغنية «بيرلنغتون بيرتي» مع إيماءات ملائمة إلى موافقة طلَّابي الصاخبة والمفاجئة ومعهم نصف دزِّينة من المعمِّرين الذين يرتدون جزمات رعاة البقر، ويرقصون جميعاً عند البار. أوه، نعم، آنسة ف. أنا رجل متعدِّد الوجوه، ولم يكن فحسب الشخص الأميركيُّ هو من نال إعجابي (مع أنَّني أكثر من معجب بواحد أو اثنين من طلَّابي، ولا سيّما لاعب كرة قدم شابّ، بلون بشرة عسليٍّ، وشعر كتَّانيّ، وعينين بلون أزرق صافٍ مميَّز، فاجأني، وفاجأ نفسه، بشدَّة حماسه وحرارته على الأريكة الجلديَّة القديمة في مكتبي المغلق، في يوم أحد مشبع بالرطوبة، حين كانت عاصفة صيفيَّة تضرب برعدها أنحاء الحرم الجامعيِّ، والبرق يومض بحماس بين الشرائح الخشبيَّة المنسدلة لستائر النافذة المقعقعة) إنَّما كان أيضاً النظام الأميركيُّ برمَّته، على الرغم من قسوته وكثرة مطالبه، المتآلف مع ركيزته المتمثِّلة بقدرة البشر على ارتكاب الجرائم والرشوة، وفي الوقت نفسه ظهوره بمظهر المتفائل على نحو ثابت لا يكلُّ في وجه كلِّ هذي الجرائم والرشوة. هرطقة أكثر، أعرف، المزيد من الارتداد. قريباً لن يكون لديّ أيُّ معتقدات على الإطلاق، مجرَّد مجموعة من الإنكارات الشديدة.

في ذا تيركس هيد لم يكن ثمَّة عشاء لتناوله: في بافاريا يتعشّون بعد الظهر، ويكونون في السرير عند التاسعة. تجوَّلت في الشوارع، وفي النهاية

وجدت *Bierschenke*[131] مفتوحاً، وجلست لوقت طويل أشعر بالأسف على نفسي، وشربت أقداحاً ضخمة من بيرة شقراء، وأكلت ملء صحون من نقانق صغيرة متَّصلة ببعضها بدت مثل غائط كلب جاف وذابل. دخل قائد طائرة الشحن، وقبل أن نتمكَّن من تجنُّب ذلك لفت انتباهنا إلى بعض، وهكذا، كوننا شابَّين مهذَّبين، اضطررنا إلى قضاء الأمسية معاً. تبيَّن أنَّه كان باحثاً في أيَّام السلم، اختصاصيّاً في مخطوطات العصور الوسطى. كان شخصاً ضخماً خجولاً بعينين حزينتين، ينضح إرهاقاً عظيماً. في السنوات اللاحقة التقيته مصادفةً من جديد، في يوم من أيَّام الصيف الرطبة في حفل حديقة الملكة. قدَّمني إلى زوجته، الليدي ماري، وهي امرأة شاحبة، مصابة بالسلّ، عصبيَّة مثل كلب سلوقيّ، بعينين متقاربتين، وأنف رفيع شاحب، وضحكة معتوهة ضعيفة. لا أعرف كيف وصلنا، هي وأنا، إلى موضوع الأمير جورج- الوسيم جدّاً، الشاذّ جدّاً، الذي قتل في تحطُّم طائرة تابعة لسلاح الجوِّ البريطانيِّ في الحرب- لكن اتَّضح لنا سريعاً، وعلى نحو محرج، لثلاثتنا، أنَّه لـمَّا توفِّي الأمير كان كلانا، الليدي م. وأنا، عاشقاً له.

الآن، سأل بطريقته الخجول عمَّا كنت أفعله في ألمانيا.

«آسف»، قلت، «أمور سرّيَّة وما شابه».

أومأ برأسه، عابساً، محاولاً ألّا يبدو قد أُهين. ثمَّ قضينا بقيَّة السهرة نناقش موضوع الكتب المطبوعة في المراحل الأولى لفنِّ الطباعة، وهو موضوع كانت له دراية فيه على نحو مرهِق.

في وقت مبكِّر من صباح اليوم التالي وصل النقيب سميث إلى الفندق في سيَّارة الجيب مع السائق البدين نفسه. وقادا بي خارجاً إلى آلتبرغ، وهي

---

(131) بالألمانيّة، في الأصل، وتعني نادي لتقديم البيرة. (م)

قرية خلَّابة المناظر تتدلَّى على طرف ربوة صخريَّة فوق الدانوب وتطلُّ عليها القلعة، وهي قلعة طويلة ذات أبراج مخيفة من القرن التاسع عشر لا تتمتَّع بقيمة معماريَّة. كان هناك جسر معلّق يمتدُّ عالياً في الصخور، وفوق البوَّابة لوحة حجريَّة محفور عليها نقش لطاقة من وردة تيودور[132]. في الفناء الضيِّق المتأرجح، زوج من كلاب الصيد، ضخمان، ظهرا كوحشين جائعين، رفعا آذانهما وحدَّقانا كأنَّنا مفاجأة عدوانيَّة. من جديد أوصلني سميث إلى وجهتي، وبدا عليه كما لو كان للتوِّ نفض عن يديه شيئاً بغيضاً؛ ولـمَّا اهتزَّت سيَّارة الجيب فوق الجسر المعلَّق تخيَّلت أنَّني سمعت صلصلة ضحكة ساخرة تنبعث من الخلف.

كان القصر تحت قيادة الرائد أليس ستيرلينغ، وهي امرأة رشيقة، طويلة، بكتفين مرتفعتين، وعينين حادَّتين، في الثلاثينات من عمرها، ذات مظهر رائع على نحو مميز، بشعر أحمر وبشرة شاحبة جدّاً، وبقعة من النمش على جسر أنفها كان ينبغي لها أن تخفِّف من تعبيرها لكنَّها لم تفعل. وجدتها جذَّابة على نحو محرج، أنا، الذي لم تُثره امرأة لسنين؛ لا بدَّ أنَّها بسبب تَينك الكتفين العريضتين ذاتَي المظهر الضعيف.

صافحت يدي بقوَّة، فرفعت ذراعي إلى الأعلى والأسفل كما لو كانت تعمل على مضخَّة مياه؛ شعرت أنَّه كان تحذيراً أكثر منه ترحيباً. كانت من كانساس في أميركا، وكانت دائماً ما ترغب في زيارة أوروبا مُذ كانت طفلة صغيرة، لكن الأمر استدعى حرباً لتجلبها إلى هنا- ألم يكن هذا شيئاً جللاً؟ في قاعة الاستقبال ذات العواميد، انبثقت سلسلة من صور الأسر

---

(132) شعار النبالة لأسرة تيودور، أتى من اندماج رمزي النبالة لأسرتَي يانكستر ويورك، وردة حمراء ووردة بيضاء، بعد توحّد الأسرتين وزواج ملك إنكلترا الجديد هنري تيودور من إليزابيث يورك ابنة إدوارد الرابع ملك إنكلترا السابق. (م)

المتَّسخة تميل بزاوية حادَّة من على الجدران كما لو كانت تسمح للمذهولين القاطنين داخل إطاراتها برؤية أفضل للأشخاص الغامضين الداخلين والخارجين من منزل الأسرة. كانت ثمَّة قطع ضخمة من الأثاث الأسود اللامع، ووسط الأرضيَّة كانت ثمَّة طاولة «بينغ بونغ» تبدو على نحو غريب، مدركة لنفسها، ومهمَلة.

«نعم، المرافق هنا ليست ما يمكنك الادّعاء بأنَّها عظيمة»، قالت الرائد ستيرلينغ، وهي ترفع عينيها، وتسحب فكَّها إلى الأسفل بكلا الجانبين في تعبير يقصد به تصوير البؤس، والابتهاج، والشجاعة، كلُّ ذلك في الوقت نفسه، «ومع ذلك، نجحنا في تقديم وقت طيِّب للأولاد»، هنا لمع بريق تورية في كلامها، «الروح هي المهمَّة، ونحن لدينا كثير منها. لقد تمَّ إطلاق النار على بعض من ضيوفنا على نحو سيِّئ، لكنَّ ذلك لم يمنعهم من تقديم إسهاماتهم. وماذا...»، دون أن تفقد الإيقاع، «يمكننا تقديمه لك. رائد ماسكل؟»

«أفضّل أن أتحدَّث إلى الأمير فيلهيلم»، قلت، «المسألة حسّاسة. هل هو موجود؟»

بقيت الرائد ستيرلينغ بلا حراك تماماً، ثمَّ مالت إلى الأمام قليلاً باتِّجاهي، مثل إحدى تلك اللوحات فوقها، مع رأسها المائل قليلاً، تحدِّق على نحو فارغ إلى نقطة ما في الفراغ أمام كتفي الأيسر، تنمو ابتسامتها الثابتة تدريجيّاً مع أنَّها تبدو تهتزُّ بطريقة ما، كما أتخيَّل حالَ كأس النبيذ بثانية قبل أن يحطِّمها صوت حادّ جدّاً من نوع سوبرانو، من طبقة دو.

«أعتقد أنَّني»، قالت على نحو رقيق ومنذر، «أستطيع الإجابة عن أيِّ سؤال قد يخطر في بالك».

ذكرت بإبهام الأرشيف والأوراق الملكيَّة «ألم تكوني على علم بمجيئي».

أومأت الرائد ستيرلينغ.

«شخص ما أرسل إلينا إشارة، نعم»، قالت، «إنَّها في مكتبي، في مكان ما».

«ربَّما»، قلت، «ينبغي لنا إيجادها، ويمكنك قراءتها من جديد، فربَّما توضّح الأمور».

عندئذ ضحكت ضحكة مبحوحة، وحرَّكت رأسها، ما جعل شعرها الخمريَّ يرتدُّ فجأة.

«توضيح!»، قالت، «يا للعجب، أنتم الإنكليز لديكم فعلاً حسُّ فكاهة. لم أشاهد قطُّ إشارة من شعبك لم تضف إلّا الحيرة على الجميع».

ومع ذلك، قادتني إلى مكتبها، وهي قاعة بارونيَّة، بأرضيَّة حجريَّة، وسقف منحوت ومزيَّن، بالإضافة إلى وجود قطع عملاقة من الأثاث الباروكيِّ المقيت، («ألا تحبُّها؟»، قالت بتكشيرة بدا فيها فمها مربَّعاً، وفكُّها مخلوعاً). وجدتِ الإشارة وقرأتها؛ عبست الرائد، وهزَّت رأسها ببطء في عجب غير المصدِّق.

«ربَّما استخدام عامل الشيفرات كتاب فكِّ الشيفرة الخطأ»، قالت.

«لقد جئت»، قلت بلباقة، «خصِّيصاً بناءً على طلب الملك، الملك جورج السادس، بنفسه، ملك إنكلترا».

«نعم، هذا ما هو مكتوب هنا. رائد ماسكل». تمنَّيت لو تتوقَّف عن مناداتي برتبتي. كان تكرار الكلمة غير ملائم وبدت فيه مسحة من عصر جيلبرت وسوليفان[133]. «لكن لا يمكنني أن أخرج مغلَّفاً مستخدماً من هذه القلعة دون الحصول على إذن من مقرِّ الجيش الأميركيِّ في فرانكفورت»،

---

(133) إشارة إلى الشراكة المسرحيَّة في العصر الفيكتوريّ بين المسرحيّ و.س. جيلبرت (1836-1911) والموسيقيّ آرثر سوليفان. اشتهرا بتقديم الأوبرا الكوميديّة. (م)

وابتسمت كاشفة عن أسنانها، «أنت تعرف كيف هي الأمور».

«بالتأكيد»، قلت بلغتي الحصيفة، «إذا سمح الأمير- أو بالأحرى، والدته، التي أفهم أنَّها ربُّ الأسرة الآن- برحيل هذه الوثائق فلن يكون ثمَّة اعتراض...؟ إنَّها أوراق خاصَّة في النهاية».

شخرت الرائد ستيرلينغ شخيراً قوياً لائقاً برجل.

«لم يعد ثمَّة شيء خاصٌّ في هذا المكان، أيُّها الرائد»، قالت وهي تتشدَّق بلكنة الغرب المتوحِّش، «لا، يا سيِّدي». الأمير فيلهيلم، كما أخبرتني، ووالدته الكونتيسَّة مارغريت، كانا محجوزين في مساكن خاصَّة، «نحن نسمِّيه منزل إقامة جبريَّة، كما تفهم، لكن دعنا نقل فحسب إنَّهما لن يسافرا إلى إنكلترا لزيارة أبناء عمومتهما في قصر باكنغهام لفترة من الزمن. ليس حتَّى يتواصل معهم شبَّاننا في برنامج اجتثاث النازيَّة»، هزَّت رأسها بروح من الدعابة، ثمَّ غمزت.

«مع ذلك قد أتمكَّن من الحديث إلى الأمير...»

«بالتأكيد»، قالت، «لا شيء أسهل؛ سوف تدلُّني على الطريقة». نهضت لتسدل تنُّورتها التي كانت قد ارتفعت وأظهرت معالم رباط جوربها وإبزيمه. يا إلهي، فكَّرت، بذعر جميل... هل يمكن أن أرجع إلى ما كنت عليه قبل شذوذي.

*

كان في الأمير تشابه مذهل مع تمساح هرم ملأته ندوب المعارك؛ فكان لديه جذع سميك، وساقان قصيرتان مستدقَّتان تنتهيان بقدمين في غاية الصغر، بحذائهما الأنيق، بمقدِّمتيه الطويلتين الشبيهتين بالخُفَّين، بحيث لم

يبدُ واقفاً، بل يتوازن على ذيل قويّ بدين وقصير. ورأسه كان كبيراً ومربَّعاً، ومسطَّحاً على نحو غريب في المقدِّمة والجانبين، وشعره مقصوص، ومرتفع عند الصدغين مع خصلة شعر ملساء ضخمة ممشَّطة إلى الوراء عند جبهته. ووجهه كان منقَّراً ومقشوراً، ومحفورة عليه آثار ندبات مبارزة قديمة. كان يرتدي نظارة أحاديَّة العين، تلمع بسرعة، مثل إشارة استغاثة سرّيَّة، ولما تقدَّم لملاقاتي، امتدَّت أمامه يد ضخمة، في أصابعها خواتم، وعليها بقع بنّيَّة، وراحتها مقلوبة كما لو أنَّه يتوقَّع تقبيلها. كان يبتسم ابتسامة مذهولة يائسة كرجل وجد نفسه فجأة تحت رحمة الذين لم يكن في الأيَّام الخوالي ليتلطَّف ويلاحظ ما إذا كانوا قد سقطوا تحت حوافر حصانه. لا بدَّ أنَّه نُبِّه إلى مجيئي لأنَّه كان يرتدي- يحزم نفسه، ربَّما كانت الكلمة الأنسب- معطفاً طويلاً، وسروالاً مقلَّماً، مع صفٍّ من الزخارف المعلَّقة على صدر المعطف، ميَّزت منها الصليب الحديديَّ، ووسام فرسان الرباط. كانت الغرفة التي استقبلني فيها، في الطوابق العليا للقصر، علِّيَّة طويلة بسقف واطئ، بنافذتين جاثمتين في الطرف البعيد، تطلَّان على جانب التلِّ الذي يغطِّيه شجر التنُّوب. ألواح الأرضيَّة كانت مكشوفة، والقطع القليلة من الأثاث الرخيص ارتدت مظهراً طارئاً لأشياء نُقلت على نحو غير رسميٍّ من محيط اعتادته لفترة طويلة وألقيت هنا.

«مرحباً بك في قلعة آلتبيرغ، أيُّها الرائد ماسكل»، قال بلغة إنكليزيَّة لا لكنة فيها. كان صوته حادّاً وعلى نحو غير متوقَّع عالياً، وذلك، كما قيل لي لاحقاً، نتيجة جِرح في الحنجرة أصيب به في إحدى المعارك القديمة- تخيَّلت بذلة حرب معدنيَّة، ورمحاً، وخوذة سحريَّة لامعة- ولـمَّا تحدَّث أرجع شفتيه إلى الوراء فوق أسنانه الكبيرة المصفرَّة كنوع من ابتسامة مزمجرة، «أتمنَّى لو

كنت أستطيع استقبالك على نحو لائق في بيتي، لكن في هذه الأوقات، نحن جميعاً تحت رحمة الظروف».

على نحو جدِّيّ، واستكشافيّ، استمرَّ في مصافحة يدي ببطء، مثل طبيب يختبر درجة الحرارة والنبض، ومن ثمَّ تغيَّرت الحال مع ظهور الرائد ستيرلينغ، وقيامها بحركة تقطيع للهواء بيديها، تشبه حركة الملاكم، وفي الحال حرَّرني وتراجع إلى الوراء خطوة كما لو أنَّه كان يتجنَّب صفعة.

«لقد أرسل الرائدَ ماسكل إلى هنا قصرُ باكنغهام»، قالت الرائد بابتسامة شكٍّ.

«أوه، نعم»، قال الأمير دون أيِّ تأكيد على الإطلاق.

ثمَّ انتقلنا إلى غرفة وطيئة أخرى- لا بدَّ هذي الأماكن كانت سابقاً مرابع للأطفال- للقاء الكونتيسَّة. كانت تجلس على كرسيٍّ ذي ذراع، وظهرها إلى النافذة، ضخمة، مغطَّاة بكتل جلديَّة، قبيحة على نحو ساحر، تفوح منها رائحة بودرة وجه، وقماش غير مغسول. كانت كشخصيَّة خرجت للتوِّ من كتاب غريم[134].كُل أمير ألمانٍّي كان ينبغي له أن تكون لديه أمٌّ كهذه. فحصتني باهتمام شديد، ممزوج بفضول وازدراء. أمَّا الرائد ستيرلينغ، فقد تجاهلتها بفتور رائع. سألتني عن الحياة في ويندسور وبالمورال في ذاك الحين.

---

(134) يقصد هنا كتاب حكايات خرافية من ألمانيا، تأليف الأخوين غريم (جاكوب وويلهم غريم)، وهما كاتبان ألمانيّان، جمعا القصص الشعبيّة في ألمانيا مثل سندريلا، وذات الرداء الأحمر، وغيرها من مشاهير أدب خيال الطفل. نشر كتاب الحكايات في العام 1812. (م)

كانت قد زارت تلك الأماكن مرَّات عدَّة بالطبع، قبل- رفعت إصبعاً، وأومأت بالانصراف، كما لو كانت تلقي شيئاً بعيداً من على كتفها- قبل كلِّ هذا الهراء. كان الأمير قد اتَّخذ وضعيَّة المنادي خلف كرسيِّها، والآن أدارت رأسها الكبير ورفعت نظرها إليه بخليط من السخط والازدراء، ونبحتْ عليه كي يأمر بإعداد مائدة الغداء. التفتت قليلاً باتِّجاه الرائد ستيرلينغ، لكن لم تنظر إليها. «إذاً»، قالت بصوت عال، «مسموح لنا أن نرفِّه عن ضيوفنا في غرف الطعام خاصَّتنا، أليس كذلك؟»

هزَّت الرائد كتفيها، وغمزتني من جديد.

قُدِّمت الوجبة في قاعة خشبيَّة واسعة لها نوافذ مقنطرة تشرف على الفناء. خدم يرتدون ألبسة خاصَّة أقبلوا وأدبروا بصمت، ينتعلون أحذية تصدر صريراً مع حركتهم، وزوج كلاب صيد تحرَّكا تحت الطاولة وهما يعضَّان الفتات المتساقط، وتمدَّدا بين حين وآخر على ظهريهما ليهرشا براغيثهما. أكلنا نوعاً من لحم طرائد بارد، حسب ما أعتقد، مع زلابية بدت كأنَّها خصيتي أمهق عملاق، وكانت كثيفة جداً ولزجة إلى درجة أنَّه بعد أن مرَّت سكّيني بالزلابية فإنَّ شقَّي الجرح أغلقا من جديد مع صوت تقبيل مثير للاشمئزاز. ظهرت نصف دزينة من أسرة الأمير. كانت هناك امرأة ضخمة جليلة بصدر بارز، وخدَّين مشرقين، وتحديقة فاترة مثل تحديقة تمثال مقدِّمة سفينة، لا بدَّ أنَّها كانت زوجة الأمير، وابنتها البالغة، نسخة باهتة من أمّها، بوجه أبيض مع ضفائر شقر رماديَّة ملفوفة على جانبي رأسها مثل سِمَّاعتي أذنين. وكان ثمَّة ولدان قويَّا البنية، حليقا الشعر، لهما ردفان كبيران، وليست لهما رقبتان، كانا على نحو واضح لا يمكن تصديقه ابنَي الأميرة. تدافعا من على كرسيّيهما، ثمَّ تصارعا مثل شبلَي دبّ، فتدحرجا على

الأرض، وارتفعت صرخاتهما إلى السقف الخشبيِّ، وارتدَّت من جديد على نحو عصبيٍّ. جلست الكونتيسَّة إلى رأس الطاولة، وأنا إلى جانبها الأيسر والأمير إلى الجانب الآخر، في حين توارت الرائد ستيرلينغ بعيداً. إلى يساري كان ثمَّة رجل هرم مجهول الهويَّة بالنسبة إليَّ، أصمّ جدّاً، تحدَّث إليَّ بلغة محلّيَّة غير مفهومة إلى حدٍّ كبير حول ما إذا كنت قد فهمته على نحو صحيح، فقد كان عن الطريقة المثلى لقتل الخنزير البرّيِّ وسلخه. قبالتي، جلس شابٌّ أشعث لديه رعشة، يرتدي زيّاً ما أكليريكيّاً مغبرّاً، لم يوجّه كلمة واحدة إليَّ، ولـمَّا حاولت أن أكلِّمه، حدَّقني بعينين واسعتين، ودارت عيناه بعنف كما لو أنّه أوشك أن يقفز من الطاولة ثمَّ يفرّ. لقد خطر في بالي أنَّه من كواكب أخرى، ربَّما كانت هناك كائنات حيَّة بمثل هذا التهذيب الدقيق بحيث تبدو لها الحياة الإنسانيَّة، حتَّى في أعلى حالات تطوّرها، بالتأكيد، حالةً من الكرب المتواصل والجنون والبؤس.

انتهت مأدبة الغداء. أو ينبغي لي أن أقول تلاشت، وجاري الأصمُّ اعتذر بنظرات خبيثة، وغمغم، وانسحب. أمَّا شبلا الدبِّ فأُبعدا بعيداً مع حارسهما ذي العينين الوحشيَّتين، وأمُّهما الطيفيَّة تتبعهم، بدت كأنَّها لا تمشي عبر الباب بل تتلاشى عبره، والكونتيسَّة على عصاها، مثل رجل الجندول، خرجت لأجل قيلولتها وهي تشدُّ بيدها على ذراع الأمير. أمّا أنا فغادرت مع الرائد ستيرلينغ، والخنزيران الصيَّادان يشخران الآن، وللتوضيح أقصد الكلبَين.

«بعض التمثيل، إيه؟»، قالت الرائد ستيرلينغ وهي تنظر في الأرجاء بازدراء مرح.

عمد أحد الخدم إلى ملء كأسَي النبيذ خاصَّتنا، وهي انتقلت من

مكانها حول الطاولة وجلست إلى جانبي، وكاد يلمس كتفي أحد كتفيها العريضتين. فاحت منها رائحة صنوبريَّة حادَّة. تخيَّلتها تسيطر عليَّ بطريقة وحشيَّة غامضة لا يمكن مقاومتها. حرّرت ربطة عنقي. لـمَّا اكتشفت أنَّني إيرلنديّ قالت إنَّ إيرلندا هي مكان آخر لطالما رغبت في زيارته، وادَّعت أنَّ جدَّتها إيرلنديَّة. التقطت الفكرة وتحدَّثت لبعض الوقت عن سحر أرض وطني. لقد عملت بجدٍّ لكن دون جدوى، فلـمّا طرحت، على نحو دقيق، موضوع الأوراق الملكيَّة مرَّة أخرى، وضعت يدها على معصمي- بسرعة، وانفعال- وابتسمت لي ابتسامتها الباردة وقالت:

«رائد ماسكل، نحن ننتظر اتِّصالاً من فرانكفورت، حسناً؟ في هذي الأثناء، لمَ لا تسترخي وتستمتع بجمال بافاريا؟»، ومضة عين سريعة وشهوانيَّة أخرى، «سمعت أنَّك تقيم في تيركس هيد. كثير من أبنائنا يقيمون هناك، لا بدَّ أنَّه بقعة حيَّة حقّاً».

احمررت خجلاً، بالطبع.

وجدت النقيب سميث ينتظرني على الدرجات فوق الفناء، ملفوفاً داخل معطفه الكبير، ويدخّن سيجارة؛ ومع وصولي إليه، دارت هبَّة من الدخان حول رأسه كأنَّها خرجت من أذنيه. كان يبدو عنيفاً وخشناً على نحو واضح «هل حصلت على ما جئت لأجله؟»، سأل وابتسم برضا لهيئتي الكئيبة. كانت الكلاب تجوس كئيبة، وعند نافذتين صغيرتين مرتفعتين في الجناح المقابل لنا ظهر الرأسان الكرويّان لشبلَي الدبِّ، يبتسمان لنا سعيدين. زفر سِميث سحابة غير منتظمة أخرى من الدخان، ووضع إصبعين على فمه وصفر صفرة حادَّة. على الفور، ظهرت سيَّارة الجيب تهدر عبر البوَّابة وقامت بحركة نصف دائريَّة في الفناء، مبعثرة الكلاب، ونخرت عند أول الدرجات

بصياح العجلات المدخِّنة. لم ينظر السائق إلى أيٍّ منّا. «طفل متشرِّد فظيع»، تمتم سميث، وضحك.

كنَّا قد أوشكنا أن نرحل حين خرجت الأميرة الصغيرة الشاحبة تمشي على الدرج وأصابع الفأر خاصَّتها متشابكة تحت ثدييها النحيلين، عيناها مخفوضتان بخجل، خاطبتني على نحو غير مباشر، بالألمانيَّة، بصوت خافت للغاية، بعناء التقطت ما كانت تقوله في أوَّل الأمر. جدَّتها ترغب في الحديث إليّ، وبنفسها أرشدتني إلى الطريق.

«انتظر هنا، سميث. هلَّا فعلت؟»، قلت.

صعدنا، أنا والأميرة رابونزيل، عبر متاهة من السلالم الخلفيَّة الحجريَّة والممرَّات العفنة، صامتين، ما خلا صوت فرقعة خفيفة صادرة عن تنُّورة الأميرة. في آخر المطاف، توقَّفت، ونظرت إلى الأعلى، وهناك كانت الكونتيسَّة على المصطبة فوقنا، تميل على سكَّة الدرابزين بشال من الدانتيل ملفوف عليها، وتومئ في الظلام بإصبع معقوف وحركات تمشيط مضحكة إلى الأعلى من ذراعها، مثل شخصيَّة في برج الساعة. ولـمّا وصلت إلى مستواها، كانت قد تراجعت إلى غرفتها، بخفَّة ملحوظة، والآن استلقت على تلَّة من الوسائد فوق سرير كبير مزخرف. كانت ترتدي ثوب نوم مزركشاً، وشالها، وقبَّعة صغيرة قديمة الطراز. حملقت فيّ على نحو خال من التعبير وأنا أقف في مدخل الباب أشعر على نحو ما بأنَّني خسيس. ودون نطق أيِّ كلمة وجَّهت إصبعاً باتِّجاه خزانة كبيرة وعميقة في الزاوية. تحرَّكت الأميرة أمامي، وذهبت إلى الخزانة، وفتحت أبوابها، ووقفت في الخلف تطوي يديها الرقيقتين الشاحبتين على صدرها من جديد. داخل الخزانة كان ثمَّة صندوق، شيء ما خشبيٌّ بمفصَّلات نحاسيَّة وقفل من النوع القديم، وإغلاقه كان محكماً

جدّاً بحزامين من الجلد السميك، مثبَّتين بشدَّة ومشبوكين بإحكام. غمغمت الأميرة بشيء ما وخرجت. وبينما هي على السرير، نظرت إليَّ الكونتيسَّة بعينين رطبتين حادَّتين. تقدَّمت نحوها. ثبَّتُّ عينيَّ على نظرتها.

«*Danke schön, gnädige Gräfin*[135]»، قلت، حتَّى إنَّني انحنيت لها انحناءة صغيرة، «ابن عمّك في إنكلترا سيكون في غاية الامتنان». فكَّرت في الإشارة إلى صلة القربى التي تربطني بدوقة ساكسونيا كوبورغ وغوتا، لكنَّ نظرتها لم تكن مشجّعة، «سأخبر جلالته كم قدَّمتِ المساعدة».

لم أكن قطُّ قادراً تماماً على مواجهة تلك الإيماءات الرمزيَّة- أكثر من مرَّة اكتشفت السيِّدة و. وهي تبتسم ابتسامتها الخاصَّة الصغيرة المتعضة، حين أكون في منتصف محاولة التباهي الملكيّ- والكونتيسَّة لم تكن شخصاً يفوِّت رؤية التشقُّقات الشعريَّة في مبنى أيِّ شيء حتَّى لو كان أداء مصقولاً على نحو بالغ. مع ذلك، لم تتكلَّم، لكن قدَّمت جواباً تجلَّى في تغيير متقن لنظرتها التي تغضَّنت نوعاً ما، في حين امتلأ وجهها مثل وعاء الخمر، وبدت عليه علامات ازدراء مشبع، متورِّم تقريباً، ما كان لي إلّا أن أجفل أمامه، وأقوم بخطوة إلى الخلف تحسُّباً لشيء قد ينطلق منها فجأة كشررٍ، فيعميني أو يحرقني. هزَّت كتفيها استهزاءً على نحو جعل نوابض السرير تصرُّ تحتها.

«ابني لن يغفر لي»، قالت، وضحكت بصوت ناعم خفيض، «قل ذلك لابن عمِّنا الملك».

عادت الأميرة مع النقيب سميث والسائق الذي كان اسمه (لقد تذكَّرت اسمه لِلتوِّ، ذاكرة الإنسان كنزا!) ديكسون. نظر سميث إلى المشهد- أميرة مذعورة، أرملة غنيَّة بقبَّعة كبيرة، صندوق أسرار الأسرة- باستمتاع خبيث،

---

(135) بالألمانيّة، في الأصل، وتعني شكراً لكِ أيّتها الكونتيسّة الكريمة. (م)

وحاجباه وشارباه في حالة ارتعاش. رفعنا، ثلاثتنا، الصندوق الذي كان ثقيلاً للغاية ومربكاً في الحمل، وترنَّحنا ونحن نحمله خارج الباب وأسفل الدرج، سميث يقسم، وديكسون يشخر عبر منخريه الخنزيريَّين الواسعين، والأميرة تتمتم خلفنا. أخفينا غنيمتنا في ظهر سيَّارة الجيب. من قال إنَّني لست رجلاً عمليّاً؟ كنت أتوقَّع أن تأتي الرائد ستيرلينغ طائرةً إلى أسفل الدرج وتطرحني أرضاً في حركة كرة قدم، لكن لم تكن ثمَّة إشارة إليها، خاب أملي، لا يزال معصمي يرتعش حيث لمسته. ولـمَّا كنَّا نقود السيَّارة خارج الفناء نظرت إلى الأعلى، إلى النوافذ حيث ظهر الولدان في وقت سابق، وشاهدت الأمير ينظر إلينا في الأسفل، بلا مبالاة. تساءلت فيم كان يفكِّر؟

«آمل أنَّهم لم يرفعوا الجسر اللعين»، قال سميث، وأطلق صيحة من الضحك المسعور، ونزع قبَّعة ديكسون، وبدأ يضربه على رأسه بفرح.

في ضواحي ريغينسبورغ، كان ديكسون قد تنحّى إلى جانب الطريق ووقف حارساً في حين كنَّا، أنا وسميث، نفتح الصندوق. كانت الأوراق قد فُرزت بعناية، وخزِّنت في أكياس واقية من المطر، وأنا كنت أتطلَّع إلى قراءة مسائيَّة ممتعة في غرفتي في تيركس هيد. رفع سميث حاجب استفسار، وأنا غمزته. وفي وقت لاحق، في مبولة عموميَّة في ميدان البلدة، وبين الروائح الزكيَّة، قابلت شابّاً أشقر يرتدي بذلة عسكريَّة رثَّة. احتجزني بابتسامة شريرة، واضعاً يداً رقيقة على معصمي، مبعداً تماماً كلَّ ذكرى تتعلَّق بلمسة الرائد ستيرلينغ اللائقة برجل. ادَّعى أنَّه فارٌّ من الجنديَّة، وأنَّه على هذي الحال من الهرب منذ أشهر. كان هزيلاً على نحو جذَّاب. ولـمَّا كان ينحني ليقدِّم المساعدة لي، أجريت أصابعي خلال شعره الكثيف بالوسخ، ولاطفت أذنيه الصغيرتين الرقيقتين- لطالما كنت ضعيفاً أمام تلك الأعضاء الصغيرة

الغريبة، عند الفحص القريب تكون غاية في القرف، بتعرُّجاتها الحلزونيَّة الناعمة الدقيقة، مثل أعضاء تناسليَّة ارتخت بسبب عدم الاستخدام- وحملقت في ذهول هانئ في عمود أشعَّة الشمس الساقط بانحراف على الوحل العشبيّ الأخضر الجميل، اللامع، النامي على الحائط وراءه، فوق الخندق المسدود، ودار كلُّ شيء في رأسي؛ عين سميث المجنونة، ويد الأمير ذات القشور، وكتفا الرائد ستيرلينغ الصبيانيَّتين، كلّ ذلك غزل، وانقبض، وغاص داخل قلب الدوَّامة الساخن.

*

فكَّرت مليّاً في كلمة خبيث *malignant*، فلهذي الكلمة صدى خاصّ لديّ على نحو طبيعيٍّ. للتوِّ استخرجت معناها من المعجم؛ حقّاً، المعجم دائماً مليء بالمفاجآت السارَّة. وفقاً لمعجم أكسفورد، هذه الكلمة مشتقَّة من اللاتينيَّة المتأخِّرة من مفردات **malignantem** و **malignare**و **malignari**، وأوَّل ما ورد تعريفها كان على الشكل التالي: «ميَّال إلى التمرُّد، ساخط، غير راض». كما عرفت أيضاً أنَّ الكلمة استخدمها نصيرو البرلمان وحكومة الكومنولث، بين العامين 1641 و1690، ليصفوا خصومهم. بمعنى آخر كانت كلمة **Malignant** تعني فارساً، أو ملكيّاً. وهذا الاكتشاف أثار فيَّ ضحكة مكتومة مسرورة. ناقم، وملكيٌّ، يا لقدرة اللغة على توظيف الكلمات! وثمَّة تعريفات أُخر للكلمة تتضمَّن ما يلي: «له تأثير شرِّير»؛ «متمنٍّ ضيم الآخر، أو الآخرين بالعموم». وبالطبع، هذه المرة وفقاً لقاموس السيِّد تشيمبرز: «الميل إلى التسبُّب بالموت، أو الانتقال من السيِّئ إلى الأسوأ، ولا سيّما على نحو سرطانيّ». يبدو أنَّ السيِّد تشيمبرز لا يضيع الوقت سدى.

لطالما كنت استمدُّ ارتياحاً عميقاً من العمل في الأماكن المخصَّصة لراحة النفس. لـمَّا مُنحت لقب حامي لوحات الملك، مباشرةً بعد عودتي منتصراً من ريغينسبورغ (جلالته كان ممتنّاً للغاية، وأنا كنت التواضعَ عينه)، كانت المجموعة الملكيَّة لا تزال في مخزنٍ تحت الأرض في شمال ويلز، ومهمَّتي الأولى كانت الإشراف على عودة اللوحات، وإعادة تعليقها في قصر باكنغهام، وفي ويندسور، وفي هامبتون كورت. كم أقدِّر الآن ذكريات الأمن والسرور في تلك الأيَّام: الأصوات الخافتة في الغرف الكبيرة؛ ضوء فيرمير، وهو عبارة عن ضوء غازيٍّ ينشر بريقه السخيَّ إلى الأسفل من ألواحه الزجاجيَّة الرصاصيَّة؛ والشبَّان المتعرِّقون بمآزرهم ومراييلهم الطويلة، يتجوَّلون جيئة وذهاباً مثل حمَّالي الكراسي النقَّالة، يتناوبون حمل نبيل إسبانيّ لهولباين أو ملكة لفيلاثكيث[136]؛ وأنا وسط كلِّ هذا الصخب الساكن، مع لوح شبك الأوراق خاصَّتي، وقوائم التدقيق المغبرَّة التي تخصّني، العينان المرفوعتان، الرجل المتقدِّم إلى الأمام، رجل الملك يؤدِّي واجباته، يستشيره الجميع، يذعن له الجميع، إنَّه السيِّد بين الرجال. (أوه، تساهلي معي، آنسة ف. أنا طاعن في السنّ ومريض، ويريحني أن أسترجع أيَّام مجدي).

بالطبع، كانت ثمَّة مزايا أخرى أقلُّ تجاوزاً للحدِّ بالنسبة إلى مكانتي المرتفعة لدى الأسرة المالكة. في ذلك الوقت، كنت متورِّطاً في صراع على

---

(136) يتحدَّث هنا عن لوحات الفنَّانين؛ الألمانيّ هانس هولباين (1497-1543)، والإسبانيّ دييغو فيلاثكيث (1599-1660). (م)

السلطة في المعهد، مرهقٍ، قبيح في معظمه، وإن لم يكن صراعاً عظيماً، فقد تصادف أن أصبح كرسيُّ المدير شاغراً بعد إصابته بسكتة دماغيَّة من جرَّاء إسرافه في الشرب. شرحت الأمر لجلالته، وأشرت بخجل إلى أنَّني لن أعترض إذا كان هو مَن سيفرض نفوذه على مجلس الأمناء حين يصلون إلى اختيارهم خليفة المدير. هذا المنصب كان دائماً ما أسعى إلى شغله؛ كان، كما قد تقولين، طموح حياتي؛ وبالتأكيد، حتَّى فوق إنجازاتي العلميَّة، فإنَّ عملي مديراً للمعهد هو ما أتوقَّع أنَّه سيعلق في الذاكرة، طبعاً بعد نسيان مشاعر البغض الحاليَّة نحوي. لـمّا تولَّيت زمام الأمور، كان المكان يحتضر، كان ملجأ للمحاضرين الجامعيِّين الّذين عفا عليهم الزمن، ومتذوِّقي الفنِّ من الدرجة الثالثة، ومجتمعَ غيتو لليهود الأوروبيّين اللاجئين، الّذين يتميَّزون بذكاء عالٍ على الرّغم من هيئاتهم المزرية، وسرعان ما أصلحت الحال. مع مستهلِّ خمسينيَّات القرن العشرين تمَّ الاعتراف به كأحد أعظم -لا، سأقولها: كأعظم مركز تعليم للفنِّ في الغرب. أنشطتي كعميل لم تكن شيئاً إذا ما قورنت بالإنجاز الشامل لمنح الدراسات الفنّيَّة التي حقَّقها الشبّان، إناثاً وذكوراً، الذين عملت على تشكيل حساسيَّتهم للفنِّ في سنوات عملي في المعهد. انظري إلى أيِّ صالة عرض مهمَّة في أوروبا أو في أميركا، ستجدي جماعتي في القمَّة، وإن لم يكونوا في القمَّة، فإنَّهم يتسلَّقون الأشرعة والصواري وسيوفهم بين أسنانهم.

ثمَّ أحببت المكان، وأعني بذلك البيئة المحيطة، الأبنية نفسها، أحد التصامِيم الأكثر إلهاماً لفينبرو، في الوقت عينه، متجدِّدة الهواء، وأرضها رائعة للغاية، مهيبة مع أنَّها متسامحة، رقيقة مع أنَّها مشبعة بحيويَّة الرجال: مثال على العمارة الإنكليزيَّة في أفضل حالاتها. في النهار وجدت جوّاً من

الاجتهاد والتعلُّم الهادئ، ما يدركه المرء حين تكون حوله رؤوس شابَّة صغيرة منكبَّة على كتبها القديمة. كان لدى طلَّابي جدِّيَّة وطلاوة لا يصادفها أحد في خلفائهم في الزمن الحاليِّ. وقعت الفتيات في حبِّي، والشبَّان كانوا معجبين مع ضبط للنفس. أفترض أنَّني لا بدَّ كنت أسطورة لهم، ليس فحسب بطلاً للفنِّ، بل إذا وجب تصديق الإشاعة، محارباً محنَّكاً في تلك العمليَّات السرِّيَّة التي أسهمت للغاية في نصرنا في الحرب. وبعد ذلك، في الليل، يصبح المكان لي، وهو منزل ريفيٌّ واسع تحت تصرُّفي بأكمله. كنت أجلس في شقَّتي في الطابق العلويِّ، أقرأ، أو أستمع إلى الغرامافون- أكاد لا أذكر عشقي للموسيقا، هل فعلت؟- أو أجلس هادئاً، متأمِّلاً، يحلِّق بي عالياً، إذا جاز التعبير، الصمت الجاثم الّذي يميِّز الأماكن الّتي يحتلُّها الفنُّ الرفيع. في وقت لاحق، كان باتريك يرجع إلى بيته من جولاته الليليَّة، ربَّما مع زوج من الشبَّان الفظِّين المرافقين له، اللذين كنت أطلق سراحهما في صالات العرض، بين الصور الطيفيَّة، وأشاهدهما يسقطان ويتعثَّران مع تناوب الضوء والعتمة مثل كثير من مخلوقات الفون[137]. يا لها من مخاطرة أقوم بها- يا إلهي، حين أفكِّر في الضرر الّذي يمكن أن يلحق بهما! لكن بعد ذلك، كانت تكمن المتعة؛ تحديداً في خطرها.

لا أرغب في إعطاء الانطباع بأنَّ وقتي في المعهد كان كلّه خطباً عظيمة دون وقت للمرح. كان ثمَّة قدر كبير من إدارة شاقَّة ومضيعة للوقت، وتمتم منتقديَّ أنَّني كنت غير قادر على تفويض الواجبات، لكن كيف يتوقَّع المرء أن يفوِّض معتلّي العقل؟ في معهد مثل معهدنا- مغلق، ضخم، يغلي بحماسة مسيحيَّة: كنت أسبك جيلاً عالميّاً لمؤرِّخي الفنّ، قبل كلِّ شيء-

(137) كائنات ذكرت في الميثولوجيا الإغريقيّة والرومانيَّة، والفون هو كائن خياليّ نصف إنسان ونصف معزاة، كان يعيش وحيداً في البرّيّة. (م)

إدارة تحكُّم مطلقة كانت ضرورة مطلقة. لـمَّا أصبحت مديراً، شرعت في الحال في فرض إرادتي على كلِّ زاوية في المعهد. لم يكن ثمَّة شيء تافه جدّاً ليستأثر باهتمامي. أفكِّر الآن في الآنسة وينتربوثام. آه على تلك الأيَّام. كان اسمها أقلَّ مصائبها. كانت امرأة ضخمة، في الخمسينات من عمرها، بقدمين كبيرتين كجذعي شجرة، وصدر عارم، وعينين حاسرتي البصر مفزوعتين، وبالمصادفة أيضاً، وعلى نحو لا يتناسق مع بقيَّة الأعضاء، كان لديها أكثر يدين نحيلتين جميلتين. كانت باحثة مختصَّة- لوحات الباروك في جنوبي ألمانيا- وعاشقة للقصائد الغنائيَّة؛ أظنّها نفسها كانت قصيدة غنائيَّة. عاشت مع والدتها في منزل ضخم على طريق فينشلي، وأشكُّ في أنَّ أحداً قطُّ وقع في غرامها. تعاستها التي لا يمكن استئصالها تنكّرت لها تحت ستار من البهجة القلبيَّة الحادَّة. في أحد الأيَّام، في مكتبي، بينما كنَّا نناقش بعض الأعمال غير المهمَّة في المعهد، انهارت فجأة وصارت تبكي. كنت مذعوراً بالطبع. وقفت أمام مكتبي عاجزة بسترتها الصوفيَّة وتنُّورتها الخفيفة، كتفاها يرتعشان، ودموع غزيرة تتساقط من عينيها المعصورتين. جعلتها تجلس وتشرب بعض الويسكي، وبعد مداهنة طويلة ومضجرة جعلتها تقرُّ بالحكاية. عالمة شابَّة لامعة في اختصاصها نفسه، كانت قد انضمَّت إلينا مؤخَّراً، بدأت تقوِّض مكانة الآنسة وينتربوثام. الحكاية الأكاديميَّة القديمة، لكنَّها كانت نسخة قاسية عنها. استدعيت المرأة الشابَّة، الابنة الذكيَّة للاجئين فرنسيِّين. لم تنكر اتِّهامات الآنسة وينتربوثام، وابتسمت في وجهي بتلك الطريقة الماكرة الّتي تقوم بها الفتيات الفرنسيَّات، واثقة من أنَّني موافق على قساوتها، لكنَّ ثقتها كانت في غير محلِّها. وبعد مغادرة الآنسة الفرنسيَّة المفاجئة من المعهد، وجب عليَّ التعامل مع امتنان الآنسة وينتربوثام الصامت، الذي جاء في شكل

هدايا صغيرة خجلى، مثل كعكات محليَّة الصنع، وزجاجات غسول ما بعد الحلاقة، كريه الرائحة، كنت أتنازل عنه لباتريك، وكلَّ عيد ميلاد، ربطة عنق قبيحة من متجر بينك. أخيراً أصبحت والدتها عاجزة، ووجب على الآنسة وينتربوثام أن تتخلَّى عن عملها للعناية بالعاجزة، كما كانت تفعل كلُّ بنت في تلك الأيَّام. لم أرها قطُّ بعد ذلك، وبعد سنة أو سنتين لم تعد تأتيني كعكات الخوخ، ولا ربطات العنق الحريريَّة. لمَ أتذكَّرها، لمَ أهتمُّ بالحديث عنها؟ لمَ أتحدَّث عن أيٍّ منهم، أولاء الأشخاص الضبابيّين الّذين يطحنون بلا هوادة، على نحو غير مرغوب فيه، في هوامش حياتي؟ هنا، وأنا إلى مكتبي، في ضوء هذا المصباح، أشعر كأنَّني أوديسيوس وهو مسافر إلى هاديس[138]، تضغط عليه الظلال فيتضرَّع طالباً قليلاً من الدفء، قليلاً من دماء حياتي، فقد يتمكَّنون من العيش مرَّة أخرى، ولو لفترة وجيزة. ما الّذي أفعله هنا، هائماً بين تلك الخيالات الملحَّة؟ قبل لحظات تذوَّقت بحلقي- تذوَّقت، وليس تخيَّلت- النكهة الحلوة لقطرات عنب الثعلب الحارَّة، تلك التي كنت أمتصُّها وأنا أتسكَّع باتِّجاه المنزل من مدرسة الأطفال في أوقات ما بعد الظهر الخريفيَّة على طول طريق باك رود في كاريكدرام منذ زمن بعيد؛ أين خزَّنت ذاك المذاق، طوال كلِّ تلك السنين؟ تلك الأشياء ستختفي حين أموت. كيف يمكن أن يكون ذلك، كيف يمكن لكلِّ هذا أن يضيع؟ يمكن للآلهة أن تحتمل أن تكون مضياعة لكن ليس نحن، أليس كذلك؟

ذهني يشرد. لا بدَّ أنَّها حجرة انتظار الموت.

تلك كانت بعض أكثر السنوات كثافة بالعمل، حين نفَّذت خطَّتي، وبدأت أكتب دراستي النهائيَّة في نيكولاس بوسان. تطلَّب منِّي الأمر عشرين

---

(138) الإشارة هنا إلى أوديسيوس بطل ملحمة الأوديسّة لهوميروس، وهو يمرُّ بمملكة الموتى هاديس، في أثناء رحلة عودته إلى وطنه. (م)

عاماً لأنهي هذا الكتاب، وتجرَّأ بعض الأقزام المتوارين في الحقل الأكاديميِّ على التشكيك في الأسس العلميَّة للكتاب، لكنّي سأعاملهم بالازدراء الصامت الذي يستحقونه. أنا لا أعرف عملاً آخر، ولا هم أيضاً يعرفون عملاً التقطَ روحَ فنَّان وأعماله الفنّيّة على نحو شامل ومستفيض - وأجرؤ على القول- وساحر كما فعل هذا الكتاب. قد يقول أحدهم إنَّني اخترعت بوسان. في كثير من الأحيان أظنُّ أنَّ هذي هي الوظيفة الرئيسة لمؤرِّخ الفنِّ؛ أن يركِّب موضوعه، ويجمِّعه، ويصلحه، أن يجمع في وحدة واحدة كلَّ الخيوط المختلفة للشخصيَّة، الإلهام، والإنجاز، التي تصنع كينونتها الخاصّة، الرسَّامَ الحامل لمسند الألوان. لا يمكن أن يكون بوسان، بعدي، كما كان عليه قبلي. هذه هي قوَّتي، وأنا مدرك لذلك بكلِّيَّتي. منذ البداية، منذ ذاك الزمن في كِمبردج، حين عرفت أنَّني لن أتمكَّن من أن أصبح عالم رياضيَّات، رأيت في بوسان أنموذجاً لي: النازع إلى الصبر، التوَّاق إلى الهدوء، المؤمن عميقاً بقوَّة التحويل في الفنِّ. أنا فهمته، إذ لم يفهمه أحد آخر، وفي هذا الشأن، إذ لم أفهم أحداً آخر. كيف كنت أهزأ بـأولاء النقَّاد- ولا سيّما الماركسيِّين، كما أخشى- الذين صرفوا طاقاتهم وهم يبحثون عن معنى فنِّه، عن تلك الصيغ الغامضة التي يفترض أنَّه اعتمد عليها في بناء أشكاله. الحقيقة هي بالطبع أنَّه ليس ثمَّة معنى. أهميَّة، نعم، تأثير؛ قوَّة؛ لغز- سحر إذا رغبت- لكن ليس معنى. الأشخاص في لوحة رعاة أركاديا لا يشيرون إلى حكايات سخيفة مثل تلك الحكايات حول الخلود أو الروح أو الخلاص؛ هم ببساطة هناك. المعنى هو أنَّهم هناك. هذه هي الحقيقة الجوهريَّة للخلق الفنّيِّ، أن تضع في مكان ما شيئاً ما حيث في مكان آخر لن يكون هذا الشيء شيئاً (لماذا رسمه؟ -لأنَّه لم يكن هناك). في العوالم دائمة التبدُّل التي لا تعدُّ ولا تحصى، الّتي

انتقلت خلالها، كان بوسان الشيء الأصيل الوحيد الذي لم يتغيَّر. وهذا هو السبب في أنَّه وجب عليَّ تدميره- ماذا؟ لمَ قلت ذلك؟ لم أتوقَّع أن أقول ذلك. ماذا يمكن أن أكون قد عنيت بذلك؟ اشطبي ذلك، فما أقوله مقلق للغاية. كما أنَّ الوقت متأخِّر والأشباح تحوطني وتهمس لي. دعينا ننصرف.

*

ربَّما كانت النتيجة الأكثر أهمّيَّة وشخصيَّة لترفُّعي الملكيِّ هي أنَّه مكَّنني من التخلِّي عن كوني جاسوساً. أعرف أنَّ الجميع يعتقدون أنَّني لم أتوقَّف قطُّ؛ ثمَّة عرف في الفكر الشعبيِّ يصرُّ على أنَّ مثل هذا الشيء مستحيل، فالعميل السرّيّ مرتبط بعمله بعهد دم يحلُّه منه الموت فقط. هذا خيال، أو تمنٍّ، أو كلاهما. في الحقيقة، في حالتي، كان التقاعد عن الخدمة الفعَّالة، على نحو مفاجئ، لن أقول على نحو محيِّر، سهلاً. الوكالة كانت أوَّل من شجَّع العملاء الهواة أمثالي، مع نهاية الحرب، على التنحّي بكلِّ لباقة، لكن مع إصرار. الأميركيُّون، الذين يمسكون بتلابيب السلطة الآن، يطالبون بتحميل المسؤوليَّة للمحترفين، رجال المؤسَّسات أمثالهم الذين يمكن التنمُّر عليهم وإجبارهم على الطاعة، وليس المستقلِّين أمثال بوي، وإلى حدٍّ أقلّ إشراقاً، أنا. من ناحية أخرى، كنَّا تماماً نوعاً من العملاء -مألوفاً، موثوقاً به، كنا متفانين- الذين ترغب موسكو في الاحتفاظ بهم. الآن، ومع بدء الحرب الباردة، نُبِّهنا، وأحياناً، في الواقع، هُدِّدنا من أجل المحافظة بكلّ الوسائل على صلاتنا مع الوكالة. إلّا أنَّ أوليغ كان لطيفاً على نحو غريب حين أخبرته برغبتي في الاستقالة. «لقد سئمت اللعبة»، قلت، «سئمتها بمعنى الكلمة، لقد جعلني الإجهاد مريضاً». هزَّ كتفيه، وأنا استمررت في الضغط

عليه، متذمِّراً من أنَّ الأعمال الحربيَّة، وصعوبة خدمة نظامين متعارضين في تحالفهما القلق ضدَّ نظام ثالث، كلُّ ذلك كان يضغط على أعصابي. أعتقد أنَّني بالغت حقّاً. انتهيت إلى التحذير من أنَّني أوشك أن أنهار. هذا كان كابوس موسكو، أن يفقد أحدنا أعصابه ويعرِّض الشبكة بأكملها للخطر. مثل كلِّ الأنظمة الشموليَّة، كان تقديرهم منخفضاً جدّاً لأولاء الذين قدَّموا أفضل أنواع المساعدة. في الحقيقة لم تكن أعصابي توشك أن تنهار. ما شعرت به بشدّة في نهاية الحرب، ما شعرنا به كلّنا، كان شعوراً مفاجئاً بالانكماش. بالنسبة إليَّ، عملت على تأريخ هجمة الاكتئاب هذه في صباح اليوم الّذي تلا الإعلان عن وفاة هتلر، حين استيقظت بعد تلك الليلة الاحتفاليَّة مع بوي، على الأريكة في بولاند ستريت، ومذاق رماد مبلَّل في فمي، وشعرت بشعور جاك القاتل العملاق[139] الذي لا بدَّ شعر به حين تحطَّمت شجرة الفاصولياء، والوحش آكل الرجال تمدَّد ميتاً عند قدميه. بعد كلِّ هذه التجارب والانتصارات، ماذا يمكن للعالم في زمن السلم أن يقدِّم لنا؟

«إنَّما، هذا ليس سلاماً»، قال أوليغ وهزَّ كتفه غير مبال، «الآن بدأت الحرب الحقيقيَّة».

كان ذلك عصر يوم صيفيٍّ، ونحن كنَّا جالسَين في صالة سينما في بلدة رايسليب. وللتوّ أنيرت الأضواء بين عرض وآخر. أتذكَّر الضوء الكئيب النازل من سقف الصالة المقوَّس، الجوَّ الحارَّ الميت، الشعورَ بالوخز من الغفوة على غطاء الكرسيِّ ونابض متحرّر يخز الجزء الخلفيَّ من فخذي- أعتقد أنَّ مقاعد السينما ذات النوابض قد اندثرت قبل زمنك، آنسة ف. أليس

---

(139) الشخصيّة الرئيسة في الحكاية الخرافيّة الإنكليزيّة (جاك وشجرة الفاصولياء)، نشرت عام 1807، وهي جزء من موروث قصصيّ يرجعه النقّاد إلى آلاف السنين. (م)

كذلك؟- وذاك الإحساس، الخفيف على نحو غريب، المكبوت الذي تحصلين عليه أنت فحسب في صالات العرض، في أيَّام الفواتير المزدوجة، في الفترات الفاصلة بين العروض. كانت فكرة أوليغ أن نلتقي في دار السينما، فهي تقدِّم تغطية ممتازة، هذا صحيح، لكنَّ السبب الحقيقيَّ كان أنَّه شغوف بالأفلام، ولا سيّما الأفلام الأميركيَّة الكوميديَّة اللطيفة في تلك الأيَّام، برجالها ذوي الشعور الملساء المخنَّثين، ونسائها الرائعات، المسترجلات، بفساتينهنَّ الحريريَّة، اللاتي كان أوليغ يحملق بهنَّ كما لو كان الأمير العاشق الّذي تحوَّل إلى ضفدع، أولاء اللاتي أسماؤهنَّ كلوديت، غريتا، ودينا، بشيء من الكرب المنتشي، وهنَّ يسبحنَ أمامه داخل أحواض السباحة المتلألئة بضوء السخام والفضَّة. هو وباتريك كانا ينسجمان معهنَّ تماماً.

«أنا أفكِّر فحسب، أوليغ»، قلت، «في أنَّ حرباً واحدة كافية لي، لقد أدَّيت دوري».

أومأ برأسه غير سعيد، وعنقه المدهنة على كلا الجانبين اهتزَّت مثل رقبة ضفدع، وبدأ يثرثر عن التهديد النوويِّ، وحاجة السوفييت ليضعوا أيديهم على أسرار تكنولوجيا الأسلحة النوويَّة الغربيَّة. مثل هذا الكلام جعلني أشعر أنَّني عتيق تماماً؛ كنت وقتها لا أستطيع التخلُّص من دهشتي من صواريخ الفاو 2[140].

«هذا شأن عناصرك في أميركا»، قلت.

«نعم، لقد أرسل فيرجل إلى هناك».

كان فيرجل اسم بوي الرمزيَّ. ضحكت.

---

(140) أوّل صاروخ باليستيّ يصل إلى مدار كوكب الأرض. ويعدّ الأساس في بناء كلّ الصواريخ الحديثة. صمّمه الألمان قبل الحرب العالميّة الثانية، وأطلقوا منه على جيش الحلفاء أكثر من 3000 صاروخ، متسبّبين بمقتل أكثر من 7250 شخصاً. (م)

«ماذا- بوي في أميركا-؟ لا بدَّ أنَّك تمزح؟»

أومأ من جديد. وبدا كأنَّ حركته بدأت تتحوَّل إلى نوع من العرَّة العصبيَّة.

«طُلب إلى كاستور أن يجد له وظيفة في السفارة».

ضحكت من جديد. كاستور كان فيليب ماكليش، والمعروف أيضاً باسم الاسكتلنديِّ الصارم، الّذي نجح، في العام السابق، في تعيين نفسه في منصب السكرتير الأوَّل في واشنطن، حيث كان يقدِّم تقارير منتظمة إلى موسكو. كنت قد قابلته مرّات عدَّة، زمن الحرب، حين كان شخصاً ثانويّاً في الوكالة، ولم أحبَّه، فقد وجدت تهذيب سلوكه سخيفاً، وماركسيَّته المتعصِّبة متعبة على نحو لا يطاق.

«سيدفعه بوي إلى الجنون»، قلت، «وسيرسلان، كلاهما، إلى الوطن مفضوحَين»، غريب كم هي دقيقة تلك النبوءات العفويَّة، «وأنا أفترض أنَّك تريد منّي أن أتحكَّم بالأمر من هنا، أليس كذلك؟»، تخيَّلت ذلك؛ التنصُّت الذي لا نهاية له، التصفية من خلال الإشارات، محادثات التحقيق الاعتياديَّة مع الأميركيِّين الزائرين، الجهد المروِّع في المشي على الحبل لإبقاء العملاء في أمكنتهم في الأراضي الأجنبيَّة. «حسناً، أنا آسف»، قلت، «لا يمكنني فعل ذلك».

كانت أنوار الصالة قد بدأت تخفت، والستائر من النسيج الغالي المغبرَّة، كانت تفتح على نحو متقطِّع. لم يقل أوليغ شيئاً، وهو يحملق، كما هو متوقَّع، في الطقطقة التمهيديَّة للضوء الأبيض المخدوش الذي يفور ويهتاج على شاشة السينما.

«لقد جرى تعييني حارساً على صور الملك»، قلت، «هل أخبرتك

بذلك؟»، أدار عينيه، غير راغب، عن مؤخِّرة جين هارلو[141] المكسوَّة بالحرير، وحملق فيَّ غير مصدِّق، في الوهج الرقيق الصادر عن الشاشة. «لا، أوليغ»، قلت بتعب، «ليس هذا النوع من الصور: اللوحات. أنت تعرف: الفنّ. سأعمل في القصر، إلى يمين الملك. أتدرك ذلك؟ هذا ما ستخبره لأسيادك في موسكو، أنَّ لديك مصدراً إلى جوار العرش، عميلاً سابقاً في مقعد السلطة. سيتأثَّرون على نحو فظيع. ومن المحتمل أن تحصل على ميدالية، وأنا أحصل على حرِّيَّتي. ما رأيك؟»

لم يقل شيئاً، واستدار نحو الشاشة فحسب. كنت مغتاظاً قليلاً؛ وفكَّرت في أنَّه كان يمكن على الأقلّ أن يجادلني.

«تفضَّل»، قلت، وضغطت داخل يده الدافئة الرطبة بالكاميرا المصغَّرة التي كان قد أعطانيها منذ سنوات عدَّة مضت، «لم أتعلَّم قطُّ كيف أستخدمها على نحو صحيح، في أيِّ حال». في الضوء الخافق الصادر عن الشاشة - يا له من صوت مزعج ذاك الذي يصدر عن تلك المرأة هارلو- نظر إلى الكاميرا، ثمَّ إليَّ، بوقار بريء، لكن لا يزال صامتاً. «أنا آسف»، قلت، لكنَّ الكلام خرج من فمي نزقاً. وقفت، وربَّت على كتفه، وهو قام بمحاولة تعوزها الحماسة للإمساك بيدي، لكنَّني سحبتها بسرعة، واستدرت، واتَّخذت طريقي إلى خارج المكان متعثِّراً. بدا صخب حركة المرور في الشارع المشمس كأنَّه هتاف ساخر. شعرت بأنِّي كنت طافياً وخفيفاً، وفي الوقت نفسه مثقلاً، فإذا بي وأنا أنفض عن نفسي هذا الثقل الذي حملته لوقت طويل، تراني في الوقت نفسه أصبحت واعياً من جديد لثقل نفسي الذي طالما تناسيته.

بادئ الأمر لم أصدّق أنَّ موسكو ستسمح لي بالرحيل، أو ليس بهذه

---

(141) رمز الجنس في الأفلام الأميركيّة في ثلاثينيّات القرن الماضي. ولدت عام 1911، وتوفّيت صغيرة عام 1937. كانت لها شعبيّة عظيمة، ولا سيّما لدى الرجال. (م)

السهولة على الأقلّ. وبصرف النظر عن أيٍّ اعتبار آخر، جُرح غروري. هل كانت قيمتي لديهم قليلة إلى درجة أنَّهم تخلَّوا عنّي دون أيٍّ تكلُّف؟ انتظرت باطمئنان مترقِّباً أوَّل علامات الضغط. تساءلت كيف سأقف في وجه الابتزاز، وهل سأكون مستعدّاً للمخاطرة بمركزي في العالم لأجل أن أكون حرّاً ببساطة؟ أخبرت نفسي أنَّه ربَّما لم يكن ينبغي لي أن أكون جريئاً جدّاً لأخرق علاقتي معهم، وربَّما كان ينبغي لي أن أواصل تزويدهم بقصاصات ثرثرات الوكالة التي يمكن استخلاصها من بوي والآخرين، التي كانت ستجعلهم سعداء من دون شكٍّ. كانت لديهم القدرة على تدميري. أدركت أنَّهم لن يكشفوا عن العمل الذي قمت به لأجلهم- إذا تركوا خيطاً واحداً يفلت فإنَّ الشبكة بأكملها ستنحلُّ- لكنَّهم استطاعوا بسهولة إيجاد وسائل لفضح وضعي الشاذّ. وربَّما كنت قادراً على تحمّل الخزي العلنيِّ لكنَّني لم أتقبَّل احتمال تعرُّضي للسجن على الإطلاق. ومع ذلك مرَّت الأيَّام والأسابيع، ومن ثمَّ الأشهر، ولم يحدث شيء. شربت كثيراً؛ ومرَّت أيَّام كنت أثمل فيها قبل الساعة العاشرة صباحاً. ولـمَّا كنت أخرج لأطوف ليلاً أكون خائفاً أكثر من أيِّ وقت مضى؛ الجنس والجاسوسيَّة كانا قد حافظا على نوع من التوازن، فأحدهما قد غطَّى على الآخر. في أثناء تسكُّعي منتظراً أوليغ، كنت مذنباً لكن بريئاً أيضاً مذ كنت أتجسَّس، وأستجدي حياة الشغب، في حين كنت، في يقظتي المشدودة على الدرجات الظليلة لمراحيض المدينة العامّة، مجرَّد شاذّ، وليس خائناً لأثمن أسرار بلدي. هل تدركين ذلك؟ حينما تعيشين نوع الحياة تلك التي كنت أعيشها، فإنَّ العقل يعقد اتفاقات مشبوهة مع نفسه.

تساءلت عن القصَّة التي كان أوليغ قد أخبرها موسكو. كنت توّاقاً إلى

أن أتَّصل به من جديد حتَّى أسأله. تخيَّلته في الكرملين، يقف وسط أرضيَّة لامعة في إحدى تلك الغرف الفسيحة فائقة الرتابة، يصفِّر غير سعيد، يلوي قبَّعته بين يديه، في حين يستمع إليه المكتب السياسيُّ الغامض في صمت رهيب من خلف طاولته الطويلة وهو يقدِّم أعذاره الخرقاء المتعلِّقة بي. كلُّه خيال، بالطبع. ربَّما كان السكرتير الثالث في سفارة لندن هو من عالج قضيَّتي. لم يكونوا في حاجة إليَّ- ولم يكن لديهم أيُّ حاجة إليَّ على الإطلاق، ليس بالطريقة التي آمنت بها- لذا عمدوا ببساطة إلى قطع الاتِّصال معي. كانوا دائماً أناساً عمليِّين، على عكس الواهمين المجانين الذين أداروا الوكالة. حتَّى إنَّهم أطلقوا إشارة تقدير لسنوات خدمتي المخلصة: بعد ستَّة أشهر من ذلك الاجتماع، في أوديون، في صالة السينما في رايسليب، اتَّصل بي أوليغ ليقول إنَّ موسكو ترغب في تقديم مبلغ نقديٍّ هديَّة لي، أعتقد أنَّها كانت خمسة آلاف جنيه. رفضت-لم يحصل أيٌّ منّا على بنس واحد من العمل لصالح روسيا- وحاولت ألَّا أشعر بالإهانة. أخبرت بوي أنَّني أصبحت خارجاً، لكنَّه لم يصدِّقني، مشتبهاً في أنَّني كنت فحسب في عمليَّة تغطية عميقة، اشتباه سوَّغه بعد سنوات حين انهار كلُّ شيء، وكنت أنا الشخص الذي استُدعي للتعامل مع الفوضى.

*

لم يكُ ثمَّة إجراء رسميٌّ للاستقالة من الوكالة، أيضاً: ابتعدت ببساطة كما فعل كثيرون آخرون في السنة الماضية. قابلت بيلي ميتشيت مصادفة في إحدى الأمسيات في حانة في بيكاديللي، وكلانا شعر بالحرج، مثل زميلَي دراسة سابقين لم يرَ أحدهما الآخر منذ أيَّام المزاح والمقالب. صادفت

كويريل، أيضاً، في ذا غريفن. ادَّعى أنَّه كان قد غادر الوكالة قبل أن أفعل أنا ذلك. وكما هي الحال دائماً، وجدت نفسي مباشرة في موقف دفاعيٍّ أمام تلك النظرة الشاحبة والقاسية. بوي الّذي كان يوشك أن يغادر إلى واشنطن، كان قد عاد للتوِّ من حفلة صاخبة في أنحاء شمالي أفريقيا-رافقته فيها أمُّه، وبين كلِّ الناس، لا تزال هذه المرأة رشيقة، ومعروفة بحسنها، وسلوكها الشائن لا يقلُّ كثيراً عن سلوك ابنها- وكويريل لديه كلُّ التفاصيل؛ كيف ثمل بوي في حفلة كوكتيل إحدى السفارات في الرباط، ثمَّ بال من النافذة على أصيص من زهور الجهنميَّة على مرأى من زوجة السفير، وأشياء كهذه.

«يبدو أنَّه جلس طوال الأمسية في حانة في فندق شيفرد في القاهرة يخبر أيَّ شخص يستمع إليه بأنَّه كان جاسوساً روسياً لسنوات».

«نعم»، قلت، «مزحة قديمة. إنَّه يحبُّ مفاجأة الآخرين».

«إنْ أؤلّف كتاباً عنه فلن يصدّقه أحد».

«أوه، لا أعرف؛ بالتأكيد كان سيضيف إليه نكهة».

ألقى إليَّ نظرة حادَّة، وابتسم. كانت رواياته الصغيرة المغمَّة قد انتشرت مؤخّراً، وهي تعكس، كما يجب أن تفعل، الإرهاق الروحيَّ لذلك الزمن، وكان يستمتع بالنجاح السخيِّ غير المتوقَّع، الذي كان مفاجأة للجميع ما عداه.

«تظنُّ أنَّ أعمالي تفتقر إلى النكهة؟»

هززت كتفيَّ.

«أنا لا أقرأ كثيراً هذا النمط من الكتابة».

التقينا مصادفة مرَّة أخرى في الأسبوع التالي، في حفل وداع أقامه ليو رودنستاين لبوي في منزل بولاند ستريت. أصبحت هذه المناسبة في وقت لاحق أسطوريَّة، لكن ما أحتفظ به في ذاكرتي بشدَّة هو الصداع الذي أصابني من

فور وصولي ولم يتركني إلَّا في اليوم التالي. الجميع كان هناك بالطبع، حتَّى فيفيين قدمت من منزلها الريفيِّ في مايفير. قدَّمت لي خدَّها البارد لأقبِّله، ولبقيَّة الليلة تجنَّب أحدنا الآخر. بدأت الحفلة كالعادة من دون مقدِّمات؛ ضجيج فوريٌّ، ودخان سجائر، ورائحة كحول واخزة. عزف ليو روذنستاين الجاز على البيانو، ورقصت إحدى الفتيات على إحدى الطاولات، كاشفة عن مشبكي جوربيها. وفي طريقه من وزارة الخارجيَّة كان بوي قد أحضر معه لصَّين، ما لبث أن بدأ كلٌّ منهما في جمع أعقاب السجائر في يدين مكوَّرتين، ومشاهدة مجريات الحفل، الذي طغت عليه الثمالة المتزايدة، بوجهين تبدو عليهما أمارات الاحتقار الذي تبرزه عيونهما الضيّقة واصطناع الشكِّ في ما يدور أمامهما. في وقت لاحق، بدأ شجار بينهما من أجل فعل شيء ما وليس بسبب الغضب، كما أظنُّ، على الرّغم من أنَّ أحدهما ضَرب الآخر بسكِّين، لكن لم يكن جرحاً خطراً. (سمعت أيضاً، في وقت لاحق، أنَّهما ذهبا مع أحد زملائي في المعهد إلى منزله، خبير في الفنون ساذج، وجامع لوحات غير ذي شأن، أفاق ظهر اليوم التالي ليجد أن البلطجيَّين قد غادرا، وأُخذا معهما كلَّ شيء ذا قيمة في الشقَّة).

حاصرني كويريل في زاوية في المطبخ. كانت عيناه تحملان ذاك اللمعان الغريب مثل وميض فوسفوريٍّ بحريٍّ، اللمعان الّذي كانت عيناه تبرقان به حينما يكون مثقلاً بالشرب، إنها العلامة الجسديَّة الوحيدة للثمالة، الّتي استطعت اكتشافها فيه.

«سمعت أنَّ الملكة ماري أرسلت إليك حقيبة يد هديَّة»، قال، «هل هذا صحيح؟»

«حقيبة نسويَّة صغيرة»، قلت على نحو متصلِّب، «من طراز جورجيّ،

قطعة جيِّدة جدّاً، كانت تعبيراً عن الامتنان. وأنا نظرت إلى أمر الحقيبة بأنَّه صفقة، كما لو أنَّني ربحت جائزة تيرنر للكتاب. لا أعرف ما الذي يراه الجميع مضحكاً».

مرَّ بنا نيك، ثملاً وكئيباً، كانت سيلفيا للتوِّ قد أنجبت مولودهما الأوّل، ومن المفترض أنَّه لا يزال يحتفل بالولادة. توقَّف، ثمَّ تمايل في وقفته، وهو ينظر إليَّ تلك النظرة القذرة، وصوت نفسه مسموع، وفكُّه يعمل.

«سمعت أنَّك تركت الوكالة»، قال، «جرذ لعين آخر يقفز من فوق السفينة القديمة البائسة، تاركاً بقيَّتنا للإبقاء عليها طافية».

«اهدأ أيُّها الشابُّ العجوز»، قال كويريل مبتسماً، «فربَّما كان ثمَّة جاسوس في الأرجاء».

كشَّر نيك.

«ليس ثمَّة محبٌّ لوطنه لعين بينكم. ماذا ستفعلون حين تتقدَّم الدبَّابات الروسيَّة عبر جبال الألب، أه؟ ماذا ستفعلون حينها؟»

«توقَّف عن ذلك، نيك»، قلت، «أنت ثمل».

«ربَّما أكون ثملاً، لكنِّي أعرف حقيقة الأمور. هو ذا بوي اللعين ينفصل عنَّا إلى أميركا اللعينة. ما فائدة الذهاب إلى أميركا؟»

«اعتقدت أنَّك أنت مَن دبَّر ذلك»، قال كويريل.

إلى جوارنا بدأت امرأة شابَّة، ترتدي فستاناً ورديّاً، بالتقيّؤ في المغسلة.

«أدبِّر ماذا؟»، قال نيك بسخط، «ماذا دبَّرت؟»، بدأ كويريل، الّذي كان يضحك برقَّة، يلعب بسيجارته، ويدوِّرها بين أصابع يده وإبهامه.

«أوه، سمعت أنَّك كنت الشخص الذي رتَّب لبانيستر الذهاب إلى واشنطن، هذا كلُّ شيء»، قال، وقد كان يستمتع بالأمر بكلامه، «هل ما

سمعته خطأ؟»

كان نيك يشاهد باهتمام شديد الفتاة المتقيِّئة.

«أيُّ نفوذ لديَّ الآن؟»، قال، «أيُّ نفوذ لدى أيِّ واحد منّا، الآن، مع سيطرة البلشفيِّين اللعينين».

كانت فيفيين تمرُّ أمامنا حين مدَّ كويريل يده وأمسك معصمها، بمهارة، بيده الرقيقة النحيلة الشاحبة.

«هيَّا، فيف»، قال، «ألن تشاركينا الحديث؟»

راقبتهما. لم ينادِها أحدٌ قطُّ باسم فيف.

«أوه، أعتقد أنَّكم لا بدَّ تناقشون مسائل تخصُّ الرجال»، قالت، «جميعكم تبدون جدِّيّين للغاية ومتآمرين. فيكتور، أنت تبدو كئيباً حقّاً- هل كان كويريل يضايقك من جديد؟ كيف هي المسكينة سيلفيا، نيك؟ أرى أنَّ عمليَّة الولادة استنزفتك. يا إلهي، ماذا تناولت تلك الشابَّة؟ يبدو أنَّه قشر بندورة. إنَّها بندورة، أليس كذلك، وليس دماً؟ النزيف لدى امرأة شابَّة ليس علامة جيِّدة. عليَّ أن أعود، كنت أتحدَّث إلى رجل مثير للاهتمام. زنجيّ. بدا غاضباً جدّاً من شيء ما. وهو ما يذكّرني بـ... هل سمعتم ما أجاب به بوي ذاك الشخص ميتشيت حين حثَّه على توخِّي الحذر في حياته الجديدة في العالم الجديد؟ قال ميتشيت إنَّه حينما يتعلَّق الأمر بالأميركيِّين يجب على المرء ألّا يثير مسائل تتعلَّق بالعِرق أو المثليَّة الجنسيَّة أو الشيوعيَّة، فقال بوي: ما تخبرني به هو أنّي لن أغازل بول روبسون».

«امرأة رائعة»، قال كويريل حين ذهبت، ووضع يده على ذراعي، «أنتما لم تطلِّقا بعد، أليس كذلك؟»

ضحك نيك ضحكة عالية مدوّيَّة.

وعند منتصف الليل، وجدت نفسي محاصراً في محادثة غير مريحة مع ليو روذنستاين. كنَّا في أعلى الدرج خارج غرفة بوي، مع أشخاص ثملين يجلسون على الدرجات فوقنا وتحتنا.

«يقولون إنَّك ستترك الصفوف»، قال، «تنسحب بهدوء، إيه؟ حسناً، ربَّما تكون محقّاً. لم يتبقَّ لنا الكثير هنا، أليس كذلك؟ كان رأي بوي صحيحاً- أميركا هي المكان المناسب. وبالطبع، أنت لديك عملك؛ أسمع اسمك يتردَّد كثيراً. يريدون منِّي أن أتسلَّم منصباً ما في مجلس التجارة. هل يمكنك تخيُّل ذلك؟ أفترض أنَّ أصدقاءنا سيكونون سعداء، نظراً لشغفهم بالجرَّارات وما شابهها. إلّا أنَّها تكاد لا تكون حديقة بليتشلي. يشتاق المرء إلى الأيَّام الخوالي. كانت أكثر بهجة، وذلك الشعور الدافئ اللطيف بأنَّك حقّاً تفعل شيئاً من أجل قضيَّة معيَّنة».

أخرج علبة سجائر ذهبيَّة رفيعة للغاية، وفتحها بحركة أنيقة من إبهامه، ومن جديد رأيت حديقة مضاءة بنور الشمس في أكسفورد منذ زمن بعيد، والقندس الشابُّ يفتح صندوق سجائر آخر بهذه الطريقة، وثمّة شيء ما اعتمل في صدري كما لو أنَّها بدأت تمطر مطراً خفيفاً هناك. أدركت أنَّني لا بدَّ كنت ثملاً.

«سيرشح نيك نفسه إلى البرلمان»، قلت.

ضحك ليو برقَّة.

«نعم، سمعت بذلك. هي مزحة، ألا تظنُّ ذلك؟ على الأقلّ وجدوا له مقعداً آمناً، وبذلك يتجنَّب الإهانة. يمكن أن أراه فقط في الحملات الانتخابيَّة».

تخيَّلت نفسي، لوهلة، وعلى نحو مرضٍ، أوجِّه لكمة إلى منتصف وجه

ليو الشاحب وأهشّم أنف الجوارح خاصّته.

«ربّما يفاجئنا كلّنا»، قلت.

حملق فيّ ليو للحظة بتركيز، بعينيه المرتجفتين، ثمَّ ضحك من قلبه بطريقته التي تعوزها الفكاهة.

«أوه، ربّما يفعل ذلك»، قال وهو يتمايل بحيويّة، «ربّما يفعل ذلك حقّاً».

في الأسفل منا، ضرب أحد ما على وتر حادٍّ في البيانو، وبوي بدأ غناء نسخة فاحشة من أغنية «الرجل الذي أحبُّ».

*

الجميع في الوقت الحاضر يستخفُّون بخمسينيَّات القرن العشرين، قائلين إنَّه كان عقداً كئيباً -وهم محقُّون، إذا فكَّرت في المكارثيَّة[142]، وكوريا، والتمرُّد الهنغاريِّ، وكلِّ تلك الأحداث التاريخيَّة الخطرة؛ ومع ذلك أشكُّ أنَّ الشؤون الخاصَّة هي ما كان يشتكي منها الناس وليس الشؤون العامَّة. ببساطة تامَّة، أظنُّ أنَّهم لم يحصلوا على كفايتهم من الجنس. كلُّ ذلك التخبُّط مع المشدَّات والملابس الصوفيَّة الداخليَّة، كلُّ أولاء الأزواج الغاضبين في المقاعد الخلفيَّة للعربات، الشكاوى والدموع وحالات الصمت الحانق، في حين يدندن الراديو دون رحمة عن الحبِّ الأبديِّ -يا للقرف! يا لها من قتامة، يا له من يأس مضعضع للروح. أفضل ما كان يمكن أن يُؤمل، كان صفقة رديئة تتميّز بتبادل لخاتمين رخيصين، تليها حياة راحة مُختلسة في جانب،

---

(142) سلوك سياسيّ ينسب إلى جوزيف مكّارثي، وهو عضو مجلس الشيوخ الأميركيّ، وقام هذا السلوك على توجيه الاتّهامات بالتآمر والخيانة، ولا سيّما الموظّفين المتّهمين بالجاسوسيّة لصالح السوفييت. اشتهر المصطلح في الخمسينيّات، واستخدم بعدها كتعبير عن الإرهاب الثقافيّ الموجّه ضدّ المثقّفين. (م)

وبغاء بأجر في الجانب الآخر. في حين كان الشذوذ- أوه، أصدقائي!- منتهى السعادة. الخمسينيَّات كانت آخر عصر عظيم للشذوذ. كلُّ الكلام الآن هو عن الحرّيَّة والفخر (الفخر!)، لكن أولاء الشبَّان المتحمِّسين بسراويلهم الورديَّة العريضة في أسفلها، الّذين يطالبون بحقِّهم في فعل ذلك في الشوارع إذا شعروا بضرورة ذلك، لا يبدو أنَّهم يقدِّرون، أو على أقلِّ تقدير، يبدو أنَّهم يرغبون في إنكار خصائص السرّيَّة والخوف المثيرة للشهوة. في الليلة التي كانت تسبق خروجي لممارسة الجنس مع أحدهم في الخارج، كنت أمضي ساعة أحتسي كؤوس الجن لأثبِّت أعصابي، وأجهِّز نفسي للمخاطر الّتي ستواجهنا. إمكان التعرُّض للضرب، أو السرقة، أو الإصابة بالتهاب، كلُّ ذلك لا شيء إذا ما قورن باحتمال الاعتقال والخزيّ في العلن. وكلَّما تسلَّق أحدٌ أكثر في درجات المجتمع، كان سقوطه أكبر وأعظم. كانت تنتابني صور مرعبة دائمة لبوَّابات القصر وهي موصدة دوني، أو لنفسي وأنا أتدحرج على درجات المعهد، وبورتر البوَّاب- نعم، لكن ذلك توقَّف عن أن يكون مسليّاً منذ وقت طويل- فوقي في المدخل يفرك بيديه ويلتفت عنِّي ساخراً. ومع ذلك، يا لها من حوافّ لذيذة كانت تسبغها حالات الرعب تلك على مغامراتي في الليل، ويا لها من إثارة تملأ الحلق كانت تثيرها.

أحببت موضات الخمسينيَّات؛ البزَّات الرائعة المكوَّنة من ثلاث قطع، والقمصان القطنيَّة المترفة، وربطات العنق الحريريَّة، والأُحذية القصيرة المصنوعة يدويّاً. أحببت كلَّ مظاهر الحياة في تلك الأيَّام التي هي مثار سخرية في الوقت الحاليِّ- الكراسي بأذرع بيض مكعَّبة الشكل، منافض السجائر الكريستاليَّة، أجهزة الراديو المغلَّفة بالخشب بصمَّاماتها المتوهِّجة وواجهاتها الشبكيَّة الغريبة- وبالطبع السيَّارات، الأنيقة، السوداء،

بمقدّماتها الطويلة، مثل رجل الجاز الزنجيّ الذي كان يسعدني الحظّ أحياناً في التقاطه عند باب مسرح لندن. حينما أنظر إلى الوراء فإنَّ هذي هي الأشياء التي أتذكَّرها بوضوح تامٍّ، وليس الأحداث العامَّة العظيمة، وليس الأحداث السياسيَّة- التي لم تكن أحداثاً سياسيَّة على الإطلاق، إنَّما مجرَّد تسويات هستيريَّة لمزيد من الحروب- وليس حتَّى أفعال ولديَّ، وأنا آسف لقول هذا، التي كانت تائهة للغاية، ومتطلِّبة في سنيّ مراهقتهما التي لا أب فيها؛ قبل كلِّ شيء، أتذكَّر أزيز حياة الشذوذ ودوَّامتها، والافتتان الحريريّ بكلِّ ذلك، المشادَّات، والأحزان، والتهديدات، والملذَّات التي لا يمكن وصفها، والوافرة دائماً. كان هذا ما افتقده بوي كثيراً في منفاه الأميركيِّ (كتب لي: «أنا مثل روث، وسط حقل قمح غريب[143]»). لا شيء يعوّض عن حقيقة كونك لست في لندن، لا سيَّارات الكاديلاك، ولا سجائر كاميل، أو لاعبي كرة قدم العالم الجديد، بقصّات شعورهم القصيرة. ربَّما لو لم يكن قد سافر إلى أمريكا، لو كان استقال مثلي، أو استمرَّ في أداء أعمال مفكَّكة لأوليغ، فلربَّما لم يكن قطّ قد جلب كلَّ تلك المشكلات إليه، ولربَّما كان قد انتهى به الحال إلى لوطيٍّ معمِّر مرح يتنقَّل بين حانة ذا ريفورم والمراحيض العامَّة، إلى جانب محطّة مترو أنفاق لندن. إلّا أنَّ بوي عانى من التزام بالقضيَّة لا أمل فيه. مثير للشفقة حقّاً.

كنت أعتقد دائماً أنَّ شيئاً من الجنون سيصيب بوي في أميركا، فقد كان مُراقَباً طوال الوقت- كان مكتب التحقيق الفدراليُّ دائمَ الشكِّ فيه، ولم يدرك النكتة في الأمر- وكان يشرب كثيراً. أمَّا نحن فقد كنَّا معتادين

---

(143) الإشارة هنا إلى بيت شعر من قصيدة الشاعر الإنكليزيّ جون كيتس (1795-1821) الشهيرة التي حملت عنوان أغنية إلى عندليب، والبيت يتحدَّث عن قلب روث الحزين، وروث هي أرملة من الشعب المؤابيّ رهنت قلبها إلى زوجة أبيها. (م)

شناعته هذه-المشاجرات، حفلات الصخب التي تستمرُّ لمدَّة ثلاثة أيَّام، الاستعراض العلنيُّ لقدراته الرجوليَّة- لكنَّ الحكايات الآن أصبحت أكثر قتامة، والأفعال أكثر يأساً. في حفلة أقامتها إحدى مضيفات واشنطن الأسطوريَّات لأعضاء سفارتنا-أنا سعيد لقولي إنِّي نسيت اسمها- تحرَّش بشابٍّ على مرأى الضيوف الآخرين، ولـمَّا اعترض الشابّ البائس طرحه بوي أرضاً. كان يقود تلك السيَّارة السخيفة التي تخصّه- سيَّارة مكشوفة السقف، ورديَّة بزمُّور صوته عال كان يستخدمه بحماس عند كلِّ تقاطع- بسرعة خطرة جدّاً في أنحاء واشنطن والولايات المحيطة، جامعاً مخالفات سرعة زائدة، ثلاث أو أربع في اليوم الواحد، وكان يمزِّقها تحت أنوف رجال شرطة المرور مدَّعياً الحصانة الدبلوماسيَّة. بوي المسكين، لم يدرك أنَّه أصبح عتيق الطراز. ربَّما كان هذا النوع من الأشياء ممتعاً في عشرينيَّات القرن العشرين، لـمَّا كنَّا نستمتع بكلِّ سهولة، لكنَّ طيشه الآن كان ببساطة أمراً محرجاً. أوه، بالطبع استمررنا في إبهاج بعضنا بعضاً بحكايات عن آخر خرمشاته الجنسيَّة، وكنَّا نهزُّ رؤوسنا قائلين: بوي العجوز الطيِّب هو لا يتغيَّر أبداًا لكن تحلُّ بعدها فترة صمت، وأحد ما يسعل، وآخر يصرخ طالباً جولة أخرى من الشراب، وبهدوء، سيسقط الموضوع.

بعد ذلك، في إحدى الأمسيات الرطبة في شهر يوليو، خرجت من المعهد ووجدت نفسي أحدِّق إلى لطخة من الطبشور المسحوق على الرصيف المغسول بماء المطر. في الأيَّام الخوالي كانت هذه إشارة أوليغ لدعوتي إلى لقاء. أثارت رؤية تلك البقعة البيضاء في نفسي مزيجاً من الأحاسيس: الإنذار بالطبع، الذي يتحوَّل بسرعة إلى خوف، والفضول، ونوع من التوقُّع الصبيانيّ، لكن الأقوى، والأكثر دهشة، الجنس، تغذّيه بلا شكٍّ رائحة المطر

الصيفيّ المسائيَّة على الرصيف، والصمت المخيِّم لشجر الجمِّيز فوقي. مشيت قليلاً، ومعطفي المطريُّ فوق ذراعي، هادئاً في ظاهري، في حين كانت أفكاري مضطربة، ثمَّ دخلت في غرفة هاتف، غير شاعر بالسخف- تحقَّقت من زوايا الشارع، والنوافذ المقابلة، وموقف السيَّارات- وطلبت الرقم القديم، ووقفت تنتابني حالة تشوُّق حارّ، أستمع إلى تدفُّق الدّم من صدغيَّ. لم يكن صوت المجيب مألوفاً، لكنَّ اتِّصالي كان متوقَّعاً. ريجينت بارك، الساعة السابعة: الروتين القديم. وبينما كان الصوت الغريب يملي تعليماته- إلى أيِّ درجة كانت فارغة ولا رنَّة لها، تلك الأصوات الروسيَّة- ظننت أنَّني سمعت صوت ضحكة أوليغ في الأرجاء. أغلقت السمَّاعة، وغادرت غرفة الهاتف. فمي جافٌّ، وأنا مشوَّش قليلاً. أشرت إلى سيَّارة أجرة. الروتين القديم.

*

بدا أوليغ قصيراً وبديناً، وبخلاف ذلك لم يكن قد تغيَّر مذ رأيته آخر مرَّة. كان يرتدي البزَّة الزرقاء خاصَّته، ومعطفه الرماديَّ، وقبَّعته البنّيَّة. سلَّم عليَّ بحرارة، وهو يحني رأسه المدوَّر كحلوى عيد الميلاد، ومصدراً أصوات بقبقة سعيدة. عمَّ الضباب الذهبيُّ ريجنت بارك ورقعة خضراء رماديَّة غطَّت الأرض في تلك الأمسية الصيفيَّة الرقيقة. كانت تفوح من المكان رائحة المطر الأخير على العشب. التقينا عند حديقة الحيوان، كما كانت الحال دائماً في الأيَّام القديمة، وانطلقنا باتِّجاه البحيرة. انحرف عاشقان حالمان أمامنا في المرج الأخضر وذراع أحدهما يتأبَّط الآخر. أطفال يركضون ويصرخون. سيِّدة تمشي مع كلب صغير. «مثل لوحة لواتو[144]»، قلت، «رسَّام. فرنسِّي.

---

(144) أنطوان واتو (1684-1721)، رسام فرنسيّ اشتهر برسمه مناظر الريف الخلّابة. (م)

ماذا تحب أوليغ؟ أقصد ما الذي يثير اهتمامك؟»، هزَّ أوليغ رأسه، ومن جديد ضحك تلك الضحكة المقهقهة.

«يريد كاستور أن يذهب»، قال، «يقول إنَّ وقت الرحيل قد حان».

فكَّرت في ماكليش وهو يضرب في أصقاع الأراضي الرماديَّة المقفرة التي تعصفها الريح في موسكو. حسناً، ربَّما شعر أنَّه في وطنه هناك- قبل أيِّ شيء هو وُلد في أبردين.

«وبوي؟»، قلت.

الرجال البالغون كانوا يبحرون بقوارب شراعيَّة في البحيرة. شابٌّ جميل جدّاً هادئ يرتدي قميصاً أبيض وبنطالاً قصيراً. شبحٌ خارج من شبابي، كان يسترخي على كرسيٍّ طيّ، بكلِّ صفاء، يدخِّن سيجارة.

«نعم، فيرجيل أيضاً»، قال أوليغ، «سيرحلان معاً».

تنهَّدت.

قلت: «إذاً وصل الأمر إلى هذا الحدِّ، لم أعتقد قطُّ أنَّ هذا سيحدث، كما تعرف». نظرت إلى الشابِّ على الكرسيِّ، التقط نظرتي فابتسم، بوقاحة وإغراء، وشيء ما مألوف ارتفع في حلقي. «لمَ جئت إليَّ؟»، قلت لأوليغ.

التفت إليَّ، وحدَّقني بنظرة عينه الأكثر براءة.

«علينا أن ننقلهما إلى فرنسا»، قال، «أو إلى شمالي إسبانيا، ربَّما، أيِّ مكان في القارَّة. بعد ذلك سيكون الأمر سهلاً».

كانت موسكو قد اقترحت أن ترسل غوَّاصة لالتقاط الاثنين من شواطئ بحيرة هايلاند. تخيَّلت بوي والاسكتلنديَّ الصارم يتعثَّران في الظلام فوق الصخور الرطبة. أحذية المدينة خاصَّتهما مبلَّلة، ويحاولان جعل مصباحهما الكشَّاف يعمل، في حين يقوم القبطان البحريُّ، في الخارج في الليل، بمسح

الشاطئ بحثاً عن إشارتهما، وهو يتمتم بشتائم روسيَّة.

«بحقِّ الله، أوليغ»، قلت، «بالتأكيد يمكنك التوصُّل إلى شيء أقلَّ ميلودراما من الغوَّاصة؟ لمَ لا يمكنهما ببساطة أخذ مركب إلى ديبي؟- أو أحد تلك القوارب التي تجوب الساحل الفرنسيَّ لمدَّة ثمانٍ وأربعين ساعة؟ رجال الأعمال يستخدمونها لأجل عطل نهاية الأسبوع القذرة مع سكرتيراتهم. يطلب إليهما الوصول إلى سانت مالو، أو أماكن بأسماء كهذه، لن يهتمَّ أحد بالتحقُّق من الأوراق أو قوائم الركَّاب».

مدَّ أوليغ يده فجأة، وعصر ذراعي. لم يلمسني من قبل؛ إحساس غريب.

«هل تدرك الآن، جون، لمَ جئتك؟»، قال بحنان، «يا له من دماغ هادئ».

لم أستطع مقاومة الابتسام؛ الحاجة إلى أن يكون أحد في حاجتي، كما ترين، كان ذلك دائماً نقطة ضعفي. تابعنا مشينا. الشمس المنخفضة أشرقت على الماء المنصهر إلى جانبنا، ملقية رقائق من ضوء ذهبيٍّ. ضحك أوليغ، وهو يشخر عبر أنفه المسطّح كأنف الخنزير، «وأخبرني، جون»، قال بخبث، «هل سبق أن كنت مع سكرتيرتك في تلك القوارب»، ثمَّ تذكَّر، واحمرَّ خجلاً، وأسرع أمامي يتبختر مثل سيِّدة عجوز سمينة.

*

رجع بوي. اتَّصلت به في شقَّة بولاند ستريت، وبدا عذباً على نحو مقلق. «الشابُّ العجوز، الراقي، في أفضل حال، سعيد لكونك في الوطن، الأميركيُّون الدمويُّون». التقينا في ذا غريفن. كان منتفخاً ومحنيَّ الظهر، وبشرته اكتست لمعاناً مريباً، وتفوح منه رائحة شراب وسجائر أميركيَّة. لاحظت الجلد المتشقِّق

حول أظافره، وفكَّرت في فريدي. كان يرتدي بنطالاً صوفيّاً مقلَّماً وضيِّقاً، وحذاء تنس، وقميص هاواي فيه ألوان قرمزيَّة وخضر زاهية، وقبَّعة رعاة بقر صفراء- بنّيّة مع حزام جلديٍّ، ويتَّكئ على البار بمرفقه، فبدا مثل حبَّة فطر خبيثة عملاقة. «تناول شراباً بحقِّ المسيح، سنشرب حتَّى الثمالة. لديَّ ألم في القلب، وأشعر بخدر كالنعسان، وما إلى ذلك»، ضحك وسعل، «هل رأيت نيك؟ كيف هو؟ اشتقت إليه. اشتقت إليكم جميعاً. لا يعرفون كيف يستمتعون هناك. عمل، عمل، عمل؛ قلق، قلق، قلق. وهناك كنت، بويستون آلاستير سانت جون بانيستر، عالق في مستشفى مجانين، لا شيء أفعله سوى معاشرة الرجال السود اللوطيِّين السخفاء. كان عليَّ الرحيل. أنت تفهم ذلك، أليس كذلك؟ كان عليَّ الرحيل».

«عجباً!»، قلت، «هل هذا حقّاً هو اسمك- بويستون؟ لم أعرف قطُّ».

كانت بيتي بولر على مقعدها خلف البار، تدخِّن سجائر الكوكتيل وتقعقع بأساورها، وقد أصبحت الآن المرأة الكارثيَّة الخرقاء الممتلئة التي تؤول إليها دائماً الجميلات الشابَّات عامرات الصدر. في أجمل أيَّامها اشتهرت بلوحة كان قد رسمها لها مارك غيرتلر - بشرة بيضاء، عينان زرقاوان، حلمتان بنِّيَّتان، هرم من تفاح رائع في إناء ورديٍّ- لكن الآن، وهي تلج أواخر الخمسينات من عمرها، مظهر بلومزبيري تلاشى كلّه، غرق في الدهون، وأصبحت واحدة من الأشخاص المرتخين الكسالى في لوحات لوسيان فرويد[145]. لطالما كان يتملَّكني خوف بسيط منها، فقد كان لديها ميل إلى التطرُّف في أفعالها، فربَّما تكون في مزاج المزاح لتنفجر فجأة بالشتائم الحقود. وكان من غرورها تظاهرها بالإيمان بأنَّه لم يكن ثمَّة شيء مثل

---

(145) لوسيان مايكل فرويد (1922-2011)، رسّام بريطانيّ من أصل نمساويّ، وهو حفيد سيغموند فرويد، رائد التحليل النفسيّ. صوّر الإنسان الحديث. (م)

المثليَّة الجنسيَّة.

«فكَّرت كيف أنَّك ستجلب معك إلى الديار عروساً من عرائس الحرب، بوي بانيستر»، قالت بلهجة مبتذلة، «إحدى تلك الوريثات الأميركيَّات، شقراء ضخمة لطيفة مع كثير من ممتلكاتها وراءها».

«بيتي»، قال بوي، «ينبغي لك أن تمثِّلي في المسرح الإيمائيّ».

«كذلك ينبغي لك ذلك، أيُّها البدين. ربَّما تلعب دور السيِّدة، إلَّا أنَّك لا تبدو رجلاً بما يكفي لأداء الدور».

ظهر كويريل، مرتدياً بذلة من الحرير الكتانيِّ الأبيض، وحذاء فيه لونان. كان في طور المسافر الوحيد خاصَّته، ويوشك أن يغادر إلى ليبيريا، أو ربَّما إلى أثيوبيا؛ إلى مكان ما، ناءٍ، حارّ وغير متحضّر في أيِّ حال. قيل إنَّه كان يفرُّ من علاقة حبٍّ تعسة- ظهر العاشق المخلص للتوّ- لكن ربَّما كان هو من أطلق الشائعات بنفسه. جلس إلى البار، بيننا، سئماً ومرهقاً من الحياة كما بدا، وقد شرب مقداراً مضاعفاً من الجن. شاهدت بقعة دخانيَّة باهتة من أشعَّة الشمس عند مدخل الدرجات عند الباب، وفكَّرت كيف سيقوم العالَم بأعماله خلسة محاولاً ألَّا يكون ملاحظاً.

«حسناً بانيستر»، قال كويريل، «أخيراً طردك الأميركيُّون، أليس كذلك؟»

نظر إليها بوي نظرة جانبيَّة متجهِّمة.

«ما الذي يفترض بهذا أن يعني؟»

«سمعت أنَّ هوفر طردك. تعرف أنَّه لوطيّ سيِّئ السمعة. دائماً لديهم شذوذ، أليسوا كذلك، أُسرتا هوفر وبيريا».

بعد ذلك بوقت طويل- كان الضوء قد تحوَّل عند مدخل الباب إلى

أحمر ذهبيّ- دخل نيك، مع ليو روذنستاين، كلاهما ببزّة السهرة، بدَوَا باهتين وسخيفين، مثل زوج من الأثرياء في رسوم مجلَّة بانش[146]. فوجئت برؤيتهما هناك. منذ انتخابه سلك نيك سبيله، كما كان واضحاً، بعيداً عن الحانات القديمة. وليو روذنستاين، الذي كان والده على فراش الموت، كان قد أوشك أن يرث مقام النبلاء ومصارف الأسرة. «تماماً مثل الأيَّام الخوالي»، قلت وحيَّاني كلاهما بصمت مع نظرة خاصَّة. أفترض أنَّني كنت ثملاً. طلب نيك على نحو نكد زجاجة شمبانيا. كان يرتدي حزاماً قرمزيّاً؛ لطالما لم يكن لديه ذوق في الملبس. رفعنا كؤوسنا وشربنا نخب عودة بوي. لم نكن مستمتعين بذلك. وبعد أن أنهينا أوَّل زجاجة أخرجت لنا بيتي بولر زجاجة أخرى، لأجل المنزل.

«نخب الأصدقاء الغائبين!»، قال ليو روذنستاين، ونظر إليَّ من فوق حافَّة كأسه وغمز.

«أيُّها المسيح»، تمتم بوي، وهو يفرك عينيه بذراعه البدينة التي لفحتها الشمس، «أظنُّني سأبكي».

ثمَّ اتَّصل بي أوليغ. كلمة السرِّ المشفَّرة كانت إيكاروس[147]. أقرُّ بأنَّها كانت مدعاة إلى الشؤم إلى حدٍّ ما.

---

(146) مجلّة أسبوعيّة بريطانيّة، هزليّة، هجائيّة. صدرت بين العامين 1841 و1992، ثمّ عاودت الصدور بين عامي 1996 و2002. (م)

(147) إيكاروس في الميثولوجيا الإغريقيّة هو ابن دايدالوس. تحكي الأسطورة أنّ إيكاروس احتُجز وأبوه في جزيرة كريت كعقاب من مينوس ملك الجزيرة. وللهرب من العقوبة استعان الاثنان بأجنحة ثبّتاها على ظهريهما بالشمع. لكنّ إيكاروس طار قريباً من الشمس، فذاب الشمع عن الجناحين وسقط. (م)

كان غريباً أنَّ كلَّ شيء توشَّح بغلاف من الكآبة، فقد بدا الأمر بسيطاً على نحو سخيف. اختلق بوي عذراً، وغادرنا حانةَ ذا غريفن معاً، وأنا قدت السيَّارة به إلى بولاند ستريت. فوق الشوارع ذوات الإضاءة الخفيفة كانت السماء تتلوَّن بلون أزرق داكن عميق رقيق، مثل نهر مقلوب. وصلنا إلى الشقَّة. انتظرت. جلست وحدي على الأريكة، في حين كان هو يجهِّز أمتعته. كانت الشمبانيا لا تزال تفور في جيوبي الأنفيَّة، وأنا أيضاً شعرت برغبة في البكاء، بطريقة تذهل، وبقيت أصدر تنهُّدات حزينة عظيمة، وببطء أنظر وأتلفَّت حواليّ مثل سلحفاة ثملة. تذكَّرت بوضوح شجاري هنا مع داني بيركينز، واختبرت ألماً شنيعاً، مثل نوبة ألم تشنُّج جسديٍّ. كنت أسمع ضجيج بوي في الطابق العلويِّ، وهو يتحدَّث إلى نفسه، ويئنُّ. نزل في الوقت الحاضر وهو يحمل حقيبة سفر قديمة.

قال بحزن: «أرادوا أن أحضر كلَّ شيء. سأترك كل شيء في النهاية. كيف أبدو؟»

كان يرتدي بزَّة من ثلاث قطع لونها رماديٌّ غامق، وقميصاً مخطَّطاً، بأزرار لطرفي كمَّي البزَّة، وربطة عنق مدرسيَّة بدبوس ذهبيٍّ.

«تبدو سخيفاً»، قلت، «سيتأثَّر الرفاق تماماً».

نزلنا إلى أسفل الدرجات، صامتين ومهيبين، مثل متعهِّدين خائبَي الأمل.

«لقد قفلت الشقَّة»، قال بوي، «داني بيركينز كان لديه مفتاح، وأنا سأحتفظ بهذا المفتاح إذا كنت لا تمانع، كهديَّة كما تعرف».

«أنت لست راجعاً إذاً؟»، قلت بابتهاج، ونظر إليَّ نظرة جريحة متألِّـمة، وتقدَّم أمام عيادة الجرَّاح، ثمَّ إلى الخارج في الليل اللامع. الربُّ يعرف لمَ كنت أشعر بالمرح.

مرَّة أخرى، قدت سيَّارة بيضاء كبيرة صارت تبتلع الأميال بحماس شديد. ولـمَّا كنَّا نعبر النهرَ أنزلت نافذة السيَّارة من جهتي فعوى الليل ووثب إلى داخل السيَّارة. نظرتُ في أسفل الجسر ورأيتُ سفينة حمراء عندَ المرساة هناك، وثمَّة شيءٌ ما يتعلَّق بالمشهد -الظلام اللامع، النهر المضطرب، المركب ذو الألوان الفاقعة المتألِّـقة- أصابني برعشة، وبإثارة وحشيَّة مفاجئة، ورأيت حياتي كبيرةً وقاتمة ومنكوبة. ثمَّ غادرنا الجسر، وغصنا بين المستودعات ومواقع لانفجار القذائف كانت قد نمت فيها الأعشاب.

إلى جواري، كان بوي يبكي في صمت ويده على عينيه.

سرعان ما أصبحنا نتقدَّم مسرعين في ذا داونز. في ذاكرتي لها، هذا الجزء من الرحلة كان كلّه اندفاع ناعم لا يمكن مقاومته عبر الليل الفضيِّ الجافل. أرى السيَّارة تتقدَّم، والمصابيح الأماميَّة تمسح جذوع الأشجار وعلامات الطحلب النامي، وبوي وأنا، شخصان بوجهين متجهِّمين؛ الفكَّان مثبَّتان، والعيون مثبَّتة لا ترفُّ على الطريق المندفع بسرعة. وأنا أيضاً قرأت روايات بوشان وهانتي.

«أتمنَّى لو كان الوقت نهاراً»، قال بوي، «فربَّما تكون هذه آخر مرَّة أرى فيها بلايتلي».

فيليب ماكليش كان في منزل والدته في كينت، وهو كوخ أصليٌّ مغطَّى

بالورد بأكمله، مع بوَّابة خشبيَّة ودرب حصويّ ونوافذ ملوَّنة تلمع كلُّها. فتحت أنتونيا ماكليش الباب لنا، ودون أيِّ كلمة قادتنا إلى غرفة المعيشة. كانت امرأة طويلة ونحيلة، بشعر أسود طويل. بدت دائماً تظهر استياءً خاصّاً كامناً، ربطتُ ذلك بالخيل على الرغم من أنّي لم أرَها قطُّ تركب أحدها. كان ماكليش يجلس في كرسيٍّ ذي ذراعين، ثملاً للغاية، يحدِّق إلى الموقد البارد. كان يرتدي بنطالاً خفيفاً، وسترة صوف صفراء غير متجانسة مع البنطال. رفع نظره إلى الأعلى باتِّجاهنا، بوي وأنا، بغير حماس، ولم يقل شيئاً، وعاد إلى تأمُّله في موقد النار.

«الأطفال نائمون»، قالت أنتونيا وهي لا تنظر إلينا، «لن أعرض عليكما شراباً».

بوي، الذي كان يتجاهلها، صفَّى حنجرته.

«أقول، فيل»، قال، «علينا أن نتحدَّث. أمسك معطفك، أنت شابٌّ طيِّب».

أومأ ماكليش، ببطء، وتعاسة، ثمَّ وقف، فطقطقت مفاصل ركبتيه. استدارت زوجته جانباً، ومشت نحو النافذة، وفي طريقها أخذت سيجارة من صندوق فضيٍّ على الطاولة هناك. أشعلتها، ووقفت، المرفق في اليد، تحملق في الظلام الدامس. رأيتُنا جميعاً هناك، صافين وغير حقيقيِّين كما لو كنَّا على خشبة مسرح. نظر ماكليش إليها بألم وبعينين منتفختين ورفع يد تضرُّع باتِّجاهها.

«توني»، قال.

لم تبدر عنها إجابة، ولم تلتفت، أمَّا هو فأسقط يده.

«حان وقت الذهاب، أيُّها العجوز»، قال بوي، الذي كان ينقر بقدميه

على السجَّادة، «مجرَّد دردشة، هذا كلُّ شيء».

انتابتني رغبة في الضحك.

ارتدى ماكليش معطفاً وبريّاً، وخرجنا. حتَّى إنَّه لم يكن قد جهَّز حقيبة. توقَّف عند الباب الأماميِّ، وانزلق عائداً إلى داخل القاعة. نظرت أنا وبوي إلى بعضنا بعضاً بكآبة، متوقِّعَين شهقاتٍ، وصراخاً، ورشقاً بالاتِّهامات. لكنَّه عاد بعد لحظة يحمل مظلَّة مطويَّة. نظر إلينا بخجل.

«حسناً، لا تعرف أبداً ما قد يحصل»، قال.

كان الوقت قد أصبح منتصف الليل حين وصلنا إلى فوكستون، والطقس أمسى عاصفاً، والسفينة الصغيرة، المضاءة مثل شجرة عيد الميلاد، كانت تهتزُّ وترتفع مع كلِّ موجة.

«أيُّها المسيح»، قال بوي، «تبدو صغيرة جدّاً. لا بدَّ من وجود شخص ما على سطح السفينة يعرفنا».

«قل لهم إنَّك في مهمَّة سرّيَّة»، قلت، وحدَّقني ماكليش.

كانت هناك مسألة سيَّارة بوي. لم يفكِّر أحدنا ماذا سيحلُّ بها، ومن الواضح أنَّني لن أستطيع قيادتها عائداً إلى لندن. كان يحبُّها، وصار يفكِّر في مصيرها المحتمل. في النهاية قرَّر أنَّه ببساطة سيتركها على رصيف الميناء.

«بهذه الطريقة، يمكنني التفكير في أنَّها موجودة هناك دائماً، تنتظرني».

«يا إلهي، بوي»، قلت، «لم أعرف قطُّ أنَّك شخص عجوز حسَّاس».

ابتسم ابتسامة حزينة، ومسح أنفه بأصابعه.

«بيتي بولر كانت محقَّة»، قال، «لستُ رجلاً بما يكفي». وقفنا بلا حراك، ثلاثتنا، عند نهاية لوح العبور الخشبِّي، سراويلنا تجلدها ريح الليلة الدافئة، والضوء القادم من المصابيح يرتجف عند أقدامنا. على سطح السفينة

رنَّ جرس رنَّة كئيبة، «ساعات الليل»، قال بوي وهو يحاول أن يضحك.

كان ماكليش، التائه في مكان ما في أعماق نفسه المعذَّبة، يحملق في القناة الضيِّقة للمياه المتدفِّقة على نحو مكفهرٍّ بين خاصرة السفينة وحوض السفن. اعتقدت أنَّه ربَّما كان يفكِّر في رمي نفسه فيها.

«حسناً إذاً»، قلت بلطافة.

تصافحنا على نحو أخرق، ثلاثتنا، وأنا فكَّرت في أن أقبِّل بوي، لكن لم أتمكَّن من غصب نفسي على فعل ذلك، والاسكتلنديّ الصارم ينظر إلينا.

«انقل سلامي إلى فيفيين»، قال بوي، «والطفلين. سأفتقد رؤيتهما وهما يكبران».

هززت كتفيّ، وقلت: «وكذلك أنا».

صعد إلى أعلى المعبر الخشبيّ، بخطا ثقيلة، يجرُّ حقيبته. ثمَّ التفت.

«مرَّ لزيارتنا في وقت ما»، قال، «كل ذلك الكافيار، والفودكا الجيِّدة».

«بالطبع، سأسافر على متن ليبريشن».

أدركت أنَّه لم يتذكَّر. كان يفكِّر في شيء آخر.

«فيكتور»، قال، والتقطت الريح طرف معطفه، وصارت تلوِّحه، «سامحني».

قبل أن أتمكَّن من الردِّ -كيف كنت سأردُّ؟- ارتعش ماكليش إلى جانبي فجأة، وثبَّت يده على ذراعي بسرعة.

«أصغِ، ماسكل»، قال بصوت مرتجف، «لم أحبَّك يوماً -ولا أزال لا أحبُّك، فعلاً- لكنِّي أقدِّر هذا، أعني مساعدتك لي على هذا النحو. أريدك أن تعرف أنَّني أنا أقدِّر لك ذلك».

توقَّف للحظة، يومئ برأسه، تلك العينان المشيخيَّتان المخبولتان

مثبَّتتان إلى عينيَّ. ثمَّ استدار، وصعد إلى أعلى دفَّة العبور. ولـمَّا وجد بوي يعترض طريقه، دفعه إلى الخلف، وقال شيئاً ما بحدَّة لم أستطع إدراكه. في آخر مشهد لهما كانا يقفان جنباً إلى جنب عند الحاجز المعدنيِّ، وكل ما استطعت رؤيته كان رأسيهما وأكتافهما. كانا ينظران إلى الأسفل، نحوي، مثل زوج من أعضاء المكتب السياسيِّ يشاهدان موكب عيد العمَّال، ماكليش دون أيِّ تعبير، وبوي حزيناً يلوِّح بيده ببطء.

*

ركبت قطار البريد العائد إلى لندن، وفي حين كان القطار يقعقع على طول الطريق -لمَ تبدُ القطارات أشدَّ صخباً في الليل؟- كانت الآثار الأخيرة للكحول في دمي تنضب مع الوقت، وأنا أصبت بالذعر. الحمد لله لم يكن ثمَّة أحد في العربة يراني متكوِّماً في زاوية المقعد، ووجهي شاحب، وعيناي صارختان، ويداي ترتعشان، وفكِّي يعمل من غير إرادة. لم يكن الاعتقال هو ما أخافني، ولا الفضيحة، ولا حتَّى السجن؛ نعم، ذعرت من هذه الأشياء حقّاً، لكنَّني شعرت أنَّها لم تكن توشك أن تقع، كنت فحسب مرتعداً من كلِّ شيء. ذهني يئزُّ، دون توازن، كما لو أنَّ شيئاً ما داخله انحلَّ، وصار يضرب بجنون، مثل حزام مروحة انقطع. إنَّه شيء جيّد أنَّني كنت علقت في قطار، لولا ذلك لم أكن لأعرف ما قد كنت فعلته -ربَّما العودة إلى رصيف الميناء، والقفز إلى متن السفينة، مع بوي وماكليش، وهي تمخر عباب البحر لتصلَ إلى ما يدعى الحرّيَّة. ملأتني لندن رعباً، فقد كان لديَّ انطباع عن المدينة شبيه بانطباع ويليام بليك عنها، متوهِّجة على نحو مخيف، وتعجُّ بأشخاص يكدحون من دون هدف، لن يلبث هذا القطار المتأرجح المرتعد

أن يقذفني إلى وسطهم الخانق. إحساس من الأسى والمصيبة التي يتعذَّر علاجها سيطر عليَّ، وأعادني إلى الوراء، إلى ليالي طفولتي المبكِّرة، لـمَّا كنت أستلقي في السرير في ضوء الشموع، في حين يغنّي فريدي في مهده، والمربِّية هارغريفز تعظنا عن نار الجحيم ومصير الخطَّائين؛ والآن، صلَّيت وأنا أتقدَّم بسرعة عبر قطار الظلام إلى لندن، والاحتمالِ المفاجئ الحقيقيِّ للعنة، في هذا العالم، إن لم يكن في العالم الآخر. فعلت ذلك حقّاً آنسة ف. صلَّيت على نحو غير مترابط وأنا أتلوَّى في رعب وخزي، لكنِّي صلَّيت فعلاً. ولدهشتي، كنت مرتاحاً. بطريقة ما، وصل نوبودادي[148] العظيم في السماء إلى الأسفل بيد مرمريَّة، ووضعها على جبيني المحترق وأراحني. لـمَّا وصل القطار إلى تشارلنغ كروس، في الساعة الثالثة صباحاً، كنت قد استعدت السيطرة على نفسي. مشيت على طول منصَّة السكَّة الفارغة، إلى جانب المحرِّك المتعرِّق اللاهث، أسوِّي وقفتي وأصفِّي حنجرتي، سخرت من نفسي لمخاوفي من الليل. ماذا كنت أتوقَّع، سألت نفسي-مجموعة من عناصر الشرطة تنتظرني عند حاجز التذاكر؟

وجدت سيَّارة أجرة وذهبت إلى المنزل. كان النوم مستحيلاً. وباتريك في زيارته السنويَّة إلى إيرلندا، لرؤية والدته العجوز. كنت جذلاً؛ لم يكن بإمكاني مواجهة محاولة تسويغ غيابي طوال الليل له -فقد كان يعرف دائماً متى أكذب، وهو أمر لا بدَّ جعله فريداً في حياتي. كيف استمتع بكلِّ هذا، على الرغم من ذلك؛ فيما بعد، لـمَّا سمع ما وصل إليه حالي، ضحك، وضحك. لم يأخذني على محمل الجدِّ حقّاً، باتريك. شربت كوباً من القهوة

---

(148) نوبودادي، هو اسم من أسماء الله، يوحي بعدم الاحترام ولا سيّما حينما ينظر إليه مجسّماً، استخدمه الشاعر ويليام بليك في قصيدته إلى نوبودادي وسمّاه أبا الغيرة، وهو الإله الشرير الذي يحكم عصر التنوير. (م)

السوداء، لكنَّ ذلك جعل قلبي يخفق، ثمَّ ارتشفت كأساً من البراندي، وهذا جعل الخفقان أسوأ. وقفت عند نافذة غرفة المعيشة وشاهدت فجر الصيف يتحوَّل إلى دمويٍّ فوق أسطح المنازل في بلومزبيري. كانت العصافير قد استيقظت، والآن تصنع ضجَّةً مخيفة. شعرت بنشوة، ومشاعر جوفاء، ولم يكن هذا من تأثير الكافيين فحسب، كان الشعور نفسه الذي يتملَّكني حين كنت لا أزال مع فيفيين وأعود إلى المنزل في بواكير الصباح بعد ليلة من التصيُّد في المراحيض العامَّة. في كلِّ فعل آثم تستتر رغبة في أن تُمسك.

في التاسعة اتَّصلت بالرقم الذي كان بوي أعطانيه ويخصُّ داني بيركينز، ورتَّبت لقاءه في بولاند ستريت. خرجت من المنزل وأنا أشعر بأنِّي مُراقب. أشعَّة الشمس اللاذعة ورائحة الصيف الدخانيَّة للندن. لم أكن قد حلقت ذقني. شعرت كأنِّي أحد أوغاد كويريل الخفيِّين. كان داني بيركينز يعمل الآن لصالح وكيل مراهنات، بوظيفة لم أهتمَّ بالاستفسار عنها، وكان مثل لندنيٍّ حقيقيٍّ، أنيقاً وشعره مزيَّت. لـمَّا وصلت إلى المنزل كان يستريح تحت أشعَّة الشمس، يدخِّن سيجارة بمهارة محسوبة. بذلة رائعة، ربطة عنق متوهِّجة، حذاءان جلديَّان أسودان بنعلين رقيقين بسماكة إنش. أثار منظره في نفسي اضطراب العواطف القديمة. كان حبيبي الشاذّ الأوّل، الشخص الذي ربطني لأوَّل مرَّة بعمود الغيرة؛ كان من الصعب معرفة أيّ تجربة بينهما هي الأعمق. شعرنا بالارتباك في البداية؛ لا نعرف ما نفعل، وعلى نحو ما بدت المصافحة باليدين أمراً سخيفاً، ولم يكن الاحتضان أمراً وارداً. في النهاية أرضى نفسه بأن لكمني برفق على أعلى ذراعي، وقام بالحركة الجانبيَّة تلك الخاصَّة بالملاكمين، الحركة بالرأس والكتفين التي تذكَّرتها جيداً.

«مرحباً، فيك»، قال بمرح، «تبدو لائقاً».

«وأنت كذلك، داني. لا يبدو أنَّك كبرت يوماً».

«أوه، لا أعرف بشأن هذا. بلغت الخامسة والثلاثين في الأسبوع الماضي. أين ذهبت السنون... لا أعرف؟

«ألا تزال تطمح إلى العمل في المسرح؟»

«لا، لا. انتهت أيَّامي المهنيَّة. لا أزال أقوم ببعض الدندنة، لكنَّ ذلك في معظمه في الحمَّام، الآن».

دخلنا البناء الذي كان لا يزال يحتفظ برائحة طبيَّة على الرغم من أنَّ الطبيب المراوغ كان قد رحل منذ زمن بعيد، وأصبحت عيادته الآن مكتب مراهنات -«واحد من مكاتبنا»، قال داني بتجهُّم- أرضيَّته ممتلئة بأعقاب السجائر وأوراق السباق المتَّسخة. كنت أرى حياتي تختفي وتتحوَّل إلى فتات. صعدنا الدرج، تقدَّمني داني، وأنا حاولت ألّا أنظر إلى مؤخِّرته النحيلة المشدودة. وفي الردهة شاهدت عينيه تنزلقان من فوق الأريكة من دون وميض ذكرى.

لم يأتِ على ذكر بوي بعد.

وجدت زجاجةً نصف ممتلئة من الويسكي، وتناولنا شرابنا، واقفين في صمت عند نافذة الردهة ننظر إلى الأسفل، حيث الشارع الضيِّق المشرق. ربَّما كانا في باريس الآن؛ تخيَّلت بوي في حانة غيردونورد يشرب الأفسنتين ويدخِّن الـ«غلواز»، في حين يتمشَّى الاسكتلنديُّ الصارم على الرصيف في الخارج. سوف يتمُّ نقلنا جميعنا بالطبع. جفلت للفكرة؛ كنت أختبر الفكرة، كنت أعرف كيف ستكون عليه الحال. لكن لم أكن خائفاً، لا، لم أكن خائفاً.

صببت لداني ولِيَ كأس ويسكي آخر.

كانت غرفة بوي تضجُّ بعلامات رحيله المفاجئ: كتب مرميَّة في كلِّ مكان، شبكة حديديَّة للموقد تتجمَّع فيها أوراق نصف محترقة، قميص أبيض ممدود على الأرضيِّة يوحي بعلامات الطباشير التي تعلِّم مكان مسرح الجريمة. في خزانة الملابس وجدت حقيبة جلديَّة بنيَّة قديمة بزوايا نحاسيَّة احتفظَ داخلها برسائل حبِّه. ثقي بأنَّ بوي لم يكن يهتمُّ بأن يأخذها معه، فهو لم يكُ يوماً عرضة للابتزاز. بعكسي.

«إذاً، هل كنت تبحث عن شيء محدَّد؟»، سأل داني بيركينز. كان يقف في مدخل غرفة النوم، من دون اهتمام، يشعل سيجارة أخرى. هززت كتفي. ضحك داني ضحكة غريبة صغيرة، وقال: «لقد رحل، أليس كذلك؟»

«نعم، داني. لقد رحل».

«هل سيعود؟»

«لا ينبغي أن أعتقد ذلك أيضاً. لا، لقد رحل بعيداً جدّاً».

«ستفتقده، أليس كذلك؟»، قال، «كان يضحك دائماً». ثمَّ أخذ سحبة من سيجارته وسعل لمدَّة نصف دقيقة؛ لم يتمكَّن قطُّ من التدخين على نحو سليم. التقطت رسالة، وقرأت: الغالي بوي، لقد فاتتك حفلة حقيقيَّة في القصر ليلة أمس، مع كلِّ الفتيان أولاء بكلِّ رموزهم الملكية، وديكي، اهتاج ببساطة... «إنَّه أمر مضحك حين تفكِّر فيه»، قال داني بصوت أجشّ، «الوقت الطيّب الذي قضيناه، وكيف ساءت الأمور للغاية، والحرب، وكلُّ شيء. يبدو الأمر كأنَّنا كدنا لا نلاحظ كلَّ ذلك. لكنَّ كلَّ شيء انتهى الآن، أليس كذلك؟»

«ما هو كلُّ ذلك، داني؟»

«أقول كلّ ذلك انتهى. السيِّد بانيستر رحل، والمكان القديم فارغ...»

«نعم، أفترض أنَّك على حقٍّ. انتهى».

أمر غير عاديّ، كيف يمكن لأيّ أحد أن يكون غير مبالٍ؛ نصف الرسائل بدت كأنَّها ورق ملاحظات لمجلس العموم، حتَّى إنَّ إحداها كانت تحوي شارة قصر لامبيث.

«حسناً»، قال داني، «من الأفضل أن أذهب، ثمَّة أشياء يجب القيام بها، رهانات يجب أن تُقام، وأشياء كهذه»، غمز وهو يبتسم. التفت كي يذهب، ثمَّ توقَّف، «أصغِ، فيكتور، إذا كان ثمَّة شيء يمكنني فعله فلا تتردَّد في إخباري. أعرف كثيراً من الناس، كما ترى».

«أوه، نعم؟ أيَّ نوع من الناس؟»

«حسناً. إذا واجهت أيَّ مشكلات، مثلما حصل مع السيِّد بانيستر، فربَّما ستكون في حاجة إلى مأوى. كما يُــقال، أو وسيلة نقل...»

«شكراً لك، داني. أنا ممتنٌّ».

غمز مرَّة أخرى، ورسم تحيَّة وهميَّة، وذهب.

قضيت معظم فترة ما بعد الظهر أتنقَّل في الشقَّة. المواد المثيرة للشبهة في كلِّ مكان بالطبع؛ أحرقتُ معظمها. وتسبَّب اللهب بكثير من الحرارة، واضطررت إلى فتح النوافذ. لمَ تذكِّرني رائحة الورق المحترق بالطفولة؟ كنت ألقي نظرة أخيرة حولي حين سمعت وقع أقدام على الدرج. هل ربَّما يكون داني رجع ليقدِّم لي معلومة مهمَّة؟ مشيت خارجاً إلى الممرِّ. كانت ثمَّة نافذة لم ألاحظها قطُّ كلَّ تلك السنين التي أقمتها في المنزل، تطلُّ على جزء من حديقة خضراء فيها ضباب صيفيٌّ، وحدائق عامَّة، بأشجار، وأشخاص كالدمى يعملون، أو يلعبون، أو ببساطة يسترخون بكسل، لا أستطيع التمييز؛ لا أزال أستطيع تذكُّر المشهد المثاليَّ بكلِّ تفاصيله الصغيرة، نافذة صغيرة تطلُّ

على عالم ضائع.

«داني؟»، صرخت نحو الأسفل، «هل هذا أنت؟»

لم يكن هو.

*

كُلُّ شيء تمَّ بأدب ولياقة. لا يمكنك أبداً أن تنتقد الوكالة في عاداتها. أوَّل من صعد الدرج كان موكستون من طاقم الأمن؛ كنت أعرفه قليلاً؛ شابٌّ بشعر مغبرٍّ، ووجه ابن عرس، وعينين خاليتين من التعبير. توقَّف عند لفَّة الدرج وأدار رأسه إلى الوراء لينظر إليَّ، إحدى يديه تحمل قبَّعته، والثانية تستريح على حافَّة الدرابزين. «مرحباً، ماسكل»، قال بلطافة، «أنت الشابُّ عينه الذي أردنا رؤيته». ظهر خلفه شابٌّ أقرب إلى صبيّ، ضخم كدبّ بوجه طفوليٍّ تبرقعه البثور؛ فكَّرت في أنَّ طاقم الأمن يجنِّد، بعدم اهتمام واضح، أقلَّ الشبّان إثارة. «هذا هو بروكلبانك»، قال موكستون وشفتاه ترتجفان.

ها قد تحقَّق الأمر أخيراً. حتَّى إنَّني لم أُفاجأ؛ ما شعرت به كان إحساسَ استقرار عظيماً، كما لو أنَّ ثقلاً ضخماً في داخلي قد انزاح، قرابة إنش، وهوى دون أن يحدث صوتاً. موكستون والصبيُّ بروكلبانك وصلا إلى مصطبة الدرج، فنظر إليَّ بروكلبانك نظرة فاحصة، مضيِّقاً عينيه بالطريقة التي عرفها من قصص التشويق. مجنَّد جديد، أُرسل لبعض التمرين في اختصاصه. ابتسمت له.

«أُفّ»، قال موكستون، «أليس الجوُّ حارّاً؟»، وألقى نظرة فوق كتفي إلى داخل غرفة النوم، «كنت ترتِّب، أليس كذلك؟ لطالما كان بانيستر أحمق وسخاً. ولديك موقد أيضاً، رائحته مميَّزة. ماذا يسمُّونها *Felo de se*؟»

«في الحقيقة هي *Auto-da-fé*[149]، سيِّدي»، قال بروكلبانك بلكنة أرستقراطيَّة تثير الدهشة، لا أظنُّه تعلَّمها في المدارس العامَّة.

«هذا صحيح»، قال موكستون دون أن ينظر إليه، «حرق الزنادقة». مشى إلى داخل غرفة النوم، وتوقَّف في منتصف الأرضيَّة، وعاين الفوضى. عناصر الأمن يحبُّون هذا النوع من الأشياء، فهو يسوِّغ وجودهم في المقام الأوَّل. إلى جانبي وقف بروكلبانك يتنفَّس بصوت عال، محرِّك كبير ناعم، تفوح منه رائحة عرق وعطر باهظ الثمن. «أتخيَّل أنَّك رتَّبت كلَّ شيء هنا»، قال موكستون وهو ينظر إليَّ جانبيّاً من داخل الغرفة، من تينك العينين الميتتين، «النهايات الفضفاضة، وما إلى ذلك؟». وقف للحظة أطول، فكَّر، ثمَّ رفع نفسه، وعاد إلى المصطبة. «أصغِ إليَّ»، قال، «لمَ لا تنزل معنا إلى المكتب؟ يمكننا إجراء دردشة. لم تزرنا منذ وقت طويل في مكان عملنا».

«هل أنت تعتقلني؟»، قلت، وكنت دَهشاً من نغمة الفلوت المتصدِّعة في صوتي.

نظر إليَّ موكستون نظرة دهشة رقيقة.

«حسناً الآن، يا لها من فكرة! لا تخرج إلَّا من ذهن شرطيّ. لا، لا- كما قلت لك مجرَّد دردشة. الرئيس يريد إجراء محادثة»، اعتصر ابتسامة قاسية، «لقد استدعوا سكراين، أيضاً. شيء من الذعر، كما يمكن أن تتخيَّل. سيغضبون إذا تأخَّرنا». لمس ذراعي كما لو كان يطمئنني، ثمَّ أومأ إلى بروكلبانك، «تقدَّم أمامنا يا رودني، هلَّا فعلت؟»، وفي حين كنَّا ننزلق أسفل السلالم في أعقاب مؤخِّرة بروكلبانك البدينة، صار موكستون يهمهم لنفسه وينقل قبَّعته بخفَّة بين يديه، ثمَّ قال: «أنت من جماعة كِمبردج، أليس

---

(149) بالأصل، بالبرتغاليّة، وتعني حرق الزنديق من قبل محاكم التفتيش الإسبانيّة، والكلمة السابقة *se de Felo* تعني الانتحار. (م)

كذلك؟ مثل بانيستر».

«كنَّا معاً، نعم».

«أنا كنت في بيرمنغهام»، بريق آخر لا لمعة فيه، «ليسا الشيء نفسه، ها؟»

قاد بروكلبانك السيَّارة، في حين جلسنا، أنا وموكستون، في المقعد الخلفيِّ جنباً إلى جنب، ووجهانا باتِّجاهين مختلفين، كلٌّ منَّا ينظر من نافذته. كم بدت الشوارع هادئة، شفيفة، بعيدة، مخالفة للعالم، بلا هدف تطفو مع الدخان الناعم للصيف. تخبَّط ذهني ببطء، بنوع من الذعر المعوق تحت الماء مثل سمكة علقت في شبكة.

«أنت تدرك أنَّه»، قلت، «ليس لديَّ فكرة عمَّا يجري».

لم يزح موكستون وجهه عن النافذة، وابتسم فحسب. كان محقّاً بالطبع؛ عليك أن تبدأ بالتمثيل في اللحظة التي يتحدَّوك فيها، وليس بأيِّ حال حين تكون في السيَّارة، والأغلال بيديك. أو بالأحرى، لا يجب أبداً أن تتوقَّف عن التمثيل، ولا للحظة واحدة، حتَّى حين تكون وحدك، في غرفة موصدة، والأنوار مطفأة، والبطانيَّات تغطِّيك.

*

بدت على بيلي ميتشيت نظرة مجروحة حزينة كتلك التي تصيب طالبَ تحضير جامعيّاً سمع في مهجع الطلَّاب شائعات تقول إنَّ أمَّه فرَّت وشركة والده أفلست. «أيُّها الربُّ، ماسكل»، قال، «يا له من عمل لعين». لم أسمعه يشتم من قبل، وبدا ذلك مشجِّعاً، لسبب ما. كنَّا في منزل سرِّي في إحدى الضواحي، في مكان ما جنوب النهر. لطالما بدا لي أنَّ المنازل السرِّيَّة فيها جوٌّ

كنسيٌّ؛ مكان إقامة محليّ لا يعيش فيه أحد يذكِّرني دائماً بغرفة كتب والدي، التي لم يكن يستخدمها إلَّا في ليالي السبت حين يحضِّر لعظة اليوم التالي. كانت ثمَّة قشعريرة دائمة في تلك الغرفة، رائحة كريهة ضعيفة منتشرة، أفترض أنَّها نتيجة سنين العمل الشاقّ، ووهم الذات المتَّقد، والخوف الدائم من فقدان الإيمان. كانت تلك الرائحة العفنة نفسها التي رشحت مثل الغبار في منخريّ وأنا جالس على كرسيٍّ صلب في منتصف ردهة صالون مطليٍّ باللون البنّيِّ وموكستون وبروكلبانك يعبثان خلفي بصمت في الظلام البنّيّ، وبيلي ميتشيت يروح ويأتي أمامي على السجَّادة الرثَّة، وكفَّاه مضمومتان داخل جيبي معطفه التويدي القديم، يقوم بدوران بسيط كلَّ ثلاث خطوات، مثل حارس غاضب يشكُّ في أنَّ القاتل بالفعل قد انزلق أمامه، وأنَّه الآن حتَّى يشقُّ طريقه إلى داخل غرفة نوم الملك. سكراين، في الجانب الآخر، كان مرتاحاً جدّاً، يجلس على كرسيٍّ بذراعين، على نحو جانبيٍّ بالنسبة لي، أنيقاً مثل عمٍّ زائر ببذلته الأنيقة وربطة عنق مرقَّطة، وجوربين ملوَّنين، وغليونه السرمديُّ شغَّال على نحو لطيف. كنت قد عرفته من سمعته فقط؛ غير مثقف، لكن ذكيٌّ جدّاً، كما كانوا يقولون. خدم شرطيّاً في فلسطين. لم يقلقني. في الحقيقة لم يقلقني شيء من هذا؛ كنت تقريباً أستمتع بكلِّ هذا، كما لو كان الأمر متعلِّقاً بحماقة بسيطة من أجل الترفيه، ولم يكن لي دور حقيقيٌّ أقوم به باستثناء دور المُشاهِد المهتمِّ قليلاً. ثمَّ بدأ سكراين يتكلَّم، بصوته الجذَّاب، اللطيف، الخاصّ بمُربِّي الحمام. كانوا يعرفون كلَّ شيء عنِّي، قال، عملي إبَّانَ الحرب لصالح البلاشفة (هذا هو المصطلح الذي استخدمه -ظريف للغاية، قديم على نحو ساحر!)، واجتماعاتي مع أوليغ، وكلَّ شي. «ماكليش، بانيستر، وأنت»، قال، «وآخرون أيضاً، بالطبع، لكن كنتم

أنتم الثلاثة». ثمَّ لحظة صمت. انتظر، بذقنه المائلة، وحاجبيه المرفوعين، وهو يبتسم. أعرف أنَّك ستظنِّين أنَّني خياليٌّ للغاية، لكنَّني شعرت تماماً كما شعرت تماماً في ذاك الصباح قبل سنين عديدة لـمَّا استيقظت في ضوء الفجر وعرفت أنَّني سأتزوَّج بيبي: كان لديَّ الشعور عينه بالتحليق في الهواء، على نحو ما، كما لو أنَّ نسخة ملائكيَّة كانت ترتفع منِّي، ذهبيَّة وملتهبة، إلى الجوِّ المشرق فجأة. صفع سكراين ركبته بيده، بهدوء، «هيَّا»، قال بلطف، «ألن تقول شيئاً الآن؟»

نهضت -وأقصد بجسدي الحقيقيِّ، ونفسي المتعرِّقة- ومشيت نحو النافذة. في الخارج، كانت هناك شجرة أروكاريا، تبدو سوداء للغاية وهائجة تحت أشعَّة الشمس، وشريط من أعشاب يائسة لا زهر فيه. في البيت المقابل كان رجل بدين يتَّكئ على نافذة الطابق العلويِّ؛ كان ساكناً جدّاً، وملأ إطار النافذة تماماً إلى درجة أنَّني تساءلت ما إذا كان قد تمَّ تثبيته هناك وينتظر أن يأتي شخص ما من وراء ظهره ليسحبه. على مهل أخرجت سيجارة من الحقيبة - أتساءل من أين جاءت هذه الحركة- وأشعلتها؛ بدت لي إيماءة مسرحيَّة غير معقولة. غريبة هي الأضواء التي يراها المرء نفسه فيها في مناسبات كهذه؟ كدت لا أعرف نفسي. «بيلي» قلت، دون أن ألتفت، «هل تذكر ذلك اليوم حين انتهاء الحرب، لـمَّا طلبت حضوري إلى الوكالة، وأخبرتني أنَّ القصر في حاجة إليَّ في مهمَّة في بافاريا...؟»، رميت سيجارتي التي لم أدخِّن منها في الموقد، وعدت إلى الكرسيِّ ذي الظهر -كيف يمكن لكرسيّ كهذا أن يبدو مستهجِناً- وجلست، مصالباً قدميَّ ومريحاً يديَّ المضمومتين فوقهما. كلُّ هذا كان قد حدث من قبل، تساءلت أين. كان بيلي ينظر إليَّ بعبوس مرتبك. وصفت رحلتي إلى ريغينسبورغ، وكيف عملت على تهريب الصندوق، وماذا

كان فيه. «ابتزاز»، قلت، «لم تبدُ لي الكلمة قبيحة قطُّ. بالعكس تماماً في الحقيقة». كان ثمَّة ضجيج صادر عن آلة تشذيب العشب، من النوع القديم الذي تحتاج إلى دفعها. نظرت إلى النافذة. الرجل البدين في الجهة المقابلة كان قد حرَّر نفسه من النافذة في الطابق العلويِّ، وهو الآن يجزُّ حشيشه، دافعاً الآلة بحركة قديمة غريبة، وينحني إلى الأسفل عند الخصر، وذراعاه ممدودتان ومتيبِّستان، وثمَّة قدم بدينة تمتد وراءه. خطرت في بالي كلمة مركب شراعيّ. خيالات فارغة، آنسة ف.، خيالات فارغة في خضمِّ الأزمة. يحدث ذلك معي دائماً. أخرج بيلي ميتشيت غليونه البارد وصار يمصُّه، مثل طفل يمتصُّ لهّايته؛ في مسألة الغليون لم يكن ميتشيت ليضاهي سكراين.

«ابتزاز»، قال بلا اهتمام.

لهوت بعلبة السجائر خاصَّتي -ماذا كنت سأفعل دون دعائمي؟- واخترت سيجارة أخرى، ونقرت بها على غطاء العلبة. لم يعد أحد ينقر بالسجائر بمثل هذه الطريقة؛ لمَ كنَّا نفعل ذلك في أيِّ حال؟

«كلُّ ما أريده من حياتي»، قلت، «هو أن تستمرَّ، بالطريقة الهادئة المملَّة نفسها. أن أبقى في المعهد، وأحافظ على مكانتي في القصر، وأحصل على لقب الفارس الذي كان جلالته قد وعدني به على نحو خاصّ. في مقابل ذلك، أتعهَّد بالصمت عن كلِّ شيء أعرفه».

كنت بارداً على نحو ملحوظ، إذا كنت أستطيع مدح نفسي، فقد كان لديَّ أسلوب مميَّز في بعض الأوقات، مثل تلك الأوقات، يسيطر فيها الهدوء عليَّ، وهي غريزة وقائيَّة بدائيَّة مع أنَّها في الوقت عينه متطوِّرة للغاية. أتخيَّل أسلافي الإيرلنديِّين يخرجون من أجمات السرخس بحثاً عن الأيائل العظيمة، لاصطيادها، وسويَّة، مع كلاب الصيد، يجمدون بلا حركة في لحظة ما حين

ترفع فريستهم المسكينة رأسها المثقلة بالأعباء وترمقهم بعين حزينة دامعة. كانت هناك لحظة صمت أخرى، ونظر سكراين وبيلي ميتشيت إلى بعضهما بعضاً، وبدا كأنَّهما قد يضحكان. صفَّى بيلي حنجرته.

«أصغِ إليَّ، فيكتور»، قال، «لا داعي لهذا النوع من الهراء. كلُّنا ناضجون. هذه الأمور المتعلِّقة بربغينسبورغ معروفة منذ سنين، ولا أحد مهتمٌّ بها»، وفهمت على الفور؛ يريدون صفقة، تماماً كما فعلت أنا. الحصانة لي كانت حصانة لهم. رحلة بوي وماكليش كانت فضيحة كافية لهم حاليّاً. كنت مرتبكاً؛ بل أكثر، كنت فزعاً. رميت ورقتي الرابحة واللاعبون الباقون، بعناء كبحوا ضحكة سخرية. «عليك أن تكون متعاوناً مع ذلك»، كان بيلي يقول ذلك مع عرض عظيم للصلابة، «عليك أن تتكلَّم مع سكراين ورجاله». أومأ سكراين متوهِّجاً إلى حدٍّ ما باحتمال المحادثات الرائعة التي سنجريها، هو وأنا، في الأشهر القادمة والسنوات القادمة -تواصُلنا، كان في حالة دوام وانقطاع، على مدى عقدين ونصف من قبل.

«لكن بالطبع»، قلت فاعلاً ما أعتقد أنَّه الطعنة النجلاء بلا مبالاة؛ صدمتني حقّاً طريقة عملهم الساخرة، «سأخبر السيِّد سكراين بأشياء كهذه، ستبرز عيناه من الدهشة».

وخزني بيلي بساق غليونه. «وأنت سيتوجَّب عليك إبقاء فمك مغلقاً»، قال، «لا أحاديث عن قصص أصدقائك اللوطيِّين».

«أوه، بيلي»، قلت.

اِلتفت بعيداً بتكشيرة من يشعر بالقرف، كأنَّه سيبصق.

انفصلنا بعد ذلك، وكان مخطَّطاً أن يقود بي بروكلبانك إلى المنزل. لم يتمكَّنوا من التخلُّص منِّي بالسرعة الكافية. تلكَّأت مستاءً. كلُّ شيء بدا

تافهاً للغاية ومحبطاً. في الرواق توقَّفت إلى جانب نبتة دريقة مغبرَّة داخل صفيحة نحاسيَّة قذرة، واستدرت نحو بيلي.

«في أيِّ حال»، قلت، «في سبيل الفضول، مَن خانَني؟»

نظر سكراين وبيلي إلى بعضهما بعضاً! ابتسم سكراين، متسامحاً ورافضاً، كما لو كنت ابن اخته المفضَّل الذي طلب هديَّة مبالغاً بها.

«أوه، الآن، دكتور ماسكل»، قال، «ذلك سيكون إفشاءً للأسرار، أليس كذلك؟»

كان هواء المساء مثقلاً برائحة العشب المجزوز. بروكلبانك، رودني الشجاع، يتقدَّمني إلى بوَّابة الحديقة، وجعل يتثاءب حتَّى قرقعت عضلات فكِّه. في الرحلة إلى المنزل أصبح ثرثاراً؛ لا أحد يهتمُّ حقّاً بقليل من الخيانة، في ظاهر الأمر أقصد، وأستطيع أن أخبر أنَّه كان في غاية الشوق ليسألني عن كلِّ الأشياء. لـمَّا وصلنا إلى الشقَّة دعوته إلى الصعود لأجل مشاهدة بوسان خاصَّتي، كان أداة أستخدمها غالباً وتنجح أكثر ما تتخيَّلين. غالبيَّة المدعوِّين لم يكونوا يعرفون، أو يهتمُّون بما كنت أتحدَّث عنه، والله يعرف ما كانوا يتوقَّعون رؤيته حين كنت أفتح باب غرفة مكتبي مثل مدير حفلٍ مغرور وأقدِّم لهم مشهد استنزاف سينيكا الخاصّ. ربَّما كان المتحدِّثون بالفرنسيَّة يظنُّون أنَّني أدعوهم إلى عشاء فيه دجاج. رودني، مع ذلك، كان فيه شيء من التعجرف، وادَّعى أنَّه يعرف شيئاً ما عن الفنِّ. حملَ جسده المتكتِّل بعناية وهو يتنقَّل بكلِّ أناقة على أطراف أصابعه كما لو كانت الشقَّة عبارة عن متجر خزف صينيٍّ. أثبت أنَّه ثور في غرفة النوم أيضاً، مع خلفيَّته الكبيرة تلك، وتَينك الفخذين الضيِّقتين على نحو غير متوقَّع، ولو أنِّي آسف لمسألة البثور تلك.

*

غادر عند الفجر، متسلِّلاً من سريري، جامعاً ثيابه -مسقطاً حذاءً مع صوت ارتطام، بالطبع- في حين كنت أتظاهر بالنوم على نحو لبق. تساءلت عمَّا إذا كان سيخبر أحداً أنَّه كان معي. الكلام هنا عن خرقٍ أمنيٍّ -كما كان قد يقول بوي. كنت أفتقد بوي بطبيعة الحال. استلقيت صاحياً أشاهد الغرفة وضوء النهار يرتفع رويداً رويداً، وقد أصابني حزن عميق لا يمكن تفسيره على نحو واضح. ثمَّ نهضت، وغيَّرت الملاءات -أكثر من مرَّة كنت قبضت على باتريك، على الرغم من كلِّ تبجُّحه بالتحرُّر من الغيرة، يقوم بجولة نظافة على أقمشة السرير مثل مديرة فندق غَيرى مرتابة- ونزلتُ، وأخرجت السيَّارة، في تلك الأيَّام كانت من طراز هيلمان، عجوز، قديمة، كنت مغرماً بها جدّاً، وانطلقت غرباً عبر المدينة. لم أكن أعرف أين أتَّجه، كنت مصاباً بدوار من قلَّة النوم. غطَّت الشمس القاسية الشوارع كلَّها، وأرخت بظلال طويلة ونحيلة على الأشياء. بعد هنيهة بدت السماء كأنها ستمطر، على نحو مستحيل من سماء لا سحاب فيها، ولـمَّا شغَّلت المسّاحات لم يتغيَّر شيء. وأدركت أنَّني كنت أبكي. كانت مفاجأة. أوقفت السيَّارة، وأخرجت منديلاً، ومسحت وجهي شاعراً بأنِّي سخيف. في الوقت الحالي كانت الدموع قد توقَّفت، وأنا، جلست لوهلة ورأسي مائل على ظهر المقعد، أتنشَّق وأزدرد. نظر إليَّ في داخل السيَّارة باهتمام واضح، بائعُ حليب كان يمرُّ إلى جانبي، لا بدَّ أنِّي أحييت أمله في البيع. كان صباحاً رقيقاً، جميلاً حقّاً؛ الشمس، نفحات السحب الصغيرة البيضاء، العصافير. ولـمَّا كنت أوشك أن أقود من جديد صعقني أنَّ الشارع كان مألوفاً، ورأيت، مع صدمة صغيرة،

أنَّني كنت قد توقَّفت قبل بضعة أبواب من منزل فيفيين. الرغبة في العودة إلى المنزل: نزلت الكلمة عليَّ بكلِّ غموضها، ولهفتها السخيفة. متى كان منزل فيفيين، أيُّ منزل سكنت فيه على الإطلاق، منزلاً لي؟

لا بدَّ أنَّها كانت مستيقظة -لم تكن قطُّ محبَّة للنوم- فأنا لـمَّا رننت الجرس نزلت في الحال وفتحت الباب. تساءلت محتاراً عمَّا إذا كانت ربَّما معتادة على استقبال زائرين في مثل هذه الساعة من النهار- وما كانت نظرة خيبة الأمل تلك التي علت وجهها حين رأت أنَّ الزائر كان أنا وليس أحداً آخرَ أكثر إثارة للاهتمام؟- كانت ترتدي ثوب نوم أزرق فاتحاً- مع مفاجأتها رأيت من جديد سنيور فونيسكا متمدِّداً في دمائه- وخفَّين حريريَّين، وشعرها كان موثقاً بعقدة شعر غير لائقة. لم تكن قد وضعت مكياجها، ما أعطاها مظهراً غير واضح وملامح قلقة؛ لو كانت تنتظر زائراً ما، فإنَّه لا بدَّ كان بالتأكيد شخصاً عجوزاً ومحلَّ ثقة، فإنَّه في غالب الأوقات لم يكن مسموحاً لأحد في العالم رؤية فيفيين من دون وجهها.

«فيكتور»، قالت، «يا إلهي، إنَّها مفاجأة لطيفة. ظننت أنَّك لا بدَّ ساعي البريد». اكتست القاعة، المملوءة بضوء الصباح، بمظهر علبة زجاجيَّة طويلة معلَّقة في مساحة من ضوء الشمس. وردٌ قرمزيُّ اللون ازدحم في زُهريَّة بدت كأنَّها تنبض في أعماقها، مثل قلوب تنبض ببطء. أغلقت فيفيين الباب، وتردَّدت للحظة في ارتباك مسلٍّ. «هل الوقت متأخِّر بالنسبة إليك»، قالت، «أو هو مبكِّر جدّاً؟ لستَ ثملاً، أليس كذلك؟ الأمر فحسب أنَّك تبدو على نحو ما... غريباً. هل تدرك حقّاً أنَّها الخامسة صباحاً؟

«نعم»، قلت، «أنا آسف، لا أعرف فيمَ كنت أفكِّر. كنت مارّاً قريباً و...»

«نعم، حسناً، تعالَ، ادخل المطبخ. الولدان نائمان». فكَّرت في أنتونيا ماكليش، هل ينبغي لي أن أتَّصل بها؟ وماذا أقول؟ «يكاد المرء لا يعرف ما يقدِّم في هذا الوقت من الصباح»، قالت فيفيين وهي تتقدَّمني لتفتح باب المطبخ «في الأيَّام الخوالي كنَّا نشرب الشمبانيا. بمناسبة الحديث، كيف هو بوي؟»

«لقد... سافر بعيداً».

«لم أره منذ زمن بعيد. حقّاً لم أرَ أحداً من ذلك العالم. يبدو أنِّي أفقد تواصلي مع الآخرين فعلاً. هل تظنُّ أنَّ هذا يعني أنَّني تحوَّلت إلى امرأة عجوز وحيدة، الآنسة هافيشام من شارع ساوث آدلي؟ أشعر بأنِّي عجوز بصورة إيجابيَّة. إن لم يكن لأجل الولدين، فأنا واثقة من أنَّه لا ينبغي لي الخروج على الإطلاق. هل ترغب ببعض الشاي؟» استدارت نحوي من فوق المجلى مستفهمة وهي تحمل الغلَّاية بيدها. لم أقل شيئاً. ضحكت برقَّة، وهزَّت رأسها «قل لي ما الأمر فيكتور. تبدو مثل ولد صغير ألقي القبض عليه وهو يسرق تفَّاحاً. هل أنت في مأزق؟ هل ارتكبت خطأً فظيعاً، أخطأت في نسب إحدى صور الملك، أو شيئاً ما من هذا القبيل؟»

كنت قد أوشكت أن أقول شيئاً ما، بعناءٍ عرفت ما هو، حين بدأت فجأة أنتحب من جديد، بعجز، واستعراض عظيم للبؤس، وغضب غير مفهوم.

لم يكن في وسعي التوقُّف. في منتصف الغرفة، هناك وقفت فحسب، في ضوء المصباح الغازيِّ، أختنق بالبلغم، وكتفاي ترتجفان، وأطحن أسناني، وأشدُّ على راحة يديَّ بأصابعي، ويداي مضمومتان، وعيناي تعتصران وهما مغلقتان، والدمع الحارُّ يتدفَّق على مقدِّمة قميصي. كانت ثمَّة متعة فظيعة

وغير لائقة في ذلك. كانت مثل لحظة الإثم الرائعة تلك حين كنت طفلاً يحلم في سريره، كنت أستسلم لها، وأبلّل نفسي على نحو غزير، وحار، بلا توقُّف. لم تفعل فيفيين شيئاً، في البداية، إنَّما وقفت مشدوهة، ومتردِّدة. ويدها على شفتها. ثمَّ تقدَّمت إلى الأمام، على نحو مغرٍ، ووضعت ذراعيها حولي وجعلتني أريح جبهتي على كتفها. عبر نسيج الثوب استطعت أن أشمَّ رائحة عفن الليل خفيفة على جسدها.

«ما الأمر، عزيزي؟»، قالت.

أجلستني إلى الطاولة، وجلبت لي منديلاً جديداً، وأشغلت نفسها بإعداد الشاي، في حين كنت أجلس وأشهق.

«أنا آسف»، قلت، «لا أعرف ما حدث لي».

جلست ورمقتني بنظرة عبر الطاولة.

«أيُّها المسكين»، قالت، «أنت حقّاً في حالة يرثى لها».

أخبرتها عن بوي وماكليش والرحلة إلى فوكستون. كنت ألهث مذعوراً، مثل رسول راكع عند أقدام الملك يخبره عن هزيمة جيشه، لكنَّني لم أستطع فعل شيء؛ انتثرت الكلمات، كما فعلت الدموع، من دون توقُّف. جلست فيفيين هادئة، تراقبني تقريباً باهتمام أقرب إلى مراقبة الطبيب سريريّاً لمريضه، ولم تقل شيئاً حتَّى انتهيت.

«بوي رحل مع الاسكتلنديِّ الصارم؟»، قالت، «لكن هذا مستحيل، فأحدهما لا يطيق الآخر».

«أعتقد أنَّهما ربَّما انفصلا عن بعضهما الآن، كما تعرفين، بمجرَّد وصولهما إلى حيث هما ذاهبان».

«تعني إلى موسكو. حيث ذهبا، أليس كذلك؟»

«نعم»، قلت، «أعتقد ذلك».

هزَّت رأسها، لا تزال تنظر إلى عينيَّ.

«وأنت؟»، قالت.

«وأنا؟»

«لماذا لم تذهب معهما؟»

«لمَ ينبغي لي فعل ذلك؟ كان دوري أن أوصلهما إلى أسفل الشاطئ. بوي طلب إليَّ ذلك. كان صديقي».

«كان؟»

«حسناً، لقد رحل الآن، وأشكُّ في أنَّنا سنراه ثانية».

صبَّت الشاي وهي تراقب فمَ الإبريق وهو يقرقع حين تصبُّ الشايَ ذا اللون الكهرمانيّ داخل الأكواب. سألتها أن تعطيني شيئاً ما لأشدَّه لها، لكنَّها لم تكن تصغي.

«أنت تكذب عليَّ دوماً»، قالت على نحو جدِّي، «منذ البداية أنت كذبت، لمَ ينبغي أن أغفرَ هذا الآن؟»

حملقت فيها.

«كذبت عليك؟»، قلت، «فيمَ كذبت؟»

«في كلِّ شيء. هل شايك جيِّد؟ ربَّما كنت ترغب في بعض الفطور؟ أمَّا أنا فقد بدأت أشعر بالجوع. لطالما كانت الصدمات تجعلني أجوع- هل انتبهت إلى ذلك؟ دعني أقلِ بيضاً أو أعدَّ شيئاً ما». لم تتحرَّك، إنَّما جلست وأصابعها مرتاحة على مقبض إبريق الشاي، تنظر أمامها وتومئ ببطء. «إذاً رحل بوي»، قالت، «أتمنَّى لو سنحت لي فرصة توديعه»، رفَّت بعينيها، ثمَّ حوَّلت نظرتها إليَّ من جديد، «كنت تعلم أنَّه يخطِّط للفرار، أليس كذلك؟»

«ماذا تعنين؟ حتَّى إنَّني لم أكن أعرف أنَّ لديه سبباً للفرار أصلاً».

«كنت تعرف، ولم تخبر أحداً... يا لها من قدرة على كتمان الأسرار».

لمعت عيناها، وأنا أشحت بنظري عنها.

«أنت تتساخفين»، قلت، «لم أكن أعرف شيئاً».

واصلت التحديق بصمت، وشدَّت قبضتها، ووضعتها على الطاولة أمامها مثل سلاح. ثمَّ فجأة، ضحكت.

«أوه فيكتور»، قالت، وأرخت قبضتها، ورفعت يدها وألقتها برفق على طول خدِّي، كما كانت تفعل في مرَّات عدَّة من قبل، «فيكتور المسكين. مسكين. أنت محقٌّ، لم تكن تعلم شيئاً، حتَّى إنَّك تعلم أقلَّ ممَّا كنت تظنّ. لقد أخفى كلَّ شيء عنك».

مذاق الشاي كان كمذاق الطين. وفي الصمت استطعت بوضوح سماع إشارة أخبار الساعة السادسة من جهاز مذياع في المنزل المجاور. لم أدرك أنَّه كان ثمَّة كثير من المستيقظين في مايفير. تمثال من اليشم لراهب بكرش كبير -إحدى قطع القندس الكبير- وقف يبتسم لنفسه على عتبة النافذة إلى جانبي. الأشياء في صمتها تقاسي أكثر بكثير من البشر.

الشرنقة.

«هو؟»، قلت بصوت خافت، «ماذا تقولين؟ ماذا هو؟»

لم أستطع تحمُّل ابتسامة الشفقة التي خصَّتني بها.

«ألم تدرك؟»، قالت، «لقد كان هو. دائماً كان هو...»

فعلاً، كان عليَّ أن أجد ذاك المسدَّس.

*

استمرُّوا في العودة إليَّ، عاماً بعد عام، كلَّما كان هناك اختراق في عملهم. وحينما يتمُّ العثور على ثغرات جديدة في ما يسمى أمن الدولة المزعوم، كان سكراين يتجوَّل في حياتي من جديد، خجولاً، ومراعياً، ومتصلِّب الرأي كما هي حاله دائماً. في أثناء الاستجوابات خاصَّتنا -أقولُ خاصّتنا لأنَّني لطالما أفكِّر فيها بأنَّها شيء نتشاركهُ، مثل سلسلة من الدروس، أو دورة في التمارين الروحيَّة- كان يهذي لساعات بتلك الطريقة الجافة الدمثة الخاصَّة بمعلّمي المدارس، التي كان يتميَّز بها، سائلاً الأسئلة نفسها مراراً وتكراراً، بأشكال متغيرِّة قليلاً، ومن ثمَّ، في كلِّ مرَّة، كان يتمسَّك باسم ما، أو كلمة، أو وميض لا إراديّ في جوابي لم أكن حقاً واعياً له، وكلُّ شيء يتغيَّر، والاستجواب يمضي كلِّيّة في اتِّجاه جديد. ومع ذلك كان كلُّ شيء مريحاً جدّاً ومؤدَّباً و، حسناً أقول: حميميّاً. حتَّى إنَّنا مرَّة تبادلنا بطاقات عيد الميلاد -أقسم فعلنا ذلك. كان ندّاً لي في الصبر، وفي التركيز، بعينيه على التفاصيل الدقيقة، وقدرته على التقاط جزء صغير وبناء صورة للكلِّ؛ لكن في النهاية أنا كنت الشخص الذي يمتلك أكبر قدرة على التحمُّل. في كلِّ ذاك الوقت -أتساءل كم ساعة قضيناها معاً، ألفاً؟ ألفين؟- لا أعتقد أنَّني قدَّمت له شيئاً البتة لم يكن بإمكانه الحصول عليه من مكان آخر. أعطيت أسماء الميتين فحسب، أولاء الذين كانوا على هامش حلقتنا، الذين كنت على علم بأنَّ الوكالة لن تهتمَّ بهم، أو ليس لفترة طويلة في أيِّ حال. لعبة الشطرنج خطرة جداً، تشبه الحرب كثيراً، تماثل ما كنَّا متورِّطين به، لعبة القطّ والفأر- لكن من كان الفأر، ومن كان القطّ؟

أتذكَّر المرة الأولى التي جاء فيها سكراين إلى الشقَّة. كان قد احتال لوقت طويل، وليس بمهارة، ليدخلها، ويلقي نظرة على ما كان يسمِّيه

مسرحي الرخيص. اعترضت بأنَّها ستكون غزواً غير مقبول للخصوصيَّة إذا ما استجوبني في منزلي الخاصّ، لكنِّي في النهاية ضعفت وقلت إنَّه ربَّما حضر من أجل كأس شيري في الساعة السادسة في أمسية ما. فكَّرت في أنَّني ربَّما أحصل على منفعة من خلال رغبته في اللمس غير المؤذية إلى حدٍّ ما: ساعة الكوكتيل هي جزء مخادع ومعقَّد في الحياة الاجتماعيَّة للأشخاص في طبقتهم، الذين يفكِّرون فيها على أنَّها وقت للشاي، ويغضبون حينما يضطرُّون إلى التخلِّي عن هذه المأدبة المهمَّة. ومع ذلك بدا لي مرتاحاً تماماً. ربَّما كان مرعوباً من الدهاليز الفارغة في أثناء صعودنا إليها، لكن بمجرَّد دخولنا الشقَّة بدأ على الفور يتصرَّف كأنَّه في شقَّته. حتَّى إنَّه أوشك أن يشعل غليونه دون أن يطلب موافقتي، لكنَّني أوقفته، مخبراً إيَّاه أنَّ الدخان سيكون له أثر سيِّئ على اللوحات، كما أنَّه بالتأكيد، بسبب التبغ الأسود الذي كان يدخِّنه، سيُصدر رائحة حادَّة ستؤذي منخريَّ وتجعل عينيَّ تخزان. أمسكت به وهو يلقي نظرة سريعة؛ لم يبدُ متأثِّراً- للحقيقة أظنُّه كان خائب الأمل. أتساءل عمَّا كان يتوقَّع رؤيته؟ ستائر من الحرير الأرجوانيِّ ربَّما، وغلاماً متوضِّعاً على كرسيِّ الاسترخاء (لم يكن باتريك مرتاحاً جدّاً حين سألته أن يغيب فترة الزيارة، وأخرج نفسه من المشهد باستياء). مع ذلك، أصبح أكثر حيويَّة لـمَّا اكتشف لوحة ديغاس[150] الصغيرة التي كنت قد استعرتها من الطوابق السفليَّة في غرفة الفنِّ الفرنسيّ لأعلِّقها فوق الموقد. لم يسبق لي قطُّ الإعجاب بعمل هذا الفنَّان، وكنت قد جلبت هذه القطعة لأعيش معها فترة على أمل أن تفوز بإعجابي (لكنَّها لم تفعل).

---

(150) إدغار ديغاس (1834-1917)، فنّان تشكيليّ، ورسّام، ونحّات فرنسيّ. اشتهر بلوحاته الزيتيّة، وذات المقاسات الكبيرة. (م)

«إنَّها شيء جميل، أليس كذلك»، قال موجّهاً ساق غليونه البارد نحوها،
«ديغا. جميل»، نخر بخجل، «لديَّ شيء من الاهتمام، كما تعرف».

«أوه، نعم».

«الألوان المائيَّة. إنَّها مجرَّد هواية، على الرغم من أنَّ زوجتي تصرُّ دائماً على أن أؤطِّر رسماتي وأعلِّقها على حائط في المكان. في الواقع، نسخت واحدة من هذه، من كتاب. لكنَّ نسختي رسمتها على الورق المقوَّى، مع ذلك».

«كذلك هو الأصل».

«أوه».

«وهو ديغاس بالمناسبة، حرف السين يلفظ».

شربنا الشيري في غرفة المكتب. لم يلاحظ بوسان. كان هناك كرسيَّان -أحدهما كان ينتظرك بطبيعة الحال، آنسة ف. على الرغم من أنَّه لم يكن يعرف ذلك- لكنَّنا بقينا واقفين. تساءَل أيّ صورة عنّي سيعطيها لزوجته. العاهر بارد العواطف، والمتغطرس أيضاً. كانت ليلة من ليالي أكتوبر طغت عليها الأضواء البيض والصفر. كان بوي والاسكتلنديّ الصارم قد ظهرا أوَّل مرَّة علناً في موسكو ليتكلَّما إلى المراسلين، ويخطبا بإطناب بحديث رسميٍّ سخيف عن السلام والإخاء والثورة العالميَّة؛ من المحتمل أنَّ جماعة مؤتمر الحزب، كانوا قد راسلوهما، عن طريق أصدقائنا في الكرملين. تمَّ نقل هذا الشيء عبر التلفاز، وعلى ما يبدو في جوٍّ عاصفة ثلجيَّة- كنت حينها أملك جهاز تلفاز بدائيّاً، كان من المفترض أنَّه للترفيه عن باتريك، لكنَّني كنتِ مدمناً سرّيّاً في أيِّ حال- ووجدته مشهداً مغمّاً، ومثيراً للقرف إلى حدٍّ ما. إنَّه لأمر يفطر القلب حقّاً، كلُّ تلك العاطفة، وذلك الإيمان كان ينبغي أن يتقلَّصا إلى هذا؛ رجلان منهكان، في منتصف العمر، يجلسان إلى

طاولة عارية في غرفة بلا نوافذ في لوبيانكا[151]، يرتديان قناع الشجاعة، ويبتسمان على نحو يظهر اليأس، يحاولان إقناع نفسيهما والعالم بأنَّهما عادا إلى وطنهما، أخيراً، إلى أرض الميعاد. شعرت بالرهبة لتفكيري في إخفاق بوي. تذكَّرت، في تلك الليلة في عقد الثلاثينيَّات لـمَّا كنت نُقلت سريعاً إلى الكرملين، ونظرت زوجة مفوَّض الثقافة السوفييتيَّة إلى الشامبانيا في كأسي وهي تزمُّ شفتيها، وقالت: «جورجيّ». زميل من السفارة البريطانيَّة ادَّعى أنَّه ألقي القبض على بوي في إحدى الليالي في فندق بموسكو، منهاراً عند البار وجبينه على ذراعيه، يبكي بصوت عال. تمنَّيت لو كانت دموع الويسكي.

«أتظنُّهما سعيدين، صاحباك الاثنان؟» قال سكراين، «ليس كثيراً في حياة اللهو والتسلية هناك».

«الكافيار هو مزاجهما»، قلت ببرود، «وثمَّة كثير منه هناك».

كان يلهو بأشياء على مكتبي، ورغبت بشدَّة في إبعاد يديه عنه؛ أكره الناس الذين يضيِّعون الوقت.

«هل كنت لتسافر إلى هناك؟»، قال.

أخذت رشفة من شراب الشيري. كانت جيِّدة جدّاً. أملت أن يقدِّر سكراين هذا.

«لقد حثُّوني على ذلك»، قلت. لقد فعلوا ذلك؛ فأوليغ كان قلقاً للغاية من وضعي، «ولـمَّا سألتهم إن كان بإمكانهم تدبير زيارة عمل نظاميَّة لي إلى المتحف الوطنيِّ واللوفر في حال رغبت في السفر، استشاروا موسكو وعادوا باعتذار شديد، لا مجال للسخرية مع الروس، مثل الأميركيِّين تماماً، في هذا الموضوع».

---

(151) الاسم الشائع لمقرّ المخابرات السوفييتيّة في منطقة ميشانسكي وسط موسكو. في العام 1991 تحوَّل إلى فرع من أمن الحدود الروسيّة. (م)

«أنت لا تحبُّ الأميركيِّين، أليس كذلك؟»

«أوه، أنا متأكِّد من أنَّهم أشخاص محترمون تماماً، كلٌّ بمفرده. الأمر فحسب أنِّي لست ديمقراطياً، كما ترى أخشى حكم الغوغاء».

«ماذا عن ديكتاتوريَّة البروليتاريا؟»

«أوه، أرجوك»، قلت، «دعنا لا ننحدر إلى مجادلة. تريد المزيد من الشيري؟ إنَّها ليست سيِّئة على الإطلاق كما تعرف».

صببت كأساً. أحبُّ هذا النوع الزيتيَّ من الشراب، لكن خلاف ذلك حتَّى أجود أنواعه فيه مرارة تذكِّرني ببعض المذاقات السيِّئة في طفولتي- ربَّما زيت الخروع الخاصّ بمربِّيتي هارغريفز. لا، أنا أفضِّل الجن، بتلميحاته الغامضة إلى الصقيع، والغابات، والمعادن، ولهب النار. في الأيَّام الأولى بعد رحيل بوي كنت أغتسل عمليّاً به من أول شيء في الصباح إلى ساعات الليل الأخيرة الميتة. كبدي المسكين. ربَّما حينها، بعد كلِّ تلك السنين التي مضت، استهلَّت خلاياه أولى خطوات رقص الدراويش المخمور خاصَّتها التي أتلفت أحشائي الآن. وقف سكراين يحدّق بعينين لامعتين، وكأس الشراب منسيٌّ بين أصابعه كما يبدو. كان يبدو غافلاً على هذا النحو دائماً، وكان يثير أعصابي. التركيز؟ التفكير العميق؟ ربَّما هي مصيدة الشخص الغافل؟ يميل الشخص إلى أن يفقد انتباهه عندما يسهو بهذه الطريقة. كان الضوء المتأخِّر الصادر عن النافذة يقذف لمعاناً ساطعاً بلون النيكل عبر سطح لوحة بوسان، فيلتقط نقط الصباغ والظلال في تجاويف اللوحة. مرَّة طرح أحدهم سؤالاً على المخمِّنين حول مدى موثوقيَّتها؛ مناف للعقل، بالطبع.

«تأمَّل هذي اللوحة»، قلت، «إنَّها تدعى موت سينيكا. رسمها في منتصف القرن السابع عشر نيكولاس بوسان. أنت في داخلك فنَّان، لذا أنت أخبرني:

الحضارة التي تمثِّلها هذه اللوحة، ألا تستحقُّ القتال من أجلها؟». لاحظت الارتعاش الخفيف على سطح الشراب في الكأس التي كنت أحملها؛ كنت أعتقد أنَّي هادئ. «شابٌّ إسبارطيٌّ»، قلت، «يشتكي إلى أمِّه من أنَّ سيفه قصير جدّاً، وجوابها الوحيد كان تقدَّم خطوة».

تنهَّد سكراين تنهيدة غريبة. كان عليَّ أن أعترف، هناك في الفضاء الضيِّق لغرفة المكتب، كانت تنضح منه رائحة ضعيفة إنَّما مميَّزة: دخان تبغ، هذا طبيعيٌّ، لكن ثمَّة شيء غير ذلك أيضاً، شيء خافت بغيض، شيء ما- حسناً، رائحة مبتذلة جدّاً.

«أليس من الأفضل دكتور ماسكل»، قال، «لو جلست الآن، وأنهيت هذا كلَّه؟»

«أخبرتك أن لا رغبة لديَّ في الخضوع لاستجواب داخل منزلي».

«ليس استجواباً. يمكنك القول إنَّه مجرَّد... توضيح. أنا كاثوليكيٌّ- حسناً، أمِّي كانت كاثوليكيَّة؛ إيرلنديَّة، مثلك تماماً. لا أزال أذكر كيف كنت أشعر حين كنت فتى وأخرج من حجرة الاعتراف، ذاك الشعور البارد بالـ... الخفة. تعرف عمَّا أتكلَّم؟»

«لقد أخبرتك بكلِّ شيء أعرفه»، قلت.

ابتسم، وهزَّ رأسه برقَّة، ووضع كأسه بكلِّ عناية على زاوية مكتبي. لم يكن قد مسَّ الشيري بعد.

«لا»، قال، «أنت كنت قد أخبرتنا كلَّ شيء نعرفه نحن».

تنهَّدت. أليس ثمَّة نهاية لهذا؟

«ما تسألني فعله هو أن أخون أصدقائي»، قلت، «وأنا لن أفعل ذلك».

«لقد خنتَ كلَّ شيء آخر»، قال وهو لا يزال مبتسماً، كما لو كان عمّاً لطيفاً.

«إنَّما، ما الذي تقصده بكلِّ شيء آخر»، قلت، «هو لا شيء لي. كي تكون قادراً على خيانة شيء ما عليك أوّلاً أن تؤمن به»، وأنا أيضاً وضعت كأسي بعنف إيذاناً بحسم نهائيٍّ للأمر، «والآن، سيِّد سكراين، أعتقد، حقّاً...»

في البهو سلَّمته قبَّعته. كانت لديه طريقة خاصَّة لوضعها على رأسه، يناسبها على رأسه بعناية، يدوِّرها بعناية حتَّى تناسب رأسه، مستخدماً كلتا يديه وهو مائل قليلاً إلى الأمام، ما يجعله يبدو كما لو كان يغطس حرف القبَّعة في صندوق فيه أشياء ثمينة متطايرة. عند الباب توقَّف.

«بالمناسبة، هل قرأت ذاك الشيء الذي قاله بانيستر حين قابل الشابَّ من صحيفة ديلي ميل في موسكو؟ لم نسمح له بنشره بعد».

«إذاً كيف سأتمكَّن من قراءته؟»

ابتسم بمكر كأنِّي للتوِّ شرحت نقطة تنمُّ عن مكر وذكاء.

«لقد دوَّنتها»، قال، «أظنُّها لديَّ في مكان ما هنا»، أخرج محفظة منتفخة، واستخرج منها قصاصة ورق مطويَّة بعناية. كنت أستطيع رؤية أنَّه خطَّط لهذه الإيماءة الصغيرة، حتَّى في توقيت اللحظة الأخيرة؛ قبل كلِّ شيء، كان زميلاً في الأداء المسرحيِّ. ارتدى نظَّارةً بإطار معدنيٍّ، وثبَّت طرفَي ساعديها بعناية خلف أذنيه وهو يضبطهما، ثمَّ صفَّى حنجرته استعداداً للقراءة بصوت عال «لا تظنَّنَّ أنَّني منبهر بهذا المكان، أنا أفتقد أصدقائي. سبق أن كنت وحيداً أحياناً. لكن هنا أنا وحيد بسبب أشياء غير مهمَّة. في إنكلترا كنت أفتقد ما هو مهمّ حقيقة- الاشتراكيَّة. أنا حزين؟» مدَّ يده بالقصاصة «تفضَّل، لمَ لا تحتفظ بها؟»

«لا، شكراً. ديلي ميل ليست صحيفتي».

أومأ برأسه، وهو يفكِّر، ونظره مثبَّت على عقدة ربطة العنق التي تخصُّني.

«هل تفتقد الاشتراكيَّة، دكتور ماسكل»، قال بلطف.

كنت أستطيع سماع صرير المصعد وقرقعته وهو يرتفع؛ ربّما كان باتريك عائداً من المعرض، ومن المحتمل أنَّه لا يزال غاضباً. الحياة مرهقة جدّاً، أحياناً.

«لست أفتقد أيَّ شيء»، قلت، «لقد قمت بعملي، وهذا كلّ ما يهمُّ».

«وأصدقاؤك؟»، قال بلطف، «لا تنسَ أصدقاءَك. إنَّهم مهمَّون أيضاً، أليس كذلك؟»

غادرت الآنسة فانديلور للتوِّ، وأخشى أنَّها كانت تشعر بالقرف. هي لن تراني مرَّة أخرى؛ أو على نحو أكثر دقَّة، أنا لن أراها. زيارتها كانت مناسبة مثيرة للمشاعر؛ الأشياء التي ذكرتها- التي لم أذكرها. كنت قد اشتريت كعكة -اتَّضح أنَّها ليست طازجة- ووضعت شمعة عليها. الآن لديَّ رخصة لأكون سخيفاً. حملقتْ في الكعكة بشكٍّ وحيرة. ذكرانا السنويَّة الأولى، قلت، وأنا أعطيها كأس شمبانيا مع سلوك حسبته مجرَّد لباقة في التعامل مع النساء تعود إلى عهود قديمة لهنَّ؛ لم أرد أن تظنَّ أنَّني أخفي أيَّ مشاعر ضغينة نحوها. لكن في الحقيقة، كما أوضحتْ وهي تعود لتتفقّدَ أوَّل صفحات في دفتر ملاحظاتها ذي الصفحات مطويَّة الزوايا، لم يكن التاريخ الذي زارتني فيه أوَّل مرّة، لكنَّني نحَّيت جانباً تلك التفاصيل التافهة. كنَّا نجلس في غرفة المكتب. وعلى الرّغم من أنَّه لم يبدُ عليها أنَّها لاحظتها، فإنَّني كنت شاعراً تماماً بالمساحة الفارغة الضخمة على الحائط حيث كان ينبغي أن تكون معلَّقة لوحةُ بوسان. الآنسة فانديلور، داخل معطفها الكبير، كانت لا تزال حتَّى الآن باردة، كما كان حالها دائماً؛ كان لا يزال ثمَّة وقت لدى ميكانيكيِّ الجسد خاصَّتها حتَّى يسخِّنها- لطالما تلوم الفتيات أحبَّتهنَّ الشبَّان لأجل درجة الحرارة السائدة، ولا يسألني أحد كيف أعرف. وكما هو حالها منذ زمن، كانت ترتدي تنُّورة جلديَّة أيضاً. كيف نفسِّر الشفقة على ملابس الناس؟ تخيَّلتها في غرفتها، في غولدرز غرين، في الضوء الرماديِّ، وجوِّ

الصباح النتن، مع كوب من القهوة الباردة على منضدة الزينة، تصدر أصوات زقزقة وهي ترتدي تلك التنُّورة، وتشتكي في يوم جديد من الـ.. من ماذا؟ ربَّما لا توجد مثل هذه الغرفة في غولدرز غرين. ربَّما كلُّ هذا تلفيق؛ والدها الأدميرال، الميكانيكيُّ الفظُّ الخاصُّ بها، الرحلات في ميترو لندن للوصول إلى هنا، سيرتي الذاتيَّة. سألتها عن تقدُّم الإنجاز في الكتاب فرمقتني بنظرة امتعاض، فبدت مثل فتاة مدرسة غاضبة ألقي القبض عليها تدخِّن خلف عنبر الدرَّاجات الهوائيَّة. أكَّدت لها أنَّني لا أشعر بالجفاء تجاهها، وهي ارتدت مظهر عدم الاستيعاب، قائلة إنَّها متأكِّدة من أنَّها لا تعرف عمَّا أتكلَّم. نظرنا إلى بعضنا بعضاً للحظة، في صمت، أنا مبتسم، وهي عابسة. أوه، آنسة فانديلور، عزيزتي سيرينا. إذا كان ذلك هو اسمك حقّاً.

«على الرَّغم من المظاهر»، قلت وأنا أشير إلى زجاجة الشامبانيا، والكعكة المدمَّرة بشمعتها... «أنا رسميّاً في حداد». شاهدت عن كثب ردَّة فعلها؛ لا شيء، كما كنت أتوقَّع؛ إنَّها كانت تعرف بالفعل. «نعم»، قلت، «كما ترين، زوجتي توفِّيت».

لحظة صمت.

«أنا آسفة»، قالت بصوت خافت وهي تنظر إلى يديَّ.

إبريل. يا لها من سماء رائعة اليوم، جبال الغيوم الجليديَّة المنجرفة، ووراءها ذاك الأزرق الناعم والرقيق القابل للكسر، وضوء الشمس المتبدِّل بين استمرار وانقطاع كما لو أنَّ شخصاً متقلِّب المزاج كان في مكان ما يتحكَّم في التبديل. أنا لا أحبُّ فصل الربيع، هل ذكرت ذلك من قبل؟ مزعج جدّاً، ومؤلم جدّاً كلُّ هذا التبدُّل على نحو أعمى للحياة الجديدة. أشعر أنَّني تركت ورائي جذوراً كثيرة العقد، نصف مدفونة مع أغصان ذابلة. ومع

ذلك، يثيرني شيء ما. أتخيَّل غالباً، في الليل خاصَّة، أنَّني يمكن أن أشعر به هناك، ولا أقصد الألم، لكن الشيء نفسه، يزدهر على نحو خبيث، يلوي مخلبَيه. حسناً، سأضع حدّاً لنموِّه قريباً. فمي جافّ جدّاً الآن، فجأة، تظهر أعراض غريبة. أنا هادئ تماماً.

«كان أمراً حزيناً للغاية»، قلت، «يبدو أنَّها جوّعت نفسها حتَّى الموت. رفضت أن تأكل، أدارت وجهها فحسب نحو الحائط كما يقولون. هذا اليأس حتَّى الموت! لم تسمح لهم بأن يرسلوا إليَّ، قالت يجب أن ترحل بسلام. لطالما كانت أكثر مراعاة منِّي، وأكثر شجاعة أيضاً. الجنازة كانت البارحة. لا أزال منزعجاً، كما ترين».

لماذا، والموت يرافقني في كلِّ لحظة، ودفاعات حياتي المتهالكة تجوس في المكان بلا كلل، أُدهش حين يصيب نجاحاً عظيماً؟ كنت دائماً أعدُّه أمراً مفروغاً منه أنَّ فيفيين ستصمد أكثر منِّي، ومع ذلك لـمَّا كلَّمني جوليان عبر الهاتف، عرفت، قبل أن يقولها، أنَّها رحلت. وقفنا للحظة طويلة، نستمع إلى أنفاسنا عبر الأثير.

«هذا أفضل لها»، قال.

لمَ يعتقد الشبّان دائماً أنَّ من الأفضل للمسنِّين أن يموتوا؟ السؤال يجيب عن نفسه، كما أفترض.

«نعم»، قلت، «أفضل».

كانت قد طلبت أن تدفن وفق الشعائر اليهوديَّة. كنت مذهولاً. لـمَّا كنَّا متزوجين كانت تأخذ الأولاد إلى عظات الكنيسة، ولا سيّما حين كانت في أكسفورد، لكنِّي أدرك الآن أنَّها لا بدَّ كانت تفعل ذلك لمجرَّد أن تزعج أمَّها. لم أعرف قطُّ أنَّها كانت تهتمُّ لأمر ربِّ أجدادها. لا خطاب للمعزِّين،

لكن كانت ثمَّة مفاجآت أُخَر في الجنازة. اعتمر نيك القبَّعة اليهوديَّة، وكذلك فعل جوليان. وفي أثناء الصلوات، الكاديش أو أيّاً كان اسمها، رأيت شفتَي نيك تتحرّكان وهو يشارك في التراتيل. من أين جاء كلُّ هذا التديُّن فجأة؟ لكن من الواضح أنَّه لم يكن أمراً فجائيّاً.

كانت المقبرة في الحدود الخارجيَّة لشمال لندن. استغرق الأمر أكثر من ساعة للوصول إلى هناك، على الرّغم من السرعة غير اللائقة التي قطعت بها عربة النعش طريقَها عبر حركة السير شمالاً. كان يوماً جافّاً كئيباً مع نوبات من المطر وأثر من ضوء جهنميٍّ أصفر يمتدُّ على طول الأفق. في السيَّارة جلست في المقعد الخلفيِّ، أشعر بالوهن والوجل، وإلى جانبي بلانش تشهق بالبكاء، وجهها ملطَّخ ومنفوخ، وجوليان جلس مشدوداً ومستقيماً عند مقود السيَّارة وعيناه مثبَّتتان على الطريق. وعلى نحو جنائزيٍّ كان المقعد الفارغ إلى جواره رمزاً إلى غياب أمِّه. سافر نيك وحده مع سائقه. في إحدى مراحل الرحلة، لـمَّا كنَّا على الطريق السريع وسيَّاراتنا في المستوى نفسه، رأيت أنَّه كان يعمل، الأوراق والقلم الذهبيُّ في يده، والحقيبة الحمراء الوزاريَّة مفتوحة إلى جانبه فوق المقعد. شعر بأنَّ عيني عليه، ورفع نظره باتِّجاهي بذهول للحظة، بعيداً، خال من التعبير، وأفكاره في مكان آخر. حتَّى الآن، وهو في السبعينات من عمره، ممتلئ، أصلع، وجهه قد سقط بأكمله، وعيناه دامعتان وضيِّقتان، لا أزال أرى فيه الجمال الذي كان يتمتَّع به يوماً ما؛ هل هذا حقيقيّ، أو أنا اختلقته هناك؟ هذا كان حالي دائماً، مهمَّتي الدائمة أن أحافظ على صورته، أن أنحني أمامه بكل تواضع؛ الرأس منحنٍ وأحمل المرآة لأجله، ومن ثمَّ أحافظ على صورته أمام عيون العالم.

وبينما كنَّا نعبر بوَّابات المقبرة، قامت بلانش بمحاولة متردِّدة لمسك

يدي، لكنَّني ادَّعيت أنَّني لم ألحظ ذلك. لم أهتمَّ يوماً بأن أُلمس.

للحظة لم أدرك كويريل. ليس لأنَّه تغيَّر كثيراً، لكنَّه كان آخر شخص أتوقَّع رؤيته هناك. يا لها من وقاحة! كان شعره قد غدا خفيفاً، واحدودب قليلاً مع أنَّه كان لا يزال يتميَّز بأناقة واضحة وشريرة. أو لا، ليست أناقة، ليست هي الكلمة؛ مجرَّد نعومة، في الحال تصبح شيطانيَّة وتافهة تثير غالباً جوّاً من الحدس الخبيث مثل ذاك الحدس لدى سبَّاح خبير، في سبيل المثال، يراقب أخرقَ مبتدئاً يجازف متخبِّطاً في الماء العميقة. يحمل معه هالة شهرته. لطالما كنت أغار منه. لـمّا انتهت المراسم جاء، وصافح يدي ببرود. لم يكن أحدنا قد قابل الآخر منذ ما يزيد عن ربع قرن، ومع ذلك فقد قضى على اللحظة كما لو كنَّا معتادين اللقاء كلَّ يوم.

«ثق باليهود»، قال، «إنَّهم يعودون دائماً إلى ديارهم في النهاية، تماماً مثلنا -الكاثوليك أقصد». كان يرتدي سترة مبطَّنة فوق بذلته. «أشعر بالبرد أكثر، هذه الأيَّام، ودمي يتخثَّر بسرعة أكبر بسبب الحياة الطويلة في الجنوب. لا يبدو وضعك سيِّئاً للغاية، فيكتور، الخيانة تجعل المرء شابّاً، ها؟» لا أستطيع تذكُّر أنَّه خاطبني من قبل باسمي الأوَّل. قدَّمته إلى بلانش وجوليان، فنظر إلى كلِّ واحد منهما بدوره نظرة طويلة متحمِّسة. «أعرفكما مُذ كنتُما في المهد». كان جوليان مهذَّباً، وأنا معجب حقّاً بتحفُّظه، وهو أمر نادر هذي الأيَّام. «لديك عينا أمِّك»، قال كويريل، وأومأ إليه جوليان بتلك الإيماءة الصغيرة الصارمة خاصَّته، التي دائماً ما تبدو لي مصحوبة مع نقر وهميٍّ على العقبين. ابني المسكين، التائه. أدار كويريل انتباهه إلى بلانش. كانت ترتعش بكلِّيتها، مضطربة بحضور أولاء المشاهير. سحبت يدها من يده كأنَّ لمسته لسعتها. أتساءل عمَّا إذا كانا يعرفان شيئاً عن كويريل، هي

وجوليان؟ إنَّه ليس نوع الأشياء التي يسألها المرء لأبنائه حين يكبرون.

«متى تعود؟»، قلت.

حملق كويريل فيَّ.

«غداً»، قال.

نفخت ريح الربيع في الأشجار التي كانت لا تزال عارية، وحفنة من المطر رشَّت جدار المعبد الرخاميِّ خلفنا. حاول جوليان أن يزلق يداً داعمة تحت ذراعي لكنَّني أزلتها بعنف. للحظة شاهدت فيفيين بوضوح تامٍّ تسير نحوي، تنسج طريقها بين شواهد القبور بثوبها الحريريِّ الأسود المدوَّر والكعب العالي. كان نيك قد انطلق بالفعل في سيَّارته، دون أن ينطق بكلمة مع أحد. وكويريل كان يتحدَّث عن سيَّارات الأجرة.

«أوه، لا، لا»، قلت، «دعنا نقلّك معنا». فتح جوليان فمه لكنَّه لم يقل شيئاً. تجهَّم كويريل، وأنا قلت: «أنا أصرّ». يمكن للمرء أن يستمتع حتَّى في جنازة.

عدنا إلى المدينة مقسَّمين على نحو عادل، كويريل وأنا في المقعد الخلفيِّ الآن، وبلانش وجوليان في المقعدين الأماميَّين، كلاهما جلس مثل تمثالين، يصغيان باهتمام إلى الصمت وراءهما. كويريل يراقب بعينَي المهتمِّ الضيِّقتين- عينَي الروائيِّ دائماً- شوارع الضواحي الكئيبة وهي تمضي أمامنا. محالّ البقالة الضخمة، المغاسل الآليَّة، مراكز التسوُّق الجديدة تماماً على الرّغم من أنَّها موحشة، بنوافذها ذوات العرض المبهرج، وأكوام النفايات المنفوخة.

«إنكلترا»، قال ساخراً.

في سانت غايل سيركوس علقنا في ازدحام المرور. بدا الأمر كأنَّنا

نتحرَّك خبط عشواء داخل مركز قطيع حيوانات كبيرة، لامعة، مرتجفة.

«اصغِ كويريل»، قلت، «ما رأيك في تناول شراب».

كيف بدا الأمر مثل الأيَّام الخوالي! رمقني كويريل بتحديقة ساخرة. كان جوليان بطبيعة الحال قد انحرف بالسيَّارة نحو الرصيف حيث عصفت الريح حولنا بضراوة. وبينما كان كويريل يرفع سحَّاب معطفه المعقَّد، شاهدت السيَّارة وهي تخطُّ طريقها عائدة إلى ازدحام المرور، الأخ والأخت الآن ينحني أحدهما نحو الآخر في حديث مفعم بالحيويَّة. تلك هي الحياة السرّيّة حقّاً، حياة أبناء المرء.

«قلق من أنَّك أصبحت غائباً»، قلت، «وصلنا إلى ذلك العمر المملِّ».

أومأ كويريل.

«كنت أفكِّر فحسب»، قال، «في أنَّ عشيقتي أصغر من ابنتك».

تحوَّلنا إلى سوهو. كان ضوء النهار قد أصبح ساطعاً، وظهرت الآن شمس حادَّة، تحلِّق في طريقها للخروج عن الغيوم، والسماء فوق الشوارع الضيِّقة بدت مرتفعة جدّاً ودبَّ فيها النشاط. هبَّت الريح واندفعت إلى الأمام، ناشرة أعناق النرجس البرِّيّ في الساحة. على زاوية شارع ووردور ستريت كانت عجوز شمطاء، ترتدي جوارب غامقة اللون بلون الكاكاو، ومعطفاً ككفن، تلقي اللعنات على المارَّة. بقع بيض على شفتيها، وعينان غاضبتان. لمع ضوء الشمس فجأة، على نحو غريب، على لوح زجاج على ظهر شاحنة. تقدَّمت فتاتان، تلبسان معطفين من الفرو المزيَّف وحذائين بكعبين من ثلاثة إنشات. راقبهما كويريل بمتعة بغيضة.

«لطالما كانت لندن تحاكي نفسها بسخرية»، قال، «بلد سخيف، بشع، بارد. عليك الخروج منها حين تسنح لك الفرصة».

مشينا إلى أسفل بولاند ستريت. كان ليو روذنستاين قد باع المنزل بعد رحيل بوي. وتحوَّلت الطوابق العلويَّة إلى مكاتب. وقفنا على الرصيف ننظر إلى الأعلى حيث النوافذ المألوفة لنا. لمَ لا يمكن للماضي أن يغادرنا، لمَ عليه إلى الأبد أن يخدشنا بأظافره مثل طفل متملِّق؟ تابعنا مسيرنا، لا نقول شيئاً. شياطين الريح المصفِّرة ترقص على الرصيف، ترفع الغبار وقصاصات الورق في دوَّامات بطيئة الحركة. كنت أشعر برأسي خفيفاً تماماً.

الحانة القديمة أصبح لديها الآن آلة لعب «بينبول»، تلعب فيها على نحو صاخب عصابة من الشبّان ذوي الرؤوس الحليقة، الذين يرتدون أحزمة عريضة وجزمات من ذوات الأربطة. جلسنا، أنا وكويريل، بسبب اضطراب البروستات، على مقاعد خفيضة، إلى طاولة صغيرة في الخلف، وشربنا الجن، نشاهد شبّان الجزمات في لعبتهم الصاخبة، وأيَّام السُّكر القديمة. لمعت الأشباح في الظلال، وضحكت. الماضي، الماضي.

«هل سترجع؟»، قلت، «ألا تفتقد الماضي، أيَّ شيء منه؟»

لم يكن يصغي.

«قد تعرف أنَّ علاقة غراميَّة»، قال، «كانت تربط بيننا، أنا وفيفيين». نظر إليَّ بسرعة ثمَّ ابتعد بنظره من جديد، عابساً. وصار يلوح بسيجارته بهذا الاتِّجاه وذاك. «أنا آسف»، قال، «كان ذلك في أوَّل فترة زواجكما، كانت وحيدة».

«نعم»، قلت، «أنا أعرف»، حملق فيَّ، بذهول سعيد، رفعت كتفيَّ، «لقد أخبرتني فيفيين».

مرَّت حافلة في الخارج وأطلقت بوقها بصوت عالٍ جعل الأرضيَّة والطاولة ترتجفان قليلاً، والوجوه الشاحبة القاسية على المنصَّة العلويَّة،

مقابلنا، فتحت أفواهها لوقت قصير فيما بدا نوعاً من الدهشة. كويريل، بشفتين مزمومتين نفث مخروطاً من الدخان باتِّجاه السقف؛ ما كشف بقعاً من بقايا شعر أبيض على رقبة الديك الروميِّ العجوز خاصَّته التي حُلقت بغير عناية.

«متى؟»، قال.

«متى ماذا؟»

«متى أخبرتك بذلك؟»

«وهل هذا مهمّ؟»

«بالطبع مهمّ».

لاحظت أنَّ يديه كانت ترتعشان قليلاً، والدخان، وهو يرتفع من سيجارته، يرتعش على الإيقاع السريع نفسه. الدخان يكون أزرق قبل استنشاقه له، بعد ذلك يصبح رمادياً.

«أوه، منذ زمن بعيد»، قلت، «في اليوم التالي لرحيل بوي. في اليوم الذي قرَّرتم فيه، أنت والآخرون، الغدر بي للوكالة».

كانت مشاجرة قد بدأت عند آلة «البينبول»، وانخرط اثنان من الشبَّان في مشاجرة وهميَّة، فكان يخز أحدهما الآخر، ويقومان برفسات صغيرة تبدو خطرة على قصبات قدمي بعضهما، في حين يحثُّهما زملاؤهما بالصراخ على الاستمرار. تناول كويريل شرابه وزفر زفرة ذات صفير. ثمَّ أخذ كأسينا واتِّجه نحو البار. نظرت إلى معطفه المبتذل المبطَّن وحذائه من جلد الغزال. تلاشِي غموض الناس الآخرين أمامي، كما لو أنَّ باباً أغلقته الريح قد فُتح على الظلام والعاصفة. مرَّت حافلة أخرى، ومجموعة جديدة من وجوه باهتة مذهولة نظرت إلينا في الداخل من مكانهم العالي في الحافلة. عاد كويريل مع

الشرايين، ولـمَّا ثبَّت نفسه في المقعد من جديد، انتبهت إلى شيء ما خرج منه، بصقه من داخله، شيء نيء وجبنيُّ الشكل. ربَّما هو مريض، أيضاً. أنا بالتأكيد أملت ذلك. تجهَّم في كأسه كما لو أنه اكتشف شيئاً يعوم فيها. بقعة حمراء بقياس الشيلنغ ظهرت على كلِّ خدٍّ له، ما كان هذا- الغضب؟ الإثارة؟ بالتأكيد ليس الخزي؟

«كيف عرفت»، قال بصوت أجشّ، «أقصد، عن...»

«من فيفيين بالطبع، ومن غيرها؟ أخبرتني كلَّ شيء كان يجب معرفته في ذلك اليوم. كما تعرف، كانت زوجتي».

شرب كلَّ ما تبقَّى، وصار يحرِّك كأسه بهذا الاتِّجاه وذاك، وهو يراقب آخر فقاعات الشراب الفضيَّة في قاع الكأس.

«أردت إبعادك عن ذلك، كما تعرف»، قال، «أردت أن أعطيهم روذنستاين، أو ألاستير سايكس. لكن لا، قالوا يجب أن تكون أنت».

ضحكت.

«أدركت للتوِّ»، قلت، «أنَّ هذا ما عدتَ لأجله، نعم. لتخبرني عنك وعن فيفيين وعن... هذا. يا لها من خيبة أمل تصيبك... إنَّني أعرف كلَّ هذا بطبيعة الحال».

شفتاه، المتقلِّصتان بسبب العمر، اكتستا تشقُّقات محفورة بعمق على طول حوافِّهما، الأمر الذي جعل فمه يبدو مغزولاً بعناية. هذا ما يجب أن يكون حالي أيضاً. ماذا كان أولاء الشبَّان سيرون لو أنَّهم استداروا نحونا متوعِّدين؟ زوجاً من عجوزين مخصيَّين ذابلين، مع كأسي الجن خاصَّتهما وسجائرهما، وأسرارهما القديمة، والألم القديم. أشرتُ إلى مضيف البار. كان شابّاً نحيلاً شاحباً يشبه نماذج الشبَّان

في لوحات برونزينو[152]، مرسوماً في نحو ما بمظهر فاسق، ولـمّا دفعت له ثمن الشراب مسحت أصابعه الباردة الرطبة بأصابعي، وهو رمقني بنظرة باهتة. الحياة في خضمِّ الموت. كان كويريل يرمقني بنظرة متجهِّمة، ويتحسَّس شفته السفليَّة بطرف لسانه. حاولت أن أتخيَّله وفيفيين معاً. أومض ببطء، وتدلَّى جفنا السحلية خاصَّتاه. واشتممت رائحته البشريَّة من جديد.

«كان علينا إعطاؤهم أحداً ما»، قال.

حسناً، كان في وسعي إدراك ذلك دائماً، بالطبع. كان يجب أن تكون ثمَّة نهاية للعمليَّة في لندن، شخص ما لتسلُّم الموادّ التي كان ماكليش وبانيستر يرسلانها من واشنطن، ويمرِّرها إلى أوليغ. كان أقلَّ ما يمكن للوكالة أن تتوقَّعه؛ أقلَّ ما يمكن لهم أن يستقرِّوا عليه.

«نعم»، قلت، «وأنت أعطيتني لهم».

فجأة غادر الشبَّان الخطرون، وبدت آلة «البينبول» المهجورة كأنَّها متألِّـمة ومحتارة، مثل كلب لم يبقَ أحد ليرمي العود له. كلام، دخان، قعقعة كؤوس غير متناغمة.

«أفترض أنَّك كنت موجوداً قبلي؟»، قلت.

أومأ.

«كانت لديَّ خليَّة حين كنت في أكسفورد»، قال، «كنت لا أزال طالباً جامعيّاً».

لم يستطع إخفاء التبجُّح في صوته.

وقفتُ. أردت فجأة أن أبتعد عنه. لم يكن الغضب ما حثَّني، إنَّما

---

(152) أنيولو دي كوزيمو (1503-1572)، المعروف أيضاً باسم برونزينو، هو رسّام إيطالي أسلوبيّ من فلورنسا. (م)

شيء من نفاد صبر؛ شيء آخر انتهيت إليه.

«حقّاً أنا آسف»، قلت، «أنَّك لم تستطع رؤيتي وأنا مضطرب».

في الخارج، على الرصيف، شعرت بالدوار من جديد، وشعرت للحظة أنَّني سأسقط أرضاً. كان كويريل يلوِّح لسيَّارة أجرة؛ لا يمكنه الفرار بسرعة، الآن بعد أن ارتدَّت محاولة انتقامه عليه. وضعت يدي على ذراعه: جسد رقيق تحت معطفه، وعظم هرم كأنَّه سلاح بدائيّ.

«لقد كنتَ أنت»، قلت، «أليس كذلك؟ الشخصَ الذي أعطى اسمي لذلك الشابِّ الذي كان يؤلِّف كتاباً- الشابّ الذي كان سيفضحني؟»

حملق فيَّ.

«ولمَ أفعل ذلك؟»

توقَّفت سيَّارة أجرة. تحرَّك نحوها وهو يحاول التخلُّص من يدي، لكنَّني أمسكت به بإحكام شديد. فوجئت بقوَّتي، التفَّ سائق الأجرة باهتمام ليشاهدنا، رجلان في منتصف العمر يتصارعان بشراسة.

«مَن إذاً؟»، قلت.

كما لو أنَّني لم أكن أعرف.

هزَّ كتفيه، وابتسم، كاشفاً لي عن أسنانه القديمة المصفرَّة، ولم يقل شيئاً. جررته، تراجعت خطوة، وهو انحنى إلى داخل سيَّارة الأجرة، وأغلق الباب خلفه. وبينما كانت سيارة الأجرة تنطلق بعيداً رأيت وجهه الطويل الشاحب في الزجاج الخلفيّ للسيَّارة وهو ينظر إليَّ. بدا لي يضحك.

فجأةً صعقني أمر: هل ولدايَ هما ولدايَ؟

*

الآن مجرَّد شجار عبر الهاتف مع شابٍّ وقح من مخمِّني أسعار اللوحات أولاء. اتِّهامات شائنة. هو في الحقيقة استخدم كلمة «مزيَّفة». قلت له هل تدرك من أنا؟ أقسم إنِّي سمعته يكتم قهقهة. أخبرته أن يعيد اللوحة إليَّ في الحال، فقد كنت بطبيعة الحال قد قرَّرت لمن سأورِّثها؛ لا أعتقد أنَّني في حاجة إلى تغيير رأيي.

*

أجاب هو نفسه عبر الهاتف، عند أوَّل رنَّة. هل كان ينتظر مكالمتي؟ ربَّما حذَّره كويريل، آخر قطعة من تعمُّد الأذى قبل أن يطير جنوباً من جديد إلى حيث الشمس وعشيقته الطفلة. كنت عصبيّاً للغاية، وأتلعثم مثل أبله. سألته إن كنت أستطيع القيام بزيارة. وبعد لحظة صمت طويلة، قال نعم ببساطة، وأنهى المكالمة. أمضيت نصف الساعة التالية في الشقَّة أبحث عن مسدَّس. وأخيراً وجدته، مع صرخة انتصار، في الجزء الخلفيِّ من درج المكتب، ملفوفاً بقميص قديم، أدركت مع شرود في الذهن أنَّه كان يعود لباتريك. إحساس غريب حملي السلاح في يدي. كم يبدو عتيقاً، مثل إحدى تلك الأدوات المنزليَّة التي تراها في عروض فيكتوريانا؛ ثقيلة، ولا غرض واضح لها. لكن لا، لست متردِّداً، بالتأكيد لست متردِّداً. إنَّه لم يُزيَّت منذ زمن الحرب، لكنَّني أتوقَّع أنَّه سيعمل. طلقتان فحسب في بكرة المسدَّس- أين الطلقات الأربع الأخرى؟- لكن هذا سيكون أكثر من كافٍ. لم أجد قرابه، وكنت مرتبكاً في حمله بما أنَّه كبير جدّاً على جيبي، ولـمَّا دفعته داخل حزامي انزلق إلى أسفل، داخل فردة بنطالي، وضرب مشط قدمي على نحو مؤلم. تساؤل لم يفارقني. لمَ يفعل؛ لقد عانيت بما يكفي من

الخزي دون أن أثير أيَّ مشكلات. في النهاية لففته من جديد بالقميص- تقليمات ورديَّة عريضة، مع ياقة بيضاء واضحة؛ باتسي كان مولعاً بهذا النوع من الأشياء- ووضعته في حقيبتي الخيطيَّة مع مظلَّة، ومعطف مطريٍّ، ومفتاح الباب الخارجيّ. لم أكن قد لاحظت، حتَّى وصلت إلى الشارع، أنَّني أرتدي خُفَّين. لا يهمّ.

كان سائق سيَّارة الأجرة أحد أولاء المملِّين الذين يكلِّمون أنفسهم: عن الطقس، وحركة المرور، والباكستانيِّين، والمشاة المدمَّين. كم هم غير جذَّابين القباطنة المرسلون ليعبروا بنا عبر أهمّ مقاطع حياتنا! سلَّيت نفسي بتخيُّل العواء المرعب الذي سيرتفع من مياه راكدة محدَّدة في الأكاديميَّة بسبب مقالة لي بعد وفاتي عن الرمزيَّة الشهوانيَّة في لوحة بوسان إيكو ونرسيس[153] -أتساءل، بالمناسبة، لمَ اختار الفنَّان، في هذه اللوحة، أن يصوِّر نرسيس دون ثديين؟- سيظهر هذا قريباً في مجلَّة فنون أميركيَّة جديدة، جَسُور ولا تتَّسم بالاحتشام. أنا حقّاً أحبُّ أن أصدم. كانت الشمس محبوسة، وهولاند بارك كان لديها أثر كئيب، على الرّغم من كلِّ تلك القصور ذات اللون الكريميِّ والسيَّارات بألوان الألعاب. نزلت من السيَّارة مرتاحاً، وأعطيت الرجل شلناً بقشيشاً، أو خمسة بنسات، كما يجب أن نقول الآن؛ نظر إلى العملة باشمئزاز وشتم تحت أنفاسه، وانطلق بعيداً. ابتسمتُ، فإهانة سائق سيَّارة الأجرة واحدة من متع الحياة الصغيرة. بقع مبلَّلة على الرصيف، ورائحة مطر وعفونة. شجيرة ليلك إلى جانب الباب الأماميِّ توشك أن تزهر. طائر سُمانى متخفٌّ يطير بين الأوراق، ويراقبني حيث كنت أنتظر. كانت الخادمة فلبّينيَّة، امرأة بالغة الصغر، عابسة، تبدو حزينة بلا حدود. قالت

---

(153) لوحة زيتيّة لبوسان أنهاها في العام 1627. معروضة حاليّاً في اللوفر- باريس، وتصوِّر حكاية إيكو ونرسيس، وهما شخصيّتان من الميثولوجيا الإغريقيّة. (م)

شيئاً غير مفهوم، ووقفت جانباً بخنوع وأنا أخطو باتِّجاه الصالة. أرضيَّة رخاميَّة، طاولة إيطاليَّة، وعاء نحاسيٌّ كبير لأزهار النرجس، مرآة محدَّبة بإطار مذهَّب وفق الطراز الباروكيِّ. أمسكت المربيَّة، أقصد الخادمة، وهي تنظر مرتابة إلى حقيبتي الخيطيَّة، وخُفَّيَّ، ومظلَّتي الجنائزيَّة. تكلَّمت من جديد، ومن جديد كان كلامها غير مفهوم، وأشارت إلى الطريق بمخلب خفَّاش بنّيّ صغير، وقادتني إلى داخل القلب الصامت للمنزل. وأنا أمشي أمام المرآة، انعكست صورتي فيها لوقت قصير، رأساً هائلاً في حين استدقَّت بقيَّتي في شكل حبل سرِّيٍّ معقَّد.

غرف شاحبة، لوحات باهتة، سجَّادة تركيَّة رائعة كلُّها ألوان حُمر وبنفسجيَّة ولون بنّيّ صحراويّ، ونعلا إيميلدا المطَّاطيَّان يزقزقان على مهل. دخلنا في مستنبت زجاجيٍّ ثُماني الزوايا فيه نباتات في أصص، أوراقها الخُضر اللامعة المزيَّفة تميل بتوق، وهي فتحت باباً زجاجيّاً على الحديقة، ووقفت، تبتسم ابتسامة كئيبة مشجِّعة. خطوت أمامها نحو الخارج. ممرٌّ من الحجارة المرصوفة يتدفَّق بين العشب، يقود عبر المرجة إلى منصَّة أشجار غار أخضر غامق كثيف للغاية. ومضت أشعَّةُ الشمس فجأة، وشيء ما اهتزَّ في الهواء، اهتزَّ، ثمَّ غرق. مشيت على طول الطريق. ريح، غيم، عصفور يطير في الهواء. كان نيك ينتظر في الضوء الرقيق تحت شجيرات الغار، هادئاً جدّاً، ويداه في جيبيه، يشاهدني. يرتدي قميصاً أبيضَ، وبنطالاً أسودَ، وكمَّا قميصه ملفوفان للأعلى، وحذاء غير ملائم.

هِي ذي: لوحة الحزن في الحديقة.

«مرحباً، فيكتور».

الآن، وبعد كلِّ شيء، أستطيع التفكير في شيء أقوله. قلت:

«كيف هي سيلفيا؟»

رمقني بنظرة قاسية سريعة كما لو كنت قدَّمت تلميحاً لا مذاق له.

«إنَّها في الريف. تفضِّل الحياة هناك هذه الأيَّام».

«أرى ذلك». سقط طائر أبي حنَّاء جريء من أحد الأغصان إلى العشب قريباً من قدم نيك، والتقط شيئاً صغيراً، وطار من جديد بلا صوت إلى داخل الشجرة. بدا نيك بارداً. هل ارتدى هذا القميص الحريريَّ الناعم من أجلي، وذاك البنطال النحيل والحذاء سهل اللبس (مع مشبك ذهبيٍّ على مشط الحذاء، بالطبع) وتوضَّع هنا مقابل كلِّ هذه الخضرة؟ ممثِّل آخر يقوم بدوره، وليس على نحو مقنع جدّاً. «أنا أحتضر، كما تعرف»، قلت.

نظر بعيداً، متجهِّماً.

«نعم، سمعت. أنا آسف».

ظلٌّ. شمس للحظة. ثمَّ ظلٌّ من جديد. يا له من طقس مرتبك. في مكان ما بدأ طائر الشحرور يقرقر محذِّراً، لا بدَّ أنَّ طائر القعقع موجود في مكان قريب؛ لديَّ فكرة عن طيور القعقع.

«من أخبرك؟»

«جوليان».

«آه. تعرف الكثير منه، أليس كذلك؟»

«قليلاً».

«لا بدَّ أنَّك تمثِّل شخصيَّة الأب لديه»، قلت.

«شيء كهذا».

كان ينظر إلى خفَّيَّ، وحقيبتي الخيطيَّة.

«حسناً، أنا سعيد لذلك»، قلت، «يحتاج الرجل إلى أب».

رمقني بنظرة قاسية أخرى.

«هل أنت ثمل؟»، قال.

«بالتأكيد لست كذلك. مهتاج نوعاً ما. لقد سمعت بعض الأشياء».

«نعم»، قال بتجهُّم، «شاهدت كويريل يتحدَّث إليك في الجنازة. دردشة مثيرة للاهتمام، أليس كذلك؟»

«كانت كذلك».

صالبت رسغَي قدميَّ، واتَّكأت على المظلَّة محاولاً أن أبدوَ غيرَ مبالٍ، غرقت مقدِّمتها المعدنيَّة في العشب وكدت أفقد توازني. أنا في عُمر يميل فيه المرء إلى السقوط. وأخشى أنَّني فقدت السيطرة على نفسي، وبدأت أوبِّخه، مستخرجاً كلَّ أنواع الأشياء البغيضة- الاتِّهامات، الشتائم، التهديدات- التي لم تكن أسرع من ندمي عليها. لكنَّني لم أستطع التوقُّف، كلُّ ذلك خرج في طوفان حادّ مخزٍ من المرارة والغيرة والألم. اندفعت مثل- وأستميحكم عذراً لقولي- مثل قيء. وأظنُّ أنَّني ربَّما حتَّى أخرجت مظلَّتي من الطين، ولوَّحت بها في وجهه مهدِّداً. ماذا الآن عن حلِّ المسائل بطريقة رواقيَّة؟ وقف نيك هناك فحسب، يستمع إليَّ، ويراقبني باهتمام، وينتظرني حتَّى أنهي كلامي، كما لو كنت طفلاً حروناً يعاني من نوبة الغضب خاصَّته.

«حتَّى إنَّك أفسدتَ ابني!»، صرخت.

رفع حاجبه وهو يحاول ألَّا يبتسم.

«أفسدتُ؟»

«نعم، نعم! -بهرائك اليهوديِّ القذر. شاهدتكما معاً في الجنازة، تصلِّيان».

كنت سأستمرُّ لولا أنَّني اختنقت ببصقة، واضطررت إلى السعال،

والسعال، والضرب على صدري. فجأةً بدأت أرتعش كما لو أنَّ محرِّكاً صغيراً داخلي قد جرى تشغيله.

«دعنا ندخل المنزل»، قال نيك وهو يرتعش، «نحن كبيران جدّاً على هذا».

أشجار التفَّاح، إبريل، شابٌّ في أرجوحة شبكيَّة، نعم، لا بدَّ أنَّه كان إبريل، المرَّة الأولى تلك. لماذا ظننت أنَّه كان في عزِّ الصيف؟ ذاكرتي ليست جيِّدة كما يفترض بها أن تكون. ربَّما أكون أخطأت تذكُّر كلَّ شيء، أخطأت كلَّ التفاصيل. ما رأيك آنسة ف.؟

جلسنا داخل المستنبت الزجاجيّ في كرسيّين ذاتي ذراعين، إلى جانب طاولة منخفضة. جاءت الخادمة، وطلب نيك شاياً.

«جن، لأجلي»، قلت، «إذا كنتِ لا تمانعين». ابتسمتُ للخادمة؛ كنت هادئاً مرَّة أخرى، بعد لحظة التطهير الصغيرة في الحديقة. «أحضري الزجاجة، عزيزتي، من فضلك».

تأمَّل نيك الحديقة، ومرفقاه على ذراعَي كرسيِّه، ورؤوس أصابعه مضمومة أمامه. نُتفة صغيرة من ورقة غار رطبة التصقت بمقدّمة رأسه الأصلع، فبدت رمزاً لشيء ما. هبَّت عصفة ريح عبر أشجار الصفصاف، وبعد ذلك بلحظة صفعت بقوة أوراق الشجر على الزجاج إلى جانبي، وبدأ مطر غزير يهطل، سرعان ما تداعى بعد وقت قصير. كلُّ أنواع الأشياء كانت تعبر رأسي؛ قطع صغيرة، وقصاصات من الماضي، كما لو أنّ عارضَ إسقاطٍ مجنوناً هناك كان يعرض في الوقت عينه مزيجاً من مقاطع لأفلام قديمة. تذكَّرت حفلاً ليليّاً منتصف الصيف، فيه تنازل روذنستاين عن الحديقة الكبيرة في مولز قبل خمسين عاماً، وكان المتنكِّرون فيها يتنزَّهون تحت الأشجار الخفيضة، وخدم يرتدون عباءات،

ويخطون بوقار على الأرض العشبيَّة بزجاجات الشمبانيا الملفوفة بمناديل مبلَّلة؛ الظلام الناعم والهادئ، والنجوم، والخفافيش المتأرجحة، وقمر ضخم بلون العظم. على مقعد مزخرف إلى جانب ضفَّة معشوشبة كان ثمَّة ولد وبنت يتبادلان القبل، والفتاة كشفت عن ثدي متلألئ. للحظة كنت هناك. كنت مع نيك، ونيك كان معي، والمستقبل كان بلا حدود. عادت الخادمة بصينيَّة، وبدأت أنا أستيقظ مرَّة أخرى على الحاضر المروِّع.

بالأمس فقط حدث كلُّ هذا؛ من الصعب تصديق ذلك.

بينما كان نيك- العجوز، ذو الكرش- يصبُّ شايه، أمسكت زجاجة الجن من عنقها وتجرَّعت مقدار نصف كأس جيِّدة.

«هل تتذكَّر»، قلت، «ذلك الصيف حين نزلنا أوَّل مرَّة إلى لندن، وكنَّا نمشي عبر سوهو في الليل، نقرأ قصائد بليك بصوت عالٍ من أجل تسلية العاهرات؟ نمور الغضب أكثر حكمة من أحصنة التعاليم. لقد كان بطلنا، هل تذكر؟ سوط على النفاق، بطل الحرّيَّة والحقيقة».

«كنا ثملين دائماً، كما أتذكَّر»، قال، وضحك؛ نيك لا يضحك حقّاً، إنَّه مجرَّد صوتٍ عالٍ كان قد تعلَّمه من الآخرين. حرّك شايه وهو غارق في فكره، دائرة ودائرة ودائرة. تلك اليدان. «نمور الغضب»، قال، «هل هذا ما تعتقد أنَّه كان حالنا؟»

شربت الجن خاصَّتي. نار باردة، قطع جليد حارَّة. المظلَّة المطويَّة التي كانت متَّكئة على ذراع كرسيّ، سقطت على الأرضيَّة الرخاميَّة مع قعقعة مكتومة. دعائمي لم تحسن التصرُّف طوال اليوم.

«أصرَّ ييتس[154] على أنَّ بليك كان إيرلنديّاً كما تعرف»، قلت، «تخيَّل

---

(154) وليام باتلر ييتس (1865-1939)، شاعر وكاتب مسرحيّ إنكليزيّ. من أشهر شعراء إنكلترا في العصر الحديث، نال نوبل 1923. (م)

ذلك- بليك لندن، رجل إيرلنديٌّ! كنت أفكِّر في ذلك الوقت حين أبحر هو وصديقه ستوثارد إلى ميداوي في رحلة للرسم، وألقي القبض عليهما بشبهة التجسُّس للفرنسيّين. دخل بليك في حالة هائلة من الاهتياج، مقتنعاً أنَّ بعض أصدقائه بلَّغوا السلطات. أمر سخيف بالطبع».

تنهَّد نيك، فأصدر صوتاً مثل شيء ما يفرِّغ الهواء، وانحنى مرة أخرى في كرسيِّه، الخيزران المحبوك تحته يطقطق مثل نار موقد. فنجان الشاي وصحنه كانا متوازنين على ركبته؛ بدا كأنَّه يدرس تصميم الفنجان. كان الصمت ينبض كأنَّه قلب.

«كان ينبغي لي أن أكون محميّاً»، قال أخيراً، متعباً وبرماً، «أنت تعرف ذلك».

«انبغى لك؟»، قلت، «وأنا؟»

«كنت أنا الشخص الذي سيصبح في الحكومة. إذا لم نعطِك لهم، فسيصلون إليَّ عاجلاً أم آجلاً. كان قراراً جماعيّاً، لم يكن فيه شيء شخصيّ».

«لا»، قلت، «لا شيء شخصيّ».

حدَّقني بقسوة.

«كانت حياتك مقبولة»، قال، «حصلت على وظيفتك، ومكانك في القصر. وحصلت على لقب فارس».

«لم أعد أحمله».

«كنت دائماً مغرماً بدرجات الشرف، وأن تكون لديك صفات قبل اسمك، وكلُّ هذا العفن الرأسماليّ»، نظر إلى ساعته، «لديَّ شخص سيزورني بعد وهلة قصيرة».

«متى بدأت؟»، قلت، «مع فيليكس هارتمان، أو قبل ذلك؟»

هزَّ كتفيه.

«أوه، قبل ذلك بفترة طويلة. مع كويريل. هو وأنا دخلنا معاً، مع أنَّه لطالما كان يكرهني، ولا أعرف السبب».

«ولا زلت تعمل لصالحهم؟»

«بالطبع».

ابتسم، بشفتين مزمومتين تماماً، وقمَّة أنف منخفضة؛ أظهر العمر يهوديَّته، مع أنَّ الشخص الذي كان أشدَّ شبهاً به كان والده الملحد- تلك النظرة الشريرة، الرأس ذو الصلعة المستدقّة، تلك العينان الأُرقتان المغطّاتان. المطر، وبعد أن أخذ استراحة عميقة، هطل من جديد بتصميم. لطالما أحببت سماع صوت المطر على الزجاج. أصبح الارتعاش سيِّئاً جدّاً الآن، يداي تهتزان، وركبتاي تتحرّكان الآن مثل ذراع آلة الخياطة.

«هل كانت فيفيين من أخبرك؟»، قال، «لطالما كنت أظنُّ أنَّها قد فعلت ذلك وأنت لم تفشِ السرَّ طوال هذي السنين. يا لك من شخص عجوز كسول، دكتور»

«لمَ لمْ تخبرني أنت؟»

نقل الفنجان والصحن بعناية إلى الطاولة، وجلس للحظة يفكِّر.

«هل تتذكَّر رحلة بولون»، قال، «في ذلك الصباح الأخير، على متن سفينة الذخيرة، حين فقدت أعصابك؟ عرفت حينها أنَّه لا يمكن الوثوق بك. إلى جانب ذلك، أنت لم تكن جادّاً؛ اشتركت في الأمر لأجل التسلية فحسب، وشيءَ كنت تدَّعي أنك تؤمن به»، نظر إليَّ، «حاولت أن أعوّضك. ساعدتك. مرَّرت لك كلَّ تلك الأشياء من بليتشلي، كلّ ذلك من أجلك، لتقنع أوليغ. ولـمّا أردت أن تخرج، وتكرِّس نفسك للـ...»، ابتسم ابتسامة باهتة، «للفنِّ،

أنا كنت هناك. لمَ تظنّهم سمحوا لك بالرحيل؟ لأنِّي أنا كنت موجوداً لديهم».

صببت كأسَ جن مباركٍ آخر. كنت أدرك أنَّني أفضِّله دون مياه غازيَّة؛ كان أخفَّ، أكثر تأكيداً، لاذعاً للغاية. تأخَّر الوقت قليلاً كي تتذوَّق شيئاً جديداً.

«مَن غيرك كان يعرف؟»، قلت.

«ماذا؟ أوه، الجميع يعرفون، حقّاً».

«سيلفيا، في سبيل المثال؟ هل أخبرت سيلفيا؟»

«لقد خمَّنت ذلك. لم نناقش الأمر». نظر إليَّ، وهزَّ كتفيه بحزن وهو يعضُّ على شفتيه، «شعرتُ بالأسف تجاهك».

«لمَ أعطيتَ اسمي إلى ذلك الرجل؟»، قلت، «لماذا كان عليك أن تخونني للمرَّة الثانية؟ لماذا لم تتركني بسلام فحسب؟»

نفث تنهيدة عميقة، وتحرَّك متململاً في كرسيِّه. كان ينتابه شعور الملل ونفاد الصبر لرجل مجبر على الإصغاء إلى اعتراف بالحبِّ غير مرحَّب به، كما أفترض كان واقع الأمر.

«لقد كانوا ورائي من جديد»، ابتسم؛ كابتسامة فيفيين الجليديَّة، «قد أخبرتك أنِّي يجب أن أكون محميّاً»، نظر إلى ساعته، «الآن، حقّاً لديَّ-»

«ماذا لو تحدَّثت إلى الصحافة؟»، قلت، «ماذا لو استدعيتهم اليوم، وأخبرتهم بكلِّ شيء».

هزَّ رأسه.

«أنت لن تفعل ذلك».

«ويمكنني إخبار جوليان. هذا من شأنه أن يقلِّل شيئاً ما من إعجابه الأبويّ بك».

«أنت لن تفعل ذلك أيضاً». بعيداً، سمعنا صوت جرس الباب. وقف وانحنى وسحب مظلَّتي. «جورباك مبلَّلان»، قال، «لمَ ترتدي مثل هذين النعلين في هذا الطقس؟»

«إنَّها الأورام في إبهام القدم»، قلت، وضحكت على نحو هستيريّ كما أخشى. لا بدَّ أنَّ ذلك كان بسبب الجن دون شكّ. كان ينظر إلى الحقيبة الشريطيَّة من جديد. هززتها. «أحضرت سلاحاً»، قلت.

نظر جانباً وهو يطقطق بلسانه منزعجاً.

«هل يهتمُّون بك؟»، قال، «الوكالةَ أعني، المعاش التقاعديّ، والأشياء المشابهة». لم أقل شيئاً. انطلقنا عبر المنزل. ونحن نمشي، استدار في جزئه العلويِّ نحوي، ونظر إلى وجهي، «أصغِ فيكتور، أنا...»

«لا تفعل، نيك»، قلت، «لا تفعل».

كان يريد الاسترسال في الكلام، لكنَّه غيَّر رأيه. كان يمكنني الشعور بحضور شخص آخر في المنزل. (هل كنت أنتِ، عزيزتي؟ تعالي، هل كنت أنت، تتجوَّلين في حجرة الانتظار المذهَّبة؟) ظهرت الخادمة من الظلام في القاعة- لماذا أرغب دائماً بتسميتها المربِّية؟- وفتحت الباب الأماميَّ لي. خرجت بسرعة. توقَّف المطر من جديد، وأوراق الليلك كانت تقطر. وضع نيك يده على كتفي لكنَّني التويت بعيداً عن لمسته.

«بالمناسبة، سأترك لك لوحة بوسان».

أومأ برأسه، غير مُفَاجَأ على الإطلاق، قطعة الغار الصغيرة تلك كانت لا تزال عالقة على جبينه، وللغرابة اعتقدته مرَّة إلهاً. تراجع إلى الخلف ورفع ذراعه في تحيَّة غريبة غامضة لم تبدُ وداعاً بقدر ما بدت مباركة ساخرة. مشيت بسرعة في أسفل الشارع المبلَّل، أؤرجح مظلَّتي عبر الشمس والظلِّ

الهارب، والحقيبة تتدلَّى إلى جنبي. في كلِّ خطوة تخبط الحقيبة وحملها على قصبة رِجلي. لم أهتمَّ.

*

آمل ألَّا تشعر الآنسة فانديلور بخيبة أمل كبيرة حين تصل إلى التوضيح النهائيِّ- ليس لديَّ أدنى شكّ الآن في أنَّها كانت هي من سيرسلها نيك. معظم الأشياء الحسَّاسة كنت دمَّرتها بالفعل؛ هنالك محرقة فعَّالة للغاية في القبو. بالنسبة لهذا- ماذا، هذه المذكّرات؟ هذه المذكّرات الخياليَّة؟- سأتركها لها لتقرِّر الطريقة الفضلى للتخلُّص منها. أتخيَّل أنَّها سوف ترسلها مباشرة إليه. لطالما كان لديه فتياته. كيف ظننت أنَّ سكراين هو من أرسلها إليَّ؟ كانت لديَّ أشياء كثيرة مغلوطة للغاية. الآن نجلس هنا، المسدَّس وأنا، في تناجٍ صامت. كاتب مسرحيٌّ من القرن التاسع عشر، لا أستطيع في هذه اللحظة أن أتذكَّر من كان، لاحظ بذكاء أنَّه إذا ظهر المسدَّس في الفصل الأوَّل فإنَّه من المحتَّم سيطلق النار في الفصل الثالث. حسناً *le dernier acte est sanglant*...[155]... هذا كثير جدّاً لرهاني على باسكال؛ هي فكرة مبتذلة بطبيعة الحال.

يا لها من سماء نبيلة، هذا المساء، من الأزرق الشاحب، إلى لون الكوبالت، إلى الأرجوانيِّ الغنِّي، وجبال الغيوم الجليديَّة العظيمة، لون الثلج المتَّسخ مع حواف نحاسيَّة ناعمة، تتقدَّم من الغرب إلى الشرق، متباعدة، بجلال، دون صوت. إنَّه نوع السماء التي أحبَّ بوسان أن يضعها فوق دراماه النبيلة المتمثِّلة في الموت والحبِّ والخسارة. هناك عدد من البقع الواضحة؛ أنا

---

(155) بالفرنسيّة، في الأصل، وتعني الفصل الأخير دمويّ. (م)

أنتظر واحدة في شكل عصفور.

في الرأس، أو عبر القلب؟ الآن ثمَّة معضلة.

أبي، إنَّ البوَّابةَ مفتوحة[156].

(156) في أوّل صباح للشاعر وليام بليك، في قرية فلبيم، خرج الشاعر من كوخه، فشاهد فلّاحين يحرثان الأرض، الأب وابنه الذي صرخ: أبي إنَّ البوَّابةَ مفتوحة. وهذه الكلمات عدَّها بليك في إحدى رسائله كلمات تمهيديّة لحياته الجديدة بعيداً عن حياة صخب لندن. (م)



جون بانفيل، روائي ومحرّر أدبي أيرلندي، وُلد في ويكسفورد عام 1945. يكتب تحت اسم آخر (بنيامين بلاك) روايات مختلفة عن تلك التي يكتبها باسمه الأوّل. له قُرابة الأربع عشرة رواية، من بينها كتاب الشهادة (1989) وكسوف (2000) والمنبوذ (1997) والبحر (2005)، وهو المرشّح الأيرلندي الأكثر بروزًا لنيل جائزة نوبل للآداب. نال جائزة مان بوكر، وفرانز كافكا، وغيرها كثير. لطالما قورنَت كتابات بانفيل بنصوص ألبير كامو ودوستويفسكي، وأنه «الوريث الشرعي لبروست من خلال نابوكوف». يعيش مع زوجته وأبناءه في دبلن.

عهد صبيحة. مترجم ومحرر من سوريا.

عمل محـرّرًا معتمدًا في الهيئة العامّة للكتاب في دمشـق، ونُشـرت ترجماتـه ومقالاتـه في عـدّة صحـف عربية.

ترجـم إلى العربيـة كتـاب فرجينيـا وولـف «غرفـة تخـص المـرء وحـده» و«بيـت تسـكنه الأشـباح» وروايـة بـول بيتي «الخائـن»، وروجر سـكروتون «الجمـال» وغيرها.

يُدير تحرير موقع bostah.com

المُحَصَّن

تغوص رواية «المحصَّن» في عالم فيكتور ماسكِل، وسرده المتخيَّل لعالم الجاسوسيَّة وأسراره. وتكشف عن شخصيَّة مزدوجة معقَّدة: فهو إيرلنديّ وإنكليزيّ؛ خائن ومغفَّل. إنَّها رواية عن الجواسيس، لكنَّها ليست رواية جاسوسيَّة على الإطلاق، إنَّها بالأحرى سيرة ذاتيَّة خياليَّة مكتوبة بأناقة لا تُصدَّق عن أحد عناصر حلقة كِمبردج الذين نقلوا الأسرار إلى الشيوعيِّين، قبل الحرب العالميَّة الثانية، وأثناءها، وبعدها. تمكَّن بانفيل من الولوج إلى أعماق أبطاله على نحو خلَّاب وآسر في سرد لأحداث امتدَّت عشرات السنين.




ISBN 978-9948-468-06-6

Cover design: Hassan Almohtasib | Painting: Paul Cézanne